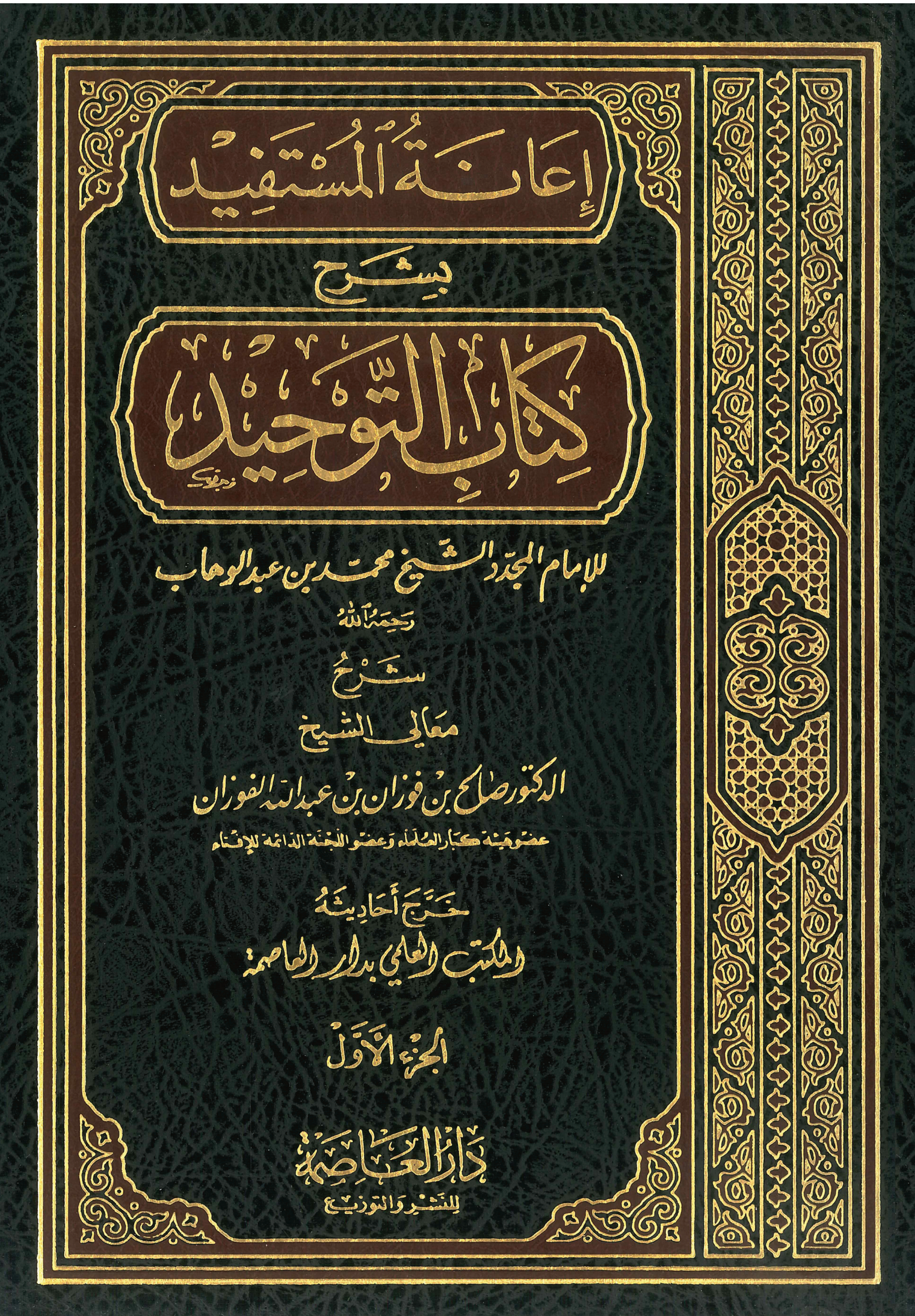


إعانة المستفيد
بشرح
كتاب التوحيد
للإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب
رحمه الله
شرح
معالي الشيخ
الدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان
عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء
خرج أحاديثه
المكتب العلمي بدار العاصمة
الجزء الأول
دار العاصمة
للنشر والتوزيع

إعانة المستفيد

بشرح

كتاب التوحيد

١

ح دار العاصمة للنشر والتوزيع ، ١٤٢٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

محمد بن عبد الوهاب بن سليمان

إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد. / محمد بن عبدالوهاب بن سليمان ؛

صالح بن فوزان الفوزان - الرياض ، ١٤٢٩هـ

٢مج

ردمك ٢-٤٣-٦٩٢-٩٩٦٠-٩٧٨ (مجموعة)

٩-٤٤-٦٩٢-٩٩٦٠-٩٧٨ (ج١)

١- التوحيد أ- الفوزان، صالح بن فوزان (محقق) ب- العنوان

ديوي ٢٤٠ ١٤٢٩/١٠٥٤

رقم الإيداع: ١٤٢٩/١٠٥٤

ردمك: ٢-٤٣-٦٩٢-٩٩٦٠-٩٧٨ (مجموعة)

٩-٤٤-٦٩٢-٩٩٦٠-٩٧٨ (ج١)

الطبعة الأولى

١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م

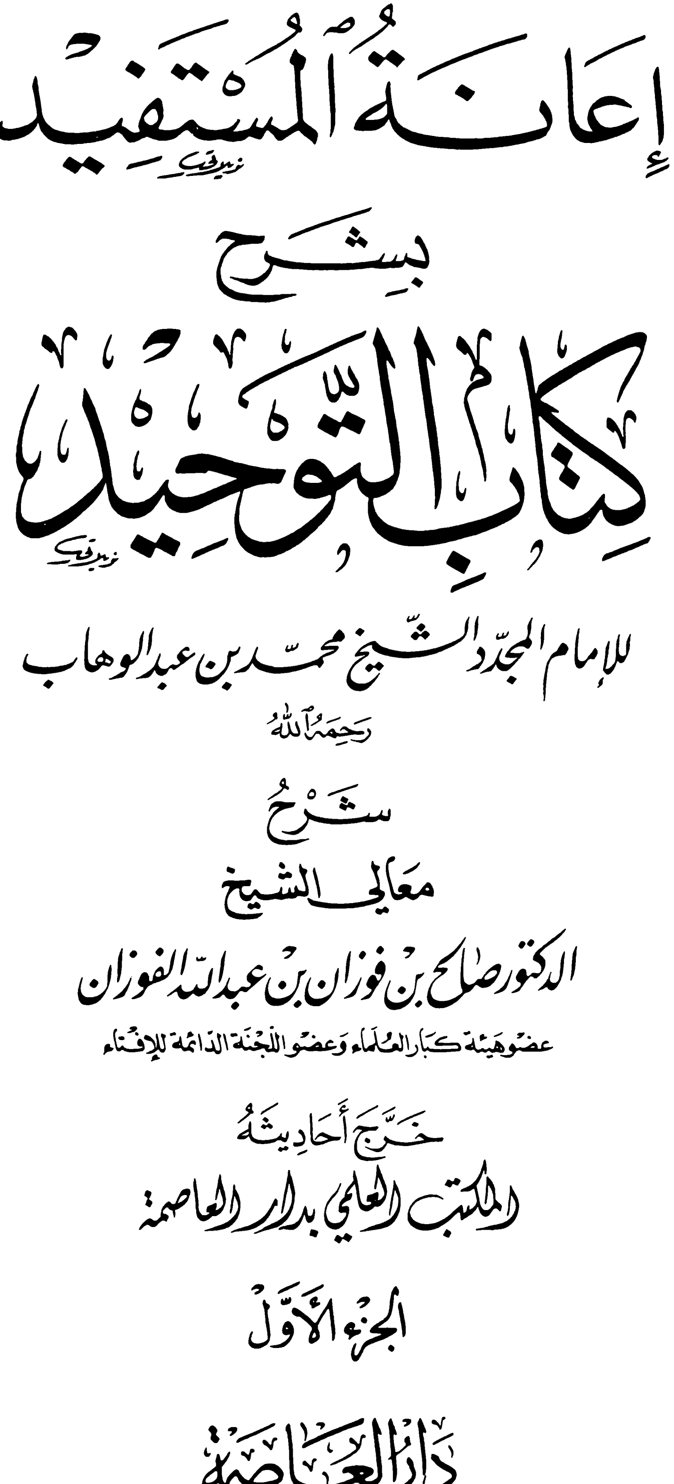
دار العاصمة

المملكة العربية السعودية

الرياض - ص ب: ٤٢٥٠٧ - الرمز البريدي: ١١٥٥١

المركز الرئيسي: شارع السويدي العام

هاتف: ٤٤٩٧٢٢٤ / فاكس: ٤٤٩٧٢٢٥



إعانة المستفيد

بشرح

كتاب التوحيد

للإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب

رحمه الله

شرح

معالي الشيخ

الدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء

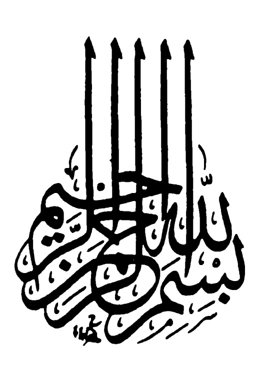
خرج أحاديثه

المكتب العلمي بدار العاصمة

الجزء الأول

دار العاصمة

للنشر والتوزيع



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقـــدّمَة

الحمدُ للهِ الذي خلقَ الخلقَ ليعبدوهُ، وأسبغَ عليهم نعمَهُ ليشكروهُ.

والصلاةُ والسلامُ على نبينا محمدٍ، دعا إلى توحيدِ الله وصبرَ على الأذى في سبيلِ ذلك حتى استقرتْ عقيدةُ التوحيدِ، واندحرَ الشركُ وأهلُهُ.

وعلى آلِهِ وأصحابِهِ الذينَ اقتَفَوْا أثَرهُ وساروا على نهجِهِ، وجاهدوا في الله حقَّ جهادٍ.

أما بعدُ:

فإن التوحيدَ هو الأصلُ في بني آدم، والشركُ طارئٌ ودخيلٌ، كما قالَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنه: (كانَ بينَ آدمَ ونوحٍ عشرةَ قرونٍ كلُّهُم على التوحيدِ)[١].

وأولُ ما حدثَ الشركُ في الأرضِ في قومِ نوحٍ لمَّا غلَوْا في الصالحينَ، وصوروا صورَهم، فآل بهم الأمرُ إلى أَنْ عبدُوهُم من دونِ الله، فبعثَ الله نبيَّهُ نوحاً عليهِ الصلاةُ والسلامُ ينهى عن الشركِ ويأمرُ بعبادةِ الله وحدَه لا شريكَ له، وجاءَ الرسلُ من بعدِه كلُّهم على هذا النمطِ، كما قالَ تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وأما الشركُ في قومِ موسى فحدثَ عندما اتخذوا العجلَ، وكانَ موقفُ كليمِ الله موسى وأخيهِ هارونَ عليهما السلام معهم ما قصَّهُ الله في كتابِهِ[٢].

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٨٠) وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه.

(٢) انظر سورة الأعراف (١٤٨) وما بعدها.

وأما الشركُ في النصارى فحدثَ بعدَ رفعِ المسيحِ عليه السلام إلى السماءِ، على يدِ اليهودي (بولس)[١]، الذي أظهرَ الإيمانَ بالمسيحِ مكراً وخداعاً، فأدخلَ في دينِ النصارى التثليثَ وعبادةَ الصليبِ، وكثيراً من الوثنيات.

وأما الشركُ في بني إسماعيلَ عليه السلام وهم العربُ فحدثَ على يدِ عمرو ابنِ لحي الخزاعي[٢]، الذي غيرَ دينَ إبراهيمَ عليه السلام وجلبَ الأصنامَ إلى أرضِ الحجازِ، وأمرَ بعبادتِها.

وأما الشركُ في بعضِ المسلمينَ فحدثَ على يدِ الشيعةِ الفاطميين بعد المائةِ الرابعة، حينما بَنوا المشاهدَ على القبورِ، وأحدثوا بدعةَ الموالدِ في الإسلامِ، والغلوَّ في الصالحين[٣].

وكذلكَ عندما حدثَ التصوفُ المنحرفُ المتمثِّل بالغلوِ في المشائخِ وأصحابِ الطرق.

ولكنَّ الله سبحانه قد تكفلَ بحفظِ هذا الدينِ بعدَ رسولِ الله ﷺ على يدِ العلماءِ المصلحينَ والدعاةِ المجددينَ، الذينَ يبعثُهُم الله على رأسِ كلِّ مائةِ سنةٍ، كما في الحديث[٤]، فبقِيَ للحقِّ أنصارُهُ وللدينِ حماتُهُ، كما قالَ النبي ﷺ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الحَقِّ ظَاهِرِينَ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ**

---

(١) انظر «هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى» لابن القيم الجوزية (١٧٣).

(٢) انظر «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» (١٧/ ٤٦١)، و«فتح الباري» (٨/ ٨٥٢) طبعة دار السلام.

(٣) انظر «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» (٢٧/ ١٤٤) و«الإرشاد على صحيح الاعتقاد» للمؤلف (٣٠٤).

(٤) أي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند رسول الله ﷺ: قال: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها». أخرجه أبو داود برقم (٤٢٩١) وغيره. قال السخاوي في «المقاصد الحسنة» (١٢١): (وسنده صحيح ورجاله ثقات).

حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ الله تبارك وتعالى وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ»[١].

ولهذا يقولُ الإمامُ أحمدُ بنُ حنبل رحمهُ الله في مقدمةِ كتابه: «الرد على الجهمية»[٢]: (الحمدُ لله الذي جعلَ في وقتِ كلِّ فترةٍ من الرسلِ بقايا من أهلِ العلمِ؛ ينفونَ عن كتابِ الله تحريفَ الغالينَ، وانتحالَ المبطلين، وتأويلَ الجاهلين، ويدعونَ مَنْ ضلَّ إلى الهدى، ويصبرونَ منهم على الأذى، فكم من ضالٍّ قد هدوهُ، وكم من قتيلٍ لإبليسَ قد أحيوهُ، فما أحسنَ أثرَهم على الناسِ وأقبحَ أثرَ الناسِ عليهم).

ومن هؤلاء الذين وصفهُمُ الإمامُ أحمدُ بهذهِ الأوصافِ العظيمةِ؛ شيخُ الإسلام الإمامُ المجددُ الشيخُ: محمدُ بنُ عبدِالوهاب رحمَهُ الله، فقد وقفَ موقفاً عظيماً، من مواقفِ هؤلاءِ الأئمةِ في مواجهةِ التغيراتِ التي حدثتْ في مجتمعِهِ؛ من انحرافٍ في العقيدةِ، وانقسامٍ في الحكمِ، واستشراءٍ للعاداتِ الجاهليةِ في الحاضرةِ والباديةِ، شركٍ في العبادةِ، ومخالفاتٍ للشرعِ في الحكمِ بين الناسِ، ورواجٍ لسوقِ الشعوذةِ والسحر، وتعطيلِ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِّ عن المنكرِ؛ رغمَ كثرةِ وجودِ العلماءِ فيهم؛ المتبحرين في مسائلِ الفقهِ الفرعية، لكنَّ العبرةَ ليستْ بوجودِ العلماءِ ووفرتِهم دونَ أن يكونَ لهم أثرٌ فعالٌ في الإصلاحِ، فبنوا إسرائيلَ هلكوا وفيهم العلماءُ، فلمَّا لم يقمْ علماؤُهم بما أوجبَ الله عليهم من النصحِ والإصلاحِ تَسلطَ عليهم الشيطانُ. قالَ -تعالى-: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المائدة: ٦٢، ٦٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٦٠) ومسلم (١٩٢١) والترمذي (٢٢٢٩) وابن ماجه (١٩).

(٢) (ص٦).

إنه لما وقفَ هذا الإمامُ من مجتمعهِ المنحرفِ أكثرَ ممن فيه موقفَ الصدقِ والنصيحةِ؛ خلص هذا المجتمعُ مما وقعَ فيه من أسبابِ هلاكِه، مع أنه رجلٌ واحدٌ ولكنْ كما قيلَ[(١)]:

والناسُ ألفٌ منهموا كواحدٍ وواحدٌ كالألفِ إنْ أَمْرٌ عَنَا

وهكذا سنةُ الله لا تتغيرُ، فالأمةُ لا تنهضُ من كبوتِها ولا تستيقظُ من رقدتِها إلَّا بتوفيقِ الله ثم بجهودِ علمائِها المخلصينَ ودعاتِها الناصحينَ، ورحِمَ الله الإمامَ مالكاً حيثُ يقولُ: (لا يصلحُ آخرُ هذهِ الأمةِ إلَّا ما أصلحَ أولَها)[(٢)].

وما امتازتْ هذهِ الأمةُ على غيرِها من الأممِ إلَّا بقيامِها بالإصلاحِ والدعوةِ إلى الله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤].

* الشيخ محمد بن عبدالوهاب و(كتاب التوحيد):

هو الإمامُ العلامةُ، والمجاهدُ الصابرُ، والداعي إلى الله على بصيرةٍ، والمجددُ لدينِ الله في القرنِ الثاني عشر من هجرةِ المصطفى ﷺ؛ الشيخ: محمدُ بنُ عبدِالوهابِ بنِ سليمانَ المُشَرَّفيُّ التميميُّ النجدِيُّ.

ولد في العيينةَ سنةَ ١١١٥هـ، ونشأ في بيتِ علمٍ ورئاسةٍ وشرفٍ، فأبوه عبدُ الوهابِ كان فقيهاً قاضياً، وجدُّهُ سليمانُ كانَ مفتي بلادِ نجدٍ ورئيسَ علمائِها، وأعمامُهُ وأبناءُ أعمامِهِ كانوا أهلَ رفعةٍ وعلمٍ ومكانةٍ، كانتْ بلدتُهُ العيينةُ وما حاورَها من بلادِ نجدٍ تعجُّ بالعلماءِ، الذينَ كانوا على صِلةٍ وثيقةٍ بعلماءِ الحنابلةِ

---

(١) والبيت لابن دريد الأزدي.

(٢) انظر «منهاج السنة النبوية» (٢/ ٤٤٤).

في الشامِ وفلسطينَ وغيرِها فكانَ فيهم فقهاءُ متبحرونَ في الفقهِ. حفظ الشيخُ محمدٌ القرآنَ صغيراً، وقرأ الفقهَ والتفسيرَ والحديثَ على أبيهِ وعلماءِ بلدِهِ، حتى ألَّم بما عندَهُم في وقتٍ يسيرٍ، مع التروي والمناقشةِ والتدقيقِ، حتى أُعْجبَ بهِ والدُهُ ومشائخُهُ وزملاؤُهُ.

ثم تطلعَ إلى المزيدِ من العلمِ فأقبلَ على كتابِ الله، وتفسيرِهِ قراءةً وتدبراً واستنباطاً، وعلى سنةِ الرسولِ ﷺ وسيرتِهِ، واستنتجَ منهما الاستنتاجاتِ العجيبةَ، وقد دوَّن هذهِ الاستنباطاتِ المفيدةَ في كتبهِ ورسائلِهِ وفتاويهِ، وعكفَ على كتبِ الشيخينِ: شيخِ الإسلامِ ابنِ تيميةَ. والشيخِ الإمامِ ابنِ القيمِ، خصوصاً كتبَ العقيدةِ.

ثم علتْ به همتُهُ وطموحاتُهُ فسافرَ إلى علماءِ الحرمينِ وعلماءِ الأحساءِ وعلماء البصرةِ في العراقِ، والتقى بهم، وأخذَ عنهم علماً غزيراً في الفقهِ والحديثِ وعلومِهِ، حتى تضلعَ بالعلمِ، وأَخْذِهِ، عن كلِّ من تمكنَ من الالتقاءِ به من علماءِ عصرِهِ، ومطالعة كتبِ من تقدمهم من الأئمةِ المحققينَ، ودراسة التفسيرِ والحديثِ دراسةً فاحصةً مدققةً.

وعندما نظر إلى واقع أهل عصره وجدَ البونَ شاسعاً بينَ هذا الواقعِ وبينَ ما دلَّ عليه الكتابُ والسنةُ، وما كانَ عليهِ أئمةُ السلفِ الصالحِ في الاعتقادِ والمنهجِ.

فالعلماءُ في وقتِه في الغالبِ مشغولونَ بدراسةِ الفقهِ وعقائدِ علماءِ الكلامِ المخالفةِ لاعتقادِ السلفِ، دونَ تمييزٍ بين الصحيحِ والسقيمِ.

والعامةُ منهمكونَ في البدعِ والخرافاتِ والشركياتِ ودعاءِ الأمواتِ، دونَ أن يهبَّ أحدٌ من العلماءِ -فيما نعلمُ- لإصلاحِ هذا الواقعِ الأليمِ، والمرتعِ الوخيمِ.

عند ذلك لم يسعِ الشيخَ محمداً رحمهُ الله السكوتُ عن التغييرِ والإنكارِ، والدعوةِ إلى الإصلاحِ، والعودةِ إلى كتابِ الله وسنةِ رسولهِ ﷺ، وتصفيةِ العقيدةِ

الإسلاميةِ مما علقَ بها، وغيّرَ وجهَها وبهجتَها، وعكّرَ صفوَها ونظرَتها.

فعزمَ على القيامِ بالدعوةِ إلى سبيلِ ربهِ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ، وباشرَ الدعوةَ في بلدِهِ -حريملاء- التي استقرَّ بها والدُهُ، ثم طُردَ منها ثم ذهب إلى العيينةَ ولم يستقرَّ فيها فذهبَ إلى الدرعيةِ فوجدَ فيها القبولَ والترحيبَ على يد أميرِها: محمدِ بنِ سعود رحمهُ الله ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ [الطلاق: ٢-٣].

فواصل الشيخُ رحمهُ الله عملَه في الدعوةِ إلى الله، وراسلَ علماءَ البلدانِ وأمراءَها يدعُوهم إلى الله، ويبينُ لهم ما هُم واقعونَ فيه من مخالفاتٍ، وألفَ الكتبَ، وأجابَ عن استشكالاتِ مَنِ التبسَ عليهم الحق بالباطلُ؛ فاستجابَ لدعوةِ الشيخِ من كانَ رائدَه الحق، وعاندَ من كانَ دافعَهُ التعصبُ للباطل، فلم يرَ الشيخُ رحمهُ الله بداً من جهادِ هؤلاءِ بالحجةِ واللسانِ من قِبَلِه، وبالسيفِ والسنانِ من قِبَلِ ولاةِ الأمرِ من آلِ سعودٍ أثابَهُمُ الله.

فكتبَ الله له النصرَ، ولدعوتِهِ الامتدادَ والانتشارَ؛ نتيجةً لجهادِ الإمامين: محمدِ بنِ عبدِالوهاب، ومحمدِ بنِ سعود -هذا بالحجةِ واللسانِ، وهذا بالسيفِ والسنانِ، وهكذا إذا اجتمعَ كتابُ الله وسيفُ الجهادِ انتصرَ الحقُّ واندحرَ الباطلُ، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٢٥﴾ [الحديد: ٢٥].

ولقد صدقَ الشاعرُ حيثُ يقولُ:

وما هُوَ إلّا الوحيُ أوْ حَدُّ مرهَفِ ... تزيلُ ظُباهُ أَخْدَعَيْ كُلِّ مائلِ

فهذا شفاءٌ للقلوبِ من العَمَى ... وهذا شفاءُ العيِّ من كلِّ جاهلِ

وما هي إلَّا فترةٌ وجيزةٌ حتى دانتِ العبادُ والبلادُ لدعوةِ الحقِّ، واستقامَتْ فيها عقيدةُ التوحيدِ، وامتدَّ خيرُها عبرَ الزمانِ والمكانِ إلى البلادِ البعيدةِ والأجيالِ اللاحقةِ، فلا يزالُ صداها يترددُ، وخيرُها يتجددُ.

وكان من أعظمِ ثمارِها: قيامُ دولةِ التوحيدِ، وتحكيمُ الشريعةِ الغراءِ، التي توالت -ولا تزالُ- ولله الحمدُ على هذه البلادِ مهما عارضَها من معوقاتٍ واعترضَ في طريقها من عقباتٍ: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [الرعد: ١٧].

لقد لقي الشيخُ رحمهُ الله كغيرِهِ من الدعاةِ المصلحينَ معارضاتٍ من خصومِهِ واتهاماتٍ باطلةً.

فقيل عنه: إنهُ يريدُ المُلْك والسيطرةَ والتسلطَ.

وهذا قيلَ في حقِّ الرسلِ عليهم الصلاةُ والسلامُ: إنْ هُوَ إلَّا رجلٌ ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤]، ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٧٨] فكيف بأتباعِهم؟

وقيل: إنه جاءَ بمذهبٍ خامسٍ، ولذلك صاروا يلقبونَ أتباعَهُ بـ(الوهابيةِ) لأنهُ دعا إلى ما يخالفُ ما ألفوه من البدعِ والشركيات.

وهذهِ فريةٌ يكذِّبُها واقعُ دعوتِهِ وكتبُهُ وفتاويهِ، وأنه في الاعتقادِ على عقيدةِ السلفِ، وفي الفقهِ على مذهبِ الإمامِ أحمدَ بنِ حنبلٍ، لم ينفردْ عن المذاهبِ الأربعةِ بقولٍ واحدٍ، فكيفَ يكونُ له مذهبٌ خاصٌّ؟ ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة: ١١١].

ومن أرادَ معرفةَ الشبهاتِ التي أثيرتْ حولَهُ وحولَ دعوتِهِ فليراجعْ كتبَهُ، وما أجابَ به عن تلكَ الشبهِ، والحقُّ واضحٌ ولله الحمدُ وضوحَ الشمسِ لا يُغطيهِ الكذبُ والتلبيسُ فلا يعتمدُ على كلامِ خصومِهِ فيه وفي دعوتِهِ.

ومنهم من أنكرَ ما قامَ به الشيخُ من تجديدٍ وإصلاحٍ، وقالَ: إن حالةَ أهلِ نجدٍ في وقته كانت على الاستقامةِ والصلاحِ، وفيهم علماءُ ودُعاة، وما ذُكر عن دعوةِ الشيخِ وعن فسادِ الأحوالِ قبل دعوتِهِ إنما هو تهويلٌ من المؤرخينَ، وتعتيمٌ على الواقعِ.

وردُّ مثلِ هذا الهراءِ والجحودِ لما هو معلومٌ ومتواترٌ، لا يحتاجُ إلى كثيرِ عناءٍ. وكتبُ خصومِهُ من معاصريهِ وغيرِهِم تعجُّ بالافتراءاتِ والدعوةِ إلى الباطلِ. وما أظنُّ هذه الفكرةَ إلّا من إيحاءِ المستشرقين.

وليس يصحُّ في الأذهانِ شيءٌ إذا احتاجَ النهارُ إلى دليلِ[1]

ومنهم من يقولُ: إن الشيخَ لا يعتبرُ مجدداً لأنه حنبليٌّ مقلدٌ.

وكأنَّ هذا القائلَ يرى أنَّ العالِمَ لا يكونُ مجدداً حتى يخرجَ على المذاهِب الأربعةِ وعن أقوالِ الفقهاءِ، ومثلُ هذا لا يَعْرِفُ معنى التجديدِ، فهو يهرِفُ بما لا يعرفُ[2].

إن التجديدَ معناهُ: إزالةُ ومحاربةُ ما علقَ بالدينِ من خرافاتٍ وشركيات ومبتدعاتٍ ما أنزلَ الله بها من سلطانٍ، وبيانُ الدينِ الحقِ والمعتقدِ السليمِ. كما كان عليهِ رسولُ الله ﷺ، وليسَ من شرطِ ذلكَ أن يخرجَ المجددُ على المذاهبِ الأربعةِ وأقوالِ الفقهاءِ ويأتي بفقهٍ جديدٍ.

وها هُمُ الأئمةُ من المحدثينَ الكبارِ كانوا مذهبيينَ، فشيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ

(١) يقول ابن القيم -رحمه الله- في «مدارج السالكين» (١/ ٦٠): وسمعتُ شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية قدَّس الله روحه يقول: كيف يطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء، وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت:

وليس يصحُّ في الأذهانِ شيءٌ إذا احتاجَ النهارُ إلى دليلِ

(٢) مثل عربي يضرب لمن يتعدى في مدح الشيء قبل تمام معرفته، انظر «مجمع الأمثال» للميداني (٢/ ٢١٩).

وابنُ القيم كانا حنبليين، والإمامُ النوويُّ وابنُ حجرٍ كانا شافعيين، والإمامُ الطحاويُّ كان حنفيًا، والإمامُ ابنُ عبدِ البرِّ كان مالكيًا.

ليسَ التمذهبُ بأحدِ المذاهبِ الأربعةِ ضلالاً حتى يعابَ به صاحبُهُ، ولا نقصًا في العلمِ. بل إنَّ الذي يخرجُ عن أقوالِ الفقهاءِ المعتبرينَ وهو غيرُ مؤهلٍ للاجتهادِ المطلقِ هو الذي يعتبرُ ضالاً وشاذًا.

والشيخُ رحمهُ الله لا يأخذُ قولَ المذهبِ الذي ينتسبُ إليه قضيةً مسلمةً حتى يعرضَهُ على الدليلِ، فما وافقَ الدليلَ أخذَ به، ولو لم يكنْ في المذهبِ الذي يقلّده إذا وافقَ قولَ أحدِ الأئمةِ الآخرين، لأن هدفَهُ موافقةُ الدليل، وهذا في حدِّ ذاته يعتبرُ تجديدًا في الفقهِ -أيضًا- بخلافِ التقليدِ الأعمى والتعصبِ الممقوت.

وأما **(كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد)** فهو من أعظمِ مؤلفاتِ الإمامِ المجددِ الشيخ: محمدِ بنِ عبدِالوهاب.

أَلَّفهُ في بيانِ توحيدِ الألوهيةِ، وهو إفرادُ الله بالعبادةِ وتركُ عبادةِ ما سواهُ، والبراءةُ من ذلكَ، وبيانِ ما يناقضُهُ من الشركِ الأكبرِ، أو ينقصُ كمالَه الواجبَ أو المستحبَ من الشركِ الأصغرِ.

وخص الشيخُ هذا النوعَ من التوحيدِ لأنه هو الذي يُدخِلُ في الإسلامِ، ويُنجي من عذابِ الله، وهو التوحيدُ الذي بُعِثَتْ به الرسلُ وأُنزلتْ به الكتبُ، وخَالف فيه المشركون في كُلِّ زمانٍ ومكانٍ.

وأما توحيدُ الربوبيةِ فقدْ أقرَّ به المشركونَ، ولم يُدْخِلْهم في الإسلامِ، ولم يُحرمْ دماءَهُم وأموالَهم. ولا يُنجِّيهم من النارِ، وإنما هو دليلٌ وبرهانٌ لتوحيدِ الألوهيةِ.

وإن كانَ علماءُ الكلامِ قد أتعبوا أنفسَهم في تحقيقِ هذا النوعِ، وبنَوْا عليه مؤلفاتِهم في العقائدِ، وهو تحصيلٌ حاصلٌ، وسعيٌ بلا طائلٍ، وليس هو التوحيدُ

الذي جاءَتْ به الرسلُ، وإنما التوحيدُ الذي جاءتْ به الرسلُ ودعتْ إليه هو توحيدُ الألوهية. كما قالَ -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ولذلكَ جعلَ الشيخُ موضوعَ هذا الكتابِ الذي نحنُ بصددِ شرحِهِ في توحيدِ الألوهيةِ، وقسَّمَهُ إلى أبوابٍ، وأوردَ في كلِّ بابٍ ما يشهدُ له من الآياتِ والأحاديثِ، فهو مبنيٌّ على الكتابِ والسنةِ: قالَ الله، قالَ رسولُهُ، كما قالَ الشاعرُ[1]:

العلـــمُ قـــالَ الله قـــالَ رسولـــهُ ... قـالَ الـصحابةُ لـيسَ خُلْـفٌ فيـه

مـا العلـمُ نـصبَكَ للخـلافِ سفاهـةً ... بيـنَ الرسـول وبيـن رأي سفيـه

ولم يوردِ الشيخُ رحمهُ الله في هذا الكتابِ إلَّا ما صَحَّ من الأحاديثِ، أو كانَ حسنَ الإسنادِ، أو هو ضعيفُ الإسنادِ وله شواهدُ تقوّيهِ. أو هو داخلٌ تحتَ أصلٍ عامٍّ يشهدُ لهُ الكتابُ والسنةُ، مما ترجمَ له الشيخُ في أبوابِ الكتاب.

ثم إن الشيخَ رحمهُ الله يذكرُ في آخرِ كلِّ باب ما يستفادُ من الآياتِ والأحاديثِ التي أوردَها فيه من مسائلِ العقيدةِ؛ مما يعتبرُ فقهًا لنصوصِ البابِ، بحيثُ يخرجُ القارئُ بحصيلةٍ علميةٍ جيدةٍ من كلِّ بابٍ.

إن هذا الكتابَ مبنيٌّ على الكتابِ والسنةِ، ولم يُبْنَ على قواعدِ المنطقِ ومصطلحاتِ المتكلمينَ التي خطؤُها أكثرُ من صوابها؛ إنْ كانَ فيها صوابٌ. فالقرآنُ الكريمُ كلُّه في التوحيدِ، لأنه إما أمرٌ بعبادةِ الله وتركُ عبادةِ ما سواه. وإما بيانٌ لجزاءِ الموحدينَ، وعقابِ المشركين في الآخرةِ. وإما بيانٌ لنصرِ الله للموحدينَ وعقوبتِهِ للمشركينَ في الدنيا. وإما أمرٌ بالطاعةِ ونهيٌ عن المعصيةِ وذلكَ من حقوقِ التوحيدِ ومكملاتِه. وإما أمرٌ بموالاةِ الموحدينَ والبراءةِ من

---

(١) وهي تنسب للإمام الذهبي -رحمه الله-.

المشركين. وذلك من لوازمِ التوحيدِ. وإما خبرٌ عن الله وأسمائِهِ وصفاتِهِ. وذلك مما يُوجبُ محبتَهُ والخوفَ منه ورجاءَ ما عنده -فالقرآن الكريم- كما يقولُ العلامةُ ابنُ القيم كلُّه توحيدٌ[1].

* شروحُ الكتاب:

لقد نفعَ الله بهذا الكتابِ، وصارَ الطلابُ يحفظونَهُ، والعلماءُ يشرحونَهُ ويوضحونَهُ.

وأولُ مَنْ شرحَهُ حفيدُ المؤلفِ، الشيخُ: سليمانُ بنُ عبدِالله، بشرحٍ وافٍ، لكنه تُوفيَ رحمهُ الله، قبلَ أن يُتمَّهُ. واسمُ شرحِهِ: تيسير العزيز الحميد.

فجاء حفيدُ الشيخِ الآخر، الشيخُ: عبدُالرحمن بنُ حسن، فهذبَ هذا الشرح، وأتمه. واسمُ شرحِه: فتح المجيد.

ثم اختُصِرَ هذا الشرحُ بعدةِ مختصرات:

منها: مختصرُ الشيخِ: حمد بن عتيق واسمُ مختصرِهِ: إبطال التنديد.

ومختصرُ الشيخِ: عبدالرحمن بن قاسم في حاشيته.

ومختصرُ الشيخ: سليمان بن حمدان. وله شروحٌ أخرى قديمةٌ وحديثةٌ.

وهناكَ كتاباتٌ حولَهُ لباحثينَ جامعيين.

نسألُ الله أن يكتبَ الاستمرارَ لنفعِ هذا الكتابِ في الأجيالِ اللاحقةِ، كما انتفعتْ بِهِ الأجيالُ السابقةُ.

* قصتي مع هذا الكتاب:

درّستُ هذا الكتابَ في الرياضِ وفي الطائفِ أثناءَ الإجازةِ الصيفيةِ، وكان

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٤٥٠).

بعضُ الطلابِ يسجلونَ تلكَ الدروسَ، وتشاركُهم إحدى دورِ التسجيل، وعندما أنهيتُ الكتابَ -والحمد لله-، وانتشرتْ تسجيلاتُهُ كثرتْ عليَّ الطلباتُ في تفريغِها من الأشرطةِ وطباعتِها على شكلِ شرحٍ للكتابِ، وكنتُ أرفضُ هذه الطلباتِ وأعتذرُ بأنَّ الكتابَ -ولله الحمدُ- قد شُرِحَ بشروحٍ كثيرةٍ وكافيةٍ، وما جئتُ بجديدٍ، إلَّا أنها لما كثُرتْ عليَّ الطلباتُ في ذلك، قلتُ: لعل في تحقيقِ رغبةِ أصحابِها خيراً: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢١٦]، فأذنتُ بتفريغِ الأشرطةِ، وكتابةِ ما فيها، وأشرفتُ على ذلك، وهذبتُهُ ونقحتُهُ حسبَ استطاعتي، وها هو بينَ يديكَ أيها القارئُ، فما وجدتَ فيه من خيرٍ فهو مِنَ الله، وما وجدتَ فيه من نقصٍ أو خطإٍ فهو بسببِ تقصيري وقصوري، وأنت تفعلُ خيرًا إذا نبَّهتَني وأعنتَني على إصلاحِهِ.

وأسألُ الله لي ولمنْ كانَ سببًا في إخراجِ هذا الكتابِ التوفيقَ للعلمِ النافعِ والعمل الصالح.

وصلى الله وسلمَ على نبيِّنا محمدٍ وآلِهِ وصحبِهِ.

المؤلف

مقدمةُ الشارح

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله وسلم على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعدُ:

فإن عقيدةَ التوحيدِ هي أساسُ الدين، وكلُّ الأوامرِ والنواهي والعباداتِ والطاعاتِ كلها مؤسسةٌ على عقيدةِ التوحيد، التي هي معنى شهادةِ أنْ لا إله إلَّا الله، وأن محمدًا رسول الله، الشهادتانِ اللتانِ هما الركنُ الأولُ من أركانِ الإسلامِ؛ فلا يصحُ عملٌ، ولا تُقبَلُ عبادةٌ ولا ينجو أحدٌ من النارِ ويدخل الجنةَ؛ إلَّا إذا أتى بهذا التوحيدِ، وصحّح العقيدةَ.

ولهذا كان اهتمامُ العلماءِ -رحمهم الله- في هذا الجانبِ اهتمامًا عظيمًا؛ لأنه هو الذي بعثَ الله به رسلَه، وأنزلَ به كتبَه، كما يأتي شرحُهُ -إن شاءَ الله، ثم بعد ما تصحُّ العقيدةُ فإنه حينئذٍ يُطلبُ من الإنسانِ أن يأتيَ ببقيةِ الأعمالِ.

ولهذا سيأتي في الحديثِ: أنَّ النبيَّ ﷺ لما بعثَ معاذًا إلى اليمنِ، قالَ له: **«إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ؛ فليكنْ أولَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وأَنَّ محمدًا رَسُولُ الله، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ الله افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي اليَوْمِ وَاللَيْلَةِ»** إلى آخرِ الحديثِ[١].

الشاهدُ منه: **«فليكنْ أولَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله»**.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٥) ومسلم (١٩).

وقال ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا الله؛ فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجلّ»(١).

فدلّ هذا على أن عقيدةَ التوحيدِ هي الأساسُ الذي يجبُ العنايةُ به أولاً وقبلَ كلِّ شيء، ثم بعدما يتحققُ فإنه يتوجه إلى بقيةِ أمورِ الدين، وأمورِ العبادات.

ولهذا -كما ذكرنا- كان اهتمامُ العلماء -رحمهم الله- بهذا الجانبِ اهتمامًا عظيمًا، ألَّفوا فيه كتبًا كثيرةً، مختصرةً ومطوّلةً، سمُّوها: (كتب التوحيد)، أو (كتب العقيدة) أو (كتب السنة).

ومن هذه الكتبِ هذا الكتابُ الذي بين أيدينا، وهو:

(كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد)

تأليفُ شيخِ الإسلامِ المجددِ في القرنِ الثاني عشر من الهجرةِ النبوية. **الشيخ: محمد بن عبدالوهاب رحمه الله.**

وهذا الكتابُ من أنفسِ الكتبِ المؤلَّفةِ في بابِ التوحيد؛ لأنه مبنيٌّ على الكتابِ والسنةِ، بحيثُ إنه رحمهُ الله، يوردُ في كلِّ بابٍ من أبوابهِ آياتٍ من القرآن وأحاديثَ من السنةِ الصحيحةِ السندِ أو المعنى، وكلامَ أهلِ العلمِ الأئمة؛ الذين بَيَّنوا معاني هذه الآياتِ وهذه الأحاديث، فعل هذا في كلِّ بابٍ من أبوابِ الكتابِ.

فلمْ يكنْ هذا الكتابُ قولاً لفلان أو فلان، أو أنه كلامٌ من عندِ المؤلِّف، وإنما هو كلامُ الله وكلامُ رسولِ الله، وكلامُ أئمةِ هذه الأمةِ من الصحابةِ والتابعين وغيرِهم من الأئمةِ المُقتدى بهم.

فتأتي أهميةُ هذا الكتابِ من هذه الناحية؛ أنه مبنيٌّ على الكتابِ والسنةِ من

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٤٦) ومسلم (٢١).

الآياتِ والأحاديثِ، فلا يُقالُ: إن هذا كلامُ فلان، أو كلامُ ابنِ عبدِالوهاب، بل يُقال: هذا كلامُ الله وكلامُ رسولِ الله، وكلامُ أئمة الإسلام.

وهكذا ينبغي أن يكونَ التأليف.

❊ ❊ ❊

قَالَ شيخُ الإسلامِ مُحمَّدُ بنُ عَبدِالوهَّابِ رَحِمَهُ اللهُ:

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الأول:

كِتَابُ التَّوْحِيدِ

قالَ رحمهُ الله: «﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾» بدأَ كتابَه بـ«﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾»؛ اقتداءً بالنبي ﷺ، حيث كان يكتب «﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾» في أولِ رسائِلِه إلى الناسِ، وكانَ يبدأُ -عليهِ الصلاةُ والسلامُ- أحاديثَهُ معَ أصحابِهِ بـ«﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾».

وقال ﷺ: «**كُلُ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبدأُ فيهِ ببسمِ الله الرحمنِ الرحيم؛ فَهُوَ أَبْتَرُ**»[1] أي: ناقصُ البركة. وفي رواية: (بالحمد لله).

وكما كتبَها سليمانُ عليه السلام فيما ذكرَ الله عنه لمّا كتبَ إلى بلقيسَ ملكةِ سبأ، وقرأتِ الكتابَ على قومِها: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [النمل: ٢٩-٣١].

فالبداءةُ بـ«﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾» في الأمورِ المهمّةِ في المؤلَّفاتِ، والخطبِ، والمحاضراتِ، والأكلِ والشربِ، وجميعِ الأمورِ التي هي من الأمورِ المهمّةِ؛ تُبدأ بـ«﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾» تبركًا بهذه الكلمةِ العظيمةِ، وافتتاحًا للأمورِ بها.

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (١٢١٠) والسمعاني في «أدب الإملاء والاستملاء» (٦١).

ومن هنا نعلمُ أنَّ هؤلاءِ الذينَ لا يكتبونَ «﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾» في أولِ مؤلفاتِهم في هذا العصرِ؛ أنهم قَدْ خالفوا السنةَ، واقتدَوْا بالغربيينَ، وإلَّا فإنَّ المشروعَ في حقِّ المسلمِ أن يبدأَ بهذهِ الكلمةِ في أمورِهِ؛ في مؤلفاتِهِ، في خطبِهِ، في محاضراتِهِ، في رسائلِهِ، إلَّا أنَّ هذه الكلمةَ لا تُكتبُ أمامَ الشعرِ الذي فيه هجاءٌ أو فيه ذَمٌّ، ولا تُكتبُ أمامَ الكلامِ الذي فيه سِبابٌ أو شتمٌ أو كلامٌ قبيحٌ، تُنزّهُ هذهِ الكلمةُ، لا تُكتبُ أمامَ الشعرِ، وأَعني: الشعرَ غيرَ المحترمِ، أما الشعرُ النزيهُ الطيبُ فلا بأسَ، كذلك لا تُكتبُ أمامَ الهجاء، وأمامَ السبِّ والشتمِ، وإنما تُكتبُ أمام الكلامِ النزيهِ، ولهذا جاءتْ هذهِ الكلمةُ العظيمةُ في مبدأَ كلِّ سورةٍ من سورِ القرآنِ العظيم، سوى براءةَ والأنفالِ فإنها لم تأتِ بينهما؛ وقد أجابَ أهلُ العلم عن ذلك، والله أعلم أنهما سورةٌ واحدةٌ، لأنهما في موضوعِ القتالِ، فهما في موضوعٍ واحدٍ وكأنهما سورة واحدة، أما في بقيةِ السورِ فإنها تأتي في أولِ ومطلعِ كلِّ سورةٍ.

ومعناها -كما قرَّر أهلُ العلم-: «﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾» الجار والمجرور متعلق بمحذوف يجبُ أن يكونَ مؤخَّرًا، تقديره: أستعين، بـ«﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾»، أو أبتدئُ بـ«﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾» كتابي ومؤلَّفي، أو ابتدئ كلامي بـ«﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾»، فالجار والمجرور متعلِّقٌ بمحذوفٍ مؤخر[1].

و«﴿ٱللَّهِ﴾ الله» عَلَمٌ على الذاتِ المقدّسةِ، وهو لا يُسمَّى به غيرُ الرّب سبحانهُ وتعالى، لا أحدَ تسمّى بهذا الاسمِ أبدًا، حتى الجبابرةِ، حتى الطواغيت والكفرة، ما أحدٌ منهم سمّى نفسه «﴿ٱللَّهِ﴾» أبدًا، فرعون قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤﴾ [النازعات: ٢٤] ما قال: أنا الله، مع كفرِهِ لم يجرؤْ أن يسمّيَ نفسه هذا الاسم

(١) انظر «تيسير العزيز الحميد» (٢٦) و«مشكل إعراب القرآن» لمكي بن أبي طالب (٢٩-٣٠).

«﴿ٱللَّهِ﴾»، وإنما هذا خاصٌ بالله سبحانهُ وتعالى.

و«الله» معناه: ذو الألوهيةِ، والألوهيةُ معناها: العبادة، يُقالُ: أَلَهَ يأْلَهُ: بمعنى: عَبَد يعبُد[1]، فالألوهية معناها: العبادة، فـ«﴿ٱللَّهِ﴾» معناه: ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، كما جاءَ في الأثرِ عن ابنِ عباسٍ رضيَ الله عنهُ[2].

و«﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾» اسمانِ لله عزَّ وجلَّ يتضمنان الرحمةَ، والرحمةُ صِفةٌ لله عزَّ وجلَّ، وكلُّ اسمٍ لله فإنه يتضمنُ صفةً من صفاته سبحانهُ وتعالى.

و«﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾»: رحمةٌ عامةٌ لجميع المخلوقات.

و«﴿ٱلرَّحِيمِ﴾»: رحمةٌ خاصةٌ بالمؤمنين، كما قالَ -تعالى-: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤٣].

فـ«﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾»: رحمةٌ عامةٌ لجميعِ المخلوقاتِ، حتى الكفارِ والبهائم والدواب إنما تعيشُ برحمةِ الله، وسخّر الله بعضَها لبعض من رحمتِهِ سبحانه وتعالى، فهي رحمةٌ عامةٌ لجميعِ الخلق، بها يتراحمونَ، حتّى إن البهيمةَ ترفعُ رجلَها عن ولدِها رحمةً به.

وأما «﴿ٱلرَّحِيمِ﴾» فإنه رحمةٌ خاصةٌ بالمؤمنين ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤٣].

والرحمة: صَفة من صفاتِ الله عزّ وجلّ تليقُ بجلاله -سبحانه- ليست كرحمة المخلوقِ، وإنما هي كسائرِ صفاتِهِ سبحانه وتعالى، نصِفُهُ بها كما وصَفَ بها نفسَه، ولكن لا نشبّهُ رحمتَه -سبحانه- برحمةِ خلقِهِ.

---

(١) انظر «مفردات ألفاظ القرآن» للأصفهاني (٨٢).

(٢) «تفسير الطبري» (١/ ٥٤).

ثم قالَ بعدَ ذلك: «**كتاب التوحيد**».

قد يسألُ سائلٌ فيقولُ: لِماذا لم يبدأ كتابهُ بالحمدِ لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على النبي ﷺ؟

الجواب: أنه اكتفى رحمهُ الله بـ«﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾»؛ فإنها كافيةٌ في الثناءِ على الله سبحانهُ وتعالى، وكافيةٌ بالابتداءِ.

هذا جوابٌ.

والجوابُ الثاني كما ذكرَ الشارحُ العلامةُ الشيخُ: عبدُالرحمن بنُ حسن رحمهُ الله يقول: (عندي نسخةٌ بخطِّ المؤلِّفِ فيها أنه أبدأُ هذا الكتاب بقولِهِ: الحمدُ لله رب العالمين، والصلاةُ والسلامُ على نبينا محمدٍ)[1].

فإذًا؛ يكونُ في هذهِ النُّسخةِ جَمْعٌ بينَ الفضيلتينِ؛ البداءةُ بـ«﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾»، والبداءةُ بـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهذا أكملُ بلا شكٍّ، ثم قال: «**كتاب التوحيد**».

«**كتاب**»: مصدر كَتَبَ، والكَتْب في اللغةِ معناهُ: الجمعُ، سُمّيَ الكتابُ كتابًا لأنه جَمَعَ الكلماتِ والنصوصَ، ففيهِ معنى الجمعِ، ولذلك سُمّي كتابًا[2]، ومنه «الكتيبة» من الجيشِ، لأنها تجمعُ أفرادًا من الجنودِ، ومنه سُمّي الخرّازُ كاتبًا؛ لأنه يجمعُ بين الرقاعِ.

و«**التوحيد**» مصدر وَحَّدَ توحيدًا، ومعناه: إفرادُ الله سبحانهُ وتعالى بالعبادةِ؛ فمنْ أفردَ الله بالعبادةِ فقد وَحَّدَهُ، يعني: أفردَهُ عن غيرهِ، يُقالُ: وَحَّد وثَنَّى وَثَلّث،

---

(١) انظر «فتح المجيد» (٧).

(٢) انظر «الكليات» للكفوي (٧٦٧) و«تيسير العزيز الحميد» (٣٢).

وَحَّد معناه: جعل الشيء واحدًا، وثَنّى يعني: جعلَ الشيءَ اثنين، وثَلّث: جَعَلَ الشيءَ ثلاثةً، إلى آخره.

فـ«التوحيد» معناه لغةً: إفرادُ الشيءِ عن غَيرِهِ.

أما معناه شرعًا: فهو إفرادُ الله -تعالى- بالعبادةِ. هذا هو التوحيدُ شرعًا.

و«التوحيد» ثلاثةُ أنواعٍ -على سبيلِ التفصيلِ-:

النوعُ الأولُ: توحيدُ الربوبيةِ، وهو: إفرادُ الله -تعالى- بالخلقِ، والرزقِ، والتدبيرِ، والإحياءِ، والإماتةِ، وتدبيرِ الخلائقِ. هذا توحيدُ الربوبيةِ، أيْ: أنهُ لا خالقَ، ولا رازقَ ولا محيي، ولا ضارَّ، ولا نافعَ؛ إلَّا الله سبحانهُ وتعالى. هذا يُسمّى: توحيد الربوبية، وهو: توحيدُهُ بأفعالِهِ سبحانهُ وتعالى، فلا أحدَ يخلقُ معَ الله، ولا أحدَ يرزقُ مع الله، ولا أحدَ يحيي ويميتُ معَ الله سبحانهُ وتعالى.

وهذا النوعُ من أقرّ به وحدَه لا يكونُ مسلمًا؛ لأنه قد أقرَّ بهِ الكفارُ، كما ذكرَ الله -جلَّ وعلا- في القرآنِ في آياتٍ كثيرةٍ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾، [يونس: ٣١]، ﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل: ٦٤]، إلى غيرِ ذلك من الآياتِ التي أخبرُ الله أن المشركينَ يقرّونَ بأنَّ الله هو الخالقُ، والرازقُ، والمحيي، والمميتُ، ومع هذا لا يكونون مسلمين، لماذا؟ لأنهم لم يأتوا بالنوعِ الثاني، الذي هو مدارُ المطلوبِ.

النوع الثاني: توحيدُ الألوهيةِ، ومعناه: إفرادُ الله -تعالى- بالعبادةِ، هذا غيرُ

إفرادِهِ بالخلقِ والرزقِ والتدبيرِ، بل إفرادُ الله بالعبادةِ؛ بأَنْ لا يُعبَدَ إلَّا الله سبحانهُ وتعالى لا يُصَلَّى، ولا يُدعى، ولا يُذبَحَ، ولا يُنذَر، ولا يُحَج، ولا يُعتَمر، ولا يُتصَدق، ولا... إلى آخرِهِ؛ إلَّا لله سبحانهُ وتعالى، يُبتَغَى بذلكَ وجهُ الله سبحانهُ وتعالى.

وهذا هو الذي وقعتِ الخصومةُ فيه بين الرسلِ والأممِ.

أما الأولُ فما وقعتْ فيه خصومةٌ، لأنَّ الأممَ مقِرّةٌ بأنَّ الله هو الخالقُ الرازقُ، المحيي المميتُ، المدبرُ، ولم يُنكِرْ توحيدَ الربوبيةِ إلَّا شُذّاذٌ من الخلقِ، أنكروه في الظاهرِ، ولكنَّهم مستيقنونَ به في الباطنِ، من ذلك: فرعونُ، وإنْ كانَ جحدَ وجودَ الرّب سبحانهُ وتعالى، وقالَ: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢٤] فهذا في الظاهرِ، وإلَّا فهو يقرُّ في قرارةِ نفسِهِ أنه ليس بربٍّ، وأنه لا يخلقُ، ولا يرزقُ، وإنما في قرارةِ نفسِهِ يعترفُ بأنَّ الله هو الخالقُ الرازقُ، كذلك الشيوعيةُ في عصرِنا الحاضرِ جحودُها للرّبِّ، هذا في الظاهرِ، وإلَّا كلُّ عاقلٍ يعلمُ أن هذا الكونَ ما وُجِدَ من دونِ خالقٍ، ومن دونِ مدبِّرٍ، ومن دونِ موجِدٍ، أبدًا، كلُّ عاقلٍ، يعترفُ بتوحيدِ الربوبيةِ.

أما توحيدُ الألوهيةِ والعبادةِ، فهذا قَلَّ من الخلقِ من أقرَّ به، ما أقرَّ بهِ إلَّا المؤمنونَ أتباعُ الرسل -عليهم الصلاةُ والسَّلامُ-، هم الذينَ أقرّوا به، أما عمومُ الكفارِ فإنهم ينكرونَ توحيدَ الألوهيةِ، بمعنى: أنهم لا يُفْردونَ الله بالعبادةِ، حتى وإنْ أقرُّوا بالنوعِ الأولِ وهو: توحيدُ الربوبيةِ وإن عبدوا الله ببعضِ أنواعِ العبادةِ.

ولهذا لما قالَ لهم النبيُّ ﷺ: «**قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا**»[1] قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ

(١) أخرجه ابن خزيمة (١/ ٨٢) وابن حبان (١٤/ ٥١٨) والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٦٦٨) وقال: حديث صحيح الإسناد.

ءَالِهَتِكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِيۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾﴾ [ص: ٥-٨]، فَهُمْ أبَوْا أنْ يقولوا ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ مع أنهُمْ يعترفونَ بتوحيدِ الربوبيةِ، لكنْ أبَوْا أنْ يعترفوا بتوحيدِ الألوهيةِ، الذي هو إفرادُ الله بالعبادةِ، هُمْ يقولونَ: نحنُ نعبدُ الله ونعبدُ معهُ غيرَه من الشفعاءِ والوسطاءِ، الذينَ يقربونَهم -بزعمِهم- إلى الله زُلفى، اتخذوهُمْ وسائطَ -بزعمِهم، وأبَوْا أنْ يُفْردوا الله -جلَّ وعَلا- بالعبادةِ ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ هذا في قومِ نوحٍ، والوتيرةُ واحدةٌ من أولِ الكفارِ إلى آخرِهم ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: ٢٣].

وكذلك عُبَّادُ القبورِ اليومَ، يقولونَ: لا تذرُنَّ الحسنَ والحُسَيْن، والبَّدوي وغيرَهم هؤلاءِ لهم فضلٌ، ولهم مكانةٌ؛ اذبحوا لهم، وانذروا لهم، وطوفوا بقبورِهم، وتبرَّكوا بهم، لا تذروهُمْ، لا تطيعوا هؤلاءِ الجفاةَ الذين يَدْعُونَ إلى تركِ عبادةِ القبور، ولا يعرفونَ حقَّ الأولياءِ. الوتيرةُ واحدةٌ مثلَ قومِ نوحٍ: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: ٢٣].

الحاصلُ: أنَّ **النوعَ الثاني هو توحيدُ الألوهيةِ**، وهو: إفرادُ الله -تعالى- بالعبادةِ، وتركُ عبادةِ مَنْ سِواهُ، وهذا هو الذي بعثَ الله بهِ الرسلَ، وأنزلَ به الكتبَ، كما تقرؤون في هذه الآيات التي سمِعْتُم وكما في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦] ما قالَ: إلَّا ليقروا بأنِّي أنا الرّبُّ، لأنَّ هذا موجودٌ ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦]، ما قال: أن أَقرُّوا بأنَّ الله هو الخالقُ الرازقُ؛ لأن هذا موجودٌ، وهو وحدَهُ لا يكفي.

وهذا النوعُ -توحيدُ الألوهيةِ- جَحَدَهُ المشركونَ، وهُمْ أكثرُ أهلِ الأرضِ في قديمِ الزمانِ وحديثِهِ، أبَوْا أن يتركوا آلهتَهم، وأَنْ يُفْرِدوا العبادةَ لله عزَّ وجل، ويُخْلصوا الدينَ لله عزّ وجل؛ زاعمينَ أنَّ هذه الوسائطَ وهؤلاءِ الشفعاءَ يشفعونَ لهم عندَ الله، وأنهم يقرِّبونهم إلى الله، وأنَّهم... وأنَّهم... إلى آخرِه ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [العنكبوت: ٣٨].

النوع الثالث: توحيدُ الأسماءِ والصفاتِ، بمعنى: أننا نثبتُ لله سبحانهُ وتعالى ما أثبتَه لنفسِهِ، أو أثبتَهُ له رسولُ الله ﷺ من الأسماءِ والصفاتِ، من غيرِ تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومن غيرِ تكييفٍ ولا تمثيلٍ، على حدِّ قولِهِ -تعالى-: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١].

فنثبتُ لله الأسماءَ كما قالَ -تعالى-: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وكذلكَ الصفاتُ، نصِفُ الله عز وجل بما وصفَ بهِ نفسَه؛ أنهُ عليمٌ، وأنهُ رحيمٌ، وأنهُ سميعٌ بصيرٌ، يسمعُ ويُبصرُ سبحانه وتعالى، ويعلمُ، ويرحمُ، ويغضبُ، ويُعطِي ويمنعُ، ويخفضُ ويرفعُ. وهذهِ صفاتُ الأفعالِ.

وصفاتُ الذاتِ كذلكَ؛ أَنَّ له وجهًا -سبحانه، وأنَّ له يدينِ، وأن له سبحانه وتعالى الصفاتِ الكاملةَ، نثبتُ لله ما أثبتَهُ لنفسِه، أو أثبتَهُ له رسولُهُ من صفاتِ الذاتِ ومن صفاتِ الأفعال، ولا نتدخلُ بعقولِنا وآرائِنا وأفكارِنا، ونقولُ: هذهِ الصفاتُ أو هذهِ الأسماءُ موجودةٌ في البشرِ، فإذا أثبتناها شبَّهنا -كما يقولُهُ المعطِّلةُ، بَلْ نقولُ: إنَّ لله سبحانه وتعالى أسماءً وصفاتٍ تليقُ بجلالِهِ سبحانه وتعالى، وللمخلوقينَ أسماءٌ وصفاتٌ تليقُ بهم، والاشتراكُ في الاسمِ، أو

الاشتراكُ في المعنى؛ لا يَقْتضي الاشتراكُ في الحقيقة. خُذْ -مثلاً-: الجنةُ، فيها أعنابٌ وفيها نخيلٌ- كما ذكرَ الله، وفيها رمانٌ، وفيها أسماءٌ موجودةٌ عندَنا في الدُّنيا، لكنْ ليسَ ما في الجنةِ مثلَ ما في الدنيا، أبدًا، ليس النخيلُ التي في الجنةِ مثلَ النخيلِ التي في الدنيا، الرمانُ ليسَ مثلَ الرمانِ الذي في الدنيا، وإنِ اشْتَركَ في الاسمِ والمعنى، كذلك أسماءُ الله وصفاتُه وإن اشتركتْ مع أسماءِ المخلوقينَ وصفاتِهم باللفظِ والمعنى، فالحقيقةُ والكيفيةُ مختلفةٌ، لا يعلمُها إلّا الله سبحانه وتعالى، فلا تشابهَ إذًا في الخارجِ والواقعِ أبدًا، لأنَّ الخالقَ -سبحانَهُ- لا يشبهُهُ شيءٌ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١] ولا يَلْزَمُ من إثباتِ الأسماءِ والصفاتِ التشبيهُ -كما يقولُ المعطِّلةُ والمؤوِّلةُ، وإنما هذا من قصورِ أفهامِهِم، أو ضلالِهِم، ورغبتِهِم عن الحقِّ، وإلّا كلٌّ يعلمُ الفرقَ بين المخلوقِ والخالقِ -سبحانه وتعالى، كما أنَّ المخلوقاتِ نفسَها فيها فوارقُ، فليسَ -مثلاً- الفيلُ مثلَ الهرةِ والبعوضةِ أبدًا، وإن اشتركَتْ، في بعضِ الصفاتِ، البعوضةُ لها سَمْعٌ -مثلاً، والفرسُ له سمعٌ، البعوضةُ لها بصرٌ، والفيلُ والفرسُ لهما بصرٌ، هل يقتِضي هذا أن تكونَ البعوضةُ مثلَ الفيلِ أو مثلَ الفرسِ؟ لا، وإن اشتركتْ في الأسماءِ فلا تشتركُ في الحقائقِ والمعاني.

إذا كان هذا الفارق بينَ المخلوقاتِ، فكيفَ بينَ الخالقِ سبحانه وتعالى والمخلوقين؟

نحن نُقِرّ لله سبحانه وتعالى بما أثبتَهُ لنفسِه أو أثبتَه له رسولُهُ، من غيرِ تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ.

الله -تعالى- قالَ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]، نَفَى المثليةَ وأثبتَ السمعَ والبصَر؛ فدلّ على أنَّ إثباتَ السمع

والبصر وغيرِهما من الصفاتِ لا يقتَضي المثلية ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [النحل: ٧٤].

الله سبحانهُ وتعالى لا يشبهُهُ أحدٌ من خَلْقِهِ.

هذه أنواعُ التوحيدِ الثلاثةُ:

توحيدُ الربوبيةِ: وهذا في الغالبِ لم يُنْكِرْهُ أحدٌ من الخلقِ.

توحيدُ الألوهيةِ: وهذا أنكرَهُ أكثرُ الخلقِ، ولم يُثْبِتْهُ إلَّا أتباعُ الرسلِ -عليهم الصلاةُ والسلامُ- كما قالَ -تعالى-: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: ١١٦] وقالَ تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣] ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦].

ما أثبتَ توحيدَ الألوهيةِ إلَّا أتباعُ الرسل -عليهم الصلاةُ والسلامُ- وهم المؤمنون مِنْ كلِّ أمةٍ، هم الذين أثبتوا توحيدَ الألوهيةِ، وأبى عن الإقرارِ به المشركون في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

والثالث: أثبتهُ أهلُ السنةِ والجماعةِ، فأثبتوا لله الأسماءَ والصفاتِ، وحرّفها وأوّلها الجهميةُ، والمعتزلةُ، والأشاعرةُ، ومشتقاتُهم من سائرِ الطوائفِ التي سارت في ركابِهم؛ فهؤلاء منهم من نَفَاها كُلَّها، منهم من نفى بعضَها وأثبتَ بعضَها، المهمُ أن نعرفَ مذهبَ أهلِ السنةِ والجماعةِ في هذا.

وتقسيمُ التوحيدِ إلى هذهِ الأنواعِ الثلاثةِ مأخوذٌ من الكتابِ والسنةِ وليس تقسيمًا مبتدعًا كما يقولُهُ الجهالُ والضلالُ اليومَ ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصف: ٨]، وليسَ مصدرُ هذا التقسيمِ علمَ

وقولُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ الآية [سورة الذاريات: ٥٦].

الكلامِ وقواعدَ المتكلمينَ التي هي مصدرُ عقائدِ هؤلاء المخذولينَ الذينَ يتكلمونَ بما لا يعرفون، بل هذا التقسيمُ مأخوذٌ بالاستقراءِ من الكتابِ والسنةِ. فالآيات التي تتحدث عن أفعالِ الله وأسمائِهِ وصفاتِهِ فهي في توحيدِ الربوبيةِ. والآياتُ التي تتحدثُ عن عبادةِ الله، وتركِ ما سواه؛ فهي في توحيدِ الألوهيةِ.

* * *

قوله: «**وقولِ الله**» بالكسر معطوف على «**التوحيد**» وهو مجرورٌ بالإضافةِ، (وقول الله -تعالى-) معطوفٌ على المجرورِ، ويجوزُ الرفعُ (وقولُ الله -تعالى-) يكونُ على الابتداءِ.

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦] لاحظوا دِقّةَ الشيخِ رحمهُ الله، قالَ: «**كتاب التوحيد. وقول الله -تعالى-**» ليُبَيّنَ لكمْ ما هو معنى التوحيدِ؟، بأنَّ التوحيدَ معناه: إفرادُ الله بالعبادةِ، وليسَ معناه: الإقرارُ بالربوبيةِ، بل معناه: إفرادُ الله بالعبادةِ، بدليلِ هذهِ الآيةِ وغيرِها.

يقولُ الله -جل وعلا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦] يُبَيِّنُ الله سبحانه وتعالى الحِكمةَ من خلقِهِ للجنِّ وخلقِهِ للإنسِ.

أما ﴿ٱلْجِنَّ﴾ فهم عالمٌ من عالمِ الغيبِ، نؤمنُ بهم، ولكنَّنا لا نراهُم، ولذلكَ سُمُّوا بـ﴿ٱلْجِنَّ﴾ من الاجتنانِ وهو الاستتارُ، ويُقالُ: جَنَّهُ الليلُ إذا سَتَرَهُ، ويقالُ الجنينُ في البطنِ، لماذا سُمِّي جنينًا؟، لأنه مستترٌ، فـ﴿ٱلْجِنَّ﴾ سُمُّوا جنًا لأنهم مستترونَ عن أبصارِنا لا نراهُمْ ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧]، فهم من عالمِ الغيبِ، والإيمانُ بهم واجبٌ، ومن جحدَ وجودَ

الجنِّ فهو كافرٌ؛ لأنه مُكَذِّبٌ لله ورسولِهِ وإجماعِ الأمةِ على وجودِ الجنِّ، وهؤلاءِ الذين أنكروا وجودَهم على أيِّ شيءٍ يعتمدونَ؟، ما يعتمدون على شيءٍ إلَّا لأنَّهم لا يروْنَهم، وهل كلُّ موجودٍ لا بدَّ أن تراه؟ هناك أشياءٌ كثيرةٌ ما تراها وهي موجودةٌ، مثلاً: الروحُ التي فيكَ، هل تراها؟ هل الروحُ التي تحركُكَ؛ تمشي بها وتَقْعُدُ هل تراها؟ والعقلُ موجودٌ ومع هذا لا تراهُ.

الحاصلُ؛ أنه ما كُلُّ شيءٍ موجودٌ لا بد أننا نراه، هناك أشياءُ كثيرةٌ وكثيرةٌ وكثيرةٌ لا نراها، وربما تكونُ تعيشُ معنا، ولله الحِكمةُ سبحانه وتعالى، ومن ذلك ﴿ٱلْجِنَّ﴾ وهم عالمٌ عظيمٌ، إلَّا أننا لا نراهُمْ، وهم مكلَّفونَ مثلَ الإنسِ.

وأما ﴿وَٱلْإِنسَ﴾ معناها: بنو آدم، من الاستئناسِ لأنهم يأنسُ بعضُهم ببعضٍ، ويألفُ بعضُهم بعضًا.

الله سبحانه وتعالى بَيّنَ لنا الحِكمةَ من خلقِهِ الثقلين: الجنِّ والإنسِ، وهي: أنه إنما خلقهم لشيءٍ واحدٍ، وهو: العبادةُ، ولهذا جاءَ بالحصرِ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦] حَصَر الحِكمةَ من خلقِ الجنِّ والإنسِ في شيءٍ واحدٍ وهو: أنهُمْ يعبدونه، فالحِكمةُ من خلقِ المخلوقاتِ هي: عبادةُ الله سبحانه وتعالى، خلقَ الله الجنَّ والإنسَ للعبادةِ، وخلقَ كلَّ الأشياءِ لمصالحِهم، سَخَّرها لهم ليستعينوا بها على عبادتِه سبحانه وتعالى.

ومعنى ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: يفردوني بالعبادةِ، أو تقول بعبارةٍ أخرى: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ ليوحِّدون، لأن التوحيدَ والعبادةَ شيءٌ واحدٌ.

ومع كونِهِ سبحانه وتعالى خلقَهم لعبادتِهِ؛ فمنهم من قامَ بالعبادةِ وعَبَدَ الله، ومنهم من لم يعبدِ الله، إذ لا يلزمُ من كونِهِ خلقَهم لعبادتِهِ أن يعبدوهُ كلُّهم، بل يعبدُهُ من شاءَ الله -سبحانه وتعالى- له الهدايةَ، ويكفرُ به من شاءَ الله له الضلالةَ،

ومعنى: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: إلَّا لآمرُهُم بعبادتي، أو لآمرُهُم وأَنْهاهم، كما قالَ -تعالى-: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٣٦] أي: لا يؤمرُ ولا يُنهَى.

وما دامَ أن الله سبحانه وتعالى خلقَ الثقلينِ لعبادتِهِ فهذا يدلُّ على أن العبادةَ هي الأصلُ، وأنَّ التوحيدَ هو الأصلُ والأساسُ.

ثم قالَ -جلَّ وعَلا-: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾ [الذاريات: ٥٧] هذا فيه بيانُ أنَّ الله -جلَّ وعلا- ليسَ بحاجةٍ إلى عبادتهم، وإنما هُمُ المحتاجونَ إلى عبادةِ الله ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٧-٥٨]، فالله خلقَ الثقلينِ لعبادتِهِ، ولكنهُ -جلَّ وعلا- ليس محتاجًا إلى عبادتِهم، إذًا مَنْ هو المحتاجُ إلى العبادةِ؟. هم العبادُ أنفسُهم.

ولهذا قالَ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [إبراهيم: ٨]، فالله لا تضرُّهُ معصيةُ العاصي، ولا تنفعُهُ طاعةُ المطيع، وإنما الطاعةُ تنفعُ صاحبَها، والمعصيةُ تضرُّ صاحبَها، قالَ -تعالى-: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ﴾ [الزمر: ٧] وفي الحديثِ القدسيِّ[1]، أن الله سبحانهُ وتعالى يقول: «**يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، ولَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا**»، وفي ختام الحديث العظيم، قال: «**يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا؛ فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ الله، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ**».

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

وَقَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [سورة النحل: ٣٦].

والله يقولُ: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾ [الذاريات: ٥٧]، لا ليتكثّرَ بهم من قِلّةٍ، ولا ليتعزّزَ بهم من ذِلَّةٍ سبحانهُ وتعالى، وإنما خلقَهُم لعبادتِهِ، ومصلحةُ العبادةِ راجعةٌ إليهم هم.

فهذهِ الآيةُ فيها بيانُ معنى (التوحيدِ) وأنه: العبادةُ، وليسَ «**التوحيد**» المطلوبُ معناه: الإقرارُ بالربوبيةِ - كما يقولُ الضُّلالُ، وإنما معناهُ العبادةُ، أي إخلاصُ العبادةِ لله سبحانهُ وتعالى.

* * *

قالَ: وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] يُخبِر سبحانهُ وتعالى أنه بعثَ في كلِّ أمةٍ، و(الأمةُ) معناها: الجماعةُ والجيلُ والطائفةُ من الناسِ ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾، و(الرسول) هو: مَنْ أُوحِيَ إليهِ بشرعٍ وأُمِرَ بتبليغه، والرسلُ كثيرونَ، منهم من سَمّى الله -جلَّ وعلا- لنا في القرآنِ، ومنهم من لم يُسَمِّ لنا ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤]، فنحنُ نؤمنُ بجميعِ الرسلِ من أوّلِهم إلى آخرِهم، من سمَّى الله لنا ومن لم يسمِّ، والإيمانُ بالرسلِ أحدُ أركانِ الإيمانِ الستة.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] هذا مِثْل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، فكما أنَّ الله خلقَ الخلقَ لعبادتِهِ كذلكَ أرسلَ الرسلَ -أيضًا- لعبادتِهِ سبحانه وتعالى، ما أرسلَ الرسلَ يُعلِّمُون الناسَ الفلاحةَ والزراعةَ والصناعةَ، ولا

ليعلموهُـم الأكلَ والشربَ، ولا ليعلموهم أَنْ يُقروا بوجودِ الربِّ والربوبيةِ، إنما أرسلَ الرسلَ ليأمروا الناسَ بعبادةِ الله سبحانه وتعالى الذي هو ربُّهُم، والذي يعترفونَ أنهُ ربُّهم وخالقُهُم سبحانه وتعالى.

﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ هذا أَمرٌ، ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ هذا أمرٌ بمعنى النَّهي. والطاغوتُ: مأخوذٌ من الطغيانِ، وهو: مجاوزةُ الحَدِّ في كلِّ شيءٍ، والطاغوتُ يُطلَقُ ويُرادُ به الشيطانُ، وهو رأسُ الطواغيتِ -لعنهُ الله- ويُطلَقُ ويُرادُ بِهِ الساحرُ والكاهنُ، والحاكمُ بغيرِ ما أنزلَ الله، والذي يأمرُ الناسَ باتباعِهِ في غيرِ طاعةِ الله، فالطاغوتُ -كما يقولُ ابن القيمِ-(١): «**كل ما تجاوزَ بِهِ العبدُ حَدَّه من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاعٍ في غيرِ طاعةِ الله فهو طاغوتٌ**».

فالله أمرنا بعبادتِهِ سبحانه وتعالى واجتنابِ الطاغوتِ، والمرادُ بالطاغوتِ هنا: كلُّ ما عُبِد من دونِ الله من الأصنامِ والأوثانِ، والقبورِ والأضرحةِ وغيرِ ذلك، كلُّها تُسَمَّى طواغيتُ، لكنْ من عُبِدَ مِنْ دونِ الله ولم يرضَ بذلكَ فهذا لا يُسمَّى طاغوتًا، مثلَ: عيسى عليه السلام؛ كذلكَ: عبادُ الله الصالحينَ كالحسنِ والحسينِ، والأولياءُ الذين لم يرضَوْا أن يُعبَدوا من دونِ الله؛ هؤلاءِ لا يُسَمَّوْن طواغيت، ولكنْ عبادتُهم عبادةٌ للطاغوتِ الذي هو الشيطانُ، فهؤلاءِ الذينَ يعبدونَ الحسينَ وأمثالَه، هؤلاءِ يعبدونَ الشيطانَ؛ لأنه هو الذي أمرَهُم بهذا: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٤٠ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّ﴾[سبأ: ٤٠، ٤١] يعني: الشياطين، ﴿أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾.

فـ«﴿ٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾» يعني: كُل ما يُعبدُ من دونِ الله عزَّ وجلَّ.

---

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ٥٠).

وفي الآيةِ الأُخرى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦] فهذا هو معنى «**لا إله إلا الله**»، لأن «**لا إله إلا الله**» معناها: الكفرُ بالطاغوتِ والإيمانُ بالله، مثلَ قولِهِ: «﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾» نفيٌ وإثبات.

ولاحظوا قولَه: «﴿وَٱجۡتَنِبُواْ﴾»، ما قالَ: اتركوا عبادةَ الطاغوتِ؛ لأنَّ «اجتنبوا» أبلغ؛ يعني: اتركوا كُلَّ الوسائلِ التي توصِّلُ إلى الشركِ، والاجتنابُ أبلغُ من التركِ، فالاجتنابُ معناه: أننا نتركُ الشيءَ ونتركُ الوسائلَ والطرقَ التي تُوصِّل إليه، فهذه الآيةُ فيها: أنَّ الرسلَ بُعثوا بالتوحيدِ، الذي هو عبادةُ الله وتركُ عبادةِ الطاغوتِ، من أولِهم إلى آخرِهم.

إذاً جميعُ الرسلِ جاءوا بالدعوةِ إلى التوحيدِ والنهيِ عن الشركِ، هذه مِلَّةُ الرسلِ -عليهم الصلاةُ والسلامُ-، وهي مِلّةٌ واحدةٌ، وإن اختلفتْ شرائعُهم، إلَّا إنَّ أصلَ دينِهم وعقيدتِهم هو: التوحيدُ، وعبادةُ الله في كلِّ وقتٍ بما شرعَ، فمثلاً: الصلاةُ إلى بيتِ المقدسِ في أوّلِ الإسلامِ[1]؛ عبادةٌ لله، لأنَّ الله أمرَ بها، لكنْ بعدَما نُسِخَتْ وحُوِّلَتْ القِبلةُ إلى الكعبةِ صارتِ العبادةُ هي الصلاةُ إلى الكعبةِ، والصلاةُ إلى بيتِ المقدسِ أصبحَتْ منتهيةً، فمَنْ صلَّى إلى بيتِ المقدسِ بعد النسخِ يُعتَبرُ كافرًا، فعبادةُ الله في كلِّ وقتٍ بما شرعَهُ في ذلكَ الوقتِ، وإذا نُسِخ فإنه يُنتَقَلُ إلى الناسِخِ ويُتركُ الدينُ المنسوخُ، فدينُ الرسلِ واحدٌ وإن اختلفتْ شرائعُهم، وقد شبَّهَهم النبيُّ ﷺ بالإخوةِ لعلاتٍ، وهمُ الإخوةُ من الأبِ،

(١) انظر تفصيل ذلك في «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٩٣) عند تفسيره الآية رقم (١٤٢) وما بعدها من سورة البقرة، وانظر مرويات الصلاة إلى بيت المقدس في أول الإسلام في «الصحيحين»، البخاري برقم (٣٩٩) ومسلم برقم (٥٢٥).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ الآية [سورة الإسراء: ٢٣].

أبوهُمْ واحدٌ ولكنْ أمهاتُهم مختلفاتٌ، كذلكَ الرسلُ دينهُم واحدٌ وشرائعُهُم مختلفةٌ(١)، حسبَ حِكمةِ الله سبحانه وتعالى، لأنَّ الله يشرِّعُ لكلِّ وقتٍ ما يناسبُهُ، ولكلِّ أمةٍ ما يُصلِحُها وهو أعلمُ سبحانه وتعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] فما دامَ الدينُ لم يُنسَخْ فهو عبادةٌ لله، وإذا نُسِخَ فالعبادةُ لله هي الانتقالُ إلى الناسِخِ وتركُ المنسوخِ.

﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾ يعني: منهم من أجابَ الرسلَ، ومنهم مَنْ أبى، و﴿حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ القَدَر السابقُ المقدّرُ باللوحِ المحفوظِ بسببِ كفرِهِ وعنادِهِ.

* * *

قوله: «**وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾**» [الإسراء: ٢٣] القضاءُ له عِدةُ معانٍ، منها: القضاءُ والقدرُ، ومنها: الحُكمُ والشرعُ، ومنها: الإخبارُ ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يعني: أخبرناهُمْ، ومنها: الفراغُ ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يعني: فرغتُمْ منها. فالقضاءُ له عِدةُ إطلاقاتٍ، المرادُ منها هنا: الأمرُ والشرعُ، و«﴿وَقَضَىٰ﴾» معناه: شَرَعَ «﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾»، والله لم يَشْرعْ عبادةَ غيرِهِ أبدًا، لم يشرعْ عبادةَ الأصنامِ، ولم يشرَعْ عبادةَ الأولياءِ والصالحينَ، ولم يشرَعْ عبادةَ الأضرحةِ والقبورِ، ولم يَشْرَعْ

---

(١) ونص حديث رسول الله ﷺ الذي يرويه أبو هريرة: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوةٌ لعلاتٍ، أمهاتهم شتَّى ودينهم واحد». أخرجه البخاري برقم (٣٤٤٣) ومسلم (٢٣٦٥).

عبادةَ الأشجارِ والأحجارِ أبدًا، هذا شَرَعَهُ الشيطانُ، أما شَـرْعُ الله فهو عبادةُ الله -سُبْحانه- وحدَهُ لا شريكَ له.

وهذا هو معنى «لا إله إلَّا الله» «﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾» هذا نفي، «﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾» هذا إثباتٌ، فهو مَعْنى «لا إله إلَّا الله» تمامًا.

ولمَّا أَمَرَ بحقِّهِ -سُبْحَانه- أمَرَ بحقِّ الوالدين: «﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾» فيأتي حقُّ الوالدينِ بعدَ حقِّ الله سبحانه وتعالى مباشرةً؛ لأنَّ الوالدينِ هما أعظمُ مُحسنٍ عليك بعدَ الله -سبحانه- ومعنى «﴿إِحْسَٰنًا﴾» يعني: أَحْسِنْ إليهما كما أَحْسَنا إليكَ.

والشاهدُ من الآيةِ: «﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾» لأنَّها تفسِّرُ التوحيدَ، وهو: عبادةُ الله وتركُ عبادةِ ما سواه، هذا هو التوحيدُ، أما عبادةُ الله بدونِ تركِ عبادةِ ما سواه فهذا لا يُسمّى توحيدًا، فالمشركون يعبدونَ الله ولكنَّهم يعبدون معَهُ غيرَهُ فصاروا مشركين، فليسَ المهمُ أنَّ الإنسانَ يعبدُ الله فقطْ، بَلْ لا بدَّ أن يعبدَ الله ويتركَ عبادةَ ما سواه، وإلَّا لا يكونُ عابدًا لله، ولا موحِّدًا، فالذي يُصلي ويصومُ ويحجُّ ولكنهُ لا يتركُ عبادةَ غيرِ الله ليس بمسلمٍ، ولا تنفعُهُ صلاتُهُ ولا صيامُهُ ولا حجُّهُ؛ لأنه لم يتمثلْ قولَهُ -تعالى-: «﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾» [النحل: ٣٦]، «﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾» [الإسراء: ٢٣] يعني: لا تعبدوا معَهُ غيرَهُ، وفي الحديثِ القدسيِّ عن الله سبحانه وتعالى أنه يقولُ: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»[1]، وفي روايةٍ: «**فَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ، فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ**»[2].

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٢٠٢) وابن خزيمة (٢/ ٦٧).

وَقَولُهُ: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ الآية [سورة النساء: ٣٦].

والآيةُ الرابعةُ: «﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾»، الآياتُ على نَسَق واحدٍ، ومنهجُها واحدٌ فقولُ الله -سبحانه وتعالى- «﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾» مثلَ: «﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾» تمامًا؛ لأنها تخرجُ من مِشكاةٍ واحدةٍ «﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾» هذا أمرٌ من الله سبحانه وتعالى بعبادتِهِ «﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾» هذا نهيٌ عن الشركِ، وهذا هو معنى (**لَا إِلَهَ إِلَّا الله**)، لأنَّ (**لَا إِلَهَ إِلَّا الله**) معناها: نفيُ الشركِ وإثباتُ العبادةِ لله عز وجل، ومعنى «﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾» أي: أَخْلِصوا له العبادةَ، والعبادةَ لا بدَّ من معرفةِ معناها، هي: الذلُّ والخضوعُ، هذا أصلُها، في اللغةِ، يُقالُ: طريقٌ معبَّد يعني: طريقٌ ذلّلتْهُ الأقدامُ بوطئِها[1].

وأما العبادةُ في الشرعِ فهي كما عرّفَها شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ[2] رحمهُ الله: «**اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبُّهُ الله ويرضاهُ من الأعمالِ والأقوالِ الظاهرةِ والباطنةِ**». **فالعبادةُ هي**: فعلُ ما شرعَهُ الله سبحانه وتعالى. فالصلاةُ عبادةٌ، والصومُ عبادةٌ، والإحسانُ إلى اليتيم عبادةٌ، إلى آخرِه، كلُّ ما شرعَهُ الله فهو عبادةٌ، ليستِ العبادةُ: أنَّ الإنسانَ يتقربُ إلى الله بشيءٍ من عندِ نفسِهِ فهذهِ بدعةٌ، وكلُّ بدعةٍ ضلالةٌ، إذًا العبادةُ: ما شرعَهُ الله من الأقوالِ والأعمالِ الظاهرةِ، مثلَ: الصَّلاة، والجهادِ في سبيلِ الله، هذا ظاهرٌ على الجوارحِ، تتحركُ، تعملُ، ومنها ما هو على اللسانِ مثلَ: الذكر «**سبحان الله والحمد لله**» هذه عبادةٌ باللسانِ، ومنها ما هو بالقلبِ مثلَ: الخوف، والخشية، والرغبة، والرهبة، والرجاء، هذه أعمالُ قلوبٍ؛ فالعبادةُ تكونُ

---

(١) انظر «لسان العرب» (٣/ ٢٧٤) و«مفردات ألفاظ القرآن» (٥٤٢).

(٢) في كتابه «العبودية» (٣٨).

وَقَولُ الله تَعَالَى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ الآيات.

قَالَ عَبدُ الله بنُ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: «مَن أَرَادَ أَنْ يَنظُرَ إلى وَصيّةِ مُحمَّدٍ ﷺ الَّتي عَلَيْها خاتَمهُ؛ فَليقرَأ قَولَهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ...﴾ إلَى قَولِهُ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا ...﴾ الآية» [سورة الأنعام: ١٥١-١٥٣]»[(١)].

على القلوبِ، وتكونُ على الألسنةِ، وتكونُ على الجوارحِ.

«﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾» لَمَّا أمرَ بعبادتِهِ -سبحانه- نهى عن الشركِ، لأنَّ الشركَ يفسِدُ العبادةَ، كما أنَّ الحدثَ يفسدُ الصلاةَ والطوافَ، كذلك الشركُ يفسدُ العبادةَ، ولذلكَ نهى الله سبحانه وتعالى عنهُ.

* * *

ثم يواصلُ الشيخُ رحمه الله سِياقَ الآياتِ والأحاديثِ في هذا البابِ فيقولُ: «وقول الله -تعالى-: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ » إلى آخرِ الآياتِ الثلاثِ في آخرِ سورةِ الأنعامِ، التي آخرُها: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)﴾.

قال عبدُالله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه عن هذهِ الآياتِ الثلاثِ: «من أرادَ أَنْ ينظرَ إلى وصيّةِ محمدٍ ﷺ التي عليها خاتَمه فليقرأْ هذهِ الآياتِ الثلاثَ»[(٢)].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٧٠)، والطبراني في «الكبير» (١٠٠٦٠) بنحوه، والبيهقي في «الشعب» (٧٩١٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٠٧٠) والطبراني في «المعجم الكبير» (١٠/ ٩٣).

«﴿أَتْلُ﴾» أي: أقرأ، «﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾» دلَّ على أنَّ التحليلَ حقٌّ للربوبيةِ؛ فالربُّ هو الذي يحلِّلُ ويحرِّمُ؛ لا ما حرّمتموهُ، أو حرَّمهُ أولياؤُكم منَ الشياطينِ من الإنسِ والجنِّ، كالأنعامِ يحرِّمونها للأصنام.

بدأَ بأعظمِ المحرَّمات فقالَ: «﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾» فأعظمُ المحرماتِ هو: الشركُ بالله -سُبْحانَهُ-؛ فإذا قيلَ لكَ: ما هُوَ أعظمُ المحرّماتِ؟، تقول: الشرك بالله عزَّ وجلَّ، وإذا قيلَ لك: ما أعظمُ ما نهى الله عنه؟، تقول: الشركُ بالله؛ وإذا قيلَ: ما أعظمُ المنكراتِ؟ تقول: الشركُ بالله؛ وإذا قيلَ: ما هو أكبرُ الكبائرِ؟، تقولُ: الشركُ بالله، كما قالَ النبيُّ ﷺ: «**أَكْبَرُ الكَبَائِرِ: الشِّرْكُ بِاللهِ**»[1].

فالشركُ -والعياذُ بالله- هو أخطرُ الذنوبِ، وأعظمُ ذنبٍ عُصيَ الله بهِ، وهو: عبادة غيره معه سبحانه وتعالى بصرف أيِّ نوع من أنواعِ العبادةِ لغيرِ الله.

فقوله: «﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾» هذا نهيٌ من الله سبحانه وتعالى عن الشركِ به؛ وهو أعظمُ ما حرمَ ربكُم عليكم؛ فأنتم تستحلُّونَ أعظمَ المحرّماتِ -وهو الشركُ.

وكلمةُ «﴿شَيْئًا﴾» يقولُ العلماءُ[2]: نكرةٌ في سياقِ النهي تعمُّ كلَّ ما عُبِدَ من دونِ الله عز وجل، سواءً كان مَلَكًا أو نبيًا أو وليًّا أو صالحًا من الصالحينَ أو شجرًا أو حجرًا أو قبْرًا أو غيرَ ذلك؛ كلُّه يعمُّه كلمة: «﴿شَيْئًا﴾» فهي كلمةٌ عامة؛ يعني: أي شيء من الأشياءِ لا يجوزُ أن يُصرفَ له شيء من عبادةِ الله سبحانه وتعالى.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٨٧١) ومسلم (٨٨).

(٢) أي علماء اللغة والأصول، وانظر «الكليات» للكفوي (٦٠٠)، و«البحر المحيط في أصول الفقه» للزركشي (٣/ ١١٠).

وأيضًا «﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾» يشملُ كلَّ أنواعِ الشركِ الأكبرِ والأصغرِ، فليسَ هناكَ شيءٌ من الشركِ يُتَسامَحُ فيه لا أكبرُ ولا أصغرُ، لأنَّ قوله -تعالى- «﴿شَيْئًا﴾» كلمةٌ عامّةٌ تنفي جميعَ الشركِ كبيرِه وصغيرِه، كما أنها تمنعُ أن يُشركَ معَ الله أحدٌ كائنًا مَنْ كانَ، لا الملائكةُ المقرّبون، ولا الأنبياءُ والصالحونَ، ولا الجماداتُ، ولا الأشجارُ، ولا الأحجارُ، ولا القبورُ، ولا أيُّ شيءٍ؛ لا يجوزُ أن يُصرفَ شيء من العبادةِ لغيرِ الله، ولا النذورُ، ولا الذبائحُ، ولا الطوافُ، ولا الدعاء، ولا الخوف، ولا الرجاءُ، ولا الرغبةُ، ولا الرهبة؛ لا يجوزُ ذلك سواءً كانَ شركًا أكبرَ أو شركًا أصغرَ، سواءٌ كانَ شركًا جَليًا ظاهرًا أو شركًا خفيًا في القلوب.

«﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾» أي: وصّاكم أن تُحسنوا بالوالدين إحسانًا؛ فكلمة «﴿إِحْسَانًا﴾» منصوبٌ[1] على فعل محذوف، تقديره: وأَحْسنوا بالوالدين إحسانًا؛ وهذا -كما ذكرنا في القاعدةِ المتقرِّرةِ-: أنَّ الله -سبحانَهُ- يبدأُ بحقّه أوّلاً ثمُ يثنِّي بحقِّ الوالدينِ دائمًا وأبدًا، إذا أمرَ بتوحيدِهِ أمرَ أيضًا ببرِّ الوالدينِ، هذا في كثيرٍ من الآياتِ[2].

فهذا فيه الأمرُ بالإحسانِ إلى الوالدينِ بالبرِّ، والصِّلةِ، والإكرامِ، والتوقيرِ أحياءً وأمواتًا: أما برُّهم في الحياةِ فبالإحسانِ إليهما بالكلامِ اللّينِ، والتواضُعِ،

---

(١) على أنه مفعولٌ مطلق.

(٢) يقول ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ١٠٩): والله تعالى كثيراً ما يقرن بين طاعته وبر الوالدين، كما قال: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ۝١٤ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٥﴾ [لقمان: ١٤-١٥]، فأمر بالإحسان إليهما، وإن كانا مشركين بحسبهما، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣]، والآيات في هذا كثيرة.

والنفقةِ، والقيامِ بخدمتهما، والتماسِ رضاهما في غيرِ معصيةِ الله سبحانه وتعالى كما قال -تعالى-: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤]؛ ففي حال حياتهما يَبُرُّهما بأنواعِ البرِّ، ولا يسيءُ إليهما أيَّ إساءةٍ لأنَّ الإحسانَ إليهما برٌّ، والإساءةَ إليهما عقوقٌ، والعقوقُ من أكبرِ الكبائرِ بعدَ الشركِ بالله سبحانه وتعالى؛ ففي الأمرِ بالإحسانِ إليهما نهيٌ عن الإساءةِ إليهما.

وقد جاءَ في الحديثِ: أن النبيَّ ﷺ صعِدَ المنبرَ فقالَ: «**آمين، آمين، آمين**»، ثمَّ قالَ لأصحابِهِ: «**إنَّ جبريلَ عليه السلام عَرَض له فقالَ له: يا محمدُ مَن أدركَ شهرَ رمضانَ فلم يُغفرْ له فماتَ فدخلَ النارَ، قل: آمين، قلتُ: آمينَ، قالَ: يا محمدُ من أدْركَ أبويهِ أو أحدَهما ولم يُدخلاهُ الجنةَ فماتَ فدخلَ النارَ، قلْ: آمينَ، فقلتُ: آمينَ، قالَ: يا محمدُ مَن ذُكرتَ عندهُ فلمْ يُصَلِّ عليك فماتَ فدخلَ النارَ، قُلْ: آمينَ، فقلتُ: آمينَ**»[1]؛ الشاهدُ من هذا: أنَّ مَنْ أدركَ أبويهِ -أو أحدَهما- فلم يَبَرَّهما فماتَ دخلَ النارَ بسببِ العقوقِ دعا عليهِ جبريلُ بدخولِهِ النارَ وأَمَّن على ذلك محمدٌ ﷺ.

هذا الإحسانُ إليهما في حالِ الحياةِ.

أما الإحسانُ إليهما بعدَ الموتِ فقد سُئِلَ عنه النبيُّ ﷺ، حيثُ سألهُ رجلٌ فقالَ: يا رسولَ الله ما بقي مِنْ برِّ والديَّ بعدَ موتِهما؟، قالَ: «**أن تصلِّيَ عَلَيْهِمَا مَعَ صَلاتِكَ**» يعني: تدعوَ لهم إذا دعوتَ لنفسِك، «**وَإِنْفَاذُ عَهْدِهِمَا**»؛ يعني: الوصية

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٦٤٦) وابن خزيمة في «صحيحه» (١٨٨٨) والطبراني في «الأوسط» (٨٩٩٤) والبيهقي (٤/ ٣٠٤).

التي أَوْصَيا بها، و«**وَصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي لَا تُوصَلُ إِلَّا بِهِمَا، وَإِكْرَامُ صَدِيقِهِمَا**»[1]، إذا كانَ لوالدِكَ صديقٌ أو لأمِّك صديقةٌ فأكرِمْ هذا الصديقَ، لأنَّ إكرامَ صديقِ والدِك أو صديقةِ والدتِك إكرامٌ لوالديكَ؛ هذا ما يبقى من البرِّ بعدَ وفاةِ الوالدينِ: الدعاءُ، وتنفيذُ وصاياهما، وصلةُ الرحم المرتبطةُ بهما من الأعمامِ والعمّاتِ، والأخوالِ والخالاتِ؟ وسائرِ القرابةِ، والأخوةِ والأخواتِ، وأبناءِ الأخوةِ وأبناءِ الأخواتِ... إلى آخرِهِ؛ كلُّ من تربطُكَ به قرابةٌ من جهةِ أبيكَ أو من جهةِ أمكَ فهو من ذوي الأرحام، وإذا وصلتَهُ فقد بَرَرْت بوالديك.

ثمَّ قالَ -تعالى-: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ﴾ هذه **الوصيةُ الثالثةُ**، وهي: تحريمُ قتلِ الأولادِ من إملاقٍ، يعني بسببِ الفقرِ، كانوا في الجاهليةِ يقتلونَ أولادَهم خشيةَ الفقر، يسيئونَ الظنَّ بالله -تعالى- كأن الرزقَ من عندِهم، ولهذا قالَ في الآيةِ الأخرى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء: ٣١] وهنا قال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ إذا كنتُمْ أنتُمْ لا ترْزقونَ أنفسَكم فكيفَ ترزقونَ غيرَكم.

ومن الناسِ اليومَ من ورِثَ هذه الخصْلةَ الذميمةَ فصاروا يسعَوْنَ لتحديدِ النسلِ خشيةَ الفقر، يقولونَ: يحصُلُ في الأرضِ انفجارٌ سُكّانيٌّ من كثرةِ النسلِ، والمواردُ قليلةٌ فيحصلُ مجاعاتٍ؛ فيطلبونَ تحديدَ النسلِ؛ فالآنَ قضيةُ المطالبةِ بتحديدِ النسلِ قائمةٌ على قدمٍ وساقٍ، والدافعُ لهذا هو خشيتهُم الفقرَ، وهذا لأنهم لا يؤمنون بالله سبحانه وتعالى، ولا يؤمنون أنّ الأرزاقَ من الله سبحانه وتعالى.

---

(١) أخرجه أبو داود في «سننه» برقم (٥١٤٢) وابن ماجه في «سننه» (٣٦٦٤) وأحمد في «المسند» (٣/ ٤٩٧) والحاكم (٤/ ١٧١).

وانْخدعَ بهذه الدعايةِ بعضُ المسلمين، فصاروا يكرهونَ كثرةَ الأولادِ، وبعضُهم يحاولُ تنظيمَ النسل، وبعضُهُم يحاولُ تحديدَ النسل، وهناك كلامٌ فارغٌ يردّدُ، وكلُّ هذا باطلٌ.

وطلبُ الذريةِ، وكثرةُ الذريةِ، وكثرةُ الإنجابِ أمرٌ مطلوبٌ في الإسلام، لأنَّ هذا فيه تقويةٌ للمسلمينَ، وتكثيرٌ لعددِ المسلمين، وأما الرزقُ فهو على الله سبحانه وتعالى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾.

قالَ -تعالى-: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ هذه **الوصيةُ الرابعةُ**؛ الفواحشُ جمعُ فاحشة، والمرادُ بها: المعصية، سُمِّيت المعصيةُ فاحشة لقبْحها وشناعتها[1]، يعني: لا تقربوا المعاصي.

ولاحظوا قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا﴾ ما قال: ولا تفعلوا الفواحشَ، بل قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا﴾؛ ليشملَ ذلك المنعُ من الوسائلِ التي تُؤدِّي إلى المعاصي. حرّمَ المعاصي وحرّمَ الوسائلَ المؤدِّيَةَ إليها، فمثلاً: تبرُّج النساءِ من قُرْبان الفواحش، لأن تبرُّجَ النساء وسيلةٌ إلى الزنا، فالزينةُ والسُّفورُ من التطرُّقِ إلى الزنا، قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا﴾ لأن النهيَ عن القُربانِ أبلغُ من النهيِ عن نفسِ الفعلِ ليمنعَ الوسيلةَ إليه؛ وحرّمَ النظرَ إلى ما حرَّمَ الله لأنَّ النظرَ إلى ما حرّم الله -كالنظرِ إلى المرأة- وسيلةٌ إلى الزنا، وحرّم السماعَ -سماعَ الكلامِ الماجن، والأغاني، والمزاميرِ- لأنها وسائلُ إلى المحرّمات.

فقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾ يعني: لا تتعاطوا الأسبابَ التي تؤدِّي إلى

---

(١) يقول ابن الأثير في «النهاية» (ص٦٨٠) عن معنى الفحش: (كل ما يشتد قُبحه من الذنوب والمعاصي، وكثيراً ما ترد الفاحشة بمعنى الزنا، وكل خصلة قبيحة فهي فاحشة من الأقوال والأفعال). وانظر «لسان العرب» (٦/ ٣٢٥).

المعاصي، بل تجنّبوها من نظرٍ وسماعٍ وسُفور وتبرُّج وغيرِ ذلك من الوسائل والأسبابِ التي تؤدِّي إلى الفواحشِ.

فَإنْ كانتِ الأسبابُ محرّمةً فكيفَ بنفسِ الفواحشِ؟، تكونُ أشدَّ تحريمًا ﴿مَا ظَهَرَ﴾ يعني: ما رآه الناسُ في الأسواقِ وفي الدكاكينِ وفي المجمّعاتِ. ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ المعاصي الخفيَّة في البيوتِ، وفي المحلَّاتِ المستورةِ؛ فالمؤمنُ يتّقي الله عز وجل ظاهرًا وباطناً، يتقي الله في الشارعَ ويتّقي الله في البيتِ، يتقي أينما كان، يتّقي الله في النهارِ ويتّقيهِ في الليل، يتّقيهِ في الضياءِ في الظُّلمةِ، لأنهُ دائمًا معه -سبحانه-، لا يخفى عليه.

فليسَ المقصودُ أنَّ الإنسانَ يتجنّبُ المعاصي الظاهرةَ فقط، وأما إذا خلا فإنه مسموحٌ له، لا، الحرامُ حرامٌ على أيِّ حالٍ، والربُّ هو الربُّ -سبحانه- مطّلعٌ في سائرِ الأحوالِ ظاهرًا وباطنًا لا يَخْفى عليه شيءٌ سبحانه وتعالى، مهما حاولتُم التستُّرَ فإنكم لا تَخْفون على الله سبحانه وتعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨] بَلْ إنَّه قال: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾ [تبارك: ١٣]، إذا كان كذلك فيجبُ عليك أن تتقيَ الله سبحانه وتعالى على كلِّ حالٍ، يقولُ النبي ﷺ: «اتَّقِ اللهِ حَيْثُمَا كُنْتَ»[1]، يقولُ -تعالى-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ [تبارك: ١٢] يعني: في حال غيبتهم عن الناس، ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾ [تبارك: ١٢-١٣].

ثمَّ قال -تعالى-: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ النفسُ التي

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٥٣) والدارمي في «سننه» (٢/ ٤١٥) وأخرجه الترمذي في «سننه» برقم (١٩٨٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

حرّمَ الله هي: النفسُ المؤمنةُ، وكذلك النفسُ المعاهَدةُ، ولو كانتْ كافرةً؛ فالله حرّمَ قتلَ المؤمنين، وكذلك حرّم قتلَ المعاهدين من الكفّارِ الذينَ لهم عهدٌ عندَ المسلمينَ بالذمةِ أو بالأمانِ: فالذمةُ وهم الذينَ يدفعونَ الجزيةَ، أو بالأمانِ وهم الذينَ دخلوا بلادَنا بالأمانِ، لا يجوزُ قتلُهم والتعدِّي عليهم، لأنهم في ذمّةِ المسلمين، وفي أمانِ المسلمين، لا يجوزُ خيانةُ ذمةِ المسلمينَ، ولهذا جاءَ في الحديثِ: «**من قتل معاهَدًا لم يرح رائحة الجنة**»[1].

﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: إلَّا بإحدى هذهِ الثلاث: قصاصٍ أو زنا أو ردةٍ؛ هذا قتلٌ بالحق شرعَهُ الله سبحانه وتعالى، ما عدا ذلكَ فلا يجوزُ قتلُ المسلم، قالَ -تعالى-: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾[النساء: ٩٣] وقتلُ النفسِ من أعظمِ الكبائرِ بعدَ الشركِ بالله سبحانه وتعالى.

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ ﴿لَعَلَّ﴾ هنا تعليليةٌ[2]، أي: لأجلِ أَنْ تعقلوا، والعَقْلُ معناهُ: الكفُّ عمّا لا يجوزُ؛ سُمِّيَ العَقْلُ عقلاً لأنه يكفُّ الإنسانَ عن الأشياءِ التي لا تليقُ، كما أنَّ العِقالَ للبعيرِ يمنعُهُ عن الضياعِ كذلكَ العقلُ، وهو خلقٌ جعلَهُ الله في الإنسانِ يمنعُ مِنْ تَعاطِي ما لا يجوزُ.

ثم قالَ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ من الكبائرِ المحرّماتِ أكلُ أموالِ اليتامى بغيرِ حق.

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٦٦).

(٢) انظر حول معاني (لعل) «مغني اللبيب» لابن هشام (ص٣٧٩) ونص ابن يعيش على أنها للتعليل بمعنى (كي) في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، انظر «شرح المفصل» (٨/ ٨٦).

واليتيمُ هو: الصغيرُ الذي ماتَ أبوه؛ هذا هو اليتيمُ؛ أما إذا بلغَ فإنهُ يخرُج عن حدِّ اليُتْم، وكذلكَ لو ماتتْ أمُّهُ، وأبوه حيٌّ لا يُسمَّى يتيمًا، لأنَّ أباهُ يقومُ عليه ويُنفقُ عليه ويربيهِ، ويتعاهدهُ، ويحميهِ؛ فاليتمُ هو: فُقدانُ الآباءِ في وقتِ الصغر.

فاليتيمُ بحاجةٍ إلى مَنْ يُعينهُ، وإلى من يَحْميه، وإلى مَنْ يُربِّيهِ، وإلى مَنْ يدافعُ عنه؛ فهو ضعيفٌ؛ ومن ذلكَ: المحافظةُ على مالِه، فلا يَنْتَهز فرصة صغرِهِ ويُتْمه فيُعْتَدى على مالِهِ، لأنهُ لا يدافِعُ، ولهذا يقولُ: ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ﴾ [النساء: ٦] إلى قولِه -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء: ١٠].

فقولُهُ: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ ما قالَ: لا تأكلوا مالَ اليتيم، بل قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ﴾ يعني: لا تعملوا الوسائلَ التي تفُضي إلى تَلَفِ مالِ اليتيمِ؛ فكيف بإتْلافِ مالِ اليتيم؟، هذا من بابِ أولى.

﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ إلَّا بشيءٍ فيهِ مصلحةٌ لليتيمِ: كأنْ تتاجرَ فيه؛ من أجلِ أنْ يربحَ وينمو.

﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ هذا من الوصايا الربّانيةِ؛ للإنسانِ الذي يبيعُ على الناسِ السِّلعَ بالوزنِ أو بالكيلِ، أو بالأكياسِ، أو بالصناديقِ يجبُ عليه أن لا يبخسَها، بل يوفيها بالمكيالِ والميزانِ.

المكيالُ للحبوبِ -مثلاً- والأشياءُ التي تُكالُ؛ والميزانُ للأشياءِ المائعةِ التي توزنُ؛ فالمعيارُ الشرعيُّ هو المكيالُ أو الميزانُ.

وقد يكونُ المكيالُ -أيضًا- بالكيسِ، كأن يباع بالكيس، أو بالصندوق

-مثلاً-، أو بالعلبة، هذا كلُّه يدخلُ في الكيلِ والميزانِ؛ فلا يجوزُ للإنسانِ أنْ يُنْقِصَ هذهِ الأشياءَ ويبيعَها على أنها وافيةٌ وقد بخسَها وأخذَ منها، كما يفعلُ بعضُ الخونةِ الذين يبيعونَ على الناسِ الأشياءَ على أنها تامّةٌ وهي مبخوسةٌ، أو يبيعُ الأشياءَ والخضارَ على الناسِ على أنه سليمٌ، ويجعلُ عُلُوَّ الشيءِ الطيبَ، ولكنَّ أسفلَه معيبٌ أو تالفٌ؛ هذا من البخسِ أيضًا ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥]، وأهلكَ الله أمةً من الأممِ بسببِ البخسِ -وهو قومُ شعيبٍ-، والنبيُّ ﷺ لمّا مرَّ بالسوقِ ووجدَ بائعَ طعامٍ فأدخلَ النبيُّ ﷺ أصابعَه في الطعامِ فوجدَ في أسفلِهِ بَلَلاً فقالَ: «**مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ**» قالَ: أصابتْهُ السماءُ يا رسولَ الله -يعني: أصابَهُ المطرُ-، قالَ: «**أَلَا جَعَلْتَهُ ظَاهِرًا حتّى يَرَاهُ النَّاسُ؛ مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا**»[1]. فلا يجوزُ للإنسانِ أن يخفيَ الأشياءَ المعيبةَ في أسفلِ الشيءِ؛ في أسفلِ الصندوقِ، في أسفلِ الإناءِ، في أسفلِ السطل، يعني: يجعلُ الأشياءَ النَّضِرةَ في أَعْلاه، ويقولُ للناس: كلُّه من هذا النوع. هذا حرامٌ. ويَجْعل أحسَنَه أعلاهُ وأسوأَهُ أسفلَه هذا لا يجوزُ، هذا من بخسِ الناسِ أشياءَهم، ومن النقصِ في الكيلِ والميزانِ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: ١-٦]، يعني: يحسبون أن المسألةَ انتهتْ لو أفلتَ من الخلقِ، ومن رقابةِ (البلديةِ)، ومن رقابةِ السلطانِ؛ فإنه لا يَفْلِتُ من رقابةِ الله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾.

فقوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ يعني: بالعدلِ؛ فالقسطُ معناهُ:

(١) أخرجه مسلم برقم (١٠٢).

العدلُ، بأَنْ تزِنَ بالميزانِ العادلِ، وتكيلَ بالمكيالِ العادلِ الذي لا يُظْلَمُ البائعُ ولا يُظْلَمُ المشتري.

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ يعني: لو حصلَ أنَّ الإنسانَ اجتهدَ في أن يوفِّيَ الحقَ وأن يوفيَ الكيلَ، ولكن حصلَ نقصٌ يسيرٌ لم يتعمّدْهُ، فهذا لا يؤاخذُهُ الله عليه ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢] أنتَ اعدِلْ بقدرِ ما تستطيعُ فإذا حصلَ شيءٌ لا تستطيعُهُ ولا تعلمُ عنهُ فإنكَ لا تُؤاخَذُ لأنَّ الله لا يكلِّفُ نفسًا إلَّا وسعَها، إنما الكلامُ في الإنسانِ الذي يتعمّدُ الخديعةَ، ويتعمّدُ البخسَ، ويتعمّدُ النقصَ، لأنَّ العدلَ تمامًا لا أحدَ يستطيعُهُ إلَّا الله سبحانه وتعالى، الإنسانُ يعجزُ، ولكنَّ الله عزَّ وجلَّ يعفو عمّا لا يستطيعُهُ الإنسانُ ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢].

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ لمّا أمرَ بالوفاءِ بالكيلِ والوزنِ أمرَ بالوفاءِ بالكلامِ أيضًا؛ إذا تكلّمتَ في شخصٍ فعليكَ بالعدلِ لا تمدحُهُ بشيءٍ ما هو فيه. ولا تذمُّه بشيءٍ ما هو فيه، بل الزمِ العدلَ، قل ما تعلمُ فيه من الصفاتِ، لا تمدحُهُ مدحًا لا يستحقُّه، ولا تذمُّه ذمًّا لا يستحقُّه؛ وإذا كنتَ لا تعرفُهُ فقلْ: لا أدري، لا أعرفُهُ، لا تُدْخِلْ نفسَك في شيءٍ لا تعرفُهُ.

كذلكَ من ناحيةِ الشهادةِ: إذا أردتَ أن تشهدَ على أحدٍ فلا تشهَدْ إلَّا بالحقِّ؛ لا تُحابي مع أحدٍ وتشهدَ له لأنه قريبُكَ، أو لأنه صديقٌ لك، تشهدَ له بالباطلِ؛ أو تكتمَ الشهادةَ عن أحدٍ لأنه عدوٌّ لك، قلِ الحقَّ ولو على نفسِك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: ١٣٥]، وقال -تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا

ﭐلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ [المائدة: ٨].

﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ﴾ يعني: لا يحملُكُمْ بغضُ قومٍ على أن لا تَعْدلوا فيهم، وأن تتكلّموا فيهم بغير حقٍّ، حتَّى ولو كانوا كفّارًا، ولو كانوا أعداءً قولوا فيهم الحقَّ. فالعدلُ مطلوبٌ، قامتْ به السمواتُ والأرضُ. العدلُ مطلوبٌ مع العدوِ، ومع الصديقِ، ومع القريبِ، ومع البعيدِ، ومع كلِّ أحدٍ؛ لا يجوزُ للإنسانِ أن يتبعَ الهوى وشهواتِ النفسِ ويتكلَّمَ على حسبِ رغبتِهِ، أو يكتمَ الشهادةَ على حسبِ رغبتِهِ.

﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ﴾ قلتُم بالتزكيةِ، قلتُم في الشهادةِ، قلتُمْ في التجريح -تجريحِ الرواةِ أو تعديلهم-، ﴿فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ﴾ يعني: ولو كان المُتكَلّم فيه قريبًا لك، لا يحملُك قرابتُهُ والشفقةُ عليه أن تحيدَ في حقِّهِ، بل قُلْ فيه الحقَّ، واشهَدْ عليهِ بالحقِّ؛ واشهدْ بالحقِّ ولو كان لعدوِّك وخصمِك، هذا هو العدلُ الصحيحُ.

﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ﴾ وهذا من الوصايا العظيمةِ: الوفاء بعهدِ الله عز وجل؛ والوفاءُ بعهدِ الله المرادُ به: الوفاءُ بالمواثيقِ التي تكونُ بينَ العبدِ وبينَ ربِّه، والتي تكونُ بينَ الناسِ بعضِهم مَعْ بعض؛ العهدُ الذي بينَك وبينَ الله أن تعبدَه ولا تشركَ بهِ شيئًا ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥] هذا عهدٌ بينك وبينَ الله تعاهدُهُ أن لا تعبدَ إلَّا إياهُ، ولا تستعينَ إلَّا به؛ فالعهدُ الذي بينَ العبدِ وبينَ ربِّهِ هو: أَنْ يقومَ بعبادةِ الله سبحانهُ وتعالى.

والعهدُ الذي بينَك وبينَ الناسِ: إذا عاهدتَ سُلْطانًا، أو أميرًا، أو عاهدتَ

أحدًا من الناسِ فلا تَغدُرِ العهدَ الذي بينَك وبينَ الله، ولا بالعهدِ الذي بينَك وبينَ الناسِ؛ إذا عاهدتَ وجبَ عليكَ الوفاءُ بالعهدِ قالَ الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١]، قال النبيُّ ﷺ: «آيَةُ المنُافِقِ ثَلاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا عاهدَ غدَر»[١]، فالغدرُ بالعهودِ مِنْ صفاتِ المنافقين.

بل إذا كانَ بيننا وبينَ الكفارِ عهدٌ فلا يجوزُ لنا أن نغدرَ به، بَلْ يجبُ الوفاءُ معَ الكفارِ المعاهَدين.

وإذا أرادَ وليُّ الأمرِ أَنْ يُنْهِي المعاهدة مع الكفارِ فلا يُلْغيها فجأةً، بل يُعْطيهم مُهلةً: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال: ٥٨].

ومبايعةُ السلطانِ عهدٌ يجبُ على الرعيةِ أن يَفوا به، وأن لا يَغْدُروا به، وأن لا يَعْصوا وليَّ الأمرِ، إلَّا إذا أَمرَ بمعصيةٍ فإنهُ لا يُطاعُ في المعصيةِ، لكنْ يُطاعُ في الأمورِ الأُخْرى التي ليستْ بمعصيةٍ، هذا من العهدِ الذي بينَك وبينَ وليِّ الأمر.

كذلك العهدُ الذي بينَك وبينَ الناسِ؛ العهدُ الذي بينَ دولتِك ودولةٍ أخرى؛ كلُّ هذا من العهدِ الذي أمرَ الله بالوفاءِ به، ولا يُستهان بهِ أبدًا؛ فالعهودُ أمرُها عظيمٌ، ولذلكَ أضافَها الله إليه قالَ -تعالى-: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١] وقالَ -تعالى-: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء: ٣٤] وهنا يقول: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾ [الأنعام: ١٥٢] أضافَ العهدَ إليه ليدلَ على عظمتِهِ.

(١) أخرجه البخاري (٣٣) ومسلم (٥٩).

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ ﴿لَعَلَّ﴾ هنا للتعليلِ أيضًا، أي: لأجلِ أن تتذكّروا ما عليكم من الحقوقِ والواجباتِ فتقوموا بها خيرَ قيامٍ.

ثم ختمَ هذه الوصايا بالوصيةِ العاشرةِ العظيمةِ فقالَ -جلَّ وعلا-: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى﴾: الصِّراط في اللغةِ معناه: الطريقُ؛ والمرادُ الصِّراط هنا: كتابُ الله سبحانه وتعالى وسنةُ رسولِهِ ﷺ، لأنهما طريقٌ إلى الجنة، أي: ما أوحيتُهُ إليكم بواسطةِ رسولي من الأوامرِ والنَّواهي في هذا القرآنِ العظيمِ وفي السنةِ النبويةِ هذا هو الصراطُ. فالذي يسألُ عن الطريقِ إلى الله، نقولُ هو كتابُ الله، وكذلكَ سنةُ النبيِّ ﷺ لأنَها، تابعةٌ للقرآنِ، ومفسِّرةٌ للقرآنِ؛ فالسنةُ داخلةٌ في كتابِ الله عزَّ وجلَّ.

﴿مُسْتَقِيمًا﴾ نُصب على الحالِ؛ والمستقيمُ هو: المعتدلُ، فطريقُ الله عزَّ وجلَّ معتدلٌ، ليس فيهِ ميلانٌ، وليسَ فيه منعطفَاتٌ، وليس فيه غموضٌ، طريقٌ واضح يوصلُك إلى الجنةِ، تمشي فيه على نورٍ، وعلى برهانٍ، وعلى طريقٍ واضحٍ.

وأضافَ (**الصِّرَاطِ**) إليه سبحانه وتعالى إضافةَ تشريفٍ وتكريمٍ؛ ثم وصفهُ بأنه مستقيمٌ، يعني: معتدلٌ بخلافِ الطرقِ الأخرى فإنها معوجَّةٌ ومتعرِّجةٌ، تضلِّلُ صاحَبها؛ لأن هناك طرقًا كثيرةً للشياطين؛ شياطينِ الإنسِ والجنِ، ومذاهبَ، وهناك جماعاتٍ متعدّدةً، هناك... وهناك...، لكنَّ طريقَ الله واحدةٌ، ما فيها تعدُّدٌ ولا فيها انقسامٌ، ولهذا وحّدَ صراطَه وعدَّدَ السبلَ قالَ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ لأنَّ الطرقَ والسبلَ التي غَيْر القرآنِ وغير الشريعةِ طرقٌ كثيرةٌ ليسَ لها حصرٌ، كلُّ صاحبِ مذهبٍ له طريقةٌ، وكلُّ صاحبِ نِحْلةٍ له طريقٌ، وكلُّ جماعةٍ من الضُّلَّالِ لهم طريقٌ، وكلُّ مَن اخْتَلفَ عن الحقِّ صارَ له طريقٌ غيرُ طريقِ الآخرِ، وهذه

علامةُ أهلِ الضَّلالِ أنهم لا يجتمعون على شيءٍ، ولا يتوافقون أبدًا، بخلافِ أهلِ الحقِ فإنهم يتوافقون، لماذا؟ لأنهم يسيرونَ على طريقِ الله سبحانه وتعالى.

فميزَةُ أهلُ الحقِّ أنهم لا يختلفونَ، وإنْ حصلَ اختلافٌ فإنه يُحْسمُ بالرجوعِ إلى كتابِ الله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [النساء: ٥٩]؛ فالصحابةُ رضي الله عنهم قد يقعُ بينهُم اختلافاتٌ لكنْ سُرعانَ ما تذهبُ، لماذا؟، لأنهم يرجعونَ إلى كتابِ الله؛ فقد اختلفوا بعدَ موتِ الرسولِ ﷺ مَن الخليفةُ بعده؟، ثم سَرْعان ما انْحَسَم النزاعُ وعاهدوا أبا بكرٍ الصدِّيقَ -رضي الله تعالى عنه- لما رجعوا إلى السنةِ، واختلفوا في حروبِ الردةِ، وسَرْعان ما اتّفقوا على قتالِ المرتدِّين، لأنهم رجعوا إلى كتابِ الله وسنةِ رسولِهِ.

فأهلُ الحقِّ حتى لو حصلَ بينهم خلافٌ ناتجٌ عن اجتهادٍ، فإنهم يرجعونَ إلى كتابِ الله، بخلاف أهلِ الضلالِ فإنَّ كلَّ واحدٍ يركبُ رأسَه، ولا يُصْغي للآخر، كلُّ واحدٍ يريدُ أن يكونَ هو الشيخ والمُعظَّم، لأنهُ يريدُ تعظيمَ نفسِه، ولا يريدُ الحقَّ؛ فلذلك تجدونَ أهل الضلالِ دائمًا في اختلافٍ، ودائمًا في صراعٍ، وتجدونَ أهلَ الضلالِ -والعياذُ بالله- وهذا مذكورٌ في هذهِ الآية: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣] وضّحَ النبيُّ ﷺ هذه الآيةَ بتوضيحٍ محسوسٍ: ذلكم أنه خطَّ ﷺ على الأرضِ خطًّا معتدلاً، ثم خطَّ على جَنبَتَيْه خطوطًا، فقالَ ﷺ للخطِ المعتدِل: «هذا صراطُ الله»، وقالَ لهذه الطرقِ: «**هَذِهِ سُبُلٌ، عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو النَاسَ إِلَيْهِ**»[1] هذا مثالٌ واضحٌ من الرسولِ ﷺ لبيانِ الآيةِ الكريمةِ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ

(١) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (٦/ ٣٤٣) وأخرجه الحاكم في «المستدرك على الصحيحين» (٢/ ٢٦١) وصحح إسناده.

ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وفي سنةِ رسولِ الله ﷺ: يقولُ: «**وَمَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا؛ فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ من بَعدي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ؛ وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»[١]، وقال ﷺ: «**وَسَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً**» فقالوا: من هي يا رسول الله؟، قال: «**مَنْ كَانَ على مثل مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**»[٢] هذا صراطُ الله عزَّ وجلَّ في الآياتِ وفي الأحاديثِ.

ولا نستغربُ إذا حصلَ اختلافاتٌ، ونشأتْ مذاهبُ ضالّةٌ، وحصلَ صراعاتٌ بين الناسِ، لا نستغربُ هذا، لأنَّ هذهِ سنةُ الله سبحانه وتعالى لابتلاءِ العبادِ وامتحانِهم، ومن هو الذي يثبتُ على الطريقِ ومن هو الذي لا يثبت؟

والنبيُّ ﷺ عندما حضرتْهُ الوفاةُ أرادَ أن يكتُبَ كتابًا لأصحابِهِ، يَعْهَدُ إليهم فيهِ، ولكنَّهُ عدَلَ عن ذلك، وتُوفي رسول الله ﷺ ولم يوصِ ولم يَعْهَدْ إليهم[٣]، فتأسّفَ بعضُهم[٤]، فابنُ مسعودٍ[٥] يقول: لستُمْ بحاجةٍ إلى كتابٍ يكتبُهُ الرسولُ ﷺ لأنَّ عندَكم القرآنَ.

فقولُ ابن مسعود رضي الله عنه: «**مَنْ أرادَ أن ينظرَ إلى وصيةِ محمد ﷺ التي عليها خاتمه**» التي تعوِّض عن هذهِ الكتابةِ التي هَمّ بها رسولُ الله ﷺ.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٦) وابن ماجه (٤٣/ ٤٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٥٩٦).

(٣) أخرجه البخاري (٧٣٦٦) ومسلم (١٦٣٧).

(٤) المقصود هنا عبدالله بن عباس -رضي الله عنهما-.

(٥) قال عمر: «إن النبي ﷺ عليه الوجع، وعندكم القرآن، فحسبنا كتاب الله» انظر البخاري (٧٣٦٦) ومسلم (١٦٣٧).

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ -رضِيَ اللهُ عَنهُ-؛ قَالَ: [كُنْتُ رَدِيفَ النَّبيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ، فَقَالَ لِي:] «يَا مُعَاذُ أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى العِبَادِ؟ وَمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ؟» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «حَقّ اللهِ عَلَى العِبَادِ: أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ: أَنْ لا يُعَذِّبَ مَنْ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»، قُلْتُ: أَفَلا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟، قَالَ: «لا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا». أخرجاهُ في «الصَّحيحَيْنِ»[1].

«**فليقرأ هذه الآيات**» لأنَّ الرسولَ ﷺ لا يُوصي إلَّا بكتابِ الله، وأيضًا الرسولُ ﷺ يقولُ: «**إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي: كِتَابُ الله وسنتي**»[2] فالحمدُ لله، عندنا ما أَوْصى به الرسولُ ﷺ، لأنه أَوْصانا باتّباعِ كتابِ الله وسنةِ رسولِهِ ﷺ.

* * *

ثم ساقَ الشيخُ رحمه الله حديثَ معاذٍ والكلامُ عليهِ أن نقولَ:

في هذا الحديثِ العظيمِ: فضيلةٌ لمعاذٍ رضي الله عنه، وفضائلُهُ كثيرةٌ، وهو معاذُ بنُ جبلٍ الخَزْرَجيُّ الأنصاريُّ، أحَدُ أَوْعِيَةِ العلمِ، وأعلمُ هذهِ الأمةِ بالحلالِ والحرامِ، وقد استخلفَهُ النبيُّ ﷺ على مكةَ لما فتحَها قاضياً ومعلِّمًا، ثمَّ أرسَلَه -أيضًا- في السنةِ التاسعةِ أو العاشرةِ إلى اليمنِ قاضيًا ومعلِّمًا -كما سيأتي-، ثم جاءَ من اليمنِ بعدَ وفاةِ النبيِّ ﷺ فأرسلَهُ عمرُ إلى الشامِ قاضيًا ومعلِّمًا، وتُوفي هناك -رضِيَ الله تعالى عنه- في الشامِ في طاعونِ عَمْوَاس[3] المَشْهور.

قوله: «**قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ**»، يعني: راكبًا معه.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠).

(٢) أخرجه الحاكم (١/ ١٧٢) والبيهقي (١٠/ ١١٤) والدارقطني (٤/ ٢٤٥).

(٣) كورة من فلسطين بالقرب من بيت المقدس، «معجم البلدان» (٤/ ١٧٧).

«**عَلَى حِمَارٍ**» هذا فيه: تواضعُ النبيِّ ﷺ وأنه يركبُ الحمارَ، مع أنه أشرفُ الخلقِ على الإطلاقِ، وتواضعُهُ -أيضًا- ﷺ في إردافِ صاحبِه معه، وفيه: جوازُ الإردافِ على الدّابّةِ إذا كانتْ تُطيقُ ذلك، ولا يشقُّ عليها.

«**فقال لي: يا معاذ**» أرادَ النبيُّ ﷺ أن يعلمَهُ هذا الحكمَ العظيمَ، ولكنه ﷺ أراد أن يُلْقِيَهُ إليهِ بطريقةِ السؤالِ والجوابِ، ليكونَ ذلك أَدْعى إلى الانتباهِ والاهتمامِ، فإنَّ التعليمَ عن طريقِ السؤالِ والجوابِ من أعظمِ الطرقِ الناجحةِ في تعليمِ العلمِ، لأنك لما تسألُ الطالبَ عن شيءٍ يجهلُهُ ثم يتطلعُ إلى الجوابِ، أحسن من أن تُلقيَ إليه المسألةَ ابتداءً، وهو على غيرِ انتباهٍ واستعدادٍ لاستقبالِها، وهذه طريقةٌ من طرقِ التعليمِ، وهي طريقةٌ نبويّةٌ، استعمَلَها النبيُّ ﷺ في كثيرٍ من الأحوالِ.

«**أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى العِبَادِ، وَمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ**» هذه مسألةٌ عظيمةٌ.

قالَ معاذٌ: «**قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ**» هذا فيهِ: تأدبُ طالبِ العلمِ في أنه إذا سُئِلَ عن شيءٍ وهو لا يعرفُهُ، أن يقولَ: الله ورسولُهُ أعلمُ، ولا يدخلُ ويَتَخَرَّصُ في شيءٍ لا يعرفُهُ، بل يَكِلُ العلمِ إلى عالِمه، هذهِ -أيضًا- من طرقِ التعلُّمِ الناجحةِ، هي: أنَّ الإنسانَ إذا سُئِلَ عن علمٍ لا يعلمُهُ أو عن مسألةٍ وهو لا يعرفُها، لا تحملُهُ الأنفةُ بألَّا يقولَ: لا أدري، بَلْ يقولُ: لا أدري، أو يقولُ: الله أعلم، ولا غَضَاضةَ عليهِ في ذلك، بل هذا يدلُّ على فضلِهِ وورعِهِ وأدبِه معَ الله سبحانه وتعالى، وأدبِهِ مع المعلمِ.

وقد سُئِلَ الإمامُ مالكٌ عن أربعينَ مسألةً، فأجابَ عن أربعِ مسائلَ منها، وقالَ عن البقيّةِ: لا أدري، فقالَ السائلُ: جئتُكَ من بلادِ كذا وكذا أسألُكَ عن مسائلَ، وتقولُ لا أدري؟ فقالَ له: اركَبْ راحلتَكَ واذهبْ إلى البلدِ الذي جئتَ منهُ، وقُلْ:

سألتُ مالكًا وقال: لا أدري[١]. هكذا أدبُ العلماءِ.

وهذا معاذٌ رضي الله عنه يقولُ للنبيِّ ﷺ: «**اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ**»، ففي هذا: رَدُّ العلمِ إلى عالمِهِ، وعدمُ تدخُّلِ الإنسانِ في شيءٍ وهو لا يدري عن حكمِهِ، والله - تعالى- يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]، ويقولُ سبحانه وتعالى لما ذكرَ المحرّماتِ في قولِهِ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ ختمها بقوله: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣] وقالَ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأنعام: ١٤٤]، والآياتُ والأحاديثُ في هذا كثيرةٌ، فمن يريدُ النجاةَ لنفسِهِ، ويريدُ السلامةَ، وأيضًا يريدُ السلامةَ للناسِ؛ فإنه لا يتدخلُ في شيءٍ لا يعرفُهُ، لأنه يُوَرِّطُ نفسه، ويُوَرِّطُ الآخرينَ معهُ، لأنه إذا أجابَ بخطأ ضلّلَ الناسَ ﴿لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ﴾، فهذه مسألةٌ عظيمةٌ، يجبُ علينا أن نتعقّلَها، وأنَّ الإنسانَ لا يتسرّعُ في الإجابةِ عن شيءٍ، إلّا إذا كان يعلمُهُ تمامًا، وإلّا فَلْيقِفْ على شاطئِ السلامةِ، ولا يدخلُ في لُجّةِ البحرِ وهو لا يُحسنُ السباحةَ.

«**قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ**» هذا يُقالُ في حياةِ النبيِّ ﷺ: الله ورسولُهُ أعلمُ، أما بعدَ وفاةِ النبيِّ ﷺ فإنه يُقالُ: الله أعلمُ، لأنَّ النبيَّ ﷺ قد انتقلَ من هذهِ الدارِ إلى الرّفيقِ الأعلى إلى الدارِ الآخرةِ، فيُوكلُ العلمُ إلى الله سبحانه وتعالى لأنَّ الله سبحانه وتعالى أَعْطى رسولَهُ علمًا عظيمًا ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء: ١١٣]، فالرسولُ ﷺ عندَهُ علمٌ عظيمٌ من الله، ويجيبُ في حياتِهِ، ولكنْ بعدَ وفاتِهِ قَدْ بلّغَ البلاغَ المُبينَ ﷺ وأنهى مهمّتَهُ ورسالَتَهُ، وانتقلَ إلى ربِّه عز وجل، فلا يجيبُ في مسألةٍ.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٧٧).

فلما تهيّأَ معاذٌ للجوابِ وتنبَّهَ وتطلَّعَ؛ ألقى عليه النبيُّ ﷺ الجوابَ، فقالَ: «حَقَّ اللهِ عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» هذا هو حقُّ الله سبحانه وتعالى على عبادِهِ، من أوَّلِهم إلى آخرِهم، كما في الآيةِ التي في مطلعِ البابِ: «﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾» [الذاريات: ٥٦]، هذا هو حَقُّ الله على العبادِ، وهو أولُ الحقوقِ، وآكدُ الحقوقِ، لأنَّ الإنسانَ منّا عليه حقوقٌ، أعظمُها: حقُّ الله، ثمَّ حقُّ الوالدينِ، ثمّ حقُّ الأقاربِ، ثمَّ حَق اليتامى والمساكينِ والجيرانِ والمماليكِ، كما في قولِه -تعالى-: ﴿وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ﴾ [النساء: ٣٦]، فهذه عشرةُ حقوقٍ، ذكرَها الله -سبحانه- في هذهِ الآيةِ، أولُها: حقُّ الله سبحانه وتعالى وكما في الآياتِ في سورةِ الإسراءِ، التي ذكرَ الله فيها خمسةَ عشرَ حقًّا، أوَّلُها: حقُّ الله في قولِه -تعالى-: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٨٨]، ثم جاءَ بحقِّ الوالدينِ ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ﴾ [الإسراء: ٢٣]، إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ﴾ [الإسراء: ٣٩]، ختمَ الآياتِ بما بدأَها به وهو حقُّ الله على عبادِهِ أن يعبدوهُ، ولا يكفي هذا، أَنْ يعبدوهُ، بل ولا يُشْركوا بِهِ شيئًا، لأنَّ العبادةَ لا تكونُ عبادةً إلَّا إذا خَلَصَتْ من الشركِ، أما إذا خالَطَها شركٌ فإنَّها لا تكونُ عبادةً لله، كما قالَ -تعالى-: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ۝١١٠﴾ [الكهف: ١١٠]، لأنَّ الشركَ يُبطلُ العبادةَ، ويُبطلُ سائرَ الأعمالِ، ولا يصحُّ معه عملٌ، مهما كلّفَ الإنسانُ نفسَه بالعباداتِ، إذا كانَ عندَهُ شيءٌ من الشركِ الأكبرِ فإن عبادتَهُ تكونُ هباءً منثورًا: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ

﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩]، قال -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر: ٦٥-٦٦]، وقالَ -تعالى- لما ذكرَ الأنبياءَ في سورةِ الأنعام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٤] إلى آخرِ الأنبياءِ الذينَ ذكرَهُمُ الله، قالَ -جلَّ وعلا-: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام: ٨٨]، فالشركُ يُحبطُ الأعمالَ، ولهذا كثيرًا ما يأتي الأمرُ بالعبادةِ مقرونًا بالنهي عن الشركِ: «﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]»، **أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**، وهذا هو معنى لا إله إلَّا الله، لأنَّ «لا إلهَ إلَّا الله» تشتملُ على النفي وعلى الإثباتِ، النَّفي: نفي الشركِ، والإثبات: إثباتُ التوحيدِ.

«**أَنْ يَعْبُدُوهُ**» والعبادةُ -أيضًا- كما أنَّها لا تكونُ عبادةً إلَّا مع التوحيدِ، كذلكَ لا تكونُ عبادةً إلَّا إذا كانَتْ موافقةً لما شرعَهُ النبيُّ ﷺ، فالعبادةُ وسائرُ الأعمالِ لا تصحُّ إلَّا بشرطينِ:

الشرط الأول: الإخلاصُ لله عز وجل.

الشرط الثاني: المتابعةُ للرسولِ ﷺ.

فلو أن الإنسانَ جاءَ بعباداتٍ مُحْدَثةٍ ليسَ فيها شركٌ أبدًا كلُّها خالصةٌ لله، ولكنَّها ليستْ من شريعةِ النَّبي ﷺ، فهي بدعٌ مردودةٌ لا تُقبل، قالَ ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[1] وفي رواية: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»، فالعبادةُ لا تكونُ عبادةً إلَّا بشرطينِ: الإخلاصُ لله عز وجل، والمتابعةُ

---

(١) أخرجه البخاري كتاب البيوع، باب النجش، تعليقاً، ووصله مسلم (١٧١٨).

للرسولِ ﷺ، وهذا هو معنى الشهادتينِ: شهادةُ أنَّ لَا إلهَ إلَّا الله، فمعناها: الإخلاصُ لله عز وجل، وشهادةُ أنَّ محمدًا رسولُ الله ومعناها: المتابعةُ للرسولِ ﷺ، فالعباداتُ لا يصلحُ أن يكونَ فيها شيءٌ من الاستحساناتِ البشريّةِ، أو استدراكاتِ العقولِ، أو غيرِ ذلك، مهما حسُنتْ نيّةُ الفاعلِ ما دامَ أنه بدعةٌ: فلو أنَّ إنسانًا -مثلاً- قالَ: الصلواتُ خمسٌ، أنا أريدُ زيادةَ خيرٍ، أصَلِّي فريضةً سادسةً، زيادةَ خير، نقولُ: لا، هذا باطلٌ، لأن هذا شيءٌ لم يَشْرَعْهُ الله ولا رسولُه، وإن كانَ قصدُك حسنًا، فهو عملٌ مردود وباطلٌ، ولهذا لما جاءَ ثلاثةُ نفرٍ من الصحابةِ إلى بيتِ النبيِّ ﷺ يسألونَ عن عبادةِ النبيِّ ﷺ من أجلِ أَنْ يَقْتدوا بهِ، فذكرَ أزواجُ النبيِّ ﷺ لهؤلاءِ الرَّهْطِ عبادةَ النبي ﷺ فكأنهم تقالُّوها، ولكنْ اعتذروا بأنَّ الرسولَ ﷺ مغفورٌ له ما تقدَّمَ من ذنبِهِ وما تأخّرَ، وقالوا: أينَ نحنُ من رسولِ الله ﷺ فقد غُفرَ له ما تقدَّمَ من ذنبِهِ وما تأخّرَ، فقال أحدُهم: أنا أُصَلي ولا أَنام، وقالَ الآخرُ: أنا لا أتزوَّجُ النساءَ -يعني: يريدُ التَّبَتُّلَ-، وقالَ الثالثُ: أنا أصومُ ولا أفطرُ، -وفي روايةٍ: ولا آكلُ اللحمَ-، فلمَّا بلغَ ذلكَ رسولُ الله غضبَ غضبًا شديدًا، وقالَ: **«أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللهِ إِنِّي لأعلمُكُم بِاللهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ وَأَخْشَاكُمْ لَهُ، وَإِنِّي أُصَلِّي وَأَنَام، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، وَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»**[1]، وهكذا، فالعبادةُ لا بدَّ أن تكونَ مطابقةً لمَا جاءَ به النبيُّ ﷺ ليسَ فيها بدعٌ، ولا خرافاتٌ، ولا محدثاتٌ، ولا استحساناتٌ للعقولِ، أو اقتداءٌ بفلانٍ أو علّانٍ، ما دامَ أنَّ هذا المُقتدَى بِهِ ليس مُتَّبعًا للرسولِ ﷺ فليسَ بقدوةٍ، هذه هي العبادةُ، ولهذا يقولُ العلامةُ ابنُ القيّمِ رحمهُ الله في «النونيةِ»[2]:

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣) ومسلم (١٤٠١).

(٢) انظر «توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم» تأليف أحمد بن إبراهيم بن عيسى (٢/ ٣٤٧).

حـقُّ الإلـــهِ عبـادةٌ بالأمـرِ لا   بهَوى النفوسِ فذاكَ للشيطان

حقُّ الإلهِ عبادةٌ بالأمر، يعني: بالشرعِ، فالأمرُ المراد به: الشرعُ، فلا تُحْدِثْ شيئًا من عندك.

لا بهوى النفوسِ فذاكَ للشيطانِ، فالذي يعبدُ الله باستحسانِ عقلِه، وشهوةِ نفسِه بشيءٍ لم يَشرَعْهُ الرسولُ ﷺ ليسَ عابدًا لله، وإنما هو عابدٌ للشيطان، لأنه هو الذي أمرَهُ بذلكَ، فالشيطانُ يأمرُ بالبدعِ والخرافاتِ.

وقال في موضعٍ آخر[1]:

وعبـادةُ الـرحمنِ غايـةُ حُبِّـه   مـع ذُلِّ عابـدِهِ هُـما قُطْبـان

وعلـيهما فَلَـك العبـادةِ دائـرٌ   مـا دار حتـى قامـتِ القُطْبـان

ومـدارُهُ بالأمـرِ أمـرِ رسولِـهِ   لا بالهـوى والنفـسِ والـشيطانِ

هكذا تكونُ العبادةُ، لا بد أن تكونَ العبادةُ خالصةً لوجهِ الله عز وجل، ليس فيها شركٌ، وأن تكونَ -أيضًا- على وَفْق ما جاءَ به رسولُ الله ﷺ تمامًا ليسَ فيها بدعةٌ.

«**وَحَقَّ العِبَادِ عَلَى اللهِ: أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»، هذا الحقُّ للعبادِ على الله ليسَ بحقٍّ واجبٍ على الله، وإنما هو تفضُّلٌ منه سبحانه وتعالى، لأنَّ الله لا يجبُ عليه حقٌّ لأحدٍ، ولا أحد يوجبُ على الله شيئًا، كما هو مذهبُ المعتزلةِ، فهم الذينَ يروْنَ أنَّ الله يجبُ عليهِ أن يعملَ كذا، يوجبونَ على الله بعقولِهم، أما أهلُ السُّنةِ والجماعةِ فيقولونَ: الله سبحانه وتعالى ليسَ عليهِ حقٌّ واجبٌ لخلقِه،

(١) المرجع السابق (١/ ٢٥٣).

وإنما هو شيءٌ تفضَّلَ به -سبحانه- وتكرَّمَ به، كما قالَ -تعالى-: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم: ٤٧] هذا حقٌّ تفضلَ به، ونظمَ ذلكَ الشاعرُ بقولِهِ:

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِب ... كَلَّا وَلَا سَعْيٌ لَدَيْهِ ضَائِعُ

إِنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ، أَوْ نُعِّمُوا ... فَبِفَضْلِهِ وَهُوَ الكَرِيمُ الوَاسِعُ

فمعنى «**حَقَّ العِبَادِ عَلَى اللهِ**» يعني: الحقُّ الذي تفضلَ الله -تعالى- به، وأوجَبهُ على نفسِهِ، من دونِ أن يوجبَهُ عليهِ أحدٌ من خلقِهِ، بل هو الذي أوجبَهُ على نفسِه، تكرّمًا منه بموجبِ وعدِهِ الكريمِ الذي لا يُخلفه -سبحانه- ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الروم: ٦].

«**أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**» فدلَّ هذا على أَنَّ مَنْ سَلِم مِنَ الشركِ الأكبرِ والأصغرِ فإنهُ يسلمُ من العذابِ، وهذا إذا جَمعْتَهُ مع النصوصِ الأُخرى التي جاءتْ بالوعيدِ على العُصاةِ والفسقةِ، فإنكَ تقولُ: العُصاةُ من الموحّدينَ الذينَ لم يشركوا بالله شيئًا، ولكنْ عندَهم ذنوبٌ دونَ الشركِ منْ سرقةٍ، أو زنا، أَوْ شربِ خمرٍ، أو غيبةٍ، أَوْ نميمةٍ، أو إلى آخرِه، فهذهِ ذنوبٌ يستحقُ أصحابُها العذابَ، ولكِنْ هي تحتَ مشيئةِ الله إنْ شاء الله غفرَ لهم من دونِ عذابٍ وأدخلَهم الجنةَ، وإن شاءَ عذَّبَهم بقدرِ ذنوبِهم، ثمَّ يُخرجُهُم بتوحيدِهم، ويدخلُهُم الجنةَ، فالموحّدونَ مآلُهم إلى الجنةِ، إما ابتداءً وإما انتهاءً، وقد جاءَ في الأحاديثِ[1] أنه يُخرجُ مِنَ النارِ مَنْ في قلبِه أدنى مثقالِ حبةٍ من خردلٍ من إيمانٍ، ويُخرجُ من النارِ أُناسٌ كالفحمِ، قد امتحشوا، ثُمَّ يُنبتُ الله أجسامَهُم بأن يُلقوا في نهرٍ على بابِ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢) ومسلم (١٨٣).

....

الجنةِ، يُقال له نهرُ الحياةِ، فتنبت أجسامُهم، ثم يدخلونَ الجنةَ، ويُخَلَّدون فيها، فأهلُ التوحيدِ مآلُهم إلى الجنةِ، حتى ولو عذِّبوا في النارِ، بسببِ التوحيدِ، أما الكفارُ والمشركون والمنافقونَ النفاقَ الأكبرَ، فهؤلاءِ مآلهم النار خالدينَ مخلَّدينَ فيها، لا يدخلونَ الجنةَ أبدًا ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠)﴾ [الأعراف: ٤٠].

فقوله ﷺ: «**أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**» هذا وعدٌ من الله سبحانه وتعالى؛ إنْ شاء غَفَرَ هذهِ الذنوبَ، وإن شاءَ عذَّب أصحابَها، ثمَّ يُدْخلهم الجنةَ بعدَ ذلك، وقد يُخْرِجهم الله من النارِ بشفاعةِ الشافعينَ، وقد يخرجُهم برحمتِهِ سبحانه وتعالى، فحتى ولو عُذِّبوا مآلهم إلى الجنة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ﴾ [النساء: ٤٨]، فالتوحيدُ يَعصمُ من الخلودِ في النارِ، وإذا كانَ التوحيدُ كاملاً فإنه يَعصمُ من دخولِ النار أصلاً، وإذا كانَ ناقصًا فإنه يَعصمُ من الخلودِ فيها، ولا يعصمُ من الدخولِ فيها، وإنما يَعصمُ من الخلودِ فيها، كما قالَ -تعالى- لما ذكرَ مناظرةَ إبراهيمَ الخليلِ عليه السلام مع عَبَدةِ الأصنامِ قال: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾، المؤمنونَ أو المشركونَ، ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١)﴾ [الأنعام: ٨١] قالَ الله -تعالى-: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢)﴾ [الأنعام: ٨٢]، هؤلاءِ هُمْ أهلُ التوحيدِ، ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ يعني: بشرك، ولهذا لما نزلتْ هذهِ الآيةُ شقَّتْ على الصحابةِ وقالوا: أيُّنا لم يظلمْ نفسَه؟، فقالَ ﷺ: «**لَيْسَ الَّذِي تَعْنُونَ، إِنَّهُ الشِّرْكُ، أَلَمْ تَسْمَعُوا قَوْلَ العَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾**»[1]، فالمرادُ بالظلمِ هنا: الشركُ، فالذينَ سلِموا من الشركِ لهم

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩١٨) ومسلم (١٢٤).

الأمنُ، إمَّا الأمنُ المطلقُ، وإما مطلقُ الأمنِ، والأمنُ المطلقُ الذي ليسَ معهُ عذابٌ، وأما مطلقُ الأمنِ فهذا الذي قد يكونُ معهُ شيءٌ من العذاب على حسبِ الذنوبِ، فالحاصلُ: أنَّ أهلَ التوحيدِ لهم الأمنُ بلا شكّ، ولكن قد يكونُ أمنًا مطلقًا، وقد يكونُ مطلق أمنٍ، هذا هو الجوابُ الصحيحُ عن هذهِ المسألةِ.

بخلافِ مذهبِ الخوارجِ والمعتزلةِ، فعندَهُم أنَّ أصحابَ الكبائرِ مخلّدونَ في النار -والعياذُ بالله، من هذا المذهبِ الباطلِ- فعندَهم أنَّ من دخَل النارَ لا يخرجُ منها بزعمِهم، ويُغالطون النصوصَ الصحيحةَ من الكتابِ والسنّةِ التي تدلُّ على أن أهلَ التوحيدِ ولو كانَ عندَهم ذنوبٌ ومعاصٍ فإنَّهم لا يُخلّدون في النارِ، قالَ الله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢] يعني: هذهِ الأمّة، والمرادُ بالكتاب: القرآنُ، ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [فاطر: ٣٢-٣٣]، انظروا كيفَ ذكَر الظالمَ لنفسِهِ مع المقتصدِ ومع السابقِ بالخيراتِ، ووعدَهم جميعًا بالجنةِ: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥)﴾ [فاطر: ٣٣-٣٥]، ذكرَ منهم الظالمَ لنفسِه -بل بدأ به-؛ ممَّا يدلُّ على أنَّ أهلَ التوحيدِ يُرجَى لهم الخيرُ، ويُرجى لهم دخولُ الجنةِ، ولو كانَ عندَهم ذنوبٌ كبائر دونَ الشركِ.

وسيأتي في الأحاديث: **«مَنْ مَاتَ وَهُوَ يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ، وَمَنْ مَاتَ وَهُوَ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّةَ»**[1]، **«إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ**

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٣٨) ومسلم (٩٢).

إِلَّا اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ»[١]، إلى غيرِ ذلكَ من الأحاديثِ التي فيها أنَّ التوحيدَ يعصمُ مِنْ دخولِ النارِ، أو يعصمُ من الخلودِ فيها، وسيأتي بابٌ مستقلٌّ في هذا الكتابِ المباركِ اسمُه «**باب فضلِ التوحيدِ وما يكفِّر من الذنوب**»[٢].

ولما قالَ النبيُّ ﷺ: «**حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ: أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**» فمعاذٌ رضي الله عنه استبْشَرَ بهذا الحديثِ الشريفِ، وفرِحَ بهِ غايةَ الفرحِ، وقالَ: يا رسولَ الله ألا أُبشِّرُ الناسَ؟، قالَ النبيُّ ﷺ: «**لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا**»، يعني: أنَّ النبيَّ ﷺ خَشِيَ إذا سمِعَهُ الناسُ فإنهم يتّكِلونَ على جانبِ الرجاءِ ويتساهلونَ في المعاصي، ويقولون: ما دُمْنا موحّدينَ فالمعاصي لا تضرُّنا، لأنَّ الرسولَ يقولُ: «**أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»، ونحنُ والحمدُ لله لسنا مشركينَ، ونحنُ لا نعبدُ إلَّا الله، فيتساهلونَ في المعاصي، فيُغَلِّبون جانبَ الرجاءِ على جانبِ الخوفِ، فهذا من الحكمةِ؛ أَنَّ العلمَ لا يوضَعُ إلَّا في مواضِعِهِ، فإذا خِيفَ من إلقاءِ المسائلِ على بعضِ الناسِ محذورٌ أكبرُ، فإنَّهم تُكتمُ عنهم بعضُ المسائلِ من أجلِ الشفقةِ بهم، ورحمتِهم من الوقوعِ في المحذورِ، فإنَّ النبيِّ ﷺ أمَرَ بكتمانِ هذا النوعِ من العلمِ عن عامَّة الناسِ، وأخبرَ به معاذًا، لأنَّ معاذًا من الجهابذةِ، ومن خوَّاصِ العلماءِ، فدلَّ على أنهُ يجوزُ كتمانُ العلمِ للمصلحةِ، إذا كانَ يترتبُ على إيضاحِ بعضِ المسائلِ للناسِ محذورٌ: بأنْ يفهموا خطأً، أو يَتَّكِلُوا على ما سَمِعوا، فإنهم لا يُخبَرون بذلك، وإنما تُلْقَى هذهِ المسائلُ على خوَّاصِ العلماءِ الذينَ لا يُخْشى منهم الوقوعُ في المحذورِ، فأخذَ العلماءُ[٣] من

(١) أخرجه البخاري (١١٨٦) ومسلم (٣٣).

(٢) انظر (ص٧١).

(٣) انظر «فتح الباري» (١١/ ٤١٣) و«تيسير العزيز الحميد» (٦٨).

هذا الحديثِ جوازَ كتمانِ العلمِ للمصلحةِ، وإنما أخبرَ معاذٌ رضي الله عنه، بهذا الحديثِ عندَ وفاتِهِ، خشيةَ أن يموتَ وعندَهُ شيءٌ من الأحاديثِ لم يبلِّغْهُ للناسِ، كما في حديثِ عليٍّ رضي الله عنه: «**حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُريدونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ**»[1]، يعني: لا يُلقَى على كلِّ الناسِ بعضُ المسائلِ التي فيها أمورٌ يَخفى عليهم معناها، أو تشوِّش عليهم، وإنما يُلقى على الناسِ ما يفهمونَهُ، ويستفيدونَ منه، أما نوادرُ المسائلِ، وخواصُ المسائلِ، فهذه تُلْقَىَ على طلبةِ العلمِ، والمتفقهينَ المتمكِّنينَ، وهذا من الحكمةِ ووضعِ الشيءِ في موضعِه، لَمّا تكونُ أمامَ عُصاةٍ يشربونَ الخمورَ، ويزنونَ، ويسرقونَ، وتقولُ: الله غفورٌ رحيمٌ، الله قريبٌ مجيبٌ، الله سبحانه وتعالى يغفرُ ويسمحُ، فيزيدونَ في الشرورِ، لكنْ حينَ تقولُ لهم: اتقوا الله، الله سبحانه وتعالى توعّدَ الزناةَ بالعذابِ وتوعّدَ على السرقةِ، وعلى المَعاصي بالعذابِ الشديدِ، فتذْكُرُ لهم نصوصَ الوعيدِ، من أجلِ التوبةِ، ولو أتيتَ عند متمسِّكينَ وطيبينَ فذكرْتَ لهم آياتِ الوعيد، فهذا ربما يزيدُهَم وسواسًا، أو تشدُّدًا، فأنتَ تذكرُ لهم آياتِ التيسيرِ، وأحاديثَ التيسيرِ، والتسهيلِ، والرحمةِ، الفرجِ، إلى غيرِ ذلك، من أجلِ أن لا يزيدوا ويشتدوا ويغلوا، فكُلُّ مقامٍ لهُ مقالٌ[2]، وتوضعُ الأمورُ في مواضِعها، هذا هو الميزانُ الصحيحُ، والناسُ ليسوا على حدٍّ سواءٍ، كلٌّ يُخاطب بما يستفيدُ منه ولا يَتَضَّرر به، فلا تأتي بآياتِ الوعدِ والرجاءِ عندَ المتساهلينَ، ولا تأتي بآياتِ الوعيدِ عند المتشددّينَ، بل تكونُ كالطبيبِ تضعُ الدواءَ في موضعِهِ المناسب، هكذا يكونُ

(١) أخرجه البخاري (١٢٧).

(٢) مثلٌ عربيٌّ يراد به أن لكل أمرٍ أو فعلٍ أو كلامٍ موضعاً لا يوضع في غيره. انظر «مجمع الأمثال» للميدان (٢/ ١٩٨).

طالبُ العلمِ، إذا كانَتْ هناكَ أمورٌ غامضةٌ، لا يعرفها العوامُ، ولا تتسعُ لها عقولُهم من المسائلِ العلميةِ، فلا تُلقَى على العوام، وإنما تُلقى على طلبةِ العلمِ، وعلى الناسِ الذين يستوعبونها، ولهذا يقول ابن مسعود: «**مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً**»[1] وقال علي رضي الله عنه: «**حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُرِيدونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ**»[2].

فالحاصلُ؛ أَنَّ طالبَ العلمِ والواعظَ والمعلمَ يجبُ عليه أَنْ يراعيَ أحوالَ الحاضرينَ وأحوالَ الناسِ، ويُعْطيهم ما يحتاجون إليه من المسائلِ، ولا يُلقى عليهم المسائلَ الغريبةَ التي لم يتوصلوا إليها، فلو أتيتَ عندَ طلبةِ علمٍ مبتدئين، فلا تُلْقِ عليهم غرائبَ المسائلِ التي لا يعرفُها إلَّا الراسخون في العلمِ، بل تُعَلِّمُهم مبادئَ مبسطةً سهلةً، يتدرّجونَ بها شيئًا فشيئًا، لا تطلبْ من طالبٍ مبتدئٍ أن يقرأَ في «**صحيح البخاري**»، لأنه لم يَصِلْ إلى هذا الحدِّ لكنْ لَقِّنْهُ «**الأربعينَ النوويةَ**»، والأحاديثَ القريبةَ، وشروطَ الصلاةِ، وأحكامَ الطهارةِ، إلى آخرِه، وإنسانٌ مبتدئٌ بعلمِ العربيةِ، لا تأمرْهُ بقراءةِ كتابِ سيبويه؟، لكنْ تأمرُهُ بقراءةِ «**الأجرُّوميَّةِ**»، ومسائلَ مبسّطةٍ، يدخلُ بها على اللغةِ العربيةِ والنحوِ، شيئًا فشيئًا، ولذلكَ ألفَ العلماءُ المختصراتِ والمتوسطاتِ والمطوّلاتِ، من أجلِ أن طالبَ العلمِ يمشي مراحلَ، شيئًا فشيئًا، الحاصل: أنَّ كُلَّ شيءٍ له شيءٌ، وكل مقامٍ له مقالٌ.

وقوله رحمه الله: «أخرجاه في الصحيحين» أخرجَهُ البخاريُّ: محمدُ بنُ إسماعيلَ البخاريُّ في صحيحِهِ «الجامع الصحيح»، الذي هو أصحُ كتابٍ عندَ

---

(١) أخرجه مسلم في المقدمة، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع.

(٢) تقدم قريباً.

المسلمينَ بعدَ كتابِ الله عزَّ وجلَّ، وبالمنزلةِ الأولى مِنْ كتبِ السنةِ، ثمَّ يليهِ «صحيح الإمام مسلم» رحمه الله، فالصحيحان: «صحيحُ البخاري»، و«صحيحُ مسلم» هما أعلى شيءٍ في كتُبِ السنّةِ، وأصحُ الأحاديثِ ما اتَّفقَ عليهِ البخاريُّ ومسلمٌ، ثم ما رواهُ البخاريُّ، ثم ما رواهُ مسلمٌ، ثمَّ بقيةُ الأحاديثِ، لأنَّ هناكَ صحاحًا غيرَ «الصحيحين»: مثلَ: «صحيح ابنِ خزيمةَ»، وهذا يُثني عليه أهلُ العلمِ[1]، و«صحيح الحاكم»، و«صحيح ابن حبان»، وهذهِ يشترطُ أهلُها الصحةَ، ولكنَّ تصحيحَهم دونَ تصحيحِ الإمامينِ البخاريِّ ومسلمٍ.

فهذا البابُ اشتملَ على فوائدَ عظيمةٍ:

الفائدة الأولى: بيان تفسيرِ التوحيدِ، وأنه عبادةُ الله وحدَه لا شريكَ له، هذا هو التوحيدُ، لأنَّ كلَّ الآياتِ التي في البابِ تأمرُ بالعبادةِ وتنهى عنِ الشرك: «﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]»، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]، فهذه الآياتُ تفسّرُ التوحيدَ بأنه العبادةُ.

الفائدة الثانية: أنَّ الرسلَ بُعثوا بالدعوةِ إلى توحيدِ العبادةِ، لا بالدعوةِ إلى توحيدِ الربوبيةِ، فليسَ هناكَ آيةٌ واحدةٌ قالتْ أقروا بالربوبيةِ، أو أَقِرُّوا أنَّ الله هو الخالقُ الرزاقُ، لماذا؟، لأنَّ هذا موجودٌ في الناسِ. فهم مُقِرُّون بأنَّ الله هو الخالقُ، الرازقُ، المُحْيي، المُميتُ، المُدبِّر، فتوحيدُ الرُّبوبيةِ موجودٌ في

(١) يقول السيوطي: («صحيح ابن خزيمة» أعلى مرتبة من «صحيح ابن حبان» لشدة تحريه، حتى أنه يتوقف في التصحيح لأدنى كلامٍ في الإسناد، فيقول: إن صح الخبر أو إن ثبت كذا، ونحو ذلك) «تدريب الراوي» (١/ ١١٥).

غالبِ البشرِ، لأنَّ الفِطَر تقتضيهِ، لأنَّ العاقلَ من الناسِ يعلمُ أنَّ هذا الخلقَ لا بدَّ له من خالقٍ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦﴾ [الطور: ٣٥-٣٦]، ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧﴾ [النحل: ١٧]، فالآياتُ ما جاءتْ تطالبُ الناسَ بالإقرارِ بتوحيدِ الربوبيةِ، لأنَّ هذا موجودٌ، والإقرارُ به لا يكفي في الدخولِ في الإسلامِ، وإنَّما جاءَتْ كلُّها على نَسَقٍ واحدٍ تأمرُ بالعبادةِ، وإنما تذكرُ توحيد الربوبية للاستدلالِ به على توحيدِ الألوهيةِ.

الفائدة الثالثة: في قوله: «﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]» هذه الآيةُ فيها: أنَّ الحكمةَ من خلقِ الجنِ والإنس هي عبادةُ الله سبحانه وتعالى، **الآية الثانية**: «﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ﴾ [النحل: ٣٦]» فيها: أن الرسلَ كلَّهُم من أولِهم إلى آخرِهم جاءوا بالأمرِ بعبادةِ الله، وتركِ عبادةِ ما سواه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ﴾، فدلّ على أنَّ التوحيدَ هو الذي بُعثتْ بهِ الرسلُ، كما أنه هو الذي خُلِقَ الخلقُ من أجلِهِ.

الفائدة الرابعة: أنَّ العبادةَ لا تنفعُ مع الشركِ، فمَنْ أشركَ بالله شيئًا فإنه لم يُؤَدِ حقَّ الله سبحانه وتعالى، فالذي لا يَعبدُ الله مطلقًا كالملاحدةِ، وكذلكَ الذي يعبدُ الله مع الشركِ، كلُّهم سواءٌ، الملحدُ والمشركُ، إنما الذي يعبدُ الله حقًا هو الذي يعبدُه ولا يشركُ بهِ شيئًا، هذا هو الذي يعبدُ الله حقَّ عبادتِهِ وهو الذي تنفعُهُ عبادتُهُ.

* * *

الباب الثاني:

بَاب فَضلُ التَّوحِيدِ وَمَا يُكَفِّرُ مِنَ الذُّنُوبِ

قالَ الشيخُ رَحِمَهُ الله: «**باب فضل التّوحيد وما يكفّر من الذنوب**» ثمَّ ساقَ في هذا البابِ آيةً من كتابِ الله، وأحاديثَ عن رسولِ الله ﷺ تُبَيّنُ فضلَ التّوحيدِ، وتُبيّنُ ما يُكَفّرُهُ من الذنوبِ، والمناسبةُ بينَ هذا البابِ والذي قبلَه، مناسبةٌ ظاهرةٌ، فإنه رَحِمَهُ الله لما بيّنَ في البابِ الذي قبلَه حقيقةَ التَّوحيدِ، ومعنى التَّوحيدِ المطلوبِ، ووضّحَ ذلك بالآيات القرآنيةِ، والأحاديثِ النبويةِ، ناسب أن يذكّرَ فضلَهُ ليرغبَ فيه، ويحثَّ عليه، لأنَّ الشيءَ إذا عُرِفتْ مزاياهُ فإنَّ النفسّ تتعلقُ بهِ وتحرصُ عليهِ، وهذا التصنيفُ بينَ البابينِ في غايةِ الحكمةِ، مما يدلُّ على دقةِ فهمهِ رَحِمَهُ الله، لأنه لو ذكرَ فضلَ التّوحيدِ قبلَ أن يبيّنَ معنى التّوحيدِ لم يكنْ ذلكَ مُناسباً، فلا بدَّ أن تُبيّنَ حقيقةُ الشيءِ ومعناه، ثمَّ بعدَ ذلك يُبَيّنَ فضلُهُ، أما أنْ تُذْكَر الفضائلُ لشيءٍ غيرِ معروفٍ، فهذا لا يُجْدي شيئاً، ومن هنا نُدرِكُ خطأَ كثيرٍ من الدعاةِ اليومَ، أو من المؤلفينَ المعاصرينَ، الذينَ يزعمونَ أنهم يكتبونَ عن الإسلامِ، وعن الدعوةِ، ويمدحونَ الإسلامَ مدحاً كثيراً، في محاضراتِهم، وفي كتبِهم، وهذا حقٌّ، ولكنْ ما هو الإسلامُ أوْلاً، لم يبينوا ما هو الإسلامُ، تقرأُ الكتابَ من أولِهِ إلى آخرِهِ، أو تستمعُ إلى المحاضرةِ -أو الشريط- من أولِهِ إلى آخرِهِ، وهو مدحٌ للإسلامِ وثناءٌ عليه، وبيانٌ لمزاياهُ، لكنْ ما هُوَ الإسلامُ، لأنَّ كلَّ واحدةٍ من الفرقِ الضالةِ والمنحرفةِ تفسّرُ الإسلامَ بمذهبها، وينزّلونَ هذا المدحَ، وهذا الثناءَ على مذهبِهم، فلا يكفي أننا نمدحُ الإسلامَ ونثني عليه فقطْ، لا بدّ أن نُبينَ ما هو الإسلامُ، ما هي حقيقةُ الإسلامِ الذي يُنجّي من الكفرِ، ويُدْخلُ في التّوحيد، ويُنجّي من النارِ ويُدْخلُ في الجنةِ؟ وما هي نواقضُ الإسلامِ التي تُفسدُ

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ الآية [سُورَةُ الأَنْعَامِ: ٨٢].

الإسلامَ، وتُخرِجُ منه؟ وما هي مكمّلاتُه؟ وما هي منقّصاتُه؟ لا بد من هذا، أما مجردُ المدحِ، وذكرُ الفضائلِ بدونِ إنك تبيّنُ حقيقةَ الشيءِ، فهذا خطأٌ عظيمٌ، والإسلامُ هو ما جاءَ بِهِ رسولُ الله ﷺ وكان عليهِ صحابتُهُ الكرامُ، وكانَ عليهِ القرونُ المفضلةُ، أما ما خالف ذلك فليسَ من الإسلامِ في شيءٍ، وإنْ كانَ صاحبُه يدَّعي أنه هو الإسلامُ، ومن هنا تجدونَ الشيخَ بيّنَ في البابِ الأولِ حقيقةَ التّوحيد لئلا يدعِي كلَّ واحدٍ أنَّ مذهَبهُ هو التّوحيدُ، أو ما هو عليهِ هو التَّوحيدُ، وهذا أمرٌ مهمٌ جداً، لأنهم ادعوا إلى الإسلامِ وبينوا مزايا الإسلامِ فقَطْ، ولا تبينوا للناسِ حقيقةَ الإسلامِ، لأنَّ هذا يفرقُ عنكم النّاسَ.

* * *

قالَ رَحِمهُ الله تعالى: «وقول الله -تعالى- ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢]»، هذه الآيةُ جاءَتْ بعدَ ذكرِ مناظرةِ إبراهيمَ الخليل -عَلَيهِ الصّلاةُ والسَّلام- لقومه، لأنَّ قومَه كانوا يعبدونَ الكواكبَ، وهم الصابئةُ، في أرضِ العراق، فالله سبحانه وتعالى بعثَ نبيَّه ورسولَه إبراهيمَ الخليلَ -عليه الصلاةُ والسلامُ- للدعوةِ إلى التوحيدِ، وإنكارِ هذا الشركِ، ولم يكنْ هناكَ مسلمٌ وقتَ بعثتِهِ -عليهِ الصلاةُ والسلامُ-؛ كلُّهم على الوثنيةِ -والعياذُ بالله-، وذكرَ الله ذلكَ في القرآنِ في عدّةِ مواضعَ منها: في سورة الأنعامِ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ [الأنعام: ٧٤] بدأ بأبيهِ، لأنهُ يجبُ على الإنسانِ أوَّل ما يبدأُ بنفسهِ، ثم بأقربِ النَّاسِ إليه، وأهل بيتهِ، وجيرانهِ، ثم ينتشرُ في الدعوةِ إلى الله شيئاً فشيئاً، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا

﴿ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٧٤﴾[الأنعام: ٧٤]، وفي الآية الأخرى يقولُ -جلَّ وعلا-: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ٥١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ٥٢﴾ [الأنبياء: ٥١، ٥٢] إلى آخر الآيات.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٧٥] أطلعَهُ الله سبحانه وتعالى، على ذلكَ من أجلِ أن يؤهلَهُ لحملِ الرسالةِ، والدعوةِ إلى الله سبحانه وتعالى والمناظرةِ، ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ٧٥﴾ الموقنين بالله سبحانه وتعالى وتوحيدِه، ويزولُ عنهُ أيُّ شكٍّ أو أيُّ ارتيابٍ، أو أيُّ شبهةٍ، يكونُ على وضحِ اليقين، ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ يعني: غَشَى عليهِ الليلُ بظلامهِ، ﴿رَءَا كَوْكَبٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦]، هذا من بابِ المناظرةِ، وليسَ من بابِ النظر -كما يقولُ الفلاسفةُ أو علماءُ الكلامِ- لأنَّ إبراهيمَ يعرفُ ربَّهُ من قبلُ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ [الأنبياء: ٥١]، ولكنهُ قالَ ذلكَ لأجلِ المناظرةِ، هذا ربي بزعمِكم، ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ يعني: غابَ واختفى، ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦]، لأنه لو كانَ رباً ما غابَ ولا اخْتَفى، فهذا مما يُبطِلُ ربوبيةَ هذا الكوكبِ، ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ﴾ لأنهُ لو كانَ ربًّا ما عرضَ لهُ هذا العارضُ، وهذا الزوالُ بعدَ الوجودِ ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٧] يتدرجُ شيئاً فشيئاً، ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ يعني: غاب وانتقلَ، صارَ هذا القمرُ يُتصرَّفُ فيه، ويُدبَّرُ، مثلَ النَّجمِ الذي قبلَه، يُسَيَّرُ من المطلعِ إلى المغربِ، فهو ليسَ بربٍّ إذاً، ﴿قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةٗ﴾ [الأنعام: ٧٧، ٧٨] تدرجَ إلى أكبرِ الكواكبِ التي هي الشمسُ، وإذا بطُلَتْ عبادةُ الشمسِ بطُلَتْ عبادةُ بقيةِ الكواكبِ من باب أولى، ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ

﴿مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾ الآن صرَّحَ بالتّوحيدِ، وبيّنَ بطلانَ عبادةِ هذه الكواكبِ التي يعبدونها، تقرّرَ عقلاً وشرْعاً وفطرةً أنها ليسَتْ بآلهةٍ، وأعلنَ البراءةَ، وهي الهجرُ والتركُ والابتعادُ عنه، ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩] هذا هو الرب سبحانه وتعالى الذي فطرَ السماواتِ والأرضَ، يعني: خلقهُما وأبدعَهما على غيرِ مثالٍ سابقٍ، فالخالقُ هو الذي يستحقُ العبادةَ، أما الكواكبُ فهي مخلوقةٌ، والمخلوقُ لا يستحقُّ العبادةَ، مدبَّرةٌ ليس لها في نفسِها تدبيرٌ فكيفَ بغيرها؟ ﴿حَنِيفًا﴾ الحنيفُ معناه: المقبلُ على الله، المعرضُ عما سواهُ، يعني: لا أَلْتَفِت إلى غيرِهِ سبحانه وتعالى، ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ هذي براءةٌ أيضًا، لما تبرّأ من الأصنامِ تبرّأ من أصحابِها، ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ ناظروهُ على تركِ هذه الدعوةِ، وأن يسلكَ مسلَكَ الناسِ، ويمشي مع النّاسِ، حتى أبوهُ وقفَ في وجهِهِ، كما ذكرَ الله ذلك في سورة مريمَ، فإنَّ أباهُ وقفَ منه موقفَ المُعادي ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ [مريم: ٤٦]، أفحَمَهُم بالحجةِ ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٨٠] لأنهُم توعدوهُ بأصنامِهِم، ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾ [الأنعام: ٨٠-٨١] كيف تهدّدونني بآلهتكم وأنتم لا تخافون الله الذي خلقَ السمواتِ والأرضَ وجعلتُم معهُ شريكاً؟، إن كانَ هناكَ تهديدٌ أو وعيدٌ فهو عليكم أنتُم، ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾، ما تهمني أصنامُكم ولا وعيدُكم، لأني متوكلٌ على الله سبحانه وتعالى ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ [الأنعام: ٨١] إذا كنتم تهدّدونني بالوعيدِ والتخويف، وأنا أخوّفُكم بالله

سبحانه وتعالى، وأبيّنُ لكم أنكم إن لم تتوبوا إليه فسيعذبُكم، فـ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ أنا أو أنتم؟ ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾، فَصَلَ الله الحكمَ بينهم فقالَ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢] هذا هو الحكمُ الإلهيُّ، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وهذا عامٌّ في قومِ إبراهيمَ، وغيرهم من الخلقِ، يعني: الذين وحّدوا الله، وأخلصوا لهُ العبادةَ، ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ المراد بالظلم هنا: الشركُ، لأنَّ الظلمَ - كما بينَ أهلُ العلمِ - ثلاثةُ أنواع:

النوع الأول -وهو أعظمها-: ظلمُ الشركِ، قال -تعالى-: ظلمُ الشركِ، قال -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣] لماذا سُمِّيَ الشركُ ظلماً؟ لأنَّ الظلمَ في الأصلِ: وضعُ الشيءِ في غير موضعِهِ، والشركُ معناه: وضعُ العبادةِ في غيرِ موضعِها، وهذا أعظمُ الظلمِ، لأنهم لمَّا وضَعُوا العبادةَ في غيرِ موضعِها، أعطوها لغيرِ مستحقِّها، وسوَّوُا المخلوق بالخالق، سوَّوُا الضعيفَ بالقويِّ الذي لا يعجزُهُ شيءٌ، وهل بعدَ هذا ظلمٌ؟

النوع الثاني: ظلمُ العبدِ نفسَه بالمعاصي، فالعاصي إنما ظلمَ نفسَهُ، لأنه عرّضَ نفسَهُ للعقوبةِ، وكانَ الواجبُ عليه أن يُنقذَ نفسَهُ، وأنْ يضعَها في مَوْضِعِها اللائقِ بها، وهو الطاعةُ، والكرامةُ ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر: ١٥].

النوع الثالث: ظلمُ العبدِ للناسِ: بأخذِ أموالِهم، أو غيبتِهم، أو نميمتِهم، أو سرقةِ أموالهم، أو التعدِّي عليهم في أعراضِهم بالغيبةِ والنميمةِ والقذفِ والهمزِ واللمزِ وغيرِ ذلك من التنقُّصِ، أو في دمائِهم بقتلِ الأبرياءِ بغيرِ حقٍّ، أو بالضربِ والجرحِ والإهانةِ بغيرِ حقٍّ، فهذا تعدٍّ على الناسِ.

هذه هي أنواعُ الظلم: ظلمُ الشركِ، وهذا أعظمُ أنواعِهِ، وظلمُ العبدِ نفسَه، وظُلمُ العبدِ لغيرِهِ منَ المخلوقين.

أما النوعُ الأول وهو: ظلمُ الشركِ، فهذا لا يغفرُهُ الله أبداً إلَّا بالتوبةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾.

وأما النوعُ الثالثُ وهو: ظلمُ العبدِ للناسِ، فهذا لا يتركُ اللهُ منهُ شيئاً، لا بدَّ من القَصاصِ، إلَّا أن يسمحَ المظلومونَ، جاءَ في الحديثِ(١): «**لَتُؤَدُّنَّ الحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ القَرْنَاءِ**» الشاةُ الجلحاءُ هي التي ليسَ لها قرونٌ، والشاةُ القَرْنَاءُ التي لها قرونٌ، إذا نطَحْها بقرونها لا بدَّ من القصاص يومَ القيامة، حتَّى بينَ البهائم، قالَ -تعالى-: ﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ۝٥﴾ [التكوير: ٥]، تُحشرُ البهائمَ يومَ القيامة، ويَقْتَصُّ بعضُها من بعضٍ، ثمَّ يقولُ الله لها: «كوني تراباً»، فعند ذلك يقولُ الكافرُ: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ۝٤٠﴾ [النبأ: ٤٠]، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ۝٣٨﴾ [الأنعام: ٣٨].

وكذلك بنو آدمَ، يُقامُ القصاصُ بينهم يومَ القيامةِ، فيُقْتَصُّ من المظلومين للظلمةِ، ولا يُتْرَكُ من حقوقِهم شيءٌ إلَّا إذا سمحوا بها.

أما النوعُ الثاني: وهو ظُلمُ العبدِ لنفسِهِ بما دونِ الشركِ فهذا تحتَ مشيئةِ الله، إنْ شاءَ الله غفرَهُ، وإن شاءَ عذَّبَ بِهِ، كما يقولُ أهلُ العلمِ:

الدواوينُ ثلاثةٌ:

ديوانٌ لا يغفرُهُ الله: وهو الشركُ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٢).

وديوانٌ لا يتركُ الله منه شيئاً: وهو مظالمُ العبادِ.

وديوانٌ تحتَ المشيئةِ: إن شاء الله غفرَ لصاحبِهِ، وإنْ شاء عذَّبهُ، وهو الذنوبُ والمعاصي التي دونَ الشرك.

فهذا معنى قولهِ: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] يعني: بشركٍ، هذا هو الذي فسَّرها بهِ رسولُ الله ﷺ، فإنها لمَّا نزلَتْ هذهِ الآيةُ شقَّتْ على الصحابةِ، قالوا: يا رسولَ الله أيُّنا لم يظلمْ نفسَهُ؟، قالَ رسولُ الله ﷺ: «**إِنَّهُ لَيْسَ بِالَّذِي تَعْنُونَ، إِنَّهُ الشِّرْكُ، أَلَمْ تَسْمَعُوا إِلى قَوْلِ العَبْدُ الصَّالِحُ** ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾»[1] [لقمان: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ هل المرادُ به: الأمنُ المطلقُ يعني: أنهم لا يعذبونَ أبداً، أو المرادُ مطلقُ الأمنِ أي أنَّهم وإنْ عُذِّبوا فلا بدَّ أَنْ يَدْخلوا الجنةَ؟، الآيةُ محتملةٌ، وعلى كلا التفسيرينِ فالآيةُ تدلُّ على فضلِ التّوحيدِ، وأنَّه أمْنٌ من العذابِ إما مُطْلقاً وإما يُؤمّنُ من العذابِ المؤبدِ، فالآيةُ فيها فضلُ التّوحيدِ، وأنه يَمْنَحُ الله لأصحابِهِ الأمنَ على حسبِ درجاتِهم في التّوحيدِ والسّلامةِ من الذنوبِ والمعاصي، ودلّتِ الآيةُ بمفهومِها على أنَّ مَنْ أشركَ بالله وخلطَ توحيدَهُ بشركٍ أنه ليسَ له أمنٌ -والعياذُ بالله، فهذا خطرُ الشركِ، وأنَّ مَنْ عبدَ الله، ولكنهُ يدعو مع الله غيرَه، ويستغيثُ بالموتى، ويذبحُ للقبورِ، ويطوفُ بالأضرحةِ مُسْتعيناً بها، فهذا خلطَ إيمانَهُ بشركٍ، وليسَ لهُ أمنٌ أبداً حتى يتوبَ إلى الله سبحانه وتعالى، ويُخلصَ التّوحيدَ، فليسَ المقصودُ أنَّ الإنسانَ يعبدُ الله فقطْ، بل لا بدَّ -أيضًا- أن يتجنّبَ الشركَ، وإلَّا فالمشركونَ لهم عباداتٌ، كانوا يحجُّونَ، وكانوا يتصدقون، وكانوا يُطْعِمون الأضيافَ، وكانوا يُكْرمون الجيرانَ، ولهم أعمالٌ

(١) أخرجه البخاري (٣٢) وأخرجه مسلم (١٢٤).

لكنَّها ليسَتْ مبنيَّةً على التّوحيدِ، فهي هباءٌ منثورٌ، لا تنفعُهُم شيئاً يومَ القيامةِ، قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣]، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ [النور: ٣٩]، ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ﴾ [إبراهيم: ١٨]، لا يُثَبِّتُ الأعمالَ إلَّا التَوحيدُ، ما دامَ هناكَ شركٌ فالأعمالُ لا قيمةَ لها، مهما أتعبَ الإنسانُ نفسَهُ فيها، وهذا يدلُّنا على فضلِ التّوحيدِ، ومكانةِ التّوحيدِ، وأنه مُؤَمَّنٌ من عذابِ الله سبحانه وتعالى بخلافِ المشركِ فإنه لا أمنَ له من عذابِ الله، والأمنُ يكونُ في الدنيا، كالأمنِ من الأعداءِ، والأمنِ من الحروبِ، تعرفون قيمتَهُ، وخطرَ الخوفِ، هذا في الدنيا فكيف بالأمن في الآخرةِ من النارِ؟، النارُ أشدُّ من الحروبِ، وأشدُّ من الأعداءِ، وأشدُّ من كلِّ شيءٍ، إذا كانَ الأمنُ في الدنيا هذهِ قيمتُهُ، وهذهِ منافعُهُ، فكيف بالأمن في الآخرةِ.

ثمَّ قالَ: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ هذه مزيّةٌ ثانيةٌ من مزايا التّوحيدِ، وهي حصولُ الهدايةِ للموّحدينَ المخلصينَ لله، أنَّهم في الدنيا يكونونَ مهتدين في أعمالِهم، يعبدون الله على بصيرةٍ، سالمينَ من الشركِ في الأعمال، وسالمينَ من البدعِ والخرافاتِ، بخلافِ أهلِ الشركِ، فإنهم غيرُ مهتدينَ في الدنيا، بل هُمْ ضالون، لأنهم يعبدونَ الله، ويخلطونَ العبادةَ بالشركِ، ويعبدونَ غيرَ الله، فهم ضالُّونَ لا مهتدونَ، إذاً الموحّدُ يعطيهِ الله مزيَّتَيْنِ:

المزيّة الأولى: الأَمْن من العذابِ.

المزيَّة الثَّانية: الهداية من الضَّلالِ.

بحيثُ أنه يعبدُ الله على بصيرةٍ وعلى نورٍ وبرهانٍ، متبعاً للسنةِ متبعاً للرسولِ ﷺ يمشي على الجادةِ الصحيحةِ، بخلافِ المشركِ فإنه يمشي على غير هدىً،

عَنْ عُبَادَةَ بنِ الصَّامتِ -رَضِي اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ؛ أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ» أَخْرَجَاهُ[١].

وعلى غيرِ دينٍ، وعلى غيرِ برهان، يتعبُ نفسَهُ في هذهِ الدنيا، وهو يتقدمُ إلى النارِ، ويمشي إلى النارِ، كما قالَ -تعالى- في الآيةِ الأخرى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه: ١٢٣] لا يضلُّ في الدُّنيا عن الحقِّ، ولا يَشْقى في الآخرةِ، وهذا ضمانٌ من الله سبحانه وتعالى لمَنِ اتَّبعَ القرآنَ أنهُ لا يضلُّ في الدُّنيا، ولا يَشْقى في الآخرةِ.

***

قوله: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، يعني: نطق بالشهادةِ عارفاً لمعناها، عاملاً بمقتضاها، موقناً بها، لأنه لا يكفي التلفظُ بالشهادةِ من غيرِ معرفةٍ لمعناها، كذلك النطقُ بالشهادةِ مع معرفةٍ بمعناها، لكنْ لا يعملُ بمقتضاها، هذا -أيضًا- لا يكفي، بل لا بدَّ من النطقِ والعلمِ والعملِ بمقتضى هذه الكلمةِ العظيمةِ، فليسَتْ هي مجردُ لفظٍ يُردَّدُ على اللسانِ من غيرِ فهمٍ لمعناها، ولا يكفي العلمُ بمعناها، بل لا بدَّ من العمل بمقتضاها، بأن يُفردَ الله بالعبادةِ، وتُتْرك عبادَ ما سواه، هذا معنى ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨] فإذا لم ينطقْ بها فإنهُ لا يحكمُ بإسلامِهِ، ولو كانَ يعرفُها بقلبِهِ، ولو كانَ يعبدُ الله في أعمالِهِ، لكنَّهُ أبى أَنْ ينطقَ بالشهادةِ، فهذا لا يعتبرُ مسلماً، حتى ينطقَ بالشهادةِ، لقولِهِ ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٣٥) ومسلم (٢٨).

أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»[١] وكذلك من نطَقَ بها بلسانِهِ ولكنهُ لا يعتقدُها في قلبِهِ، هذا- أيضًا- ليسَ بمسلمٍ، بل هو منافقٌ، فالمنافقونَ يقولونَ: لا إلهَ إلَّا الله، وهم في الدركِ الأسفلِ من النارِ، لماذا؟ لأنهم لا يعتقدونَ معناها، وعُبّادُ القبورِ اليومَ يقولون لا إله إلَّا الله بألسنتِهم، لكنَّهم لا يعملونَ بمقتضاها، بل يعبدونَ القبورَ والأضرحةَ، ويدعونَ الأولياءَ والصالحينَ، فهم أقرّوا بلفظِها وجحدوا معناها، هم سواءٌ لا فرقَ بينهم أبداً، كذلك المنافقونَ تلفّظوا بها، لكنَّهم لا يؤمنونَ بها في قلوبهِم -أيضًا- هُمْ سواءٌ، بل هُمْ شرٌّ من الكفّارِ، قالَ -تعالى- ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء: ١٤٥] وهم ينطقونَ، ويقولونَ: لا إلهَ إلَّا الله، ويصلّونَ، ويصومونَ، لكنْ لمَّا كانوا مُنكرين بقلوبِهم، غيرَ مُعْترفينَ بها في قلوبِهم، وإنَّما قالوها لأجلِ المصالحِ الدنيويةِ فقط، صاروا -والعياذُ بالله- في الدَّركِ الأسفلِ، من النارِ.

فالحاصلُ أنها كلمةٌ عظيمةٌ، لكنْ لا بدَّ أن يتوفّرَ.

أولاً: النطقُ بها.

وثانياً: العلمُ بمعناها.

وثالثاً: العملُ بمقتضاها.

ومعنى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ نَفْي العبادةِ عما سوى الله، وإثباتُها لله سبحانه وتعالى، يعني: إبطالَ عبادةِ كلِّ ما سوى الله، وإثباتَ العبادةِ لله، فقوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾: هذا إبطالٌ لجميعِ المعبوداتِ من دونِ الله سبحانه وتعالى، وإنكارٌ لها. ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾: هذا إثباتٌ للعبادةِ لله سبحانهُ وتعالى، فعلى هذا معنى لا إلهَ إلا الله:

(١) أخرجه البخاري (٢٩٤٦) ومسلم (٢١).

لا معبودَ بحقٍّ -أو لا معبودَ حقاً - إلَّا الله سبحانه وتعالى، أما لو قلتَ: معناها: لا معبودَ إلَّا الله، ، نقول: هذا ضلالٌ عظيم، لأنك أدخلت كُلَّ المعبوداتِ وجعلتَها هي الله، جعلتَ الأصنامَ والأضرحةَ والكواكب وكلَّ ما عُبدَ من دونِ الله هو الله، وهذا غلطٌ، وهو مذهبُ أهلِ وحدةِ الوجودِ. فلا بدَّ أنْ تأتيَ بكلمةِ حقٍّ، لأنَّ المعبوداتِ على قسمينِ: معبودٍ بحقٍ، ومعبودٍ بالباطلِ، المعبودُ بحقٍّ هو الله، والمعبودُ بالباطلِ هو ما سوى الله من كلِّ المعبوداتِ، قالَ -تعالى-: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾ [لقمان: ٣٠] هذا معنى لا إله إلَّا الله.

وقوله: «**وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ**» كلمتان جيء بهما للتأكيدِ.

وحدَهُ: تأكيدٌ للإثبات.

لا شريك له: تأكيدٌ للنفي.

فهما كلمتانِ مؤكدتانِ لـ «لا إله إلَّا الله»، ولما فيها من النفي والإثباتِ.

وهذه الكلمةُ كلمةٌ عظيمةٌ، جاءَتْ في القرآنِ بلفظِها وجاءَتْ بمعناها، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾﴾ [الصافات: ٣٥-٣٦]، وجاءت بمعناها مثلَ قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٧]، فقوله: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ﴾ هذا هو معنى النّفي: لا إله، ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ هذا هو معنى الإثبات: إلَّا الله، فهي كلمةٌ عظيمةٌ.

وقوله: «**وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**»: هذا يدلُّ على أنه لا يكفيهِ شهادةُ أنْ لا

إله إلَّا الله، بل لا بدَّ معها من شهادةِ أنَّ محمداً رسولُ الله، فلو شهِدَ أَنْ لا إلهَ إلَّا الله، وأبىَ أَنْ يشْهَد أنَّ محمداً رسولُ الله؛ لم يدخلْ في الإسلامِ، لأنَّ هذه قرينةُ هذه، وكما في الأذانِ، وفي الإقامةِ، وفي الخطبِ، وإذا جاءَتْ لا إله إلَّا الله وحدَها، تدخلُ فيها شهادة أن محمداً رسولُ الله ضِمناً.

وقوله: «وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ»: هذا نفيٌ للإفراطِ والتفريطِ، (عبده) هذا نفيٌ للإفراطِ والغلوِ في حقِّ الرسولِ ﷺ بجعلِ شيءٍ لهُ من الربوبيةِ، كما يعتقدُ المخرِّفون، فالرسولُ ﷺ عبدٌ ليسَ له من الرُّبوبيةِ شيءٌ، وقد سمَّاهُ الله عبداً في أشرفِ المقاماتِ، في مقامِ الوحي: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣] وفي مقام الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الإسراء: ١] وفي مقام الإنزال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ١] وفي مقام التحدي: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣] فهو عبدٌ لا يُعبَد -عليه الصلاةُ والسلامُ-، ورسولٌ لا يُكذَّبُ ﷺ بل يُطاعُ ويُتبعُ، فليس لهُ من العبادةِ شيءٌ، فالذينَ يطلبونَ منه المددَ، ويطلبونَ منه النصرَ على الأعداءِ، ويطلبونَ منه قضاءَ الحاجاتِ، وتفريجَ الكُرُباتِ، هؤلاءِ رفعوهُ من العبوديةِ إلى الألوهيّةِ -والعياذُ بالله-، ما أقرُّوا أنهُ عبدُ الله، بل جعلوهُ شريكاً لله في ربوبيته وإلهيّتهِ، والرسولُ ﷺ يقولُ: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**»[1] يقولُ الله سبحانه وتعالى له: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [آل عمران: ١٢٨]، ويقولُ سبحانه: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٥) ومسلم (١٦٩١).

﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف: ١٨٨]، ويقولُ سبحانه: ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ﴾ [الجن: ٢٢-٢٣].

وقوله: «**ورسوله**»: هذا ردٌّ على أهلِ التفريطِ، الذينَ لا يقدّرونَ الرسولَ حقَّ قدرِهِ، إما يجحدونَ رسالتَهُ -عليهِ الصلاةُ والسلامُ-، وإما أنَّهم يقرُّونَ برسالتِهِ، لكنهم لا يتبعونَهُ الإتباعَ المطلوبَ، فهؤلاءِ لم يشهدوا أنه رسولُ الله، وشهادتُهم إما باطلةٌ وإما ناقصةٌ، باطلةٌ إن كانوا لا يتبعونَه أبداً، وناقصةٌ إن كانوا يتبعونَهُ في بعضِ الأشياءِ ويخالفونَهُ في بعضِ الأشياءِ رغبةً لنفوسِهم وشهواتِهم.

فقوله: «**ورسوله**»: هذا ردٌّ على أهلِ التفّريطِ والتساهلِ في حقِّ الرسولِ ﷺ، وهو أعظمُ الخلقِ -عليهِ الصلاةُ والسلامُ-، وأشرفُ الخلقِ، وأفضلُ الرسلِ، فلا يُتساهلُ في حقِّهِ ﷺ لكنْ ليسَ معنى هذا أننا نغلوا فيه، ونجعلُ له شيئاً من الربوبيةِ، فلا إفراطٌ ولا تفريطٌ.

وقوله ﷺ: «وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ» عيسى -عليهِ الصلاةُ والسلامُ- هو عيسى بنُ مريمَ، خلقَهُ الله من أمٍّ بلا والدٍ، وذلك ليُظْهرَ للعبادِ قدرتَهُ سُبحانهُ على كل شيءٍ، وقصةُ مريمَ عليها السلام ذكرها اللهُ في القرآنِ، من نشأتِها: أنها من بيتِ طيّبٍ، وبيتِ عبادةٍ، وأنَّ والدَها تُوفيَ وهي صغيرةٌ، وكَفَلَها زكريا نبيُّ الله -عليهِ الصلاةُ والسلامُ-، لأنَّ خالتَها كانَتْ زوجةَ زكريا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾، يعني: أم مريم، ﴿رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ [آل عمران: ٣٣-٣٥]، نذرَتْ حَمْلَها أن يكونَ خادِماً لبيتِ المقدسِ، الذي هو

أحدُ المساجدِ الثلاثةِ في الأرضِ، ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ [آل عمران: ٣٦]، كانت ترجو أن يكونَ ذكراً، لأنَّ الذكرَ هو الذي يستطيعُ القيامَ بهذهِ المهمةِ العظيمةِ، ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ لأنها قالَتْ هذا من بابِ الدعاءِ، لا من بابِ إخبارِ الله عزَّ وجلَّ أنها وضعَتْها، وقُرِئَتِ الآيةُ: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتُ﴾[1]، هذا لبيانِ أنَّ الله سُبْحانَهُ وتعالى عالمٌ بكُلِّ شيءٍ، وأنهُ لا تَخفى عليه هذهِ المَوْلودةُ، ولَيْسَت امرأةُ عمرانَ تُخْبِرُ ربَّها جل وعلا، وإنما تدعوهُ ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾ بمعنى: أنَّ الذكرَ أفضلُ من الأنثى في القيامِ بالمهمّاتِ، فالذكرُ يستطيعُ ما لا تستطيعُهُ الأُنْثى، لِمَا جعَلَ الله في خِلقةِ الذكرِ من الامتيازِ عن خِلقةِ الأُنثى، وهذا من حيثُ الجنسِ، لا من حيثُ الأفرادِ، قد يكونُ في أفرادِ الإناثِ مَنْ هوَ خَيْرٌ من الذكور، أمَّا من حيثُ الجنسِ فالذكورُ أفضلُ من الإناثِ، لأنَّهم يستطيعونَ من الأعمالِ ما لا تستطيعُهُ الإناثُ، ولأنَّ عقولَهم أوْفى من عقولِ الإناثِ، بلا شكٍّ، ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ [آل عمران: ٣٦، ٣٧] يعني: تقبَّلَ مريمَ: ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾، نشأَتْ في العبادةِ والطاعةِ ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ وفي قراءةٍ[2]: (كَفَلَهَا) لأنَّ بني إسرائيلَ اختَصَمُوا في مريمَ أيُّهُم يكْفُلُها، لأنَّها

---

(١) قال الشوكاني في «فتح القدير» (١/ ٣٣٤-٣٣٥): (وهي قراءة أبي بكر وابن عامر بضم التاء فيكون من جملة كلامها ويكون متصلاً بما قبله، وفيه معنى التسليم لك والخضوع والتنزيه له أن يخفى عليه شيء، وقرأ الجمهور (وضعتْ) فيكون من كلام الله سبحانه على جهة التعظيم لما وضعته والتفخيم بشأنه والتجليل لها حيث وقع منها التحسر والتحزن مع أن هذه الأنثى وضعتها سيجعلها الله وابنها آيةً للعالمين وعبرة للمعتبرين ويختصها بما لم يختص به أحداً) وانظر «الحجة في القراءات السبع» لابن خالويه (١٠٨).

(٢) الذين يقرؤون بتخفيف الفاء هم: نافع وابن كثير وأبو عمرو، وابن عامر الشامي، انظر كتاب «السبعة في القراءات» لأحمد بن موسى التميمي البغدادي (٢٩٤) و«فتح القدير» للشوكاني (١/ ٣٣٥).

بنتُ عالِمِهم وحَبْرِهِمْ وشيْخِهِم، فهُمْ تنافسوا أيُّهم يكفُلُ مريمَ، كما قالَ تَعالَى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، عَمِلوا القُرعةَ أيُّهم يكفُلُ مريمَ ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران: ٤٤]، يعني: أنَّكَ يا محمدُ لم تَشْهد هذهِ القرونَ الماضيةَ وما حَصَلَ فيها، ولكنَّ هذا مِنْ آياتِ الله، ومن معجزاتِ هذا الرسولِ ﷺ أنَّ الله أخبرَهُ بما جَرى كأنه حاضرٌ، وحتَّى إنَّ بني إسرائيلَ انبَهروا لأنهُ جاءَهُم بمعلوماتٍ هُمْ لا يَعْرفونها من أمُورِهم، وهي مذكورةٌ في كُتُبهم وتواريخِهم، ويَعْرِفُها علماؤُهم وأحْبارُهم، فيكونُ هذا الرسولُ يحدِّثُ بما جَرى من قرونٍ طويلةٍ، وهذا مِنْ معجزاتِهِ ﷺ لأنه ليسَ من عندهِ، فهو أُمّيٌّ لا يقرأُ ولا يكتبُ، وإنما هو من عندِ الله عز وجل، كما قالَ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [النمل: ٧٦]، وهذا مِنَ العجائبِ، أنه آخرُ ما نزلَ من الكتبِ ومع هذا يقصُّ أخبارَ الماضين كما وقَعَتْ، وهذا مِنْ أعظمِ معجزاتِ هذا الرسولِ ﷺ، فوقَعَت القُرعَـةُ لزكريا عليه السلام، وكانَتْ خالتُها - أختُ أمِّها- تحتَهُ، فكَفَلَها زكريا ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ [آل عمران: ٣٧]، يعني: المَكان الذي تُصَلِّي فيه، لأنَّ المِحْرابَ معناه: المكانُ الذي يُصلَّى فيه، فليسَ المحرابُ خاصًّا بالزاويةِ التي تكونُ في المسْجدِ الآن[1] ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ هذا من كراماتِ الأولياءِ، كانَ يجدُ عندَها في الشتاءِ فاكهةَ الصيفِ، ويجدُ عندَها في الصيفِ فاكهةَ الشتاءِ، كان هذا يُحْضِرُهُ رَبُّهُ لها إكراماً لها، وهي تُصلِّي في هذا المكان، ولا يتَّصلُ بها أحدٌ من الخلقِ، ثم مع هذا يجدُ عندَها نبيُّ الله هذا الرزقَ، ثم ذكرَ قصةَ زكريا ودعائِه

(١) انظر «القاموس المحيط» (٧٣) و«الكليات» للكفوي (٨٧٢).

لربه، ثمَّ ذكر بقيةَ قصةِ مريَمَ وحَمْلِها بعيسى ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٤٢، ٤٣، ٤٤]، هـذه هي المعجزةُ، يعني: كيفَ علِمْتَ أيُّها الرسولُ وأنتَ آخرُ الرُّسُلِ، و-أيضًا- أنت أُمِّي لا تقرأُ ولا تكتبُ، هذا من أعظمِ المعجزاتِ لك ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران: ٤٤]، يعني ما الذي أَدْراكَ؟، لولا الله سُبحانَهُ، وهذا مِنْ أنباءِ الغيبِ، يعني: من الأخبارِ الماضيةِ، ويُطْلَقُ الغيبُ على المستقبلِ -أيضًا-، والغيبُ لا يعلمُهُ إلَّا الله، الماضي والمسْتَقبل أَوْ مَنْ علَّمَهُ الله من رُسلِهِ، وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ﴾ [آل عمران: ٤٥-٤٩]، إلى آخرِ الآياتِ.

هذا ما ذَكَرَهُ الله من قصةِ نشأة مريَمَ، ونشأةِ ابنِها عيسى عليه السلام، وهذا البيتُ الطاهرُ العظيمُ، ولهذا لما قرَأَ جعفرُ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه هذه الآياتِ التي في بيانِ نشأةِ عيسى عليه السلام عندَ النَّجاشي بحضرةِ البطارقةِ وكبارِ النَّصارى؛ اعترفَ النَّجاشيُّ بأنَّ هذا وحيٌ مِنَ الله سُبحانَه وتعالى، وقالَ: «**هَذَا هُوَ وَالَّذِي أُنْزِلَ عَلى مُوسَى يَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ**»(١)، فأسلمَ النَّجاشي ،

(١) أخرجه محمد بن إسحاق في «المغازي» (١/ ٢١١)، وأخرجه أحمد (١/ ٢٠٢) والبيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٩٤) من طريق محمد بن إسحاق.

....

رحمه الله لما سَمِعَ ما ذكرهُ الله من نبأ عيسى عليه السلام، وتفاصيلِ ولادتِهِ، لأنهُ لا يمكنُ أن يكونَ مِنْ عندِ محمدٍ ﷺ.

فقوله ﷺ: «وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ» هذا فيه ردٌ على اليهودِ وردٌ على النَّصارى. أما اليهودُ فلأنهم جَحَدوا رسالةَ عيسى عليه السلام، ورموهُ بالبُهْتِ -والعياذُ بالله- وقالوا: إنه ولدُ بغي، قبّحَهُمُ الله وأَخْزاهم، وحاولوا قتلَه، وسلّمَهُ الله منهم ورفَعَهُ إليه، وألقى عليهمُ الخِزْيَ.

وفيه ردٌ على النَّصارى الذينَ لم يُقرُّوا بأنَّ عيسى عبدُ الله، وإنَّما ادعُّوا أنه ابنُ الله، أَوْ أنهُ ثالثُ ثلاثةٍ، أو أنهُ هو الله، ثلاثُ مقالاتٍ لهم، ذكَرها الله جَلَّ وعلا في القرآنِ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٢]، ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، وفي قولهِ تعالى: ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٠] ولا يزالون يقولونَ هذا إلى الآنَ في إذاعَتِهم يُردِّدونَ هذهِ الأقوالَ الكفريةَ الشنيعةَ، ولا يزالونَ يقولونَ: إنَّ عيسى هو ابنُ الله، وأنه مخلّصٌ، ويردِّدونَ عقائدَ النَّصارى السابقةَ، المهمُ أنهم لا يزالون على هذه الفِريةِ: أنَّ عيسى ابنُ الله، تعالى الله عمَّا يقولونَ، وأنَّه الإلهُ المخلّصُ، وأنه مَكَّنَ من نفسِهِ للقتلِ، وقتلوهُ وصلبوهُ من أجلِ أَنْ يُخلِّصَ العبادَ من الخطيئة التي ارتكَبها آدمُ عليه السلام، كما يقولونَ، قبَّحُهمُ الله، فيسمونَهُ المخلّصُ ويسمّونَ هذا العملَ الفداءَ، وأنَّ عيسى فعلَ هذا من بابِ الفداءِ لبني آدمَ، ليخلّصَهُمْ من إثمِ العقوبةِ.

وقوله: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١]، الكلمةُ قولهُ تعالى لعيسى: ﴿كُن﴾، لأنَّ عيسى وُجِدَ مِنْ غيرِ أبٍ، بَلْ وُجِدَ بكلمةِ ﴿كُن﴾ وليسَ هو الكلمةَ، وإنما سُمِّيَ بالكلمةِ لأنه خُلِقَ بها، بخلافِ بقيةِ البشرِ فإنهم يُخْلقونَ مِنْ

أبٍ وأمٍّ، وكما قالَ في آدمَ: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾، ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٥٩]، فإن كُنْتُم تَعْجَبونَ مِنْ كونِ عيسى وُلِدَ مِنْ أمٍّ بلا أبٍ، ووجِدَ على أثرِ الكلمةِ ﴿كُن﴾ فكيفَ لا تعجبونَ من خلقِ آدمَ من ترابٍ بدونِ أمٍّ ولا أبٍ، بَلْ بكلمة ﴿كُن﴾، ليس في هذا غرابةٌ على قدرةِ الله سُبْحانه وتعالى.

وقوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾: ليسَ المرادُ أنَّ عيسى روحٌ من الله، بمعنى أنهُ من ذاتِ الله، وإنَّما من روحِهِ المخلوقِ، لأنَّ الله خلقَ الأرواحَ جميعاً، ومنها روحُ عيسى -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ-، فكلمةُ ﴿مِّنْهُ﴾ لابتداء الغايةِ، يعني كلمةٌ مبتدأةٌ من الله، وروحٌ مبتدأةٌ من الله، كما تقولُ مثلاً هذا الرزقُ من الله، معناه أنَّ الله هو الذي يسّرَ هذا الشيءَ، وهو الذي هيأَهُ وخلقَهُ، قالَ تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، معناه: أنهُ حاصلٌ ونازلٌ وكائنٌ من الله سُبحانه وتعالى، فـ«مِنْ» لابتداء الغايةِ، وقد تسأَلُ وتقولُ كلُّ أرواحِ بني آدمَ منَ الله على هذا التفسيرِ، فما وجهُ اختصاصِ عيسى بذلكَ نقولُ: نَعَمْ كُلُّ أرواحِ بني آدمَ منَ الله، لكنَّ عيسى عليه السلام خُصَّ بذلك لأنه من غير أبٍ، بل هو روحٌ من دون أبٍ.

وقوله: «والجنة حق، والنار حق» يعني: ومَنْ شَهِدَ أنَّ الجنةَ -وهي دارُ المتقين-، والنَّارَ دارُ الكافرينَ-؛ كُلُّ منهما حقٌّ، وأنهما دارانِ موجودتانِ مخلوقتانِ، وباقيتانِ لا تفنيانِ أبداً، الجنةُ للمتقينَ، والنارُ للكافرينَ، فالدُّور-كما ذَكَرَ ابنُ القيّمِ- ثلاثٌ[1]:

الأولى: دارُ الدُّنيا، وهي دارُ العملِ والاكتسابِ.

(١) انظر «زاد المعاد» (١/ ٦٧).

الدارُ الثانية: دارُ البرزخِ، وهي دارُ القبورِ، برزخٌ بينَ الدُّنيا والآخرةِ، والبرزخ معناه الفاصِلُ، والحياةُ في القبورِ، تُسمَّى بالحياةِ البرزَخيَّةِ، وفيها عجائبُ، فيها نعيمٌ أو عذابٌ، إمَّا حفرةٌ من حفرِ النَّارِ، أو روضةٌ مِنْ رياضِ الجنةِ، ويَبْقى الأمواتُ في قبورِهم إلى أنْ يشاءَ الله جَلَّ وعلا بَعْثَهُم وحشْرَهُم للحسابِ والجزاءِ، وهذهِ الدارُ، مَحَطَّةُ انتظارٍ.

والثالثة: دارَ الجزاءِ، التي هي يومُ القيامةِ، الجنَّة أو النَّار، وهذه الدارُ لا تفنى ولا تبيدُ أبداً، وإذا آمنَ الإنسانُ بهاتينِ الدارينِ، فإنَّ ذلكَ يَحمِلُهُ على العملِ الصالحِ والتوبةِ من الذنوبِ والسيئاتِ، فإذا تيقّنَ أنَّ هناك جنةً، وأنَّ هذهِ الجنةَ لا يدخُلُها إلَّا بالأعمالِ الصالحةِ، فإنه يعملُ، وإذا تيقَّنَ أنَّ هناك ناراً، وأنهُ يدخلُها بالمعاصي والكفرِ والسيئاتِ، فإنه يحذر من ذلكَ ويتوبُ إلى الله جل وعلا، فالإيمانُ باليومِ الآخرِ والجنةِ والنارِ يحملُ العبدَ على العملِ الصالحِ والتوبةِ من الذنوبِ والسيئاتِ، أمَّا الذي لا يُؤمِنُ بالآخرةِ، فهذا يعملُ ما تُمليهِ عليه شهواتُهُ، وما ترغَبُهُ نفسُهُ ولا يُحاسبُ نَفْسَهُ أبداً، لأنَّهُ لا يؤمنُ ببَعْثٍ ولا بحسابٍ، تعالى الله عما يقولُهُ الظالمونَ والكافرونَ علواً كبيراً، ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] ينكرونَ البعثَ، ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المؤمنون: ٣٥-٣٧]، هكذا يقولونَ، لأنَّ الكفارَ الذينَ بُعِثَ فيهم رسولُ الله ﷺ ينكرونَ البعثَ والنشورَ، ومثلُهُم الملاحدةُ والدهريونَ الذينَ لا يؤمنونَ بربٍّ ولا ببعثٍ ولا بحسابٍ، ومِثْلُهم الفلاسفةُ الذينَ يقولونَ: إنَّ هذهِ الأمورَ إنما هي من بابِ التخييلاتِ من أجلِ مصالحِ الناسِ، فالرسلُ أو الأنبياءُ يقولونَ هذهِ الأشياء من بابِ التخييلاتِ من أجلِ مصالحِ

الناسِ، وإلَّا ليسَ هناك جنَّة، وليسَ هناك نارٌ، وليس هناك بعثٌ، من بابِ الكذبِ للمصلحةِ، من أجلِ أنَّ الناسَ يستقيمونَ، ويتركونَ الأعمالَ الدنيئةَ، ويعملونَ الأعمالَ الطيّبةَ، وإنْ لم يكُنْ هناكَ حقيقةٌ للجنةِ والنارِ. وهؤلاءِ يُسَمَّوْنَ (المخيّلة)، وهم فئةٌ من الفلاسفةِ، ومن الطوائفِ الباطنيةِ من يُنْكرُ الجنةَ والنارَ، ويقولونَ: هما عبارةٌ عَنْ رموزٍ فَقَطْ، وليس هناك حقائقُ، فالكَفَرَةُ على اختلافِ أصنافِهم: من مشركيّةٍ، ودهريّةٍ، وفلاسفةٍ، وباطنيّةٍ، كلُّهُم لا يؤمنون باليوم الآخر، ولهذا توعّدَ الله سُبحانهُ وتعالى هؤلاءِ بقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥] يعني: لو كانَ ليسَ هناكَ بعثٌ ولا حسابٌ، صارَ خلقُ الله لهذهِ المخلوقاتِ في بابِ العبثِ، لأنّها لا تؤدِّي إلى غايةٍ ولا نتيجةٍ، فالظالمُ يظلمُ في هذه الدنيا، والقاتلُ يقتُلُ، والعاصي يَعْصي، والمُطيعُ يُتعِبُ نفسَهُ بالطاعةِ والعبادةِ ولا يَلْقى جزاءً، -تعالى الله عما يقولونَ، أمَّا إذا كانَ هناكَ بعثٌ ونشورٌ وجزاءٌ على الأعمالِ. المحسنُ بإحسانِهِ والمسيءُ بإساءتِهِ، كانَ خَلْقُ الخلقِ إذاً لحكمةٍ وغايةٍ، وليس عبثاً، فهناكَ من الظَّلَمَةِ من يموتُ وهو ما جُوزيَ في هذه الدُّنيا، وهناكَ من الصالحينَ من يموتُ وهو فقيرٌ مريضٌ، لماذا؟ لأنَّ الجزاءَ في الآخرةِ، هؤلاءِ ينتظرُهُم جزاؤهُمُ في الآخرةِ، هذا الكافرُ، وهذا الظالمُ، وهذا الطاغيةُ، وهذا الجبَّارُ، ينتظرُهُم جزاؤهُمُ في الآخرةِ، وهذا المؤمنُ التقيُّ الصالحُ الذي ماتَ بالمرضِ والفقرِ هذا ينتظرُهُ جزاؤهُ في الآخرةِ في الجنةِ، لأنَّ الله ما خلقَ الخلقَ وأجرى هذه الأمورَ عبثاً، لا بُدَّ لها من نتيجةٍ، ولا بدَّ لها من غايةٍ تَنْتَهي إليها: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥]، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٣٦]، يعني: لا يُؤمَرُ، ولا يُنهى، ولا يُبعث، ولا يُجازى، يأكلُ ويشربُ ويمكرُ

ويفسقُ وينتهي أمرُهُ إلى لا شيءٍ؟، أو يتقي ويطيعُ ويُتعبُ نفسَهُ بالعبادةِ وينتهي أمرُهُ إلى لا شيءٍ، فهذا وجهُ النصِّ على الإيمانِ بالجنةِ والنَّارِ، لأنَّ الإيمانَ بهما يحدو على العملِ الصالحِ، والتوبةِ من العملِ السيءِ، ولأنَّ البعثَ والحسابَ أنكرَهُ كثيرٌ من الطوائفِ الكافرةِ، فلا بدَّ من الإيمانِ به، والتصديقِ به، والإقرارِ بهِ، وهو أحدُ أركانُ الإيمانِ الستةِ: الإيمان بالله، وملائِكَتِهِ، وكتبِهِ، ورسلِهِ، واليومِ الآخرِ، والإيمانِ بالقدرِ خسرهِ وشرِّهِ، أحياناً نجدُ أنَّ الله يذكرُ الأركانَ الستةَ، وأحياناَ يذكرُ أربعةً، وأحياناً يذكرُ اثنينِ فَقَط: الإيمانَ بالله واليومَ الآخرَ: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة: ٦٢]، ذكَرَ الإيمانَ بالله وذكرَ الإيمانَ باليومِ الآخرِ، لأنَّ الإيمانَ بالله وباليومِ الآخرِ يلزَمُ منهُ الإيمانَ ببقيةِ الأركانِ.

وقد ذكَرَ في هذا الحديثِ البراءةَ من المللِ الثلاثِ: **ملةِ اليهودِ، وملةِ النَّصارى، وملةِ المشركينَ**، فهو حديثٌ عظيمٌ.

فقولُه ﷺ: «**مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ**» هذا فيه البراءةُ من دينِ المشركينَ.

وفي قولِه: «وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ» هذا فيهِ البراءةُ من دينِ اليهودِ والنَّصارى، لأنَّ اليهودَ كفروا بعيسى، والنَّصارى غَلَوًّا فيه، حتَّى جعلوه ربًّا، وأيضًا اليهودُ والنَّصارى كلُّ منهم كَفَرَ بمحمدٍ ﷺ.

فهذا فيهِ البراءةُ من المللِ الثلاثِ: ملةِ المشركينَ، وذلكَ بشهادةِ أنَّ لا إله إلَّا الله، وأنَّ محمَّداً رسولُ الله، والبراءةُ من ملةِ اليهود والنَّصارى، وذلك في شهادةِ أنَّ عيسى عبدُ الله ورسولُه.

والشاهدُ من هذا الحديثِ للبابِ: «**باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب**»

أنَّ الرسولَ قالَ في آخرِه: «**أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ**» هذا وَعْدٌ من الله سبحانهُ وتعالى لأهلِ التَّوحيدِ بأنَّ الله يُدخِلُهم الجنةَ، وأهلُ التَوحيدِ هم: الذينَ شهدوا أنْ لا إله إلّا الله وأنَّ محمداً رسولُ الله، وأنَّ عيسى عبدُ الله ورسولُهُ، وكلمتُهُ ألقاها إلى مريمَ وروحٍ منهُ، وأنَّ الجنةَ حقٌّ، والنَّارَ حقٌّ، هؤلاءِ هم أهلُ التّوحيدِ، وعَدَهُم الله أن يدخلوا الجنةَ، فهذا فيه فضلُ التّوحيدِ، وأنه سببٌ لدخولِ الجنَّةِ.

لكِنْ ما معنى: «**عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ**»؟، في ذلك قولانِ لأهلِ العلمِ[1]:

القولِ الأول: أدخلَهُ الله على ما كانَ من العملِ، يعني: ولو كانَ له سيئاتٌ دونَ الشركِ فإنَّ ذلك لا يَحُولُ بينَهُ وَبينَ دخولِ الجنَّةِ، إما من أولِ وَهْلَةٍ، وإمَّا في النهايةِ، ففيهِ: فضلُ التّوحيدِ، وأنه يُكَفِّرُ الذنوبَ بإذنِ الله أو يمنعُ من الخلودِ في النَّارِ.

والمعنى الثاني: أدخَلَهُ الله الجنَّةَ على ما كانَ من العملِ، أي: أنه يدخُلُ الجنَّةَ، فتكونُ منزلتُهُ فيها بحسب عملِهِ، لأنَّ أهلَ الجنةِ يتفاوتون في منازِلِهم بحسبِ أعمالهم، فمنهم مَنْ هو في أعلى الجنةِ، ومنهم مَنْ هو دونَ ذلك، فأهلُ الجنةِ يتفاضلونَ في منازِلِهم، والجنةُ درجاتٌ، بعضُها فوقَ بعضٍ، كما أنَّ النَّارَ دركاتٌ بعضُها تحتَ بعضٍ، والنَّارُ أسفلُ سافلينَ، أمَّا الجنةُ فإنها أعلى علِّيِّين، والنبيُّ ﷺ يقولُ: «**إنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ**»[2]، دلّ على أنَّ الجنـةَ درجـاتٌ، وأنَّ

---

(١) انظر «فتح الباري» (٦/ ٥٨٠) و«شرح صحيح مسلم» (١/ ١٧٤) و«فتح المجيد» (٤٢).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٩٠).

....

الناسَ ينزلونَ منها فيها بحسبِ أعمالِهم، منهم من يُرى منزلُهُ كالكوكبِ الدُّريِّ الغابرِ في المشرقِ أو المغربِ لبعدِ ما بينهم من التفاضُلِ، ومنهم من يكونُ دونَ ذلك.

وفي هذا الحديثِ الرَّدُّ على سائرِ الطوائفِ الكفريّةِ، ففيهِ ردٌّ على المشركينَ الوثنيينَ، وفيه ردٌّ على اليهودِ، وفيه ردٌّ على النَّصارى.

وفي الحديثِ -أيضًا-: وجوبُ الإيمانِ بجميعِ الرُّسلِ -عليهم الصلاةُ والسَّلامُ-، لأنهُ نصَّ على الإيمانِ بعيسى وبمحمدٍ ﷺ، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنهُ يجبُ الإيمانُ بجميعِ الرُّسلِ كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فلا بُدَّ من الإيمانِ بجميعِ الرُّسُلِ -عليهم الصلاةُ والسَّلامُ-، ومن كفرَ بواحدٍ منهم فقدْ كَفَرَ بالجميعِ، فاليهودُ الذينَ يزعمونَ أنهم آمنوا بموسى قد كفروا بموسى، لأنهم بكفرِهم بمحمدٍ ﷺ كفروا بموسى، لأنَّ موسى أخبرَ ببعثةِ محمَّدٍ ﷺ كما هو موجودٌ في التوراةِ التي جاءَ بها موسى عليه السلام، كما قالَ تَعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، - كذلكَ عيسى- عليه السلام أَخْبَرَ بمحمَّدٍ ﷺ وأمرَ بالإيمانِ به ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، فعيسى عليه السلام بَشَّرَ بني إسرائيلَ بمحمدٍ ﷺ، وهذا معناه: أنهُ أمَرَهُم بالإيمانِ به، فالنَّصارى لمَّا لم يؤمنوا بمحمَّدٍ ﷺ كفروا بعيسى، لأنه بشَّرهُم بمحمَّدٍ ﷺ فمعنى هذا: أنهم كذَّبوا نبيَّهُمْ عيسى الذين يزعمونَ أنَّهُم آمنوا به، والرُّسُلُ كلُّهُم يُصدِّقُ بعضُهُم بَعْضاً،

وَلَهُما فِي حَدِيْثِ عِتْبَانَ: «فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ»[١].

ويؤمن بعضُهُم ببعضٍ، فالرُسُلُ -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- سلسلةٌ واحدةٌ من أوَّلِهم إلى آخرِهم، أوَّلُهُم يُبَشِّرُ بلاحِقِهم ومُتأخِّرِهم، وآخرُهُم يصدِّقُ بأوَّلِهم ويؤمنُ بأوَّلِهم، فَهُمْ سلسلةٌ واحدةٌ، ولهذا يقولُ جَلَّ وعلا في سورة الشعراءِ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشعراء: ١٠٥]، مع أنَّهم ما كَذَبوا إلَّا نبيَّهم فقَطْ، لكِنْ لمَّا كَذَّبوا نبيَّهُم كذَّبوا جميعَ المرسلينَ، كما قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠- ١٥١].

قوله: «**أخرجاه**»: أي: البخاري[٢] ومسلم[٣] في صحيحيهما.

* * *

وقوله: «ولهما»: أي البخاري ومسلم.

«**في حديث عتبان**»: هو عتبان بنُ مالكٍ الأنصاريُّ، صحابيٌّ مشهورٌ رضي الله عنه.

«**حَرَّمَ عَلَى النَّارِ**» التحريم: المنعُ، أي: منعَهُ من دخولِ النَّارِ، أو مَنَعَ النَّارَ أنْ تمسَّهُ.

«**مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**» أي: نطقَ بها بلسانهِ وأعْلَنَها.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٥) ومسلم (٣٣).

(٢) برقم (٣٤٣٥).

(٣) برقم (٢٨).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ -رَضيَ اللهُ عَنهُ- عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «قَالَ مُوسَى -عَليهِ السَّلام-: يَا رَبِّ عَلِّمنِي شَيئاً أَذكُركَ وأَدعُوكَ بِهِ. قَالَ: قُلْ يَا مُوسَى: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. قَالَ: يَا رَبِّ، كلُّ عِبَادِكَ يَقولُونَ هَذا. قَالَ: يَا مُوسَى، لَو أَنَّ السَّمَاواتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيرِي والأَرْضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ، وَلا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي كِفَّةٍ، مَالَتْ بِهِنَّ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ». رَوَاهُ ابنُ حبَّانَ والحَاكِمُ وصَحَّحَهُ[1].

«**يَبْتَغِي بِذَلِكَ**» أي: بقولِهِ لها ونُطْقِهِ بها.

«**وَجْهَ اللهِ**» أي: مخلصاً له بها، لم يقُلْها رياءً ولا سمعةً ولا نِفاقاً، بل يعتقدُ ما دلّتْ عليهِ من إفرادِ الله بالعبادةِ، وتركِ عبادةِ ما سواهُ، واعتقادِ بُطلانِها، والبراءة منها ومن أهلِها.

فدلَّ هذا الحديثُ: على أنه لا يَكْفي مجرّدُ النُّطقِ بلا إله إلَّا الله من غَيْرِ معرفةٍ لمعناها، وعملٍ بمقتضاها، واعتقادٍ لمدلولِها.

***

قوله: «وعن أبي سعيد الخدري»: هو سَعْدُ بنُ مالكِ بنِ سنانٍ الأنصارِيُّ الخزرجيُّ، صحابيٌّ جليلٌ وأبوه صحابيٌّ.

«**عن رسول الله ﷺ قال: قال موسى: يا رب، علمني شيئاً أذكرك وأدعوك به**» طَلَبَ من ربِّهِ أن يعلِّمَهُ كلاماً يعظِّمُهُ بِهِ، ويَطْلُبُ منهُ به حاجاتِهِ، ويتوسلُ بِهِ إليهِ.

---

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٦٢١٨) والحاكم في «المستدرك» (١/٥٢٨) وصححه، ووافقه الذهبي، وأخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (١٠٥٨٨) وفي «عمل اليوم والليلة» له (٨٣٤ و ١١٤١) وأبو يعلى (١٣٩٣) من طريق درَّاج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري به.

قلت: والأحاديث الصحيحة في فضل كلمة التوحيد كثيرة، ذُكر بعضُها في هذا الباب، وانظر ما سيأتي في الباب الخامس: تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلَّا الله.

«**قل يا موسى: لا إله إلَّا الله**» أي: لا معبودَ بحقٍّ إلَّا الله.

«**قال**» أي: موسى، «**يا رب، كل عبادك يقولون هذا**» أي: وإنَّما أريدُ شيئاً تخُصُّني به من بين عمومِ عبادِكَ.

«**قال**» أي: الربُّ سُبحانه وتعالى مبيناً لموسى وغيرِهِ فضلَ هذهِ الكلمةِ على غيرها من ألفاظِ الذكرِ، «**لَو أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ**» أي: الطِّباق، «**وعامرهن**» أي: من فيهن من العُمَّار «**غيري**» أي: غير الله سُبحانَهُ في السَّماءِ. ففيهِ دليلٌ على إثباتِ العلوِّ «**وَالأَرْضِينَ السَّبْعَ**» أي: ومن فيهنَّ من السُّكانِ. وفيهِ أنَّ الأرضَ سبعُ طِباقٍ كالسَّماءِ، «**فِي كِفَّةٍ**» أي: إحدى كفتي الميزانِ، «**وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي كِفَّةٍ**» أي: في الكفةِ الأُخرى، «**مَالت بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**» أي: رجَحَتْ بالسماواتِ السبعِ ومَنْ فيهنَّ غَيْرَ الله، وبالأرضينَ السبعِ ومن فيهنَّ، وذلك لما اشْتَمَلتْ عليهِ هذه الكلمةُ من نفيِ عبادةِ غيرِ الله، وإثباتِ العبادةِ لله، وتقريرِ التوحيدِ، وإبطال الشِّركِ.

ففي هذا الحديث: فضلُ لا إلهَ إلَّا الله، وأنها أفضلُ الذكرِ، وأنه لا بدَّ من الإتيانِ بها كُلِّها، وما فيها من النّفي والإثباتِ، وأنهُ لا يَكفي الإتيانُ بلفظِ الجلالةِ (الله) أو لفظِ (هو هو) كما تفعلُهُ الصوفيةُ الضلَّالُ. وفيه أنَّ الذكرَ وغيرَهُ من أنواعِ العبادةِ توقيفيٌّ، لأنَّ موسى عليه السلام طلبَ من ربِّهِ أن يُعلِّمَهُ شيئاً يذكُرُه به. وفيه أنَّ لا إله إلَّا الله ذكرٌ ودعاءٌ.

* * *

وَلِلتِّرْمِذِي -وَحَسَّنَهُ- عَنْ أَنَسٍ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»[1].

قوله «وللترمذي وحسّنه» أي: رواه في سننه، وقال: إنه حديثٌ حسنٌ.

«عن أنس : «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا» قراب الأرض -بضمِّ القافِ-: ملؤها أو ما يقاربُهُ، «لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً».

فيه: أنَّ مغفرةَ الذنوبِ مشروطةٌ بتجنبِ الشركِ، وفيه فضلُ التَوحيدِ، وفيهِ الردُّ على الخوارجِ الذين يكفّرونَ بالكبائرِ، وفيهِ سعةُ فضلِ الله ورحمتِهِ.

وبالله التوفيقُ.

* * *

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٤٠) من طريق كثير بن فائد حدثنا سعيد بن عبيد قال: سمعت بكر بن عبدالله المزني يقول: حدثنا أنس... وذكره.

قلت: رجال إسناده ثقات غير كثير بن فائد، وثقه ابن حبان فقط، وذكر الحافظ في «التقريب» أنّه مقبول.

لكنْ للحديث شاهد يصح به من حديث أبي ذر عند مسلم (٢٦٨٧) ولفظه: «... ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئاً، لقيته بمثلها مغفرة»، وأخر عن ابن عباس عند الطبراني في «الكبير» (١٢٣٤٦) و«الأوسط» (٥٤٨٣) و«الصغير» (٨٢٠).

الباب الثالث:

بَاب مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ دَخَلَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ

هذا هو البابُ الثالثُ من أبوابِ هذا الكتابِ المباركِ «**كتاب التوحيد**» وهو: «**باب من حقق التّوحيد دخل الجنة بغير حساب**».

ولمَّا ذَكَرَ الشيخُ رحمه الله في البابِ الأولِ معنى التّوحيدِ، وحقيقتَهُ من الكتابِ والسنّةِ، وليسَ من كلامِ البشرِ الذينَ يُؤلِّفونَ في العقائدِ، وكلٌّ يفسِّرُ التّوحيدَ على حسبِ مذهبِهِ، من المعتزلَةِ، والأشاعرَةِ، وعلماءِ الكلامِ، أما الشيخُ رحمه الله فإنهُ فسَّر التّوحيدَ من الكتابِ والسنةِ، بالآياتِ والأحاديثِ الصحيحةِ عن رسول الله ﷺ.

ثمَّ ذكرَ البابَ الثَّاني وهو فضلُ هذا التّوحيدِ، الذي جاءَ بِهِ الكتابُ والسنَّةُ، وما يكفِّرُ من الذنوبِ، ثمَّ جاءَ هذا البابُ الثالثُ من حقَّقَ هذا التّوحيدَ دخَلَ الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ ولا عذابٍ. وتحقيقُ التوحيدِ: تصفيتُهُ من الشركِ والبدعِ والذنوبِ.

فإنْ قيلَ: «**باب فضل التوحيد**»، و«**باب من حقَّقَ التّوحيد**» ما الفرقُ بينهما؟.

الفرقُ: فضلُ التّوحيدِ في حقِّ الموحِّدِ الذي ليسَ عندَهُ شركٌ، ولكنْ قَدْ يكونُ عندَهُ بعضُ المعاصي التي تُكَفَّرُ بالتوحيدِ.

أما هذا البابُ فهو أعلى من البابِ الذي قبلَه: «**من حقق التوحيد**» يعني: أنه لم يُشْرِكَ بالله شيئاً، ولم يكُنْ عندَهُ شيءٌ من المَعاصي، هذا تحقيقُ التّوحيدِ، ومن بلغَ هذه المرتبةَ دخَلَ الجنَّةَ بلا حسابٍ، أما مَنْ كانَ في المرتبَةِ التي قبلَها، وهو المُوحِّدُ الذي عندَهُ ذنوبٌ فهذا قد يُغفَرُ له، وقد يُعذَّبُ بالنارِ، ثم يُخرَجُ منها، لأنَّ الموحّدينَ على ثلاثِ طبقاتٍ:

وَقَولُ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠)﴾ [سورة النحل: ١٢٠].

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ الآية [فاطر: ٣٢، ٣٣].

الطبقة الأولى: الذين سَلِموا من الشركِ، وقد لا يَسْلَمونَ من الذنوبِ التي هي دونَ الشركِ وهم الظالمونَ لأنفسِهم وهم معرضونَ للوعيدِ.

الطبقة الثانية: التي سَلِمَتْ من الشركِ الأكبرِ والأصغرِ ومن البدعِ وتركتِ المحرماتِ والمكروهاتِ وبعضَ المباحاتِ واجتهدَتْ في الطاعاتِ من واجباتٍ ومستحباتٍ وهؤلاءِ هم السابقونَ بالخيراتِ ومَنْ كانَ بهذهِ المرتبةِ دخلَ الجنَّةَ بلا حسابٍ ولا عذابٍ.

الطبقة الثالثة: المقتصدونَ الذينَ فعلوا الواجباتِ وتركوا المُحرماتِ وهم الأبرارُ.

* * *

قال: «**وقول الله تعالى**: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠)﴾» [النحل: ١٢٠] إبراهيمُ عليه السلام هو إمامُ المحققينَ للتّوحيدِ، بعثَهُ الله عز وجل لما غطَّى الشركُ على وجهِ الأرضِ في وقتِهِ، وهو وقتُ النَّمرودِ الكافرِ المُلْحِدِ الذي ادَّعى الربوبيةَ، وكان قومُهُ يَعْبدونَ الكواكبَ، ويَبْنونَ لها الهياكلَ ويُسمَّوْنَ بالصابئةِ، وهُمْ في أرضِ بابلَ من العراقِ، ثمَّ حصَلَ بينَهُ وبينَهُمْ اصطدامٌ، ذكرَهُ الله تعالى في القرآنِ، انتهى بهجرةِ إبراهيمَ -عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ- من أرضِ العراقِ إلى أرضِ الشَّامِ وإلى الحجازِ، حيثُ جعَلَ قسْماً من

....

ذُرِّيَّتِهِ في الشامِ وهُمْ إسْحاقُ وَذُرِّيَّتُهُ، أولادُ زوجِهِ سارةُ، وذَهَبَ بإسماعيلَ بنِ سُرِّيتِهِ هاجرَ وأمَّهُ إلى مكة؟، أرضِ الحرمِ، بأمرِ الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ [الصافات: ٩٩]، أي: مُهاجرٌ من أرضِ الكفرِ والشركِ إلى أرضِ التَّوحيدِ بالشامِ والحجازِ، تلكَ المواطنُ المباركةُ، التي صارَ فيها بيتُ المقدسِ، وفيها البيتُ العتيقُ أوّلُ بيتٍ وُضِعَ للنَّاسِ، وهو الكعبةُ المشرفةُ بمكةَ، فأورثَهُ الله هذهِ البلادَ وهذهِ البيوتَ إكراماً له ولذريّتِهِ -عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ-، عوَّضَهُ الله أرضاً خيراً من أرضِهِ، وقد وصفَهُ الله تعالى في هذهِ الآيةِ بأَرْبَعِ صفاتٍ، كُلُّها من تحقيقِ التّوحيدِ:

الصفة الأولى: ﴿كَانَ أُمَّةً﴾ والأمَّةُ معناها: القُدْوَةُ في الخيرِ، فهو إمامٌ للناسِ، كما قالَ تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، يعني: قُدْوة لأهلِ الخيرِ إلى أَنْ تقومَ السَّاعةُ، فقولُهُ أُمَّةً يعني: إماماً وقدوةً، لأنَّ الأمَّةَ لها ثلاثُ إطلاقاتٍ في القرآنِ، هذا أحدُها؛ أُمَّةٌ بمعنى قدوةٌ، كما في هذهِ الآيةِ.

الإطلاقُ الثاني: الأمةُ بمعنى: مقدارٌ من الزَّمانِ ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥] أي: بعدَ زمنٍ وبعدَ مُدَّةٍ. وتُطْلَقُ الأمةُ ويُرادُ بها الجماعةُ من النَّاسِ ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢] يعني: جَماعة، لأنَّ دينَ الإسلامِ دينُ جماعةٍ، لا دينَ تَفرُّقٍ واختلافٍ، فليسَ فيهِ تفرُّقٌ وأحزابٌ، وجماعاتٌ وجمعيّاتٌ متفرّقةٌ ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: ١٠٥]، فالمطلوبُ من المسلمينَ أن يكونوا أمةً واحدةً، على منهجٍ واحدٍ، وعلى دينٍ واحدٍ، وعلى ملّةٍ واحدةٍ، كالبنيانِ المَرْصوصِ، يشدُّ بَعْضُهُ بعضاً، وكالجسدِ إذا اشتكى منه عضو

تداعى له سائرُ الجسدِ بالسَّهرِ والحُمَّى، ولا يكونُ ذلكَ إلَّا بعقيدةِ التّوحيدِ، أما التفرُّقُ والاختلافُ والتَّناحُرُ والتَّهاجُرُ والتَّباغضُ والتنابُذُ بين الجماعاتِ وبينَ الفِرَقِ فهذا ليسَ من دينِ الإسلامِ وهذا يكونُ معَ فسادِ العقيدةِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام: ١٥٩] نَعَم قَدْ يُوجَدُ الاختلافُ في الاجتهادِ، ولكنْ هذا الاختلافُ يُحْسَمُ بالرجوعِ إلى كتابِ الله وسنَّةِ رسولهِ ﷺ، فالمخطئُ يرجِعُ، والمُصيبُ يثبُتُ قالَ تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء: ٥٩].

الصفة الثانية لإبراهيم أنه: ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ والقنوتُ في اللغةِ معناهُ: الثبوتُ والدّوام، أي: مداوماً وثابتاً على طاعةِ الله، لا يتزحزحُ عنها، ويُطْلَقُ القنوتُ على طولِ القيامِ في الصَّلاةِ، قال تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة: ٢٣٨]، وقالَ الله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر: ٩]، فمعنى وصْفِ إبراهيمُ بأنَّهُ كانَ قانتاً أي: أنه كانَ مُداوماً على طاعةِ الله، ثابتاً عليها، بخلافِ الذي يجتهدُ في يومٍ أو شهرٍ أو سنةٍ ثمَّ بعدَ ذلكَ يتراجَعُ انتكاسًا بعدَما بدأ بالخيرِ لكنَّهُ لم يُكمِلْ، فالمطلوبُ من الإنسانِ أن يثبتَ على الخيرِ، بمعنى أنه يلازمُ عملَ الخيرِ، ولا يتخلَّى عنه، ولو كانَ قليلاً فـ «**أَحَبُّ العَمَلِ إِلَى اللهِ أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ**»(١).

وكذلكَ ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ يعني: أنهُ يعملُ هذا مُخْلصًا لله، لا يقصدُ به رياءً ولا سُمْعةً ويُؤْخَذُ من هذا وجوبُ الإخلاصِ، لأنَّ بعضَ النَّاسِ قَدْ يُصَلِّي ويُحَسِّنُ

(١) أخرجه البخاري (٥٨٦١) ومسلم (٧٨٢).

صلاتَهُ، ويُطوِّلُ قيامَهُ وركوعَهُ من أجلِ رياءِ النَّاسِ، فإذا أَحَسَّ أنَّ عندَهُ أحدٌ يُطَوِّلُ الرُّكوعَ والسُّجودَ مِنْ أجلِ أَنْ يوصفَ بأنهُ صاحبُ طاعةٍ، وإذا صَلَّى وحدَهُ نقرَ الصلاةَ، وخفّفَها، والإخلاصُ: أنَّ الإنسانَ يقصِدُ بعملِهِ وجْهَ الله، ولا يقصِدُ بذلكَ طمعًا من مطامعِ الدُّنيا، أو مَدْحًا، وثناءً مِنَ الخلقِ، ولا يستمعُ إلى لومِهِم إذا لاموهُ في طاعةِ الله. قالوا: فلانٌ متشدِّدٌ، فلانٌ كذا، ما دامَ أنه على الطَّريقِ الصَّحيحِ، وعلى السُّنَّة فلا يَضُرُّهُ ما يقولُهُ النَّاسُ، ولا تَأْخُذُهُ في الله لومةُ لائمٍ.

الصفة الثالثة: ﴿حَنِيفًا﴾ والحنيفُ من الحنَف وهو في اللغةِ: الميلُ، والمرادُ به هنا: الإقبالُ على الله، وأنه مُعْرِضٌ عَنِ النَّاسِ مُقبلٌ على الله سبحانه وتعالى، يطلُبُ الخَيْرَ من الله وحدَهُ.

الصفة الرابعة: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وهذا محلُّ الشَّاهدِ من البابِ، ومعناه: أنه تبرَّأَ من المشركينَ، براءةً تامَّةً، أي: قطَعَ ما بينَهُ وبينَ المشركينَ مِنَ المودَّةِ من أجلِ الله سبحانه وتعالى، لأَنَّهم أعداءُ الله، والمؤمنُ لا يحبُّ أعداءَ الله.

فإبراهيمُ عليه السلام لم يكنْ من المشركينَ لا بقليلٍ ولا بكثيرٍ، قطَعَ صلةَ المحبةِ بينَهُ وبينَهُم، أما صلةُ التعاملِ الدُّنيويِّ في المصالحِ المباحةِ فهذا شيءٌ آخرُ، إنَّما المرادُ قطعُ صلةِ المحبةِ والمُوالاةِ والمُناصرةِ، هذا هو المطلوبُ، أما التعاوُن الدُّنيويُّ فيما فيهِ نفعٌ للمسلمينَ، فهذا لا بأسَ به، يُوضِّحُ هذا قولُه في الآيةِ الأُخرى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ [الممتحنة: ٤]، يعني: من أتباعِهِ، ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤] يعني: لا تقارُبَ بيننا وبينكم في المودَّةِ والمناصرةِ والمُؤاخاةِ أبدًا، إلَّا إذا آمنتُمْ بالله وحدَهُ، وكَفَرْتُم بما يُعْبَدُ من دونِ الله عز وجل، وتَرَكتُم عبادةَ الأصنامِ، فحينئذٍ نكونُ

إخوانًا ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ ثمَّ قالَ في الآيةِ التي بعدها: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٦﴾ [الممتحنة: ٦]، ثمَّ قالَ بعدها: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ [الممتحنة: ٨].

فهذه أربعُ صفاتٍ وصفَ اللهُ بها إبراهيمَ: وهي:

الصفة الأولى: أنه كانَ أُمَّةً، يعني: قدوةً في الخيرِ.

الصفة الثانية: أنه كانَ قانتًا لله ثابتًا على الطاعةِ مُخْلصًا عملَه لله.

الصفة الثالثة: أنهُ كانَ حنيفًا، مقبلاً على الله معرضًا عمَّا سواهُ.

الصفة الرابعة: أنه لم يَكُ من المشركينَ. أي بريءٌ منهم ومن دينِهم.

وهذا هو تحقيقُ التّوحيدِ يكونُ بهذهِ الأمورِ، وأعظمُها البراءةُ من المشركين، فمَنْ تبرَّأَ، من المشركينَ فهو ممَّنْ حقَّقَ التّوحيدَ، ولو كانوا أقربَ النَّاسِ إليه، فإبراهيمُ تبرَّأَ من أبيهِ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٤١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ۝٤٢﴾ [مريم: ٤١، ٤٢] إلى أنِ انْتهَتِ المحاورةُ بقوله: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ۝٤٨ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۝٤٩﴾ [مريم: ٤٨-٤٩] «**مَنْ تَرَكَ شَيْئًا للهِ عَوَّضَهُ اللهُ خَيْرًا مِنْهُ**»[1] لمَّا تبرَّأَ من المشركينَ عوَّضَهُ الله ذريةَ أنبياء.

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٦٣) وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٥٣) وابن المبارك في «الزهد» (١٠) وغيرهم، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٩٦): (أخرجه كله أحمد بأسانيد ورجالها رجال الصحيح) وكذا قال العجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ٢٣٩).

وقَالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾ [سورة المؤمنون: ٥٩].

واليومَ جماعاتٌ يدَّعُونَ أنَّهم دعاةٌ إلى الله لا يتبرءونَ من المشركينَ ما داموا على مَنْهجِهِم الحزبيِّ!! ولا حولَ ولا قوةَ إلَّا بالله.

والواجبُ على المسلمِ أن يتقيَ الله سُبْحانه وتعالى، وإذا كانَ يريدُ أن يدْعُوَ إلى الله فَلْيعرفْ ما هي الدعوةُ؟، وما هي أصولُ الدعوة؟، وما المطلوبُ من الداعيةِ؟، وأن يكونَ على طريقةِ إبراهيمَ -عليهِ السلامُ- وغيرِهِ من النبيّينَ الذين تبرّأوا من المشركينَ وقاطعوهُم بعدَما تبرؤوا من الشركِ وأخلصوا العبادةَ لله وحدَهُ.

* * *

ثمَّ قالَ الشيخُ رحمه الله: «**وقال:** ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾» [المؤمنون: ٥٩] هذه صفةٌ من الصفاتِ التي ذكرِها الله في «**سورةِ المؤمنون**»، في السابقينَ بالخيراتِ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧﴾ [المؤمنون: ٥٧] **هذه الصفة الأولى**.

الصفة الثانية: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨﴾ [المؤمنون: ٥٨].

الصفة الثالثة: -وهي العظيمةُ-: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾ [المؤمنون: ٥٩].

الصفة الرابعة: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠﴾ [المؤمنون: ٦٠].

هذه الصفاتُ العظيمةُ هي تحقيقُ التّوحيدِ من جميعِ الشوائبِ، هذا مُجْمَلُها وإليك تَفْصيلُها:

الصفة الأولى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧﴾ [المؤمنون: ٥٧] الخشيةُ من أعمالِ القلبِ، وهي الوَجَلُ من الله عز وجل، والخوفُ من عقابِهِ، خشيةً منه سُبْحانه وتعالى أن يعاقبَ العاصي والمذنبَ على معصيتِهِ، ومن أعظمِ أنواعِ العبادةِ، الخوفُ والخشيةُ والرغبةُ والرهبةُ والرجاءُ، وكلُّ هذهِ من أعمالِ القلبِ، إلَّا أنَّ الخوفَ لا يجوزُ أَنْ يصلَ إلى حَدِّ القنوطِ، بل يكونُ خوفًا مقرونًا بالرَّجاءِ، لا يَيْأَسُون من روحِ الله ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝٨٧﴾ [يوسف: ٨٧] والرَّجاءُ لا يكونُ بدونِ خوفٍ من مكرِ الله. ولا يأمنونَ مِنْ مكرِ الله، ويعتمدونَ على الرجاءِ فقط، ويتركونَ الخوفَ: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ۝٩٩﴾ [الأعراف: ٩٩]، بل المطلوبُ الجَمْعُ بينَ الخوفِ والرَّجاءِ، فلا يخافُ حتَّى يَقْنَط، ولا يَرْجوا حتى يأْمنَ من مكرِ الله، بل يكونُ متعادلاً، ولهذا يقولُ العلماءُ: (المؤمنُ بينَ الخوفِ والرَّجاءِ كالطائرِ بجناحينِ لو اختلَّ جناحٌ من الأجنحةِ سقطَ الطائِرُ، كذلكَ المُؤْمنُ إذا اختلَّ خوفُهُ أو رجاؤُهُ سقطَ)[1].

الصفة الثانية: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨﴾ [المؤمنون: ٥٨] يؤمنونَ بآياتِ الله أي يُصدِّقونَ بها، ويعملونَ بها، وآياتُ الله: القرآنُ، ويؤمنونَ به بمعنى: أنهم يُصدِّقونَ أنه كلامُ الله سبحانه وتعالى، تكلَّمَ الله به وَحْيًا، ونزلَ به جبريلُ إلى النبيِّ ﷺ، وحفظَهُ النبيُّ ﷺ من جبريلَ، وبلّغهُ للناسِ، ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٣] يعني: جبريلَ -عليه الصلاةُ والسَّلامُ-، ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥﴾ [الشعراء: ١٩٤-١٩٥]، هذه صفاتُ القرآنِ، فيؤمنُ هؤلاءِ المؤمنونَ بأنَّ هذا

---

(١) نسبه شارح «الطحاوية» إلى أبي علي الروذبادي (ص٣٧١).

القرآنَ هو خطابُ ربِّهم لهم أمرًا ونهيًا، وتعريفًا به سُبْحانَهُ وبصفاتِهِ، وإخبارًا لهم عن الغيوبِ الماضيةِ والغيوبِ المستقبَلَةِ، وهذا القرآنُ أعظمُ الكتبِ التي نزلتْ من السَّماءِ، وقد أودعَ الله فيه من العلومِ العظيمةِ والأسرارِ العظيمةِ ما لا يعلمُهُ إلَّا الله سبحانه وتعالى. والعَوَامُ يفهمونَ من القرآنِ، والمبتدؤونَ في التعليمِ يفهمونَ من القرآنِ، والرَّاسخونَ في العلمِ يفهمونَ أكثرَ من غيرِهم، كلٌّ على قَدْرِ ما أعطاهُ الله سبحانه وتعالى، لأنَّ القرآنَ -كما يقولُ ابنُ عباسٍ-(١) على أربعةِ أنواعٍ: منه ما تعرفُهُ العربُ من لغتِها، كالنَّارِ، والجنَّةِ، والزِّنا، والخمرِ، والشِّركِ، والكُفْرِ، والرِّبا. ومنهُ ما لا يُعذَرُ أحدٌ بجهالتِهِ مثلَ: مَعْرفةِ الصلاةِ، والصِّيامِ، والحجِّ، وأَرْكانِ الإسْلامِ، كُلُّ واحدٍ مطالبٌ بأَنْ يعرفَها. ومنه ما يعرفُهُ العلماءُ، خاصَّةً كالمُحْكمِ، والمُتشابِهِ، والمُطلقِ، والمُقيَّدِ، والنَّاسخِ والمنسوخِ، والعامِّ والخاصِّ، هذهِ الأنواعُ إنَّما يعرفُها العلماءُ الذينَ درسُوا علومَ الشريعةِ. **والنَّوع الرَّابع**: ما لا يعلمُهُ إلَّا الله، وهو حقائقُ ما ذكرَهُ الله في القرآنِ من الجنَّةِ والنَّارِ، وكَيْفيَّة صفاتِ الرَّبِّ سُبْحانه وتَعالى، فنحنُ نعرفُ معانيها، لكِنَّ كيفيَّتها لا يعلَمُها إلَّا هو سُبْحانه وتعالى؛ سَمْعُه، وبصرُهُ، وعِلْمُه ووجهُه، ويدُهُ سُبْحانه وتعالى، لا يَعْلمُ كيفيَّتَها إلَّا الله، ونزولُهُ إلى السَّماءِ الدُّنيا، واستواؤُهُ على العرشِ، كيفيتُها لا يعلمُها إلَّا الله سبحانه وتعالى، لكنَّ المَعاني اللُّغويَّةَ نعرفُها ونَفْهمُها.

فمعنى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [المؤمنون: ٥٨] أي: يُصدِّقون بهذا القرآنِ ويتدبَّرونَهُ، ويَشْتغلونَ به، ويعتنونَ به، ويعملونَ بما فيهِ، ما أمرَهُم به فَعلوهُ، وما نهاهم عنهُ تركوهُ، وما أخبرَهُم به صدّقوهُ وآمنوا به، وما اشتبهَ عليهم ردُّوا علمَهُ إلى الله سبحانه وتعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ

(١) انظر «مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٧/ ٢٨٣).

كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧] هذه طريقةُ المؤمنينَ مع القرآنِ، بخلافِ المنحرفينَ فإنهم لهم معَ القرآنِ مواقفُ سيِّئةٌ، فمنهم الذين قالوا إنَّ القرآنَ مخلوقٌ، والذينَ قالوا إنَّ القرآنَ: له ظاهرٌ وله باطنٌ، وهم الباطنيةُ هؤلاءِ لا يؤمنونَ بآياتِ الله عز وجل. والذينَ قالوا إنَّ ظاهرَ القرآنِ غيرُ مرادٍ لأنه يوهمُ التشبيهَ والتجسيمَ فيما يخبرُ عن الله عز وجل.

الصفة الثالثة: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾ [المؤمنون: ٥٩] هذا هو تحقيقُ التّوحيدِ، لا يشركونَ أبدًا، شركًا أصغرَ ولا شركًا أكبرَ، يعني: لا يقعُ منهم شركٌ أبدًا، هؤلاءِ الذينَ حقّقوا التّوحيدَ، وَسلِموا من الشركِ الأكبرِ والأصغرِ والخفيِّ والجليِّ، وكلِّ أنواعِ الشركِ والبدعِ والمخالفاتِ.

الصفة الرابعة: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟﴾ من الطاعاتِ، ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ يعني: خائِفة ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠﴾ نَفَى عنهم الإعجابَ بأعمالِهم، فهم يعملونَ الأعمالَ الجليلةَ، ويخافونَ من الله أنْ يردَّها عليهم. فهم يخافون أن تُردَّ عليهم أعمالُهم بخللٍ وقعَ فيها، لأنَّ الإنسانَ ليسَ معصومًا، فهم جمعوا بينَ الطاعةِ والخوفِ، أما أهلُ التفريطِ فجمعوا بين الكسلِ والأمنِ مِنْ مكرِ الله عز وجل.

ولذلكَ يقولُ ﷺ: «**لَنْ يَدْخُلَ أَحَدُكُمُ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ**»، قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ الله؟، قال: «**وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ**»[(١)]، هذا هو مقامُ تحقيقِ التّوحيدِ، فالجنَّةُ لا تُدْرَكُ بالأعمالِ، وإنَّما الأعْمالُ سببٌ لدخولِ الجنَّةِ ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٣٢﴾ [النحل: ٣٢]، قالَ العلماءُ: الباء باءُ السببيَّةِ، وليست الباء للثمنيَّةِ، فالعملُ الصالحُ سببٌ لدخولِ الجنَّةِ، والله لا يضيعُ أجرَ مَنْ أحسنَ عَمَلاً، وإدخالُهُ عبادَهُ الصالحينَ الجنَّةَ تَفَضُّلٌ منه، وإحسانٌ منهُ

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٣) ومسلم (٢٨١٦).

سبحانه وتعالى، والله تعالى يقولُ: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤] إذا كنتَ لا تستطيعُ عدَّها، فكيفَ تستطيعُ الشكرَ؟، ولهذا يقولُ صلى الله عليه وسلم في دعاءِ القنوتِ «**أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِعَفْوِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَبِكَ مِنْكَ، لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**»[1]، هذا سيِّدُ الأنبياءِ، وإمامُ المرسلينَ، وأفضلُ الخلقِ يعترفُ أنه لا يُحصِي الثناءَ على الله سُبْحانَهُ وتعالى، فكيف بغيرِهِ؟

فهؤلاءِ ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون: ٦٠] لأنَّ أعمالَهم أقلُّ بكثيرٍ مما يجبُ عليهم، ثُمَّ -أيضًا- لا يضمنونَ أنَّها تكونُ مُتقبَّلَةً، قد تكونُ مردودةً بسببٍ من الأسبابِ، ولهذا يقولُ الله تَعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة: ٢٧] ومَنْ يَضْمَنُ لنفسِهِ أنَّه من المتقينَ؟، لكنَّ الإنسانَ يعملُ ولا ييأسُ ولا يَقْنطُ، ويُحسنُ الظنَّ بالله عز وجل، إنما لا يستكثرُ عملَهُ، أو يتمنّنُ على الله، قالَتْ أمُّ المؤمنينَ عائشةُ رضي الله عنها، للنبي ﷺ لَمَّا سمعَتْ هذِهِ الآيَةَ ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون: ٦٠]، قالَتْ: يا رسولَ الله، أهُمُ الذينَ يزنونَ ويسرقونَ ويشربونَ الخمر، ويخافونَ أن يُعَذَّبوا بذنوبِهم؟، قال: «**لا، يا ابنةَ الصِّديقِ، ولكنَّهم يُصلُّون ويصومونَ ويُجاهدون، ويَخافون أن تُردَّ عليهم أعمالُهم**»[2].

***

(١) أخرجه مسلم (٤٨٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٣١٧٥) وأحمد (٦/ ١٥٩).

وعَن حُصَينِ بنِ عَبدِالرَّحمنِ قَالَ: كنتُ عِندَ سَعِيدِ بنِ جُبَيرٍ فقَالَ: أَيُّكُمْ رَأَى الكَوكَبَ الَّذِي انقَضَّ البَارِحَةَ؟

فَقُلتُ: أَنَا، ثم قُلتُ، أَمَا إِنِّي لَم أَكُن في صَلَاةٍ، وَلكِنِّي لُدِغتُ، قَالَ: فَمَا صَنَعتَ؟، قُلتُ: ارتَقَيتُ[1].

قوله: «وَعَنْ حُصَيْنُ بْنُ عَبْدِالرَّحْمَنِ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ» إلخ.

ساقَ الشيخُ رحمه الله، هذا الحديثَ، في «باب من حقق التّوحيد»، بعدَ أَنْ ذكرَ الآياتِ السابقةَ، لأنَّ هذا الحديثَ، هو فيمن حقَّقَ التّوحيدَ وما له عندَ الله من الكرامةِ، وسبقَ لنا معنى تحقيقِ التَّوحيدِ، وأنه تخليصُهُ من شوائبِ الشركِ الَأكْبرِ والَأصْغر، ومن البدعِ والمخالفاتِ وهذه مرتبةُ السابقينَ من هذه الأمةِ.

قال: «عَنْ حُصَيْنُ بْنُ عَبْدِالرَّحْمَنِ» السُّلمي، أحدُ التابعينَ الثقاتِ.

«قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ» سعيدُ بنُ جُبيرٍ من أكابرِ التابعينَ علمًا وورعًا وفقهًا، وهو من تلاميذِ ابنِ عباسٍ -رضِيَ الله تعالى عنهما- قتلَهُ الحجّاجُ بنُ يوسف الثَّقفيُّ قبلَ أن يبلغَ الخمسين من عُمُرِهِ، وبقتلِهِ أُصيبتِ الأمةُ بفقدِ عالمٍ من أجلِّ علمائِها.

«فَقَالَ: أَيُّكُمْ رَأَى الكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَّ البَارِحَةَ؟»، يسألُ الجالسينَ عندَه، والكوكبُ معناه: الشِّهابُ الذي يُرمَى به الشياطينُ الذي يَسْتَرِقُون السَّمْعَ، وليس معناه أنَّ الكوكبَ نفسَهُ يسقطُ، ولكنْ ينفصلُ منهُ شَظِيَّةٌ. «الَّذِي انْقَضَّ البَارِحَةَ»، أي: الذي سقَطَ.

قال حُصينُ بنُ عبدِالرحمن: «أَنَا»، والبارحةُ كلمةٌ تطلَقُ على الليلةِ الماضيةِ،

---

(١) لم أقف على هذا اللفظ، والذي في مسلم (٢٢٠): استرقيتُ.

قَالَ: فَمَا حَمَلكَ عَلَى ذَلِكَ؟ قُلتُ: حَدِيثٌ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبيّ.

ما قبلَ الزوالِ يُقالُ له: الليلة، وما بعدَ الزوالِ يُقالُ له: البارِحة، مِن «**بَرَح الشيء**» إذا فاتَ وذهبَ، هذا عندَ العربِ.

وقوله: «**قُلْت: أَنَا**» يعني: أنا رأيتُ الكوكبَ، فدلَّ هذا على أنَّ هذا الرجلُ لم يَنَمْ.

ثُمَّ إنه خَشِيَ على نفسِه من الرياءِ، فاستدركَ وقال: «**أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ**» يعني: لا تظنوا أني سهِرْتُ أتهجّدُ، خشِيَ على نفسِهِ الرياءَ، أن يُمْدَحَ بشيءٍ ليس فيه، وهذا من ورعِ السّلفِ وابتعادِهم عن الرياءِ وتزكيةِ النفسِ، لأنَّ هذا ينافي الإخلاصَ.

وقوله: «**وَلَكِنِّي لُدِغْتُ**» يعني: السَّبب في كوني كُنْتُ مستيقظًا وقتَ نزولِ الشِّهابِ أنني لُدِغت، واللَّدْغ معناه: إصابةُ ذاتِ السمومِ من العقاربِ ونحوِها.

وقوله: «**قَالَ: فَمَا صَنَعْت؟**» لأنَّ من عادةِ المَلْدُوغِ أنه يتعاطى شيئًا من العلاجِ.

وقوله: «**ارْتَقَيْتُ**» يعني: طلبتُ من يَرْقِينِي بالقرآنِ، والرُّقيةُ معناها: أَنْ يُقرأَ على المصابِ بالمرضِ أو باللَّدْغِ من القرآنِ والأدعيةِ، ويُنْفَثُ على موضعِ الإصابةِ وموضعِ الألمِ. وهذا من أنفعِ العلاجِ إذا صدَرَ عن يقينٍ من الرّاقي ويقينٍ من المَرْقي، لأنَّ الله سبحانه وتعالى أنزلَ هذا القرآنَ شفاءً للأمراض المعنويّةِ: أمراضِ الشِّركِ، والنِّفاقِ، والمعاصي، والأمراضِ الحسيَّةِ: أمراضِ الأجسادِ، لأنهُ كلامُ ربِّ العالمينَ سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢] فالرُّقية مشروعةٌ، وقد رَقَى النبيُّ ﷺ ورُقي -عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ-، رَقَاهُ جبريلُ لمَّا

قَالَ: وَمَا حَدَّثَكُم؟ قُلتُ: حَدَّثَنَا عَن بُرَيدَةَ بنِ الحُصَيْبِ؛ أَنَّهُ قَالَ: لَا رُقيَةَ إِلَّا مِن عَينٍ أَو حُمَةٍ.

أصابَهُ السِّحرُ، ورَقَى ﷺ بعضَ أصحابِه، فالرُّقيةُ بالكتابِ والأدعيةِ أمرٌ مشروعٌ.

قوله: «**قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى هذَا**» هذا فيه أنَّ السلفَ يطلبونَ الدليلَ على ما يفعلونَ وما يقولونَ، وفي طلبِ الدليلِ على المذهبِ والاجتهادِ. فمن قالَ بمسألةٍ من المسائلِ، أو فعَلَ فِعْلاً، فإنه يُطْلَبُ منهُ الدليلُ على جوازِهِ، أو على مشروعيّتِهِ من الكتابِ والسنّةِ. هذا أدبُ السَّلفِ -رحِمَهُمُ اللهُ- أنهم لا يُقْدِمونَ على شيءٍ إلَّا بدليلٍ من كتابِ اللهِ وسنّةِ رسولهِ ﷺ خصوصًا في أمورِ العلاجِ، لأنَّ النفوسَ تتشبثُ بأيِّ شيءٍ لطلبِ الشِّفاءِ، حتى ولو كانَ غيرَ مشروعٍ. فسعيدُ بنُ جبيرٍ رحمهُ اللهُ خَشِي من هذا الأمرِ. فهذا فيه أنَّ العلاجَ لا يكونُ إلَّا بما دلَّ عليهِ دليلٌ من كتابِ اللهِ وسنَّةِ رسولِهِ، أما الذهابُ إلى المشعوذينَ والدجّالينَ والسَّحرةِ والكَذَبةِ فهو محرَّمٌ، وقد يكون شركًا أكبرَ يُخرِجُ صاحبَهُ من الملّةِ؛ إذا ذَبَح لغيرِ الله، أو دعا غيرَ اللهِ، أو استغاثَ بالجنِّ أو الشياطينِ، فإنه يخرجُ من الملّةِ، ولو فرضنا أنه شُفي، ماذا ينفعُهُ إذا ذهبتْ عقيدتُهُ، وصحَّ جسمُهُ، هذا أمرٌ وبابٌ خطيرٌ جدًّا، ويجبُ التحرُّزُ منه.

وقوله: «**قُلْتُ: حَدِيثٌ حَدَّثَنَيهُ الشَّعْبِيُّ**» يعني: هذا دليلي على ما فعلتُ، والشَّعْبي هو: عامرُ بنُ شُرَاحيل، الإمامُ الجليلُ من أئمةِ التابعينَ.

«**قال: وما حدّثكم؟ قلت: حدثنا عن بُريدة بن الحُصيب**» بُريدة بنِ الحُصيب الأَسْلمي، من صحابةِ رسولِ اللهِ ﷺ، فهذا التابعيُّ -الذي هو الشَّعْبي- يروي عن هذا الصحابيِّ.

قوله: أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «**لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ**» لا رُقيةَ يعني:

قَالَ: قَد أَحسَنَ مَنِ انتَهَى إِلى مَا سَمِعَ.

أَنْفَعَ وأَشْفى إلَّا من عينٍ، أي: إصابة العينِ بسببِ الحسدِ الذي يكونُ في بعضِ الناسِ، إذا نظرَ إلى الأشياءِ أُصيبتْ على أثرِ نظرتِهِ، لأنَّ نظرَهُ مسمومٌ، وهذا من عجائبِ خلقِ اللهِ سبحانهُ وتعالى وقدرتِهِ، أنه يجعلُ بعضَ الأنظارِ مسمومةً، إذا نظرَ صاحبُها إلى شخصٍ، أو إلى حيوانٍ، أو إلى شيءٍ، أُصيبَ بإذنِ اللهِ عز وجل، والعينُ حَقٌّ -كما في الحديثِ- قال ﷺ: «**العَيْنُ حَقٌّ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ القَدَرَ سَبَقَتْهُ العَيْنُ**»[1]، هذا في الصحيحِ، وقد أُصيبَ رجلٌ في عهدِ النبيِّ ﷺ فطلبَ النبيُّ ﷺ مِنَ الذي عانَه، أن يغتسلَ، ثم أُخذَتْ غُسالتُهُ وصُبَّتْ على المصابِ، فشُفي بإذنِ اللهِ، وقال: «**العَيْنُ حَقٌّ، وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا**»[2]، هذا هو علاجُها، أنه يُأمَرُ العائنُ أن يغتسلَ، ويغسلَ بواطنَ إزارِهِ، ثم تُصَبُّ هذه الغُسالةُ على المصابِ، فيُشفى -بإذنِ اللهِ-، كما فعلَ النبيُّ ﷺ وكذلك مِن علاجِها: الرُّقيةُ، بأن يُقرَأَ على المصابِ بالعينِ، فاتحةُ الكتابِ، والمعوّذتانِ.

وقوله: «**أَوْ حُمَةٍ**» الحُمَة هي: اللَّدْغةُ من ذواتِ السّموم، وهذا محلُّ الشاهِدِ من الحديثِ لما فعلَهُ حصينٌ رحمه الله.

ثم قوله: «**لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ**» قال العلماءُ[3]: هذا من بابِ التأكيدِ، لا من بابِ الحَصْرِ، فالرُّقيةُ تنفعُ من غيرِ العينِ والحُمَةِ أيضًا ومِنْ سائرِ الأمراضِ، ولكنْ أنفعُ ما يُشْفى بالرُّقيةِ هذانِ المرضانِ: العينُ والحُمَة، وإلَّا فإن الرُّقيةَ تنفعُ -أيضًا- من جميعِ الأمراضِ -بإذنِ اللهِ-، فهذا من بابِ الحَصْرِ النِّسبيِّ والتأكيدِ،

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٨٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢١٨٨).

(٣) انظر «عون المعبود» (١٠/ ٢٧١) و«تحفة الأحوذي» (٦/ ١٨١) و«فيض القدير» (٦/ ٤٢٦).

وَلَكِن حَدَّثَنَا ابنُ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَرَأَيتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ وَلَيسَ مَعَهُ أَحَدٌ؛ إِذ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنتُ أَنَّهُم أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَومُهُ.

كما قالَ ﷺ: «**لَا رِبًا إِلَّا فِي النَّسِيئَةِ**»[1] مع أن هناك ربا الفضلِ، فمعنى الحديثِ: «**لَا رِبًا إِلَّا فِي النَّسِيئَةِ**» يعني: لا ربا أعظمُ وأشدُّ من ربا النسيئةِ، فهو أشدُّ من ربا الفضلِ، لأنه ربا الجاهليةِ، فليس هذا من باب الحَصْرِ، وإنما هو حَصْرٌ إضافِيٌّ.

ولما أتى حُصينُ بنُ عبدِالرحمنِ بالدليلِ على ما فَعَلَ، قالَ لهُ سعيدُ بنُ جُبيرٍ رحمه الله: «**قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ**» أثنى عليه، وصوَّبَهُ على هذا الفعلِ، وأنه عَمِل عملاً جائزًا ومباحًا، واستدلَّ بدليلٍ صحيحٍ عن النبيِّ ﷺ، فتأدّبَ سعيدٌ معَ الحديثِ، ولم يكنْ مثلَ بعضِ الجهّالِ الذين إذا بلغهُمُ الحديثُ وهو لا يوافقُ هواهم، أو لا يوافقُ مذهبَهم، راحوا يطعنونَ فيه أكبرَ الطّعنِ، ويجرّحونَ ولو كانَ الحديثُ في «**البخاريِّ**»، فإنَّهم قالوا في أحاديث في «**البخاري**»: (حتى ولو قالَها الرسولُ ﷺ فإنَّ معناها ليسَ بصحيح عندهم)!!، قال ذلكَ بعضُ الكُتَّابِ، فهذا أمرٌ خطيرٌ.

وسعيدُ بنُ جُبيرٍ لما بلغَهُ حديثُ رسولِ اللهِ ﷺ قال: «**قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ**»، هذا هو أدبُ العلماءِ، وهذا أدبُ الصَّحابةِ رضيَ اللهُ عنهم، والتابعينَ، وسائرِ أئمةِ العلماءِ، فهم يتأدّبونَ مع السنّةِ إذا بلغتهُمْ عن رسولِ اللهِ.

قوله: «**وَلَكن: حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ**» معناه أنَّ: سعيدَ بنَ جُبيرٍ عندَهُ دليلٌ آخرُ، العملُ به أحسنُ من العملِ بحديثِ حُصينِ بنِ عبدِالرحمنِ، وإن كانَ العملُ بحديثِ حُصينِ بن عبدِالرحمنِ حسنًا، ولكنْ هناك حسنٌ وهناك ما هو أحسنُ،

---

(١) أخرجه البخاري (٤١٧٨، ٤١٧٩) ومسلم (١٥٨٤).

فأرادَ أَنْ يُرَقِّيَه من الحسنِ إلى الأَحْسنِ.

قال: «**حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ عَنْ النَّبيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ**» فيه معجزةٌ من معجزاتِ النبيِّ ﷺ حيثُ عُرِضتْ عليهِ الأممُ، أي: أُرِيَ الأُممِ السَّابقة. قيل: كان هذا ليلةَ الإسراءِ والمعراجِ.

«**فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ**» الرَّهْط: هم الجماعةُ دونَ العشرةِ، يعني: لم يتبَعهُ من أمتِهِ إلَّا دون العَشْرة، وبقيَّةُ الأمةِ كفروا به.

«**وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُل والرَّجُلانِ**» هذا أقلُّ، تبعَهُ مِنْ قومِهِ رجلٌ أو رجلانِ، والبقيةُ أَبَوْا أن يؤمنوا باللهِ ورسولِهِ.

«**وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ**» فيه من الأنبياءِ مَنْ كذَّبهُ قومُهُ كلُّهم، ولم يتبعْهُ أحدٌ، فهذا فيه دليلٌ على أنه لا يُحتجُّ بالكثرةِ، وإنما يُحتجُّ بمَنْ كانَ عليالحقِّ، ومعهُ الدليلُ، ولو كانوا قليلينَ، ولو كانَ شخصًا واحدًا، فمن كانَ على الحقِّ، ومعه دليلٌ من كتابِ اللهِ وسنَّةِ رسولِهِ، فهذا هو الذي يُؤخذُ بقولِهِ ويُقتَدى به، أما مَنْ خالفَ الدليلَ فلا عبرةَ به حتَّى ولو كانوا كثرةً، واللهُ تعالى يقولُ في نوحٍ: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٤٠﴾ [هود: ٤٠] ويقول: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ۝١٠٣﴾ [يوسف: ١٠٣] ويقول جلَّ وعلا: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ۝١١٦﴾ [الأنعام: ١١٦]، فالكثرةُ ليستْ هي الضَّابطُ في إصابةِ الحقِّ، ولا يُغترُّ بها، فربما تكونُ الكثرةُ على الباطلِ، إنَّما إذا اجتمعَ الكثرةُ مع إصابةِ الحقِّ، فهذا طيِّبٌ، أما إذا كانَتْ كثرةٌ بدونِ حقٍّ فلا، ولا يُزَهِّدُنا في الحقِّ قلَّةُ أتباعِه، لأنَّ بعضَ الناسِ اليومَ إذا نُبِّهَ على خطأ يقولُ: هذا عليهِ أكثرُ النَّاسِ، إذا قلتَ له -مثلاً- عن تحريمِ تأويلِ الصفاتِ، قالَ: تسعةُ أعشارِ العالمِ الإسلاميِّ أشاعرةٌ يؤولون الصفاتِ

فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُم سَبْعُونَ أَلفاً يَدخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ».

وهذا ليس عذرًا أمامَ اللهِ سبحانه وتعالى ما دامَ تبيّنَ الحقُّ، وأما أمرُ النَّاسِ فهو موكولٌ إلى اللهِ سُبْحانه، ويجبُ على المسلمِ أنْ يتبعَ الحقَّ، ولا يكابرَ بكثرةِ مَنْ خالفَهُ أو جانَبه، فنبيٌّ من أنبياءِ اللهِ ليسَ معهُ إلَّا دون عَشْرةٍ، ونبيٌّ من أنبياءِ اللهِ ليسَ معهُ إلَّا رجلٌ أو رجلانِ، ونبيٌّ من أنبياءِ اللهِ ليسَ معه أحدٌ. نسألُ اللهَ أن يوفقَنا وإيّاكُمْ لقولِ الحقِّ والعملِ به، ومخالفةِ الهوى والنفسِ والشيطانِ.

قوله: «**إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ**» السواد هو: الأشباحُ البعيدةُ.

«**فظننتُ أَنَّهم أُمَّتِي**» ظنَّ النبيُّ ﷺ أنَّ هذا السوادَ العظيمَ هُوْ أمتُهُ، لأنهُ أكثرُ الأنبياءِ أتباعًا، عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ.

«**فَقِيلَ لي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ**» هذا فيه فضلُ موسى عليه السلام، كليمُ اللهِ، وأنه اتَّبعَهُ من قومِهِ خَلْقٌ كثيرٌ، آمنوا به واتبعوه، فهو من أكثرِ الرُّسلِ أتباعًا بعدَ نبيِّنا محمدٍ ﷺ وفيه فضيلةٌ لموسى عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ.

فهذا يدلُّ على أنَّ موسى عليه السلام آمنَ بِهِ خَلْقٌ كثيرٌ من بني إسرائيلَ، وإنما حدثَ التحريفُ والكفرُ بعدَ موسى عليه السلام.

قوله: «**فَنَظرت فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ**»، وفي رواية: «**وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ**»، والروايةُ في «**صحيح مسلمٍ**»[1].

«**فَنَظرت فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لي: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِلَا حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ**»، وفي روايةٍ: «**وَمِنْهُم سَبْعُونَ أَلْفًا**»، السَّبعونَ الألف

---

(١) برقم (٢٢٠).

ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنزِلَهُ.

فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولئِكَ، فَقَالَ بَعضُهُم: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبوا رَسولَ اللهِ ﷺ. وقَالَ بَعضُهُم: فَلَعَلَّهُم الذين وُلِدُوا في الإِسلَامِ فَلَم يُشرِكُوا بِاللهِ شَيئاً. وذَكَروا أَشياءَ.

هؤلاءِ من أُمةِ محمَّدٍ ﷺ يدخلونَ الجنَّةَ بلا حسابٍ ولا عذابٍ. هذا فضلٌ عظيمٌ، والبقيّةُ من الخلائقِ تُحاسبُ، منهم من يُحاسبُ حسابًا يسيرًا، ومنهم مَنْ يُناقِشُ الحسابَ[1]. واختلفَ العلماءُ في الكُفارِ هل يُحاسبونَ أو يدخلونَ النارَ بدونِ حسابٍ؟، والذي قرّرهُ شيخُ الإسلامِ ابنِ تيميةَ -كما في «**العقيدةِ الواسطيةِ**»[2]- أنهم يقرّرونَ بأعمالِهم فقط، ولا يحاسبونَ محاسبةَ من يُوازَنُ بينَ حسناتِهِ وسيئاتِهِ، لأنّهم لا حَسَنات لهم، ولكنّهم يُقَرّرونَ بكفرِهم وأعمالِهم الكفريّةِ، ثم يُأمرُ بهم إلى النّارِ -والعياذُ باللهِ-. وإنْ كانَ لهُمْ حسناتٌ في الدُّنيا فإنّهم يجازونَ بها في الدُّنيا، وتُعجّلُ لهم حسناتُهُم، فإنَّ اللهَ لا يظلمُ أحدًا، أمّا في الآخرةِ فليسَ لهم ثوابٌ ولا حسناتٌ -والعياذُ باللهِ-.

قوله: «**ثُمَّ نَهَضَ**» أي: قام.

«**وَدَخَلَ مَنْزِلَهُ**» دونَ أن يبيّنَ من هم هؤلاءِ السبعون الألف.

والصحابةُ رضي اللهُ عنهم اهتموا بهذا الأمرِ، لأنَّ هذا أمرٌ عظيمٌ، فصاروا يخوضونَ في هؤلاءِ السبعينَ مَنْ هم؟.

فقوله: «**خَاضَ النَّاس فِي أُولَئِكَ**» يعني: بحثوا مَنْ هم؟، وهذا مِنْ حرصِ

---

(١) حديث مناقشة الحساب أخرجه البخاري (٦٥٣٧) ومسلم (٢٨٧٦) من حديث عائشة -رضي الله عنها- .

(٢) (ص٧٦) طبعة دار ابن خُزيمة.

الصحابةِ رضي اللهُ عنهم على الخيرِ، واهتمامِهم بأمورِ الآخرةِ، لأنهَم لا يهتمُّونَ بأمورِ الدُّنيا، وإنما يهتمُّون بأمورِ الآخرةِ، بخلافِ أهلِ الدُّنيا، إذا سَمِعوا بتجارةٍ صاروا يتحدثون عنها ولا يهمُّهُم أمرُ الآخرةِ.

قوله: «**فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَعَلَّهُمِ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولُ الله ﷺ**» لأنَّ أفضلَ الأمةِ همُ الصَّحابةُ رضي اللهُ عنهم، لا أحد يساوي الصحابةَ في الفضيلةِ، قال ﷺ: «**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدَكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بلغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ**»[(١)]، فالصحابةُ هم أفضلُ الأمةِ، ولا أحدَ يساويهم في الفَضْلِ -رضيَ اللهُ تعالى عنهم-، بسَبْقِهم إلى الإسلامِ، وصحبتِهم لرسولِ اللهِ ﷺ وجهادِهم في سبيلِ اللهِ، وبذلِهم أنفسَهم وأموالَهم في سبيلِ اللهِ عز وجل، فلذلك قالوا: «**فلَعَلَّهُمِ الَّذِينَ صَحِبُوا**»، لأنهم لا يعلمونَ أحداً أفضلَ من صحابةِ رسولِ اللهِ ﷺ.

وقوله: «**وَقَالَ بَعْضُهُمْ لَعَلَّهُمِ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسْلَامِ وَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا**» يعني: الذين وُلدوا بعد بِعْثَةِ النبيِّ ﷺ من أولادِ المسلمينَ، وبقُوا على الفطرةِ الصحيحة، وآمنوا بالله ورسوله، ولم يشركوا بالله شيئًا. وهذا -أيضًا- فيه فضل مَنْ سَلِم من الشِّرْكِ، بحيثُ أنَّ الصحابةَ توقَّعوا أنَّهم هم الذينَ يدخلونَ الجنةَ بلا حسابٍ ولا عذابٍ، ففيه فضلُ من سَلِمَ من الشركِ، ولكنْ مَنْ وقعَ في الشِّرْكِ ثم تابَ تابَ اللهُ عليهِ، وصارَ في أفضلِ المسلمينَ لأنَّ التوبةَ تَجُبُّ ما قبلَها، واللهُ تعالى يقولُ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، ولكنَّ الصحابةَ توقَّعوا أنَّ مواليدَ الإسلامِ الذين لم يُشْركوا باللهِ شيئاً، هم المعنيُّونَ بهذا الحديثِ. وهذا -أيضًا- يدلُّ على المحافظةِ على الأولادِ،

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧٣) ومسلم (٢٥٤١).

والمحافظةِ على فطرتِهم. ويدلُّ على وجوبِ التربيةِ على الإسلامِ، والتربيةِ على التّوحيدِ، وتصحيحِ العقيدةِ، لأنَّ بعضَ النَّاسِ اليومَ لا تهمُّهُم العقيدةُ، ويقولونَ: العقيدةُ أمرُها سَهْلٌ، والنَّاسُ أحرارٌ في عقائِدِهم، ولا يهتمونَ بأمرِ الشِّرْكِ، ويقولونَ: هذهِ اجتهاداتٌ، ولا يهتمونَ بالدعوةِ إلى التّوحيدِ، والتحذيرِ من الشركِ، وتصحيحِ العقائدِ.

فقولُ الصَّحابةِ: « **فَلَعَلَّهُمِ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسْلَامِ وَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا** » يدلُّ على خطرِ الشركِ، وأنَّ الإنسانَ لو وُلِدَ في الإسلامِ فإنَّ هذا لا يَكْفي، لا بُدَّ أن يَسْلمَ من الشركِ، ولا يَسْلمُ من الشِّرْكِ إلَّا إذا عرفَهُ وعرَفَ طرقَهُ، حتى يتجنَّبَهُ ويحذِّرَ منه، أما مَنْ يجهلُ الشيءَ فربَّما يقعُ فيهِ، لأنهُ لا يَدْري عنه؛ وعمرُ بنُ الخطابِ رضي اللهُ عنه يقول: «**إنَّما تُنْقَضُ عُرى الإِسلام عُروةً عروةً إذا نشأَ في الإسلامِ مَنْ لا يعرفُ الجاهليةَ**»[١]، وحذيفةُ بنُ اليمانِ رضي اللهُ عنه يقولُ: «**كانَ النَّاسُ يسألونَ رسولَ اللهِ ﷺ عن الخيرِ وكنتُ أسألُهُ عن الشرِّ مخافةَ أَنْ أقعَ فيه**»[٢]، فهذا أمرٌ عظيمٌ جدًّا، الاهتمامُ بأمرِ العقيدةِ، والخوفُ مِنَ الشركِ، ومن خافَ من شيءٍ فإنهُ يهربُ منه، ولا يمكنُ أن يهربَ منه إلَّا إذا عرفَ مِنْ أين يأتيهِ هذا العدوُّ؟، ومن أينَ يدركُهُ؟، فهذا أمرٌ عظيمٌ.

وقوله: «**ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْهِم رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ**» ذكروا ما بَحثوا فيه، وما خاضوا فيهِ، والاجتهاداتُ التي أبدَوْها حولَ هذا الأمرِ. وهذا فيهِ دليلٌ على مشروعيَّةِ المباحثةِ في أمورِ العِلْمِ، والبحثِ عن معاني كلامِ اللهِ وكلامِ رسولِهِ ﷺ حتى نعملَ به، وننتفعَ به.

---

(١) انظر «منهاج السنة النبوية» (٢/ ٣٩٨) و«مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٩٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٠٦) ومسلم (١٨٤٧).

فَخَرَجَ عَلَيهِم رَسُولُ الله ﷺ فَأَخبَرُوهُ، فَقَالَ: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكتَوونَ، وَلَا يَتَطيَّرُون، وَعَلَى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ».

وقوله: «**قَالَ: هُم الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ**» يعني: لا يطلبونَ من غيرِهم أن يَرقِيَهُم، لماذا؟، لأنَّ طلبَ الرُّقيةِ من النَّاسِ سؤالٌ للمخلوقِ، والسؤالُ للمخلوقِ فيهِ ذِلّةٌ، فهم يستغنونَ عن النَّاسِ، ويعتمدونَ على اللهِ سبحانهُ وتعالى، وهذا مِنْ تمامِ التّوحيدِ: أنَّ الإنسانَ لا يسألُ النَّاسَ، والنبيُّ ﷺ بايعَ بعضَ أصحابِهِ أَنْ لا يسألوا النَّاسَ شيئًا، فكانَ أحدُهُم إذا سقطَ سَوْطُهُ من على راحلتِهِ لا يقولُ لأحدٍ: ناولني السَّوْط، لأنَّهم يريدون الاستغناءَ عنِ النَّاسِ، لكنَّ سؤالَ أهلِ العلمِ عما أُشْكلَ ليسَ من هذا، وهو واجبٌ قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل: ٤٣]، إذا كانَ ذلكَ عن حاجةٍ، أما سؤالُ التعنّتِ والاستكبارِ وتعجيزِ المسؤولِ، فهذا لا يجوزُ، لأنه ليس عن حاجة وإنما هو عن إظهار عَظَمةٍ، وأنَّ السائلَ أعلمُ من المسؤولِ، وهذا لا يجوزُ، وسؤالُ المالِ، يجوزُ للحاجةِ إذا كانَ الإنسانُ مضطرًا، فإنه يجوزُ أن يسألَ النَّاسَ حتى ترتفعَ ضرورتُهُ، أمَّا سؤالُ الإنسانِ وهو غنيٌّ، فهذا حرامٌ: «**مَنْ سَأَلَ النَّاسَ تَكَثُّرًا، فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا، فَلْيُقِلَّ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ**»[1].

وقوله: «**وَلَا يَكْتَوُونَ**» كذلك لا يطلبونَ من غيرِهم أن يكويَهم بالنَّارِ من أجلِ العلاجِ.

والكَيُّ بالنارِ نوعٌ من أنواعِ الطبِّ، وقد قالَ النبيُّ ﷺ: «**الشِّفَاءُ فِي ثَلَاثٍ: شَرْبَةِ عَسَلٍ، أَوْ شَرْطَةِ مِحْجَمٍ، أَوْ كَيَّةٍ بِنَارٍ**»[2]، وفي روايةٍ أخرى: «**وَأَنَا أَكْرَهُ**

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٠١) وابن ماجه (١٨٣٨).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٨٠) وابن ماجه (٣٤٩١).

الكَيِّ»، فالكَيُّ عندَ الحاجةِ علاجٌ مباحٌ، ولكنَّهُ إذا طلبتَهُ من غيرِك، يكونُ مكروهًا لأنهُ من مسألةِ النَّاسِ، وكذلكَ يُكْرَهُ الكيُّ ذاتُهُ، لما فيه من التعذيبِ بالنارِ.

قوله: «**وَلَا يَتَطَيَّرُونَ**» التطيّر هو: التشاؤمُ بالطيورِ وغيرِها، ثم يرجعُ المتطيِّرُ عن ما عَزَمَ عليه، هذا هو التَّطيُّر، أما التفاؤلُ فهو مشروعٌ، وكان النبيُّ يعجِبُهُ الفَأْلُ، لأنَّ الفَأْلَ حسنُ ظَنٍّ باللهِ سبحانه وتعالى، أما الطِّيَرةُ فهي سوءُ الظنِّ باللهِ.

فهؤلاءِ السبعونَ الألف استحقوا هذهِ المنزلةَ، لأنّهم تركوا أمورًا محرمةً وهي الطيرةُ، أو مكروهةً وهي طلبُ الرُّقيةِ والكيِّ من الناسِ، فهم تركوها استغناءً عن النَّاسِ، وتوكلاً على اللهِ سبحانه وتعالى.

أما أَنَّ الإنسانَ يَرْقِي نفسَهُ أو يَرْقِي غيرَهُ، فهذا فعلَهُ النبيُّ ﷺ فرقَى نفسَهُ ورَقَى غيرَهُ ورقاهُ غيرُهُ فلا كراهةَ في ذلكَ.

تبقى قضيةُ التداوي بالمباحِ كالحبوبِ -مثلاً-، أو بالأعشابِ، أو بإجراءِ العمليّاتِ الجراحيّةِ واستئصالِ الأورامِ أو الزوائدِ؛ فهذا مباحٌ، مِنْ غيرِ كراهةٍ لقولِ النبيِّ ﷺ: «**تَدَاوَوْا وَلَا تَدَاوَوْا بِحَرَامٍ**»[1]، وقوله ﷺ: «**مَا أَنْزَلَ اللهُ دَاءً إِلَّا وَأَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ**»[2] ومن العلماءِ مَنْ يرى أنَّ التداوي مستحبٌ، ومن العلماءِ مَنْ يرى أنه واجبٌ، والتداوي سواءً كانَ مباحًا أو مستحبًّا أو واجبًا لا ينافي التوكُّلَ لأنَّ بعضَ الجهَّالِ يقولُ: اتْرُك التداوي توكّلاً على اللهِ، نقولُ: الأخذُ بالأسبابِ لا ينافي التوكلَ، والتَّداوي سببٌ، والأخذُ بالأسبابِ قد أمرَ اللهُ تعالى به.

---

(١) أخرجه أبو داود في «سننه» (٣٨٧٤) والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ٥).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٧٨) وأحمد (١/ ٣٧٧) واللفظ له.

فَقَامَ عُكّاشَةُ بنُ مِحْصَنٍ، فَقَالَ: ادعُ اللهَ أَن يَجْعَلَنِي مِنهُم، قَالَ: «أَنتَ مِنهُم»، ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: ادعُ اللهَ أَن يَجعَلَنِي مِنهُم، قَالَ: «سَبقَكَ بِهَا عُكّاشَةُ»(١).

قوله: «**فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ**» عُكّاشةُ بنُ مُحصَنٍ الأسديُّ، من السابقينَ إلى الإسلامِ، شهِدَ غزوةَ بدرٍ، وغيرها من المشاهدِ مع رسولِ اللهِ ﷺ، وعاشَ بعدَ النبيِّ ﷺ وقاتلَ في حروبِ الرّدةِ حتى قُتِلَ، رضي اللهُ عنه.

«**فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ**» هذا فيه مشروعيّةُ طلبِ الدعاءِ من أهلِ الخيرِ، الأحياءِ، لأنَّ هذا الصحابيَّ طلبَ الدعاءَ من رسولِ اللهِ ﷺ وأقرَّهُ على ذلك، فدلَّ على جوازِ طلبِ الدعاءِ من الصالحينَ الأحياءِ.

«**قالَ: أَنْتَ مِنْهُمْ**» أخبرَ ﷺ أنَّ عُكَّاشةَ من السبعينِ الألف الذينَ يدخلونَ الجنةَ بلا حسابٍ ولا عذابٍ، وقد وقَعَ ما أخبرَ به ﷺ، فإنه قُتِلَ شهيدًا في سبيلِ اللهِ عز وجل، وفي هذا دليلٌ من أدلةِ النبوّةِ، حيثُ أخبرَ ﷺ أنَّ عُكّاشةَ من السبعينِ الألف، وقُتل شهيدًا في سبيلِ اللهِ عز وجل، فصارَ في زُمْرةِ الشهداءِ في سبيلِ اللهِ، مع سَبْقِهِ إلى الإسلامِ، وشهودِهِ بدرًا وغيرَها معَ الرسولِ ﷺ.

«**ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ**» كأنَّ الرسولَ ﷺ علِمَ أنَّ هذا الرجلَ لا يصلُ إلى هذهِ المرتبةِ، ولكنْ ما جابَهَهُ بكلامٍ يكرهُهُ، ولم يقلْ له: أنتَ لا تَسْتَحق، أو أَنْتَ لستَ من أهلِ هذه المنزلةِ، وهذا من حُسنِ أدبِ الرسول ﷺ بل جاءَ بكلمةٍ لم تُؤَثِّرْ على الرجلِ، وهي وافيةٌ بالمقصودِ، فقال: «**سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ**».

قال الشيخُ رحمه الله في مسائِلِه: «**هذا فيه استعمال المعاريض**» يعني:

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢٢٠).

الكلمات التي تُستعملُ بدلَ الكلماتِ المكروهةِ، لأنه لو قالَ لا تستحقُّ هذا، أو أنتَ لا تصِلُ إلى هذهِ المرتبةِ، لحصَل عندَ الرجلِ انكسارُ نفسٍ وخَجَلٍ، فالرسولُ ﷺ كانَ كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾ [القلم: ٤]، وقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فالرَّسولُ ﷺ عَلِمَ أنَّ هذا الرجلَ -بما علّمَهُ اللهُ سبحانه وتعالى- لا يصلُ إلى هذهِ المرتبةِ، ولكنَّهُ جاءَ بكلمةٍ ليّنةٍ لطيفةٍ ليس فيها تجريحٌ، فهذا فيه حُسنُ الأدبِ مع المسلمينَ، وعدمُ مواجهتِهم بما يكرهونَ من الكلماتِ النَّابيةِ، حتَّى ولو كانوا على خطأٍ، فهم يُواجَهونَ بكلماتٍ فيها تطييبٌ لخواطرِهم، وعدمُ تجريحٍ لنفوسهم.

فهذا حديثٌ عظيمٌ دلَّ على مسائلَ:

أولاً: دلَّ على جوازِ الرُّقيةِ من العينِ ومن الحُمة وغيرِهما، لأنه فعلَهُ حُصينُ ابنُ عبدِالرحمن، واستدلَ بحديثِ الرسولِ ﷺ.

ثانيًا: في الحديثِ دليلٌ على فضلِ موسى عليه السلام وأمتِهِ الذينَ آمنوا به.

ثالثًا: فيه دليلٌ على عدمِ الاحتجاجِ بالكثرةِ، وهذه مسألةٌ مهمةٌ.

ورابعًا: فيه حرصُ الصحابةِ على مسائِلَ العلمِ ومعرفتِها، حيثُ خاضوا في طلبِ معنى هذا الحديثِ الذي ألقاهُ عليهم رسولُ اللهِ ﷺ وبحثوا فيه، قال الشيخُ: فيهِ المناظرةُ في العلمِ.

خامسًا: في الحديثِ دليلٌ على كراهيةِ سؤالِ النَّاس: «**لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ**»، ففيه كراهيّةُ سؤالِ الناسِ، وأنَّ سؤالَ الناسِ فيه تنقيصٌ للتوحيدِ، أما الاستغناءُ عنهم فهذا فيه كمالٌ للتوحيدِ، وهو من تحقيق التّوحيد.

سادسًا: الحديثُ دليلٌ على جوازِ العلاجِ بالكَيِّ، مع الكراهةِ بشرطِ أن يكونَ المعالجُ بهِ من أهلِ المعرفةِ، الذين يعرفونَ موضعَ الألمِ وموضعَ الكَيِّ، ومقدارَ الكَيِّ، وفيه دليلٌ على أنَّ الإصابةَ بالعينِ حقٌّ، وأنها تُعالَجُ بالرُّقيةِ، وتعالَجُ بما أرشدَ إليهِ النبيُّ ﷺ من الاستغسالِ -أيضًا.

سابعًا: فيه دليلٌ على عَلَمٍ من أعلامِ نُبوَّتِهِ ﷺ حيثُ أخبرَ أنَّ عُكّاشةَ من السبعينِ الألف، وقَدْ قُتِلَ شهيدًا في سبيلِ اللهِ بعدَ ذلك.

ثامنًا: وفيه دليلٌ على استعمالِ المعاريضِ في الأمورِ التي يُكرَهُ مواجهةُ النَّاسِ بها، وحُسنُ خلقِهِ ﷺ في تعاملِه مع أصحابِهِ، وكذلك يجبُ أن يقتدِيَ بهِ أهلُ العلمِ وأهلُ الدعوةِ في مخاطبتِهِم للنَّاسِ.

تاسعًا: وفيه دليلٌ على طلبِ الدليلِ على المذهبِ، حيثُ إنَّ سعيدَ بنَ جُبيرٍ طلبَ مِنْ حُصينِ بنِ عبدِالرحمن الدليلَ على ما فعلَهُ من طَلَبِ الرقيةِ فلمَّا جاءَ بالدليلِ استَحْسَنَهُ، وقال له: «**قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ**».

عاشرًا: وفيه دليلٌ على ما تَرْجَمَ له المصنفُ، وهو الشاهدُ للبابِ أن من حقّقَ التّوحيدَ دخلَ الجنَّةَ بلا حسابٍ ولا عذابٍ، وأن تفسيرَ ذلكَ بأن يتركَ الشركَ الأكبرَ والأصغرَ، ويتركَ الأمورَ المكروهةَ، احتياطًا لعقيدتِهِ.

* * *

الباب الرابع:

بَاب الخَوْفُ مِنَ الشِّرْكِ

هذا البابُ في غايةِ المناسبةِ للأبوابِ السابقةِ، وهذا مِنْ دقّةِ فقهِهِ وفهمِهِ رحمه الله، وحُسنِ تأليفِهِ، فإنه لما ذكَرَ في البابِ الأوَّلِ: معرفةَ حقيقةِ التّوحيدِ، وذكَرَ في الباب الثاني: فضلَ التّوحيدِ وما يُكفِّرُ من الذنوب، وذكَر في البابِ الثالث: مَنْ حقَّقَ التّوحيدَ دخلَ الجنةَ بلا حسابٍ ولا عذابٍ. لما ذكَرَ هذهِ الأبوابَ ناسبَ أن يذكرَ ضدَّ التّوحيدِ وهو الشِّرْكُ، لأنه لا يكفي أنّ الإنسانَ يعرفُ التّوحيدَ ويعملُ به، بل لا بد أن يعرفَ ضدَّه وهو الشركُ، خشيةَ أن يقعَ فيه، ويُفسدَ عليه توحيدَه، لأنَّ من لا يعرفُ الشيَّ يوشكُ أن يقعَ فيه، كما قالَ أميرُ المؤمنينَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**يوشك أن تُنْقَض عُرى الإسلام عُروة عُروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية**»[1] لأنه لا يَدْري عن أمورِ الجاهليةِ أو يحسبها شيئًا طيّبًا وهي من أمورِ الجاهليةِ، فبجهلِهِ بحقيقتها التَبَسَتْ، فصارَ يفعلها وهي من الجاهليةِ، فكذلك وأخطر من ذلك من لا يعرفُ الشِّرْكَ ومداخلَه، وأنواعَه، وأخطارَه، فإنه حَرِيٌّ أن يقعَ في الشركِ من حيثُ لا يَدْري، لأنَّ الجهلَ داءٌ قاتلٌ، والشاعرُ يقولُ:

والضِّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ الضِّدُّ ... وبضدِّها تتبينُ الأَشْياءُ

فلا يعرفُ قيمةَ الصحةِ إلّا من ذاقَ المرضَ، ولا يعرفُ قيمةَ النورِ إلّا من وقَعَ في الظلامِ، ولا يعرفُ قيمةَ الماء إلّا مَنْ عطِشَ، وهكذا، ولا يَعْرفُ قيمةَ الطَّعامِ إلّا مَنْ مسَّهُ الجوعُ، ولا يعرفُ قيمةَ الأمنِ إلّا مَنْ أصابَهُ الخوفُ، إذًا لا يعرفُ

(١) انظر «منهاج السنة النبوية» (٢/ ٣٩٨) و«مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٩٥).

قيمةَ التّوحيدِ، وفضلَ التّوحيدِ، وتحقيقَ التّوحيدِ إلّا مَنْ عرفَ الشِّركَ وأمورَ الجاهليةِ حتى يتجنَّبَها، ويحافظَ على التّوحيدِ، ومِن هنا يظهرُ خطأُ هؤلاءِ الذينَ يقولونَ: لا داعي أَنْ نتعلمَ العقائدَ الباطلةَ ونعرفَ المذاهبَ الباطلةَ، ونردَّ على المعتزلةِ والجهميةِ، لأَنَّهم بادوا وذهبوا، علِّموا النَّاسَ التّوحيدَ ويكفي، أو بعضُهُم يقولُ لا تُعلِّموهم التّوحيدَ لأَنَّهم أولادُ فطرةٍ، ونشأوا في بلادِ المسلمينَ، عَلِّموهم أمورَ الدُّنيا: الصناعاتِ والاختراعاتِ والأمورَ الحديثةَ، أما التّوحيدُ فيُحصِّلونَه بفطرتِهم وبيئَتِهم، نعم وُجِدَ مَنْ يقولُ هذا، وبعضُ النَّاسِ يقول: النّاسُ تجاوزوا مرحلةَ الخُرافاتِ، لأنهم تثَقَّفوا وعَرَفوا، فلا يمكنُ أنهم يشركون بعدَ ذلك، لأنَّ الشركَ كانَ في الجاهليةِ، يومَ كانَ النَّاسُ سذجاً ويسمونَ الشركَ في العبادةِ شركًا ساذجًا، والشِّركُ عندهم ما يسمونَهُ بالشِّرْكِ السياسيِّ أَوْ شركِ السلاطينِ أو شركِ الحاكميةِ.

ولذلك لا يهتمونَ بإنكارِ هذا الشِّرْكِ الذي بُعِثَت الرُّسُلُ لإنكارِهِ، وإنما يَنْصَبُّ إنكارهُم على الشركِ في الحاكميةِ فَقَطْ.

وكلُّ هذهِ من حيَلِ الشَّيْطانِ لبني آدمَ، والواجبُ أننا، كما نعرفُ الحقَّ، يجبُ أن نعرفَ الباطلَ، من أجلِ أن نعملَ بالحقِّ، ونتجنّبَ الباطل، ولهذهِ المناسبةِ العظيمةِ ذكرَ الشيخُ «**باب الخوف من الشرك**» بعدما ذكرَ أبوابَ التّوحيدِ وفضلَه، وما يُكفِّرُ من الذنوبِ، وتحقيقَ التّوحيدِ وهذه نعمةٌ عظيمةٌ لكن إذا حازَها الإنسانُ، فإنه يَخْشى مِنْ ضدِّها، فلا بُدَّ أن يعرفَ ضدَّها حتى يتجنَّبهُ، فلنتنبَّهْ لهذا الأمرِ، فإنَّ هناكَ أناسًا الآنَ كثيرين يُزهِّدونَ في تعلُّمِ هذهِ الأمورِ: تعلُّمِ التّوحيدِ، تعلُّمِ الشركِ، معرفةِ الشُّبَهِ والضلالِ، يُزهِّدونَ في تعلُّمِ هذهِ الأمورِ، وهذا إما مِنْ جَهْلِهِم، وعدمِ مَعْرفتِهم، وإما لأَنَّهم يريدونَ الدّسَّ على المسلمينَ، وإفسادَ

وَقَولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾[سورة النساء: ٤٨، ١١٦].

عقيدةِ المسلمينَ، فَلْنحذَرْ من هذا الأمرِ، سمعنا مَنْ يقولُ إنَّ الذي يدرسُ عقائدَ المعتزلةِ والردَّ عليهم مثلَ الذي يَرْجمُ القبرَ، لأنَّهم ماتوا، يقولونَ كذا، نقولُ: يا سُبْحانَ الله هم ماتوا بأشخاصِهم، لكنَّ مذاهبَهُم باقيةٌ، وشبهاتِهم باقيةٌ، وكتبُهم تُطبَعُ الآنَ وتُحقَّقُ، وينفقُ عليها الأموالُ، وتُروّجُ، فكيفَ نقولُ نتركُهم لأنَّهم ماتوا، والله تعالى ذكَرَ شبهاتِ المشركينَ من الأممِ السابقةِ: فِرعونَ وهامانَ وقارونَ وقومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ، مع أنها أممٌ بائدةٌ، ذكر شُبهَها وردَّ عليها، فالعبرةُ ليسَتْ بالأشخاصِ، العبرةُ بالمذاهبِ، والعبرةُ بالشُّبَهِ الباقيةِ ولكلِّ قومٍ وارثٌ.

ولهذا قالَ الشيخُ: «**باب الخوف من الشرك**» أي: أنَّ الموحّدَ يجبُ أن يخافَ مِنَ الشركِ، ولا يقولُ أنا موحّدٌ وأنا عرفتُ التّوحيدَ، ولا خطرَ عَلَيَّ من الشركِ، هذا إغراءٌ من الشيطانِ، لا أَحَد يُزكّي نفسَه، ولا أَحَد لا يخافُ من الفتنةِ ما دامَ على قيدِ الحياةِ، فالإنسانُ معرّضٌ للفتنةِ، ضلَّ علماءُ أحبار، وزلّتْ أقدامُهم، وخُتِمَ لهم بالسّوءِ، وهم علماءُ، فالخطرُ شديدٌ، ولا يأمنُ الإنسانُ على نفسِهِ أن تَنْزَلِقَ قدمُهُ في الضلالِ، وأَنْ يقعَ في الشِّركِ، إلّا إذا تعلّمَ هذهِ الأمورَ من أجلِ أَنْ يَجْتَنِبَها، واستعانَ بالله، وطلبَ منهُ العصمةَ والهدايةَ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا﴾ [آل عمران: ٨]، خافوا مِنَ الزّيغِ بعدَ الهدايةِ، والمهتدي يكونُ أشدَّ خوفًا أن يزيغَ، وأَنْ تزلَّ قدمُهُ، وأَنْ تسوءَ خاتمتُهُ، وأَنْ يكونَ من أهلِ النارِ، نسألُ الله العافيةَ.

قال: «**وقول الله عز وجل**: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾» [النساء: ٤٨] هذا خبرٌ من الله عن نفسِهِ سبحانه وتعالى مؤكّد بـ«إنّ».

وَقَالَ الخَلِيلُ عَلَيهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [سورة إبراهيم: ٣٥].

أنه: «﴿إِنَّ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾» فهذا فيهِ خطورةُ الشركِ، فالله لا يَغْفرُ للمشركِ مع أنَّ رحمتَهُ وسعَتْ كُلَّ شيءٍ، ولكنَّ المشركَ لا يدخلُ فيها، لعِظَمِ جريمتِهِ -والعياذُ بالله، فمَنْ ماتَ على الشِّرْكِ فإنه لا يُغْفرُ له، وهذا يدلُّ على خطورةِ الشركِ، فإذا كانَ الشركُ بهذهِ الخطورةِ، فإنهُ يجبُ الحذرُ منهُ غايةَ الحذرِ، كلُّ الذنوبِ مَظنّةُ المغفرةِ ورجاءُ المغفرةِ إلّا الشركَ. والشركُ لا يمكنُ تجنبُهُ إلّا إذا عُرِفَ وعُرِفَ خطرُهُ.

وفي الآيةِ الأُخرى أخبرَ سُبْحانه أنه حرَّمَ الجنةَ على المشركِ، قالَ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢]، والحرامُ: الممنوعُ، فلا يمكنُ أنّ يذوقَ المشركُ طعمَ الجنةِ، أو يشمُّ رائحةَ الجنةِ.

وفي الآيةِ الثالثةِ: يقولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ﴾ [التوبة: ٢٨]، مَنَعهم الله من دخولِ المسجدِ الحرامِ لأنَّهم نجسٌ، ونجاسةُ الشركِ نجاسةٌ معنويّةٌ، والمسجدُ الحرامُ لا يدخلُهُ إلّا أهلُ التّوحيدِ ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنفال: ٣٤]، كذلك المشركُ حلالُ الدمِ والمالِ، قالَ ﷺ: **«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَإِذَا قَالُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ عزَّ وجلّ»**[1].

قوله: «**وقال الخليلُ عليه السلام**: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٤٦) ومسلم (٢٨).

[إبراهيم: ٣٥]» الخليلُ هو إبراهيمُ عليه السلام، سُمِّي بالخليلِ لأنَّ الله سُبْحانه اتّخَذَهُ خليلاً، كما قالَ تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٥]، من الخُلَّةِ، وهي أعلى درجاتِ المحبةِ، أي: أنَّ الله يحبُّهُ أعلى المحبةِ، وهذه مرتبةٌ لم ينلْها إلَّا إبراهيمُ ومحمدٌ عليهما الصلاةُ والسَّلامُ.

قوله: «﴿وَاجْنُبْنِي﴾» أي أَبْعدْني واجْعلني في جانبٍ بعيدٍ «﴿أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾» خافَ مِنْ عبادتِها.

مع هذهِ المنزلةِ العظيمةِ التي نالَها إبراهيمُ عليه السلام مِنْ ربِّه، ومعَ أنه قاومَ الشركَ وكسَرَ الأصنامَ بيدِهِ، وتعرَّض لأشدِّ الأذى في سبيلِ ذلكَ حتى أُلقيَ في النارِ، مع ذلكَ خافَ على نفسِهِ من الوقوعِ في الشِّركِ، لأنَّ القلوبَ بينَ أصبعينِ من أصابعِ الرحمنِ، والحيُّ لا تؤمنُ عليهِ الفتنةُ، ولهذا قالَ بعضُ السلفِ[1]: (ومن يأمنُ البلاءَ بعدَ إبراهيمَ؟)، فإبراهيمُ خافَ على نفسِه من الوقوعَ في الشركِ لمَّا رأى كثرةَ وقوعِهِ في الناس، وقالَ عن الأصنامِ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

وفي هذا أبلغُ الردِّ على هؤلاءِ الذين يقولونَ: لا خَوْفَ على المسلمينَ من الوقوعِ في الشركِ بعدما تعلَّموا وتثقَّفوا، لأنَّ الشركَ بعبادةِ الأصنامِ شركٌ ساذجٌ يترفَّعُ عنه المثقفُ والفاهمُ، وإنما الخوفُ على النَّاسِ من الشركِ في الحاكميةِ، ويركِّزونَ على هذا النوعِ خاصةً، وأما الشركُ في الألوهيةِ والعبادةِ فلا يهتمونَ بإنكارِهِ، وعلى هذا يكونُ الخليلُ عليه السلام وغيرُهُ من الرسلِ إنما ينكرونَ شركًا ساذجًا!!، ويتركونَ الشركَ الخطيرَ وهو شركُ الحاكميةِ كما يقولُ هؤلاءِ.

---

(١) نسبه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٢٨) إلى إبراهيم التيمي.

وَفِي الحَدِيثِ قَالَ: «أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ»، فَسُئِلَ عَنهُ، فَقَالَ: «الرِّيَاءُ»[١].

قال: «**وفي الحديث**» أي: الحديثُ الذي رواهُ أحمدُ[٢] والطبرانيُّ والبيهقيُّ: أَنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ لأصحابِهِ: «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ**»، الرسولُ ﷺ يقولُ لأبي بكرٍ وعمرَ ولساداتِ المهاجرينَ والأنصارِ، الذين بلغوا القمّةَ في التّوحيدِ والإيمانِ والجهادِ في سبيلِ الله، ومَع هذا، الرسولُ يخافُ عليهم، فمَنْ يأمنُ بعدَ هؤلاءِ؟: «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ**»، فسُئِلَ عنه فقالَ: «**الرِّيَاءُ**» هذا دليلٌ على اهتمامِ الصحابةِ في الأمرِ، والرياءُ معناه: أن الإنسانَ يتصنَّعُ أمامَ النَّاسِ بالتقوى، والعملِ الصالحِ، وإتقانِ الصلاةِ، وغيرِ ذلك، من أجلِ أَنْ يمدحوهُ، فالرياءُ من الرؤيةِ، أن يحبَّ الإنسانُ أنْ يراهُ الناسُ وهو يعملُ العملَ الصالحَ من أجلِ أن يمدحوهُ، والسُّمعة أن يحبَّ الإنسانُ أنَّ الناسَ يسمعونَ كلامَهُ ويسمعونَ عملَهُ ويمدحونَه، فالرياءُ لما يُرى من الأعمالِ، والسُّمعةُ لما يُسمعُ منها.

والرياءُ شركٌ خفيٌّ، لأنَّ الشركَ على نوعينِ: شركٌ ظاهرٌ وشركٌ خفيٌّ، الشِّرْكُ الظاهرُ: الذي يتمثلُ في الأعمالِ والأقوالِ، بأن يدعوَ غيرَ الله، أو يذبحَ لغيرِ الله، أو يستغيثَ بغيرِ الله، هذا ظاهرٌ يراهُ النَّاسُ ويسمعونَهُ، لكِنْ هناكَ شركٌ خفيٌّ لا يدري عنهُ الناسُ، لأنه في القلبِ، لا يعلمُهُ إلَّا الله سبحانه وتعالى، وهو الشركُ في النيّةِ والإرادةِ، فالإنسانُ إذا سَلِم من الشركِ الأكبرِ فإنه قد لا يسلمُ من الشركِ الأصغرِ الذي يكونُ في القلوبِ، وهذا مما يُعطي المؤمنَ الحذرَ الشديدَ.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٨)، والبغوي في «شرح السنة» (٤١٣٥).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٨) والطبراني في «المعجم الكبير» برقم (٤٣٠١) والبيهقي في «شعب الإيمان» برقم (٦٨٣١).

والرياءُ من صفاتِ المنافقين، يقولُ الله تعالى في المنافقينَ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٤٢﴾ [النساء: ١٤٢]، والله تعالى توعّد المرائين، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦﴾ [الماعون: ٤-٦]، فوعدَهُمُ الله بالويلِ، وجاءَ في الحديثِ أنَّ الله يقولُ للمرائينَ يومَ القيامةِ: «**اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَهُم فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً**»(١).

فهذا الحديثُ فيه الخوفُ من الشركِ، لأنَّ النبيَّ ﷺ خافَهُ على ساداتِ المهاجرينَ والأنصارِ، وعلى أفضلِ هذه الأمة، فكيفَ بمَنْ دونَهم، وإذا كانَ هذا في الشركِ الأَصْغرِ الذي لا يُخرجُ من الملّةِ فكيفَ بالشركِ الأكبرِ -والعياذُ بالله-.

وفيه دليلٌ على وجوبِ إخلاصِ النيّةِ لله عزَّ وجلَّ وأنَّ الإنسانَ لا يقصدُ مدحَ النَّاسِ أو ثناءَ النّاس أو مطامعَ دُنيا بأعماله الصالحةِ، وإنما يُخلصُ النيّةَ لله عز وجل، يريدُ وجهَ الله، فإن عَمِلَ من أجلِ الرياءِ فعملُهُ باطلٌ.

فهذا الحديثُ يدلُّ على:

أولاً: الخوف مِنَ الشِّرْكِ.

ثانيًا: أن الرياءَ شركٌ، ومعناه -كما ذكرنا-: أن يحبَّ الإنسانُ أَنْ يراهُ الناسُ على الطاعةِ فيُثنوا عليهِ بها.

وثالثًا: أن الرياءَ شركٌ خفيٌّ، لا يعلمُهُ النَّاسُ، وإنما الله جَلَّ وعَلا هو الذي يعلمُهُ، لأنهُ في القلوبِ.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٨)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٠٢) ورجاله رجال الصحيح.

وَعَن ابنِ مَسعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ مَاتَ وَهْوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ» رواهُ البُخارِيُّ[1].

وَلِمُسلِمٍ[2] عَن جَابِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَن لَقِيَ اللهَ لَا يُشرِكُ بِهِ شَيئَاً دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيئاً دَخَلَ النَّارَ».

قال: «وعن ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنه أنَّ النَّبيّ ﷺ قال: مَنْ مَاتَ وَهُوَ يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ» هذا خبرٌ من الرسولِ ﷺ أنَّ مَنْ ماتَ على الشركِ فهو من أهلِ النارِ، ولا يُغفرُ له. ولاحظوا كلمةَ «شيئًا» تعمُّ الشركَ كلَّه، ما أشركَ معَ الله من نبيٍّ أَو وليٍّ أو ملكٍ، لأنَّ الشركَ لا يقبلُهُ الله أبدًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨].

ومَنْ يدري متى يموتُ؟، ومن يدري ماذا يموتُ عليه؟، فالإنسانُ يخافُ على نفسِهِ من سوءِ الخاتمةِ، وأن يموتَ وهو يشركُ بالله، فيكون من أهلِ النارِ، فالإنسانُ يجبُ عليه أن يحذرَ من الشركِ طولَ حياتِهِ لأنه لا يَدْري في أيِّ لحظةٍ يموتُ، فيكونَ من أهلِ النَّارِ.

فهذا فيه الخوفُ من الشركِ، وأنَّ الإنسانَ قد يُختمُ له بالشركِ فيكَون من أهلِ النَّارِ، ولو كانَ من أهلِ التوحيدِ قَبْلَ ذلك، وعارفاً به، ومستقيماً، لكنْ يخافُ على نفسِهِ من أنه ينتكسُ بعدَ ذلك، ويشركُ بالله، ويموتُ على ذلكَ فيكون من أهلِ النارِ، فنسأَلُ الله الثباتَ، فيكون عندَه حذرٌ دائمًا وأبدًا من الشركِ.

قال: ولمسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّةَ» هذا فيه فضلُ التّوحيدِ، وأنَّ مَنْ ماتَ عليهِ دخلَ الجنةَ، وهذا وعدٌ من

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٩٧).

(٢) برقم (٩٣).

الله سبحانه وتعالى، والله لا يُخْلفُ وعدَه، حتى ولو كانَ عندَه ذنوبٌ ومعاصٍ دونَ الشركِ، فقد يغفرُها الله له ويدخلُهُ الجنةَ من غيرِ عذابٍ، وقد يعذبُهُ الله بها ثم يدخلُهُ الجنةَ، فمآلُ الموحّدِ إلى الجنةِ، إما ابتداءً وإما في النهايةِ.

فقوله: «**مَنْ لَقِيَ اللهَ**» يعني: مات.

«**وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ**» هذا مثلُ حديثِ ابنِ مَسْعود، مَنْ مات على الشِّركِ، فإنه من أهلِ النَّار، -نسألُ اللهَ العافيةَ-.

فهذا فيهِ الحذرُ مِنْ سوءِ الخاتمةِ.

وفيهِ -كما ذكرَ الشيخُ رحمه الله قربَ الجنةِ والنارِ من الإنسانِ، فما بينه وبينَ الجنَّةِ والنارِ إلَّا أَنْ يموتَ، ولا يدري، ربَّما يموتُ في الحالِ، ربما يموتُ بعدَ دقائقَ، أو بعدَ شهرٍ، أو بعدَ سنةٍ، ما بينَهُ وبينَ النَّارِ والجنَّةِ إلَّا الموتُ، فإذا ماتَ دخلَ النَّارَ أو دخلَ الجنَّةَ، ففيه قُربُ الجنةِ والنَّارِ من الإنسانِ، والنبيُّ ﷺ يقولُ: «**الجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ**»[1]، والشاعرُ يقولُ[2]:

كـلُّ امرئٍ مُصَبَّـح فـي أهلِهِ   والموتُ أدنى مِنْ شـراكِ نَعْلِهِ

تصبحُ في الدُّنيا وتمسي في الجنةِ، أو بالعكسِ.

فهذا الحديثُ فيهِ الخوفُ من الشركِ، وأنَّ الإنسانَ يَخْشى أَنْ يلقى الله وهو على الشركِ فيكون من أهلِ النارِ، والعياذُ بالله.

وفي نصوصِ البابِ أنَّ الإنسانَ لا يغترُّ بنفسِهِ مهما بلغَ مِنَ العلمِ والإيمانِ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٨٨).

(٢) وكان أبو بكر رضي الله عنه يحتج بهذا البيت كلما وعك، وانظره في «صحيح البخاري» (٥٦٥٤) ومسلم (١٣٧٦).

والمعرفةِ، بل يعترفُ بعجزِهِ وفَقْرِهِ إلى الله سبحانه وتعالى، وأنهُ إنْ لم يَعْصِمْهُ الله فإنه على خطرٍ.

كما أنَّ في البابِ -أيضًا- بيانَ معنى لا إله إلَّا الله -كما يقولُ الشيخُ في مسائلِهِ-: «**في الباب معنى لا إله إلَّا الله، وذلكَ في الحديثِ الأخيرِ**: «**مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّةَ وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ**»، هذا هو معنى لا إله إلا الله، لأنَّ في هذا الحديثِ التّوحيدَ والشركَ، ولا إله إلَّا الله أثبتَتِ التّوحيدَ ونفتِ الشركَ، فـ«**لا إلهَ**» إثباتُ التوحيدِ، و«**إلَّا الله**» نفيُ الشِّرْكِ.

نسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ أن يوفقَنا وإياكُمْ للعلمِ النافعِ والعملِ الصالحِ، وأن يرزقَنا وإياكم الثباتَ على دينِهِ، وأن يُرِيَنا الحقَّ حقًّا ويرزقَنا اتباعَهُ، وأن يُرِيَنا الباطلَ باطلاً ويرزقَنا اجتنابَه، وأَنْ لا يجعلَهُ ملتبسًا علينا فنضلَّ، ونعوذُ بالله من الغرورِ، ونعوذُ بالله من الإعجابِ، ونعوذُ بالله من تزكيةِ النفسِ المنهيِّ عنها بقولِهِ تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم: ٣٢].

* * *

الباب الخامس:

بَاب الدُّعَاءُ إِلَى شَهَادَةِ أَن لا إِلَـهَ إلاَّ اللهُ

قالَ المؤلفُ رحمه الله: «**باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلَّا الله**».

مناسبةُ هذا البابِ لما قبلَهُ من الأبوابِ ظاهرةٌ جدًّا، فإنه في الأبوابِ السابقةِ ذكرَ في البابِ الأولِ: معرفةَ التّوحيدِ، وفي البابِ الثاني: ذكرَ فضلَ التّوحيدِ، وفي البابِ الثالثِ: ذكرَ فَضْلَ مَنْ حقَّق التّوحيدَ، وفي البابِ الرابعِ: ذكرَ ما يُضاد التّوحيدَ، وهو الشركُ. فإذا كانَ طالبُ العلمِ أَلَمَّ بهذهِ الأبوابِ، وعرَفَها معرفةً جيدةً، عرفَ التّوحيدَ وفضلَه وتحقيقَه، وعرفَ ما يضادُّه من الشركِ الأكبرِ أو ينقّصُهُ من الشِّرك الأَصْغرِ والبدعِ وسائرِ المعاصي، فإنه حينئذٍ تأَهَّلَ للدعوةِ إلى الله عز وجل، لأنهُ لا يجوزُ للإنسانِ إذا علِمَ شيئًا من هذا العلمِ أن يختزنَهُ في صَدْرِهِ، ويُغلقَ عليه، ويختصَّهُ لنفسِهِ، هذا العلمُ مشتَركٌ بينَ الأمةِ، فمن عرَفَ شيئًا منه فإنه يجبُ عليه أن ينشُرَه، وأن يدعوَ الناسَ إليه، فإنَّ هذهِ الأمةَ أمةُ دعوةٍ، كما قالَ تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقالَ تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤]، فلا يجوزُ للمسلمِ الذي عرفَ شيئًا من العلمِ أن يسكتَ عليه وهو يرى النَّاسَ في حاجةٍ إليه، خصوصًا علمَ التّوحيدِ وعلمَ العقيدةِ، لأنه إذا فعلَ ذلك فقد تركَ واجبًا عظيمًا، ولا يقولُ الإنسانُ أنا ما عليَّ إلَّا مِنْ نفسي -كما يقولُه بعضُ الجهلةِ أَو الكسالى-، أنا ما عليَّ من الناسِ!! بل عليكَ نفسَك أولاً، ثمَّ عليكَ أن تدعوَ الناسَ إلى دينِ الله عز وجل، فإن اقتَصَرْتَ على نفسِك تركتَ واجبًا عظيمًا تُحاسَبُ عنه يومَ القيامةِ، وتعرّضُ نفسَك لغضبِ الله عز وجل حيثُ

وَقَولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ الآية [سورة يوسف: ١٠٨].

تركتَ ما أوجبَهُ عليك من الدعوةِ إلى الله عز وجل، هذا وجهُ المناسبةِ، وهي ظاهرةٌ.

فقوله: «**باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله**» أي: الدعوةُ، وأَنّ المُسْلمَ الذي منَّ اللهُ عليهِ بمعرفةِ التّوحيدِ، ومعرفةِ الشّركِ لا يسعُهُ أَنْ يسكُتَ وهو يرى الناسَ يجهلون التّوحيدَ، ويقعونَ في الشِّركِ الأكبرِ والأصغرِ، ويَسْكت على ذلك، كما هو واقعٌ كثيرًا من طلبةِ العلمِ والعلماءِ، الذين يرَوْنَ الناسَ على العقائدِ الفاسدةِ والعقائدِ الباطلةِ وعبادةِ الأضرحةِ، ويسكتونَ على ذلكَ، ويقولونَ: نحنُ لا نهتمُّ إلَّا بأنفسِنا. بهذا ضيَّعوا واجبًا عظيمًا، ولو أنَّ العلماءَ وطلبةَ العلم قاموا بما أَوْجَبَ الله عليهم من هذا الأمرِ في جميعِ الأمصارِ لرأَيْتَ للمسلمينَ حالةً غيرَ هذهِ الحالةِ، فالآنَ بلادُ الإسلامِ تعجُّ بالشركِ الأكبرِ، تُبْنَى فيها المشاهدُ، والمزاراتُ الشركيةُ، ويُنفقُ عليها الأموالُ، ودولُ الكفرِ تساعدُ على ذلك، والمسلمونَ ساكتونَ على هذا الوضعِ، وهذا خطرٌ عظيمٌ أصابَ الأمةَ، وما أصيبتْ به من حروبٍ ومجاعاتٍ وأمورٍ تعرفونها إنما هو نتيجةٌ لهذا الإهمالِ -والعياذُ باللهِ-، فهذا واجبٌ عظيمٌ.

***

قال رحمه الله تعالى: «**وقول الله تعالى**: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾» [يوسف: ١٠٨] هذه الآيةُ في آخرِ سورة يوسف، يأمرُ الله سبحانه وتعالى نبيَّه محمدًا ﷺ أن يُعلنَ للناسِ عن بيانِ منهجِهِ ومنهجِ أتباعِهِ، وهو الدعوةُ إلى الله على بصيرةٍ، فدلَّ على

أَنَّ من لم يَدْعُ على بصيرةٍ فإنه لم يُحقِّقِ اتباعَ النبيِّ ﷺ وإنْ كانَ عالمًا وفقيهًا.

قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: قل يا محمدُ للنَّاسِ.

﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ السبيلُ معناها: الطريقُ التي أسيرُ عليها.

﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ إلى توحيدِ الله عز وجل وإفرادِهِ بالعبادةِ، وتركِ عبادةِ ما سواهُ، وكذلكَ الدعوةُ إلى بقيّةِ شرائعِ الدِّينِ، فتكونُ الدعوةُ للكفارِ للدخولِ في الإسلام، وتكونُ الدعوةُ للعصاةِ من المسلمينَ للتوبةِ إلى الله عز وجل وأداءِ الواجباتِ والتحذيرِ من الوقوعِ في الشِّركِ، واجتنابِ المحرماتِ، فالدعوةُ ليسَتْ مقصورةً على دعوةِ الكفارِ، بل حتى المسلمون الذين هُمْ بحاجةٍ إلى الدعوةِ لوقوعِهم في المعاصي والمخالفاتِ يحتاجونَ إلى دعوةٍ، دعوةٍ إلى التوبةِ، وأداءِ الواجباتِ، وتركِ المحرّماتِ، والمخافةِ من الله عز وجل، فالدعوةُ عامةٌ. والدعوةُ إلى معرفةِ التوحيدِ ومعرفةِ ضدِّه.

﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ قالَ الشيخُ رحمه الله: «**فيه التنبيه على الإخلاص، فإن بعض الناس إنما يدعو إلى نفسه**» فقد يكونُ الإنسانُ يدعو، ويحاضِرُ ويخطبُ، لكنَّ قصدَه من ذلكَ أنه يتبيّنُ شأنُهُ عندَ الناسِ، وتصيرُ له مكانةٌ، ويُمدحُ من النَّاسِ، ويتجَمْهرونَ عليه، ويَكْثُرونَ حولَه، فإذا كانَ هذا قصدَهُ، فهو لم يدعُ إلى الله، وإنما يدعو إلى نفسِهِ والإنسانُ الذي يتركُ الدعوةَ فإنه تركَ واجبًا عظيمًا، والإنسانُ الذي لم يُخلصْ في الدعوةِ يقعُ في محظورٍ عظيمٍ، بل لا بدَّ من الدعوةِ وأن تكونَ خالصةً لوجهِ الله عز وجل، ويكونَ القصدُ منها إقامةَ شرعِ الله، والقصدُ منها هدايةَ النَّاسِ ونفعَ الناس، مَدحوكَ أو ذمُّوكَ، فبعضُ النَّاسِ، إذا لَم يُمْدَحْ ويُشجَّعْ تَـرَكَ الدعـوةَ، وهـذا دليلٌ على أنه لا يدعو إلى الله، وإنما يدعو إلى نفسِهِ، فليتنبَّهِ المسلمُ ويكـون رائـدُهُ وقَصْدُه من دعوتِهِ هو الإخلاصُ لوجهِ الله

عز وجل، ونفعُ النَّاسِ، وتخليصُهم من الشركِ، ومن البدعِ، ومن المخالفاتِ، وأن يؤديَ الواجبَ الذي عليه، والكثرةُ حولَ الشخصِ لا تدلُّ على فضلِهِ، بعضُ الأنبياءِ لم يتبعْهُ إلَّا القليلُ: «**النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ والرجلانِ، وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ**»[1] هل هذا يدلُّ على عدمِ فضلِ هذا النبيِّ؟، لا، حاشا وكلَّا، فالإنسانُ لا ينظرُ إلى كثرةِ الحاضرينَ، «**لَأنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ**»[2].

اجتمعَ الناسُ على بابِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه وهو يريدُ الخروجَ إلى الصلاةِ فلما خرجَ ومَشَوْا خلفَهُ، التفتَ إليهم وقالَ: «**ارجعُوا، فإِنَّهُ فِتْنَةٌ لِلْمَتْبُوعِ مَذَلَّةٌ لِلتَّابِعِ**»[3].

﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ البصيرةُ معناها: العلمُ، بل هي أَعْلى درجاتِ العلمِ.

وفي هذا دليلٌ على أَنَّهُ يُشترَطُ في الداعيةِ أن يكونَ على بصيرةٍ، أي: على علمٍ بما يدعو إليهِ، أما الجاهلُ فلا يصلحُ للدعوةِ، بل لا بدَّ أن يتزوّدَ بالعلمِ قبلَ أن يَشْرَعِ في الدعوةِ، لأنه في دعوتِهِ يتعرضُ إلى شبهاتٍ ومناظراتٍ، فمن أينَ يجيبُ إذا وقفَ في وجهِ معاندٍ أو معارضٍ أو مشبِّهٍ؟، كيفَ يستطيعُ الخلاصَ؟. إنه يفشلُ، ويصيرُ نَكْسَةً على الدعوةِ، أو يجيبُ بجهلٍ ويكونُ الأمرُ أخطرَ، إما أن يَسْكتَ عن الجوابِ وينتصرَ عليه الخصمُ، وإما أَنْ يجيبَ بجهلٍ فيكونُ الأمرُ أخطرَ. هذا من ناحيةٍ. **والنَّاحية الثّانية**: أنَّ الداعيةَ يحتاجُ إلى معرفةِ الحلالِ

(١) أخرجه البخاري (٣٤١٠) ومسلم (٢٢٠).

(٢) أخرجه البخاري (٤٢١٠) ومسلم (٢٤٠٦).

(٣) انظر «سنن الدارمي» (١/ ١٤٣) و«مصنف ابن أبي شيبة» (٥/ ٣٠٢).

والحرامِ، فقَدْ يقولُ بجهلِهِ: هذا الشيءُ حرامٌ وهو حلالٌ، وقد يقولُ بجهلِهِ: هذا الشيءُ حلالٌ وهو حرامٌ، فالداعيةُ يجبُ أن يكونَ على علمٍ بما يدعو إليه، بحيثُ أنه يعرفُ الحلالَ والحرامَ، ويعرفُ الواجبَ والمستحبَ والمحرّمَ والمكروهَ والمباحَ، ويعرفُ كيفَ يجيبُ على الاعتراضاتِ والشبهِ والمجادلاتِ، كما قالَ تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، كيفَ يستطيعُ أن يجادلَ بالتي هي أحسنُ وهو ليسَ عندَه علمٌ؟!، فيُشترَطُ في الداعيةِ: أن يتأهلَ بالعلمِ، فإنَّ بعضَ الدُّعاةِ اليومَ ليس عندَهُم علمٌ، وإنّما يجيدُ الكلامَ والشَّقْشَقَةَ والخَطابَةَ، لكنْ ليسَ عندَه علمٌ، بحيثُ لو عُرِضَتْ له أدنى شُبهةٍ، أو سُئِلَ عن أدنى مسألةٍ في الحرامِ والحلالِ تخبّط فيها.

﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ أي: وأَتْباعي يدعونَ إلى الله على بصيرةٍ، فدلَّ على أنَّ مَنْ لم يدعُ إلى الله لم يُحقّق اتباعَ الرسولِ ﷺ وأنَّ مَنْ دعا إلى الله على جهلٍ لم يُحَقّق اتباعَ الرسولِ ﷺ، بل إنَّهُ أدخلَ نفسَهُ فيما ليسَ مِنْ شأنِهِ، وصارَ خطرًا على الدعوةِ، وعلى الدُّعاةِ.

ثمَّ قالَ: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ سُبْحان: اسمُ مصدرٍ من سبّحَ بمعنى: نَزَّه الله عما لا يليقُ به من الشركِ والقولِ عليه سبحانه وتعالى بلا علمٍ، فإنَّ الله يُنَزَّهُ عن الشركِ ويُنَزَّهُ عن القولِ عليه بلا علمٍ، فهذا فيهِ وجوبُ تنزيهِ الله سبحانه وتعالى عن النقائصِ، وأعظمُها الشركُ.

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ هذهِ براءةٌ من الرسولِ ﷺ من المشركينَ، كما تبرّأَ منهم خليلُ الله إبراهيمُ -عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ-: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل: ١٢٠]، ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ

إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [النحل: ١٢٣]، ففيهِ البراءةُ من المشركينَ، يعني: قَطْعُ المحبةِ والمودّةِ والمناصرةِ بينك وبينَ المشركينَ، لأنَّهم أعداءُ الله وأعداءُ رسولِهِ، فلا يجوزُ لك أن تَوَدَّهم بقلبِك أو تناصرَهم أو تدافعَ عنهم: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [الممتحنة: ٤]، ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ ﴾ [المجادلة: ٢٢]، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ﴾ [الممتحنة: ١]، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [المائدة: ٥١].

ففي هذا دليلٌ على أنه يجبُ البراءةُ من المشركينَ، وأنَّ من أصولِ الدعوةِ إلى الله: البراءةُ من المشركينَ، أما الداعيةُ الذي لا يتبرأُ من المشركينَ، فهذا ليس بداعيةٍ، وليسَ على طريقةِ الرسولِ ﷺ وإنْ زعَمَ أنه يدعو إلى الله، والكفرُ بالطاغوتِ مقدَّمٌ على الإيمانِ بالله، كما قالَ تعالى: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فلا بُدَّ من البراءةِ من المشركينَ، أما الذينَ يقولونَ: (ما علينا من عقائدِ الناسِ، من دخَلَ في جماعتِنا وصارَ معنا فهو أخونا، وعقيدتُهُ له) هذه ليسَتْ دعوةٌ إلى الله عز وجل، وإنما هي دعوةٌ إلى الحزبيةِ والعصبيَّةِ.

ففي هذه الآية الكريمة مسائل عظيمة:

المسألة الأولى: أنَّ طريقةَ النَّبيِّ ﷺ وطريقةَ أتباعِهِ على الحقيقةِ: الدَّعوةُ إلى الله.

....

المسألة الثانية: أنَّ مَنْ لم يدعُ إلى الله وهو يستطيعُ الدعوةَ إلى الله، فإنه لم يحققْ اتباعه للرسول ﷺ بل اتباعُهُ فيه نقصٌ عظيمٌ.

المسألة الثالثة: وهي المسألةُ التي نبّهَ عليها الشيخُ في مسائِلِه: التنبيهُ على الإخلاصِ في الدعوةِ لقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ فإنَّ بعضَ الناسِ إنما يدعو إلى نفسِهِ، فالذي يقصدُ المدحَ والثناءَ وكثرةَ الأتباعِ وكثرةَ الجماعةِ وكذا وكذا والفَخْفَخَة، هذا لا يدعو إلى الله.

المسألة الرابعة: -وهي مسألةُ العظيمةُ-: أنَّ الداعيةَ إلى الله لا بدَّ أن يكونَ على بصيرةٍ، مؤهّلاً بالعلمِ النافعِ الذي يستطيعُ به أن يدعوَ إلى الله، وأن يجادلَ المُغرضينَ والمعارضينَ، ويَدْحضَ حججَهم بلسانِهِ وبقلمِهِ، الدعوةُ إلى الله تكونُ باللسانِ وتكونُ بالقلمِ، أيضًا، وتكونُ بالسيفِ والجهادِ، فيُشترَطُ في الداعيةِ شرطٌ أساسيٌّ، بل أصليٌّ بأَن يكونَ على علمٍ، وأما الجاهلُ فلا يصلحُ للدعوةِ، وإن كان عندَه عبادةٌ، وعندَه ورعٌ، وعندَه تُقىً، وعندَه غيرةٌ على الدِّينِ، وعندَه محبةٌ للدينِ، هذا شيءٌ طيّبٌ، وصفاتٌ طيّبةٌ، لكن نقولُ له: يا أخِ، الدعوةُ لا يدخلُ فيها إلّا مَن كانَ على علمٍ، أمّا مجرّدُ الخوفِ والخشيةِ والعبادةِ والورعِ والغيرةِ والصلاحِ، فهذا شيءٌ طيّبٌ، لكن أنتَ لا تصلحُ للدعوةِ لأنك لستَ على علمٍ، والله تعالى يقول: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾.

ويقولُ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ﴾[النحل: ١٢٥]، والحكمةُ هي العلمُ، فأنتَ لا تَصْلُحُ للدعوةِ، تعلّم أوّلاً، فإذا تعلّمتَ تعالَ للدعوةِ، فالدعوةُ ليسَتْ بالمسألةِ الهيّنةِ، ولذلك عندما حصَلَ هذا الإهمالُ في الدعوةِ حصَلَ ما ترَوْنَ الآنَ من التفكُّكِ والتّخاذُلِ لأنَّ الدعوةَ دخَلَ فيها مَن هَبَّ ودبَّ، من الجُهّالِ والمُغرضينَ وأصحابِ المطامعِ، ولا تنجحُ دعوةٌ لم يتوفرْ فيها الشروطُ الإلهيةُ

التي اشترطَها الله تعالى، ولا يَبْقى إلَّا الأصلحُ دائمًا وأبدًا، ولو كثُرَتِ الجماعاتُ الدعويةُ، ما دامَتْ أنها ليسَتْ على الشروطِ التي اشترطَها الله، والمنهجُ الذي رسَمَهُ الله ورسولُهُ، فإنها لا تنجحُ مهما بلغَتْ من الكثرةِ والقوةِ، وستتلاشى وتصابُ بالنَكْسَةِ والفشلِ، أما إذا كانتْ مؤسَّسةً على العلمِ وعلى الإخلاصِ والنَّصيحةِ، فهذه هي التي تنجحُ بإذنِ الله ولو كانَتْ مِنْ فردٍ واحدٍ.

المسألة الخامسة: إنَّ الشركَ نقصٌ عظيمٌ يجبُ تنزيهُ الله عنه، لأنَّ الله سبحانهُ وتعالى كاملٌ، له الكمالُ المطلقُ فمن أشركَ به فقد تنقَّصَهُ ومن نَفَى صفاتِ الله عز وجل أو أوَّلَها فقد تنقَّصَ الله عز وجل، فالمؤوّلةُ والمشبهةُ الذين يشبهونَ الله بخلقِهِ، أو يؤوِّلونَ صفاتِ الله، أو يُلحدونَ في أسمائِهِ، هؤلاء تنقّصوا الله عز وجل، وهذا نقصٌ يُنزَّهُ الله -جلَّ وعلا- عنه، ومن وصفَه بما لا يليقُ به أو سمَّاهُ بغيرِ ما سمَّى به نفسَهُ فقد تنقَّصَهُ، ومن حكمَ بغيرِ ما أنزلَ فقد تنقَّصَهُ، ومن عصى أمرَهُ أو ارتكبَ نهيَهُ فقد تنقَّصَهُ سُبْحانه.

المسألة السادسة: -وهي مهمةٌ جدًا-: البراءةُ من المشركينَ، فالذي يدعو إلى الله -بَلْ وكُلّ مسلمٍ- لكنَّ الذي يدعو إلى الله من بابِ أولى، لأنه قدوةٌ، يجبُ عليه أن يتبرّأ من المشركينَ، لأنَّهم أعداءُ الله، وأعداءُ رسولِهِ، وأعداءُ المؤمنين، ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١]، فمَنْ لم يتبرّأْ من المشركينَ فإنه لم يُحقّقِ الدعوةَ إلى الله عز وجل، حتى وإن انتسبَ إليها، وهذهِ مسألةٌ عظيمةٌ.

* * *

عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا: أَنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذاً إِلَى اليَمَنِ قَالَ لَهُ: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ؛ فَلْيَكُن أَوَّلَ مَا تَدعُوهُم إِلَيهِ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله.

قوله: «**بَعَثَ مُعَاذًا**» البعثُ معناه: الإرسالُ.

«**إِلَى اليَمَنِ**» القُطرُ المعروفُ، جنوب الجزيرةِ، سُمِّيَ باليمنِ لأنه يقعُ أَيْمنَ الكعبةِ، والشام سُمِّيَ بالشامِ لأنَّهُ يقطعُ شاميَّ الكعبةِ[1].

وكانَ بَعْثُ معاذٍ في السنةِ العاشرةِ، وقيلَ: في آخرِ السنةِ التاسعةِ قبلَ وفاتِهِ ﷺ. أُرْسِلَ قاضيًا ومُعلِّمًا وداعيًا إلى الله عز وجل، ينوبُ عن الرسول ﷺ في هذهِ المهماتِ.

فهذا **أولاً**: فيه مشروعيةُ إرسالِ الدعوةِ إلى الله عز وجل، وأنه سنةٌ نبويةٌ.

ثانيًا: فيه فضيلةٌ لمعاذٍ رضي الله عنه، حيثُ إن النبيَّ ﷺ اختارَهُ لهذهِ المهمةِ العظيمةِ، مما يدلُّ على فضلِهِ وعلمِهِ، لأنَّ الرسولَ لا يُرسِلُ إلَّا مَنْ توفَّرَتْ فيهِ الشُّروطُ المطلوبةُ، وقد توفّرتْ في معاذٍ رضي الله عنه، وكانَ أعلمَ الناسِ بالحلالِ والحرامِ.

وفيه -أيضًا- العملُ بخبرِ الواحدِ، لأنَّ الرسولَ ﷺ أرسلَ معاذًا وحدَه. وهذا يدلُّ على أنه يُعتمَدُ خبرُ الواحدِ ولا يُشْترَطُ التَّواترُ -كما يقولُهُ بعضُ الضُّلَّالِ-، يقولونَ: أمورُ العقائدِ لا يُقْبَلُ فيها خبرُ الواحدِ.

والرسولُ ﷺ اكتفى بخبرِ الواحدِ، فأرسلَ معاذًا إلى اليمنِ يدعو إلى الله ويعُلِّمُ التَّوحيدَ، وهكذا، ما كانَ الرسولُ يُرسلُ رسلَهُ جماعاتٍ وإنما كانَ

---

(١) انظر «لسان العرب» (١٣/ ٤٦٤)، و«معجم البلدان» (٥/ ٤٤٧).

يُرْسِلُهم أفرادًا، كما بعثَ عليًّا، وبعثَ معاذًا، وبعثَ أبا عبيدةَ بنَ الجرّاحِ، وهذا يدل على قبولِ خبرِ الواحدِ في أصولِ الدينِ وفروعِهِ، وأما ما قالَهُ عُلماءُ الكَلامِ فهو باطلٌ.

«قال له: «**إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ**» هذا فيه وصيةُ الإمامِ لمندوبِه حينما يُرْسِلُهُ، أنه يخطُّ له المنهجَ، ويرسمُ له الطريقَ الذي يسيرُ عليه، وهذه سنةُ الرسولِ ﷺ في بعوثِهِ، أنه إذا أرسلَ جيشًا أو سَرِيَّةً يُوصيهم.

«**أَهْلِ الكِتَابِ**» أهلُ الكتابِ المرادُ بهم: اليهودُ والنَّصارى، سُمُّوا أهلَ الكتابِ لأنَّ الله أنزلَ علَيْهم التوراةُ والإنجيلَ، التوراةَ على موسى، والإنجيلَ على عيسى -عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ-، فسُمِّيَ أتباعُ الرسولينِ بأهلِ الكتابِ، فرقًا بينهم وبين الوثنيينَ، الذينَ ليسَ لهم كتابٌ، ولا يؤمنونَ بالرُّسلِ.

وقصْدُ النبي ﷺ من هذا أن يتأهّبَ معاذٌ لمَنْ سيقدمُ عليهم، وأنهم أهلُ كتابٍ يحتاجون إلى استعدادٍ علميٍّ للمجادلةِ والمُناظرةِ.

وفي هذا أنه يجبُ على الداعيةِ معرفةُ حالةِ المدعوينَ، وهذا من منهجِ الدعوةِ: أنَّ الداعيةَ ينظرُ في حالةِ المَدْعوّين، ويُخاطِبُ، كلاً منهم بحسبِ ما يليقُ به، فإنْ كانَ يخاطبُ علماءَ فإنه يخاطبُهُم بما يليقُ بهم، وإنْ كانَ يُخاطِبُ عوامًا يُخاطِبُهُم بما يليقُ بهم، النَّاسُ ليسوا على حدٍّ سواءٍ، فلا يليقُ بالداعيةِ أن يخاطبَ العلماءَ بخطابِ الجُهَّال، ولا يليقُ به أن يُخاطبَ الجُهَّالَ بخطابِ العلماءِ، ولا يليقُ بالداعيةِ أن يخاطبَ السلاطينَ بخطابِ عامَّةِ النَّاسِ، أو يخاطبَ عامَّةَ النَّاسِ بخطابِ السلاطينِ، كلٌّ يُخاطِبُهُ بما يرى أنه أقربُ إلى قبولِهِ للحقِّ، قالَ الله تعالى لرسولَيْه موسى وهارون عليهما السلام لما أَرْسَلَهما إلى فرعونَ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤﴾ [طه: ٤٤].

قولـه: «**فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شِهَادَةَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا الله**» هذا فيه التدرّجُ في الدعوةِ، وأنه يبدأ بالأهمِّ فالأهمِّ، وهذهِ طريقةُ الرُّسلِ، أنهم أولُ ما يبدؤونَ بالدعوةِ إلى شهادةِ أَنَّ لا إلهَ إلَّا الله، لأنَّها الأصلُ والأساسُ، الذي يُبنى عليه الدينُ، فإذا تحققَتْ شهادةُ أَنْ لا إله إلَّا الله، فإنهُ يُمكِنُ البناءُ عليها بالأمورِ الأُخرى، أما إذا لم تُحقَّقْ شهادةُ أَنْ لا إله إلَّا الله، فلا فائدةَ من بقيةِ الأمورِ، فلا تأمرِ النَّاسَ بالصلاةِ وعندَهُم شركٌ، ولا تأمُرْهُم بالصيامِ والصدقةِ والزكاةِ وصلةِ الأرحامِ وكذا وكذا وهم يشركون بالله، لأنك لم تضع الأساس أولاً، وهذا بخلاف كثير من دعاة اليوم الذين لا يهتمونَ بشهادةِ أَنْ لا إلهَ إلَّا الله، وإنَّما يدعونَ النَّاسَ إلى تركِ الرِّبا، وإلى المعاملاتِ الحسنةِ، وإلى الحكمِ بما أنزلَ الله، وإلى، وإلى، لكنَّ التّوحيدَ لا يذكرونَه، ولا يلتفتونَ له، وكأنهُ ليسَ مفروضًا، ولا حولَ ولا قوةَ إلَّا بالله، فهؤلاءِ مهما أتعبوا أنفسَهُم فإنَّ عَمَلَهم لا ينفعُ، حتى يُحقِّقوا الأصلَ والأساسَ الذي تُبنى عليهِ أمورُ الدينِ، من: حاكميةٍ، ومن صلاةٍ، ومن زكاةٍ، ومن حجٍّ، إلى آخرِهِ، هذا منهجُ الأنبياءِ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وكذلك ذكرَ الله عن نوحٍ عليه السلام أنهُ قالَ أولَ ما قالَ لقومِهِ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ﴾ [الأعراف: ٦٥]، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ﴾ [الأعراف: ٧٣]، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ﴾ [هود: ٨٤]، فكلُّ رسولٍ أولُ ما يبدأُ بالدعوةِ يبدأُ بشهادةِ أَنْ لا إلهَ إلَّا الله، فيدعو إلى التّوحيدِ، وإلى تصحيحِ العقيدةِ، ثم بعدَ ذلك يأمرُهم ببقيةِ

(وَفِي رِوَايَةٍ: إِلَى أَن يُوَحِّدُوا اللهَ).

فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ؛ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ.

أوامرِ الدِّينِ، أما أنَّهُ يُبدأُ بالعكسِ، يبدأ بالأمورِ الجزئيةِ والأمورِ الفرعيةِ، ويتركُ الأصلَ، فهذا العملُ لا ينفعُ، فلو فرضْنا أنَّ المجتمعَ صارَ بعيدًا عن الرِّبا، ويُحافِظُ على الصلاةِ، وتمتلئ المساجدُ، وكلُّ الأعمالِ تُعمَلُ، لكنْ ليسَ هناكَ إخلاصٌ في التّوحيدِ فهم يدعونَ غيرَ الله، يدعونَ الأولياءَ والصالحينَ والأنبياءَ والقبورَ، فلا فائدةَ في أعمالِهم، وهؤلاءِ ليسوا مسلمينَ، مهما صلُّوا وصاموا.

«وفي رواية: «**إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ**» لماذا جاءَ الشيخُ بهذهِ الروايةِ؟، لأنَّها تفسِّرُ شهادةَ أن لا إله إلَّا الله، بأنَّ معناها: توحيدُ الله سبحانه وتعالى وإفرادُه بالعبادةِ، ليسَ المقصودُ منها اللفظُ فقَطْ، بأنْ يقولَ: أشهدُ أَنْ لا إلهَ إلَّا الله، بل لا بُدَّ أن يوحّدَ الله في العبادةِ، أما إذا نطقَ بها بلسانِه ولم يوحّدِ الله في العبادةِ، فلا تنفعُهُ شهادةُ أن لا إلهَ إلَّا الله.

وفي هذا دليلٌ على عمومِ رسالةِ مُحمَّد ﷺ، فإنهُ مبعوثٌ إلى العالمِ كلِّه، بما فيهم أَهْل الكتابِ، كما كتبَ ﷺ لِهرَقْل عظيمِ الرومِ، وكما كتبَ للمُقَوْقِس ملكِ مصرَ، وكما كتبَ لكِسْرى ملكِ الفُرس، وكما كتبَ لملوكِ الأرضِ، لأنَّ الله أرسلَهُ إلى النّاسِ عامّة: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: ٢٨]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ١﴾ [الفرقان: ١].

وقول: «**فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ**» يعني: شهدوا أَنْ لا إله إلَّا الله، وأنَّ محمدًا رسولُ الله وعملوا بمقتضاهما.

«**فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ**» هذا

فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ؛ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ.

الركنُ الثاني. لما حققَ الركنَ الأولَ والأساسَ، انتقلَ إلى الركنِ الثاني وهو الصلاةُ، وهذا يدلُّ على أهميةِ الصلاةِ، وأنها تأتي بعدَ التّوحيدِ مباشرةً.

فمَنْ لم يُصَلِّ فإنه ليسَ بمسلمٍ، وإنْ كانَ يشهدُ أَنْ لا إلهَ إلَّا الله، وأن محمدًا رسولُ الله. كما دلَّتْ على ذلكَ الأدلةُ مثلَ قولِه ﷺ: « **بَيْنَ العَبْدِ وَبَيْنَ الكُفْرِ وَالشِّرْكِ تَرْكَ الصَّلَاةِ**»[1] وغيرِهِ من الأدلةِ.

وقوله: «**فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ**» هذهِ هي الزكاةُ، وهي قرينةُ الصلاةِ في كتابِ اللهِ وفي سُنَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ وهي الركنُ الثالثُ من أركانِ الإسلامِ.

«**تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ**» في هذا دليلٌ على أنَّ الزكاةَ لا تجبُ على الفقيرِ، وإنما تجِبُ على الغنيِّ وهو مَنْ يملكُ النِّصابَ فأكثرَ.

«**فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ**» هذا فيهِ مصرَفٌ من مصارِفِ الزكاةِ، فالفقراءُ صنفٌ واحدٌ من الأصنافِ الثمانيةِ المذكورةِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ إلى آخرِ الآيةِ [التوبة: ٦٠].

واستدلَ العلماءُ -رحِمَهُمُ اللهُ- بهذا على أَنَّ الزكاةَ لا تحِلُّ لغنيٍّ، وأنَّ مصرفَ الزكاةِ يجوزُ الاقتصارُ فيهِ على صنفٍ واحدٍ من الأصنافِ الثمانيةِ، لأنَّ الرسولَ ﷺ هنا اقتصرَ على الفقراءِ، ويدخلُ فيهم المساكينُ.

واستدلوا به - أيضًا - على أَنَّ مصرفَ الزكاةِ في البلدِ الذي فيهِ المالُ،

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٨٢٠) وابن ماجه (١٠٧٨).

فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ؛ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ.
وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ». أَخرَجَاهُ[١].

ولا ينبغي نقلُها إلى بلدٍ آخرَ، إلَّا إذا كانَ البلدُ الذي فيه المالُ ليس فيه فقراءُ، فإنها تُنقلُ إلى أقربِ بلدٍ فيهِ فقراء من بلدانِ المسلمينَ.

«**فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ**» الكرائمُ جمعُ كريمة وهي: النفيسةُ من المالِ، يعني: لا تَأْخُذْ مِن الزكاة أحسنَ الأموالِ، لأنَّ هذا فيه إجحافٌ بهمِ، كما أنك لا تَأْخُذْ أردأ المالِ، لأنَّ هذا فيهِ ظلمٌ للفقراءِ، ولكنْ خُذ المتوسطَ، بينَ النفيسِ وبينَ الرديءِ، هذا هو العدلُ، إن أخذتَ النفيسَ ظلمْتَ أصحابَ الأموالِ، وإنْ أخذتَ الرديءَ ظلمتَ الفقراءَ، إذا أخذْتَ الوسطَ اعتَدَلْتَ.

«**إِيَّاكَ وَكَرَائِمَ**» تحذيرٌ من الرسولِ ﷺ، وفيه وجوب العدلِ على الولاةِ، وعدمُ الظلمِ.

«**وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ**» هذه وصيّةٌ هامةٌ، يجبُ على الراعي والأميرِ وكلِّ مسلمٍ أن يحذرَ من دعوةِ المظلومِ، فإنه ليسَ بينَها وبينَ اللهِ حجابٌ، أي دعوةُ المظلوم مستجابةٌ، حتى ولو كانَ كافرًا: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، فالمظلومُ ترفعُ دعوتُهُ إلى اللهِ عز وجل، واللهُ جلَّ وعَلا يجيبُ دعوةَ المظلوم.

وهنا سؤالٌ أوردَهُ العلماءُ على هذا الحديثِ[٢]، يقولونَ: الرسولُ ﷺ ذكرَ ثلاثةَ أركانٍ، الشهادتانِ والصلاةُ والزكاةُ، ولم يذكرِ الصيامَ، ولم يذكرِ الحجَّ، فما الجوابُ عن هذا؟

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٩٦)، ومسلم (١٩) والرواية المشار إليها أخرجها البخاري (٧٣٧٢).
(٢) انظر «تيسير العزيز الحميد» (١٣٠) و«فتح المجيد» (٨٣).

فيهِ أجوبةٌ كثيرةٌ، لكنَّ أصحَّهَا والذي اختارَهُ الشيخُ تقيُّ الدِّينِ رحمه الله: أنَّ الرسولَ ﷺ اقتصرَ على الأركانِ العظيمةِ الأساسيةِ التي يُقاتَلُ مَنْ تركَها، وهي الشهادتانِ والصلاةُ والزكاةُ، قالَ الله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟﴾ [التوبة: ٥]، يعني: شَهِدوا أنْ لا إلهَ إلَّا الله، وأنَّ محمّدًا رسولُ اللهِ ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ﴾ [التوبة: ٥].

فالرسولُ ﷺ في هذا الحديثِ ذكر الأركان التي يُقاتل عليها، وهي: الشهادتانِ والصلاةُ والزكاةُ. هذا مِنْ ناحيةٍ.

والناحية الثانية: أنَّ هذهِ أركانٌ ظاهرةٌ، يراها النَّاسُ ويسمعونَها، أمَّا الصِّيامُ فهو أمرٌ خفيٌّ بينَ العبدِ وبينَ ربِّهِ، والحجُّ لا يجبُ على كُلِّ أحدٍ، وإنما يجبُ على مَن اسْتطاعَ إليهِ سبيلاً، وأيضاً إنما يجبُ مرةً في العمرِ، بخلافِ الشهادتينِ، فإنَّ الإنسانَ يلازمُها طولَ الحياةِ، ولا يتخلى عنها، والصلاةُ تتكرَّرُ في اليومِ والليلةِ خمسَ مرّاتٍ، والزكاةُ كلَّ عام، أمَّا الحجُّ فإنهُ يجبُ مرةً واحدةً في العُمُر، ولا يجبُ إلَّا على المستطيعِ، وأمَّا الصيامُ فلأنه أمرٌ خفيٌّ، وأيضًا من حافَظَ على الشهادتينِ، وأَقَامَ الصلاةَ وآتى الزكاةَ فإنه سيحافظ على الصيامِ ويُحافِظُ على الحجِّ من بابِ أَوْلى.

ما يستفادُ من الحديثِ:

دلَّ هذا الحديثُ على مسائلَ كثيرةٍ:

أوّلاً: فيه إرسالُ الدعاةِ إلى اللهِ عز وجل.

ثانيًا: فيه فضيلةٌ لمعاذِ بنِ جبلٍ رضي اللهُ عنه.

وَلَهُمَا[1] عَن سَهْلِ بنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ يَومَ خَيْبَرَ:

ثالثاً: فيه قَبولُ خبرِ الواحدِ في العقائدِ وغيرِها.

رابعًا: فيهِ بيانُ منهجِ الدعوةِ، وهذا أصلٌ عظيمٌ، وهو أنه يتدرَّجُ فيها، ويبدأُ بالأهمِّ فالأهَمِّ.

خامساً: في الحديثِ دليلٌ على عمومِ رسالتِهِ ﷺ وأنه مبعوثٌ إلى جميعِ العالمِ اليهودِ والنَّصارى وغيرِهِم، وإذا كانَ مبعوثًا إلى اليهودِ والنَّصارى وهُمْ أهلُ كتابٍ، فغيرُهُم مِنْ بابِ أَوْلى.

سادسًا: فيهِ المسألةُ التي أشارَ إليها الشَّيْخُ، وهي أنَّ مِنَ العُلماءِ مَنْ يَجْهلُ معنى لا إله إلَّا الله، لأنَّ أهلَ الكتابِ يدعونَ إليها وهُمْ أهلُ كتابٍ وأهلُ علمٍ.

سابعًا: في الحديثِ دليلٌ على أنه لا يجوزُ أخذُ الكرائمِ في الزكاةِ، وإنَّما يُؤخَذُ المتوسِّطُ.

ثامنًا: فيه دليلٌ على التحذيرِ من دعوةِ المظلومِ، وأنه ليسَ بينها وبينَ اللهِ حجابٌ.

***

قال الشيخُ رحمهُ الله: «**ولهما**» يعني: البُخاري ومُسْلم.

«**عن سهل بن سعد**» راوي الحديث هو سهلُ بنُ سعدٍ الساعديُّ الأَنْصارِيُّ الخزرجِيُّ -رضِيَ اللهُ تعالى عنه، وهو وأَبوه صحابيان.

«**أن رسول الله ﷺ قالَ يوم خيبر**» خَيْبَر: حِصْنٌ لليهودِ شمالي الحجازِ، وكانَ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٤٢)، ومسلم (٢٤٠٦).

بِهِ مزارعُ ونخيلٌ، ولا يزالُ يحملُ هذا الاسمَ إلى الآنَ، كانت بلادًا زراعيَّةً، وبلادَ نخيلٍ وإنتاجٍ للتمور، ويُضرَبُ المثلُ[١] فيُقالُ: كجالبِ التمرِ إلى خَيْبَرَ، أو كجالبِ التمرِ إلى هجرٍ، يعني: أنَّ الذي يأتي بشيءٍ إلى بلدٍ هي تُنْتِج ذلكَ الشيءَ يصبحُ كجالبِ التمرِ إلى خَيْبَرَ، ولهذا يقولُ حسّانُ -رضي اللهُ عنه-:

فإنَّا ومن يُهْدِي القصائدَ نحوَنا كمُسْتَبْضِعٍ تمرًا إلى أهلِ خَيْبَرا[٢]

وكانَتْ خيبرُ بلادًا يَقْطُنُها اليهودُ، وجلا إليها اليهودُ من المدينةِ، لمَّا أجلاهم رسولُ اللهِ ﷺ وهم بنو النَّضيرِ الذينَ غدروا بالعهدِ فحاصرَهُم رسولُ اللهِ ﷺ حتى اصْطَلحوا معَ النَّبيِّ ﷺ على أَنْ يَتْكوا لهُ ما مَعَهم من السلاح والقوَّةِ، ويَجْلوا إلى خَيْبَرَ وإلى أَذْرِعات بأرضِ الشام، كما ذكرَ اللهُ ذلكَ في أولِ سورةِ الحشر: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ إلى آخرِ الآيات [الحشر: ٢]، فهؤلاءِ هُمْ بنوا النضيرِ منَ اليهودِ، ثمَّ إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ غزاهم في السنةِ السابعةِ من الهجرةِ، بعد صُلحِ الحُدَيْبِيَة، وقبلَ فتحِ مكةَ، ومكّنَهُ اللهُ منهم، وحصلَ المسلمونَ منها على خيراتٍ كثيرة، ثم إنهم تعاقدوا معَ النبيِّ ﷺ على أن يبقوا فيها عمّالاً للمسلمينَ، يزرعونها بأُجرةٍ، فأقرَّهم النبيُّ ﷺ وبقَوْا فيها إلى أن أَجْلاهم عمرُ بنُ الخطابِ -رضِيَ اللهُ تعالى عنه- بعدَ ذلكَ، لأنَّ النبيِّ ﷺ لم يُقرَّهم فيها إقرارًا دائمًا، وإنما قال: «نُقِرُّكُمْ فِيهَا مَا شِئْنَا»[٣]، حاصرَها رسولُ الله ﷺ واشتدَّ الأمرُ بالمسلمينَ في الحصارِ من قلّةِ ذاتِ اليدِ، ومن طولِ الحصارِ

---

(١) انظر «مجمع الأمثال» (٢/ ١٥٢)، و«المستقصي في أمثال العرب» (٢/ ٢٣٣).

(٢) انظر «ديوان حسان بن ثابت» (ص١٠٩) دار صادر، بيروت.

(٣) أخرجه البخاري (٢٣٣٨) ومسلم (١٥٥١).

«لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلاً يُحِبُّ الله وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ الله وَرَسُولُهُ؛ يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ». فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا.

فبشَّرَهُم رسولُ اللهِ ﷺ بهذهِ البشارةِ من أجلِ أن يَذهبَ عنهم ما يجدونَ من المشقَّةِ وطولِ الانتظارِ.

قال الشيخُ رحمهُ الله: «**في هذا ما يجري علىأولياء الله من الجوع، ومن الوباء**»، يعني: ما جَرى عليهم في هذا الحصارِ من المشقّةِ، مع أنَّهم أولياءُ اللهِ، وفيهم رسولُهُ ﷺ ومعَ هذا نالَهم مشقّةٌ وجوعٌ في هذا الحصارِ، وفي هذا دليلٌ على أنَّ اللهَ يُعْطي الدُّنيا مَنْ يحبُّ ومَنْ لا يحبُّ، وأنَّ الجوعَ والفقرَ ليسا دليلاً على بغضِ اللهِ لمَنْ يصيبُهُ ذلك، فإن هذا قد يصيبُ أفضلَ الخلقِ.

قال: «**لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ**»، الرايةُ هي: العَلَمُ الذي يحملُهُ الجُندُ، مِنْ أجلِ أَنْ يهتدوا به، ويَلْتَفُّوا حولَه في القتالِ، وحَمْلُ العَلَمِ في الغزوِ مِنْ سنةِ النبيِّ ﷺ وكان له راياتٌ، وكانَ مكتوبًا في رايتِهِ ﷺ: لا إله إلَّا الله محمدٌ رسولُ اللهِ[1].

«**رَجُلاً يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ**»، هذه مِيزةٌ عظيمةٌ لهذا الرجلِ الذي يُعطيه رسولُ اللهِ ﷺ الرايةَ، ففيهِ فضلُ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه، وأن الرسولَ ﷺ شهِدَ له بهذهِ الشهادةِ العظيمةِ أنه يحبُّ اللهَ ورسولَه، وأنه يحبُّهُ اللهُ ورسولُهُ، وله فضائلُ كثيرةٌ، وإن كانَ اللهُ جلَّ وعلا يحبُّ المؤمنينَ كلَّهم، والمؤمنونَ يحبونَ اللهَ، كما قالَ اللهُ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

فالحاصلُ؛ أَنَّ مِيزةَ محبةِ اللهِ ورسولِهِ للمؤمنينَ موجودةٌ في كلِّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ عمومًا، ولكنَّ شهادةَ الرسولِ ﷺ لعلي بنِ أبي طالبٍ بخصوصِهِ فيها

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٢١٩) وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٢٤٠).

مزيةٌ له. ففي هذا ردٌّ على الخوارجِ، الذين خرجوا على أميرِ المؤمنينَ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ وكفّروه، كما أنَّ فيها ردًّا على النواصبِ الذي يبغضون عليًّا، ويسبُّونه، وفيها إثباتُ فضيلةِ أميرِ المؤمنينَ علي بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه، ابن عمِّ الرسولِ، ورابعِ الخلفاءِ الراشدينَ، وفي هذا -أيضًا- إثباتُ صفةِ لله سبحانه وتعالى، وأنه يحبُّ عبادَه المؤمنينَ، فاللهُ يحبُّ عبادَه المؤمنين، ويحبُّ أولياءَه، ففيهِ إثباتُ المحبةِ للهِ عز وجل، ردًّا على مَنْ ينفي هذهِ الصفةَ من الأشاعرةِ وغيرِهم.

«**يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ**» هذه الميزةُ الثانيةُ لعليٍّ بنِ أبي طالبٍ أنَّ اللهَ جَلَّ وعلا يفتحُ هذا البلدَ المستعصيَ على يدِ هذا الوليِّ من أوليائِهِ.

وفيه: علامةٌ من علاماتِ النبوّةِ، حيثُ إنَّ الرسولَ ﷺ أخبرَ عمَّا يحصلُ في المستقبلِ، وقد حصلَ كما أخبرَ به ﷺ.

فالناسُ لما سمعوا هذهِ البشارةَ العظيمةَ، وسَمِعوا وصفَ هذا الرجلِ الذي يتولى ذلكَ، من صحابةِ رسولِ الله ﷺ اهتموا بهذا الأمرِ لمحبَّتِهم للخيرِ، وباتوا ليلتَهم «**يَدُوكُونَ**»؛ يبحثون عنه، مثلَ ما مَرّ معنا في السبعينَ الألف الذينَ أخبرَ عنهم رسولُ الله: «**ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ**»، وهذا دليلٌ على أن الصحابةَ يهتمونَ بالفضائلِ، ويهتمونَ بأمورِ الآخرةِ، أكثرَ ممَّا يهتمُّ أهلُ الدُّنيا بدنياهم، وأنهم يتنافسونَ في الخيراتِ.

حتى إنَّ عمرَ بنَ الخطابِ رضي اللهُ عنه يقولُ: (ما تمنيت الإمارة إلَّا هذهِ الليلة)[1]، تمنَّى أن يكونَ هو ذلكَ الأميرُ الذي يقودُ الجيشَ، ويفتحُ هذا البلدَ،

(١) انظر «صحيح مسلم» (٢٤٠٥).

فَلَمَّا أَصْبَحُوا غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَن يُعطاها، فَقَالَ: «أَيْنَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ؟».

فَقِيلَ: هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، فَأَرسَلُوا إِلَيهِ، فَأُتِيَ بِهِ، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ، وَدَعَا لَهُ؛ فَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ.

حتى ينالَ هذهِ الميزةَ: «**يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ**».

وقوله: «**فلما أصبحوا غدوا على رسول الله**» يعني: ذهبوا إليهِ مُبكِّرينَ، من الغَدْوةِ، يُقالُ: غدا إذا ذهبَ في الغُدُوِّ وهو الصباحُ، ويُقالُ راح إذا ذهبَ في المساء، وقتَ الرّواحِ، فالغُدُوُّ: الذهابُ في أولِ النهارِ، والروَّاح: الذهابُ في آخرِ النهار.

«**كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا**» أي: كلٌّ يرجو أن يكونَ هو ذلكَ الرجلُ، لرغبتِهم في الجهادِ في سبيلِ اللهِ، وإعلاءِ كلمةِ اللهِ، والحصولِ على هذهِ البَشارةِ العظيمةِ.

قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**أَيْنَ عَليّ بنِ أَبِي طَالبٍ؟**» قالَ الشيخُ رحمه الله: في هذا دليلٌ على: «**الإيمان بالقدر، لحصولها لمن لم يسع لها، ومنعها عمن سعى**»، وأنَّ الإنسانَ وإنْ فعَلَ السببَ فإنه قد لا يحصلُ على المطلوبِ، لكنَّا مأمورونَ بفعلِ الأسبابِ، أمَّا النتائجُ فأَمْرُها إلى اللهِ سبحانه وتعالى، لكنْ يُؤجَرون على مَسْعاهم، وعلى نِيَّتِهم الطيّبةِ، وعلى رَغْبَتِهم في الخيرِ، وعلى خطواتِهم ومشيِهم إلى الرسولِ ﷺ.

وقالَ الشيخُ -أيضًا-: «**فيه تَفَقُّد الإمام أو القائد لجنده**» يعني: مَنْ حضَرَ ومَنْ تخلف.

«**قال: أين علي؟**» هذا تَفَقُّدٌ للجندِ، ما سكَتَ وتركَ الذي لم يَحْضرْ، بل تَفَقَّده، فالإمامُ والقائدُ يَتَفَقّد جنودَه، ويَتَفَقّد رعيَته، ولا يسمحُ لأحدٍ أن يتخلفَ

من غيرِ عذرٍ.

«قيل: هو يشتكي عينيه» أي أصابَهُ رمدٌ، وهو مرضٌ من أمراضِ العيونِ المعروفةِ عندَ الأطباءِ. ويُروى أنه أصابَهُ في المدينةِ، وأنه لم يخرجْ معَ النبيِّ ﷺ بسببِ المرضِ، ولكن بعدَما ذهبَ النبيُّ ﷺ هو وأصحابُه من المدينةِ، ضاقَتْ عليه نفسُهُ، وقال: كيفَ أَتخلَّفُ عن رسولِ اللهِ ﷺ؟، فخرجَ وهو مريضٌ، ولَحِقَ بالنبيِّ ﷺ وما طابَتْ نفسُهُ أن يبقى بعدَ رسولِ اللهِ ﷺ. وهكذا كانَ صحابةُ الرسولِ ﷺ «﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ﴾ [التوبة: ١٢٠]».

«فَأَرْسِلُوا إِلَيْهِ» أرسلَ إليه من يَأْتي به.

«فَأُتُونِي بِهِ، فبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ» يعني: تفلَ مَنْ ريقهِ الطيبِ الطاهرِ في عيني علي بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه.

«وَدَعَا لَهُ» بالشفاءِ.

«فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ» وهذا -أيضًا- من معجزاتِهِ ﷺ، حتى قالَ علي: (لَمْ يُصِبْنِي رمدٌ بعدَ ذلك) يعني: استمرَ هذا الشفاءُ طولَ حياتِهِ رضي الله عنه؛ ببركةِ ريقِ رسولِ الله ﷺ.

ولا شكَّ أنَّ التبركَ بريق النبيِّ ﷺ وبعَرَقِه وبوضوئِهِ أمرٌ مشروعٌ، وهذا خاصٌّ بالنبيِّ ﷺ، أما غيرُهُ فلا يُتبركُ بشيءٍ منه، لا يُتبركُ بشيءٍ من الصالحينَ والأولياءِ، لأنَّ هذا خاصٌّ بالرسولِ ﷺ، وأفضلُ الأمةِ بعدَ نبيِّها هو أبو بكرٍ رضي الله عنه،

فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، فَقَالَ: «انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ.

ومعَ ذلك لم يُتبركْ بريقِهِ ولا بعرقِهِ رضي الله عنه، ما فعلَهُ الصحابةُ معه لعلمِهِم أن هذا لا يَجُوزُ إلَّا في حقِّ النبيِّ ﷺ، وفيما انفصلَ مِنْ جسدِهِ ﷺ، أما أن يُتبرّكَ بحجَرتِهِ أَوْ بقبرِهِ، فهذا لا يجوزُ، لأنَّ هذا ليسَ مُنفصلاً عن جسدِ النبيِّ ﷺ، وسوفَ يأتينا بابٌ خاصٌّ بمن تبرّكَ بشجرةٍ أو حجرٍ أو نحوها.

وقوله: «**فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ**» دفعها إليه.

ثم إنهُ ﷺ أرشدَهُ وأوصاهُ على عادتِهِ ﷺ مع قُوّادِهِ وأمرائِهِ أنه كانَ يُوصي القُوّادَ والأمراءَ حينما يبعثُهُم.

فهذا فيه دليلٌ على أنَّ وليَّ الأمرِ يُوصي قُوَّادَهُ ويخطُّ لهم الخِططَ النافعةَ التي يسيرونَ عليها في مُهمّتِهم، ولا يتركُهُم لأنفسِهم يذهبونَ بدونِ وصيةٍ، وبدونِ إرشادٍ، وبدونِ وضعِ خطةٍ يسيرونَ عليها.

وقال: «**انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ**» «**انْفُذْ**» يعني: امضِ، «**عَلَى رِسْلِكَ**» يعني: على هيّنتك، لا تُسرعْ في المشي، ولا يكونُ هناكَ أصواتٌ أو صخبٌ، بل يكونُ هناك هدوءٌ تامٌ، وسيرٌ بالرفقِ.

فهذا فيه دليلٌ على مشروعيةِ الهدوءِ في الجهادِ، وتركِ العجلةِ ورفعِ الأصواتِ، لأنَّ ذلك يدلُّ على الثباتِ والشجاعةِ، ويدلُّ على التدبرِ في الأمرِ، وعدمِ العجلةِ والتسرعِ، بخلافِ الطيشِ والركضِ ورفعِ الأصواتِ، فإن هذا يدلُّ على الجبنِ، ويدل على عدمِ الثباتِ.

«**حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ**» الساحةُ يُراد بها: ما قَرُبَ من المكانِ، أي: حتى تنزلَ قريبًا من الحصن، وهذا فيه أن المجاهدينَ ينزلونَ قريبًا من البلادِ المحاصرةِ، ويقربون منها.

ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ تَعَالى فِيهِ

وقوله: «**ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ**» هذا محلُّ الشاهدِ من الحديثِ للباب، «**باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلّا الله**».

حيثُ قال: «**ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ**» فهذا فيه دليلٌ على وجوبِ الدعوةِ إلى الإسلامِ، وأنَّ العدوَ يُدعى قبلَ أن يُقاتَلَ، ولا يُبدَأُ بالقتالِ قبلَ الدعوةِ.

والإسلام هو: الاستسلامُ للهِ بالتوحيدِ، والانقيادُ لهُ بالطاعةِ، والخلوصُ من الشركِ وأهلِهِ، هذا هو الإسلامُ، انقيادٌ مع خضوعٍ وتعبدٍ لله تعالى، فمن لم يستَسْلمْ لله كانَ مستكبرًا، ومن استسلمَ لله ولغيرِهِ كان مشركًا، ومن اسْتَسْلم للهِ وحدَهَ كانَ موحّدًا مسلمًا.

«**وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ تَعَالَى فِيهِ**» يعني: اشرحْ لهم معنى الإسلامِ، وبيّنه لهم، وما يجبُ عليهم مِنْ حقِّ اللهِ تعالى فيه من الصلاةِ، والزكاةِ، والصيامِ، والحجِّ، وغيرِ ذلك من أركانِ الإسلامِ، فلا يكفي الدعاءُ إلى الإسلامِ مُجْملاً، كما يُثَرْثِرُ به بعضُ الدعاةِ اليومَ ممن يقومونَ بالدعوةِ المجملةِ إلى الإسلامِ. ولو تسألهم ما هو الإسلامُ؟، ما استطاعوا أن يُعرِّفوهُ، فكيفَ يدعونَ إلى شيءٍ وهم لا يعرفونَه؟، الذي يدعو إلى الإسلامِ لا بدَّ أن يعرفَ الإسلامَ ما هو؟، ويُبيِّنهُ للمدعوِّين، ويشرحَه لهم، وإلّا ما معنى «**وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ تَعالَى فِيهِ**».

أما الإسلامُ المجملُ، فكلٌّ يقولُ: إنما هو عليهِ هو الإسلامُ؛ من الطوائفِ الضالةِ والمنحرفة والكافرة، كلٌّ يفسِّرُ الإسلامَ بمذهبِهِ، وكلمةُ الإسلامِ غطاءٌ كلٌّ يدّعيها الآنَ من الطوائفِ المنحرفةِ والضالةِ والكافرةِ: القاديانيةِ، والباطنيةِ، والقبوريةِ، وغيرِهِم من الطوائفِ المنحرفةِ، كلهم يدَّعون أن الإسلامَ هو ما هُمْ

عليه، لكن لو شُرِح الإسلامُ بأنهُ التوحيدُ وعبادةُ اللهِ وحدَه لا شريكَ له، والبراءةُ من المشركينَ، وإقامُ الصلاةِ، وإيتاءُ الزكاةِ، وصومُ رمضانَ، وحجُّ بيتِ اللهِ الحرامِ، وإفرادُ اللهِ بجميعِ أنواعِ العباداتِ من الذبحِ والنذرِ والاستغاثةِ والاستعاذةِ، حينئذٍ يتبيّنُ الإسلامُ الصَحيحُ من الإسلامِ المزيّفِ، وهذا لا يريدونَه، لا يريدونَ أن يُبَيَّنَ الإسلامُ على حقيقتِهِ لأنه يتبينُ بطلانُ ما هم عليه، والرسولُ ﷺ قالَ: ادعوا إلى الإسلام وبيّنوا ما هو الإسلام، كما أَوْصَى عليُّ بن أبي طالب بقوله: «**ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ تَعَالَى فِيهِ**»، ولهذا لما ارتدَّ مَنْ ارتدَّ عن الإسلامِ بعدَ وفاةِ رسولِ اللهِ ﷺ وعزَمَ أبو بكرٍ على قتالِهم، قالَ له الصحابةُ -ومنهم عمرُ-: يا خليفةَ رسولِ الله، كيف تقاتلُهُم وهم يقولونَ: لا إله إلّا الله؟، قالَ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: («**إِلَّا بِحَقِّهَا**»، **وَإِنَّ الزَّكَاةَ مِنْ حَقِّها، وَاللهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالاً كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَيهِ**).

فالإسلامُ ليسَ مجرّدُ انتسابٍ ودَعْوى فقط، أو قول: لا إله إلّا الله بدونِ التزامٍ بمعناها ومدلولِها، حتى لو كانَ عِقالاً يؤدونَهُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ يعتبرُ مِنْ حقِّ لا إله إلّا الله، فكيفَ بالذي لا يُصلِّي وهو يقولُ: إنه مسلمٌ؟، كيف بالذي يجحدُ وجوبَ الزكاةِ ويقولُ: أنا مسلمٌ؟، كيف بالذي يجحدُ وجوبَ الصومِ ويقولُ: أنا مسلمٌ؟، بل أعظمُ من ذلكَ كيفَ بالذي يدعو غيرَ اللهِ وهو يقولُ أنا مُسْلم؟، يدعو القبورَ والأضرحةَ ويذبحُ لها وينذرُ لها ويقولُ أنا مسلِم؟. هل هذا هو الإسلام؟.

يجبُ أن نعرفَ هذا الأمرَ العظيمَ، وهذا الأصلَ العظيمَ، وهذه القاعدةَ العظيمةَ، وهذا الذي يجبُ أن يركِّزَ الدعاةُ عليه، إذا كانوا يريدونَ أن تكونَ دعوتُهم إلى اللهِ دعوةً صحيحةً، أما إذا كانَتْ مجردَ انتسابٍ، كلٌّ يدخلُ

فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرُ النَّعَمِ».
يَدُوكُونَ أَي: يَخُوضُونَ.

تحتَها، ويجعلُ الإسلامَ مجردَ غطاءٍ، فهذا لا يُرضي اللهَ عز وجل، وليسَ هو الإسلامُ، لأنَّ كلاً يدَّعِي أنه على الإسلامِ ولو كانَ مشركًا.

الإسلامُ والإيمانُ ليسَ مجردَ دعوى، أو انتسابٍ، أو هويّةٍ تُكتَبُ في حفيظةِ النفوسِ، أو يُكتب أنَّ دينَ الدولةِ الرسميِّ هو الإسلامُ؛ والعملُ على خلافِهِ، يأبى اللهُ ذلك سبحانه وتعالى: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة:٣٢].

خذوا منهجَ الدعوةِ من هذا وأمثالِه، لا تأخذوا منهجَ الدعوةِ من نظامِ الجماعةِ الفلانيةِ أو الجماعةِ العلَّانيةِ، خذوا نظامَ الدعوةِ، ومنهجَ الدعوةِ من كلامِ اللهِ وكلامِ رسولِ اللهِ ﷺ، هذا هو منهجُ الدعوةِ.

ثم بيّنَ ﷺ فضيلةَ الدعوةِ إلى اللهِ، فقال: «**فَوَاللهِ**» أَقْسَمَ ﷺ وهو الصادقُ المصدوقُ، والقَسَمُ أحيانًا يُؤتَى به من أجلِ الاهتمامِ بالشيء وتوكيدِهِ، ولهذا يقولُ الشيخُ في مسائِله فيه: «**الحَلِف على الفتيا**»، الإنسانُ إذا أفتى بفتوى وهو يتأكدُ أنها هي حكمُ اللهِ عز وجل يُقْسِمُ عليها، ويحلِفُ عليها.

«**لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ**» هذا ترغيبٌ في الدعوةِ إلى اللهِ عز وجل. «**حُمْرُ النَّعَمِ**» الإبل الحُمْر، جَمْع حَمْراء، وهي الناقةُ النفيسةُ، لأنَّ الإبلَ الحُمْرَ أنفسُ أموالِ العربِ[1].

فكيفَ إذا اهتدى على يديكَ جماعةٌ؟، أو اهتدى على يدكَ أمةٌ، أو اهتدى

---

(١) انظر «لسان العرب» (٤/ ٢١٠).

على يدِكَ أجيالٌ تأتي مِنْ بعدك؟

هذا فيه: فضلُ الدعوةِ إلى اللهِ.

انظروا ماذا حقَّقَ اللهُ من الخيرِ بسببِ دعوةِ شيخِ الإسلامِ ابنِ تيميةَ رحمه الله، ومن اهتدى بسببِه من الأجيالِ التي لا تزالُ إلى الآنِ والحمدُ لله.

ومن بركاتِ دعوةِ شيخِ الإسلامِ ابنِ تيميةَ: دعوةُ الشيخِ محمدُ بنُ عبدِ الوهابِ، لأنَّ الشيخَ محمدَ بنَ عبدِالوهابِ تَتَلْمَذَ على كتبِ شيخِ الإسلامِ ابنِ تيميةَ في أمورِ العقيدةِ، فقامَ بهذهِ الدعوةِ المباركةِ.

إذًا ماذا يحصلُ للداعيةِ الأوَّلِ من الأجرِ؟ كما قالَ ﷺ في الحديثِ الآخرِ: **«مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا»**[1]، فكيفَ بالأجرِ الذي يحصلُ للرسولِ ﷺ سيّدِ الدّعاةِ، وإمامِ الدُّعاةِ؟، مَنْ يؤمنُ من الخلقِ إلى يومِ القيامةِ يحصلُ للرسولِ مثلَ أجرِهِ، وكذلكَ الأئمةُ مِنْ بعدِهِ، الدُّعاةُ الذينَ جاءوا بعدَ الرسولِ، يحصلُ لهم من الأجورِ مثلَ أجورِ من تبِعَهُم، نسألُ اللهَ الكريمَ من فضلِهِ.

فهذا فيه: فضلُ الدعوةِ إلى اللهِ عز وجل، والدعوةُ إلى اللهِ أن تدعوَ النَّاسَ إلى كتابِ اللهِ وسنَّةِ رسولِهِ، وإخلاصِ العبادةِ للهِ عز وجل، والحكم بِما أنزلَ اللهُ، هذهِ هي الدعوةُ إلى اللهِ عز وجل، ليسَتْ مجردَ انتسابٍ، أو مجرّدَ شكليّاتٍ، أو مجرّدَ شعاراتٍ، ولهذا كلُّ دعوةٍ ترتكزُ على المنهجِ الصحيحِ تنجحُ بإذنِ اللهِ ولو بعدَ حينٍ.

هذا شيخُ الإسلامِ عُذِّبَ وماتَ في السِّجْنِ؛ لكنْ نجحَتْ دعوتُه فيما

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٤).

بعدُ، لماذا؟، لأنها دعوةٌ أصيلةٌ، ترتكِزُ على الكتابِ والسُّنَّةِ، كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

أما دعاةُ الضلالِ -حتى ولو تَجَمْهَرَ حولَهم مئاتُ الألوفِ- فإنَّ هذا غثاءٌ كغثاءِ السَّيْلِ.

فالدعوةُ الصحيحةُ يبقَى خيرُها وأثرُها على مرِّ الأجيالِ، أما الدعوةُ غيرُ الصحيحةِ، أو الدعوةُ المغرضةُ التي يُقصَد منها أشياءُ أُخْرى؛ فهذه وإن تَجَمْهَر الناسُ حولَها في وقتٍ من الأوقاتِ، إلَّا أنَّها لا بركةَ فيها، ولا خيرَ فيها، ولا تُؤثِّرُ في الناسِ خيرًا.

وهذا الحديثُ في من المسائل ما مررنا عليه، ويمكن أن نجمله فيما يلي:

أولاً: فيه مشروعيةُ إرسالِ الدعاةِ، لأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أرسلَ عليَّ بنَ أبي طالبٍ داعيًا إلى اللهِ قبلَ الجهادِ.

ثانيًا: -وهي مسألةٌ مهمةٌ-: أنَّ الدعوةَ تكونُ قبلَ القتالِ، ولا يجوزُ أن يكونَ القتالُ قبلَ الدعوةِ، قالَ تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥].

ثالثًا: فيه وصيةُ الإمامِ لمَنْ يبعثُهُ للدعوةِ إلى اللهِ، وأنه يخطِّطُ لهُ المنهجَ السليمَ، ويُرشِدُهُ إلى الطريقِ الصحيحِ الذي يسيرُ عليه، وأنَّ المُرسَلَ يستمدُّ الإرشاداتِ من قائِدِه ومن إمامِهِ، ولا يستبدُّ هو بشيءٍ، لأنَّ هذا أضبطُ للأمورِ.

رابعًا: في الحديثِ دليلٌ على إثباتِ صفةٍ من صفاتِ اللهِ عز وجل، وهي المحبةُ، ردًّا على نُفاةِ الصفاتِ، الذين ينفونَ صفاتِ اللهِ عز وجل.

خامسًا: في الحديثِ دليلٌ على معجزاتٍ من معجزاتِ النبيِّ ﷺ.

أحدها: قوله: «**لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا**»، وقد وقعَ هذا.

ثانيًا: إخبارُهُ عن وقوعِ الفتحِ، وقد وقَعَ.

ثالثًا: بَصْقُهُ ﷺ في عيني المريضِ فيُشفى في الحالِ.

هذهِ كلُّها من معجزاتِهِ ﷺ وعلاماتِ نبوَّتِهِ -عليه الصلاةُ والسَّلامُ-.

سادسًا: فيه فضلُ أميرِ المؤمنينَ عليِّ بنِ أبي طالبٍ -رضي اللهُ تعالى عنه-، ردًّا على أعدائِهِ من الخوارجِ والنَّواصِبِ وغيرِهم ممَن يتنقّصونَ الصَّحابةَ، ويقلّلونَ من قَدْرِهم وشأنِهم، رضِي اللهُ تعالى عنهم وأرضاهم، ولا سيّما الخلفاءُ الراشدونُ رضِيَ الله تعالى عنهم.

سابعًا: في الحديث دليلٌ على حرصِ الصحابةِ على الخيرِ، وأنهم يتنافسونَ في أمورِ الخيرِ، لأنهم باتوا ليلتَهم «**يَدُوكُونَ**» يعني: يبحثونَ من سيحصلُ على هذهِ الميزةِ العظيمةِ، وأيضًا بادروا كلُّهم في الصباحِ، كلُّهم يرجو أن يُعطاها.

ثامنًا: فيه الإيمانُ بالقدرِ، وهو أنَّ الأمرَ قَدْ يحصلُ لمَنْ لم يَسْعَ إليهِ، ولا يَحْصل لمَنْ سعى إليه لكنَّ السَّعْيَ إلى الخيرِ مأمورٌ به وحصولُ النتائجِ من اللهِ سبحانَه.

تاسعًا: -وهي المسألةُ المهمةُ التي ساقَ الشيخُ رحمه الله -هذا الحديثَ في البابِ من أجلِها-: وهي بيانُ منهجِ الدعوةِ إلى اللهِ عز وجل، وأنَّ الداعيةَ يدعو إلى الإسلامِ ويشرحُهُ للناسِ.

عاشرًا: فيه بيانُ خطَّةِ الجهادِ الشرعيِّ، حيثُ إنَّ الرسولَ ﷺ قالَ: «**اذْهَب عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ**»، هذا فيه التدرّجُ في

الدعوةِ، والتهيُّء لها شيئًا فشيئًا، بدونِ تسرُّع، وبدون جَلَبَةٍ، وفَخْفَخَة.

حادي عشر: فيه كما ذكرَ الشيخُ رحمه الله: دعوةُ أهلِ الكتابِ إلى الإسلامِ، مع أنهم أهلُ كتابٍ، ويزعمونَ أنهم مؤمنونَ، وأنهم على الإسلامِ، وبيانُ أنَّ ما هم عليه ليس هو الإسلامُ، وإن كانَ ينتسبونَ إلى الأنبياءِ، فهم ليسوا على الإسلامِ، لماذا؟، لأنَّ اللهَ أوجبَ إتباعَ هذا الرسولِ محمدٍ ﷺ على كلِّ مخلوقٍ على وجهِ الأرضِ، من اليهودِ والنَّصارى وغيرِهم: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١]، لأنَّ اللهَ نسخَ الأديانَ السابقةَ بهذا الدينِ العظيمِ، وجعلَهُ هو الدينُ الباقي: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ﴾ [فاطر: ٣٢]، يعني: هذه الأمةُ، فتحوَّلُ الكتابُ والدينُ والدعوةُ إلى ما جاءَ به هذا الرسولُ ﷺ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، أي: كما أنه يملكُ السماواتِ والأرضَ فهو الذي أرسلني، والأمرُ له سبحانه وتعالى.

ثاني عشر: فيه فضلُ الدعوةِ إلى اللهِ عز وجل، وأن الداعيةَ يحصلُ له من الأجرِ مثلَ أجرِ المدعوِّين، وأيضًا يحصُلُ له من الأجرِ ما هو خيرٌ وأنفسُ مما في الدُّنيا من الأموال.

* * *

الباب السادس:

بَاب تفسيرِ التوحيدِ وشهادَةِ أن لا إلهَ إلاَّ اللهُ

مناسبةُ هذا البابِ لما قبلَه ظاهرةٌ؛ لأنَّ البابَ الذي قبلَه: «**باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلَّا الله**»، وهذا البابُ في تفسيرِ هذهِ الكلمةِ، وبيانِ معناها، لأنَّ الذي يدعو إلى شيءٍ ويطلبُ من النَّاسِ أَنْ يفعلوهُ، فلا بدَّ أَنْ يُبيِّنهُ لهم، ويُوضِّحَه لهم توضيحًا تامًّا، ولا يَكْتفي بمجردِ أَنْ يقولَ للنَّاسِ قولوا: لا إله إلا الله أو يقولَ للنَّاسِ: ادخلوا في الإسلامِ، بل لا بدَّ أن يبَيّنَ لهم معنى لا إله إلَّا الله، وأَنْ يُبينَ لهم معنى الإسلامِ الذي يدعوهُم إليه، ولا بدَّ معَ ذلكَ أَنْ يبيِّنَ لهم ما يناقضُ الإسلامَ، وما يناقضُ لا إله إلَّا الله، من أنواعِ الرِّدّةِ، وأنواعِ الشركِ، حتى تكونَ دعوتُهُ مُثمرةً، وحتَّى يستفيدَ النَّاسُ مِنْ دعوتِهِ، أما أَن يَدْعُوَهم إلى شيءٍ مُجْملٍ، فهذا لا يَكْفي.

وكثيرٌ من الذينَ يتسمَّوْنَ بالدعوةِ في هذهِ الأيامِ من الجماعاتِ أو الأفرادِ، أكثرُهم لا يعرفونَ معنى لا إله إلَّا الله على الحقيقةِ، ولا يعرفونَ معنى الإسلامِ على الحقيقةِ، ولا يعرفونَ نواقضَ الإسلامِ، ونواقضَ الشهادتينِ، وإنَّما يَدْعُون إلى شيءٍ مُجْمَلٍ، وربَّما أنَّ بعضَهُم يفهَمُ هذا، ولكنْ لا يحبُّ أن يبيِّنَ للنَّاسِ هذهِ الأشياءَ لأنَّهم -بزعمِهِ- يَنْفرونَ منه، وهو يريدُ أن يُجمِّعَ الناسَ، يُجمعُهُم على ماذا؟، على جهالةٍ؟، يُجمِّعهم على ضلالةٍ؟. لا بدَّ أن تُبيِّنَ ما تَدْعو إليه، وتُوضِّحَ ما تدعو إليه كما قالَ تعالى في حقِّ نبيِّهِ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨]، والبصيرةُ معناها: العلمُ بما يدعو إليه، ومعرفــةُ معناه، حتَّى يُوضِّحَهُ للنَّاسِ، والنبيُّ ﷺ -كما سبَقَ في آخرِ البابِ الذي قبلَ هذا-لما بعَثَ عليًّا رضـي الله عنـه وأعطـاهُ الرايـةَ، قال: «**ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ تَعَالَى فِيهِ**»، ما قال: «**ادْعُهُمْ إِلَى**

الإِسْلَامِ» واكتفى بهذا، بَلْ قالَ: «**أَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ**»، إذا قَبِلوا أن يَدْخلوا في الإسلامِ، فبيّن لهم معنى الإسلامِ، واشرحْهُ لهم، حتى يَدْخُلوا فيهِ على بصيرةٍ.

وقالَ ﷺ لمعاذٍ: «**إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ الكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ: شَهادةَ أنَّ لا إله إلَّا الله فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ**»، إلى آخرِ الحديثِ، ولم يقفْ عندَ قولِهِ: «**ادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»، بَلْ أمرَهُ أنْ يُبيِّنَ لهم بعدَما ينطقونَ بالشهادتينِ، أنْ يبيّنَ لهم مُقْتَضى هاتينِ الشهادتينِ، وأنه ليسَ المرادُ مجرَّدَ النُّطقِ بهما والتلفظِ بهما، بَلْ لا بدَّ من الالتزامِ والعملِ.

من هنا عقَدَ الشيخُ رحمه الله هذا البابَ، بعد «**باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلَّا الله**»؛ ليتبيَّنَ من ذلكَ أَنَّ مَنْ دَعا إلى شهادةِ أن لا إله إلَّا الله، فلا بُدَّ أَنْ يُفسِّرها، ويفسِّرَ التّوحيدَ، حتى تكونَ دعوتُهُ على بصيرةٍ، أمَّا إنْ كانَ لا يعرفُ هذا، فلا يدخلُ فيما ليسَ من شأنِهِ، حتى يتعلمَ هو بنفسِهِ أوّلاً، أو إنْ كانَ يعرفُ هذا ولكِنْ لا يريدُ أن يبيِّنَهُ للنَّاسِ لغَرَضٍ في نفسِهِ، أو لإرضاءِ جماعتِهِ أو حزبِهِ؛ فليبتعِدْ عن هذا، ولا يكونُ محسوبًا على الدعوةِ، وهو لا يقومُ بواجبِها، لأنَّ هذا يصبحُ سُبَّةً على الدعوةِ، ونَكْسَةً على الدعوةِ.

فهؤلاءِ الذينَ شغلونا بهمومِ الدعوةِ -كما يقولونَ-، هم لا يفهمونَ معنى الدعوةِ، ولا يفهمونَ ما يُطلَبُ من الداعيةِ، فالواجبُ أن يكونَ الدعاةُ على بصيرةٍ، حتى تُجْدي دعوتُهم، وحتى تنفعَ، وحتى يُكتبَ لهمُ الأجرُ عندَ اللهِ سبحانه وتعالى.

وقولُ الشيخ: «**تفسير التّوحيد، وَشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**» هذا من عطفِ الدَّالِّ على المدلولِ، المدلولُ هو التّوحيدُ، وشهادةُ أَنْ لا إله إلَّا الله هو الدالُّ لأنَّ شهادةَ

وَقَولُ اللهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧].

أَنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ تدلُّ على التّوحيدِ، فهو مِنْ عطفِ الدالِّ على المدلولِ، والشيخُ رحمه الله جمعَ بينهما في الترجمةِ ليبيّنَ أنَّ معناهما واحدٌ، فمعنى التّوحيدِ هو لا إله إلَّاالله، ومعنى لا إله إلَّا الله هو التّوحيدُ، مِنْ أجلِ أَنْ لا يَخْفى هذا على أحدٍ، فيظنُّ أنَّ التّوحيدَ غَيْر لا إله إلَّا الله، بل هما شيءٌ واحدٌ، فهذا معنى جَمْعِ الشيخِ رحمه الله، بينَ اللفظتينِ في الترجمةِ.

وقد ذكرَ الشيخُ في هذا البابِ أربعَ آياتٍ، وذكرَ حديثًا واحدًا.

***

الآيةُ الأولى: قوله تعالى: «﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ٥٧﴾»، تتمة الآية: ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ٥٧﴾ [الإسراء: ٥٧]، قالَ جمهورُ المفسرينَ: إنَّ هذهِ الآيةَ نزلَتْ في قومٍ كانوا يعبدونَ المسيحَ وأُمَّه وعُزَيْرًا، فبيّنَ اللهُ سبحانه أنَّ هؤلاءِ الذينَ تدعونَهم هم عبادي يَدْعونني، وهم فقراءُ إليّ يَدْعونني، ويتقرّبونَ إليّ بالطاعةِ، فهم عبادٌ مِنْ عبادي، والعبدُ لا يَصْلحُ أن يكونَ معبودًا، وليسَ هناكَ في السماواتِ والأرضِ إلَّا مَنْ هو عبدٌ لله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣﴾ [مريم: ٩٣]، ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ﴾ [النساء: ١٧٢]، فكلُّ الخلقِ، كُلُّ سكانِ السماواتِ والأرضِ كلُّهم عبادٌ لله، فلا يصلحُ أن يُعْبَدوا مِنْ دونِ الله عز وجل، ولذلكَ قالَ اللهُ في الآية التي قبلها: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ٥٦﴾ [الإسراء: ٥٦]، هذا تعجيزٌ

للمشركين، وتعجيزٌ لآلهتِهم التي يعبدونَها من دونِ اللهِ.

«**قُلِ ادْعُواْ**» هذا أمرُ تهديدٍ ووعيدٍ، «**الَّذِينَ زَعَمْتُم**» والزّعمُ مَطِيَّةُ الكذبِ، الزّعمُ يُطلَقُ على الأمرِ الذي لا حقيقةَ له، ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ أنهم ينفعونَ أو يضرونَ من دونِ اللهِ عز وجل: ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ يعني: غير اللهِ سبحانه وتعالى، ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ [الإسراء: ٥٦]، إذا نزلَ بكم مرضٌ فإنَّ كلَّ هؤلاءِ الذينَ تَدْعونَهم مِنْ دونِ اللهِ -بما فيهم الملائكةُ والأنبياءُ والصالحونَ والأولياءُ- كلُّهم لا يملكونَ كشفَ الضرِّ، إذا أنزلَ اللهُ ضرًّا بعبدٍ فلنْ يستطيعَ أحدٌ رفعَهُ إلَّا اللهَ سبحانه وتعالى، كما قالَ تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ [الزمر: ٣٨]، لا يملكونَ كشفَ الضرِّ، لا يملكُ كشفَ الضُّرِّ إذا نزلَ ولا يرفعُهُ إلَّا اللهُ سبحانه وتعالى، وبذلكَ تَبْطُلُ عبادةُ هؤلاءِ، ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ أي: نَقْله من محلٍّ إلى مَحلٍّ، لا يملكونَ نقلَ المرضِ من عضوٍ إلى عضوٍ، إذا أنزلَهُ اللهُ بالرأسِ فلا يستطيعُ كلُّ الخلقِ أو الأطبّاءُ المَهَرَةُ، لا يستطيعون أن يحولوا وجعَ الرأسِ إلى اليدِ، أو وجعَ اليدِ إلى الرِّجلِ، أبدًا، وكذلك لا يستطيعونَ أن يحولوهُ من شخصٍ إلى شخصٍ آخر، إذا نزلَ مرضٌ بعبدٍ من العبادِ فلن يستطيعَ أطبّاءُ العالمِ والمستشفياتُ والمنظماتُ الصحيةُ العالميةُ أن تنقلَ المرضَ من شخصٍ إلى شخصٍ، ويصبحَ المنقولُ عنه بريئًا صحيحًا، أو ينقلونَ المرضَ من بلدٍ إلى بلدٍ، لا يستطيعونَ هذا، وإنما هذا تقديرُ العزيزِ العليم، هو الذي يَقْدرُ على كشفِ الضرِّ ورفعِهِ نهائيًّا، ويَقْدرُ على تحويلِهِ من محلٍّ إلى محلٍّ إذا شاءَ سبحانه وتعالى.

وهذا من التحدياتِ التي يتحدّى اللهُ بها المشركينَ، ولن يجيبوا عنها إلى أَنْ تقومَ الساعةُ، فدلَّ على انقطاعِ حُجَّتِهم.

لا أحدَ قالَ: بلى آلهتنا تستطيعُ كشفَ الضرِّ، أو تستطيعُ تحويلَ الضرِّ، ما أحدٌ قالَ هذا، فدلّ على انقطاعِ حُجَّتِهم وانخصامِهم، وعادَ الأمرُ للهِ سبحانه وتعالى.

ثم بيّنَ سبحانه وتعالى أنَّ هؤلاءِ الذينَ تدعونَهم من دونِ اللهِ أنهم عبادٌ لله، هم بأنفسِهم يدعونَ اللهَ عز وجل؛ يرجونَ رحمتَهُ، ويخافونَ عذابَهُ: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]، فالملائكةُ وعيسى عليه السلام وأُمُّه، وعُزَيْر، وكلُّ الصالحينَ، والأولياءِ بهذهِ المثابةِ، كلهم يبتغونَ إلى ربِّهم الوسيلةَ.

والوسيلةُ معناها في الأصلِ: السببُ الذي يُوَصِّلُ إلى المقصودِ، فالسببُ الذي يُوَصِّلُ إلى المقصودِ يُسمى: وسيلةً.

وأمّا معناها هنا: فالوسيلةُ: الطاعةُ والقُربُ، فالملائكةُ -عليهم الصلاةُ والسَّلامُ-، وعيسى -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ-، وعُزَيْرٌ عليه السلام، والأولياءُ والصالِحونَ كلُّهم يتقرّبونَ إلى اللهِ بالطاعةِ، يعبدونَ اللهَ، يعبدونَ اللهَ لأجلِ أيِّ شيء؟ ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ كلُّ واحدٍ يرجو أن يكونَ أقربَ إلى اللهِ سبحانه وتعالى، يتقرّبونَ إليه بطاعتِهِ، ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]، فدلَّ على أنَّهم عبادٌ فقراءُ إلى اللهِ سبحانه وتعالى، يرجونَ رحمةَ اللهِ لأنهم بحاجةٍ إليها، ويخافونَ عذابَ اللهِ أن ينزلَ بهم، إذًا هم لا يستطيعونَ أَنْ يجلبوا لأنفسِهم النفعَ، ولا يستطيعونَ أن يدفعوا عنها الضررَ، فكيفَ يملكونَ ذلك لكم يا مَنْ تَعْبُدونهم؟.

فالوسيلةُ هنا معناها: الطاعةُ والعبادةُ، وليسَ معناها ما يظنُّه، القبوريُّونَ والمخرِّفونَ أنَّ الوسيلةَ معناهـا: أن تجعلَ بينَك وبينَ اللهِ شخصًا يرفعُ حوائجَك

إلى الله. هذه هي الوسيلةُ عندَ المشركينَ قديمًا وحديثًا، كما يتخذُ النَّاسُ الوسائطَ عندَ الملوكِ وعندَ السلاطينِ، قاسوا اللهَ جلَّ وعلا بالخلقِ، فكما أنَّ النَّاسَ لا يتوصَّلونَ إلى الملوكِ والسلاطينِ إلَّا بوسائطَ من الوزراءِ والمقرّبينَ لدى الملوكِ ليبلّغوا حوائجَهم إلى الملوكِ والسلاطينِ، قاسوا اللهَ جلَّ وعلا على خلقِهِ، فقالوا: لا بدَّ أن نجعلَ بيننا وبينَ اللهِ واسطةً ترفعُ حوائجَنا إلى اللهِ عز وجل. وتقرّبوا إلى هؤلاءِ الوسائطِ بأنواعِ العباداتِ: فذبحوا لهم من دونِ اللهِ، ونذروا لهم مِنْ دونِ اللهِ، كالحاصلِ عندَ قبورِ الأولياءِ اليومَ، يذبحونَ للقبورِ، وينذرونَ لها، ويَطُوفونَ بها، ويتمرّغونَ على تُرابِها، ويتمسَّحونَ بجدرانِها وشبابيكها؛ مِنْ أجلِ أنَّ هؤلاءِ الموتى رجالٌ صالحون، يرفعونَ حوائجَ هؤلاءِ إلى اللهِ بزعمِهم.

هذه هي الوسيلةُ عندَ هؤلاءِ، الذينَ انتكَسَتْ أفهامهُم، وهذا تنقُّصٌ لله سبحانه وتعالى، وقَدْ ردَّ اللهُ عليهم بقولِهِ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزمر: ٣]، اتخذوا الوسائطَ من الأولياءِ بزعمِهم أنهم يقرّبونَهم إلى اللهِ زُلفى، أو يشفعونَ لهم عندَ اللهِ، فعبدوهم من دونِ اللهِ، فصرفوا العبادةَ للمخلوقينَ من أجلِ أنَّ المخلوقينَ يتوسطونَ عندَ اللهِ سبحانه وتعالى.

هذا شركُ الأولينَ وشركُ أهلِ هذا الزمانِ باتِّخاذِ الوسائطِ والشفعاءِ من الأمواتِ والغائبينَ بينَهم وبينَ اللهِ سبحانه وتعالى، وصرفوا لهم أنواعَ العباداتِ والقُرباتِ، بما زيّنَ لهم شياطينُ الإنسِ والجنِّ من هذهِ الأباطيلِ، هذه هي الوسيلةُ عندَ هؤلاءِ.

أما الوسيلةُ في القرآنِ والسنّةِ فمعناها: الطاعةُ والعبادةُ، وليْسَت اتخاذَ الأشخاصِ وسائطَ، وإنما هي الطاعةُ والعبادةُ لله عز وجل، واللهُ تعالى قريبٌ مجيبٌ، يعلمُ كلَّ شيءٍ، ليسَ بحاجةٍ بأَنْ تجعلَ بينَك وبينَهُ وسائطَ، بل ارفَعْ حوائِجَك إليه مباشرةً، وصلِّ له، وانحَرْ له، وانذِرْ له، واعبُدْهُ، وهو سبحانه وتعالى قريبٌ مجيبٌ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، ما الداعي إلى إنَّك تجعلُ بينَك وبينَ اللهِ وسائطَ وهو قريبٌ يسمعُكَ ويراكَ سبحانه وتعالى ويُجيب؟، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦]، بابُ اللهِ مفتوحٌ في الليلِ والنَّهارِ، وهو قريبٌ من عبادِهِ سبحانه وتعالى، لا يغيبُ، ولا يخفى عليه شيءٌ، ينزلُ كلَّ ليلةٍ إلى سماءِ الدُّنيا حينَ يبقى ثلثُ الليلِ الآخرِ، فيقولُ: «**هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ؟**»[1].

فاللهُ سبحانه وتعالى ليسَ بحاجةٍ إلى أنَّك تتخذُ بينَكَ وبينَهُ وسائطَ من الأَشْخاصِ؛ من الأنبياءِ والصالحينَ والملائكةِ، بل ادعُهُ مباشرةً، وتقرَّبْ إليهِ مباشرةً. وخواص عبادِهِ من الملائكةِ والأنبياءِ يبتغونَ إليهِ الوسيلةَ، ويرجونَ رحمتَهُ، ويخافونَ عذابَهُ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٧]، يخافُ منه أولياءُ اللهِ سبحانه وتعالى العارفونَ به.

فهذهِ الآيةُ فيها أنَّ من معنى لا إله إلَّا الله: أَنْ لا يُدعى إلَّا اللهُ، وأنَّها لا تُتَّخذُ الوسائطُ بينَ العبادِ وبينَ اللهِ من الخلقِ، فَمِن اتَّخذَ بينَه وبينَ اللهِ واسطةً فقد أخلَّ بمعنى: لا إله إلَّا الله.

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٣٣).

هذهِ الآيةُ الأولى في البابِ: تدلُّ على أنَّ مِنْ مَعْنى لا إله إلَّا الله أن يُصرَفَ الدعاءُ والتقرّبُ والعبادةُ لله سبحانه وتعالى، لا تُصرَفُ لأحدٍ من خلقِهِ بحجَّةِ أنه واسطةٌ بينَ العبدِ وبينَ ربِّه عز وجل، لأنَّ اللهَ ليسَ بينَه وبينَ عبادِهِ واسطةٌ مِنْ هذا النوعِ.

أما الواسطةُ في تبليغِ الوحيِ فإنَّ بينَ اللهِ وبينَ عبادِهِ واسطةٌ لتبليغِ الوحيِ والرسالاتِ.

أما الواسطةُ بينَ العبادِ وبينَ اللهِ في رفعِ حوائِجِهم؛ فهذهِ غيرُ موجودةٍ، ولهذا يقولُ شيخُ الإسلامِ ابنِ تيميةَ رحمه الله: (**هناك واسطةٌ من جَحَدَها فقد كفر، وهناك واسطةٌ من أقرَّ بها فقد كَفَر**).

فما هي هذه الواسطةُ التي مَنْ جَحَدها فقد كَفَر؟.

همُ الرسلُ -عليهم الصلاةُ والسلامُ-، فهم واسطةٌ بينَ اللهِ وبينَ عبادِه في تبليغِ الرسالاتِ والأوامرِ والنواهي، فَمَنْ جَحَدها فَقَدْ كفرَ، لأنهُ جحدَ رسالةَ الرُّسل.

وهناك واسطةٌ من أَقرَّ بها فقد كَفَرَ، وهي أَنْ يجعلَ إنسانٌ بينَهُ وبينَ اللهِ واسطةٌ في تبليغِ حوائجِهِ ورفعِ دعائِهِ، يتقرّبُ إلى هذهِ الواسطةِ بالعبادةِ، وهذهِ الواسطةُ -بزعمِهِ- تطلبُ له من اللهِ ما يحتاجُهُ.

***

وَقولُهُ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ الآية [سورة الزخرف: ٢٦-٢٧].

الآية الثانية: قوله سبحانه وتعالى «﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢٨﴾» إبراهيمُ هو الخليلُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ-، الذي تكرّرَ ذكرُهُ في القرآنِ الكريمِ، وأثنى اللهُ عليه، وأمرَ باتِّباعِهِ والاقتداءِ به، وهو أبو الأنبياء -عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ-، اتخذَهُ اللهُ خليلاً، وجعلَهُ إمامًا للنَّاسِ، أي: قُدوة يُقتدَى به، وجعل الأنبياءَ الذينَ جاءوا من بعدِهِ من ذُرِّيتِهِ: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، فكلُّ الأنبياءِ الذينَ جاؤوا بعدَ إبراهيمَ فهم من ذريةِ إبراهيمَ عليه السلام، فأنبياءُ بني إسرائيلَ من ذريةِ إسحاقَ، ومحمدٌ ﷺ مِنْ ذريةِ إسماعيلَ، فكلُّهم إذًا مِنْ ذريةِ إبراهيمَ -عليه الصلاةُ والسَّلامُ-، ولهذا سُمِّي «أبا الأنبياء».

«﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ﴾» أولُ ما بدأ بأبيهِ. «﴿وَقَوْمِهِۦٓ﴾» الذينَ بعثَهم اللهُ إليهم، وهم الأمةُ التي كانَتْ تعبدُ الكواكبَ، وهم الصابئةُ المشركونَ الذينَ كانوا يعبدونَ الكواكبَ، وكان ملكُهُم النُّمْرُودُ الذي قالَ اللهُ فيه:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، جادلَهُ وجحدَ أَنْ يكونَ هناكَ ربٌّ غيرُهُ ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ يعني: بسببِ أنَّ اللهَ أَعْطى النُّمْرُودَ الملكَ فتكبَّرَ وعَصَى، بدلَ أَنْ يشكرَ اللهَ عز وجل ما أعطاهُ، ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾[البقرة: ٢٥٨]، بمعنى أَنْ يقتلَ مَنْ شاءَ ويتركَ مَنْ شاءَ فأرادَ إبراهيمُ أَنْ يأتيَ بأمرٍ لا يُمَكِّنه أن يُغالطَ فيه: ﴿قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة:

٢٥٨]، فلم يُمَكِّنْه أن يُغالطَ في هذا الأمرِ، لأنهُ لا يمكنُهُ أن يغالطُ ويدَّعي أنه يأتي بالشمسِ من المغربِ، معاكسةً لتدبيرِ اللهِ سبحانه وتعالى، ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وقوله: «﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾» براءٌ وبريءٌ بمعنىً واحدٍ، معناه: قطعُ الصِّلةِ والبعدِ عن المتَبَرَّأ منه، بخلافِ الموالاةِ، فإنَّ معناها: القُرْب والاتِّصال بالمُوَالى، أما البراءةُ فمعناها: البُعْدُ والانقطاعُ، يُقالُ: برأَ القلمُ إذا قطَعَهُ.

«﴿مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾» يعني مما تعبدونَ مِنَ الأصنامِ والكواكبِ وغيرِهما، وهذا تحدٍّ لهم، تحدَّى آلهتَهم وتبرّأ منها، ولو كانَتْ قادرةً لانتقَمَتْ منه، لأنه يتبرّأُ منها على رؤوس الأشهادِ، ويكفرُ بها، ومع ذلكَ لا تمسُّهُ بسوءٍ؟، هذا دليلٌ على بُطلانِها.

«﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾» يعني: الله سبحانه وتعالى، و«﴿فَطَرَنِى﴾» يعني: خلَقَني، فالفَطْرُ معناه: ابتداءُ الخلقِ من غيرِ مثالٍ سابقٍ، فلم يتبرَّأْ منهُ لأنه ربُّهُ وحدَهُ لا شريكَ له.

«﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾» وهذا معنى: «لا إله إلَّا الله»، لأنَّ قولَه: «﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ﴾» معناه: النفي؛ لا إله، «﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾» معناه، الإثباتُ؛ إلَّا الله. فهذهِ الآيةُ فيها معنى لا إله إلَّا الله، إذًا فهي تُفَسِّر «لا إله إلَّا الله» بأنَّ معناها تركُ عبادةِ الأصنامِ، والبراءةُ منها، وإخلاصُ العبادةِ لله سبحانه وتعالى.

أما الذي يعبدُ اللهَ ويعبدُ معه غيرَهُ، فهذا لم يُحقِّقْ «لا إله إلَّا الله»، وإنْ كانَ يتلفظُ بها بلسانِه، فالذي يقولُ: «لا إله إلَّا الله» ثم يذهبُ إلى القبورِ، ويطلبُ منها الحوائجَ، ويتمسحُ بها، ويستغيثُ، بها يطلبُ المدَد منها، ويَطوفُ بها. فهذا لم يتبرّأْ من الشركِ، فلا تنفعُهُ «لا إله إلَّا الله» ولو قالَها عددَ الأنفاسِ، لأنَّ «لا إله إلَّا

الله» ليستْ مجردَ لفظٍ يُقالُ باللسانِ، وإنَّما لها مُقْتضى ومدلولٌ ومعنى لا بدَّ أن يُحَقَّقَ، وهو عبادةُ اللهِ والبراءةُ من الشركِ والمشركينَ. فالذي لا يتبرَأُ من الشركِ فإنه لم يحقِّقْ «لا إله إلَّا الله»، وإن تلفظَ بها، وجعلَ له منها أورادًا صباحيةً ومسائيةً، ومعه سبْحَةٌ طولُ الباعِ يسبِّحُ بها، ومعه أورادٌ يردّدُها وفيها «لا إله إلَّا الله» آلافُ المرّاتِ، لا تنفعُهُ أبدًا حتى يفعلَ ما فعلَ إبراهيمُ -عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ-، فيَتَبرَّأ من الشركِ.

«﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً﴾» جعلَ (لا إله إلَّا الله) كلمةً باقيةً في عَقِبه، في ذريةِ إبراهيمَ -عليه الصلاةُ والسلامُ-، فلا يزالُ فيها من يقولُ هذهِ الكلمةَ ويعملُ بها إلى أن بُعِثَ محمَّدٌ ﷺ بها، ودعا إليها. بقيت في عَقِبه، وإنْ خالَفَها الأكثرُ، إلَّا أنه يوجدُ في ذريةِ إبراهيمَ عليه السلام من التزمَ بها ولو كانوا قليلينَ، إلى أن بُعِثَ محمَّدٌ ﷺ، فلم تَخلُ الأرضُ من التوحيدِ ولله الحمدُ، ولا تخلوا إلَّا عندَ قيامِ الساعةِ، وإذا خلَتِ الأرضُ من التّوحيدِ قامتِ القيامةُ، كما في الحديثِ: «لا تقوم الساعة وفي الأرض مَنْ يقولُ: الله الله»[1]، لأنَّ الأرضَ لا تبقى إلَّا مع التّوحيدِ، لأنَّ (لا إله إلَّا الله) كلمةٌ قامَتْ بها السماواتُ والأرضُ، ونُصِبت من أجلِها الموازينُ، وأُسِّست المِلّةُ، وفُرِضَ الجهادُ، من أجلِ (لا إله إلَّا الله)، فهذه الكلمةُ لا تزالُ، لكنْ أحياناً يكثرُ أنصارُها والقائمونَ بها، وأحياناً يقلُّون، إلَّا أنَّهم لا ينعدمونَ إلَّا عندَ قيامِ الساعةِ، حتى ولو كثُرَ الشركُ، فإنه يكونُ في الأرضِ مَنْ يعبدُ اللهَ وحدَه لا شريكَ له إلى قربِ قيامِ الساعةِ.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: يرجعون إليها، ويُحقِّقونها، وهذا حاصلٌ والحمدُ لله، فإنه وإن حصَلَ الشركُ وكثُرَ، فإنَّ من ذريةِ إبراهيمَ عليه السلام مَنْ يرجعُ إلى

(١) أخرجه مسلم (١٤٨).

وَقولُهُ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الآية [سورة التوبة: ٣١].

التَّوحيدِ الصحيحِ ويدعو إليهِ ويُجدّدهُ للناسِ، فهذا من رحمةِ اللهِ سبحانه وتعالى.

فهذه الآيةُ -كما ذكرنا- دلّتْ على أنَّ معنى التّوحيد، وشهادةَ (أن لا إله إلّا الله): البراءةُ من الشركِ، وإفرادُ الله تعالى بالعبادةِ، فهي تفسِّر (لا إله إلّا الله).

* * *

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ تتمة الآية: ﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾

﴿أَحْبَارَهُمْ﴾ الأحبارُ: جمعُ حَبْر، أو حِبر، وهو العالمُ. والرهبانُ: جمعُ راهبٍ، وهو العابدُ.

والأحبارُ والرهبانُ موجودونَ في اليهودِ والنَّصارى، فاليهودُ والنَّصارى اتخذوا أحبارَهم ورهبانَهم أرباباً من دونِ اللهِ، بأيِّ شيءٍ اتخذوهم أرباباً مِنْ دونِ اللهِ، فسرّ ذلكَ النبيُّ ﷺ لَعَدِّي بنِ حاتمِ الطائيِّ؛ لما جاءَ إلى النبيِّ ﷺ وقرأ عليهِ الرّسولُ ﷺ: «﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾»، واستَشْكَلها عديٌّ، لأنهُ كانَ نصرانياً، فقالَ: يا رسولَ اللهِ لسنا نعبُدُهم، فقالَ النبيُّ ﷺ: «**أليسوا يحرّمون ما أحلَّ اللهُ، فتحرمونَهُ**»، قالَ: بلى، قالَ: «**أليسوا يحلُّون ما حرَّمَ اللهُ، فتحلُّونه؟**»، قال: بلى، قالَ: «**فتلك عبادتهم**»[1].

فمعنى: «﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾» أنّهم أَطاعوهم في تحليلِ الحرامِ وتحريمِ الحلالِ؛ فدلّ هذا على أنَّ من أطاعَ مخلوقاً

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٩٥) والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ١١٦).

في تحليلِ ما حرّمَ اللهُ أو تحريمِ ما أحلَّ اللهُ، فقد اتخذَهُ ربّاً يعبُدُه من دونِ اللهِ، وهذا ما يسميهِ العلماءُ بشركِ الطاعةِ.

والشاهدُ من الآيةِ للبابِ: أنها دلّتْ على أنَّ من معنى (لا إله إلَّا الله): أَنْ لا يُطاعَ إلَّا اللهُ سبحانه وتعالى، وأَنَّ مَنْ أطاعَ أحداً في تحليلِ ما حرَّمَ اللهُ أو تحريمِ ما أحلَّ اللهُ فقد اتَّخَذَهُ ربّاً من دونِ اللهِ.

لكنْ إذا كانَ يعتقدُ أنَّ تحليلَ الحرامِ وتحريمَ الحلالِ أمرٌ جائزٌ، فهذا شِرْكٌ أكبرُ يخرجُهُ من الملّةِ، أما إذا لم يعتقِدْ جوازَ هذا، بَلْ يعتقدُ أنَّ التحليلَ والتحريمَ حقٌّ لله سبحانه وتعالى، ولكنه فعلَهُ من بابِ الهوى، أو مِنْ بابِ تحصيلِ بعضِ المصالحِ، فهذه معصيةٌ عظيمةٌ، لكنَّها لا تصِلُ إلى حَدِّ الشركِ الأكبرِ فطاعةُ المخلوقينَ في تحليلِ الحرامِ وتحريمِ الحلالِ، لا تجوزُ أبداً، لكنَّ فيها تفصيلٌ من حيثُ الكفرِ والشِّركِ وعدمِ ذلك.

والحاصلُ مِنْ هذا كلِّه: أنَّ الآيَةَ الكريمةَ دلّتْ على أنَّ مِنْ تفسيرِ التّوحيدِ وشهادةِ (أنْ لا إله إلَّا الله) أنْ لا يُطاعَ إلَّا اللهُ سبحانه وتعالى في الحلالِ والحرامِ، وأنَّ مَنْ أطاعَ مخلوقاً في التحليلِ والتحريمِ فقد اتَّخَذَهُ ربّاً من دونِ اللهِ عز وجل.

ويشهدُ لهذهِ آياتٌ أُخرُ كما ذكرَ اللهُ في سورةِ الأنعامِ لما ذكرَ أنَّ المشركينَ يستبيحونَ الميتةَ، مع أنَّ اللهَ حرَّمها ونهى عبادَه عنها، وأخبرَ أنَّ المشركينَ سيجادلونَ المؤمنينَ في ذلكَ، ثمَّ قالَ: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: ١٢١] إن أَطَعْتُم المشركينَ في استباحةِ الميتةِ ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾.

ويقولُ اللهُ تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١] ﴿شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ [الشورى: ٢١] يعني: من الحلالِ والحرامِ والعبادةِ ما لم يَأْذنْ بِهِ اللهُ، فالتشريعُ حقٌّ للهِ سبحانه وتعالى، لا

وَقَولُهُ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [سورة البقرة: ١٦٥].

يجوزُ أن يُطاعَ فيه أحدٌ من المخلوقينَ غيرَ الرُّسُلِ، فمن أطاعَ أحداً من المخلوقينَ في التشريعِ؛ فإنه قد اتخذَهُ شريكاً للهِ عزَّ وجلَّ، وهذا من معنى (لا إله إلَّا الله) وهو إفرادُ اللهِ تعالى بالطاعةِ في تحريمِ ما حرَّمهُ وتحليلِ ما أحلَّهُ.

* * *

الآية الرابعة: «﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾» تتمة الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾.

«﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾» بعضُ الناسِ يعني: المشركين.

«﴿مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾» يعني: غَيْرَ اللهِ.

«﴿ أَندَادًا ﴾» جمعُ نِدٍّ، والنِّدُّ معناه: الشبيهُ والنَّظير والمثيلُ، يُقالُ: فلانٌ نِدُّ فلانٍ، بمعنى: أنه يُشْبِهُه، وأنه نظيرُه، وأنه يساويه.

فاتِّخاذُ الأندادِ مِنْ دونِ اللهِ معناه اتخاذُ الشركاءِ، سُمُّوا أنداداً لأنَّ المشركينَ سوّوهم باللهِ عز وجل، وشبّهوهُم باللهِ عز وجل وأحبُّوهُم محبةَ عبادةٍ وتذلُّلٍ.

«﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾» الحبُ عملٌ قلبيٌّ ضدَّ البُغضِ.

فالمشركونَ اتخذوا من الأحجارِ والأشجارِ والأصنامِ شركاءَ للهِ سوّوهُم باللهِ في المحبةِ، يحبونَهُم كما يحبونَ اللهَ عز وجل، فالمرادُ هنا محبةُ العبادةِ، فالمشركون يحبونَ أصنامَهم كما يحبونَ اللهَ عز وجل محبةَ عبادةٍ وتذلُّلٍ.

«﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾» من المشركينَ للهِ، فالمشركونَ يحبونَ اللهَ، والمؤمنون يحبونَ اللهَ، ولكنَّ المشركينَ يحبونَ اللهَ ويحبونَ معَهُ غيرَهُ، أما

وَفِي «الصَّحِيحِ»[(١)] عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ الله؛ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى الله عَزَّ وَجَلَّ».

المؤمنونَ فيحبونَ اللهَ وحدَه، ولا يُشْركونَ معهُ غيرَهُ في المحبةِ، فلذلكَ صارَ المؤمنونَ أشدَّ حبّاً للهِ، لأنَّ محبتَهم خالصةٌ، ومحبةُ المشركينَ مشتركةٌ، فدلّت الآيةُ على أنَّ المشركينَ يحبونَ اللهَ، ولكنهم لمّا أحبوا معَهُ غيرَهُ صاروا مشركينَ، وأنَّ التوحيدَ لا يصحُّ إلَّا بإخلاصِ المحبةِ للهِ عز وجل.

فدلّتِ الآيةُ الكريمةُ على: أنَّ من تفسيرِ (لا إله إلَّا الله) وتفسيرِ التّوحيدِ إفرادَ اللهِ بالمحبّةِ، وأَنْ لا يُحَبَّ معَهُ غيرُهُ محبةَ عبادةٍ بل يُفرَدُ اللهُ جلَّ وعلا بالمحبّةِ، ولا يُحَبُّ معه غيرُهُ، محبةَ العبادةِ.

***

قال الشيخُ رحمه الله: «**وفي الصحيح**» يعني: صحيح الإمامِ مُسْلم.

«**عن النبي ﷺ قال: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ؛ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ**» علّقَ حُرمةَ المالِ والدمِ على شيئينِ:

الشيء الأول: أَنْ ينطقَ بكلمةِ (لا إله إلَّا الله).

الشيء الثاني: أن يكفرَ بما يُعبدُ مِنْ دونِ اللهِ، فإذا تحقَّقَ هذانِ الشيئانِ حرُم مالَهُ ودمُهُ، لأنه صارَ مسلماً، والمُسْلمُ يحرُم دمهُ ومالُه.

«**وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ**» فإنْ كانَ صادقاً في قولِ هذهِ الكلمةِ فإنه يكونُ مسلماً حقّاً، باطناً وظاهراً ويدخلُ الجنّةَ، وإنْ كانَ قالَها ظاهراً فقطْ فهذا هو النِّفاقُ، وذلكَ يحقنُ دمَهُ ويحرِّمُ مالَه، ولكنّه في الآخرةِ يكونُ في النّارِ ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣).

فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

فمَنْ قالَ (لا إله إلَّا الله) كَفَفْنا عنه وَحقنَّا دمَهُ وحرَّمْنا مالَه، أما دخولُهُ الجنَّةَ، وكونُهُ مؤمناً حقّاً، فهذا عندَ اللهِ سبحانه وتعالى، هو الذي يعلمُ ما في القلوبِ، ويُجازِي عليها، وحسابُهُ على اللهِ عز وجل. وإن ظهرَ منه ما يناقضُ هذه الكلمةَ حُكِمَ عليه بالردةِ.

الحاصلُ؛ أنَّ هذا الحديثَ بيّنَ معنى التّوحيدِ، ومعنى (لا إله إلَّا الله)، وأنهُ النطقُ بالشهادةِ معَ الكفرِ بما يُعبدُ مِنْ دونِ اللهِ عز وجل والبَراءةِ منهُ، أما لو قالَ (لا إله إلَّا الله) وهو لا يكفرُ بما يُعبَد مِنْ دونِ اللهِ بأَنْ كانَ يَعْبد القبورَ، ويدعو الأولياءَ والأضرحةَ، فهذا لم يكفرْ بما يُعبَد مِنْ دونِ اللهِ، فلا يحرُم دمُه ولا يحرمُ مالُه، لأنه لم يأتِ بالأمرينِ، وإنما أتى بأمرٍ واحدٍ، وهو قول: (لا إلا إلَّا الله)، ولكنْ لم يكفرْ بما يُعبد مِنْ دونِ اللهِ، لأنه يقولُ إنَّ عبادةَ القبورِ ليسَتْ بشركٍ، فهو لم يكفُرْ بما يُعبَد من دونِ اللهِ، فمعناه أنه لا يُحْقَن دمُهُ، ولا يَحْرُم مالُه، لأنه ما دامَ أنه لم يكفُرْ بما يُعبدُ مِنْ دونِ اللهِ، فإنه لم يُحصِّلِ المقصودَ.

فهذا الحديثُ عظيمٌ جدّاً، وهو حجةٌ للموحّدينَ على أصحابِ الشُّبَهِ والمشركينَ، الذينَ يقولونَ: من قالَ (لا إله إلَّا الله) فهو المسلمُ ظاهراً وباطناً ولو فعلَ ما فعلَ، يعبدُ القبورَ، ويذبحُ للأولياءِ والصالحينَ، ويعملُ السِّحْرَ والشعوذةَ، ويعملُ كلَّ شيءٍ، هو مسلمٌ حقاً ما دامَ يقولُ: (لا إله إلَّا الله). ولهذا يقولُ الشيخُ رحمه الله: «**لم يجعلِ النطقَ بلا إله إلَّا الله، بَلْ ولا كونه لا يدعو إلَّا الله، بل ولا معرفة معنى هذه الكلمة، لم يجعل كلَّ هذه الأمورِ عاصمةً للدمِ والمالِ حتى يضيفَ إليها الكفرَ بما يُعبد من دون الله**»، فالذي يقولُ أنا ما أُكفِّرُ هؤلاءِ، أنا ما أكفِّر مَنْ يعبدونَ الحسنَ والحسينِ والبدوي، لا أُكفِّرُهم لأنهم يقولونَ: (لا إله إلَّا

وشرحُ هذِهِ التَّرجمةِ ما بعدَها مِنَ الأبوابِ.

الله)؛ هم إخوانُنا، لكِنْ أخطئوا نقولُ له: أنت مشركٌ مثلُهم، لأنَّكَ لم تكفُرْ بما يُعبدُ مِنْ دونِ اللهِ، واللهُ تعالى قدَّمَ الكفرَ بالطاغوتِ على الإيمانِ باللهِ، قالَ تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦] فلا بُدَّ من الكفرِ بالطاغوتِ، ولا بُدَّ من الكفرِ بما يُعبَدُ مِنْ دونِ اللهِ عز وجل، واعتقادِ بُطلانِهِ، والبراءةِ منه ومِنْ أهلِهِ، وإلَّا فلا يصيرُ الإنسانُ مُسْلماً، لأنَّ هذا تلفيقٌ بينَ الإسلامِ والكفرِ، ولا يجتمعَ الكفرُ والإسلامُ أبداً.

فهذا الحديثُ على اختصارِهِ منهجٌ عظيمٌ، يبيّنُ معنى شهادةِ (أن لا إله إلَّا الله)، وأنَّها ليسَتْ مجردَ لفظٍ يُقالُ باللسانِ ويردّدُ في الأذكارِ والأَوْرادِ، وإنَّما هي حقيقةٌ تَقْتَضي منكَ أَنْ تكفُرَ بما يُعبدُ مِنْ دونِ اللهِ، وأن تتبرّأَ من المشركينَ، ولو كانَ أقربَ الناسِ إليك، كما تبرّأَ الخليلُ -عليه الصلاةُ والسلامُ- من أبيهِ وأقربِ النَّاسِ إليه.

***

ثمَّ قالَ رحمه الله: «**وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب**» أي: أنَّ الأبوابَ الآتيةَ إلى آخرِ كتابِ التّوحيدِ، كلُّها تفسيرٌ لهذِهِ الكلمةِ، مثلَ بابِ: (النهي عن لبس الحَلْقَةِ والخيطِ، والتبرك بالأشجارِ والأحجارِ، وباب (السِّحر)، وباب (التَّنْجيم)، وباب (ما جاء في الطِّيَرة)، وباب (الرُّقى والتمائم)، إلى آخرِ ما في هذا الكتابِ من الأبوابِ، كلُّه يفسِّرُ التّوحيدَ ويفسِّرُ معنى: (لا إله إلَّا الله).

***

الباب السابع:

بَاب مِنَ الشركِ: لُبسُ الحَلْقَةِ والخَيْطِ ونحوِهما لرفعِ البلاءِ أو دَفعِهِ

مناسبةُ هذا الباب لما قبلَهُ من الأبوابِ: أنَّ الشيخَ رحمه الله لما ذكَرَ في البابِ الذي قَبْلَه بيانُ معنى شهادةِ (أن لا إله إلا الله)، وتفسيرُ التّوحيد، وأنَّ ذلك هو عبادةُ اللهِ وحدَه لا شريكَ له، وتركَ عبادةِ ما سواه؛ ناسبَ أن يذكرَ في هذا البابِ وما بعدَهُ أشياءَ من الشِّرْكِ الأكبرِ أَوِ الأَصْغر، الذي هو ضدُّ التّوحيدِ، وضدُّ شهادةِ (أن لا إله إلا الله) و منقص لهما.

وقوله رحمه الله تعالى: «**باب من الشرك**» أي: من أنواعِ الشركِ، «**لبس الحلقة والخيط ونحوهما**» مما يعلَّقُ على البدنِ أو على الدَّابةِ، أو على السَّيارةِ أو على الأبوابِ من الأشياءِ التي يعتقدونَ فيها أنها تدفعُ عينَ الحاسدِ، وأنها تحرسُ البدنَ، أو تحرسُ الدَّابة، أو تَحْرس السَّيارةَ أو تحرسُ البيتَ أو المَتْجرَ من الشُّرورِ والمحاذيرِ، وهذه عادةٌ جاهليةٌ لا تزالُ في بعضِ النَّاسِ إلى اليومِ، بل تتزايدُ بسببِ الجهلِ، فإنهم يعلّقونَ هذهِ الأشياءَ على أجسامِهم، وعلى أجسامِ الأطفالِ، وعلى السياراتِ، والدكاكينِ، والبيوتِ، قَصْدُهُم من ذلكَ أنَّ هذهِ الأشياءَ تدفعُ عنهم الشرورَ والمحاذيرَ، وهذا من الشركِ لأنه تعلُّقٌ على غيرِ اللهِ سبحانه وتعالى، لأنَّ اللهَ جلَّ وعلا وهو الذي يدفَعُ الشرَّ، وهو الذي إذا أرادَ بعبدِهِ شيئاً فلا أحدَ يُنْزِلُه ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ [فاطر: ٢]، الأمرُ كلُّه بيدِ اللهِ -جلَّ وَعَلا-، فيجِبُ أَنْ تتعلقَ القلوبُ باللهِ عز وجل، وأن تُخلصَ العبادةُ لله عزَّ وجلَّ، وأَنْ لا يُخافَ إلَّا مِنَ اللهِ عز وجل، فَمَنْ تعلَّقَ قلبُهُ باللهِ ووحَّدَ اللهَ، فإنه لا يَضُرُّهُ شيءٌ إلَّا بإذنِ اللهِ

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ الآية [سورة الزُّمر: ٣٨].

سبحانه وتعالى، أمَّا مَنْ تعلّقَ على غيرِ اللهِ، فإنَّ اللهَ يَكِلُه إلى ما تعلَّقَ عليه، ويبتليهِ -كما يأتي-.

***

قال: «وقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾، تتمة الآية: ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر: ٣٨]».

هذه الآيةُ من سورةِ الزُّمَرِ، السورةُ العظيمةُ التي قرّرَ اللهُ فيها التّوحيدَ، وأبطلَ فيها أنواعَ الشِّركِ، فالسورةُ من أوَّلها إلى آخرِها تعالجُ قضيةَ العقيدةِ، وتعالجُ قضيةَ أنواعِ الشركِ التي كانَ المشركونَ يزاولونَها، فأبطلَتْها هذهِ السورةُ ونَقَضَتْها، ومن ذلكَ هذهِ الآيةُ الكريمةُ.

«﴿قُلْ﴾» يا محمدُ، الخطابُ للنبيِّ ﷺ، أي قُلْ لهؤلاءِ المشركينَ: «﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾» من الأصنامِ والأَحْجارِ والأَشْجارِ والقبورِ والأَضْرحةِ والأولياءِ والصالحينَ، وكُلُّ ما يُعبدُ مِنْ دونِ اللهِ. فالسؤالُ موجّهٌ إلى كلِّ مشركٍ على وجهِ الأرضِ إلى أَنْ تقومَ السَّاعةُ، هل يستطيعُ الإجابةُ عنه؟، لا.

«﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم﴾» أي: أخبروني «﴿مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾» «﴿مَّا﴾» عامَّة لكل ما يُدعَى مِنْ دونِ اللهِ، لا يُستثنى منها شيءٌ سواءٌ كان من البشرِ أو مِنَ الجمادِ أو غيرِ ذلك.

«﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾» يعني: بضررٍ، أو بفقرٍ، أو بموتٍ، أو أرادني بضياعِ مالٍ، أو إصابةٍ في قريبٍ، أو غيرِ ذلك مما يضرّني في بدني أو في مالي أو في

أهلي.

«﴿هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِۦٓ﴾» هَلْ هذهِ المعبوداتُ التي تعبدونَها تستطيعُ أن تكشِفَ الضرَّ عمّن دعاها؟، وهذا مثلُ ما سبَقَ في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ [الإسراء: ٥٦]، «﴿هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِۦٓ﴾»؟، سؤالُ استنكارٍ ونَفْيٍ، أي: لا تكشِفُ الضرَّ عَمَّن دعاها. ولذلك المشركونَ يَمرضونَ، ويُقتلون، ويُصابون، وتَذْهَبُ أموالُهم، ولا تستطيعُ معبوداتُهم أن تدفعَ عنهم شيئاً نزلَ مِنَ الله سبحانه وتعالى.

«﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ﴾» من صحةٍ وغنىً وغيرِ ذلك من أنواعِ الرحمةِ، هل أحدٌ من الخلقِ يستطيعُ أَنْ يمنعَ نزولَ الرحمةِ على أحدٍ من عبادِ اللهِ؟، فظَهَرَ بذلك عجزُ آلهةِ المشركين.

والنبيُّ ﷺ قالَ لهم هذا وتلا عليهم القرآنَ، وسألَهم هذا السُّؤال، وأَعْلَنه على رؤوسِ الأشهادِ، ولم يُجيبوهُ، ولَنْ يجيبوهُ إلى أن تقومَ السَّاعةُ.

هذهِ من جملةِ الأسئلةِ التي وجَّهها اللهُ في القرآنِ إلى المشركينَ ولم يجيبوا عنها. فدلَّ على بطلانِ الشِّركِ.

«﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾» أي: هو كافيني، لأنَّ الحَسْب معناه: الكافي، فهذا فيهِ تفويضُ الأمورِ إلى اللهِ سبحانه وتعالى، وتعليقُ القلوبِ باللهِ سبحانه وتعالى دونَ ما سواهُ، لما أبطلَ الشركَ في أولِ الآيةِ قرَّرَ التّوحيدَ بقوله: «﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾» أي: هو كافيني ولن يستطيعَ أحدٌ أَنْ يَضُرَّني مِنْ دونِ اللهِ أو ينفعني مِنْ دونِ اللهِ، ولهذا يقولُ هودٌ -عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ- لقومِهِ: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ [هود: ٥٤-٥٥] ثم قال: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ

﴿صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦﴾ [هود: ٥٦].

«﴿عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾» ولا يتوكلونَ على الحلْقةِ والخيطِ والصَّنمِ والقبرِ والولي أو غيرِ ذلكَ، بل الذي يُتوكَّلُ عليهِ هو اللهُ سبحانه وتعالى، لأنهُ بيدهِ مقاديرُ الأشياءِ.

وفي الحديثِ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ لعبدِاللهِ بنِ عباسٍ: **«وَاعْلَمْ أَنَّ الخَلْقَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»**(١).

فالأمورُ كلُّها مَرْجِعُها إلى اللهِ سبحانه وتعالى، فهو الذي يستحقُّ أن يُعبدَ، وأن يُتوكَّلَ عليه، وأن يُدعى، ويُرجى، ويُخاف سبحانه وتعالى، وما عداه فإنه خلقٌ من خلقِ الله، مُسخَّر بيدِ الله سبحانه وتعالى، إنْ شاءَ سلّطَهُ عليكَ وإنْ شاء منعَهُ عنك، ما في الأرضِ من الأشرارِ من بني آدمَ ومن الشياطينِ ومن الجنِّ ومن الإنسِ ومن الحيّاتِ والسِّباعِ ومن سائرِ الأشياءِ الضَّارة، كلُّها بيدِ اللهِ سبحانه وتعالى؛ إنْ شاء سلّطَها عليك وإن شاء أمسكَها عنك، فلا تخَفْ مِنْ غيرِ اللهِ عز وجل، وكذلكَ الخيرُ بيدِ اللهِ سبحانه وتعالى: ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦﴾ [آل عمران: ٢٦]، بيدهِ الخيرُ فلا يملكُ أحدٌ من الخلقِ أن يُعطيَك شيئاً من الخيرِ إلَّا إذا أرادَهُ اللهُ سبحانه وتعالى لك، ويكونُ هذا الشيءُ سبباً فقط أجرى اللهُ على يدِه الخيرَ لك، أو سبباً أَجْرى اللهُ على يدهِ الضَّررَ عليك فهي، مجرّدُ أسبابٍ، وإلَّا فما من شكَّ أن النارَ تَحْرِق، وأن السَّبُع يَفْتَرس، وأنَّ العدوَّ يَفْتِك بعدوِّه، ولا شكَّ أنَّ اللهَ خلقَ أشياءَ فيها ضررٌ، ولكنَّ هذهِ الأشياءَ جنودٌ من

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦) وأحمد في «مسنده» (١/ ٢٩٣).

عَن عِمرَانَ بنِ حُصَينٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى رَجُلاً فِي يَدِهِ حَلْقَةٌ مِنْ صُفرٍ، فَقَالَ: «مَا هَذا؟».

جنودِ اللهِ سبحانه وتعالى، نواصيها بيدِ اللهِ: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾ [هود: ٥٦]، فإذا أرادَ اللهُ سلّطَ عليك هذهِ الجنود، وإذا أرادَ اللهُ حبسَ عنك هذه الجنودَ، إذاً فلا تُعلّقْ قلبَك إلَّا باللهِ عز وجل، ولا تتوكّلْ إلَّا عليهِ، ولا تُفوِّض أمورَك إلَّا عليه سبحانه وتعالى، ولا يمنعُ هذا من أن تتَّخذَ الأسبابَ -الجالبةَ للخيرِ والأسبابَ الواقيةَ من الشرِّ، ولكنَّ الاعتمادَ على الله سبحانه وتعالى.

* * *

قوله: «**عمران بن حُصين**» بن عُبيد الخزاعي، هو وأبوه صحابيّانِ رضي الله عنهما، ومن أفاضلِ الصَّحابةِ.

«**أن النبي ﷺ رأى رجلاً**» الرجلُ مُبْهَمٌ، ولكِنْ جاءتِ الرّواياتُ أنه هو نفسُ عمرانَ بنِ حُصينٍ، دخلَ على النبيِّ ﷺ.

«**وفي يده حلقة**» الحلْقة هي: الشيءُ المستديرُ الذي يُدارُ على العضدِ، أو على الذِّراعِ، أو على الأصبعِ. فالشيءُ المستديرُ يسمَّى حلْقةً، ومنه تحلّق القوم إذا استداروا في الجلوس.

«**من صُفر**» الصُّفر نوعٌ من المعدنِ معروفٌ.

«**فقال النبي ﷺ: «ما هذا؟»**» الظاهرُ أنه سؤالُ إنكارٍ، وقيلَ: إنه سؤالُ استفهامٍ، فالنبيُّ ﷺ سألَه عن قصدِهِ في هذه الحلقةِ.

ففيه دليلٌ على وجوبِ إنكارِ المنكرِ، وفيه دليلٌ على أنَّ الإنسانَ لا يُنْكرُ شيئاً حتى يعرفَ مقصودَ صاحبِهِ إذا كانَ الشيءُ محتمِلاً، فإن كانَ مقصودُ صاحبِهِ شرّاً فإنه يُنْكرُهُ.

قَالَ: مِنَ الوَاهِنَةِ. فَقَالَ: «انْزِعْهَا؛ فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا، فَإِنَّكَ لَو مُتَّ وَهِيَ عَلَيكَ مَا أَفلَحتَ أَبَداً». رَوَاهُ أَحمَدُ[1] بِسَنَدٍ لَا بَأسَ بِهِ.

«**قال: من الواهنة**» يعني: لبسْتُها من أجلِ دفعِ الواهنةِ، لتقيني منها، والواهنةُ مرضٌ يصيبُ اليد، يُسَمَّى عندَ العربِ بالواهنةِ، وكان من عادتِهم لبسُ الحلْقةِ من أجلِ توقِّي هذا الوجعَ، يزعمونَ أنَّ هذهِ الحلْقةَ تدفعُ هذا الوجعَ.

«**فقال النبي ﷺ**: «**انزعها**» النَّزع معناه: الرفعُ بشدّة، أي: ارفعها مسرعاً بنزعها ونشيطاً في رفعِها لا تتوانى، في تركِها على جسمِك، لأنها مظهرُ شركٍ - والعياذُ باللهِ-.

ففيه المبادرةُ بإزالةِ مظاهرِ الشِّركِ، وأنَّ الإنسانَ لا يتوانى في تركِهِ.

ثم علّلَ ﷺ ما في بقائِها عليه من الضررِ، قال: «**فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا**» إلَّا ضعفاً، فالوهنُ معناها: الضعفُ والمرضُ.

فهذا فيه دليلٌ على أَنَّ لبْسَ هذه الأشياءِ من الحلْقةِ ونحوِها بقصدِ دفعِ الضَّررِ أنه يسبِّبُ عكسَ المقصودِ، فإنه لبِسَها من أجلِ توقِّي المَرض، والنبيُّ ﷺ أخبرَ أنها تجلبُ المرضَ، وذلك ظاهرٌ في الذينَ يتعاطَوْنَ هذه الأشياءَ؛ تجدُهُم دائماً في قَلَقٍ وفي خوفٍ، لكنَّ الذي يتوكّلُ على اللهِ لا يهمُّهُ شيءٌ فتجدَهُ نشيطاً، قويَّ العزيمة، مرتاحَ الضميرِ، منشرحَ الصَّدْرِ، وتجد الذي يخافُ من غيرِ اللهِ ويستعملُ هذهِ الرباطاتِ ضعيفَ الجسمِ، مُنْهكَ القُوى، مهموماً حزيناً، يتخوّفُ من كلِّ شيءٍ.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٤٥)، وابن حبان (٦٠٦٥)، وابن ماجه (٣٠٣١)، ورواية الأخير مختصرة.

وأخرجه عبدالرزاق (٢٠٣٤٤) وابن أبي شيبة (٨/ ١٤) من طريق الحسن عن عمران موقوفاً!

«**فَإِنَّكَ لَوْ مِتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ مَا أَفْلَحْتَ أَبَدًا**» أي: لو ماتَ ولم يتُبْ منها ما أفلحَ أبداً.

فهذا فيه دليلٌ على أنَّ الشركَ لا يُغفَرُ حتَّى ولو كانَ شركاً أصغرَ، يُعذّبُ به، وإن كانَ لا يعذَّبُ تعذيبَ المشركِ الشِّرْكَ الأكبرَ؛ فلا يخلّدُ في النَّارِ، لكِنْ يعذّبُ بها بقدرِهِ.

قال الشيخُ رحمه الله في مسائلِهِ: «**فيه شاهد لكلام الصحابة: أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر**»، فالشركُ الأصغرُ أكبرُ من الكبائرِ، لأنَّ المعاصي وإِنْ كانتْ كبائرَ إذا لم تكن شركاً، فلا تُخِلُّ بالعقيدةِ وما الشِّركُ الأصغرُ فإنه يُخلُّ بالعقيدةِ، وأيضاً لا يُغفَر على الصحيح، والمعاصي الكبائر التي دونَه مظِنَّةُ المَغْفرةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

والشاهد من هذا الحديث ظاهر: لأنَّ النبيَّ ﷺ استنكرَ لبسَ الحلْقةِ التي يُقصدُ منها دفعُ الضررِ، وأخبرَ أنها لا تزيدُ صاحبَها إلَّا مرضاً، وأنه لو ماتَ وهي عليه ما أفلحَ أبداً، وهذا فيه دليلٌ على منعِ لبسِ الحلْقةِ ونحوِها من أجلِ دفعِ الضررِ، أو من أجلِ دفعِ العينِ، أو غيرِ ذلك من المقاصدِ السيّئةِ.

ومثلُهُ: ربطُ الخيطِ على الساقِ، فبعضُ الناسِ يربطونَ خيوطاً على سيقانِهم، أو على أذرُعِهم، أو على أصابعِهم، ويقولونَ: إن هذا يمنعُ من المرض، وهذا هو نفسُهُ فعلُ الجاهليةِ، وهو مثلُ الذي استنكَرَهُ النبيُّ ﷺ في هذا الحديث.

قال: «**رواه أحمد**» الإمامُ أحمدُ بنُ حنبلٍ الشيبانيُّ، الإمامُ الجليلُ، أحدُ الأئمةِ الأربعةِ، شيخُ المحدّثينَ رحمه الله، وهو الإمامُ الذي امتُحِنَ وصَبَرَ، امتُحن في العقيدةِ على يدِ المأمونِ والمعتصمِ والواثقِ من خلفاءِ بني العباسِ، لأنَّ المأمونَ تأثَّرَ بالمعتزلةِ، وأدخلوا عليه أشياءَ مستنكرةً، منها: القولُ بخلقِ

القرآنِ -والعياذُ باللهِ-، ومنها: تعريبُ الكتبِ الرُّوميةِ وكتبُ الأممِ الكافرةِ، التي لما عُرِّبت دخلَ على عقائدِ المسلمينَ منها الشرُّ الكثيرُ، وهذا كلُّه بسببِ المعتزلةِ، لأنهم غرَّروا بهذا الخليفةِ.

ففي هذا خطرُ الفِرقِ الضَّالةِ، وخطرُ مصاحبتِها والقُربِ منها، ولهذا كان السلفُ يُحذِّرونَ من مصاحبةِ المبتدعةِ ومن مجالستِهم، لأنهم يُؤثِّرونَ على مَنْ صاحبَهُم. وقد قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨].

فهؤلاءِ لما صاحبوا هذا الخليفةَ استمالوهُ معهم، فصارَ ضدَّ أهلِ السنّةِ، ووقفَ الإمامُ أحمدُ في وجهِهِ، وأَبى أَنْ يقولَ بخلقِ القرآنِ، حتى ضُرِبَ وسُجِنَ وعُذِّبَ، ولكنَّهُ صبَرَ رحمه الله وصابَرَ، وتعاقَبَ عليهِ ثلاثةُ خلفاءِ، كلُّهم ضدُّهُ: المأمونُ، والمُعْتصمُ، والواثِقُ، ولكنَّه صبَرَ ووقفَ بحزمٍ وثباتٍ، ولم يَخْضعْ لهم، وصبَرَ على الضربِ وعلى الحبسِ، وعلى الإهانةِ حتَّى نصرَهُ اللهُ عز وجل، وجاءَ المتوكِّلُ ورفَعَ عنه المحنةَ، وناصَرهُ، وصارت العاقبةُ للمتقينَ -والحمدُ للهِ-، وأخزى اللهُ المعتزلةَ ومن تابَعَهم.

فهذا الإمامُ يجِبُ أن نعرفَ موقِفَه من أجلِ أَنْ نَقْتَديَ بهِ، وأن نعرفَ -أيضاً- موقفَنا من الفِرقِ الضالةِ والفِرقِ المخالفةِ لأهلِ السنةِ والجماعةِ حتى لا نتساهلَ معها، ونعملَ عمليّةَ تجميعٍ، ونقولُ: نحن نجمِّعُ ولا نُفرِّقُ كما تقولُهُ بعضُ الجماعاتِ!. بل يجِبُ أن نُفرِّقَ بينَ أهلِ الحقِّ وأهلِ الباطلِ، نحنُ معَ أهلِ الحقِّ وإن قَلُّوا، ولَسْنا مع أهلِ الباطلِ وإِنْ كَثُروا، هذا هو الموقفُ الصحيحُ. فالإمامُ أحمدُ وحدَهُ وقَفَ في وجهِ أمةٍ، ونصرَهُ اللهُ عليهم، ولابدَّ أنَّ الإنسانَ ينالُهُ أذىً في

وَلَهُ[1] عَن عُقبَةَ بنِ عَامِرٍ مَرفُوعَاً: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً، فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً، فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ».

مقابلِ موقفِهِ وصبرِهِ وثباتِهِ، لكنْ ما دامَ على الحقِّ لا يهمُّهُ ذلكَ، وهذا في موازينِهِ وفي حسناتِهِ عندَ اللهِ سبحانه وتعالى.

فهذا الحديثُ: «**رواه أحمد**» في مسندِهِ «**بسند لا بأس به**»، ورواه الحاكم في «**مستدركه**»، وقالَ: «**صحيح الإسناد**»، ووافقَهُ الإمامُ الذهبيُّ رحمه الله.

***

قال: «**وله**» أي: للإمامِ أحمدَ رحمه الله (من تعلق تميمة فلا أتم الله له) إلخ.

قوله: «**من تَعَلَّق**» أي: من علّقَ هذا الشيءَ على جسمِهِ، أو علّقَ قلبَهُ به، واعتقدَ فيه أنه ينفعُهُ أو يضُرُّهُ مِنْ دونِ اللهِ عز وجل.

«**تميمية**» التَمِيمَة: خرزاتٌ تعلّقُ على الأولادِ يتّقونَ بها العينَ، وكذلك ما شابهها من كلِّ ما يُعلَّقُ من الخرزاتِ وغيرِها من الحُرُوزِ والحُجُبِ، فهذا ليسَ بخاصٍّ بالخرزِ، وإنما هذا التفسيرُ لبيانِ نوعٍ من أنواعِ المعلَّقاتِ، ومنهم من يعلِّقُ النعلَ على البابِ، ويجعلُ وجهَ النَّعل مقابلاً للشخصِ الآتي، أو على السَّيارةِ، ويظنونَ أنَّ هذهِ الأشياءَ تدفعُ عنهم شرَّ الحسدِ، وكُلُّ هذا من أمورِ الجاهليةِ.

وقوله: «**فلا أتم الله له**» هذا دعاءٌ من النبيِّ ﷺ بأنَّ اللهَ لا يُتمُّ له أمورَه، ويعكسُ مقصودَه عليه؛ والرسولُ ﷺ مجابُ الدعوةِ، فهذه الدعوةُ تتناولُ كلَّ من علَّقَ على نفسِهِ أو على غيرِهِ شيئاً من الحُجُبِ والحُرُوزِ والتَّمائِمِ يريدُ بها كفَّ الشرِّ عنه إلى يومِ القيامةِ، إلَّا أن يتوبَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، فمن تابَ تابَ اللهُ عليه،

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٤) وابن حبان (٦٠٨٦).

وَفِي رِوَايَةٍ[1]: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ».

ومن لم يَتُبْ «فلا أتمّ الله له» يعني: لا أتمَّ اللهُ له أمرَه ومقصودَه، بل أصابَه بعكسِ ما يريدُ من الضررِ والشرِّ والخوفِ والقلقِ، ولهذا تجدونَ من يعلِّقون هذهِ الأشياءَ من أكثرِ النَّاسِ خوفاً وهمّاً وحزناً وضعفاً وخوراً، بعكسِ الموحّدينَ المعتمدينَ على اللهِ، فتجدونَهم أقوى النَّاسِ عزيمةً وأقوى النَّاسِ عملاً، وتجدونَهم -أيضاً- في أمنٍ واستقرارٍ وانشراحِ الصدورِ، لأنهم يؤمنونَ باللهِ عز وجل وحدَه، ويعلّقونَ آمالَهم باللهِ عز وجل، واللهُ يكفيهم سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر: ٣٨] ويقولُ سبحانه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: ٣].

وقوله: «وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً؛ فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ» الوَدْع: شيءٌ يُستخرَجُ من البحرِ، يُشْبهُ الصّدفَ، يعلقونه على صُدورِهم أو على أعناقِهم أو على دوَّابهم يتّقون به العينَ.

«فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ» أي: لا تركَهُ في دَعَةٍ وسُكُونٍ وراحةٍ، بل سلّطَ عليهِ الهمومَ والأحزانَ والوساوسَ والأعداءَ حتى يُصبحَ في قلقٍ وهمٍّ وغمٍّ دائمٍ، وهذا دعاءٌ من الرسولِ ﷺ بأَنْ يَسْلُبَ اللهُ راحتَهُ واستقرارَه وأمنَهُ، ويصبحَ في خوفٍ وهمٍّ وقلقٍ دائمٍ، يخافُ مِنْ كلِّ شيءٍ، إلى أن يتوبَ إلى اللهِ سبحانه وتعالى، وهذا ظاهرٌ في كلِّ من يتعاطوْنَ هذهِ الأشياءَ، تجدونَهم من أشدِّ النَّاس قلقاً وهمّاً وخوفاً وتوقُّعاً للمكروهِ في كلِّ لحظةٍ ومن كلِّ شخصٍ.

قال: «وفي رواية» يعني: للإمام أحمدَ رحمه الله.

«مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً؛ فَقَدْ أَشْرَكَ» هذه فيها زيادةٌ على دعاءِ الرسولِ ﷺ عليه بأنه

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٦).

وَلِابنِ أَبِي حَاتِم عَن حُذَيفَةَ: أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً فِي يَدِهِ خَيطٌ مِنَ الحُمَّى فَقَطَعَهُ وَتَلَا قَولَهُ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ١٠٦﴾ [سورة يوسف: ١٠٦][1].

قَدْ أشرَكَ، فهذا تصيبُهُ مصيبتانِ: مصيبةُ دعوةِ الرسولِ ﷺ عليه، والمصيبةُ الثانيةُ في عقيدتِهِ، وهي أنه قد أشرَكَ باللهِ عز وجل باتِّخاذِ هذا الشيءِ، وهذا هو الشاهدُ من الحديثِ للبابِ، لأنَّ البابَ: «**باب من الشرك تعليق الحلقة والخيط ونحوهما**».

فإن قلتَ: ما نوعُ هذا الشركِ؟، هل هو الشركُ الأكبرُ، نقولُ: فيه تفصيلٌ إنْ كانَ يرى أنها تَقيهِ مِنْ دونِ اللهِ فهذا شركٌ أكبرُ. وإنْ كانَ يعتقدُ أنها سببٌ فقط والواقي هو اللهُ سبحانه وتعالى فهذا شركٌ أصغرُ لأنَّ اللهَ لم يجعلْ هذهِ الأشياءَ سبباً.

***

قوله: «**ولابن أبي حاتم عن حذيفة: أنه رأى رجلاً في يده خيط من الحُمّى**» يعني: اتخذَهُ أن يقيَه من الحُمَّى، والحُمّى: ارتفاعُ الحرارةِ في الجسمِ. فالرجلُ ربَطَ الخيطَ من أجلِ أن يتقيَ الحُمّى، فحذيفةُ بنُ اليمانِ رضي الله عنه قطعَ هذا الخيطَ من هذا الرجلِ، فهذا فيهِ إزالةُ المنكرِ، كما أنَّ النبيَّ ﷺ لما رأى الحلْقة قال: «**انزعها**».

قوله: «**وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ١٠٦﴾**»

---

(١) أورده مسنداً صاحب «فتح المجيد» (ص١٢١) وسنده منقطع. لكن أخرج ابن أبي شيبة في «المصنف» (٨/ ١٥) من طريقين عن حذيفة أنه وجد في عضد رجل خيطاً رقي له فيه، فقال: لو مات ما صليت عليه.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم﴾ أكثر الناس «﴿وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾» قيل: معناهُ أنهم لا يؤمنونَ بالربوبيةِ إلَّا وهم مشركونَ في الألوهيةِ، لأنَّ المشركينَ كلَّهم يقرُّونَ بالربوبيةِ، ولكنَّهم يشركونَ في الألوهيةِ، إما الشِّركُ الأكبرُ وإما الشركُ الأصغرُ، ورَبْطُ الخيطِ حسبَ ما فصّلنا مِنْ أنهُ إذا كانَ يرى أَنَّ النَّفْعَ والضّرر بيدِ اللهِ، وإنَّما الخيطُ سببٌ؛ فهذا شركٌ أصغرُ، لأنَّ اللهَ لم يجعل ربطَ الخيطِ سبباً من الأسبابِ الواقيةِ. أما إذا كانَ يعتمدُ على هذا الخيطِ من دونِ اللهِ في دفعِ الضررِ؛ فهذا شركٌ أكبرُ.

فدلّ على أن الشركَ قد يقعُ ويكثرُ وقوعُهُ حتى من أهلِ الإيمانِ، إنْ كانَ المرادُ الشِّرك الأَصْغر، فالشركُ الأصغرُ قَدْ يصدُر من المؤمنِ، كما قَدْ يَصْدر منه النِّفاقُ العمليُّ، ويصدرُ منه الرِّياء. أما إذا كانَ القصدُ الاعتمادَ عليه فإنه يكونُ من الشركِ الأكبرِ المنافي للإيمانِ، فالشركُ الأصغرُ يُنقِّصُ الإيمانَ، وينقِّصُ التّوحيدَ، أما الشركُ الأكبر فإنه ينافي الإيمانَ وينافي التّوحيدَ.

قال الشيخُ رحمه الله في مسائلِه فيه: «**أَنَّ الصحابة يستدلُّون بالآياتِ التي في الشركِ الأكبرِ على الأصغرِ**»، لأنَّ حذيفةَ بنَ اليمانِ استدلَّ بالآيةِ النازلةِ في الشركِ الأكبرِ على الشركِ الأصغرِ، هذا إذا فُسِّرت الآيةُ بأنَّ المرادَ بها أهلُ الجاهليةِ، لأنَّ أهل الجاهليةِ يقرّونَ بتوحيدِ الربوبيةِ ويشركونَ في توحيدِ الألوهيةِ، ولكنّ إقرارَهم بتوحيدِ الربوبيةِ لا يُدخِلُهُم في الإسلامِ، فيكون حذيفةُ رضي الله عنه استدلَّ بالآيةِ النازلةِ على الشرك الأكبرِ على الشركِ الأَصْغر، لأنها تتناولُه بعمومِها، مثلَ ما استدلَّ ابنُ عباسٍ بقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢]، قال: «**هو قول الرجل: ما شاء اللهُ وشئت، لولا اللهُ وأنت، لولا كُليبة هذا لأتانا اللصوص وما أشبه ذلك**»، فسّرَها بالشركِ الأصغرِ، لأنَّ الآيةَ شاملةٌ للشركِ الأكبرِ والشركِ الأصغرِ، فهو استدلَّ بها على بعضِ ما

دلَّتْ عليه، كذلكَ حذيفةُ استدلَّ بهذهِ الآيةِ على بعضِ ما دلَّتْ عليه، لأنها تشملُ الشركَ الأكبرَ والشركَ الأصغرَ، وبعضُ المسلمينَ يؤمنون باللهِ في توحيدِ الربوبيةِ وتوحيدِ الألوهيةِ، ولكنْ يصدرُ منهم بعضُ الشركِ الأصغرِ الذي لا ينافي الإيمانَ، فدلَّ على الحذرِ من الشركِ، وأنه إذا كانَ هذا يحصلُ من بعضِ المؤمنينَ، فإنَّ الإنسانَ لا يأمنُهُ على نفسِهِ، ويستعيذُ باللهِ من الشركِ الأكبرِ والأصغرِ ويقولُ: «**اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئاً وأنا أعلم، وأستغفرك من الذنب الذي لا أعلم**»[1]، وفي الدعاءِ المشهورِ: «**أعوذ بك من الشك والشرك والكفر والنفاق وسوء الأخلاق**»[2]، فالمسلمُ يخافُ على نفسِهِ، ويدعو اللهُ عز وجل بالعافيةِ من هذهِ الأمورِ، ولا يزكِّي نفسَه، ولا يأمنُ على نفسِهِ.

***

---

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٧١٦) وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٢٨٦) وأبو يعلى في «مسنده» (٥٨) والضياء في «المختارة» (٦٢).

(٢) أخرجه النسائي (٥٤٧١) وأبو داود (١٥٤٦).

الباب الثامن:

بَاب ما جاءَ فِي الرُّقَى والتَّمائِمِ

فِي «الصَّحِيحِ»[١] عَن أَبِي بَشِيرٍ الأَنصَارِيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَأَرْسَلَ رَسُولاً: «أَن لَا يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ مِنْ وَتَرٍ، أَو قِلَادَةٌ إِلَّا قُطِعَتْ».

قالَ الشيخُ رحمه الله: «**باب ما جاء في الرّقى والتّمائم**» أي: ما جاءَ عن الرسولِ ﷺ وعن الصحابةِ والتابعينَ من الأحاديثِ والآثارِ في النَّهْي عن الرُّقى والتَّمائمِ.

هذا الباب مناسبته لما قبله: وهو: «**بابٌ من الشرك لبس الحلْقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه**»؛ أنَّ هذا البابَ مكمِّلٌ للبابِ الذي قبلَه، لأنه ذكرَ أنواعاً أُخْرى مكمِّلةً لما ذُكِرَ في البابِ الذي قبلَه، ولكنَّ البابَ الذي قبلَهُ صرّحَ الشيخُ في ترجمتِهِ بأنَّ لبسَ الحلْقةِ والخيطَ من الشركِ، وأما هنا فلم يُصرِّحْ، بل قال: «**ما جاء في الرُّقى والتمائم**»، وهذا من دقّةِ فقهِهِ ومعرفتِهِ رحمه الله، فإنه إذا كانَ الحُكمُ واضحاً منصوصاً عليه في الحديثِ ذكرَهُ في الترجمةِ، وإذا كان الحكمُ فيه تفصيلٌ، أو فيه احتمالٌ؛ فإنه لا يَجْزمُ في الترجمةِ، وإنّما يورِدُ الأدلةَ في البابِ ويؤخذُ منها الحكمَ مفصّلاً. فهذا من دقّةِ فقهِهِ رحمه الله، وشدّةِ تورّعِهِ عن إطلاقِ الأحكامِ، مما يُرَبِّي في طلبةِ العلمِ هذه الخَصْلَةَ الطيّبةَ، وهي أنهم يتورّعونَ في إطلاقِ الأحكامِ ويتثبتونَ فيها، لأنَّ الأمرَ خطيرٌ جدّاً.

* * *

---

(١) البخاري (٣٠٠٥)، ومسلم (٢١١٥).

قوله: «**عن أبي بشير الأنصاري رضي الله عنه**» هكذا كانَ مشهوراً بكُنْيته، ولم يُعرَفْ له اسم -كما قالَ ابنُ عبدالبر-.

«**أنه كان مع النبي ﷺ في بعض أسفاره**» لم يُعيِّنْ هذا السفرَ، قال الحافظ: لم أَقِفْ على تعيينِهِ.

«**فأرسل رسولاً**» أي: مندوباً.

«**أن لا يبقينّ في رقبة بعير قلادة**» «**يبقيّن**» مُؤكَّد بنونِ التأكيدِ الثقيلةِ، وقلادة فاعل. كانوا في الجاهليةِ يعلّقونَ القلائدَ على رقابِ الإبلِ، يعتقدونَ أن ذلكَ يدفعُ عنها العينَ والضررَ، والنبيُّ ﷺ أرادَ أن يزيلَ هذهِ العادةَ الجاهليةَ، ويقرّرَ التوحيدَ. والقلادةُ ما أحاطَ بالعنقِ.

وال«**وَتَر**» -بفتح الواو- المراد به: وَتَر القوس، والقوسُ آلةٌ كانوا يرمونَ بها السِّهامَ. وكانوا في الجاهليةِ إذا أَخْلَقَ الوَتَرُ أخذوهُ وعلّقوهُ على رقابِ الدوابِّ، وأبدلوه بوَتَرٍ جديدٍ، يعتقدونَ أنَّ هذا الوَتَر القديمَ الذي استُعْمِلَ ورُمي به أنَّه يدفعُ العينَ عن الإبلِ.

وقوله: «**أو قلادة**» هذا شكٌّ من الراوي، هل الرسولُ ﷺ قال: قلادةٌ من وَتَر، أو قال: قلادةٌ مطلقةٌ، سواء كانت من وَتَرٍ أو من غيرِهِ؟. وهذا مِنْ دقتِهم رضي الله عنهم في الروايةِ.

وعلى كلِّ حالٍ؛ فيه دليلٌ على منعِ هذا الشيءِ من أَيِّ نوعٍ كانَ، سواءٌ كانَ من وَتَرٍ أو مِنْ غيرِهِ، ما دامَ أنَّ المقصودَ منه عقيدةٌ فاسدةٌ، حتى ولو كانَ من السُّيورِ، أو من الخيوطِ، أو من الخرزِ، أو مِنْ غيرِ ذلك، كلُّ قلادةٍ يُقصَدُ بها هذا المَقصدُ الشركيُّ فهي ممنوعةٌ.

وَعَن ابنِ مَسعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ، وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ» رَوَاهُ أَحمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ[1].

أما القلائدُ التي لا يُقصَدُ منها مَقْصدٌ شركيٌّ، مثلَ قلادِ الهَدْيِ الذي يُهدى للبيتِ العتيقِ؛ فلا حرجَ فيها.

«إلّا قُطِعت» هذا فيه إزالةُ المنكرِ، ولا سيّما إذا كانَ هذا المنكرُ في العقيدةِ، فإنَّ إزالتَهُ متأكِّدةٌ.

وفيه: أنَّ الحاكمَ أو الإمامَ يرسلُ نوّاباً عنه في إزالةِ المنكرِ، وليسَ من شرطِ ذلكَ أن يباشرَهُ بنفسِهِ.

الشاهد من الحديث: تحريمُ عقدِ القلائدِ على الدوابِّ، أو على الآدميينَ بقصدِ أنَّ ذلكَ يدفعُ العينَ أو لأنه لا يدفعُ الضررَ ولا يدفعُهُ إلّا اللهُ سبحانه وتعالى، وليستِ القلائدُ هي التي تدفعُ الضررَ، أو تجلبُ النفعَ، وليستْ سبباً في ذلكَ وإنما هذا بيدِ اللهِ سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس: ١٠٧]، ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [فاطر: ٢]، ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر: ٣٨].

* * *

قال: «**وعن ابن مسعود**» هو: عبدُاللهِ بنُ مسعودِ بنِ غافلٍ الهُذليُّ الصحابيُّ الجليلُ، من أئمةِ العلمِ المعروفينَ في الصحابةِ، ومن أشهرِ القرّاءِ لكتابِ اللهِ

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٨١)، وأبو داود (٣٨٨٣)، وابن ماجه (٣٥٣٠).

عز وجل، وهو الذي أَعجبَ النبيَّ ﷺ بقراءتِهِ، وقال: «**من أراد أن يسمع القرآن غضّاً طريّاً كما أنزل؛ فليسمع إلى قراءة ابن أم عبد**»[١]، وقَدْ أَمَرهُ النبيُّ ﷺ أن يقرأ عليه، فقالَ: يا رسولَ اللهِ كيفَ أقرُ عليكَ وعليكَ أُنزلَ؟ قال ﷺ: «**إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي**»، قالَ عبدَاللهِ: فقرأتُ عليه من أولِ سورةِ النِّساء حتى بلغتُ قولَه تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١]، قال النبي ﷺ: «**حسبك**»، قال: فالتفت إليه ﷺ فإذا عيناه تذرفان[٢].

والشاهدُ من هذا: فضيلةُ عبدِاللهِ بنِ مسعودٍ رضي الله عنه.

وكان من أَوْعِيَةِ العلمِ، وكانَ له روايةٌ عن النبيِّ ﷺ كثيرةٌ، وكان مُفتياً من مشاهيرِ المُفتينَ من الصحابةِ، وكان يُقالُ له: صاحبُ السِّواد، لأنه كانَ يحمِلُ نعليّ الرسول ﷺ.

وفضائلُهُ كثيرةٌ رضي الله عنه، وكانَ من السابقينَ الأولينَ.

وفي بعضِ الأسفارِ: أنه صعَدَ شجرةً وكانَ نحيلاً، فنظَرَ الصحابةُ إلى ساقيهِ دقيقتين؛ فضحكوا، فقال الرسولُ ﷺ: «**تضحكون من دقّة ساقيه؟!، لهما في الميزان أثقل من جبل أحد**»[٣].

سبب ذكر عبدالله بن مسعود لهذا الحديث: أنه رأى على امرأتِهِ زينبَ رضي الله عنها خيطاً في عُنقِها، وقال: لأنتم يا آلَ عبدِاللهِ أغنياءُ عن الشركِ، قالت: إنَّ عينيَّ كانت تَطْرِفُ، فأذهبُ إلى فلان اليهوديِّ فيرقاها فتكفُّ، قال رضي الله عنه:

(١) أخرجه ابن ماجه (١٣٨) وأحمد (١/ ٧) والنسائي في «الكبرى» (٨٢٥٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٨٢) ومسلم (٨٠٠).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٤٢٠) وابن حبان (٧٠٦٩) والشاشي في «مسنده» (٩٠٤).

وَعَن عَبدِاللهِ بنِ عُكيم مرفوعاً: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ».

إنما ذلك شيطانٌ يَنْخَسُها بكفِّه، فإذا رُقِيَ كفَّ، ثُمَّ قالَ: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ**».

فهو لمَّا قطعَ هذا الخيطَ، وأنكرَ على زوجتِهِ هذا الفعلَ؛ ذكَرَ الدَّليلَ مِنْ سنّةِ رسولِ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ**» وسيأتي تفسيرُ هذهِ الثلاثةِ.

***

قال: «**وعن عبدالله بن عُكيم مرفوعاً**» عبدُاللهِ بنُ عُكيم أدركَ النبيَّ ﷺ، لكنَّه لم يثبُتْ له سماعٌ من النبيِّ ﷺ؛ فيكونُ تحديثُهُ عن الرسولِ من بابِ المرسلِ، لأنه لم يَسْمعْ من النبيِّ ﷺ، ولهذا قالَ الشيخُ: «**مرفوعاً**».

«**مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ**» «**مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا**» سواءً قِلادة، أو تَمِيمَة، أو حِرْزاً من الحُرُوز، أو خيطاً، أو حلقةً، يعني: علَّقَ قلبَهُ بشيءٍ أيِّ شيءٍ، يظنُّ أنه ينفعُ ويضرُّ، «**وُكِلَ إِلَيْهِ**» وَكَلَه اللهُ إلى ما تعلّقَ به. وهذهِ عقوبةٌ من اللهِ سبحانه وتعالى، وإهانةٌ له من اللهِ سبحانه وتعالى، لأنَّ اللهَ إذا تخلّى عنهُ وَوَكَلَه إلى غيرهِ هلَكَ. أما من توكّلَ على اللهِ عز وجل وحدَه فإنَّ اللهَ سبحانه وتعالى يتولى أمرَه. أما من اعتقدَ بغيرِهِ فإنه يَكِلُه إليه ويتخلّى عنه، يَكِلُه إلى حلْقةٍ من صُفْرٍ، أو خيطٍ، أو إلى تَمِيمَةٍ، أو إلى وليٍّ من الأولياءِ، أو قبرٍ من القبورِ، أو ضريحٍ من الأضرحةِ، يَكِلُه إلى من اعتقدَ فيه.

فهذا فيهِ خطرٌ عظيمٌ، وفيه حثٌّ على أن يعلِّقَ الإنسانُ قلبَه باللهِ عز وجل، وأن يعتقدَ أنه لا ينفعُ إلّا اللهُ، ولا يضرُّ إلّا اللهُ، ولا يشفي إلّا اللهُ، ولا يرزقُ إلّا اللهُ، ولا يُعطي ولا يمنعُ إلّا اللهُ، يتوكّلُ على اللهِ، مع أخذِهِ بالأسبابِ المباحةِ التي جعلَها اللهُ أسباباً كالدواءِ المباحِ، وغيرِ ذلك من الأسبابِ المباحةِ، لكنَّ القلبَ يتعلقُ باللهِ.

«التَّمَائِمُ»: شَيءٌ يُعَلَّقُ عَلَى الأَولَادِ مِنَ العَينِ.

لكِن إِذَا كَانَ المُعَلَّقُ مِنَ القُرآنِ فَرَخّصَ فِيهِ بَعضُ السَّلَفِ، وَبَعضُهُم لَم يُرَخِّص فِيهِ، وَيَجعَلُهُ مِنَ المَنهِيّ عَنهُ، مِنهُم ابنُ مَسعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فقوله: «**مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ**» قاعدةٌ عامةٌ، تعمُّ كلَّ شيءٍ يعلّقُ الإنسانُ قلبَه به من دونِ اللهِ عز وجل؛ من بشرٍ، أو حجرٍ، أو شجرٍ، أو قبرٍ، أو حلْقةٍ، أو خيطٍ، أو تَمِيمَةٍ، أو غيرِ ذلك، أو جنٍّ، أو إنسٍ.

ففي هذا وجوبُ التوكّلِ على اللهِ، والنهيُ عن الاعتمادِ على غيرِ اللهِ في جلبِ خيرٍ أو دفعِ ضُر، والقرآنُ يقرّر هذا في آياتٍ كثيرةٍ.

***

ثمَّ إنَّ الشيخَ محمداً رحمه الله شرحَ هذهِ الألفاظَ، فقالَ: «**التّمائم شيء يعلِّقونه على الأولاد يتقون به العين**» ثمَّ قالَ مفصِّلاً الحكمَ في هذا: «**لكن إذا كان هذا المعلّق من القرآن؛ فقد رخَّصَ فيهِ بعضُ السَّلفِ**» يعني: إذا كانَتِ التَمِيمَةُ مكتوبةً من القرآنِ؛ فقد رخّصَ فيها بعضُ السّلفِ، مثلَ: عَبْدِاللهِ بن عمرِو بنِ العاص رضي الله عنه، وعائشة، لأنّها من القرآنِ، والتّشافي بالقرآنِ ليس فيه محذورٌ شركيٌّ، فهو كلامُ اللهِ سبحانه وتعالى.

«**وبعضهم**» أي: بعضُ الصحابة، «**لم يرخِّص فيه**» حتى لو كانَ من القرآنِ، منهم: عبدُاللهِ بنُ مسعودٍ -راوي الحديث-، وسيأتي الأثرُ عن إبراهيمَ أنه قالَ: «**كانوا يكرهون التّمائم من القرآن ومن غير القرآن**»، وإبراهيمُ النَّخعي تلميذٌ لابنِ مسعودٍ.

هذا اختلافُ السَّلفِ في تعليقِ التّمائمِ من القرآنِ، فقد اختلفوا في هذا على قولينِ: منهم من أجازَ، نظراً لأن هذا من القرآنِ، وهو كلامُ اللهِ سبحانه وتعالى،

والتداوي بكتابِ اللهِ والاستشفاءِ بكتابِ اللهِ مشروعٌ، ومنهم من منعَ هذا ولم يرخِّصْ فيه لعمومِ النهيِ عن التمائمِ.

وبناءً على ذلكَ اختلفَ الفقهاءُ مِنْ بعدِ الصحابةِ في هذهِ المسألةِ على قولينِ: منهم من أجازَ؛ أخذاً برأيِ مَنْ أجازَ من الصحابةِ، ومنهم من منَعَ.

والصحيحُ: الرأي الثاني وهو المنعُ، والشيخُ عبدالرحمن بن حسن[1] وقبلَه الشيخُ سليمانُ بن عبدالله[2] رجَّحاً منَعهُ، وذلك لثلاثةِ أمورٍ:

الأمر الأول: عُموم النَّهي، ولم يَرِد دليلٌ يخصّصُ ذلك.

الأمر الثاني: سدّ الوسيلةِ المُفضيةِ إلى الشِّرْك، لأنَّنا إذا أَجَزْنا تعليقَ القرآنِ انفتحَ البابُ لتعليقِ غيرِه.

الأمر الثالث: أن تعليقَ القرآنِ يعرِّضهُ للامتهانِ، لأنه يُعلَّقُ على الصبيانِ، والصبيانُ لا يتجنّبونَ النجاسةَ أو الدخولَ في مواضعِ القاذوراتِ، وكذلك الجُهّالُ لا يحترمونَ القرآنَ كما ينبغي، ولا يتنبّهونَ لذلك، وما كانَ سبباً لتعريضِ القرآنِ للامتهانِ فهو محرّمٌ.

والذين أجازوا -وهم أصحابُ الرأيِ الأولِ- اشترطوا ثلاثةَ شروطٍ:

الشرط الأول: أن تكونَ التَميمَةُ من القرآن.

الشرط الثاني: أن تكونَ مكتوبةً باللفظِ العربيِّ، فلا تُكتَبُ بلفظٍ أعجميٍّ أو بخطٍّ لا يُقرأ.

الشرط الثالث: أن يعتقدَ أنَّ الشفاءَ من اللهِ لا من هذهِ التَميمَةِ، وإنَّما هذه

(١) انظر «فتح المجيد» (ص١٢٣).

(٢) انظر «تيسير العزيز الحمد» (١٦٨).

وَ«الرُّقى»: هِيَ الَّتي تُسَمَّى العَزَائِمَ، وَخَصَّ مِنهَا الدَّلِيلُ مَا خَلَا مِنَ الشِّركِ، فَقدْ رَخَّصَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ العَينِ والحُمَةِ.

التَمِيمَةُ سببٌ فقط.

قال الشيخُ: «**والرقى: هي التي تُسمى العزائم**» الرُّقى: جمعُ رقية، والرُّقْيَة: القراءةُ على المريضِ. ويُسمِّيها العَوام: العزيمة.

قال الشيخُ: «**وخصّ منها الدليل ما خلا من الشرك**» أي: استثناهُ من التحريم.

فهناك أدلةٌ تفصِّلُ بأنه إن كانَتِ الرُّقْيَةُ من القرآنِ أو من الأدعيةِ المباحةِ فإنها ليستْ بشركٍ، بدليلِ أنَّ النبيَّ ﷺ رخّصَ في الرُّقْيةِ من العينِ ومن الحُمَةِ كما جاءَ في حديثِ بُريدةَ بنِ الحُصينِ الذي سبقَ في «**باب من حقّق التّوحيد**»، وكذلكَ النبيُّ ﷺ رَقى المرضى، ورُقي ﷺ؛ رَقاه جبريلُ، وكذلكَ لما جاءوا إلى النبيِّ ﷺ يسألونَهُ قالوا: كنا في الجاهليةِ لنا رُقى نرقي بها وأدويةٌ نتداوى بها، قالَ ﷺ: «**اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ لَا بَأْسَ بِهَا مَا لَمْ تَكُنْ شِرْكاً**»[1].

وقوله: «**فَقَدْ رَخَّصَ فِيهِ رَسُولُ الله ﷺ مِنَ العَيْنِ وَالحُمَةِ**» الرُّخصةُ عند الأصوليين: ما ثبتَ على خلافِ دليلٍ شرعيٍّ لمعارضٍ راجحٍ، لأنَّ الأحكامَ على قسمينِ: رُخْصةٍ، وعزيمةٍ. فالشيءُ المستثنى من الممنوعِ بدليلٍ يُسمَّى: رُخصة، مثلَ: الأكل من الميتةِ، وقَصْر الصلاةِ للمسافرِ، هذا يسمَّى رُخْصة، كذلك الإفطارُ في نهارِ رمضانَ، كُلَّ هذه رُخصٌ، رخّص فيها الشارعُ من أشياءَ كانت في الأصلِ ممنوعةً، وذلك من أجلِ الرّحمةِ بالخلقِ، وكذلك الرقيةُ في القرآنِ استثنيتْ من الرقى الممنوعةِ بقوله ﷺ: «**إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ**»، فهي رخصةٌ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٠٠).

وَ«التِّوَلَة»: هيَ شَيءٌ يصنَعُونَهُ، يَزعُمُونَ أَنَّهُ يُحَبِّبُ المَرأَةَ إِلَى زَوجِهَا، وَالرَّجُلَ إِلَى امرَأَتِهِ.

وَرَوَى أَحمَدُ(١) عَنْ رُويفع، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: «يَا رُوَيْفِعُ، لَعَلَّ الحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ؛ فَأَخْبِرِ النَّاسَ: أَنَّ مَنْ عَقَدَ لِحْيَتَهُ، أَوْ تَقَلَّدَ وَتَرًا، أَوِ اسْتَنْجَى بِرَجِيعِ دَابَّةٍ أَوْ عَظْمٍ؛ فَإِنَّ مُحَمَّدًا بَرِيءٌ مِنْهُ».

قوله: «**والتِّوَلَة**» بكسر التاء وفتح الواو، «**شيء يصنعونه، يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها، والرجل إلى امرأته**» «**يزعمون**» أي: يكذبونَ، والزعم: الكذب، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا﴾ [النساء: ٦٠] يعني: يكذبونَ في قولِهم أنهم آمنوا.

«**أنه يحبِّب المرأة إلى زوجها، والرجل إلى امرأته**» هذا يسمونه: الصّرف والعطف، وهو سحرٌ، قالَ اللهُ سبحانه وتعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فهو سحرٌ يفرِّقُ ويَجْمعُ، لأنه عملٌ شيطانيٌّ، يعملُ أشياءَ تنفِّرُ الإنسانَ من الإنسانِ، أو الرجلَ من زوجتِهِ، أو الزوجةُ من زوجِها، وهو مِنْ عملِ الشياطينِ.

فالسحرةُ لما تقرّبوا من الشياطينِ وخدموهم وأشركوا باللهِ، فالشياطينُ في مقابلِ ذلك ساعدَتْهُم في هذهِ الأمورِ. وهذا كثيرٌ في النَّاسِ، خصوصاً إذا ضَعُفَ الإيمانُ، وخصوصاً في البلادِ التي لا يُعتنى فيها بأمرِ العقيدةِ، فإن السِّحرَ يُتَّخذُ حِرْفَةً ومِهْنَةً في بعضِ البلادِ، ولكن من نعمةِ اللهِ على هذه البلادِ أنَّ هذا الشيءَ لا يوجدُ فيها إلَّا خُفيةً، لكنه يُطاردُ، وأهلُهُ -والحمدُ للهِ- أذِلاءُ.

***

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٠٨)، وأبو داود (٣٦).

قوله: «**وروى أحمد عن رويفع**».

«**رُوَيْفِع**» هو رُوَيْفِعُ بنُ ثابتٍ الأنصاريُّ -رضي اللهُ تعالى عنه-، تولّى إمارةَ بُرْقةَ في عهدِ الخلفاءِ في مصرَ، وتوفي هناك رضي الله عنه، وقد طالَ عمُرُه.

قال: «**لعل الحياة ستطول بك**» هذا إخبارٌ من النبيِّ ﷺ أن رُوَيْفِعاً يعمّرُ، وقد عُمِّر، ففيه: عَلَمٌ من أعلامِ النبوةِ، وهو الإخبارُ عن شيءٍ مستقبَلٍ، ويقع كما أخبرَ به ﷺ، وهذا مما أطلعَه اللهُ تعالى عليه.

«**فأخبر الناس**» هذا فيهِ دليلٌ على تبليغِ العلمِ، ونشرِ العقيدةِ، والدعوةِ إليها، وإنكارِ الشركِ، وأنَّ الإنسانَ محمَّل هذه الأمانة، لا يَتخلّى عنها، ويَتْرك النَّاسَ يقعونَ في الشركِ وفسادِ العقيدةِ، وهو ساكتٌ، ثم يقولُ: اتركوا الناسَ مجتمعين، لا تفرقوا بينَ الناسِ، حاربوا الشيوعيةَ وحاربوا المذاهبَ الهدّامةَ، واتركوا الشركَ وهل هناك أشدُّ من الشركِ؟، الشركُ هو أكبرُ المذاهبِ الهدّامةِ، وهذا القولُ يدسُّه علينا الأعداءُ إما من اليهودِ والماسونيةِ أو غيرهم، ويأخذُهُ بعضُ المغرورينَ من شبابِنا على أنه صحيحٌ، وهو يُقْصَدُ منهُ هدمُ الإسلام، وهدمُ العقيدةِ، لأنه إذا تُرِك الشركُ فسَدَتِ العقيدة.

قوله: «**أن من عقد لحيته**» عقدُ اللحيةِ اختلفَ العلماءُ في تفسيرِهِ، منهم من قالَ: عقدُ اللحيةِ عادةٌ عندَ الفُرسِ، أنهم كانوا عندَ الحروبِ يعقدونَ لحاهم تكبّراً وتجبّراً، ونحنُ قد نُهينا عن التشبّهِ بالكفّارِ.

والقول الثاني: المرادُ بِهِ عقدُ اللحيةِ في الصَّلاةِ، لأنَّ هذا من العبثِ في الصلاةِ، والحركةِ في الصلاةِ، وهذا مكروهٌ في الصلاةِ، لأنهُ يدلُّ على عدمِ الخشوعِ.

القول الثالث: أنَّ المرادَ بعقدِ اللحيةِ ما يفعلُهُ أهلُ الترفِ من تجعيدِ لحاهم وتحسينِها وكدِّها، حتى تتجعّدَ، يقصدون بها الجمالَ، فهذا يكونُ من الترفِ، نعم لا بأسَ أنَّ اللحيةَ تُصلَّح وأنها تُنظّفُ، وأنها تُكْرَمُ لكنْ لا يصلُ هذا إلى حدِّ الإسرافِ.

«**أو تقلد وَتَراً**» يعني: جعلَ الوَتَر قلادةً عليه، أو على دابَّتِهِ، أو على ولدِهِ من أجلِ أن يتّقيَ بهِ العينَ والضررَ، كما كانتِ الجاهليةُ تفعل.

وهذا محلُ الشاهدِ في الحديثِ، قالَ الشيخُ عبدُالرحمنِ بنُ حسنٍ[1] رحمه الله: «**وإذا كان هذا فيمن تقلدوا وتراً، فكيف بمن تعلّقَ على الأمواتِ يسألُهم قضاءَ الحاجاتِ وتفريجَ الكرباتِ؟!**».

«**أو استنجي**» الاستنجاءُ: إزالةُ أثرِ الخارجِ من السبيلينِ.

لأنَّ الواجبَ أنَّ الإنسانَ إذا قَضَى حاجتَهُ أن يُنقِّيَ المخرجَ إما بماءٍ وإمَّا باستجمارٍ بالحجارة، فإنْ جمعَ بينهما فهذا أفضلُ.

«**برجيع دابة**» الرجيعُ روثُ الدَّواب، «**أو عظم، فإن محمداً ﷺ بريء منه**» وهذا وعيدٌ شديدٌ يدلُّ على تحريمِ هذا الفعلِ، وهو الاستجمارُ بروثِ الدَّوابِّ والعظامِ، لأنَّ هاتينِ المادتينِ طعامُ الجنِّ وطعامُ دوابِّهم فلا يُلوِّثُهما عليهم.

* * *

(١) انظر «فتح المجيد» (ص١٢٧).

وَعَن سَعِيدِ بنِ جُبَيرٍ قَالَ: «مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً مَن إِنسَانٍ؛ كَانَ كَعِدْلِ رَقَبَةٍ». رَوَاهُ وَكِيعٌ[(١)].

قوله: «**عن سعيد بن جبير قال: من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة**» أي: كانَ كَمَنْ أعتقَ رقبةً من الرِّقِّ، والمناسبةُ أنَّ اعتاقَ العبدِ فيه اعتاقٌ من الرِّق، وقطعُ التَمِيمَةِ فيه إعتاقٌ من الشركِ، لأنَّ الشركَ رِقٌّ للشيطانِ بدلَ الرِّقِّ للرحمنِ، ورحِمَ اللهُ الإمامَ ابنَ القيِّم حيثُ يقولُ:[(٢)]

هربوا من الرِّق الذي خلقوا لـه فبُلُـوا بـرق النفـس والشيطـان

يعني: هم أرقاءُ للهِ، عبيدٌ للهِ، لكنْ لما أشركوا به صاروا عبيداً للشيطانِ، وعبيداً للنفسِ والهوى، فالإنسانُ خُلِقَ لعبادةِ اللهِ، فإذا تركَها صارَ عبداً للشيطانِ، فهو عبدٌ ولابدَّ.

فالذي يزيلُ هذهِ الظاهرةَ الشركيةَ عن مسلمٍ يكونُ كمن أعتقَهُ من الرِّقِّ في الأجرِ والثوابِ.

وسعيدُ بن جبير رحمه الله اعتبرَ الشركَ رقّاً، مَنْ أزالَهُ فكأنَّما أعتقَ هذا العبدَ مِنْ هذا الرِّقِّ الذّليلِ المهينِ، وجعلَهُ حُرّاً مِنْ عبادةِ المخلوقِ، عبداً لله سبحانه وتعالى لا يعبُدُ غيرَهُ، فعبادةُ اللهِ -جَلَّ وعلا- هي الحريةُ الصحيحةُ، ليستِ الحريةُ أنَّ الإنسانَ يشركُ ويكفرُ ويعتقدُ ما شاء، كما يقولونَ: النَّاسُ أحرارٌ في اعتقادِهم لا بَلْ النَّاسُ خُلِقوا لعبادةِ اللهِ، وعبادةُ اللهِ ليسَتْ من بابِ الذُّلِّ والمهانةِ، وإنَّما هـو مـن الإكـرامِ، ومـن الرِّفعةِ، وهـذا شـرفٌ، واللهُ جلَّ وعـلا أكرمَ نبيَّه بالعبوديةِ لـه، فقـال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٨/ ١٧).

(٢) انظر «شرح قصيدة ابن القيم» لأحمد بن إبراهيم بن عيسى (٢/ ٤٦٦).

وَلَهُ عَن إِبرَاهِيمَ، قَالَ: «كَانُوا يَكرَهُونَ التَّمَائِمَ كُلَّهَا؛ مِنَ القُرآنِ وَغَيرِ القُرآنِ»(١).

[الإسراء: ١]، فعبوديةُ اللهِ شرفٌ، أما عبوديةُ غيرِه فهي ذلٌّ ومَهانةٌ.

«**رواه وكيع**» ووكيع هو: وكيعُ بنُ الجراحِ، الإمامَ الجليلُ، روى عنه الإمامُ أحمدُ وغيرُه.

***

قال: «**وعن إبراهيم**» أي: عن إبراهيمَ النَّخْعي، أحدُ الأئمةِ من التابعينَ.

وقوله: «**يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن**» أي: كانَ كبارُ التابعينَ من أصحابِ ابنِ مسعودٍ لا يفصِّلونَ في التَّمائمِ، بل كانوا يكرهونها عموماً، كما سبق أنَّ الراجح هو: تحريمُ تعليق التمائم ولو كانَتْ من القرآنِ؛ من أجلِ الأمورِ الثلاثةِ التي ذكرناها هناكَ. وقوله: «**يكرهون**» أي يحرمونَ، لأنَّ الكراهةَ عندَ السَّلفِ يريدونَ بها التحريمَ.

فكلامُ إبراهيمَ هذا يؤيّدُ ترجيحَ المنعِ مُطلقاً، ولأنَّ هذا قولُ عبدِاللهِ بنِ مسعودٍ، وتلاميذِهِ من أئمةِ التابعين، أنَّ التّمائمَ لا تفصيلَ فيها، حتى ولو كانَتْ من القرآنِ، لا تُعلَّقُ على الرِّقابِ على شكلِ حُروزٍ، أو على شكلِ رقاعٍ، أو على شكلِ أكياسٍ تعبأُ بالأوراقِ المكتوبِ فيها ويسمونها خطوطاً، أو عزائمَ، هذا لا يجوزُ وإن كانَ من القرآنِ، ولا تعلّقُ على السياراتِ أو الجدرانِ لأنَّ هذا وسيلةٌ إلى الشركِ، ولأنه لم يردْ دليلٌ على جوازِهِ، ولأنه تعريضٌ للقرآنِ للامتهانِ والابتذالِ -كما سبَقَ-.

وفي هذا دليلٌ على بُعْدِ السَّلفِ عمَّا يخدشُ العقيدةَ.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٨/ ١٦).

الباب التاسع:

بَاب مَنْ تَبَرَّكَ بشجرٍ أو حجرٍ ونحوهما

هذا البابُ مكمِّلٌ للأبوابِ التي قبلَه، لأنَّ الأبوابَ التي قبلَه في لبسِ الحلْقةِ والخيطِ ونحوِهما، أو تعليقِ الرُّقى والتّمائِمِ، وهذا فيه النهيُ عن التبرّكِ بالأشجارِ والأَحْجار، فهذه الأبوابُ كلُّها مُؤدَّاها الاعتقادُ بغيرِ اللهِ سبحانه وتعالى أنه يضرُّ أو ينفعُ، وهذا شركٌ، لأنَّ الذي يَقْدر على دفعِ الضرِّ وجلبِ النفعِ هو اللهُ سبحانه وتعالى وحدَه لا شريكَ له، هو القادرُ سبحانه وتعالى على ذلك، لا يشاركُهُ أحدٌ، وإن كانَ هناكَ أشياءُ يترتّبُ على استعمالِها أو أَكْلها أو شُربِها ضررٌ، أو يترتّبُ عليه نفعٌ؛ فهذهِ أسبابٌ فقَطْ، أما الذي يخلقُ ذلك فهو اللهُ سُبحانه.

مثلاً: الأكلُ والشربُ من الطيباتِ هذا فيه نفعٌ، لكِنْ ليسَ الأكلُ والشربُ هو الذي يخلقُ النفعَ، إنما الذي يخلقُ النفعَ هو اللهُ سبحانه وتعالى.

مثلاً: السُمُّ يقتلُ، والنارُ تحرقُ، لكنْ لَيْست هي التي تفعلُ هذهِ الأشياءَ، لأنها مخلوقاتٌ لله سبحانه وتعالى، ولكنَّها أسبابٌ، يقدِرُ القادرُ سبحانَه أن يسلبَها هذه الخاصياتِ، كما سلبَ النارَ الحرارةَ لما أُلقي فيها إبراهيمُ، وصارَتْ برداً وسلاماً، فدلّ على أنها لا تستقلُّ بالضررِ.

وقوله: «**باب من تبرّك**» أي: طلبُ البركةِ، وهي حصولُ الخيرِ ونماؤُه وثبوتهُ وكثرتهُ.

«**بحَجَر أو شجر**» أي: طلبُ البركةِ من حَجَرٍ أو من شجرٍ، أو اعتقدَ أنها سببٌ للبركةِ وهي لم يجعلْها اللهُ أسباباً لها فقد أشركَ باللهِ سبحانه وتعالى، لأنَّ الحجرَ والشَّجَر لا يخلقُ البركةَ ولا يُوجِدُها، ولا هو مُسبِّبٌ في حصولِها إلَّا ما جعلَهُ سبباً في حصولِها وإنما الذي يوجدها هو اللهُ سبحانه وتعالى، وهو سببُ

الأسبابِ نعم قد يجعلُ اللهُ بعضَ الأشياءِ مباركةً، مثلَ: ماء زَمْزم، ومثلَ: الأنبياء عليهم السلام، ومثلَ: الكَعْبة المُشرَّفة: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران: ٩٦]، فاللهُ هو الذي جعلَ الكعبةَ مباركةً، أما الكعبةُ فليسَتْ هي التي تُوجِدُ البركةَ، أو تخلُقُ البركةَ، لكنَّ اللهَ جعلَها مباركةً، فالبركةُ من اللهِ سبحانه وتعالى وبركتُها بالحجِّ والعمرةِ واستقبالُها في الصلاةِ والطوافِ بها والتعبدُ عندها في المسجدِ الحرامِ.

وقد يجعلُ اللهُ بعضَ الأشياءِ مباركةً، كما أنَّ اللهَ يجعلُ بعضَ الأشياءِ شرِّيرةً، فقد جعلَ الشياطينَ شرِّيرةً، وجعلَ بعضَ الدوابِّ شرِّيرةً، فالاعتمادُ على اللهِ سبحانه وتعالى في كلِّ الأمورِ، وإنما نتَّخذُ الأسبابَ لأنَّ اللهَ أمرَنا باتِّخاذِ الأسبابِ، وأمَّا النتائجُ فهي عندَ اللهِ سبحانه وتعالى، نحنُ لا نعتمِدُ على الأَسْبابِ، وإنما نعتمدُ على اللهِ، ونحنُ لا نعطِّلُ الأسبابَ، لأنَّ اللهَ أمرنا باتِّخاذِها، وتعطيلُ الأسبابِ عجزٌ وتعطيلٌ للمنافعِ، التي جعلَها اللهُ سبحانه وتعالى في الأشياءِ، كما قالَ بعضُ العلماءِ: «**الاعتمادُ على السَّببِ شركٌ، وتركُ السَّببِ قدحٌ في الشَّرْعِ**» لأنَّ الشرعَ أمَرَكَ باتِّخاذِ الأسبابِ، و«**الاعتمادُ على الأسبابِ شرك**» لأنه اعتمادٌ على غيرِ اللهِ.

فهذه مسألةٌ يجبُ على طالبِ العلمِ أن يفقهَها وأَنْ يعرفَها، وأَنْ يتأمَّلَها جيداً، وأَنْ يُوضِّحَها للمسلمينَ، لإزاحةِ الشُّبُهاتِ، وإزاحةِ التَّضليلِ الذي يَرُوجُ عندَ بعضِ الناسِ بسببِ الجَهْلِ، أو بسببِ سوءِ القَصْدِ.

***

وَقَولُ اللهِ تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾ الآيات [سورة النجم: ١٩].

قوله: «وقول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾» وتتمة الآيات: «﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٢٠-٢٦]» هذهِ الآياتُ في تقريرِ التّوحيدِ وتثبيتِ العقيدةِ في قلوبِ المؤمنينَ، والردُّ على المشركينَ.

يقولُ اللهُ تعالى للمشركينَ الذي يعبدونَ الأصنامَ، وفي مُقدِّمتِها الأصنامُ الثلاثةُ المشهورةُ عندَ العربِ: اللَّاتِ والعُزَّى ومَنَاة، هل تَنْفع هذهِ الأصنامُ أو تضرُّ؟، فيقولُ: «﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾» هل نفعَتْكُم؟، هل دفعَتْ عنكُمْ الضررُ؟، هل جلبَتْ لكم شيئاً من الرزقِ، فلا يستطيعونَ الجوابَ بأنَّها تضرُّ أو تنفعُ، لم تنفعْهم في بدرٍ وغيرِها من الغزواتِ، ولم تَدْفَعْ عنهم ما أوقَعَ اللهُ بهم من الهزائمِ، ما أجابوا عن هذا السؤالِ العظيمِ؛ فدلَّ على انقطاعِ حُجَّتِهم.

وهكذا في كلِّ أسئلةِ القرآنِ الكريمِ التي هي من بابِ التحدِّي والتعجيزِ، لم يصدرْ لها جوابٌ من قِبَلِ المشركينَ، ولن يصدرَ لها جوابٌ إلى أن تقومَ السَّاعةُ.

و «﴿ٱللَّٰتَ﴾»: صنمٌ في الطائفِ لبني ثقيفٍ. وفي تفسيرِها قولانِ لأهلِ العلمِ:

القول الأول: أنها بالتخفيفِ، وهو اسمُ حجرٍ كبيرٍ أملسَ عليه نقوشٌ، كانوا يتبرّكونَ به، ويطلبونَ منه قضاءَ حاجتِهم، وتفريجَ كرباتِهم.

والقول الثاني: أنه بالتشديدِ اسم فاعل من لَتَّ يَلُتُّ وهو في الأصلِ رجلٌ

صالحٌ، كان يَلُتُّ السّويقَ للحاجِّ، وكان يُطعِمُ الحجّاجَ من هذا الطعامِ تقرّباً إلى اللهِ سبحانه وتعالى، فلما ماتَ عَكَفُوا على قبرِهِ يتبرّكونَ بهِ، كما حصَلَ لقومِ نوحٍ لما غَلَوْا في الصالحينَ.

فالغُلُّو في الصالحينَ قديمٌ، ولا يزالُ مستمرّاً وهو سنّةٌ جاهليةٌ من قديمِ الزمانِ، من عهدِ قومِ نوحٍ، ولا تزالُ.

فعلى التفسيرِ الأولِ هو تبرّكٌ بالأحجارِ، وعلى التفسيرِ الثاني هو: تبرّكٌ بالقبورِ. وكلا التفسيرينِ حقٌّ، فالآيةُ تدلُّ على منعِ التبرّكِ بالأحجارِ، ومنعِ التبرّكِ بالقبورِ، وما زال هذا الصنمُ يُعبدُ من دونِ اللهِ إلى أن فتحَ النبيُّ ﷺ مكةَ في السنةِ الثامنةِ من الهجرةِ، وأمَرَ بهدمِ هذا الصنمِ كغيرِهِ من الأصنامِ التي هُدِمَتْ.

أما «﴿وَٱلْعُزَّىٰ﴾» فكانَتْ صنماً لأهلِ مكةَ، وهي عبارةٌ عن شجراتٍ ثلاثٍ من السَّمْر، وعندَها بَنِيَّة عليها أستارٌ، وكانتْ لقريشٍ ولأهلِ مكةَ يعبدونَها من دونِ اللهِ عز وجل. ولهذا قال أبو سفيان في يوم أحدٍ بعد أن انتهت المعركة: لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم. فقال النبيُّ ﷺ: «**أَجِيبُوهُ: قُولُوا: اللهُ مَوْلَانَا، وَلَا مَوْلَى لَكُمْ**»[1]، هذا هو الردُّ الشّافي، وفيها بعد منَّ اللهُ على أبي سفيانَ بالإسلامِ فأسلَمَ، والإسلامُ يَجُبُّ ما قبلَه، والشَّاهدُ من هذا: أن العُزَّى كانَتْ لأهلِ مكةَ، فلمَّا فتحَ النبيُّ ﷺ مكةَ أرسلَ إليها خالدُ بنُ الوليدِ فهدَمَها وقطّعَ الأشجارَ، ثم رجَعَ إلى النبيِّ ﷺ فأخبرَهُ، قالَ: «**لم تفعل شيئاً**»، فرجعَ خالدٌ رضي الله عنه، إليها مرّةً ثانيةً فوجدَ عندَها السَّدَنةَ، فلما رأَوْهُ هربوا إلى الجبالِ، فجاءَ فإذ بامرأةٍ عريانةٍ ناشرةٍ شعرَها، فعلاها بالسيفِ وقتلَها، ثم رجَعَ إلى النبيِّ ﷺ وأخبرَهُ، قالَ: «**تلك**

(١) أخرجه البخاري (٣٠٣٩).

العُزَّى»[(١)].

والواقعُ أنَّ المشركينَ ليسَتْ عبادتُهُم لهذهِ الأصنامِ وإنما عبادتُهم للشَّياطينِ، فالشياطينُ هي التي تُغريهم، وتَدْعوهم إلى عبادتِها، وهي التي تُكلِّمُهم أحياناً، ويظنون أنَّ الصنمَ هو الذي يتكلَّمُ، أو أنَّ الميِّتَ هو الذي يتكلمُ.

أما ﴿وَمَنَوٰةَ﴾ فهي صنمٌ قريبٌ من المدينةِ، وكانَتْ لقبائلَ من العربِ. وكانوا يُحْرِمُون مِنْ عندِها للحجِّ والعُمْرةِ.

ولما فتحَ النبيُّ ﷺ مكةَ أرسلَ إلى مَنَاةَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه فهدَمَها.

فأينَ ذهبتْ هذهِ الأصنامُ؟، لو كانَتْ آلهةً لدفعَتْ عن نفسِها.

والشاهد من الآية الكريمة: بُطلانُ التبرّكِ بالأشجارِ والأحجارِ، لأنَّ هذهِ أشجارٌ وأحجارٌ، ولم تَدْفعْ عن نفسِها فضلاً عن أن تدفعَ عن غيرِها.

ففي هذا: بُطلانُ التبرّكِ بالأحجارِ والأشجارِ، وفيه: أنَّ من تبرّكَ بقبرٍ أو بحجرٍ أو شجرٍ يعتقدُ فيه أنه ينفعُ ويضرُّ من دونِ اللهِ، أو أنه سببٌ لحصولِ البركةِ، أو تقربَ إليه بشيءٍ من العبادةِ؛ فهو مثلَ مَنْ عبدَ اللاتَ والعُزَّى سواءٌ، ولا فرقَ، بل من غلا في قبرٍ من القبورِ فهو كمَنْ عبدَ اللاتَ، لأنَّ اللاتَ -على التفسيرِ الثاني- هو رجلٌ صالحٌ، غَلَوْا في قبرِهِ بعدَ موتِهِ، فالذينَ يعبدونَ القبورَ اليومَ مثلَ الذين يعبدونَ اللاتَ سواءٌ بسواءٍ، والقرآنُ واضحٌ في هذا، لكنْ يحتاجُ إلى التدبّرِ، ونبذٍ للتقاليدِ والعاداتِ والبيئاتِ الفاسدةِ، والتحررِ من الخرافاتِ والأباطيلِ، ورجوعٍ إلى كتابِ اللهِ وسنةِ رسولِهِ، ففيهما الشفاءُ للقلوبِ.

---

(١) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (١١٥٤٧) وابن سعد في «الطبقات» (٢/ ١٤٥).

وعَن أَبِي وَاقِدٍ اللَّيثِي قَالَ: خَرَجنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ إِلَى حُنَيْنٍ، وَنَحنُ حُدَثَاءُ عَهدٍ بِكُفرٍ، ....

قال: «**وعن أبي واقد الليثي**» هذه كنيته، أمَّا اسمُهُ فهو الحارثُ بنُ عوفٍ، و «**الليثي**» من بني الليثِ.

«**قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حُنَيْنٍ**» أي: غَزْوة حُنَين، وحُنَيْن اسمُ وادٍ بينَ مكةَ والطائفِ، وغزوةُ حُنَيْن كانَتْ في شوّالَ من السنةِ الثامنةِ من الهجرةِ، وذلك أنَّ الرسولَ ﷺ لمَّا فتحَ مكةَ، ونصَرَهُ اللهُ على قريشٍ؛ خافَتْ هوازِنُ على نفسِها أن يصلَها الرسولُ ﷺ، فأرادوا أن يغزوا الرسولَ ﷺ قبلَ أن يغزوهم، وجمَّعوا أمرَهم ليغزوا رسول الله ﷺ، يريدونَ الدفاعَ عن أنفسهم، فلم يُمْهلْهُمُ الرسولُ ﷺ، بل غزاهم هو بنفسِهِ ﷺ. وهذا هو الحزمُ والسِّياسةُ؛ أنَّ وليَ أمرِ المسلمينَ إذا علِمَ أن هناكَ من الكفارِ مَنْ يريدُ المسلمينَ يبادِرُ إلى ذلكَ العدوِّ، ولا يمهلُهُ.

وأبو واقِدٍ كانَ من الذينَ أَسْلموا في هذا العامِ، ولهذا قالَ: «**خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حُنَيْن ونحن حُدَثاء عهد بكفر**» يعني: أَنَّ إسلامَهم كانَ جديداً متأخراً، وهو يريدُ بذلكَ بيانَ العذرِ مما وقَعَ منهم، أنَّهم كانوا جُهّالاً، لم يتفقّهوا كما كانَ الصَّحابةُ الذينَ معَ الرسولِ ﷺ فقهاء، عرَفوا العقيدةَ ودرسوها، لكنَّ هؤلاءِ أسلموا قريباً، ولم يتمكّنوا من التفقّهِ في العقيدةِ، وكانوا آلفينَ لأشياءَ من دينِ الجاهليةِ، لم يتخلَّصوا منها بعدُ. قالَ العلماءُ، فهذا فيهِ دليلٌ على أنَّ الإنسانَ إذا عاشَ في بيئةٍ فاسدةٍ ثم انتقلَ منها؛ أنه قد يبقى في نفسِهِ منها شيءٌ. فهذا كانَ في بيئةٍ شركيةٍ، وأسلمَ قريباً.

وهذا دليلٌ على آفةِ الجهلِ، وأنَّ الإنسانَ قد يقعُ في الشركِ بسببِ الجهلِ،

وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُم ذَاتُ أَنواطٍ.

وفيه الحثُّ على تعلُّمِ العقيدةِ ومعرفتِها والتبصُّرِ فيها خشيةَ أَنْ يقعَ الإنسانُ في مثلِ ما وقَعَ فيهِ هؤلاءِ، فالذين ينادونَ اليومَ بتهوينِ أمرِ العقيدةِ، ويقولونَ: لماذا يدرسونَ العقيدةَ وهم مسلِمون؟، يا سُبحانَ اللهِ، المسلم هو أولى بدراسةِ العقيدةِ من أجلِ أن يُصحِّحَ إسلامَه، ومن أجلِ أن يحفظَ دينَه، هؤلاءِ مسلمونَ ومع هذا وقعوا في هذه القضيةِ بسببِ أَنَّهم لم يتعلموا، ففي هذا دليلٌ على وجوبِ تعلُّمِ العقيدةِ الصحيحةِ، ووجوبِ تعلُّمِ ما يُضادُّها من الشركِ والبدعِ والخرافاتِ؛ حتى يكونَ الإنسانُ على حذرٍ منها، وما أوقعَ اليومَ عُبّاد الأضرحةِ -أو كثير منهم- في عبادةِ القبورِ إلَّا بسببِ الجهلِ، ويظنونَ أنَّ هذهِ من الإسلامِ، فهذه مصيبةٌ عظيمةٌ، حتى سمِعْنا أنَّ بعضَ الدعاةِ يدعون -في أمريكا وفي غيرِها- إلى دينِ الصُّوفيةِ وإلى دينِ القبوريّةِ، فهم أخرجوهُمْ من كفرٍ إلى كفرٍ، وكونُهُ يبقى على كفرِهِ، أخفُّ من كونِهِ ينتقلُ إلى كفرٍ يُسمّى باسمِ الإسلامِ.

وقوله: «**وللمشركين سِدْرَة يَعْكُفُون عندها**» العُكُوف هو: البقاءُ في المكان، يُقالُ: اعتكفَ في المكانِ إذا أطالَ الجلوسَ فيه، واعتكفَ في المسجدِ يعني: جلسَ في المسجدِ للعبادةِ.

«**ويُنَوطُون بها أسلحتهم**» النَّوْط هو: التعليقُ، وغرضُهم من هذا العكوفِ والنوط التبرك بهذه الشجرة.

«**فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ**» أَعْجبَهم عملُ المشركينَ، فظنوا أنَّ هذا عملٌ سائغٌ، وهم يحرصونَ على تحصيلِ البركةِ، فطلبوا

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «الله أَكبَرُ، إِنَّهَا السُّنَنُ، قُلْتُ -وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ- كَمَا قَالَت بَنُو إِسرائِيلَ لمُوسَى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ١٣٨﴾ [سورة الأعراف: ١٣٨]، لَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ[(١)] وَصَحَّحَهُ.

من النبيِّ ﷺ أن يجعلَ لهم شجرةً يَعْكُفُون عندَها، ويَنُوطُون بها أسلحتَهم طلباً للبركةِ، ولكن انظروا إلى أدبِ الصَّحابةِ معَ الرسولِ ﷺ حيثُ لم يقدموا إلى هذا الأمرِ من عند أنفسِهم، بل رجعوا إلى الرسولِ ﷺ، فالمسلمُ إذا أعجبَهُ شيءٌ ويظنُّ أنه خيرٌ فلا يَسْتعجلْ حتَّى يعرضَ هذا على الكتابِ والسنةِ ويسأل عنهُ أهلَ العلمِ الثقاتِ.

فهذا فيه دليلٌ على وجوبِ الرجوعِ إلى الكتابِ والسنةِ في أمورِ العبادةِ، وأن الإنسانَ لا يعملُ باستحساناتِهِ، أو استحساناتِ غيرِه، بدونِ أن يرجعَ إلى الكتابِ والسنةِ، وهذا يدلُّ على أنَّ العباداتِ توقيفيةٌ.

فقوله: «**فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ**» يعني: شجرة نعلّقُ بها أَسْلِحَتنا للبركةِ، ونجلسُ عندَها للبركةِ.

«**فقال ﷺ: الله أكبر، إنها السُّنَن**» النبيُّ ﷺ غضِبَ لمَّا قالوا له هذا الكلام وتعجّبَ، وكبّرَ اللهَ سبحانه وتعالى تنزيهاً للهِ عز وجل عن هذا العملِ. وهذهِ عادةُ النبيِّ ﷺ أنه كانَ إذا أعجبَهُ شيءٌ أو استنكرَ شيئاً أنه يسبحُ أو يكبرُ.

«**إنها السُّنن**» أي: الطرقُ المسلوكةُ، أي: السببُ أنَّ الذي أوقَعَكم في هذا هو التَّشبُّهُ بما عليهِ الناسُ، فالتَّشبُّه بالكفارِ في عباداتِهم وتقاليدِهم الخاصةِ بهم، آفةٌ

---

(١) برقم (٢١٨٠)، وأخرجه ابن حبان (٦٧٠٢) واللفظ المذكور إليه أقرب.

خطيرةٌ: «**من تشبه بقوم فهو منهم**»[1]، وما أصابَ بعضَ المسلمينَ من الأمورِ الشنيعةِ، أغلبُه من جهةِ التَّشَبُّهِ بالكفارِ، أوّلُ ما حدثَ الشركُ في مكةَ هو بسببِ التَّشَبُّهِ بالكفارِ، لأنه لما ذهبَ عمرُو بنُ لُحَيْ إلى الشامِ، ووجدَ أهلَ الشامِ يعبدونَ الأصنامَ، أعجبَهُ ذلك، وجلبَها إلى الحجازِ، ومن ذلك الوقتِ فشا الشركُ في أرضِ الحجازِ، فهو أولُ مَنْ غيَّرَ دينَ إبراهيمَ -عليه الصلاةُ والسلامُ-، فهذه هي الآفةُ، هذه هي السُّنَن التي تعجّب منها النبيُّ ﷺ.

ثم بيّنَ ﷺ خطرَ هذه المقالةِ، فقال: «**قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ**» أقسمَ ﷺ ففي هذا مشروعيةُ القسمِ على الفتوى إذا تحققَ من إصابةِ الحقِّ.

«**كما قالت بنوا إسرائيل لموسى:** ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾» النبيُّ ﷺ بيّنَ أنَّ هذهِ عادةٌ قديمةٌ في العالم، وأنها حصلَتْ على عهدِ موسى عليه السلام، وذلك أنَّ اللهَ لما نجّى بني إسرائيلَ من فرعونَ، وأغرقَ فرعونَ وقومه، ونجّى موسى وقومَه، ومرّوا في طريقِهم على قومٍ يعكفونَ على أصنامٍ لهم.

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ﴾ طَلبوا من موسى أنهُ يجعلُ لهم صنماً يعبدونَه كهؤلاءِ الذينَ يعبدونَ الصَّنمَ، قالَ موسى عليه السلام: «﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾» السببُ الذي أوقَعكم في هذا هو الجهلُ بالتّوحيدِ، وهذا -كما ذكرنا- يُوجِبُ على المسلمينَ أن يتعلموا العقيدةَ، ولا يكتفوا بقولِهم: نحن مسلمونَ، نحنُ في بلادِ إسلامٍ، نحن في بيئةٍ إسلاميةٍ، كما يقولُهُ الجُهّالُ أو الذين يُثَبِّطونَ عن تعلّمِ العقيدةِ.

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٣١).

ففيهِ آفةُ الجهلِ، وأنَّ الجهلَ قد يوقعُ في الكفرِ باللهِ عز وجل، وهذه خطورةٌ عظيمةٌ، ولا يُنجّي من هذا الجهلِ إلَّا تعلُّمُ العقيدةِ الصحيحةِ، والتأكُّدُ منها، وتدريسُها، وتكرارُها على النَّاسِ، وتعليمُها للنَّاسِ، ونشرُها بكلِّ وسيلةٍ في المساجدِ، وفي المدارسِ، وفي وسائلِ الإعلامِ، وفي المجالسِ، وفي البيوتِ، وقوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ﴾ أي: عملُ هؤلاءِ زائلٌ وتالفٌ ﴿وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٩﴾ [الأعراف: ١٣٩]، لأنه شركٌ باللهِ عز وجل، ﴿قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٠﴾ [الأعراف: ١٤٠]، أي: أنا لا أُشرِّعُ لكم الشركَ، وهل هذا جزاءُ النعمةِ أنَّ اللهَ فضَّلَكم على العالمينَ، يعني: عالمِ زمانِهم، أما بعدَ بعثةِ محمَّدٍ ﷺ فأفضلُ العالمينَ هُمْ أمةُ محمدٍ ﷺ.

فالحاصلُ؛ أنَّ التبرّكَ بالأشجارِ والأحجارِ هو من سنةِ المشركينَ، ومن سنةِ الجاهليةِ، ومن فعلَه فهو متشبهٌ بالكفارِ، وهو كافرٌ مثلهم، لا فرقَ بينَ من يعبدُ القبرَ ومَنْ يعبدُ اللاتَ والعُزَّى، أو الذي يطلبُ البركةَ من الشجرةِ والذي يطلبُها من الصنمِ، لا فرقَ بينهما.

ففي هذا: بُطلانُ التبرّكِ بالأشجارِ والأحجارِ، وأنه شركٌ، لأنَّ موسى عليه السلام قال: ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا﴾، فدلَّ على أنَّ مَنْ تبرّكَ بشجرٍ أو حجرٍ فقد اتخذَهُ إلهاً، وهذا هو الشركُ، واختلافُ اللفظِ لا يؤثر مع اتفاقِ المعنى، هؤلاءِ قالوا: «**اجْعَلْ لنا ذاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ**»، وبنوا إسرائيلَ قالوا: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾، والرسولُ ﷺ جعلَ هذا مثلَ هذا، وإن اختلفَ اللفظُ.

والآنَ عَبَدَةُ القبورِ يقولون: هذا ليسَ بشركٍ، هذا توسُّلٌ، وهذا محبةٌ للأولياءِ والصالحينَ. إن أولياءَ اللهِ الصالحينَ لا يرضونَ بهذا العملِ، ولا يرضونَ أن

تُجعَلَ قبورُهم أوثاناً تُعبدُ من دونِ اللهِ، والنبيُّ ﷺ يقولُ: «**اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»[١]، فدلَّ على أنَّ تعظيمَ القبورِ والتبرّكَ بها يجعلُها أوثاناً تُعبَدُ من دونِ اللهِ.

فالحاصلُ؛ أن هذا فيه دليلٌ على أنَّ العبرةَ في المعاني لا في الألفاظِ، فاختلافُ الألفاظِ لا يؤثر، وإنْ سَمَّوْهُ توسّلاً، أو سمَّوه إظهاراً لشرفِ الصالحين، أو وفاءً بحقِّهم علينا -كما يقولونَ-، هذا هو الشركُ، سواءٌ بسواء، فالذي يتبرّكُ بالحجرِ أو بالشجرِ أو بالقبرِ قد اتَّخَذه إلهاً، وإن كانَ يزعمُ أنه ليسَ بإلهٍ، فالأسماءُ لا تغيِّرُ الحقائقَ، إذا سمَّيتَ الشركَ، توسلاً، أو محبةً للصالحينَ، أو وفاءً بحقِّهم، نقول: الأسماءُ لا تغيرُ الحقائقَ.

وفيه -أيضاً- مسألةٌ مهمةٌ: وهي أنَّ حُسنَ المقاصدِ لا يغيرُ من الحكمِ الشرعيِّ شيئاً، هؤلاءِ لهم مقصدٌ حسنٌ، ولكنَّ النبيَّ ﷺ لم يعتبِرْ مقاصدَهم، بل أنكرَ هذا، لأنَّ الوسائلَ التي تُفضي إلى المحاذيرِ ممنوعةٌ، صحابيٌّ معَ رسولِ اللهِ ﷺ يحملُ السيفَ للجهادِ، ما قصدَ إلَّا الخيرَ هو ومن معَهُ، ومع هذا غضِبَ النبيُّ ﷺ عندَ مقالتِهم، وجعلَها مثلَ مقالةِ بني إسرائيلَ، فدلَّ على أنَّ المقاصدَ الحسنةَ لا تبرِّرُ الغاياتِ السيّئةَ والمنكرةَ.

وفيه -أيضاً-: القاعدةُ العظيمةُ، وهي: خطورةُ التَّشَبُّه بالكفارِ والمشركين، لأنها تؤدِّي إلى الشركِ، ولهذا قالَ ﷺ: «**لَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ**»[٢] وهذا فيه -أيضاً- عَلَمٌ من أعلامِ النبوةِ، فإن النبيَّ ﷺ أخبرَ أنه في المستقبَلِ سيكونُ في المسلمينَ من يقلِّدُ الكفارَ، وهذا وقعَ كما أخبرَ ﷺ، فتقليدُ الكفارِ الآنَ على قدمٍ

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٤٦) ومالك في «الموطأ» (٤١٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٢١٨٠) وأحمد (٥/ ٢١٨) وابن حبان (٦٧٠٢).

وساقٍ، إلَّا من رحِمَ اللهُ سبحانه وتعالى وهذا خبرٌ معناه التحذيرُ وليس مجردَ خبرٍ.

فهذا الحديثُ فيهِ التحذيرُ من التَّشَبُّهِ بالمشركين والكفارِ في أفعالِهم وعاداتِهم الخاصةِ وتقاليدِهم وطقوسِهم.

أما الأمورُ المباحةُ فلا بأسَ بالأخذِ بها، نأخذُ من المشركينَ الخِبْراتِ المفيدةَ، نأخذُ منهم البضائعَ، نأخذُ منهم الأسلحةَ، هذه أمورٌ كانتْ في الأصلِ لنا، يقولُ اللهُ سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾ [الأعراف: ٣٢]، هذه المنافعُ في الأصلِ للمسلمينَ، ولكِنْ لما تكاسلَ المسلمونَ أخذَها أعداؤهم، فلا مانعَ أنَّ المسلمينَ يأخذونَ بهذهِ الأشياءِ المفيدةِ، وليسَ هذا من التَّشَبُّهِ، إنما التَّشَبُّهُ هو تقليدُهم في الأمورِ التي لا فائدةَ منها ولا قيمةَ لها، أو الأمورِ التي تدخلُ في العبادةِ والعقيدةِ والدينِ.

قد يُقال: أنتم تحرِّمونَ التبرّكَ بالأشجارِ والأحجارِ والقبورِ، في حين أن الصحابةَ -رضي الله عنهم- كانوا يتبرّكونَ بريقِ النبيِّ ﷺ وشعرِه ووضوئِه أليس هذا تبركاً بمخلوقٍ.

فالجواب عن ذلك: أنَّ هذا خاصٌّ بالنبيِّ ﷺ وبما انفصلَ من جسدِه ﷺ لأنه مباركٌ، فما انفصلَ من جسدِهِ من ريقٍ، أو عرقٍ، أو شعرٍ، أو وضوءٍ، فإنه يُتبرّكُ به، أما التبرّكُ بغيرِ النبيِّ ﷺ فهذا لم يَرِدْ حتّى مع أفضلِ الأمةِ كأبي بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وعليٍّ، والعشرةِ المبشرينَ بالجنةِ، وأصحابِ بدرٍ، وأصحابِ بيعةِ الرضوان، ما ذُكر أنَّ المسلمين كانوا يتبرّكونَ بهؤلاءِ، لا بريقِهم، ولا بعرقِهم، ولا بشعورِهم.

فالتبركُ لا يجوزُ؛ لا بالأشجارِ، ولا بالأحجارِ، ولا بالأشخاصِ، ولا بالحُجْرةِ النبويةِ، ولا بقبرِ النبيِّ ﷺ، كلُّ هذا لا يجوزُ، لأنَّ هذه أمورٌ لم تكنْ منفصلةً عن النبيِّ ﷺ وليسَتْ من جسدِهِ ﷺ فلا بدَّ أن نعرفَ الجوابَ عن هذه الشُّبَهِ، لأنهم يُدْلُون بها.

* * *

الباب العاشر:

بَاب مَا جَاءَ فِي الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللهِ

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ الآية [سورة الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

هذا البابُ كالأبوابِ التي قبلَه في بيانِ أنواعِ من الشركِ التي يمارسُها بعضُ الناسِ في مختلفِ الأزمانِ، من عهدِ الجاهليةِ، ولا تزالُ مستمرَّةً، وذلكَ من أجلِ أن يتميّزَ الخبيثُ من الطيّبِ، وللهِ الحكمةُ سبحانه وتعالى في بقاءِ هذا الشركِ والكفرِ؛ من أجلِ أن يتميّزَ الخبيثُ من الطيّبِ، والموحِّدُ من المشركِ، والمهتدي من الضالِّ: ﴿لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]، ولكنْ لو هداهم جميعاً لم تكنْ هناك مِيزَةٌ لأحدٍ على أحدٍ، ولكنْ اقْتَضَتْ حكمتُهُ سُبْحانه أن يُجريَ الامتحانَ من أجلِ أن يتميّزَ الخبيثُ من الطيّبِ.

* * *

قال: «وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ تتمة الآيات: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٤]» ختمَ اللهُ هذه السورةَ العظيمةَ بهذهِ الآياتِ، لأنَّ السورةَ تدورُ كلُّها على التّوحيدِ وبيانِ الشركِ، وبيانِ ما يفعله المشركون مع الأصنام، وما حرّموه من المزارع والأنعام لأصنامهم وختَمها سبحانه وتعالى بالبراءةِ من كلِّ ما يفعلُهُ المشركونَ، وهذا الغالبُ على السورِ المكيةِ، فالسورُ المكيةُ غالبُها، بل تكادُ تكونُ كلُّها في التّوحيدِ والنَّهيِ عن الشركِ لأن النبيَّ ﷺ مكثَ في مكةَ

ثلاثةَ عشرةَ سنةً يدعو إلى التّوحيدِ والنّهيِ عن الشركِ، وينزلُ عليهِ القرآنُ في ذلك، ومن جُملةِ ما نزلَ عليهِ في مكةَ هذه السورةُ العظيمةُ: سورةُ الأنعامِ.

فقوله تعالى: «﴿قُلْ﴾» هذا أمرٌ من اللهِ -جلَّ وعلا- لنبيهِ محمَّدٍ ﷺ أن يُعلنَ للناسِ، ليسَ لناسِ وقتِهِ فقَطْ، بل للناسِ جميعاً إلى أن تقومَ الساعةُ، وليسَ لناسِ بلدِهِ، بل لناسِ العالمِ:

«﴿إِنَّ صَلَاتِي﴾» الصلاةُ في الشرعِ يُراد بها: العبادةُ المبتدئةُ بالتكبيرِ المختتمةُ بالتسليمِ، التي تشتملُ على عباداتٍ قلبيّةٍ وقوليّةٍ وعمليةٍ، فالصلاةُ تشتملُ على أنواعِ العبادةِ في القلبِ: من الخشوعِ، والخشيةِ، والإقبالِ على اللهِ سبحانه وتعالى، وباللسانِ: من التكبيرِ، والتحميدِ، والثناءِ على اللهِ، وتلاوةِ كتابهِ الكريمِ، ومناجاةِ الربِّ سبحانه وتعالى، وبالجوارحِ: من القيامِ، والرّكوعِ، والسجودِ، والجلوسِ. فالصلاةُ عبادةٌ عظيمةٌ، يجتمعُ فيها ما لا يجتمعُ في غيرِها من أنواعِ العباداتِ، ولذلك جعلَها اللهُ عمودَ الإسلام، وجعلَها الركنَ الثاني من أركانِ الإسلامِ.

«﴿وَنُسُكِي﴾» النُّسُك المُراد به: ما يُذبحُ من بهيمةِ الأنعامِ على وجهِ التقرّبِ والعبادةِ، كهَدْيِ التمتُّعِ والقِرانِ، وهَدْيِ التطوُّع، وهَدْيِ الجُبْرانِ، والأضاحي، والعقيقةِ، هذه كلُّها تُسمَّى نُسُكاً، فما ذُبِحَ من بهيمةِ الأنعامِ على وجهِ التقرّبِ إلى اللهِ تعالى بذبحِه، فهو النُّسُك.

وكان الذبحُ على وجهِ التقرُّبِ موجوداً في الجاهلية، كانوا يذبحون للأصنام، ويذبحونَ للجنِّ، ويذبحون للكواكبِ، يذبحون لغيرِ الله عز وجل، ولهذا يقولُ النابغةُ في قصيدته:

فـلا والـذي قـد رزتـه حججـا وما هريق على الأنصاب من جسد

الأنصاب: الأصنامُ، أو حجارَةٌ يَذبَحونَ عَليها للأصنامِ.

وهُرِيق، يعني: سَفك من الدماءِ، من جسدٍ، يعني: من ذبيحة.

فالنبيُّ ﷺ بيّنَ أنَّ دينَه مخالفٌ لدينِ المشركينَ، فالمشركونَ يذبحونَ لغيرِ اللهِ، والنبيُّ ﷺ ومَن اتبعَهُ يذبحونَ للهِ وحدَه لا شريكَ له، كما أنهم لا يصلُّون إلَّا للهِ فكذلك لا يذبحونَ إلَّا للهِ سبحانه وتعالى، وقَرْنُ النُّسُكِ بالصلاةِ يدلُّ على أنه عبادةٌ عظيمةٌ، لا يجوزُ صرفُها لغيرِ اللهِ، والنسكُ قد تساهلَ فيه كثيرٌ من الناسِ فصاروا يذبحونَ للجنِّ طاعةً للمُشَعْوِذِين من أجلِ العلاجِ بزعمِهم.

«﴿وَمَحْيَاىَ﴾»: ما أحيا عليه في عمري من العبادةِ، كلُّهُ لله عز وجل.

«﴿وَمَمَاتِى﴾»: ما أموتُ عليه -أيضاً- لله عز وجل، فيموتُ على التّوحيدِ، فمعنى الآية: أنه يحيا على التّوحيدِ، ويموتُ على التّوحيدِ، ثم أكّدَ ذلك بقولِهِ: «﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾» في ذلكَ وفي سائرِ أنواعِ العبادةِ.

«﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾» الرب هو: المالك، والعالمين جمع عالَم، وهو: ما سوى اللهِ عز وجل من المخلوقاتِ، فكلُّ المخلوقاتِ ربُّها واحدٌ، هو اللهُ سبحانه وتعالى، لكن قد يُقالُ لمالكِ الشيءِ: ربّه، مثلَ: ربّ البيتِ، ربّ الحاجةِ، ربّ السيارةِ، ربّ الدراهمِ، وهذا مقيّدٌ، أما إذا قلتَ الرَّبُّ، أو ربُّ العالمينَ، فهذا لا يكونُ إلَّا للهِ سبحانه وتعالى.

أما هذه الأصنامُ، وهذه الأوثانُ، فلا تستحقُ العبادةَ لأنها مملوكةٌ لله سبحانه وتعالى، ومعبدةٌ لله سبحانه وتعالى، والعبدُ لا يُعبَد، حتَّى ولو كانَ من أشرفِ العبادِ كالملائكةِ والرُّسلِ والأولياءِ، كلُّهم عبيدٌ لله سبحانه وتعالى.

وذكرَ عبادتينِ عظيمتينِ: الصّلاة والنُّسُك، لأنَّ الصلاةَ عبادةٌ بدنيّةٌ، والنُّسُك

وَقَولُهُ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢﴾ [سورة الكوثر: ٢].

عبادةٌ ماليّةٌ، وهي من أفضلِ العباداتِ الماليةِ.

قال: «﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ﴾» أمرني ربي سبحانه وتعالى، فدلَّ على أنَّ العباداتِ توقيفيّةٌ، لا يصلحُ منها شيءٌ إلَّا بأمرِ اللهِ سبحانه وتعالى.

ثمَّ قال: «﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾» أي: من هذهِ الأمةِ، فالأوليّةُ هنا نِسْبِيَّةٌ، وإلَّا فالرسلُ والمؤمنونَ مِنْ قبلِ النبيِّ ﷺ كلُّهُم مسلمونَ، بمعنى أنهم مخلصونَ العبادةَ لله عز وجل.

والإسلامُ هو الاستسلامُ للهِ بالتّوحيدِ، والانقيادُ له بالطاعةِ، والخلوصُ من الشركِ وأهلهِ، هذا هو الإسلامُ، وهذا دينُ جميعِ الرسلِ -عليهم الصلاةُ والسلامُ-، فقوله: «﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾» أي: من هذه الأمةِ.

كما أنَّ الآيةَ -أيضاً- تدلُّ على أنَّ الرسولَ أولُ مَنْ يبادِرُ إلى امتثالِ أمرِ اللهِ سبحانه وتعالى، وأنه لا يتأخرُ عن امتثالِ أمرِ اللهِ سبحانه وتعالى، فكذلكَ يجبُ على المسلمِ أن لا يتأخرَ عن الامتثالِ والمبادرةِ إذا أمرَهُ اللهُ بشيءٍ يكونُ من أولِ مَنْ يفعلُ ذلك، فمن أُمِرَ بشيءٍ من المعروفِ والطاعةِ، فإنه يجبُ عليه أن يكونَ أولَ مَنْ يفعلُهُ.

* * *

قال: «**وقوله**: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢﴾» هذا أمرٌ من اللهِ لنبيِّهِ أن يُخلِصَ الصلاةَ لله عز وجل، وأنْ يخلصَ النحرَ -وهو: الذبحُ- لله عز وجل.

قالوا: وهذا شكرٌ لله سبحانه وتعالى لما أعطاهُ الكوثَرَ، فإنَّ اللهَ سبحانه وتعالى أمرَهُ أن يشكرَهُ على هذهِ النعمةِ العظيمةِ، بأَنْ يصلِّيَ ويذبحَ للهِ عز وجل، ولهذا رُبطَ بما قبلَه بفاءِ السببيّةِ.

والكوثرُ نهرٌ في الجنةِ، وقيلَ: هو الخيرُ الكثيرُ، فهذا من بابِ الشكرِ للهِ سبحانه وتعالى على هذهِ النعمةِ، على إعطائِهِ الكوثرَ، ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر: ٣]، كان الكفارُ يذمّونَ الرسولَ ﷺ ويقولون: إنه أبترُ، ليسَ له ذريةٌ، وليسَ له مالٌ، وإنه إذا ماتَ سينتهي ذكرُهُ. ﴿شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠﴾ [الطور: ٣٠]، والله جل وعلا يقول: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾، أما أنتَ فلسْتَ بأبترَ، سيستمرُ ذكرُكَ، ويستمرُ عملُك، وتستمرُ دعوتُك إلى يومِ القيامةِ.

وصدقَ اللهُ العظيمُ، أينَ ذكرُ أبي جهلٍ؟، وأينَ ذكرُ أبي لهبٍ؟، وأينَ ذكرُ صناديدِ الكفارِ؟، انقطَعَ، ولا يذكرونَ إلّا بالذمِّ -والعياذُ باللهِ، أما رسولُ اللهِ فإنه يُذكَرُ بالخيرِ والثناءِ، ويُذكرُ بكلِّ فضيلةٍ، ودعوتُهُ باقيةٌ، ودينُهُ باقٍ -وللهِ الحمدُ- على مرِّ الزمانِ، بينما تتهاوى المذاهبُ الأخرى وتتساقَطُ، وإن قَوِيَت شوكتُها في بعضِ الأحيانِ، إلّا أنّها تتهاوى، ودينُ الرسولِ ﷺ يتجدّدُ.

انظروا إلى الشيوعيةِ في وقتِنا الحاضرِ ماذا بلغَتْ من القوّةِ والإرهابِ وإخافةِ العالَمِ، وفي فترةٍ وجيزةٍ ذابَتْ كما يذوبُ الملحُ في الماءِ، وأينَ هي الآن؟، لكنْ دينُ الإسلامِ لا يزالُ -وللهِ الحمدُ- يظهَرُ ويتجدّدُ، ولو ضَعُفَ أهلَهُ، إلّا أنه هو بنفسِهِ -وللهِ الحمدُ- دينٌ يتجدّدُ ويظهرُ في مرِّ الزمانِ، ومرِّ المكانِ.

الشاهد من الآية: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾، ومن الآية: «﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾»: أنَّ اللهَ جلَّ وعلا قَرَن النحرَ بالصلاةِ في الآيتينِ، فدلَّ على أنه عبادةٌ لا يجوزُ صرفُها لغيرِ اللهِ.

عَن عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: حَدَّثَنِي رَسُولُ الله ﷺ بِأَرْبعِ كَلِمَاتٍ: «لَعَنَ الله مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ الله، لَعَنَ الله مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، لَعَنَ الله مَنْ آوَى مُحدِثاً، لَعَنَ الله مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الأَرْضِ» رَوَاهُ مُسلِمٌ[1].

قوله: «**بأربع كلمات**» يعني: أربع جُمَلٍ، فالكلماتُ المُراد بها الجُمَل.

وقوله: «**لعن الله**» اللعن معناه: الطَّرْد والإبعادُ عن رحمةِ اللهِ سبحانه وتعالى.

«**من ذبح لغير الله**» أي: تقرَّبَ بالذبحِ لغيرِ اللهِ من الأصنامِ، ومن الأضرحةِ، ومن الأشجارِ والأحجارِ، والجنِّ، وغيرِ ذلكَ. فكلُّ من تقرَّبَ بالذبحِ إلى غيرِ اللهِ فإنه قد لعنَهُ اللهُ سبحانه وتعالى، وهذا يدلُّ على شدّةِ هذه الجريمةِ، فإنَّ اللهَ جلَّ وعلا لا يلعنُ إلَّا على جريمةٍ خطيرةٍ، فدلَّ على شدةِ جريمةِ مَنْ ذبحَ لغيرِ اللهِ، أيّاً كانَ هذا الذبحُ كثيراً أو قليلاً جليلاً أو حقيراً.

وذلك بأنْ يذكرَ على الذبيحةِ غيرَ اسمِ اللهِ أو يكونَ في نيّتِهِ وقلبِهِ واعتقادِهِ أنه يتقرّبُ بهذهِ الذبيحةِ إلى غيرِ اللهِ، أو يريدُ بهذهِ الذبيحةِ دفعَ شرِّ هذا المذبوحِ له، فيَذْبح للجنِّ من أجلِ دفعِ شرِّهم، وخوفاً منهم، أو يَذْبح للصَّنمِ من أجلِ أنَّ الصنمَ يجلِبُ له الخيرَ، كما يفعلُ بعضُ الجُهَّالِ؛ إذا تأخَّرَ المطرُ ذهبوا بِثَوْرٍ أو غيرِهِ من الحيوانِ وذبحوهُ في مكانٍ معيّنٍ، أو عندَ قبرٍ يريدونَ نزولَ المطرِ، وقد يُبتَلون فينزلُ المطرُ، وتحصلُ لهم حاجتُهم ابتلاءً وامتحاناً من اللهِ سبحانه وتعالى، وهذا لا يدلُّ على جوازِ ما فعلوهُ، من الشركِ والتقرّبِ لغيرِ اللهِ سبحانه وتعالى.

فمَنْ فعلَ ذلكَ فهو مشركٌ وملعونٌ، سواء تلفّظَ وقالَ: هذه الذبيحةُ للقبرِ، أو للبدويِّ، أو للسَّيد الحسين، أو لفلانٍ أو لفُلان، أو نَوى بقلبِهِ فقَطْ. وهذِهِ الذبيحةُ

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٧٨) بنحوه.

حرامٌ، لأنها تدخلُ في قولِهِ: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ فما أهلَّ بهِ لغيرِ اللهِ يشمَلُ ما ذُبح باسمِ غيرِ اللهِ، ويشملُ ما ذُبح باسمِ اللهِ ويُنْوى به الصنمُ أو الجنُّ أو العفاريتُ. والمُشَعْوِذُون الآنَ إذا جاءَهُم المرضى يأمرونَهم بالذبحِ لغيرِ اللهِ لأجلِ أن يشفوا من مرضِهم.

ويدخلُ في الذبحِ لغيرِ اللهِ أصنافٌ: ما ذُبحَ لغيرِ اللهِ على وجهِ التقرُّبِ، ولو قيلَ عليه: بسمِ اللهِ، وهذا حرامٌ بإجماعِ المسلمينَ، وهو شركٌ باللهِ عز وجل. وما ذُبحَ للّحمِ وسُمِّي عليه بغيرِ اسمِ اللهِ. وما ذُبح من أجلِ التحيّةِ والتعظيمِ، مثلَ: ما يُذبَح للملوكِ والرؤساءِ عندَ قدومِهم إذا نزلَ من الطائرةِ، أو من السَّيارةِ، أو من الدَّابةِ؛ ذبحوا عندَ نزولِهِ. وما يُذبحُ عندَ ابتداءِ المشروعِ، فبعضُ الجُهّالِ، أو بعضُ الذين لا يُبالونَ، إذا أنشؤوا مشروعاً -مصنعاً أو غيرَ ذلك- يذبحونَ عندَ تحريكِ الآلةِ وما يُذبح عند أول نزول البيت خوفاً من الجن، وهذا شرك، لأنه مما ذُبح لغيرِ اللهِ عز وجل. أما إذا ذَبَح ذبيحةً عندَ نزولِ البيتِ من بابِ الفرحِ والسرورِ، ودعوةِ الجيرانِ والأقاربِ، فهذا لا بأسَ به.

فالحاصلُ؛ أنَّ قولَه سبحانه: «﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾» وقوله: «﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾» وقول الرسولِ: «**لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ**» يشملُ كلَّ هذهِ الأمورِ:

١- ما ذُبِحَ للأصنامِ تقرّباً إليها.

٢- ما ذُبح للحمِ وذُكِر عليهِ اسمُ غيرِ اللهِ سبحانه وتعالى.

٣- ما ذُبح تعظيماً لمخلوقٍ وتحيّةً له عندَ نزولِهِ ووصولِهِ إلى المكانِ الذي يُستقبَل فيه.

٤ - ما ذُبح عندَ انحباسِ المطرِ في مكانٍ معينٍ أو عندَ قبرٍ لأجلِ نزولِ المطرِ.

٥ - ما يُذبَح عندَ نزولِ البيوتِ خوفاً من الجنِّ أَنْ تصيبه، كلُّ هذا يدخَلُ في الذبحِ لغيرِ الله، ويكونُ شركاً باللهِ سبحانه وتعالى.

قوله: «**لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ**» إنَّ اللهَ سبحانه وتعالى قَرَن حقَّ الوالدينِ بحقِّه سبحانه: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ [النساء: ٣٦]، فحقُّ الوالدينِ يأتي دائماً بعد حقِّ الله سبحانه وتعالى، كذلكَ النَّهيُ عن الإساءةِ إلى الوالدينِ تأتي بعدَ الإساءة في حقِّ اللهِ سبحانه وتعالى كما في حديثِ السبعِ الموبقاتِ[1]. فالذبحُ لغيرِ اللهِ، إساءةٌ في حقِّ اللهِ سبحانه وتعالى، ثم ذكَرَ تنقُّصَ الوالدينِ والإساءةَ إليهم بلعنِهم، فلا يجوزُ للولدِ أن يشتمَ والديه، وهذا من الكبائرِ، لأنَّ الرسولَ ﷺ لعنَ من فعَله، واللعنُ على الشيءِ يدلُّ على أنه كبيرةٌ، سواء لعنَهما بالمباشرةِ أو بالتسبّبِ، فبعضُ الناسِ لا يلعنُ والديهِ مباشرةً، لكِنْ يتسبّبُ في ذلكَ، بأنْ يلعنَ والدِيْ رجلٍ آخرَ، ثم يردُّ عليه بالمثلِ، فيكونُ مُتسبِّباً في لعنِ والديهِ، وقَدْ قالَ النبيُّ ﷺ: «**إِنَّ مِنَ الكَبَائِرِ أَنْ يَشْتُمَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ**»، قَالُوا: وَكَيْفَ يَشْتُمُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ يا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّ الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أُمَّهُ**»[2]، والمسلمُ لا يجوزُ أن يكونَ لعّاناً، ولا سبّاباً، ولا بذيئاً، المُسلمُ يجبُ أن يكونَ مؤدباً، ويتكلمُ بالكلامِ الطيّبِ ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ [البقرة: ٨٣]، ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، هكذا ينبغي للمسلمِ أنه يحفظ لسانَه عن القولِ البذيءِ، ولا سيّما إذا كانَ هذا القولُ من أقبحِ الكلامِ كاللعنِ والسبِّ والشتمِ، حتى البهائمُ والدوابُ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٦٧) ومسلم (٨٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٧٣) ومسلم (٩٠).

والدُّورُ والمساكنُ لا يجوزُ لعنُها، فقد لعنَتْ امرأةٌ ناقةً لها وهي تسيرُ معَ النبيِّ ﷺ، فأمر النبيُّ ﷺ بأخذِ ما على الناقةِ وتركِها تَمْشي، لا يتعرّضُ لها أحدٌ[١]، من باب التأديبِ والتعزيرِ فلا يجوزُ لعنُ الآدميين، ولا لعنُ الدوابِّ، ولا لعنُ المساكنِ، أو السياراتِ، أو غيرِ ذلك.

وقوله: «**لَعَنَ اللهُ مَنْ آوَى مُحْدِثًا**» آوى معناها: حَمَى، فالإيواءُ معناهُ: الحِمَى والدفع. والمُحْدِث: هو الذي فعَلَ جُرماً يستحقُّ عليه إقامةَ الحدِّ، فيَأْتي واحدٌ من النَّاسِ ويَحُول دونَ هذا المجرمِ ودونَ إقامةِ الحدِّ عليهِ، لجاهِهِ أو بقوَّتِه وسُلْطانه، أو بجنودِهِ، أو بغيرِ ذلكَ، فيمنعُ هذا المجرمَ من أن يقامَ عليهِ الحدُّ. وهذا لعنه رَسولُ اللهِ.

وفي الحديثِ الآخرِ: «**مَنْ حَالَتْ شَفَاعَتُهُ دُونَ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ؛ فَقَدْ ضَادَّ اللهَ فِي أَمْرِهِ**»[٢]، وفي حديث آخر: «**تَعَافُوا الحُدُودَ فِيمَا بَيْنَكُمْ، فَإِذَا بَلَغَتِ السُّلْطَانَ فَلَعَنَ اللهُ الشَّافِعَ وَالمُشْفِعَ**»[٣].

ولما سَرقَ رجلٌ رِدَاء صَفْوان بنِ أُميّة، وهو بالمسجدِ، فأمسكَهُ صفوانُ، وذهبَ بهِ إلى النبيِّ ﷺ فأمرَ النبيُّ ﷺ بقطعِ يدِهِ، فقالَ صفوانُ: الرِّداءُ له يا رسولَ اللهِ، أنا ما أردتُ هذا، قالَ: «**هلَّا قبلَ أن تأتيَني به**»[٤]، يعني: هلا سَمَحْتَ عنه قبلَ أن تأتِيَني به؟.

فإذا تقرّرَ الحدُّ في المحكمةِ الشرعيةِ فلا بدَّ من تنفيذِهِ، إلَّا إذا كانَ في إقامةِ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٥) وأبو داود (٢٥٦١).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٥٩٧) وأحمد (٢/ ٧٠).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٣٧٦) والنسائي (٤٨٨٦) ومالك في «الموطأ» (١٥٨٠).

(٤) أخرجه النسائي (٤٨٨٣) وأبو داود (٤٣٩٤) وابن ماجه (٢٥٩٥).

الحدِّ عليهِ ضررٌ على غيرِهِ، كالحاملِ إذا أُقيمَ عليها الحَدُّ تأثَّرَ الحملُ، فيؤخَّرُ إلى أنْ تلدَ، وتجدَ مَنْ يرضعُهُ وإلَّا تُركَتْ حتَّى تَفْطِمَهُ.

الحاصلُ؛ أنَّ إيواءَ أصحابِ الجرائمِ التي تستوجبُ الحدودَ، ومنعَ إقامةِ الحدودِ عليهم، من الكبائرِ، لأنَّ النبيَّ ﷺ لعنَ مَنْ فعلَهُ.

وفي بعضِ الرواياتِ بفتحِ الدَّالِ «**لَعَنَ اللهُ مَنْ آوَى مُحْدَثًا**» والمحدَث معناه: البدعةُ، ومعنى آوى المحدَث أي: رضي به. فمن رضِيَ بالبدعةِ، ولم يُنكِرْها وهو يقدرُ فقد آواها، يعني: مَنْ رأى البدعَ وسكتَ ولم يتكلَّمْ في إنكارِها والبيانِ للناسِ أنها بدعٌ، فقد آواها، يعني حماها بسكوتِهِ وتَرْكِه لها، فيكونُ مستوجباً للعنةِ، فكيفَ إذا دعا إليها ودافعَ عنها -والعياذُ باللهِ-.

ثمَّ قالَ ﷺ: «**لَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الأَرْضِ**» المنارُ: جَمْعُ منارةٍ، وهي: العلامةُ. والمرادُ بمنارِ الأرضِ للعلماءِ فيهِ ثلاثةُ أقوالٍ:

القول الأول: أنَّ المرادَ بمنارِ الأرضِ: المراسيم، ومعنى غيَّرها يعني: قدَّمَها أو أخرَّها عن مكانِها، وفي الحديث: «**مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ بِغَيْرِ حَقٍّ طُوِّقَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ**»[1].

والقول الثاني: أن المرادَ بمنارِ الأرضِ: أعلامُ الحَرَم الذي يحرُم قَتْلُ صيدِهِ وتَنْفِيرُه، ويحرُم قطعُ شجرِهِ وحشيشِهِ، وأخذُ لُقَطَتِه، فَقَدْ جعَلَ اللهُ حولَ الكعبةِ حرماً من كلِّ جانبٍ، وهذهِ المنطقةُ، لا يدخُلُها مشركٌ، ولا يُنَفَّر صيدُها، ولا يُخْتَلَى خلاها، ولا تُلْتَقَط لُقطتُها إلَّا لمُنْشِد، ولا يجوزُ القتالُ فيها إلَّا دفاعاً، فالمرادُ بمنارِ الأرضِ على هذا القولِ: أنصابُ الحَرَم، أي: الأعلامُ المَجْعولة

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٩٨) ومسلم (١٦١٠).

وَعَن طَارِقِ بنِ شِهَابٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «دَخَلَ الجَنَّةَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ، وَدَخَلَ النَّارَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ»، قَالَوا: وَكَيفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «مَرَّ رَجُلَانِ عَلَى قَومٍ لَهُم صَنَمٌ لَا يَجُوزُهُ أَحَدٌ حَتَّى يُقرِّبَ لَهُ شَيئاً، فَقَالَوا لأَحَدِهِمَا: قَرِّب. قَالَ: لَيسَ عِندِي شَيءٌ أُقَرِّبُه. قَالَوا بِهِ: قَرِّب وَلَو ذُبَاباً. فقَرَّبَ ذُبَاباً، فَخَلَّوا سَبِيلَهُ، فَدَخَلَ النَّارَ. وَقَالَوا للآخَرِ: قَرِّب. فَقَالَ: مَا كُنتُ لأُقَرِّبَ لأَحَدٍ شَيئَاً دُونَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ. فَضَرَبُوا عُنُقَهُ، فَدَخَلَ الجَنَّةَ». رَوَاهُ أَحمَدُ[1].

على الحَرَمِ من كلِّ جانبٍ، من جهةِ التَّنْعيمِ، ومن جهةِ الحُدَيْبِيَةِ، ومن جهةِ عرفات ونَمِرة، ومن جهةِ الجِعْرانةِ، أَنْصابٌ مبنيّةٌ وأعلامٌ مقامةٌ على حدودِ الحَرَم.

القول الثالث: أنَّ المرادَ بمنارِ الأرض: العلاماتُ التي على الطرقِ، وكانت معروفةً، وفي وقتِنا الحاضر اللوحاتُ التي تَجْعلُها المواصلاتُ على الطريقِ، هذه من منارِ الأرضِ، فلا يجوزُ لأحدٍ أن يُغيِّر هذه الأعلامَ، لأنهُ يضلِّلُ النَّاسَ والراجحُ من هذهِ الأقوالِ هو القولُ الأولُ.

***

قال: «**وعن طارق بن شهاب**» طارق بن شهاب البَجَلي الأَحْمَسي، صحابيٌّ جليلٌ، أدركَ النبيَّ ﷺ ولكنهُ لم يَسمعْ من الرسولِ ﷺ، فيكونُ حديثُهُ عن الرسولِ مُرسَل صحابي، ومراسيلُ الصحابةِ مقبولةٌ من غيرِ شكٍّ، لأنَّ الصحابيَّ لا يُرسِلُ إلّا عن صحابيٍّ مثلِهِ، فمراسيلُ الصحابةِ ليستْ كمراسيلِ غيرِهم لأنَّهم

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (ص١٥-١٦) وابن أبي شيبة (١٢/ ٣٥٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٠٣) والبيهقي في «الشعب» (٧٣٤٣)، والخطيب في «الكفاية» (ص١٨٥) من طرق عن طارق بن شهاب الفارسي موقوفاً عليه.

كلُّهم عدولٌ.

«**دخل الجنة رجل في ذباب**» هذا حديثٌ عجيبٌ، ولذلك تعجّبَ منه الصحابةُ، والرسولُ ﷺ ساقَه ولم يبيِّنْهُ من أجلِ أن ينتبهوا ويتشوّقوا لمعرفةِ معناه.

«**قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: مر رجلان على قوم**» يعني: من الأُممِ السابقةِ.

«**لهم صنم**» الصنم هو: ما كانَ على صورةِ حيوانٍ، أما ما عُبد وهو على غيرِ صورةِ حيوانٍ، كالشجرِ والحجرِ والقبرِ فهذا يُسمَّى وثناً، فالوثنُ أعمُّ من الصنمِ، لأنَّ الصنمُ لا يُطلقُ إلّا على التّمثالِ، وأما الوثنُ فيُطلقُ على التِّمثالِ وغيرِهِ، حتى القبرُ وثنٌ إذا عُبد، قالَ ﷺ: «**اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ**»، فالوثنُ كلُّ ما عُبدَ من دونِ اللهِ على أيِّ شكلٍ كان.

«**لا يجوزه أحد**» أي: يتجاوزُه ولا يمرُّ عليه أحدٌ، «**حتى يقرِّب له شيئاً**» يعني: يذبحُ له تعظيماً له.

«**فقال لأحدهما: قرّب، قال: ليس عندي شيء أقرِّبه**» اعتذرَ بالعدمِ، ولم يقُلْ: إنَّ الذبحَ لغيرِ اللهِ لا يجوزُ، أو هذا منكرٌ -والعياذُ باللهِ-، وهذا يدلُّ على أنه لو كان عندَهُ شيءٌ لقرَّبه.

«**قالوا له: قرِّب ولو ذباباً**» فقرِّبْ ذباباً، يعني: اذبحْه للصنمِ، «**فقرّب ذباباً فخلوا سبيله**» سمحوا له بالمرور، «**فدخل النار**» بسببِ الشركِ، وأنه ذبحَ لغيرِ اللهِ، والعبرةُ بالنيّةِ والقصدِ لا بالمذبوحِ.

والقصدُ أنه ما استنكرَ هذا الشيءَ، ولا تمنَّعَ منه، وإنما اعتذرَ بعدمِ وجودِ شيءٍ، فلذلكَ دخلَ النّارَ -والعياذُ باللهِ-.

«**وقالوا للآخر: قرِّب. فقال: ما كنت لأقرِّب لأحد شيئاً دون الله عز وجل**» امتنعَ وأنكرَ الشرك، «**فضربوا عنقه**» يعني: قتلوه، «**فدخل الجنة**» بسببِ التّوحيدِ.

فهذا الحديث حديث عظيم، فيه مسائل عظيمة:

المسألة الأولى: هذا الحديثُ فيه جوازُ الإخبارِ عن الأممِ السابقةِ، والتحدّثِ عنها بما ثبتَ لأجلِ العظةِ والعبرةِ.

المسألة الثانية: في الحديثِ دليلٌ على تحريمِ الذبحِ لغيرِ اللهِ، ومن ذبحَ لغيرِ اللهِ فقد أشرَكَ، لأنَّ هذا الرجلَ الذي ذبَح الذبابَ دخلَ النَّارَ، وحتى لو كانَ المذبوحُ شيئاً تافهاً، والرجلُ الثاني عظَّمَ الشركَ، وتجنَّبه ولو كانَ شيئاً حقيراً، فدخلَ الجنةَ.

المسألة الثالثة: كما قالَ الشيخُ رحمه الله في مسائلِهِ: أنَّ المدارَ على أعمالِ القلوبِ، وإِنْ كانَ الشيءُ الظاهرُ تافهاً، لكنَّ المدارَ على عملِ القلبِ.

المسألة الرابعة: فيه دليلٌ -كما قالَ الشيخُ رحمه الله- على قُربِ الجنَّةِ والنَّارِ من الإنسانِ، كما قالَ ﷺ: «**الجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ**»[1]، هذا ضربوا عنقَهُ فدخلَ الجنَّةَ، وذاك خلّوْا سبيلَه فدخلَ النَّار.

المسألةُ الخامسة: أنَّ هذا الرجلَ الذي ذبحَ الذبابَ كان مؤمناً، فدخلَ النَّارَ بذبحِهِ الذبابَ، لأنه لو كانَ كافراً لدخلَ النَّار بكفرِهِ، لا بذبحِ الذُّبابِ، فدلَّ على أنه كان مؤمناً، وهذهِ مسألةٌ خطيرةٌ جدّاً، فأينَ الذينَ يذبحونَ للقبورِ وللجنِّ، وللشياطينِ، وللعفاريتِ، وللسحرةِ؟، فدلَّ على أنَّ الشركَ الأكبرَ يخرجُ من الملةِ ولو كان شيئاً يسيراً، فأمورُ التّوحيدِ وأمورُ العقيدةِ لا يُتسامحُ فيها.

(١) أخرجه البخاري (٦٤٨٨).

الباب الحادي عشر:

بـابٌ لا يُذبح للَّه بمكان يُذبح فيه لغير اللَّه

قال الشيخُ رحمه الله: «**بابٌ لا يُذبح لله بمكان يُذبح فيه لغير الله**» هذا البابُ تابعٌ للبابِ الذي قبلَه؛ لأنَّ البابَ الذي قبلَه: «**ما جاء في الذبح لغير الله**» يعني: أنه محرَّمٌ وأنه شركٌ، وهذا البابُ فيه سدُّ الذريعةِ المُفْضيةِ إلى الذبحِ لغيرِ اللهِ.

وقوله: «**باب لا يذبحُ**» بضم (الحاء) على أن (لا) نافية، ويصلُح: «**لا يُذبحْ**» بإسكانها على أنّ (لا) ناهية، وحتى لو أخذناها على أنها نافية فالنفي هنا معناه: النَّهْي، فالنَّفْي يأتي بمعنى النهي، بل إذا جاءَ النَّهيُ بصيغةِ النَّفي كانَ أبلغَ، مثلَ قولِهِ ﷺ: «**لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ**» هذا نفيٌ معناه: النهي، ومثله قوله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]، هذا نفيٌ معناه النَّهي عن هذهِ الأمورِ.

وقوله: «**لا يذبحُ لله في مكان يذبح فيه لغير الله**» لأنَّ الذبحَ في هذا المكانِ وإنْ كانَ للهِ عز وجل، فإنه وسيلةٌ إلى الشركِ، وكذلكَ في الذبحِ في هذا المكانِ تعظيمٌ له ومشابهةٌ للمشركين، وقد نهى النبيُّ ﷺ عن الوسائلِ المُفْضيةِ إلى الشركِ، مثلَ: نهيِهِ عن الصلاةِ إلى القُبورِ وإنْ كانَ المصلي لا يُصلِّي إلَّا للهِ عز وجل، ونهي عن الدعاءِ عندَ القبورِ وإنْ كانَ الداعي لا يدعو إلَّا اللهَ وحدَه، لكنَّ هذا المكانَ لا يصلُح التعبدُ لله فيه، لأنه وسيلةٌ إلى الشركِ، وكذلكَ نهى عن الصلاةِ عندَ غروبِ الشمسِ لأنه وسيلةٌ إلى عبادتِها لأنَّ المشركينَ كانوا يسجدونَ لها في هذا الوقتِ؛ فكلُّ موطنٍ وكلُّ زمانٍ قد اتخذَهُ المشركونَ لعبادتِهم فإننا نُهينا أن نُشارِكَهم فيه، وأُمرنا أن نبتعدَ عنه، من بابِ سدِّ الذرائعِ، ومن بابِ قطْعِ المشابهةِ للمشركينَ، ممّا يعطي دينَ الإسلامِ استقلاليّةً تامّـةً عن

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿لَا نَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ الآية [سورة التوبة: ١٠٨].

كلِّ دينٍ سواهُ في الأديانِ الباطلةِ.

***

قوله: «**وقول الله تعالى: ﴿لَا نَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾**» أي: في مسجدِ الضرارِ، نهيٌ للنبيِّ ﷺ عن الصلاةِ في هذا المسجدِ.

وقصتُهُ: أنّ أبا عامر الفاسقَ كانَ قد قرأ الكتبَ السَّابقةَ في الجاهليةِ، وتعبَّد حتَّى صار يُقالُ له: (أبو عامر الراهب)، ويعظِّمُهُ النَّاسُ لِمَا يظهرُ عليه من الدِّينِ؛ فلمَّا هاجرَ النبيُّ ﷺ إلى المدينةِ حسدَهُ وكفرَ بهِ، وأبغضَ الرسولَ ﷺ؛ وسمّاهُ النبيُّ بـ(أبي عامر الفاسق)، لأنه خرجَ عن طاعةِ اللهِ وكفرَ برسولِ اللهِ ﷺ.

ثمَّ ذهبَ هذا الكافرُ إلى الشامِ يؤلِّبُ النَّصارى على رسولِ اللهِ ﷺ، وكتبَ وهو في الشامِ إلى جماعةٍ من المنافقينَ في المدينةِ: أنِ ابْنوا لنا مكاناً من أجلِ أن نجتمعَ فيه ونتشاورَ. يريدونَ أن يكونَ هذَا المكانُ محلَّ اجتماعٍ لأعداءِ الرسولِ ﷺ، يتشاورونَ فيه للكيْدِ للإسلامِ، وكانوا لم يَجْرؤُوا على أن يبنوهُ على أنه مَجْمَع، فأظهروهُ بصورةِ المسجد، وقالوا: بنَيْناه من أجلِ الضعيفِ والمريضِ والليلةِ المطيرةِ أو الليلةِ الشاتيَةِ، وطلبوا من الرسولِ ﷺ أن يصليَ فيه، يريدونَ من هذا التغطيةَ والخديعةَ.

فوعدَهم ﷺ وقالَ: «**إنا على سفر إلى غزوة تبوك، إنْ شاء الله إذا رجعنا نصلي فيه**»، فلمَّا رجعَ النبيُّ ﷺ من تبوكٍ ولم يبقَ على وصولِهِ إلى المدينةِ إلّا ليلةٌ -أو ليلتان- أتاهُ الوحي من السماءِ، قالَ اللهُ سبحانه وتعالى: ﴿لَا نَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾، وبيّنَ سبحانه مقاصدَهم الخبيثةَ في هذا البناءِ[1].

---

(١) انظر «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٤١) تحقيق عبدالرزاق المهدي.

وقوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ فيه: منعُ الرسولَ ﷺ من الصلاةِ في هذا المسجدِ وتَيْئِيس لهؤلاءِ.

ففي هذه الآياتِ: أنَّ النيّاتِ تؤثِّر في الأمْكنةِ والمباني، النيّاتُ الخبيثةُ تؤثِّر في الأمكنةِ والبِقاعِ خبثاً، والنيّاتُ الصَّالحةَ تؤثِّر فيها بركةً وخيراً. ففيها: الحثُّ على إصلاحِ المقاصدِ، وفيها: دليلٌ على أنَّ الاعتبارَ بالمقاصدِ لا بالمظاهرِ؛ هؤلاءِ بنَوْا مسجداً في الظاهرِ، ولكنْ ليسَ مقصودُهم المَسْجدَ، فدلَّ على أنَّ ما كلُّ مَنْ أظهرَ الصلاحَ يُقبَلُ منه حتى تُعرفَ حقيقتُهُ. وفيه: التنبيهُ على خِداعِ المخادِعينَ، وأن يكونَ المؤمنونَ على حذرٍ دائماً من المشبوهينَ ومن تضليلِهم، وأنهم قد يتظاهرونَ بالصَّلاحِ، ويتظاهرون بالمشاريعِ الخيريةِ، ولكِنْ ما دامَتْ سوابقُهُم وما دامَتْ تصرُّفاتُهم تشهدُ بكذبِهم فإنه لا يُقبل منهم، ولا ننخدعُ بالمظاهرِ دونَ نظرٍ إلى المقاصدِ وإلى ما يترتّبُ -ولو على المدَى البعيدِ- على هذهِ المظاهرِ. ففيه: تنبيهُ المسلمين إلى الحذرِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ من تضليلِ المشبوهينَ، وأَنَّ كُلَّ مَنْ تظاهرَ بالخيرِ والصلاحِ والمشاريعِ الخيريةِ لا يكونُ صالحاً، إلَّا مَنْ لم يكُنْ لهُ سوابقُ في الإجرامِ، ولم يُعرَفْ عنه إلَّا الخيرُ؛ فهذا يُقبلُ منه، لكن من كانَ معروفاً بالسوابِق السيِّئةِ والمكائدِ الخبيثةِ، أو يظهرُ عليه أو على فلتاتِ لسانِهِ أو على كَلامِهِ شيءٌ؛ فإننا نأخذُ الحذرَ منه ولا ننخدعُ، لأنَّ اللهَ جلَّ وعلا نهى رسولَه أَنْ يصليَ في مكانٍ أُعِدَّ للمعصيةِ، فدلَّ هذا على أنه لا يُذبَحُ للهِ في مكانٍ يُذْبح فيه لغيرِ اللهِ، كما لا يُصلَّى للهِ في مكانٍ أُعِدَّ للمعصيةِ والكفرِ، كذلك لا يُذبحُ للهِ في مكانٍ أُعِدَّ للمعصيةِ. وقوله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ [التوبة: ١٠٨] هو مسجدُ قباءٍ لصلاحِ نيةِ أهلِهِ رضي الله عنهم.

وَعَن ثَابِتِ بنِ الضَّحَاكِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: نَذَرَ رَجُلٌ أَن يَنحَرَ إِبلاً بِبُوانَة، فَسأَلَ النَّبيَّ ﷺ؟ فقَالَ: «هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟» قَالُوا: لَا. قَالَ: «فَهَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟» قَالُوا: لَا.

وفيه: دليلٌ على فضيلةِ مسجدِ قباء، وفضلِ أهلهِ رُضْوان اللهُ عليهم، وأنّ هذا المسجدَ بقيَ له الفضلُ في الإسلام إلى أنْ تقومَ الساعةُ، ويقصد للصلاةِ فيه ممّن كان في المدينةِ اقتداءً بالنبيِّ ﷺ.

* * *

قال: «**وعن ثابت بن الضحّاك**» الأشهلي رضي الله عنه، صحابيٌّ جليل.

«**أنّ رجلاً نذر**» النذرُ في اللغةِ هو: الالتزامُ-؛ يقالُ: نذر كذا إذا التزمَه، ونذَرَ دمَ فلانٍ بمعنى أنه التزمَ أن يَقْتُلَه. وأمّا في الشرعِ: فالنذرُ معناه: «**إلزامُ المكلَّفِ نفسَه طاعةً لله لم تُجَبْ عليه بأصلِ الشرعِ**» من صلاةٍ وصيامٍ وحجٍّ وعمرةٍ وصدقةٍ وغيرِ ذلكَ.

والنذرُ -في الأصلِ- غير مُشروعِ، ولا يُستحبُّ للإنسانِ أنه يَنْذر لنهيِهِ ﷺ عن النَّذرِ وقالَ: «**إِنَّ النَّذْرَ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ البَخِيلِ**»[1]، وفي روايةٍ[2]: «**لا تنذروا**» -بالنهي- «**فإن النذر لا يأتي بخير**»، فما دامَ الإنسانُ على السَّعَةِ فإنه لا ينبغي له أن ينذرَ ليكونَ في سَعةٍ، إنْ أرادَ أن يتعبّدَ ويأتي بالطاعةِ أتى بها، وإلّا فليستْ لازمةً له، ولكنّه إذا نَذَر ورَّطَ نفسَه، ووجبَ عليهِ الوفاءُ بالنَّذرِ، قالَ تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾ [الإنسان: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩]، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٩٣) ومسلم (١٦٣٩).

(٢) لمسلم (١٦٤٠).

نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٧٠]، وقال ﷺ: «**مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ**»(١).

«**أَنْ يَنْحَرَ إِبِلاً**» النَّحر معناهُ: ذَبْحُ الإبلِ في النَّحر -وهو اللَّبَّة-، يُقالُ: نحرَ البعيرَ، وذبحَ الشاةَ والبقرةَ. فالنَّحرُ خاصٌّ بالإبلِ، وأما الذَّبْحُ فيكونُ لغيرِ الإبلِ.

«**ببُوانة**» (بُوانة) اسمُ موضِعٍ بينَ مكةَ والمدينةَ، قيلَ: إنه قريبٌ من مكةَ عند (السعديّة) التي هي (يَلَمْلَم) ميقات أهلِ اليمنِ، وقيلَ: إنه قريبٌ من المدينةِ عندَ (ينبع). فالحاصلُ؛ أنه اسمُ موضعٍ بينَ مكةَ والمدينة.

«**فسَأل النبي ﷺ**» فيه دليلٌ: على الرجوعِ إلى أهلِ العلمِ، وأنَّ الإنسانَ لا يقدِمُ على شيءٍ من العباداتِ حتَّى يعرفَ هل هو مشروعٌ أو غيرُ مشروع؟.

«**فقال النبي ﷺ: «هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟**» يعني: هلْ كانَ في هذا المكانِ -ببُوانةَ- وثنٌ من أوثانِ الجاهليةِ يُعبدُ، يعني: وأُزيل الآنَ.

والوَثَن: كلُّ ما عُبِدَ من دونِ اللهِ من حجرٍ ومن شجرٍ أو صورةٍ أو قبرٍ، أما الصنمُ فهو خاصٌّ بما كانَ على صورةٍ.

و «**الجاهلية**» المرادُ بها: ما كانَ قبلَ الإسلامِ. وقد زالتْ -بحمد اللهِ- ببعثةِ النبيِّ ﷺ، لكنْ قَدْ يبقى منها أشياءٌ في بعضِ الناسِ، مثلَ قولِ النبيِّ ﷺ لبعضِ أصحابِهِ: «**إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ**»(٢)، ومثلَ قولِهِ ﷺ: «**أربع في أمتي من أمر الجاهلية؛ الطعن في الأنساب، والفخر بالأحساب والاستقاء بالنجوم والنياحة على الميّت**»(٣). فقَدْ يبقى من أعمالِ الجاهليةِ شيءٌ في بعضِ المسلمينَ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٩٦).
(٢) أخرجه البخاري (٣٠) ومسلم (١٦٦١).
(٣) أخرجه البخاري (٩٣٤).

أما الجاهليةُ العامةُ فقد زالتْ ببعثةِ النبيِّ ﷺ، لا كما يقولُ بعضُ الكُتّابِ: (جاهلية القرن العشرين)، أو (الجاهلية الحديثة) فلا يجوزُ مثلَ هذا التعبيرِ لمَا فيه من التعميم. فهذا فيه: دليلٌ على أنَّ الصَّنَم ولو زالَ وأنَّ الوثَن ولو زالَ من المكانِ أنّ هذا المكانَ يُترك ولا يُذبحُ فيه، لأنه قالَ: «**هَلْ كَانَ فِيهَا**»، يعني: في الزمان الماضي؛ فدلَّ على أنّ مكانَ الوثنِ يجِبُ أن يُهجَر قال تعالى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥﴾ [المدثر: ٥] الرجزُ الأصنامُ وهجرُها: تركُها وتركُ المكانِ الذي كانَتْ فيه.

ثمَّ قالَ: «**فهل كان فيها عيدٌ من أعيادهم؟**» العيدُ: اسمٌ لِمَا يعودُ ويتكرَّرُ من الزمانِ أَوِ المكانِ. فالعيدُ الزمانيُّ مثلَ: عيدِ الفطرِ وعيدِ الأَضْحى. والعيدُ المكاني: وهو المكانُ الذي يجتمعُ النَّاسُ فيه للعبادةِ مثلَ: عَرفة، ومُزْدلفة، ومنى، هذه أعيادٌ للمسلمينَ المكانية والزمانية.

والشَّاهد من هذا الحديثِ للبابِ في قوله ﷺ: «**هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ... فَهَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ**» فَدلَّ على أنه لا يُذبحُ للهِ في مكانٍ كان في السابقِ يُذبحُ فيه لغيرِ اللهِ، لأنَّ هذا وسيلةٌ إلى الذبحِ لغيرِ اللهِ عز وجل، كالصَّلاةِ عندَ القبرِ، وكالدعاءِ عندَ القبرِ، كُلُّ الوسائلِ التي تُفضي إلى الشركِ ممنوعةٌ؛ وكإسراجِ القبورِ نهى عنه النبيُّ ﷺ لأنه وسيلةٌ إلى الشركِ، والبناءِ على القبورِ نهى عنه الرسولُ ﷺ لأنه وسيلةٌ إلى الشرك؛ كلُّ الوسائلِ التي تُفضي إلى الشركِ نهى عنها ﷺ، ومنها: الذبحُ للهِ في مكانٍ يُذبحُ فيه لغيرِ اللهِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَوْفِ بِنَذْرِكَ؛ فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[١]، وَإِسْنَادُهُ عَلَى شَرْطِهِمَا.

وقوله: «**أوف بنذرك**» فيه دليلٌ على وجوبِ الوفاءِ بالنذرِ إذا كانَ نذرَ طاعةٍ، وقوله: «**فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله**»[٢] فيه تحريمُ الوفاءِ بنذرِ المعصيةِ ومنه نذرُ الذبحِ في مكانٍ يذبحُ فيه لغيرِ اللهِ.

فهذا الحديث يدلُّ على مسائل عظيمة:

المسألة الأولى: أنّ الذبحَ عبادةٌ لا تجوزُ لغيرِ الله.

المسألة الثانية: فيه: مشروعيةُ الرجوعِ إلى أهلِ العلمِ وسؤالِ أهلِ العلمِ؛ لأنَّ هذا الرجلَ لم يُقدِمْ على تنفيذِ النذرِ إلَّا بعدَ أَنْ سألَ النبيَّ ﷺ.

المسألة الثالثة: في الحديثِ دليلٌ على مشروعيةِ تثبُّت المفتي من حالِ السائلِ ومقاصدِهِ قبلَ إصدارِ الفتوى؛ لأنَّ الرسولَ ﷺ تثبّتَ قبلَ الفتوى؛ وبعضُ النَّاسِ يتسرَّعُ في الفتوى مباشرةً قبلَ أن يُكْملَ السائلُ السؤالَ أو قبلَ أن يعرفَ مَقْصدَهُ.

المسألة الرابعة: وهي الشاهدُ للبابِ: أنه لا يُذبحُ للهِ بمكانٍ يُذبحُ فيه لغيرِ اللهِ عز وجل، لأنَّ هذا من وسائلِ الشركِ.

المسألة الخامسة: فيه: خطورةُ الذبحِ لغيرِ اللهِ؛ لأنه إذا كانَ لا يُذبَحُ للهِ في المكانِ الذي يُذبحُ فيه لغيرِ اللهِ فكيفَ بالذبحِ لغيرِ الله؟.

المسألة السادسة: فيه: وُجوبُ الوفاءِ بالنذرِ إذا كانَ نذرَ طاعةٍ.

---

(١) برقم (٣٣١٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٣١٣).

المسألة السابعة: فيه: أنّ النذرَ إذا كانَ نذرَ معصيةٍ أو أنه لا يجوزُ الوفاءُ به أو في شيءٍ لا يملِكُهُ النَّاذِرُ فإنه لا يلزمُهُ؛ وإنما اختلفَ العلماءُ: هل عليهِ كفّارةُ يمينٍ أو لا؟، على قولينِ أَرْجَحهما ليس عليه شيءٌ.

المسألة الثامنة: في الحديثِ: دليلٌ على تحريمِ نذرِ المعصيةِ، كمن نَذَرَ أن يقتلَ فلاناً -أو نَذَرَ الذبحَ لغيرِ اللهِ، أَوْ نَذَرَ الذبحَ في مكانٍ يُذبَحُ فيه لغيرِ اللهِ، وفيه: دليلٌ على تحريمِ الوفاءِ بنذرِ المعصيةِ.

* * *

الباب الثاني عشر:

باب من الشرك النذر لغير الله

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ [سورة الدهر: ٧].

قال الشيخُ رحمه الله: «باب من الشرك النذر لغير الله» النَّذْرُ في اللغةِ: التزامُ فعل الشيءِ. وفي الشَّرعِ: التزامُ مُكلَّفٍ فِعْلَ طاعةٍ لم تَجِبْ عليه بأصلِ الشَّرْعِ. وهذا منهيٌّ عنه؛ لما فيه من إحراجِ الإنسانِ لنفسِهِ، وتحميلِها شيئاً قد يشُقُّ عليها، وكان قبلَ أن ينذرَ في سَعةٍ من أمرِهِ؛ إنْ شاءَ فعَلَ هذه الطاعةَ المستحبةَ، وإن شاءَ لم يفعَلْها، فلمَّا نذرَ فِعْلَها لزمَتْه.

والدَّليلُ على أنَّ الوفاءَ بنذرِ الطاعةِ عبادةٌ: أنَّ اللهَ سبحانه ذكَرَ أنَّ من صفاتِ الأبرارِ: أنَّهم «﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾»، وأمَرَ بالوفاءِ به بقولِهِ: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾، وقال النبيُّ ﷺ: «**مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ**»(١).

وإذا كانَ كذلكَ فهو من أنواعِ العبادةِ، لأنَّ العبادةَ كما عرَّفها شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ: «**اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبُّهُ اللهُ ويرضاهُ من الأعمالِ والأقوالِ الظاهرةِ والباطنةِ**»(٢)، فكلُّ أنواعِ الطاعاتِ التي أمرَ اللهُ بها، أو أمرَ بها رسولُهُ ﷺ ومنها الوفاءُ بالنَّذْرِ عبادةٌ، فمَنْ صرفَ شيئاً من هذهِ الأنواعِ لغيرِ اللهِ صارَ مشركاً الشركَ الأكبرَ الذي يُخرجُهُ من المِلَّةِ.

والشيخُ رحمه الله في هذهِ الأبوابِ إنما يَحْكي أنواعاً تقعُ من بعضِ النَّاسِ وهي من الشركِ، يريدُ أن يحذرَ المسلمينَ منها، ومن ذلكَ: النذرُ لغيرِ اللهِ من

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٩٦).

(٢) «العبودية» (ص٣٨).

الجنِّ، و الأولياءِ والصالحينَ، أَوْ أصحابِ القبورِ، وهذا عبادةٌ لغيرِ اللهِ عز وجل فهو شركٌ، وهذا واقعٌ في هذهِ الأمةِ بكثرةٍ، من حينِ وُجِدَت الأضرحةُ، وبُنيتْ على القبورِ، وصارَ كثيرٌ من الناسِ يتجهونَ إليها، لأنهم قيلَ لهم: إنَّ هذهِ القبورَ فيها بركةٌ، وفيها نفعٌ، وفيها دفعُ ضررٍ، وإنها مجرَّبةٌ، فمن نذَرَ للقبرِ الفلانيِّ، أو للشيخِ الفلانيِّ، فإنه يحصلُ له مقصودُهُ، إن كان مريضاً يُشفى، وإن كانَتْ امرأةٌ تريدُ الحملَ فإنها إذا نذرَتْ للشيخِ الفلانيِّ أو للقبرِ الفلانيِّ تَحْمل، وإذا حصَلَ بالناسِ تأَخُّرُ مطرٍ ونذروا لهذهِ القبورِ نزل المطرُ، إلى غيرِ ذلكَ من المُغْرياتِ.

وقد يفعلونَ هذا ويحصلُ لهم مقصودُهم ابتلاءً وامتحاناً من اللهِ سبحانه وتعالى، أو أنَّ هذا يصادفُ قضاءً وقدراً فيحصلُ، ويظنوا أنهُ بسببِ النَّذْرِ لهذا الميتِ أو لهذا القبرِ أو هذا الوليّ -بزعمِهم-.

وحصولُ المقصودِ لا يدلُّ على جوازِ الفعلِ، فيجبُ أن يُتنبَّهَ لهذهِ الشبهةِ، لأنَّهم أَهْلكوا بها كثيراً من النَّاسِ، يقولونَ: القبرُ الفلانيُّ مجرَّبٌ، إذا فعلَ الإنسانُ عندَه نذراً أو ذبَحَ ذبيحةً يحصلُ له مقصودُه، فبذلكَ انصرفَتْ قلوبُ كثيرٍ من العوامِ والجُهَّالِ، أو حتى بَعْضٍ من العلماءِ غيرِ المحقِّقينَ إلى فعلِ هذا، والنبيُّ ﷺ يقولُ: «**وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئِمَّةَ المُضِلِّينَ**»[1]، فالخطرُ شديدٌ من هذهِ الأمورِ، لأنَّها كثُرَتْ في الأمةِ، بسببِ وجودِ هذهِ الأوثانِ التي يُسمُّونها الأَضْرحة: ضريح السِتِّ نفسيةَ، ضَريح البدوي، ضَريح لفلانٍ، صُرفَتْ لها العباداتُ، من نـذورٍ، وذبحٍ لغيرِ اللهِ، وتبرُّكٍ بها، وطوافٍ بها، ودعاءٍ عندَها، إلى غيرِ ذلكَ، أو استغاثـةٍ بها من دونِ اللهِ عز وجل، يدعونَها: المددُ يا فلانُ، المـددُ يا سيّدي فلان، أو يا رسولَ اللهِ، أو يا عليّ، أو يا أَيّ شخص ينادونَهُ، حتَّى في حالةِ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٥٢).

الشدائدِ التي كانَ المشركونَ الأولون يُخلصونَ فيها الدعاءَ للهِ، هؤلاء كُلمَّا اشتدَّ بهم الكربُ زادَ شركهم فصاروا يستغيثونَ بالأولياءِ، فالسفينةُ -أو المركبُ- إذا غرقَ في البحرِ -أو أشرف على الغرق- صاروا ينادون علياً، أو فلاناً، أو فلاناً؛ أدركنا، المددُ يا فلان، ولا يقولون: يا اللهُ، معَ أنَّ المشركينَ الأوّلينَ إذا مسَّهُم الضرُّ في البحرِ ضلَّ من يدعونَ إلَّا اللهَ سبحانه وتعالى، فينادونَ اللهَ، ويُخلصونَ له الدينَ، فإذا أنجاهُم إلى البرِّ عادوا إلى الشركِ.

والنذرُ على قسمينِ: نَذْر طاعةٍ، ونذرِ معصيةٍ.

فنذرُ الطاعةِ مثلَ: الاعتكافِ في المسجدِ الحرامِ، أو الصلاةِ في المسجدِ الحرامِ، أَوْ المسجدِ الأَقْصى، أَوِ المَسْجد النبويِّ أو غيرِها من المساجدِ ينذرُ أن يصليَ في أحدِ المساجدِ الثلاثةِ، ويُسافرُ إليه من أجلِ ذلك، هذا نذرُ طاعةٍ، وهو في الأصلِ غيرُ واجبٍ، لكِنْ لما نذَرَهُ وجَبَ عليه بنذرِهِ، والدُّخولُ في النذرِ ابتداءً غيرَ مرغَّبٍ فيه، والنبيُّ ﷺ نهى عن النَّذْرِ، قال: «**لا تنذروا، فإن النذر لا يأتي بخيرٍ، وإنما يُستخرَجُ به من البخيل**»[1]، وذلك لأنَّ الإنسانَ في سَعَة في أمورِ الطاعةِ غيرِ الواجبةِ، إنْ شاءَ فعلَها وله أجرٌ، وإن شاءَ تركَها ولا حرجَ عليه، واللهُ لا يحبُّ لنا أن نكلفَ أنفسَنا شيئاً لم يوجبْهُ علينا: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وإدخالُ الإنسانِ نفسَه في نذرِ غيرِ واجبِ عليهِ في الأصلِ، قد يعجزُ، وقد يشقُّ عليه، وعلى هذا تُنزَّلُ الأدلةُ التي تمدحُ الذينَ يوفونَ بالنَّذْرِ، قال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾ [الإنسان: ٦] هذا مدحٌ لهم، بعدَ أن ينذروا ليسَ مدحاً للدخولِ في النَّذْرِ، وإنما هو مدحٌ للوفاءِ به بعدَ لزومِهِ، فالإنسانُ إذا التزمَ شيئاً للهِ من الطاعةِ وجَبَ

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٤٠).

وَقَولُهُ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [سورة البقرة: ٢٧٠].

عليه الوفاءُ، قالَ ﷺ: «اقضوا الله، فالله أحق بالقضاء»(١).

ونذرُ الطاعةِ دَيْنٌ في ذمةِ المسلمِ؛ يجِبُ عليه الوفاءُ به، ومن هنا مدَحَهُمُ اللهُ.

فوجهُ الاستدلالِ من الآيةِ الكريمةِ على أن النذرَ لغيرِ اللهِ شركٌ: لأنها دلّت على أنَّ النذرَ عبادةٌ، لأنَّ اللهَ مدَحَ الموفين به، وإذا كان عبادةً فصرفُهُ لغيرِ اللهِ شركٌ.

***

وفي الآية الثانية من سورةِ البقرةِ قوله تعالى: «﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾» ولازمُ ذلك: أن يجازيَكُم عليه، وهذا من بابِ الحثِّ على الوفاءِ بالنذرِ.

ووجهُ الاستدلالِ من الآيةِ الكريمةِ من وجهينِ:

الوجه الأول: أنّ الله قَرَن النذرَ بالنفقةِ، والنفقةُ في سبيلِ اللهِ طاعةٌ، فدلَّ على أن النَّذرَ طاعةٌ.

الوجه الثاني: قوله: «﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾» وهذا من بابِ الحثِّ على النفقةِ، وعلى الوفاءِ بالنذرِ؛ فدلَّ على أنه طاعةٌ، وإذا كانَ النذرُ طاعةً، وإذا كانَ النذرُ طاعةً، فإنَّ صرفَهُ لغيرِ اللهِ شركٌ. هذا وجهُ استدلالِ المصنّفِ رحمه الله.

***

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٥٢).

وَفِي الصَّحِيحِ[1] عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْها: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ:

قال: «**وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها**» عائشةُ هي أمُّ المؤمنين، بنتُ أبي بكرٍ الصديقُ -رضِيَ اللهُ تَعالى عنها-، عقدَ عليها رسولُ اللهِ ﷺ وهي في سنِّ السَّابعةِ، ودخلَ بها وهي في سِنِّ التاسعةِ.

وهذا فيه دليلٌ على جوازِ تزويجِ الصغيرةِ وإن لم يكُنْ لها إذنٌ، لأنها في سنِّ السابعةِ ليس لها إذنٌ، ولكنْ وليُّها يقومُ مقامَها إذا رأى المَصْلحةَ أَنْ يزوِّجَها وهي صغيرةٌ، بأَنْ يزوجَها من رجلٍ صالحٍ، أو مِنْ عالمٍ تقيٍّ، لأنَّ لها مصلحةً في ذلكَ، كما زوَّجَ الصدِّيقُ رسولَ اللهِ هذهِ الطفلةَ الصغيرةَ التي هي في سِنِّ السابعةِ، وهي في هذا السنِّ ليسَ لها إذنٌ، لكنَّ وليَّها يقومُ مقامَها إذا رأى المصلحةَ.

كما أنَّ فيه دليلاً على تزوُّجِ الكبيرِ بالشَّابةِ، والآن ينادونَ ويحذّرونَ منه، ويشنِّعونَ على تزويجِ الكبيرِ، ويعتبرونَهُ جريمةً؛ ووحشيّةً، ويندّدون بمَنْ فعلَهُ في الصُّحُفِ والمجلَّاتِ ووسائلِ الإعلامِ، بل رُبَّما في الخُطَبِ والمُحاضراتِ، وهذا الرسولُ ﷺ سيّدُ الخلقِ تزوّجَ عائشةَ وهو في سنِّ الخمسينَ تقريباً، وهي في سنِّ السابعةِ، فدلَّ على أنهُ لا بأسَ به، بل يُرغَّبُ في تزويجِ الكبيرِ من الشابّةِ إذا كانت المصلحة في ذلك، وأنَّ هذهِ سنَّةٌ نبويةٌ، هذا إذا كانَتِ المصلحةُ في ذلكَ.

أما إذا لم يكُنْ هناكَ مصلحةٌ، وإنما هو استغلالٌ من وليِّ هذهِ الطفلةِ من أجلِ أن يأكلَ مهرَها، ومن أجلِ أن يستغلَّ تزويجَها، وهي ليسَ لها مصلحةٌ؛ فهذا لا يجوزُ.

إنَّما نقولُ: إذا كانتِ المصلحةُ في ذلكَ فلا حرجَ في تزويجِ الكبيرِ من الشابّةِ، إذا كانَ في ذلك مصلحةٌ وخيرٌ، وأنَّ هذا من سنةِ الرسولِ ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٩٦).

«مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ الله فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ الله، فَلَا يَعْصِهِ».

وكانت رضي الله عنها أفضل نساءِ النبيِّ ﷺ ما عدا خديجةَ رضي الله عنها، فهناكَ خلافٌ: هل خديجةُ أفضلُ من عائشةَ؟، أو عائشةُ أفضلُ من خديجةَ؟.

من العلماءِ مَنْ قالَ: بأنَّ خديجةَ أفضلُ من عائشةَ، ومنهم مَنْ قالَ: عائشةُ أفضلُ من خديجةَ. والحقيقةُ أنَّ لكلٍّ منهما فضائلَ لا تشاركُها فيها الأخرى، لعائشةَ فضائلُ لا تشاركُها فيها خديجةُ، ولخديجةَ فضائلُ لا تشاركُها فيها عائشةُ. والإجماعُ على أنَّ خديجةَ وعائشةَ أفضلُ نساءِ النبيِّ ﷺ، إنما الخلافُ في أيِّهما أفضلُ.

وكانَتْ عائشةُ فقهيةً من فقهاءِ الصَّحابةِ، وكانَتْ راويةً للأحاديثِ عن الرسولِ ﷺ، وكانَ كبارُ الصحابةِ يرجعونَ إليها في الرِّوايةِ والفتوى، -رضي اللهُ تعالى عنها وأَرْضاها-، فهي عالمةٌ فقيهةٌ، وهي أمُّ المؤمنينَ، وهي بنتُ الصديقِ الذي هو أفضلُ الصَّحابةِ، فلها فضائلُ -رضِيَ اللهُ تعالى عنها-، ولها مزايا.

وقد روَتْ **«مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فَلَا يَعْصِهِ»** الحديثُ صريحٌ في أنَّ النذرَ يكونُ طاعةً، وإذا كانَ طاعةً فهو عبادةٌ، وإذا كانَ عبادةً، فصرفُهُ لغيرِ اللهِ شركٌ أكبرُ.

هذا وجهُ استدلالِ المصنفِ رحمه الله بهذا الحديثِ للبابِ.

فقوله: **«مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ»** بصلاةٍ، بصيامٍ، بحجٍّ، بعمرةٍ، بصدقةٍ، باعتكافٍ، أو بغيرِ ذلكَ من أنواعِ الطاعاتِ.

«فليطعه» بفعلِ هذا النذرِ.

فدلَّ هذا على أنَّ النذرَ عبادةٌ، وعلى أنهُ يجِبُ الوفاءُ به، لأنه دَينٌ للهِ عز وجل في ذمةِ النَّاذرِ.

«**وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فَلَا يَعْصِهِ**» كأَنْ نَذَرَ أن يقطعَ رحمَهُ، وأن لا يصلَ أباه أو أمَّهُ أو أخاهُ. فهذا نذرُ معصيةٍ لا يجوزُ له الوفاءُ به، أو نَذَرَ أن يقتلَ فلاناً؛ فهذا لا يجوزُ الوفاءُ به لأنه معصيةٌ، لأنَّ القتلَ بغيرِ حقٍّ معصيةٌ كبيرةٌ، فلا يجوزُ الوفاءُ به، أو نَذَر أَنْ يتركَ الصلاةَ، أو أَنْ يشربَ الخمرَ. كلُّ هذهِ نذورُ معصيةٍ، سواءً كانَتِ المعصيةُ بتركِ واجبٍ أو بفعلِ محرَّمٍ، من نذرَ ذلكَ فإنه لا يجوزُ له الوفاءُ بهذا النذرِ، لأنه معصيةٌ للهِ.

ومِن ذلكَ -بل أولى-: إذا نَذَر للقبورِ، لأنَّ النذرَ للقبورِ شركٌ وهو من أعظمِ المعاصي، فلا يجوزُ له الوفاءُ به كما إذا نذَرَ أن يذبحَ للبدويِّ، أَن يذبحَ لأيِّ ضريحٍ من الأضرحةِ، أو أَنْ يذبحَ للجنِّ، أو أن يذبحَ للأولياءِ والصالحينَ يرجو نفعَهُم أو دفعَ الضررِ عنه بالذبحِ لهم؛ فهذا من أعظمِ أنواعِ المعصيةِ، ويدخلُ في قوله: «**وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فَلَا يَعْصِهِ**»، لأنَّ المعصيةَ قد تكونُ شركاً، وقد تكونُ دونَ ذلك.

فالحديثُ إذاً دليلٌ على أنَّ النذرَ عبادةٌ، وأنهُ إذا نذَرَ عبادةً وجبَ عليهِ الوفاءُ بها، ولو صرفَها لغيرِ اللهِ صارَ مشركاً، وعلى أنه لو نَذَر فِعْلَ الشركِ، فإنه لا يجوزُ له الوفاءُ به، وكذلكَ إذا نذرَ المعصيةَ التي هي دونَ الشركِ، لا يجوزُ له الوفاءُ بنذرِ المعصيةِ، وهذا محلُّ إجماعٍ: أنه لا يجوزُ لهُ الوفاءُ بنذرِ المعصيةِ، ولكِنْ اختلفوا: هل تجبُ عليهِ كفّارةُ يمينٍ أو لا تجبُ؟، من العلماءِ من رأى أنه تجِبُ عليه كفّارةُ يمينٍ بدلَ النذرِ، ومنهم مَنْ يرى أنه لا يجبُ عليهِ كفّارةُ يمينٍ، نظراً لأنَّ نَذْرَ المعصيةِ غيرُ مُنْعَقِدٍ أصلاً، فليسَ فيهِ كفّارةُ يمينٍ. ولأنَّ النبيَّ ﷺ في هذا الحديثِ نهى عن فعلِهِ ولم يأمُرْ بالكفارةِ.

وعلى كلِّ حالٍ؛ تبيّنَ لنا من خلالِ هذهِ الآياتِ الكريمةِ وهذا الحديثِ أن

النذرَ عبادةٌ، وإذا كانَ عبادةً فصَرْفُهُ لغيرِ اللهِ شركٌ.

فما يفعلُهُ عُبّادُ القبورِ، والمتصوّفةُ، والمخرِّفونَ، من هذهِ النذورِ التي تقدَّمُ للقبورِ، أو تقدَّمُ للجنِّ والشياطينِ، أو حتَّى للأولياءِ والصالحينَ، أنها عبادةٌ لغيرِ اللهِ عز وجل، وشركٌ باللهِ عز وجل، فلا يجوزُ عملُها، ويجِبُ المنعُ منها، والتحذيرُ منها، وأنَّ هذهِ النذورَ باطلةٌ، لا يجوزُ له الوفاءُ بها، فإنْ وَفَى بها ونفَّذَها صارَ مشركاً باللهِ الشركَ الأكبرَ، فيجبُ عليه أن يتوبَ وأَنْ يدخُلَ في الإسلامِ من جديدٍ. فهذا في النَّذْرِ الواحدِ، فكيفَ بالذي أفنى عُمُرَه بالنذورِ، وضيَّعَ مالَه بالنذورِ، كلما أحسَّ بشيءٍ، أو خافَ من شيءٍ صار يَنْذُر للأولياءِ والصالحين؟!. فالمسألةُ خطيرةٌ جداً. ولكنْ مهما عَمِلَ الإنسانُ من الشركِ والكفرِ إذا تابَ تابَ اللهُ عليه، ولو أَفْنى عُمُرَهُ في الشركِ والكفرِ ثمَّ تابَ توبةً صحيحةً تابَ اللهُ عليه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣] فلو أنَّ هؤلاءِ القبوريّينَ تابوا إلى اللهِ لتابَ اللهُ عليهم.

* * *

الباب الثالث عشر:

بَاب من الشِّرك الاستعاذةُ بغير اللّه

وهذا كالأبوابِ التي قبلَه في بيانِ أنواعِ الشركِ التي يمارسُها بعضُ الناسِ في مختلفِ الأزمانِ، ولا تزالُ تُمارسُ عندَ كثيرٍ من الناسِ.

والاستعاذةُ معناها: الاعتصامُ والالتجاءُ إلى اللهِ سبحانه وتعالى في دفعِ المكروهِ والشرورِ.

وهو نوعٌ من أنواعِ العبادةِ، لأنَّ دفعَ الضررِ، ودفعَ الشرورِ لا يقدِرُ عليه إلَّا اللهُ سبحانه وتعالى، فكلُّ ما لا يقدِرُ عليه إلَّا اللهُ فإنه لا يُطلبُ إلَّا من اللهِ، فإن طُلِبَ من غيرِه كانَ ذلك شركاً، هذا وجهُ كونِ الاستعاذةِ بغيرِ اللهِ من الشركِ، لأنَّ الاستعاذةَ عبادةٌ، وصرفُ العبادةِ لغيرِ اللهِ شركٌ، لماذا كانت عبادةً؟، لأنَّها طلبُ دفعِ الضررِ الذي لا يقدِرُ على دفعِهِ إلَّا اللهُ، وطلبُ ما لا يقدرُ عليهِ إلَّا اللهُ من غيرِ اللهِ شركٌ، ولأنَّ اللهَ تعالى أمَرَ بالاستعاذةِ بهِ دونَ غيرِهِ، قالَ تعالى في آياتٍ من القرآنِ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ١﴾ [الفلق:١]، ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١﴾ [الناس:١]، كما أنه سبحانه بيّن أن الاستعاذة بغيره من الشرك وذلك في سورة الجن: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا ٦﴾ [الجن: ٦]، وفي سورة الأنعام: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ١٢٨﴾ [الأنعام: ١٢٨]، ففي هذهِ الآياتِ ما يبيّنُ أنَّ اللهَ أمرَ بالاستعاذةِ بهِ وحدَه، ومنعَ من الاستعاذةِ بغيرِهِ، فدلَّ على أنَّ الاستعاذةَ عبادةٌ، لا

وَقَولُ الله تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [سورة الجن: ٦].

يجوزُ أن تُصرفَ لغيرِ اللهِ سبحانه وتعالى.

***

قالَ الشيخُ رحمه الله: «وقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن: ٦]» هذه من جُملةِ الانتقاداتِ التي انتقدَها الجنُّ الذينَ استمعوا للقرآنِ وآمنوا به، انتقدوها على قومِهم من الجنِّ، كما في قولِه تعالى في أولِ السورةِ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾ [الجن: ١-٣]، وبعدَ ما نزّهوا اللهَ عن الشركِ، وتبرءوا منهُ، جعَلوا ينتقدونَ أقوامَهم وما يفعلونَه ممَّا يخالِفُ التوحيدَ، ولهذا قالوا: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧﴾ [الجن: ٤-٧] إلى آخرِ السورةِ، وذلكَ أن النبيَّ ﷺ لما خرجَ إلى أهلِ الطائفِ يدعوهم إلى اللهِ سبحانه وتعالى، فردُّوه ردّاً قبيحاً، وأَغْرَوْا عبيدَهم وسفاءَهُم يرجمونَه بالحجارةِ عليه الصلاةُ والسَّلامُ رجعَ إلى مكةَ، وقد خرجَ من مكةَ على حالةٍ شديدةٍ: ماتَ عمُّه الذي كان يدافعُ عنه، وماتَتْ زوجتُهُ خديجةُ التي كانت تُؤَنِّسه، وكانت له نِعْمَ المعينِ على دعوتِهِ، ثمَّ لمَّا خرجَ إلى الطائفِ أُصيبَ بهذا الردِّ القبيحِ اشتدتْ بِهِ الحالُ ﷺ جدّاً، وبينما هو كذلكَ يسَّرَ اللهُ له من الجنِّ اسْتَمع إلى القرآنِ وآمنَ به، وذلكَ أنهُ لما رجَعَ من الطائفِ، وبلغَ وادي نَخْلَة -بين مكةَ والطائفِ-، قام يصلي الفجرَ، ويقرأُ القرآنَ، واستمعَ له الجنُّ فأُعجبوا

....

بالقرآنِ -كما في هذهِ السورةِ، وفي سورةِ الأحقافِ-: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣٠]، يعني: بعد التوراةِ، ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الأحقاف: ٣٠-٣١]، وفي سورة الجن: ﴿سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ﴾ [الجن: ١-٢]، فهذا فيه فرجٌ من اللهِ سبحانه وتعالى لنبيهِ، وتسليةٌ لنبيهِ، وأنَّ اللهَ يقيِّضُ له من يتبعُهُ ويؤمنُ بهِ، لأنهُ مبعوثٌ إلى الإنسِ والجنِّ.

«﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾» الإنس: بنو آدم.

«﴿يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾» الجن المُراد بهم: عالمٌ من عالمِ الغيبِ، يعيشون معنا في هذه الأرضِ، وهم مكلّفونٌ، مأمورونَ بطاعةِ اللهِ، ومَنْهِيُّونَ عن معصيةِ اللهِ، مثل الإنسِ، لكنَّنا لا نراهُم، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ﴾ يعني: إبليس ﴿هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾ يعني: جماعته من الجنِّ ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ﴾، فهم يروننا ونحنُ لا نراهم، وقد يتصوّرونَ بصورٍ متشكّلةٍ، ويتصوّرونَ بصورِ حيّاتٍ، وبصورِ حيواناتٍ، وبصورِ آدميين، أعطاهُمُ اللهُ القُدرةَ على ذلكَ، وهم عالمٌ مخلوقٌ من نارٍ، والإنسُ خُلقوا من الطينِ، كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [الرحمن: ١٤] يعني: من الطينِ، ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ [الرحمن: ١٥] الجان: جمع جنِّي، سُمُّوا بالجنِّ لاجتنانهم أي: استتارهم عن الأنظارِ، ومنه سُمِّي الجَنين في بطنِ أمِّهِ لأنه لا يُرى، فهو مُجْتَنّ في بطنِ أمِّهِ، ومنه المُجن الذي يتّخذُ في الحربِ يتوقّى به المقاتلُ سهامَ

العدو، سُمِّي مُجَنّاً لأنه يُجِنُّه من السِّهامِ، ومنه قوله ﷺ: «**الصَّوْمُ جُنَّةٌ**»[(١)] بمعنى: أنه ساترٌ بينَ العبدِ وبين المعاصي، يستترُ به من المعاصي، ومن كيدِ الشيطانِ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾ [الأنعام: ٧٦] ﴿جَنَّ عَلَيْهِ﴾ يعني: غطّاه ظلامُ الليلِ.

فالحاصلُ؛ أنَّ الجنَّ عالمٌ خفيٌّ، لا نراهم، وهم يعيشونَ معنا، وهم مكلّفون كما كُلِّفنا بالأوامرِ والنَّواهي.

والإيمانُ بوجودِهم من الإيمانِ بالغيبِ، تصديقاً لخبرِ اللهِ سبحانه وتعالى، وخبر رسولِهِ ﷺ، فوجودُ الجنِّ ثابتٌ بالكتابِ والسنّةِ والإجماعِ، ومن جحَدَ وجودَ الجنِّ فهو كافرٌ، لأنه مكذِّبٌ للهِ ولرسولِهِ ولإجماعِ المسلمينَ، وهل كلُّ ما لا يراهُ الإنسانُ يُنكرهُ؟.

وقد ظهرتْ طائفةٌ من جهلةِ الأطباءِ -كما يقولُ الإمامُ ابنُ القيّمِ-، وكذلكَ من بعضِ المفكّرينَ والكُتّابِ المنتسبينَ للإسلامِ؛ ينكرونَ وجودَ الجنِّ، لأنهم لا يؤمنونَ إلَّا بما تقرُّهُ عقولُهم، وعقولُهم لا تتّسعُ للتصديقِ بهذهِ المغيّباتِ، وكذلك الجنُّ يمسُّون الإنسَ ويخالطونَهم ويَصْرعونَهم، وهذا شيءٌ ثابتٌ، لكِنْ مِنْ جَهَلَةِ الناسِ من يُنكِرُ صَرْعَ الجنِّ للإنسِ، وهذا لا يَكْفُر، لأنَّ هذهِ مسألةٌ خفيّةٌ، ولكنه يُخطّأ، فالذي يُنكرُ مسَّ الجنِّ للإنس لا يُكَفَّر، ولكن يُضلَّلُ، لأنه يُكذِّبُ بشيءٍ ثابتٍ، أما الذي يُنكِرُ وجودَهم أصلاً فهذا كافرٌ، فقوله تعالى: «﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ٦]» أي: يلتجؤونَ إليهم ليدفعوا عنهم الشرورَ.

«﴿فَزَادُوهُمْ﴾» زادَ الجنُّ الإنسَ، «﴿رَهَقًا﴾» أي: خوفاً، فالجنُّ تسلّطوا على

(١) أخرجه البخاري (٧٤٩٢).

وَعَن خَولَةَ بِنتُ حَكِيمٍ قَالَت: سَمِعتُ رَسُول الله ﷺ يقول: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ الله التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ؛ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْحَلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ» رَوَاهُ مُسلِمٌ[1].

الإنسِ لمّا رأَوْهم يعوذونَ بهم، وزادوهم خوفاً وقلقاً، وأُعجبوا بأنفسِهم، وقالوا: إننا أَخَفْنا الإنسَ، وصاروا يستعيذونَ بنا.

وسببُ **نزولِ هذه الآيةِ**: أنَّ العربَ كانوا في الجاهليةِ إذا نزلوا منزلاً قال أحدُهُم: أعوذُ بسيِّدِ هذا الوادي مِنْ شِرِّ سفهاءِ قومِهِ، فأنزلَ اللهُ هذهِ الآيةَ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ٦].

فهذه عقيدةٌ جاهليّةٌ، أبطلَها اللهُ سبحانه وتعالى بالأمرِ بالاستعاذةِ به وحدَه لا شريكَ له، وذلك في قوله: «**عن خَوْلَة بنت حكيم**» -رضيَ اللهُ تعالى عنها- أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ**» رواه مسلم.

هذه هي الاستعاذةُ الشرعيةُ البديلةُ من الاستعاذةِ الشركيةِ.

***

فقوله: «**أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ**» كلمات اللهِ: المُراد بها: كلامُهُ سبحانه وتعالى المنزّلُ على رسولِهِ ﷺ. والاستعاذةُ بالقرآنِ مشروعةٌ، لأنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ، فالاستعاذةُ بالقرآنِ استعاذةٌ بصفةٍ من صفاتِ اللهِ، وهي الكلامُ، وليست استعاذةً بمخلوقٍ.

واستدلَّ أهلُ السنّةِ والجماعةِ بهذا الحديثِ على أنَّ القرآنَ غيرُ مخلوقٍ، لأنه

---

(١) برقم (٢٧٠٨).

لا تجوزُ الاستعاذةُ بالمخلوقِ، فلو كانَ القرآنُ مخلوقاً -كما تقولُهُ الجهميةُ والمعتزلةُ- لصارَ هذا من الاستعاذةِ بالمخلوقِ، وهي شركٌ، كما دلَّ هذا الحديثُ على مشروعيةِ الاستعاذةِ باللهِ عز وجل، وتركِ الاستعاذةِ بغيره سبحانه وتعالى.

وقوله: «**التَّامَّاتِ**» أي: الصادقات العادلات، التي لا يتطرّقُ إليها نقصٌ، لأنَّ كلامَ اللهِ سبحانه وتعالى كاملٌ، لأنَّ اللهَ جلَّ وعَلا كاملٌ وصفاتُهُ كاملةٌ، وكلامُهُ كاملٌ لا يتطرَّقُ إليه النَّقْصُ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢]، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام: ١١٥].

فكلماتُ اللهِ تامّةٌ، لا يتطرّقُ إليها نقصٌ بوجهٍ من الوجوهِ، ولذلكَ كانَ القرآنُ الكريمُ كاملاً، لا يتطرّقُ إليه نقصٌ، وافياً بحوائجِ الناسِ، والحكمَ فيما بينَهم، وإزالةَ الشكوكِ والشركِ والكفرِ والإلحادِ، وبيانِ الأحكامِ والعدلِ بينَ الناس، كلُّ هذا في القرآنِ، لأنهُ كلامُ اللهِ سبحانه وتعالى، وفضلُ كلامِ اللهِ على كلامِ غيرِه كفضلِ اللهِ سبحانه وتعالى على خلقِهِ.

فالحاصلُ؛ أنَّ الكتابَ والسنّةَ قد دلّا على أنَّ الاستعاذةَ عبادةٌ، وما دامَ أنها عبادةٌ، فالاستعاذةُ بغيرِ اللهِ تكونُ شركاً أكبرَ يَخرجُ به صاحبُهُ من الملّةِ، فالذي يستعيذُ بالجنِّ أو بالشياطينِ يكونُ كافراً الكفرَ الأكبرَ، مشركاً باللهِ عز وجل، كالذينَ يكتبونَ الحُجُبَ والطلاسمَ، ويستعيذونَ بالشياطينِ وبِمَرَدَةِ الجنِّ، ويكتبونَ أسماءَ الشياطينِ في كتاباتِهم، وفي طلاسِمِهم، وكذلكَ الذينَ ينادونَ الجنَّ عندَ الشدّةِ وعندَ الخوفِ هذا -أيضاً- كلُّه من الشركِ الأكبرِ لأنه استعاذةٌ بغيرِ اللهِ سبحانه وتعالى، ومن هذا -أيضاً- من يستعينُ بالجنِّ عندما يتخاصمُ مع أحدٍ فيقولُ: يا جنّ خذوهُ، افعلوا به كذا وكذا. وهذا شركٌ باللهِ عز وجل إذا كانَ

يقصدُ الاستعانةَ بهم، وكذلكَ الذي يعالجُ الناسَ بالاستعانةِ بالجنِّ وسؤالِهم عن المرضِ أو عن الذي سحَرَ المريضَ.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: ١٢٨]، قال العلماءُ في تفسيرِ هذه الآيةِ: (استمتاع الإنس بالجن: أنهم يستعيذونَ بهم مما يكرهونَ، ويطلبونَ منهم ما يريدون، فالجنُّ تخدمُهُم، وتحضّر لهم الغائبَ والبعيدَ، وتقضي بعضَ حوائِجِهم، لأنَّ هناك أشياءَ لا يقدِرُ عليها الإنسُ، فهم يستعيذونَ بالجنِّ، ويستمتعونَ بالجنِّ، بمعنى: أن الإنسَ يستخدمونَ الجنَّ في بعضِ أمورِهم، هذا استِمْتاعُ الإنسِ بالجنِّ.

واستمتاعُ الجنِّ بالإنسِ: أنَّ الإنسَ يخضعونَ لهم ويعظمونَهم ويجلّونَهم، ففي هذا استمتاعٌ للجنِّ بالإنسِ، فكلٌّ من الفريقينِ استمتَعَ بالآخرِ، هذا استمتَعَ بحصولِ حوائجِهِ، وهذا استمتَعَ بتعظيمِهِ، وصرفِهِ هذا الإنسيِّ إلى الكفرِ بدلَ الإيمانِ).

فدلَّ على أنَّ الاستعانةَ بالجنِّ شركٌ أكبرُ، ولو سُمِّيتْ بغيرِ الشركِ، لو سُمِّيت: بالاستخدامِ، أوِ الزَّارِ، أَوْ ما أشبهَ ذلكَ من الأسماءِ.

فالواجبُ أنَّ الإنسَ يتوبونَ إلى اللهِ سبحانه وتعالى من ممارسةِ هذهِ الأعمالِ مع الجنِّ.

والواجبُ على الجنِّ: أن يتوبوا إلى اللهِ من إضلالِ الإنسِ وإغوائِهم، لأنَّ الكُلَّ عبادٌ من عبادِ اللهِ، يجبُ عليهم مخافةُ اللهِ وخشيتُهُ والرغبةُ إليه، وطاعتُهُ، وطاعةُ رسلِهِ، وتركُ ما حرَّمَ اللهُ.

وَقَدْ تلاعَبَ بعضُ الأشرارِ من الإنسِ بعقائدِ النَّاسِ، وبأكلِهِ لأموالِهم، وشعوذتِهِ عليهم، ولا سيّما عندَ البوادي والقُرى البعيدةِ عن حضورِ مجالسِ الذكرِ، فإن هذا يكثُر كلَّما كثُرَ الجهلُ وحقيقةُ هذا أنه عَمِيلٌ للجنِّ، وأنه مشركٌ باللهِ عز وجل، ولا يقتصِرُ شرُّهُ على نفسِهِ، بل يضلِّلُ النَّاسَ، ويُفسِدُ عقائدَ النَّاسَ، ويأتي إليه النَّاسُ ويسألونَهُ، ويُخبرُهم بالمغيّباتِ، أو يأمرُهم بالذبحِ لغيرِ اللهِ، أو غيرِ ذلك من أنواعِ الشركِ.

فهذه مسألةٌ خطيرةٌ، يجِبُ على أهلِ العلمِ وعلى الدعاةِ إلى اللهِ سبحانه وتعالى أن يبيِّنوها للناسِ، وأن يتجوّلوا في القُرى، وفي البوادي، ويوضِّحوا هذا الأمرَ للنَّاسِ، لأنَّهم -واللهِ أمانةٌ في أعناقِ طلبةِ العلمِ، وفي أعناقِ الدعاةِ-، هذا هو المطلوبُ.

أما أنَّكَ تتكلّمُ أمامَ الناسِ عن قضايا السياسةِ ونحوِها؛ فهذِهِ ما فائدة النَّاس منها؟، ما فائدةُ البدو في الصحراء، أو النَّاس في القريةِ، ما فائدتهم من هذه الأمورِ؟، وهم واقعونَ في الشركِ، أو يجهلونَ قراءةَ الفاتحةِ التي هي ركنٌ من أركانِ الصلاة؟!، يجبُ علينا أن نتقيَ اللهَ سبحانه وتعالى، وأن نَعْلَمَ أنَّ منهجَ الرسولِ ﷺ: دعوةٌ، وتعليمٌ، وإرشادٌ، وتوجيهٌ فيما ينفعُ النَّاسَ، وأيضاً معالجةُ ما وقَعَ فيهِ الناسُ في بلدِهم وفي أنفسِهم. أما أنَّكَ تجلبُ لهم مشاكلَ من بعيدٍ، وتريدُ منهم أن يعالجوا قضيةَ أمريكا، أو قضيَّةَ الجزائرِ، أو قضيَّةَ السُّودانِ؟، وهم مساكينُ، ما بيديهم شيء، وأيضاً هم واقعونَ فيما هو أخطرُ من ذلكَ وهو الجهلُ وفسادُ العقيدةِ، لماذا لا تعالجُ هذا الأمرَ؟.

وأنا ليس غرضي بهذا الكلامِ أن أتنقّصَ أحداً، لا واللهِ، ولكِنْ غرضي أن أبيّنَ الطريقةَ الصحيحةَ للدعوةِ، ونفعِ الناس.

فإنَّ هذهِ الأبوابَ من أبوابِ «**كتاب التوحيد**» تُعالجُ واقعَ النَّاسِ، لماذا لا نشرحُها للنَّاس، ونبيِّنُها للنَّاسِ، ونوضِّحُها، ونحفِّظُهم هذهِ الآياتِ وهذه الأحاديثَ ونشرحُها لهم، ولو شرحاً وجيزاً على قدرِ أفهامِهم، ينتفعون بها؟.

هذه هي الدعوةُ إلى اللهِ عز وجل، وهذا العلمُ النافعُ.

تعلمونَ ما للدعاةِ من الأثرِ وماذا حصَلَ بسببِ دعوتِهم من الخيرِ:

فالشيخُ: محمدُ بنُ عبدِالوهابِ، كيف أثَّرَ في دعوتِهِ من الإصلاحِ والنّفعِ للمسلمينَ، الذي لا نزالُ ننتفعُ به -وللهِ الحمدُ-.

الشيخ: عبدُالله القرعاوي في الجنوبِ، كما تعلمونَ إلى عهدٍ قريبٍ، والآنَ تلاميذهُ وطلّابُه ماذا أثّرَ من الخيرِ؟.

الشيخ: فيصلُ بنُ مبارك في الشَّمالِ، ماذا أثَّرَ من الخيرِ، ولا يزالُ تلاميذُهُ الآنَ مصابيحَ هدىً، يبيِّنونَ للنَّاسِ الحقَّ.

أما أن تجلبَ للناسِ مشاكلَ الخارجِ وتشغلَهم بها؛ فهذهِ ما هي بدعوةٍ إلى اللهِ، وإنما هي اشتغالٌ بأمورٍ لا تفيدُ النَّاسَ، ولا تحلُّ مشاكلَهم، ولا تُصلحُ فسادَهم، وإنما تُخبِط أفهامَهم، وقد تسبِّبُ سوءَ الظنِّ بالمسلمينَ وبولاةِ الأمورِ، وتفرِّقُ الكلمةَ. فالواجبُ علينا أن نتنبَّه لهذا.

أنا ما أقولُ هذا من أجلِ الغَمْطِ من أحدٍ، لا واللهِ، ولكني أتأسفُ من واقعِ بعضِ الدعاةِ الذي تردّى إلى هذا المستوى.

ونسألُ اللهَ سبحانه أن يأخذَ بأيدينا وأيديهم إلى الصَّلاحِ والفلاحِ والاستقامةِ، والسيرِ على منهجِ الرسولِ ﷺ فيما ينفعنا وفيما ينفعُ النَّاسَ، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ

وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤]، هذا منهجُ الرسلِ -عليهم الصلاةُ والسلامُ-.

نسألُ اللهَ عز وجل أن يوفّقَنا جميعاً لما فيه خيرُنا وخيرُ أمّتِنا، وصلاحُنا وصلاحُهم، وأَنْ يُصْلِحَ ولاةَ أمورِنا، وأن يأخذَ بأيديهم إلى ما فيهِ الخيرُ للأمةِ، وما فيهِ صلاحُ الأمةِ.

* * *

الباب الرابع عشر:

بَاب من الشِّرك أن يستغيثَ بغير الله أو يدعوَ غيرَه

هذا البابُ جاءَ في سياقِ الأبوابِ التي تبيِّنُ أنواعاً من الشركِ يقعُ فيها بعضُ الناسِ في مختلفِ العصورِ والأزمانِ.

فقوله: «**من الشرك**» أي: من أنواعِ الشركِ الأكبرِ: «**أن يستغيث بغير الله**» فيما لا يقدرُ عليه إلَّا اللهُ.

والاستغاثةُ: طلبُ الغوثِ، ولا تكونُ إلَّا في وقتِ الشدّةِ.

وأما الدعاءُ فهو عامٌ في وقتِ الشدّةِ وفي غيرِها، فعطفُ الدعاءِ على الاستغاثةِ من عطفِ العامِّ على الخاصِّ.

والاستغاثةُ بالمخلوقِ على قسمينِ:

القسم الأول: الاستغاثةُ بالمخلوقِ فيما لا يقدرُ عليهِ إلَّا اللهُ سبحانه وتعالى، فهذه هي الشركُ الأكبرُ، لأنها صرفٌ لعبادةٍ لغيرِ اللهِ سبحانه وتعالى.

أما الاستغاثةُ بالمخلوقِ فيما يقدرُ عليهِ المخلوقُ كاستغاثةِ الإنسانِ بغيرِهِ في الحربِ ليساعدَه ويناصرَه على عدوِّهِ؛ فهذا جائزٌ، كما قالَ اللهُ تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥]، فالاستغاثةُ بالمخلوقِ فيما لا يقدِرُ عليه -كالاستغاثةِ بالأمواتِ والغائبينَ- شركٌ أكبرُ، لأنه يستغيثُ بمَنْ لا يقدرون على شيءٍ أبداً، فالذينَ يستغيثونَ بالأضرحةِ، وبالأولياءِ وبالصالحينَ، والأمواتِ، أو يستغيثونَ بالغائبينَ من الجنِّ، أو بالشياطينِ، كلُّ هذا من النوعِ الممنوعِ.

أما الدعاءُ، فهو أعمُّ من الاستغاثةِ -كما سبقَ-، وهو نوعانِ: دعاءُ عبادةٍ،

وَقَولُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس: ١٠٦].

ودعاءُ مسألةٍ.

ودعاء العبادة هو: الثناءُ على اللهِ سبحانه وتعالى بأسمائِهِ وصفاتِهِ.

ودعاءُ المسألةِ هو: طلبُ الحاجاتِ من اللهِ سبحانه وتعالى.

ويجتمعُ النوعانِ في سورةِ الفاتحةِ، فقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾، هذا دعاءُ عبادةٍ، لأنهُ ثناءٌ على اللهِ، وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾﴾ دعاءُ عبادةٍ، ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ دعاءُ عبادةٍ، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ دعاءُ عبادةٍ، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾، إلى آخرِ السورةِ دعاءُ مسألةٍ.

ولهذا يقولُ اللهُ جلَّ وعلا في الحديثِ القدسي[1]: «**قسمت الصلاة**» يعني: الفاتحة، سمَّاها صلاةً لأنَّها دعاءٌ «**بيني وبين عبدي نصفين**» لأنَّ أوَّلها دعاءُ عبادةِ الله، وآخرَها دعاءُ مسألةٍ، والعلاقةُ بينَ دعاءِ العبادةِ ودعاءِ المسألةِ: أنَّ دعاءَ العبادةِ مُسْتَلْزِمٌ لدعاءِ المسألةِ، فإذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [الفاتحة: ١-٤] يلزمُ من هذا أنهُ يسألُ اللهَ سبحانه وتعالى، ودعاءُ المسألةِ متضمِّنٌ لدعاءِ العبادةِ، بمعنى: أنَّ دعاءَ العبادةِ داخلٌ في دعاءِ المسألةِ، فالذي يسألُ اللهَ حوائجَه يتضمّنُ سؤالَه أنه يعبدُ اللهَ بذلكَ.

* * *

قال: «**وقول الله تعالى**: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس: ١٠٦]»، والآية التي تليها: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ

---

(١) أخرجه مسلم (٣٩٥).

فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ الآيتانِ من آخرِ سورةِ يونس [يونس: ١٠٧].

يقولُ اللهُ جلَّ وعلا لنبيِّه ﷺ: «﴿وَلَا تَدْعُ﴾» هذا نهيٌ من اللهِ لنبيِّه عن دعاءِ غيرِ اللهِ، والخطابُ الموجهُ للنبيِّ ﷺ موجهٌ إلى أمتِهِ، إلَّا إذا دلَّ دليلٌ على اختصاصِهِ بهِ، فهذا النداءُ عامٌّ للنبيِّ ﷺ ولأمتِهِ، ولأنهُ إذا نُهِي النبيُّ ﷺ عن ذلكَ، فغيرُهُ من بابِ أولى.

«﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾» أي: غير الله.

«﴿مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾» «﴿مَا﴾» موصولة: أي: الذي لا ينفعُكَ ولا يضرُّكَ، وذلك لأنَّ المدعوَّ إما أن يُطلبَ منه جلبُ خيرٍ، وإما أنْ يطلبَ منه دفعُ ضررٍ، وهذا إنما يختصّ باللهِ سبحانه وتعالى، فإنه هو الذي يقدرُ على دفعِ الضررِ وجلبِ الخيرِ، ودعاءُ الأمواتِ وأصحابِ القبورِ والأصنامِ والأوثانِ والأشجارِ والأحجارِ، لا يجلَبُ خيراً ولا يدفعُ ضرراً. وكُلُّ ما يُدعَى مِنْ دونِ اللهِ فهو بهذهِ المثابةِ، لا ينفعُ ولا يضرُّ، لأنَّها إما أحجارٌ جامدةٌ، وإمّا صورٌ وتماثيلُ، وإما قبورٌ هامدةٌ، وإمَّا أشجارٌ، أو غيرُ ذلكَ، فهي مخلوقاتٌ لا تقدِرُ على جلبِ نفعٍ ولا دفعِ ضررٍ، فالدعاءُ إنما يصلحُ أنْ يُوجَّهَ لمَنْ يقدرُ على ذلكَ، وهو اللهُ سبحانه وتعالى.

«﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾» يعني: دعوتَ غيرَ اللهِ مما لا ينفعُكَ ولا يضرُّك، وهذا من بابِ الافتراضِ، وإلَّا محالٌ أنَّ النبيَّ ﷺ سيفعلُ ذلكَ، ولكنْ لو قُدِّر أنه فعلَهُ وهو أكرمُ الخلقِ، فإنه يكونُ من الظالمينَ، فكيفَ بغيرِهِ، إذا دعا غيرَ اللهِ؟، وهذا مثلُ قولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥] يعني: أُوحِيَ إلى الرسولِ ﷺ، وإلى غيرِهِ من الأنبياءِ السابقينَ أنه لو قُدِّر أنَّ أحداً منهم -وحاشاهم عليهم الصلاةُ والسَّلامُ-

دعا غيرَ اللهِ، وأشركَ باللهِ حبِطَ عملُهُ، وصارَ من الخاسرينَ ولو كانَ من الأنبياءِ، فكيفَ بغيرِهم؟، ولمَّا ذكرَ اللهُ سبحانه وتعالى إبراهيمُ وذريَّته، فقالَ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام: ٨٤-٨٦]، لما ذكَرَ اللهُ سبحانه وتعالى أنبياءَه في هذهِ الآياتِ قالَ: ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام: ٨٨]، لو أشرَكَ هؤلاءِ الأنبياءُ ﴿لَحَبِطَ﴾ أي: لبَطَلَ ﴿عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: بطُلَتْ جميعُ أعمالِهم. فدلَّ على أنَّ الشركَ مُحبطٌ للأعمالِ، ولو صدَرَ من خيرِ الخلقِ، وهم الأنبياءُ فكيفَ إذا صدَرَ ممَّنْ هو دونَهم؟، إذاً هو يُخرجُ من الملَّة، ويُحبِطُ جميعَ الأعمالِ، فالدعاءُ عبادةٌ، بَلْ هو أعظمُ أنواعِ العبادةِ، قالَ ﷺ: «**الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ**»[1] كما قالَ ﷺ: «**الحَجُّ عَرَفَة**»[2] يعني: أَعْظَمُ أركانِ الحجِّ عرفةٌ، فكذلكَ أعظمُ أنواعِ العبادةِ الدعاءُ.

ثمَّ قالَ سبحانه وتعالى: «﴿فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس: ١٠٦]»، يعني: من المشركينَ، لأنَّ الشركَ أعظمُ أنواعِ الظلمِ، كما قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣]، والظلمُ في الأصلِ: وضعُ الشيءِ في غيرِ موضعِه، والشركُ وضعٌ للعبادةِ في غيرِ مستحقِّها، فلذلكَ صارَ أعظمَ أنواعِ الظلمِ.

* * *

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٦٩) وأبو داود (١٤٧٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٨٨٩) وابن ماجه (٣٠١٥).

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ الآية [سورة يونس: ١٠٧].

وقوله: «﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾» هذا تقريرٌ لإبطالِ دعاءِ غيرِ اللهِ، «﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾» هذا -أيضاً- فيه إبطالُ دعاءِ غيرِ اللهِ، لأنَّ هذهِ المدعواتِ لا تقدرُ على كشفِ الضرِّ، ولا تقدرُ على جلبِ الخيرِ، وهذا كما في قوله: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦﴾ [الإسراء: ٥٦]، ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ۝٣٨﴾ [الزمر: ٣٨]، وفي قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ [فاطر: ٢]، وكما في قوله ﷺ: «وَاعْلَمْ أَنَّ النَّاسَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَنْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»[1].

فالنفعُ والضررُ إنما هو مِنَ اللهِ سبحانه وتعالى، فهو الذي يستحقُّ أن يُدعى لطلبِ الخيرِ، ويُدعى -أيضاً- لرفعِ الشرِّ، وكشفِ الضرِّ، هو الذي يملِكُ ذلكَ سبحانه وتعالى، لا تملكُهُ جميعُ المخلوقاتِ، وكذلكَ في سورةِ الأنعامِ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١٧﴾ [الأنعام: ١٧]، فالنفعُ والضرُ بيدِ اللهِ سبحانه وتعالى، فيجبُ على العبادِ أن يتوجَّهوا إلى اللهِ، وأن يدعوا اللهَ وحدَه، ولا يدعوا معَه غيرَهُ سبحانه وتعالى.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦).

وَقَولُهُ: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ [سورة العنكبوت: ١٧].

قال: «وقوله: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧]»، وكمال الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت: ١٧] هذا من جملةِ ما ذكرَهُ اللهُ تعالى عن خليلهِ إبراهيمَ -عليهِ الصلاةُ والسلامُ- مما خاطبَ به قومَهُ قال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت: ١٦-١٧].

فقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ [العنكبوت: ١٧]، لأنَّ الرزقَ من اللهِ سبحانه وتعالى فهو الرزاقُ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨]، ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ [الملك: ٢١]، فلو أنَّ اللهَ منعَ المطرَ من السماءِ الذي هو سببُ الرزقِ واجتمعَ أهلُ الأرضِ كلُّهم أن يُوجدوا المطرَ لن يستطيعوا أبداً.

«﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧]» أي: اطلبوا الرزقَ من اللهِ سبحانه وتعالى، فإنَّ اللهَ قريبٌ مجيبٌ لمن دعاهُ، ولا تطلبوا الرزقَ من الأوثانِ التي لا تملِكُ شيئاً.

﴿وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت: ١٧] هذا فيه توجيهٌ من اللهِ سبحانه وتعالى لعبادِهِ أَنْ لا يَطْلبوا الرزقَ من غيرِهِ، وأن يعبدوهُ ولا يعبدوا غيرَهُ، فإنهم إذا عبدوهُ رزقَهم، كما قالَ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ

إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨]، فالرزقُ إنما يُسْتَجْلَب بعبادةِ اللهِ سبحانه وتعالى، وأما المعاصي فإنها تسبِّبُ منعَ الرزقِ، فما يحصلُ في الأرضِ من المجاعاتِ ومن شُحِّ الأرزاقِ إنما سببُهُ الكفرُ والمعاصي، وما يحصلُ في الأرضِ من خيراتٍ وأرزاقٍ فسببُهُ الطاعةُ والعبادةُ إلَّا أن يكونَ استدراجاً.

فهذهِ الآيةُ كالتي قبلَها فيها وجوبُ التَّوَجُّهِ إلى اللهِ سُبْحانه بالدعاءِ وطلبُ الحاجاتِ، وتفريجُ الكُرُباتِ، وطلبُ الرزقِ، وأنَّ أحداً غيرَه لا يملِكُ رزقاً: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ [العنكبوت: ١٧]، فكيف يُطْلَبُ الرزقُ ممن لا يملكُهُ. وفاقدُ الشيءِ لا يعطيهِ.

وقوله: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ في الدارِ الآخرةِ بعدَ الموتِ، فيجازيكم بأعمالِكم.

وهذا تنبيهٌ على أنَّ هناكَ دارُ جزاءٍ، وأنكم إن أحسَنْتُم فستلقونَ الجزاءَ الحسنَ، وإن أسَأْتُمْ فستلقونَ الجزاءَ السيءَ، فأنتم لستم بمهملينَ، ولا مضيّعينَ، ولا متروكين، لابدَّ لكم من موعدٍ معَ اللهِ سبحانه وتعالى في موقفِ الحسابِ، فاستدركوا لأنفسِكم قبلَ الموتِ، وتوجّهوا إلى اللهِ، وأخلصوا له العبادةَ، وأصلحوا الأعمالَ، لأنكم تُرجعونَ إلى اللهِ، وهذا الموعدُ ما أحدٌ يتخلّفُ عنه، لا الكافرُ، ولا المسلمُ.

* * *

وَقَولُهُ: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [سورة الأحقاف: ٥].

قال: «وقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾» وتتمة الآية: ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾، الآيات من سورةِ الأحقافِ [٥-٦].

«﴿ وَمَنْ أَضَلُّ ﴾» لا أحد أشدّ ضلالاً، «﴿مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾» أي: غير اللهِ.

«﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾» هل الصَّنَم استجابَ لأحدٍ في يومٍ من الأيامِ؟، هل القبر استجابَ لأحدٍ في يومٍ من الأيام؟، هل الشجرةُ التي -تُعبد من دون الله استجابت لأحدٍ؟، أبداً، ولو قُدِّر أنه يحصلُ للمشركِ مقصودهُ، فهذا ليس من المعبود من دونِ اللهِ، وإنما هو من اللهِ سبحانه وتعالى، أجراهُ امتحاناً له، واستدراجاً له، حتى يظنَّ أن هذا من القبرِ، فيستمرُّ في الشركِ -والعياذُ باللهِ.

وقد ذكَرَ شيخُ الإسلامِ في إحدى رسائِلِه -أو في كثيرٍ من رسائِلِهِ[1]- ما معناه: أنَّ ما يحصلُ لعبّادِ القبورِ من قضاءِ الحاجاتِ، فليس ذلك دليلاً على صحةِ مذهبِهم، لأنَّ حصولَ المقصودِ يكون ابتلاءً وامتحاناً من اللهِ سبحانه وتعالى، ويكونُ من أجلِ الاستدراجِ كما قال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٤﴾ [القلم: ٤٤]، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، فاللهُ سبحانه وتعالى يُمْهِل ويستدرجُ، من أجلِ أن يزدادَ هذا الكافرُ وهذا المشركُ آثاماً يُعَذَّبُ بها يومَ القيامةِ، فليس هذا من صالحِهِ، فإذا حصلَ لعبّادِ القبورِ شيءٌ من

---

(١) انظر على سبيل المثال في «مجموع الفتاوى» (١/ ٩٦، ١٨٧، ٢٦٥) و(١١/ ٢٩٢) وغيرها.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢].

مقاصدِهم، فهذا من إهانةِ اللهِ لهم، واستدراجِهم.

وذكرَ الشيخُ -أيضاً- أنه يمكن أنَّ الشياطينَ تتصوّرُ أحياناً بصورةِ المقبورِ، وتخرجُ على الناسِ الذينَ يدعونَ القبرَ بصورةِ المقبورِ، وتخاطبُهُم، وتقولُ نحن نقضي حوائجَك، والشيطانُ قد يأتي لهم بأشياءَ بعيدةٍ، قد يسرقُ من أموالِ الناسِ أشياءَ ويأتي بها لهم، ويظنونَ أنَّ هذا من الميِّتِ، والميتُ ما درى عن شيءٍ من هذه الأمورِ، الميتُ مشغولٌ بنفسِه إما في نعيمٍ وإما في عذابٍ في قبرِهِ، وإذا حُشِرَ الناسُ يومَ القيامةِ، وبُعث هؤلاءِ المشركونَ، وبُعِثَ هؤلاءِ الموتى يومَ القيامةِ كانوا أعداءً لمن عبدَهم يتبرؤونَ من هؤلاءِ الذينَ عبدوهم في الدُّنيا أحوج ما يكونونَ إليهم، كما قال تعالى: : ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: ١٦٦]، ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١]، يعني: الشياطين، ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ لأن الشياطينُ هي التي دَعتْهم إلى هذا الشيءِ فأجابوا، فهم لم يعبدوا الملائكةَ، وإنما عبدوا الشياطينَ الذين أمروهم بذلكَ، فالحاصلُ؛ أنه في يومِ القيامةِ يتبرّأُ كلُّ من عُبِدَ مِنْ دونِ اللهِ، ممن عبدَهُ، ويحصلُ بينهم عداوةٌ، بينَ الداعينَ والمدعوينَ.

***

«قوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [سورة النمل: ٦٢]» هذا استفهامٌ من اللهِ تعالى للمشركينَ، يقول: أنتم تشركونَ باللهِ عز وجل في حالةِ الرخاءِ، ولكن إذا وَقَعْتُم في الشدةِ والاضطرارِ دعوتُمُ اللهَ مخلصينَ له الدين فأنقذكم، فلماذا

تُشركونَ به في حالة الرخاءِ؟، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ٦٧]، فالله سبحانه وتعالى يقولُ: إذا كانَ لا ينقذُكُم من الشدائدِ إلَّا اللهُ باعترافِكم-، فكيف تُشركونَ به في حالةِ الرخاء، هل هذا إلَّا التناقضُ.

وقوله: «﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾» أي: لا أحدَ يكشفُ السوءَ سواه، والمشركونَ يعترفونَ أنه لا أحدَ يكشفُ السوءَ إلَّا اللهُ سبحانه وتعالى، فلماذا يعبدونَ غيرَه؟.

وتمام الآية: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل: ٦٢] من هو الذي يداولُ الدنيا بينَ الناس، يداولُ الغنى والفقر، ويداولُ العزَّ والذلَّ، ويداولُ الملكَ بينَ الناس، فقوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ تخلفونَ الجيلَ الذي قبلَكم في الملكِ، وفي الأموالِ، وفي العقاراتِ، وفي كُلِّ شيءٍ، جيلٌ يخلفُ جيلاً، من هو هذا الذي يدبِّرُ هذا التدبيرَ؟، هل هي الأصنامُ؟، كلا، بل هو اللهُ، وهم يعترفونَ بهذا.

ثم قال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ هل يستحقُّ أحدٌ العبادةَ معَ اللهِ سبحانه وتعالى؟، هذا إلزامٌ لهم ببطلانِ ما هم عليهِ من عبادةِ غيرِ الله.

ولهذا قال: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [النمل: ٦٣] أي: تنزه عن الشركِ.

وفي الآيةِ السابقةِ فائدةٌ عظيمةٌ وهي: أنَّ اللهَ سمَّى الدعاءَ عبادةً، فقال: ﴿وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾، لأنه في أولِ الآيةِ قال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟﴾ [الأحقاف: ٥]، وإذا كانَ الدعاءُ عبادةً فصرفُهُ لغيرِ اللهِ شركٌ، كما في الآيةِ الأخرى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ [غافر: ٦٠]، يعني: عن دعائي، فسمّي الدعاءَ عبادةً، وإذا كانَ الدعاءُ عبادةً

رَوَى الطَّبَرَانِيُّ بِإِسنَادِهِ[١]: أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ مُنَافِقٌ يُؤذِي المُؤمِنِينَ، فَقَالَ بَعضُهُم: قُومُوا بِنَا نَستَغِيثُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِن هَذَا المُنَافِقِ،

فصرفُهُ لغيرِ اللهِ شركٌ.

***

قوله: «**كان رجل**» لم يذكر اسمه هنا، وورد أنه عبدُاللهِ بنُ أُبي، رأسُ المنافقين.

«**منافق**» النفاق هو: إظهارُ الخيرِ وإبطانُ الشرِّ، وهو نوعانِ: نفاقٌ اعتقاديٌّ، ونفاقٌ عمليٌّ.

والنفاقُ الاعتقاديُّ كفرٌ أكبرُ، وصاحبُهُ في الدركِ الأسفلِ من النَّارِ، ومعناه: أن يُظهِرَ الإيمانَ ويُبطن الكفرَ.

وسببُ النفاقِ: أنه لما اعتزَّ الإسلامُ بعدَ هجرةِ الرسولِ ﷺ صارَ هناكَ أُناسٌ يريدونَ العيشَ معَ المسلمينَ، ولكنَّهم لن يستطيعوا أن يعيشوا بينَ المسلمينَ إلَّا إذا أظهروا الإسلامَ، وهم لا يريدونَ الإسلامَ ولا يحبُّونَ الإسلامَ، فلجأوا إلى حيلةِ النفاقِ، وهي: أن يُظهروا الإسلامَ من أجلِ أن يعيشوا مع المسلمينَ، ويبقوا في قرارةِ نفوسِهم على الكفرِ. فسمُّوا بالمنافقين، هذا هو النِّفاقُ الاعتقاديُّ.

أما النفاقُ العمليُّ فمعناه: أنَّ بعضَ المسلمينَ الذينَ عقيدتُهم سليمةٌ

---

(١) قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ١٥٩-١٦٠): رجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة وهو حسن الحديث!

قلت: وأخرجه أحمد (٥/ ٣١٧) وابن سعد في «الطبقات» (١/ ٣٨٧) من طريق ابن لهيعة عن الحارث بن يزيد عن علي بن رباح أن رجلاً سمع عبادة فذكره... فقال رسول الله ﷺ: «لا يقام لي، إنما يقام لله».

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّهُ لَا يُستَغَاثُ بِي، وَإِنَّمَا يُستَغَاثُ بِاللهِ».

ومؤمنونَ باللهِ، لكنَّهم يتصفونَ ببعضِ صفاتِ المنافقينَ، مثلَ: الكذبِ في الحديثِ، والغدرِ في العهدِ، وإخلافِ الوعد، قال ﷺ: «**آيَةُ المُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**»[1]، هذا نفاقٌ عمليٌّ، صاحبُهُ مؤمنٌ، ولكنْ فيه خَصْلَةٌ من خِصالِ المنافقينَ، وهي خطيرةٌ جداً، ربَّما أنها تَؤُولُ إلى النفاقِ الأكبرِ إذا لم يتُبْ منها.

«**يؤذي المؤمنين**» بمعنى: أنه يضايقُ المسلمينَ بكلامِهِ وبتصرّفاتِهِ، يسخرُ من المسلمين، يتلمّسُ معايبَ المسلمينَ، ينالُ من الرسولِ ﷺ، وينالُ من المؤمنينَ، ويتتبّعُ العثراتِ. فدلّ على أنَّ إيذاءَ المسلمينَ من النفاقِ.

«**فقال بعضهم**» لم يُسَمّ القائلُ، وقد وردَ في بعضِ الرواياتِ أنه أبو بكرٍ الصديق رضي الله عنه.

«**قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ**» يعني: نستجيرُ به، ونحتمي به «**من هذا المنافق**» ليردعَهُ عنا ويكفَّهُ عنا.

والنبيُّ ﷺ استنكرَ هذه اللفظةَ، فقالَ: «**إنه لا يستغاث بي، وإنما يُستغاث بالله عز وجل**» مع أنَّ الرسول ﷺ قادرٌ على أن يَرْدَعَ هذا المنافقَ؟، وأن يُغيثَ المسلمينَ من شرِّه؟، بلى، هذا من الاستغاثةِ الجائزةِ، لأنه استغاثةٌ بالرسولِ ﷺ فيما يقدِرُ عليه، لكنَّ الرسولَ تأدُّبٌ معَ اللهِ سبحانه وتعالى، وتعليمٌ للمسلمينَ أن يتركوا الألفاظَ التي فيها سوءُ أدبٍ معَ اللهِ عز وجل، وإن كانَتْ جائزةً في الأصلِ، فقال: «**إنه لا يُستغاث بي**» وهذا من بابِ التعليمِ وسدِّ الذرائعِ لئلا يُتطَرَّقُ من الاستغاثةِ الجائزةِ إلى الاستغاثةِ الممنوعةِ، فالرسولُ ﷺ منعَ من شيءٍ جائزٍ خوفاً

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣) ومسلم (٥٩).

أن يُفضيَ إلى شيءٍ غيرِ جائزٍ، مثلَ ما منع من الصلاةِ عندَ القبورِ، والدعاءِ عندَ القبور، وإن كانَ المُصلِّي والداعي لا يدعو إلَّا اللهَ، ولا يصلِّي إلَّا للهِ، لكنَّ هذا وسيلةٌ من وسائلِ الشركِ، كذلك هنا؛ فالرسولُ أنكرَ هذه اللفظةَ سدّاً للذرائعِ، وتعليماً للمسلمينَ، أن يتجنّبوا الألفاظَ غيرَ اللائقةِ.

فإذا كانَ الرسولُ أنكرَ الاستغاثةَ به فيما يقدرُ عليه، فكيفَ بالاستغاثةِ به فيما لا يقدرُ عليه إلَّا اللهُ سبحانه وتعالى؟، وكيفَ بالاستغاثةِ بالأمواتِ؟. هذا أشدُّ إنكاراً.

وإذا كانَ الرسولُ ﷺ منَعَ من الاستغاثةِ الجائزةِ به في حياتِهِ تأدُّباً معَ الله، فكيف بالاستغاثةِ به بعدَ وفاتِه ﷺ؟، وكيف بالاستغاثةِ بمن هو دونَه من النَّاسِ؟. هذا أمرٌ ممنوعٌ ومحرّمٌ. وهذا وجهُ استشهادِ المصنّفِ رحمه الله بالحديثِ للترجمةِ.

إذاً فقولُ البوصيري:

يا أكرمَ الخلقِ ما لي من ألوذُ به	سواكَ عندَ حلولِ الحادث العممِ
إن لم تكُنْ في معادي آخذاً	بيدي فضلاً وإلَّا قُلْ يا زلّةَ القدمِ
فإنَّ مِنْ جُودِكَ الدُّنيا وضرّتَها	ومن علومِك علمُ اللّوحِ والقلمِ

أليسَ هذا من أكبرِ الشركِ؟

يقولُ: ما ينقذُ يومَ القيامةِ إلَّا الرسولُ ﷺ، ولا يُخرجُ من النارِ إلَّا الرسولُ، أينَ اللهُ سبحانه وتعالى؟.

ثمَّ قالَ: إنَّ الدنيا والآخرةَ كلَّها من جودِ الرسولِ ﷺ، وعلمُ اللّوحِ المفوظِ والقلمِ الذي كُتِبَ في اللوحِ المحفوظِ بأمرِ اللهِ هو بعضُ علمِ الرسولِ، إذ الرسولُ

يعلمُ الغيبَ، وهذه القصيدةُ -مع الأسفِ- تطبعُ بشكل جميل وحرف عريض، وتوزعُ وتقرأُ، ويُعتنى بها أكثر مما يُعتنى بكتاب الله عزّ وجلّ -فلا حول ولا قولة إلا بالله العليِّ العظيمِ.

الحاصلُ؛ أنَّ الرسولَ إذا كانَ أنكرَ على خواصِّ أصحابِهِ هذه الكلمةَ، وقال: «**إنه لا يستغاث بي**» وهذا في الدنيا، مع أنه قادرٌ على أن يغيثَهم من المنافقِ، فكيف يُستغاثُ به بعدَ وفاتِه ﷺ، كيف يُستغاثُ بمن هو دونَه من الأولياءِ والصالحينَ؟، هذا أمرٌ باطلٌ، والاستغاثةُ لا تجوزُ إلَّا باللهِ، فيكونُ في هذا شاهدٌ للترجمةِ: «**بابٌ من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعوَ غيره**» والمناسبةُ ظاهرةٌ وللهِ الحمدُ والمنةُ، وكلُّ هذا من أجلِ حمايةِ التّوحيدِ، وصفاءِ العقيدةِ، والمنعُ من كلِّ ما يُفضي إلى الشركِ ولو على المدى البعيدِ.

الشركُ لا يُتساهلُ فيه أبداً، والطُّرُق التي توصِّلُ إلى الشركِ لا يُتساهلُ فيها أبداً، وأنتم تعلمونَ ماذا حصَلَ في قومِ نوحٍ، وأنَّ الشركَ حصَلَ فيهم بسببِ تعليقِ الصورِ، والغلوِ في الصالحينَ، وكانوا في وقتِهم لم يشركوا، ولكن صارَ هذا وسيلةٌ إلى الشركِ فيما بعد؛ لمَّا ماتَ أولئكَ، ونُسِيَ العلمُ أو نُسِخَ العلمُ عُبِدَتْ هذه الصورُ، فالوسائلُ إذا تُسوهلَ فيها أدّت إلى الشركِ. فالواجبُ علينا منعُ الشرك، وقطع وسائلِهِ، وأسبابِهِ، وأن لا نسمحَ بالألفاظِ الشركيةِ، ولا بأيِّ شيءٍ يُفضي إلى الشركِ، وعلينا أن نحذِّرَ من ذلكَ صيانةً للعقيدةِ، وحمايةً للتّوحيد، وإشفاقاً على المسلمينَ من الضلالِ والكفرِ والإلحادِ، فإنه ما حصَلَ هذا الشركُ في الأمةِ، وما حصَلَ هذا الضلال في الأمةِ إلَّا لمَّا تساهَلَ الناسُ في أمرِ العقيدةِ، وسكتَ العلماءُ عن بيانِ خطرِ الشركِ، والتحذيرِ من أسبابِ الشركِ، ورأوا الناسَ على الشركِ وعبادةِ القبور ولم ينهَوْهم. هذا إذا أَحْسنّا بهم الظنَّ، وقلنا: إنهم

ينكرونَ هذا بأنفسِهم، ولكن ما قاموا بواجبِ الإنكارِ، إما إذا كانوا يَرَوْنَ هذا جائزاً، فهذا شركٌ وكفرٌ لأنَّ من رضِيَ به صارَ مثلَ من يفعلُهُ.

نسألُ اللهَ عز وجل أن يحفظَ لنا دينَنَا وعقيدتَنا، وأن يجعلَنا من الدعاةِ إليه بالحكمةِ، والدعوةِ إلى سبيلِهِ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ والجدالِ بالتي هي أحسنُ.

* * *

الباب الخامس عشر:

بَابٌ قَولُ الله تَعَالَى

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾ [سورة الأعراف: ١٩١-١٩٢].

ما في هذا البابِ من الأدلَّة من الكتابِ والسُّنةِ أرادَ الشيخُ رحمه الله مِنْ سياقِها بيانَ أدلةِ بُطلانِ الشركِ، لأنَّ القرآنَ الكريمَ جاءَ بالدعوةِ إلى التّوحيدِ، وعبادةِ اللهِ وحدَه لا شريكَ له، وجاءَ بالنهي عن الشركِ، وهو عبادةُ غيرِ اللهِ سبحانه وتعالى، والنَّهي عن ذلكَ.

فقوله تعالى: «﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ ﴾ [الأعراف: ١٩١]» هذا استفهامٌ، معناه: الإنكارُ.

«﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾» أي: هذا الشركُ باطلٌ؛ بدليلِ أنَّ هذِهِ المعبوداتِ من دونِ اللهِ لا تخلقُ شيئاً، فهي عاجزةٌ لأنَّ الذي يستحقُّ العبادةَ هو الخالقُ، فالذي يقدِرُ على الخلقِ هو الذي يستحقُّ العبادةَ، أما الذي لا يقدرُ على الخلقِ فهذا لا يستحقُّ العبادةَ، كما قالَ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١-٢٢]، لا تجعلوا للهِ شركاءَ وأنتم تعلمونَ، إن هذه الشركاء لا تقدرُ على خلقِ شيءٍ، ولا على رَزْقٍ، ولا على إحياءٍ، ولا إماتةٍ، فهي عاجزةٌ، وكما في قولِه تعالَى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: ١٧]، فالذي يستحقُّ العبادةَ، فكيفَ يُسَوَّى العاجزُ بالقادرِ؟، كيف يُسَوَّى المخلوقُ

بالخالقِ سبحانه وتعالى؟ ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ۝٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ۝٢١﴾ [النحل: ٢٠-٢١]، وقال تعالى في تعجيزِ المشركينَ وآلهتِهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ۝٧٣﴾ [الحج: ٧٣]، فهذهِ المعبوداتُ بجميعِ أنواعِها سواءً كانَتْ أحجاراً، أو أشجاراً، أو قبوراً وأضرحةً، أو ملائكةً، أو أنبياءَ، أو صالحينَ من المؤمنينَ، كلُّهم يدخلونَ تحتَ هذا الوصفِ؛ لا يقدرونَ على خلقِ شيءٍ، لأنَّ المخلوقَ لا يستطيعُ أن يخلقَ، فكيف يُتخذُ معبوداً مع اللهِ سبحانه وتعالى؟.

وفي هذهِ الآيةِ يقولُ: «﴿لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا﴾» و(شيئاً) نَكِرَةٌ في سياقِ النفي تَعُم، يعني: لا يخلقون أيَّ شيءٍ ولو كانَ قليلاً، ولو يجتمعُ العالَمُ كلُّه بما فيهم المَهَرةُ والصنّاعُ والمهندسونَ والأطباءُ، ويُطلَبُ منهم أن يخلقوا حبةَ شعيرٍ ما استطاعوا.

ثمَّ قالَ: «﴿وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾» أي: هذهِ المعبوداتُ التي تعبدونها مخلوقاتٌ للهِ سبحانه وتعالى، فهم لم يخلقوا أنفسَهم، ولم يخلقوا غيرَهم، فكيفَ تتّخذونَهم معَ الخالقِ سبحانه وتعالى؟، هل هذا إلّا من بابِ المكابرةِ، ومن بابِ العِناد.

فالذي يُشرِكُ باللهِ أيّاً كانَ هذا الشيءُ قد قامَتْ عليهِ هذهِ الحجةُ في أنَّ هذا المعبودَ عاجزٌ، لكنْ أينَ العقولُ التي تفكّر؟، هؤلاءِ الذينَ يزعمونَ أنَّهم مفكِّرون، وأنَّهم مَهَرَة، وأنهم مثقفونَ، وأنَّهم.. وأنَّهم، تجدُهم يخضعونَ للقبورِ، ويعبدونَ الأمواتَ، ويذبحونَ لها، وينذرونَ لها، ويستغيثونَ بها، وهم يسمعونَ هذا القرآنَ.

ثمَّ قالَ سبحانه وتعالى: «﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾ [الأعراف: ١٩١-١٩٢]» أي: هذهِ المعبوداتُ وهذهِ الأصنامُ لا تملكُ نصراً لمَنْ دعاها، إذا وقعَ المشركُ في كُربةٍ، أو في ضيقٍ، أو في مرضٍ، لا يستطيعُ أحدٌ من الخلقِ أن يُنقذَه إلَّا بإذنِ اللهِ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: ٦٧]، ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾[النمل: ٦٢]، ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر: ٣٨]، وهنا يقول: «﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾» لا يملكُ المعبودونَ «﴿ لَهُمْ ﴾ » للعابدينَ ﴿نَصْرًا ﴾ عندما يتسلطُ عليهم عدوٌّ، أو يتسلَّطُ عليهم سَبُع، أو يتسلَّطُ عليهم خوفٌ، فإنها لا تستطيعُ هذهِ المعبوداتُ أن تنصرَهم على عدوِّهم، ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الأنفال: ١٠]، فالنَّصرُ من اللهِ سبحانه وتعالى، ولو كانَتْ هذهِ المعبوداتُ تُغني عن المشركينَ شيئاً ما انهزموا في بدرٍ، ولا انهزموا في الأحزابِ، ولا انهزموا يومَ فتحِ مكةَ، وفي يومِ حنينٍ، وأما المؤمنونَ فاللهُ نصرَهم سبحانه وتعالى، وهم قِلَّةٌ، كانوا في بدرٍ ثلاثمائة وبضعة عشر، والمشركونَ يزيدون على الألفِ، والمسلمونَ ليس معهم عُدَّةٌ ولا سلاحٌ إلَّا قليلٌ، والمشركونَ مُدَجَّجُون بالسِّلاحِ: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣]، حتَّى الشَّيطان لما تراءى الجمعانِ قال: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ [الأنفال: ٤٨]، أمَّا اللهُ

جلَّ وعلا فكانَ مع أوليائِهِ، وكانَ مع عبادِهِ، فنصرَهُم على عدوِّهم مع قلّةِ عَددِهم وضعفِ عُددِهم، والمشركونَ لم يجدوا من ينصرُهم، أين ذهبتْ آلهتُهُم؟

﴿وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ أي: هذا المعبودُ الضعيفُ إذا نزلَ بِهِ آفةٌ لا يستطيعُ أن يُنقذَ نفسَه، فكيف يُنقذُكم؟

هذا الميتُ المقبورُ المدفونَ لا يستطيعُ أن يتخلصَ من الموتِ ومن القبرِ ومما هو فيهِ، مشغولٌ عنكم بنفسِه؛ إما في عذابٍ وإما في نعيمٍ، لا يسمَعُ دعاءَكم.

وهذهِ الأشجارُ والأحجارُ التي تعبدونَها جماداتٌ لا تستطيعُ نصرَكم ولا تنصرُ نفسَها، الصنمُ الكبيرُ يُحطِّمُهُ الطفلُ ولا يستطيعُ أَنْ ينصرَ نفسَه، يقعُ عليه الذبابُ ويقذِّرُهُ ولا يستطيعُ أن يَنْفي عن نفسِهِ، الذبابُ الضعيفُ: ﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ﴾.

يُروى أنَّ بعضَ المشركينَ له صنمٌ، فجاءَ الثعلبُ وبالَ عليهِ، فلمَّا رآهُ عابده فكّر وقال:

أرب يبول الثعبان برأسه ⁂ لقد هان من بالت عليه الثعالب

فعندَ ذلكَ فكَّرَ وترَكَ عبادةَ الأصنامِ.

ويدخلُ في هذهِ الآيةِ كل ما عُبدَ من دونِ اللهِ من الملائكةِ، والأنبياءِ، والصالحينَ، والأشجارِ، والأحجارِ، كلُّها مخلوقاتٌ ضعيفةٌ، لا تستطيعُ أن تنصرَ نفسَها، فكيف تنصرُ غيرَها؟

* * *

وَقَوْلُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ [سورة فاطر: ١٣-١٤].

وقوله سبحانه وتعالى: «﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾» أي: غير اللهِ سبحانه وتعالى، وهذا يشمَلُ كلَّ ما عُبِدَ مِنْ دونِ اللهِ، لأنَّ الاسمَ الموصولَ من صيغِ العمومِ، فيشمَلُ كلَّ ما عُبِدَ من دونِ اللهِ من آدميِّنَ، أو أحجارٍ، أو أشجارٍ، أو ملائكةٍ، أو غيرِ ذلكَ. والقطميرُ هو الغشاءُ الرقيقُ الي يكونُ على النواةِ وهو شيءٌ حقيرٌ: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾.

يُشترَطُ في المدعُوِّ ثلاثةُ شروطٍ:

الأول: أن يكونَ مالكاً لما يُطلَبُ منه.

الثاني: أن يكونَ يسمعُ الدَّاعي.

الثالث: أن يكونَ يَقْدرُ على الإجابةِ.

وهذه الأمورُ لا تتّفقُ إلَّا في اللهِ سبحانه وتعالى، فإنه المالكُ، السَّميعُ، القادرُ على الإجابةِ، أما هذهِ المعبوداتُ فهي أولاً: فقيرةٌ، ليسَ لها مُلْك. ثانياً: لا تسمعُ مَنْ دعاها. وثالثاً: لو سمِعَتْ فإنَّها لا تقدرُ على الإجابةِ.

ففي قوله تعالى: «﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾» انتفى الشرطُ الأولُ.

وفي قوله: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ انتفى الشرطُ الثاني.

وفي قوله: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ انتفى الشرطُ الثالثُ.

إذاً بَطُلَ دعاؤُها.

ثمَّ قالَ سبحانه وتعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ إذا جاءَ يومَ القيامةِ يتبرّؤونَ منكم، وكلُّ المعبوداتِ من دونِ اللهِ تتبرّأ ممَّنْ عبدَها يومَ القيامةِ،

حتى الشَّيطانُ يتبرَّأُ: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ يعني: ما أنا بمُغيثِكم. والصَّريخ: المُغيث. يعني: لا أقدرُ على إغاثتِكم ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾ أنتم لا تقدرونَ على إغاثتي، كقولِهِ سبحانه: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾.

وكذلك الملائكةُ يتبرؤونَ ممَّنْ عبدَهم يومَ القيامةِ، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠-٤١]، يعني: يعبدونَ الشياطينَ التي دعتْهم إلى هذا، أما نحنُ برءاءُ منهم، وحاشا وكلا أن ترضى ملائكةُ الرحمنِ بأنْ تُعبدَ من دونِ اللهِ، فضلاً عن أنْ تدعوَ إلى ذلكَ، وإنما هذا مِنْ عملِ الشياطينِ.

وعيسى عليه السلام يقولُ اللهُ له يومَ القيامةِ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧].

وكذلك سائرُ المعبوداتِ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا﴾ [البقرة: ١٦٦-١٦٧] يتمنون ﴿كَرَّةً﴾ يعني: رجوعاً إلى الدُّنيا ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾ نتبرّأُ من هذهِ الأصنامِ والمعبوداتِ، ﴿كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا﴾ لكن أينَ؟، ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ

....

حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ نعوذُ باللهِ.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾ لا يسمعونَ دعاءهم في الدُّنيا، ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ هذا خبرٌ من اللهِ سبحانه وتعالى عن مصيرِ هؤلاءِ المشركينَ يومَ القيامةِ، يُخبرُهم بما يكونُ إليهِ الأمرُ يومَ القيامةِ من أجلِ أن يتوبوا إلى اللهِ سبحانه وتعالى، وهذا رحمةٌ منه بِعبادِهِ، ولهذا قال: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٤] لا ينبِّئكَ ويُخبرك عن الأشياءِ مثلَ خبيرٍ بها وهو اللهُ سبحانه وتعالى، هو الذي يعلمُ الأشياءَ والعواقبَ، ويعلمُ المآلَ والمصيرَ، وهو يُخبرُكم أيُّها الناسُ بأن مَنْ عبَدَ غيرَ اللهِ فإنه سيتبرّأُ منه يومَ القيامةِ، فخذوا حذرَكُم. وهذا رحمةٌ من اللهِ سبحانه وتعالى، وأخبرَ أنه لا يُنبئُك بالأمورِ وعواقبِها ونتائِجها وثمراتِها إلّا الخبيرُ بالأمورِ، أما الجاهلُ فإنه لا يستطيعُ أن يُخبِرَك عن شيءٍ، ولو أَخْبرَكَ فإنَّ خبرَه يكونُ غيرَ صحيحٍ، أما اللهُ جلَّ وعلا إذا أخبرَ بخبرٍ فإنه يكونُ واقعاً لا بدَّ منه، وكذلك رُسُلُه، لأنهم يخبرونَ عن اللهِ سبحانه وتعالى.

أما هؤلاءِ المشعوذونَ والصوفيّةُ والمخرفونَ الذينَ يدعُونَ الناسَ إلى عبادةِ الأضرحةِ والمقاماتِ، ويقولونَ: هذهِ فيها بركةٌ، وفيها.. وفيها. هؤلاءِ كذبةٌ، فلا تصدِّقوهم.

* * *

وَفِي الصَّحِيحِ[(١)] عَن أَنَسٍ، قَالَ: شُجَّ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ،وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ

قال: «**وفي الصحيح**» يعني: الصحيحين.

«**عن أنس قال: شُجَّ النبي ﷺ**» الشَّجَّة هي: الجرْحُ في الرأسِ والوجهِ خاصَّة، أما الجرحُ إذا كانَ في البدنِ فهذا لا يُسمَّى شَجَّة، وإنما يُسمَّى جراحةً.

«**يوم أحد**»: جبلٌ يقعُ في الشَّمالِ الشرقيِّ من المدينةِ، حصلَتْ عندَهُ وقعةُ أحدٍ في السنةِ التي بعدَ وقعةِ بدرٍ، فالمشركون تجمعوا وأرادوا الانتصارَ لأنفسِهم وجمعوا جنوداً بقيادةِ أبي سفيانَ بنِ حربٍ، «وجاؤوا» يريدونَ الانتقامَ من الرسول ﷺ وأصحابِهِ، الذينَ أصابوهم يومَ بدرٍ، جاءوا ونزلوا عندَ هذا الجبلِ، فخرجَ إليهم رسولُ اللهِ ﷺ بأصحابِهِ الكرامِ من المهاجرينَ والأَنْصارِ، والتقى بهم في هذا المكانِ، ونظَّمَ ﷺ المقاتلينَ، وجعَلَ على الجبلِ الذي خلفَهم جماعةً من الرُّماةِ يحمونَ ظهورَ المسلمينَ، ودارتِ المعركةُ، والرُّماةُ على الجبلِ يحرسونَ المسلمينَ، وصارَ النصرُ في الأولِ للمسلمينَ لمَّا كانوا يمشونَ على خُطَّةِ الرسولِ ﷺ، وشرعوا يجمعونَ الغنائِمَ، فلمَّا رآهم الرُّماةُ الذينَ على الجبلِ ظنُّوا أنَّ المعركةَ انتهَتْ، فقالوا: نَنْزِلُ نساعدُ إخوانَنا على جمعِ الغنائمِ، فقال لهم قائدُهم عبدُاللهِ بنُ جبيرٍ رضي الله عنه: لا تنزلوا، لأنَّ الرسولَ ﷺ قال لنا: لا تتركوا الجَبَلَ، سواءً انتصَرْنا أو هُزمنا. ولكنَّهم خالفوا قائدَهم ونزلوا، فلمَّا رأى خالدُ بنُ الوليدِ -وكانَ يومَ ذاكَ مُشركاً-، لما رأى الجبلَ فَرَغ -وهو كانَ من الشُّجعانِ وساسةِ الحرب- عرَفَ أنَّ هذِهِ الثغرةَ انفتحَتْ لهم، فدارَ بمَنْ معه، وانقضُّوا على المسلمينَ من الخلفِ، وما شَعَرَ المسلمونَ إلَّا والمشركونَ يضربونَهم من الخلفِ، فحينئذٍ اختلطَ الجمعانِ: المسلمونَ والكفَّارُ، ودارتِ

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٩١).

المعركةُ من جديدٍ، وأُصيبَ المسلمونَ عقوبةً لهم بسببِ مخالفةِ أمرِ النبيِّ ﷺ.
وفي هذا نَزَلَ قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾ يعني: تقتلونَهم، وهذا في أوّلِ المعركةِ، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ عقوبةً لكم.

والنبيُّ ﷺ شُجَّ في رأسِه، وهشمَ المغفرُ على رأسِهِ، وغاصَتْ حلقتانِ في وجنتِهِ ﷺ، وكُسِرت رُباعِيَّتُهُ -عليهِ الصلاةُ والسلامُ-، ووقع في حفرةٍ، وأشاعَ المشركونَ أنَّ محمَّداً قد قُتل، فلمَّا أشاعَ المشركونَ هذهِ الشائعةَ وصاحَ الشيطانُ بذلكَ، حصَلَ على المسلمينَ مصيبةٌ أكبرُ من مصيبةِ القتلِ، كلُّ هذا بسببِ المعصيةِ.

انظروا يا عبادَ اللهِ، معصيةٌ واحدةٌ وليسَتْ من الجميعِ، وإنَّما هي من بعضِ الصحابةِ حصَلَ بسببِها هذهِ العقوبةُ على خيرِ الخلقِ، فكيف بنا نحنُ، ونحنُ نرتكبُ من المعاصي والمخالفاتِ الشيءَ الكثيرَ؟، ولا حولَ ولا قوةَ إلَّا باللهِ، فهذا فيه خطورةُ المعاصي، ومخالفةُ أمرِ النبيِّ ﷺ.

ثمَّ قالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ هذا تطمينٌ لهم بعدَ ما وَبَّخَهم سبحانه وتعالى، لأنهم أحبابُه وأولياؤُه.

وقد «**شُجَّ النبي** ﷺ» وهذا دليلٌ على أنَّ الرسولَ ﷺ لا يملِكُ لنفسِه ضرّاً ولا نفعاً، فلا تجوزُ عبادتُهُ.

وهذا من أدلةِ بطلانِ الشركِ؛ أنَّ المخلوقَ وإنْ بلَغَ من المنزلةِ العاليةِ فإنه مخلوقٌ، لا يستحقُّ شيئاً من العبادةِ، فأشرَفُ الخلقِ محمَّدٌ ﷺ وقَعَ عليهِ الضررُ، وجُرِحَ -عليهِ الصلاةُ والسلامُ-، فدلَّ على أنهُ لا تجوزُ عبادتُهُ من دونِ اللهِ، وإذا

فَقَالَ: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَومٌ شَجُّوا نَبِيَّهِمْ؟» فَنَزَلَت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [سورة آل عمران: ١٢٨].

كانَ كذلكَ فغيرُهُ مِنْ بابِ أولى، فلا تجوزُ عبادةُ الأولياءِ والصالحينَ ومَنْ دونَ ذلكَ، لأنَّ كلَّ الخلقِ لا تجوزُ عبادتُهم، لا الملائكةُ، ولا النبيونَ، ولا الأولياءُ، ولا الصالحونَ. العبادةُ حقٌّ للهِ سبحانه وتعالى، لا يجوزُ صرفُها لغيرِهِ، وقالَ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف: ١٨٨].

فإذا كانَ الرسولُ لا تجوزُ عبادتُهُ مِنْ دونِ اللهِ عز وجل، فكيفَ بغيرِهِ من الخلقِ؟، والرسولُ لم يستطِعِ الدفعَ عن نفسِهِ: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ [الجن: ٢١-٢٢].

ولما شُجّ النبيُّ ﷺ يومَ أُحدٍ قالَ -عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ-: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ؟» استبعَدَ ﷺ فلاحَهم، واستبعَدَ استجابتَهُم للدعوةِ، لأنَّهم بَلَغوا من العِنادِ، وبَلَغوا من المُشاقَّةِ إلى هذا الحدِّ، فهؤلاءِ بعيدٌ أن يستجيبوا، وإذا لم يستجيبوا فلَنْ يُفْلحوا، ولكنَّ اللهَ جلَّ وعلا يعلمُ المستقبلَ وما يكونُ، فعاتَبهُ وقال: «﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [آل عمران: ١٢٨]» وهذا -أيضاً- دليلٌ آخرُ على عدمِ استحقاقِهِ لشيءٍ من العبادةِ، الأمرُ في هذا الكونِ والتدبيرُ للهِ ﷺ، وإنَّما الرسولُ ﷺ مبلِّغٌ عن اللهِ، والأمرُ للهِ سبحانه وتعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾، فالأمرُ للهِ ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، وإنَّما الرُّسُلُ -عليهم الصَّلاةُ والسلامُ- مبلِّغونَ عن اللهِ فقَطْ، ودعاةٌ إلى اللهِ.

وَفِيهِ[١] عَنِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرَّكْعَةِ الأَخِيرَةِ مِنَ الفَجْرِ: «اللَّهُمَّ العَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا» بَعْدَمَا يَقُولُ: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ»، فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

«﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾» لا أَمْر النَّصْرِ، ولا أَمْر الهزيمةِ، ولا أمر التَّوبةِ، ولا أمر الفلاحِ، ولا أَمْر الدُّخولِ في الإسلامِ والهدايةِ، وإنَّما كلُّ هذا بيدِ اللهِ سبحانه وتعالى، أنتَ ليسَ عليك إلَّا البلاغُ: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾، هذه وظيفةُ الرسولِ ﷺ أنه مبلِّغٌ عن اللهِ فَقَط، أمَّا أنه يملكُ النفعَ والضَّرَ والنصرَ والرِّزقَ والحياةَ والموتَ؛ فهذا لا يملِكُهُ أحدٌ إلَّا اللهَ سبحانه وتعالى.

***

قال: «وفيه» أي: في الصحيح، يعني: صحيح مُسْلم.

«عن ابن عمر» هو: عبدُاللهِ بنُ عمرَ بنِ الخطّابِ -رضي اللهُ تعالى عنهما-، من فقهاءِ الصحابةِ، ومن العُبّادِ.

«أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ مِنَ الرَّكْعَةِ الأَخِيرَةِ مِنَ الفَجْرِ: «اللَّهُمَّ العَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا» يدعو الرسولُ ﷺ على فلانٍ وفلانٍ أَنْ يطردَهُمُ اللهُ من رحمتِهِ؛ بسببِ أَنَّهم أَلَّبُوا المشركينَ، وجاءوا لحربِ الرَّسولِ ﷺ، وأَوْقعوا بالمسلمينَ هذهِ المصيبةَ.

فيه دليلٌ على مشروعيّةِ القنوتِ في صلاةِ الفجرِ عندَ النَّوازلِ، أي: عندما تنزِلُ بالمسلمينَ نازلةٌ من مداهمةِ عدوٍّ، أو حصولِ بلاءٍ فيه خطورةٌ على

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٦٩).

وَفِي رِوَايَةٍ[(١)]: يَدعُو عَلَى صَفوَانَ بنِ أُمَيَّةَ، وَسُهَيلِ بنِ عَمرٍو، وَالحَارِثِ ابنِ هِشَامٍ. فَنَزَلَت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

المسلمينَ، فإنهم يُشرَعُ لهم أَنْ يقنُتوا في صلاةِ الفجرِ، بمعنى أنهم يدعونَ في صلاةِ الفجرِ لرفعِ هذا البلاءِ الذي عليهم، أو على إخوانِهم من المسلمينَ، فالقنوتُ عندَ النَّوازِلِ من سنَّةِ الرسولِ ﷺ، كما في هذا الحديثِ، أما القنوتُ في صلاةِ الفجرِ في غيرِ النوازِلِ على صفةٍ مستمرّةٍ؛ فهذا ليسَ بمشروعٍ عندَ جمهورِ أهلِ العلمِ.

قال: «**وفي رواية: يدعو على صفوان بن أُميّة، وسُهيل بن عمرو، والحارث ابن هشام**» هذا تفسيرٌ لقولِهِ: «**اللَّهُمَّ العَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا**»، وأنَّ المرادَ بهم هؤلاءِ الأَشْخاص، لأَنَّهم من قادةِ المشركينَ يومَ أحدٍ معَ أبي سفيانَ، وكانَ النبيُّ ﷺ يدعو عليهم لما وَقَع منهم، ولكنَّ اللهَ يعلَمُ مِنْ حالِ هؤلاءِ وما يؤولُ إليهِ أمرُهُم ما لا يعلمُهُ الرَّسولُ ﷺ، فإنَّ هؤلاءِ تابَ اللهُ عليهم وأَسْلموا، وحسُن إسلامُهُم رضي الله عنهم.

ولما ارتدَّ النَّاس بعدَ وفاةِ النبيِّ ﷺ وقَفَ سهيلُ بنُ عمروٍ خطيباً في أهلِ مكةَ يُثبِّتُهم على الإسلامِ، و قال لهم: يا أهلَ مكةَ لا تكونوا آخرَ مَنْ أسلمَ وأوّلَ من ارتدَّ. فثبتَ أهلُ مكةَ على الإسلام، ولم يرتدُّوا بسببِ هذا الرجلِ الذي جعلَ اللهُ فيهِ الخيرَ.

فهذا دليلٌ على أنَّ الإنسانَ مهما بلغَ من الضَّلالِ، ومهما بلغَ من الكفرِ، فإنه لا يُيْأَسُ من هدايته، لأنَّ القلوبَ بيدِ اللهِ سبحانه وتعالى.

---

(١) أخرجها البخاري (٤٠٧٠) عن سالم بن عبدالله مرسلة. ووصلها أحمد (٢/ ٩٣) والترمذي (٣٠٠٤).

وَفِيهِ[(١)]: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ

وهذا دليلٌ على أنّه لا يعلمُ الغيبَ إلّا اللهُ سبحانه وتعالى، وأنّك لا تحكمُ على المعينينَ بالنّارِ إلّا مَنْ حكَمَ عليهِ اللهُ سبحانه وتعالى في القرآنِ، أو حَكَم عليه الرسولُ ﷺ.

ولهذا من عقيدةِ أهلِ السنةِ والجماعةِ: أنهم لا يشهدونَ لأحدٍ بجنّة ولا نارٍ إلّا مَنْ شَهِد له رسولُ اللهِ ﷺ، ولكنّهم يرجونَ للمحسنينَ، ويخافون على المسيئين، ولا يجزمون لأحدٍ لأنَّ العواقبَ بيدِ اللهِ سبحانه وتعالى، والإنسانُ مهما بلغَ من الكفرِ والشركِ والعنادِ، فإنه قد يَهْديه اللهُ سبحانه وتعالى، ويُصبحُ من أولياءِ اللهِ الصالحينَ.

فهؤلاءِ أَسْلموا، وحسُن إسلامُهُم -رضيَ اللهُ تعالى عنهم-، مع أنّهم آذوا الرسولَ، وقاتلوهُ، وآذوا المسلمينَ، ولكنْ مَنَّ اللهُ عليهم بالهدايةِ.

فالحاصلُ؛ أنَّ هذهِ الآيةَ الكريمةَ وما جاءَ في سببِ نزولِها فيها دليلٌ على بطلانِ الشركِ، لأنَّ الرسولَ ﷺ ومعه سادةُ المهاجرينَ والأنصارِ حصَلَ عليهم من الضررِ والهزيمةِ في وقعةِ أحدٍ ما حصَلَ، وهم ساداتُ الأولياءِ، فدلَّ على أنه لا يجوزُ التعلُّقُ بغيرِ اللهِ سبحانه وتعالى، لأنَّ هؤلاءِ لم يستطيعوا الدفعَ عن أنفسِهم، فكيفَ يدفعونَ عن غيرِهم، لأنَّ المخلوقَ مهما كانَ فإنه مخلوقٌ، وهو فقيرٌ إلى اللهِ سبحانه وتعالى، قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾.

قوله: «وفيه» يعني: في «**صحيحِ البُخاري**».

«**عن أبي هريرة**» أبو هريرة اشتُهر بكنيتِهِ، أمّا اسمُهُ فاختلَفَ فيه العلماءُ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٥٣) ومسلم (٢٠٦).

أُنزِلَ عَلَيهِ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [سورة الشعراء: ٢١٤] فَقَالَ:....

على أقوالٍ كثيرةٍ، أَصحُّها أنه: عبدُالرحمنِ بنُ صخرٍ، من قبيلةِ دوسٍ المشهورةِ، قَدِم على النبيِّ وأعلنَ إسلامَهُ، ولازمَ النبيَّ ﷺ ملازمةً تامةً، يروي عنه الأحاديثَ، واهتمَّ بذلكَ اهتماماً عظيماً، حتَّى أَصْبحَ من أكثرِ الصَّحابةِ روايةً للحديثِ، فإنه يوجدُ له في كُتُبِ السنّةِ ما يزيدُ على خمسةِ آلافِ حديثٍ، فهو أكثرُ الصَّحابةِ روايةً للحديثِ، لأنهُ تفرَّغَ لذلكَ، تفرّغاً تامّاً، واهتمَّ به، اهتماماً تامّاً، فأعانَهُ اللهُ على ذلكَ، وحفِظَ لهذِهِ الأمةِ قسماً كبيراً من سنّةِ رسولِ اللهِ ﷺ، فهو روايةُ الإسلامِ -رضِيَ اللهُ تعالى عنه-.

وقد تعجَّبَ بعضُ الجهّالِ في هذا العصرِ، الذينَ تأثّروا بدعاياتِ المستشرقينَ، أو بدعاياتِ المبتدعةِ، فاستغربوا كثرةَ الأحاديثِ التي رواها هذا الصحابيُّ الجليلُ، فصاروا يتكلمونَ كلاماً سيّئاً في حَقِّ أبي هريرةَ رضي الله عنه، ولكنَّ اللهَ قيَّضَ من علماءِ الإسلامِ من دَحَضَ هذهِ الشبهاتِ، وردَّها في نحورِهم، وبيّنَ منزلةَ هذا الصحابيُّ الجليلِ مَنْ بَيْنِ الصحابةِ، واهتمامَهُ بأحاديثِ رسولِ اللهِ ﷺ، فهناكَ كتاباتٌ كثيرةٌ تدافعُ عن مروِيّاتِ هذا الصحابيِّ الجليلِ وتدحضُ شبهاتِ المستشرقينَ والمبتدعةِ من الشيعةِ وغيرِهم.

«**قال: قام فينا رسول الله ﷺ**» جاء في الحديثِ الآخرِ: أنه قامَ على الصَّفا.

«**حين أنزل عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾**» أمرَهُ اللهُ سبحانه وتعالى أن يُنذرَ عشيرتَهُ الأقربينَ، كما أمرَهُ اللهُ أن يُنذِرَ النَّاسَ عامةً، لأنه رسولٌ إلى العالمِ كلِّه: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾، رسالتُهُ ﷺ عامَّةٌ للثقلينِ الجنِّ والإنسِ، وقد بلّغَ البلاغَ المبينَ، ولكنه اختصَّ عشيرتَهُ، لأمرِ اللهِ له بذلكَ.

وفي هذا دليلٌ على وجوبِ المبادرةِ إلى فعلِ الأوامرِ، فإنه ﷺ لما نزَلَ عليه

«يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ (أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا) اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا.

«﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾» بادَرَ بتنفيذِ ذلكَ وإبلاغِهِ، ففيهِ دليلٌ على وجوبِ المبادرةِ بامتثالِ أوامرِ اللهِ سبحانه وتعالى، وأنَّ الإنسانَ لا يتوانى إذا بلغَهُ أمرٌ من أوامرِ اللهِ، أو أمرٌ من أوامرِ رسولِ اللهِ ﷺ؛ فإنه يبادِرُ إلى تنفيذِهِ، ولا يتوانى، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

والإنذارُ معناه: الإخبارُ والتحذيرُ من وقوعِ أمرٍ مكروهٍ، وأما البَشَارةُ فهي الإخبارُ عن أمرٍ سارَ، فاللهُ جلَّ وعلَا بعَثَ هذا النبيَّ بشيراً ونذيراً، بشيراً للمؤمنين بالخيرِ والجنةِ، ونذيراً للكافرينَ بالنارِ والعذابِ إلَّا أن يتوبوا إلى اللهِ سبحانه وتعالى.

والعشيرة: جماعةُ الرجلِ الذينَ ينتسبُ إليهم.

والأقربينَ يعني: أقربُ الناسِ إلى الإنسانِ، لأنَّ القرابةَ تتفاوتُ، منها القرابةُ القريبةُ كالآباءِ، والأمهاتِ، والإخوانِ، والأخواتِ، والأعمامِ، والعمّاتِ، ومنهم أقاربُ أباعد مثلَ: أَبْناء الأَعْمامِ، وأبناءِ أَبْناءِ الأَعْمامِ إلى آخرِهِ، فهُمْ أقاربُ، ولكنهم أقاربُ بعيدونَ.

وفي هذا دليلٌ على أنَّ الداعيةَ والآمرَ بالمعروفِ والناهي عن المنكرِ يبدأُ بأهلِ بيتهِ وخاصتِهِ أوّلاً، ثم بجيرانِهِ وأهلِ بلدِهِ، ثم يتمدّدُ بالخيرِ إلى مَنْ حولَه مِنَ البلادِ، أما العكسُ وهو أن يذهبَ إلى الأباعدِ أو إلى البلادِ البعيدةِ ويتركَ أهلَهُ، ويتركَ بلدَه، ويتركَ أقاربَه، فهذا خلافُ منهجِ الرسولِ ﷺ الذي أمرَهُ اللهُ تعالى به في هذه الآيةِ، فمِنْ مَنْهجِ الدعوةِ البدايةُ بالأقاربِ، وبأهلِ البيتِ، كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾

[التحريم: ٦]، أَمَرَ بوقايةِ النَّفسِ أوّلاً، ثم بوقايةِ الأهلينَ، وذلك لأنَّ الأقاربَ لهم حقٌّ، ومن أعظمِ حقوقِهم: إرشادُهُم إلى ما فيهِ خيرُهم، وصلاحُهُم، وفلاحُهُم، فهذا أنفعُ من أن تعطيَهم الذهبَ والفضةَ والأموالَ، بل تبدأُ بإرشادِهم، وتوجيهِم، ودعوتِهم إلى اللهِ تعالى، لأنَّ لهم حقّاً عليكَ، وليسَ حقُّهم مقصوراً على الإنفاقِ وإعطائِهم المالَ.

وثانياً: لأجلِ القدوةِ، لأنك إذا دعوتَ النَّاس وتركتَ أَهْلَ بيتِك، فإنَّ النَّاسَ سينقمونَ عليك، ولا يقبلونَ دعوتَك، ولا توجيهاتِك، يقولونَ لو كانَ صادقاً لبدأَ بأهلِ بيتِهِ، يذهبُ إلى الناسِ ويتركُ أهلَ بيته على المخالفاتِ، وعلى المنكرِ، وعلى الجهلِ، ويذهبُ إلى الناسِ يدعوهُم إلى اللهِ، هذا ليسَ من منهجِ الدعوةِ، منهجُ الدعوةِ أن تبدأَ بالأقربينَ، ثم ينتشرُ الخيرُ شيئاً فشيئاً على مَنْ حولَهم، هذا المنهجُ السليمُ، أما الذي يتعدّى بيتَه، ويتعدّى بلدَه، ويذهبُ إلى النَّاسِ البعيدينَ يدعوهم إلى اللهِ، وبيتُهُ فيهِ الجهلُ، وفيهِ الأخطاءُ الكثيرةُ، والمخالفاتُ، أو في بلدِهِ وجماعتِهِ الأخطاءُ الكثيرةُ والمخالفاتُ، فهذا ليسَ من منهجِ الدعوةِ.

هذا أمرٌ يجِبُ أن نتفطّنَ له، فمنهجُ الدعوةِ يُؤخَذُ من الكتابِ والسنّةِ، لا يؤخَذُ من الاصطلاحاتِ والآراءِ، كما عليهِ كثيرٌ من الدُّعاةِ اليومَ، يأخذونَ مناهجَهُم من العاداتِ والآراءِ والمقترحاتِ، لا من الكتابِ والسنّةِ، انظروا إلى هذهِ الآيةِ، ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]، وانظروا إلى قولِهِ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]، وانظروا إلى قولِهِ تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾[البقرة: ٤٤]، فهذا من أعظمِ مناهجِ الدعوةِ.

لمَّا نزلَتْ عليهِ هذهِ الآيةُ الكريمةُ بادَرَ -عليهِ الصلاةُ والسلامُ- بامتثالِ أمرِ اللهِ، وصَعِد على الصَّفا، الجَبَلِ المَعْروف، وكونُهُ «**صعد الصفا**» فيه مشروعيةُ أَنْ يكونَ الخطيبُ والمبلِّغُ على مُرْتَفَع من أجلِ أن يراهُ الناسُ، ومن أجلِ أن يَبْلُغ صوتُهَ إلى الحاضرينَ والمستمعينَ.

فقال: «**يا معشر قريش**» المعشر: الجماعةُ، أي: يا جماعةَ قريشٍ، يُقالُ: إنهم من العشرةِ فأكثر. وقريش: القبيلةُ المشهورةُ التي بُعِث منها رسولُ اللهِ ﷺ، لأنه ﷺ من بني هاشمٍ، وبنو هاشمٍ من قريشٍ، صميمُ العربِ، وجيرانُ بيتِ اللهِ العتيق.

«**اشتروا أنفسكم**» أي: افتدوها من عذابِ اللهِ، أنقذوها من عذابِ الله. بماذا يشترونَ أنفسَهم؟، يشترونَ أنفسَهم بالدخولِ في الإسلامِ، وتوحيدِ اللهِ عز وجل، وتركِ عبادةِ ما سواه، هذا هو الذي يشترونَ به أنفسَهم، فافتداءُ الإنسانِ نفسَه من النارِ إنما يكونُ بطاعةِ اللهِ، وطاعةِ رسولِهِ ﷺ، وبدونِ ذلكَ لا يمكنُ أن ينجوَ من عذابِ اللهِ، ولو قدَّمَ الأموالَ الطائلةَ، فمن ماتَ على الكفرِ، فإنه لو قدَّمَ ملءَ الأرضِ من الذهبِ يشتري نفسَه من النارِ لا يمكنُ هذا، لكِنْ لو ماتَ على التّوحيدِ، وعلى العقيدةِ الصحيحةِ، فقد اشترى نفسَهُ من النَّارِ، فلا نجاةَ من النارِ إلَّا بطاعةِ اللهِ وطاعةِ رسولِهِ ﷺ، والموتُ على عقيدةِ التّوحيدِ الخالصِ، والسلامةِ من الشركِ: «**مَنْ مَاتَ وَهْوَ لَا يَدْعُو للهِ نِدًّا دَخَلَ الجنَّةَ، وَمَنْ مَاتَ وَهْوَ يَدْعُو للهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ**»[1].

«**لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا**» أي: لا ينفعُكُم أنِّي منكم، وأنتم قبيلتي، هذا لا ينفعُكُم عندَ اللهِ شيئاً.

(١) أخرجه البخاري (٤٤٩٧).

وفي هذا دليلٌ على بُطلانِ التعلُّقِ على الأشخاصِ، والتعلقِ على الأولياءِ والصالحينَ، واعتقادِ أنهم يقرِّبونَ إلى اللهِ زُلفى، كما يفعَلُهُ المشركونَ قديماً وحديثاً، الذين يتعلقونَ على الأولياءِ والصالحين، ويعتقدونَ أنَّهم يشفعونَ لهم عندَ اللهِ، وأنهم يتوسّطونَ لهم عندَ اللهِ، ويتقرّبونَ إلى الأولياءِ والصالحينَ بالذبحِ، والنَّذْر، والاستغاثةِ، والاستِعاذةِ، والدُّعاءِ، كما قالَ اللهُ سُبْحانه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، قَالَ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، هذا زَعْمُهم.

ولا يزالُ هذا عندَ بعضِ النَّاسِ إلى اليومِ، هناكَ طوائفُ كثيرةٌ من عُبّادِ القبورِ، والصوفيةِ، وغيرِهم يعتقدونَ أنَّ الأولياءَ والسَّادة أنَّهم يَكْفونَهم المؤنةَ، ويذهبونَ إلى أضرحتِهم، ويتمسَّحونَ بها، ويَذْبحون عندَها، وينذرونَ لها، ويهتِفونَ بأسمائِهم ويظنّون أنَّ هذا ينفعُهُم عندَ اللهِ تعالى، وفي هذا الحديثِ وغيرِه ردٌّ على هؤلاءِ، لأنهُ إذا كانَ الرَّسولُ ﷺ وهو أشرفُ الخلقِ، وأقربُ الخلقِ إلى اللهِ، وأكرمُهُم على اللهِ يقولَ لعشيرتِهِ وأقاربِهِ: «**لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا**» فكيفَ يتعلَّقُ النَّاسُ على المخلوقينَ؟.

فالواجبُ أَنْ يتعلقَ الناسُ بربِّهم سبحانه وتعالى، وأَنْ يتقرَّبوا إليهِ بالطاعةِ والعبادةِ، ويُخلصوا له التّوحيدَ، هذا هو طريقُ النَّجاةِ، أما التعلقُ على المخلوقينَ، ولو كانوا أنبياءَ أو صالحينَ أو أولياءَ، فإنَّهم لا ينفعونَ من تعلَّقَ بهم، وتوسَّلَ بهم، أو بجاهِهِم أو بحقِّهم، هذا كلُّه باطلٌ، وتعبٌ بلا فائدةٍ، بل هو ضلالةٌ، وقد صرَّحَ اللهُ جلَّ وعلا في القرآنِ بهذا، حينما قالَ لنبيِّه: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا

مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف: ١٨٨]، قالَ تَعالى: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ﴿٢١﴾ قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ﴾ [الجن: ٢١-٢٣]، هذا صريحٌ لا يحتاجُ إلى كثيرِ تأمُّلٍ، لأنه واضحٌ من الكتابِ والسنةِ، ولكنَّ الشَّيْطان سَوَّلَ لهم وأَمْلى لهم، اتبعوا العوائدَ، واتبعوا وقلّدوا أهلَ الضَّلال، ومشَوْا على طريقِهم، وتركوا الكتابَ والسنّةَ والله جلَّ وعلا قريبٌ مجيبٌ، لا يحتاجُ إلى مَنْ يُبلِّغه عن خلقِه، هو سبحانه وتعالى قريبٌ مجيبٌ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦]، «**يَنْزَلُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرِ، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ؟، هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ؟، هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ**»[1]، لم يقُلْ لنا قدِّموا حوائجَكم إلى الأولياءِ والوسائطِ، وهم يقدِّمونَها لي، بل إنه سُبْحانه هو الذي تكفَّلَ بالإجابةِ، وطَلَبَ من عبادِهِ أن يتقرّبوا إليهِ، وأن يدعوهُ، وأن يستغفروهُ، وأن يسألوهُ، لماذا يذهبُ المخلوقُ إلى غيرِ اللهِ سبحانه وتعالى؟، هذا من غرورِ الشيطانِ، نسألُ اللهَ العافيةَ والسَّلامة، الحقُّ واضحٌ -وللهِ الحمدُ-، ما فيهِ خفاءٌ، لو أنَّ النَّاسَ سَلِمُوا من دعاةِ الضَّلالِ، ومن المخرفينَ،ومن الدجالينَ، لو أنَّ النَّاس استعملوا عقولَهم وبصائرَهُم، وأقبلوا على كتابِ اللهِ وسنةِ رسولِ اللهِ ﷺ، لوجدوا الحقَّ واضحاً لا خفاءَ فيه.

فقوله: «**يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا**» عمّم ﷺ في الإنذارِ لجميعِ قريشٍ، وجَميع بطونِها، وجميعِ أفخاذِها وقبائِلِها.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٩٤) ومسلم (٧٥٨).

يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِالمُطَّلِبِ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ الله شَيْئًا.

يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ الله ﷺ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ الله شَيْئًا.

وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ؛ سَلِينِي مِنْ مَالِي ما شِئْتِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ الله شَيْئًا».

ثم خصَّ ﷺ الأقربينَ إليه، فقالَ: «**يا عبّاس ابن عبدالمطلب، لا أُغني عنك من الله شيئاً**» العبّاسُ بنُ عبدِالمطلبِ عمُّ الرسولِ ﷺ، فإذا كانَ لا يُغني عن عمّه شيئاً، فكيفَ يُغني عَنْ غيرِهِ؟، وإذا كانَ أبو لهبٍ عمَّ الرّسولِ ﷺ أيضاً، ولكنَّه أبى أَنْ يدخُلَ في الإسلامِ، واستمرَّ على الشركِ وآذى رسولَ اللهِ ﷺ، أنزلَ اللهُ فيهِ سورةً تُقرأُ إلى يومِ القيامةِ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [المسد: ١]، التَّبْ هو: الخسَّارة، ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥﴾ [المسد: ١-٥]، هذا عمُّ الرَّسولِ ﷺ، لكنَّه كانَ كافراً، فلم تَنفَعْهُ قرابتُهُ من الرسولِ ﷺ، وكذلك أبو طالبٍ مع قُرْبِهِ من الرسولِ ﷺ، وحمايتِهِ للرَّسولِ، ودفاعِهِ عنه، لمَّا أبى أن يُسلمَ، وقالَ: «**هو على ملّة عبدالمطلب**» وأرادَ النبيُّ ﷺ أن يستغفرَ له، أنزلَ اللهُ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۝١١٣﴾ [التوبة: ١١٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾ [القصص: ٥٦][(١)].

ثمَّ قالَ: «**يَا صَفِيَّةَ عَمَّةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا**» مثْلَ عمّه العباسِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٨٤) ومسلم (٢٤).

ثَمَّ خَصَّ أقربَ من هؤلاءِ، وهي بنتُهُ، التي هي بَضْعَةٌ منه، فقال: «**يا فاطمة بنت محمد؛ سليني من مالي**» يعني: اطلبي مني شيئاً أملِكُهُ وهو المالُ، أما النَّجاةُ من النارِ فهذهِ لا أملِكُها: «**لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا**» أمَّا الآخرةُ، والنَّجاةُ من النارِ، والدخولُ في الجنةِ، فهذا إنما يُطلَبُ من اللهِ سبحانه وتعالى، ويُحصلُ عليه بطاعةِ اللهِ وطاعةِ رسولِهِ ﷺ.

انظروا كيفَ أنَّ الرسولَ ﷺ عمَّمَ أوّلاً جميعَ قريشٍ، ثم خصَّ عمَّه وعمَّته، ثم خصَّ بنتَهُ، فهذا بيانٌ واضحٌ بأنه ﷺ لا يملِكُ النَّجاةَ والإنقاذَ من النارِ لمَنْ هُم أقربُ الناسِ إليه: قبيلتُهُ قريش، وعمه وعمَّته إخوان أبيه، بل ولده، عمَّمَ وخصَّصَ ﷺ في هذا. فأينَ مَنْ يقول:

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم[(١)]

فهذا فيه دليلٌ على مسألةٍ مهمةٍ وهي: أنه لا يجوزُ الاعتمادُ على النسبِ والقرابةِ من الأنبياءِ والصالحينَ، لأنه لا يُغني عندَ اللهِ شيئاً: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١﴾ [المؤمنون: ١٠١]، هذا عامٌّ في كلِّ النَّاسِ وقراباتِ الأنبياءِ وغيرِهم، وقالَ ﷺ: «**مَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**»[(٢)]، قال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: ١٣]، فالاعتبارُ بالتَّقوى لا بالنَّسبِ، النَّسبُ إنَّما يُستعملُ في الدُّنيا: ﴿لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾ يَعْرفُ بعضُكم بعضاً، كلٌّ يعرِفُ قرابتَهُ وقبيلتَه، أمَّا في الآخرةِ ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ﴾، لا يبقى إلَّا الأعمالُ فقط ، ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾

(١) انظر «شرح بردة المديح» للبوصيري (ص٢٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

[سبأ: ٣٧]، فاللهُ سبحانه وتعالى لا ينفَعُ إلَّا العملُ الصَّالحُ.

وقال الخليلُ -عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ-: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]، يقولُ بعضُهُم: أنا مِنْ أهلِ البيتِ، ويتّكلُ على هذا، ولا يَحْفَل بالأعمالِ الصالحةِ، يظنُّ أَنَّ كونَهُ مِنْ أهلِ البيتِ يكفي، وهذا غرورٌ من الشيطانِ، هذا الرَّسولُ ﷺ يقولُ لابنتِهِ سيدةِ نساءِ العالمين، يقولُ لها: «**سليني من مالي ما شئت، لا أُغني عنك من الله شيئاً**» وهي بنتُهُ، أليسَتْ في مقدمةِ أهلِ البيت؟، «**لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا**» فكيف يأتي مَنْ يأتي ويقولُ: أنا من أهلِ البيتِ، ويتكلُ على هذا، ويتبركُ النَّاسُ به، ويتحمّسونَ به، ويَلْحَسُون أقدامَهُ، ويظنُّونَ أنَّ هذا يُنْجيهم مِنْ عذابِ اللهِ، هذا باطلٌ وغرورٌ، ولا نجاةَ إلَّا بالأعمالِ الصالحةِ.

هذا أبو لهبٍ، وأبو طالبٍ، وهُمْ أعمامُ الرسولِ ﷺ، لما لم يؤمنوا لم ينفَعْهُم قرابتُهُم من الرسولِ ﷺ.

وهذا بلالٌ، وعمّارُ بنُ ياسرٍ، وصُهَيبٌ، وخبّابٌ موالي، وصاروا من ساداتِ المهاجرين، ومن ساداتِ المؤمنين، ما ضرَّهُم أَنَّهم موالي، وقالَ في سلمانَ الفارسيِّ: «**سَلمانُ منّا أَهْلَ البَيتِ**»[1] رضِيَ اللهُ تعالى عن الجميعِ، والسببُ: الإيمانُ والعملُ الصالحُ، فمجردُ كونِ الرَّجُلِ من أهلِ البيتِ، أو مِنْ قرابةِ الرَّسولِ لا يُغني عنه شيئاً، ولا ينفَعُهُ شيئاً، كما لم يَنْفعْ أبا طالبٍ وأبا لهبٍ وغيرِهم مِنْ عشيرةِ الرَّسولِ ﷺ لمَّا لم يُؤْمنوا، بل إنَّ بعضَ الغُلاة يقولُ: إنَّ التَّسمِّي بمحمَّدٍ يكفي، يقول صاحبُ «**البُرْدة**»[2]:

فإن لي ذمّة منه بتسميتي محمداً وهو أوفى الخلق بالذمم

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ٦٩١) والطبراني في «الكبير» (٦٠٤٠).

(٢) «شرح بردة المديح» للبوصيري (ص٢٣).

لا ينفَعُ عندَ اللهِ إلَّا العملُ الصالحُ، لا الأسماءُ، ولا القبائلُ، ولا شرفُ النسبِ، ولا كونُ الإنسانِ من بيتِ النبوّةِ، كلُّ هذا لا ينفَعُ إلَّا معَ العملِ الصالحِ والاستقامةِ على دينِ اللهِ عز وجل.

نعَمْ، القرابةُ من الرسولِ ﷺ إذا كانَتْ مع العملِ الصالحِ لها فضلٌ لا شكَّ فيه، فأهلُ البيتِ الصالحونَ المستقيمونَ على دينِ اللهِ لهم حقٌّ، ولهم شرفٌ، ولهم كرامةٌ، ويجِبُ الوفاءُ بحقِّهم، طاعةً للرسولِ ﷺ، فإنه أوصى بقرابتِهِ وأهلِ بيتِهِ، لكِنْ يريدُ القرابةَ وأهلَ البيتِ المستقيمينَ على طاعةِ اللهِ عز وجل، أما المخرِّفُ والدجّالُ والمُشعوذُ الذي يعتمدُ على قرابتِهِ من الرسولِ، ولكنه في العملِ مخالفٌ للرسولِ ﷺ، فهذا لا يُغنيهِ شيئاً عندَ الله، لو كانَ هذا ينفَعُ لنفَعَ أبا لهبٍ، ونفَعَ أبا طالبٍ، ونفعَ غيرَهم ممَّنْ لم يدخلوا في دينِ اللهِ، وهُمْ من قرابةِ الرسولِ ﷺ، فالواجبُ أن نتنبّهَ لهذا.

فهذا الحديثُ اشتملَ على مسائلَ عظيمةٍ -كما ذكرتُ-:

المسألة الأولى: المبادرةُ إلى تنفيذِ أمرِ اللهِ، وأنَّ الإنسانَ لا يتوانى في ذلكَ.

المسألة الثانية: أنَّ الداعيةَ يبدأُ بأقربِ النَّاسِ إليه، وبأهلِ بيتِه أوّلاً.

المسألة الثالثة: أنه لا يجوزُ الاعتمادُ على الأشخاصِ والأولياءِ والصالحينَ، واعتقادُ أنهم يقرِّبونَ إلى اللهِ، بل على الإنسانِ أن يعملَ لنفسِه، وأن يتّقيَ اللهَ في نفسِهِ، وأن يتقرّبَ إلى اللهِ مباشرةً، بدونِ واسطةِ أحدٍ، لأنَّ اللهَ قريبٌ مجيبٌ.

المسألة الرابعة: -وهي مهمةٌ جداً-: أنَّ الانتسابَ إلى أهلِ البيتِ، أو القرابةِ من الرَّسولِ ﷺ لا تنفَعُ إلَّا معَ العملِ الصالحِ، أما بدونِ ذلك فإنها لا تنفَعُ عندَ اللهِ.

والواجبُ أن يتنبَّهَ المسلمونَ لهذهِ الأمورِ.

الباب السادس عشر:

بَابٌ قَولُ الله تَعَالَى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة سبأ: ٢٣].

فِي الصَّحِيحِ(١) عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِذَا

مُرادُ الشَّيخ رحمه الله بهذا البابِ: أَنْ يُبَيِّن تفسيرَ هذهِ الآيةِ، كما جاءَتْ بذلك السنةُ عن النبيِّ ﷺ، فإنَّ هذهِ الآيةَ فسَّرتْها السنّةُ بالأحاديثِ التي ذكرَها الشيخُ في هذا البابِ، والغرضُ من ذلكَ إتمامُ ما سبَقَ في الأبوابِ السابقةِ من بيانِ أدلةِ بُطلانِ الشركِ.

ففي الأبوابِ السابقةِ بيّنَ الشيخُ رحمه الله بيانَ بُطلانِ عبادةِ الأنبياءِ والصالحينَ من بني آدمَ، بالأدلةِ التي سبقَتْ من الكتابِ والسنّةِ.

وفي هذا البابِ يبيّنُ بُطلانَ عبادةِ الملائكةِ، لأنَّ الملائكةَ عُبدوا مِنْ دونِ اللهِ، فهذا البابُ مكمِّلٌ للأبوابِ السابقةِ التي قبلَه في بيانِ بُطلانِ عبادةِ كلِّ مَنْ عُبدَ من دونِ اللهِ من الأنبياءِ، والأولياءِ، والصالحينَ، والملائكةِ، لأنَّهم إذا بطُلَتْ عبادةُ هؤلاءِ، فبُطلانُ عبادةِ مَنْ دونَهم مِنْ بابِ أولى، وإذا بطُلَ ذلك في حقِّ الملائكةِ وهم أقوى الخلقِ خِلقةً، ومن أَقْرِبِهم إلى اللهِ سبحانه وتعالى منزلةً فلأن تبطلَ عبادةُ مَنْ سواهُم من الآدميينَ والجنِّ والإنسِ مِنْ بابِ أولى، هذا فقهُ هذهِ الترجمةِ.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٠١).

قَضَى اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ؛ ضَرَبَتِ المَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ

قوله: «**إِذَا قَضَى اللهُ الأَمْرَ**» معناه: إذا تكلَّمَ اللهُ بالوحي، كما في حديثِ النوَّاسِ بنِ سَمْعانَ الذي في آخرِ البابِ بهذا اللفظِ: «**إِذَا تَكَلَّمَ اللهُ بِالوَحْيِ**» وهذا معنى قوله: «**قَضَى اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ**»، ففي ذلكَ إثباتُ الكلامِ للهِ سبحانه وتعالى، وأنه كلامٌ يُسمَع، تسمَعُه الملائكةُ، وإذا سَمِعوهُ صَعِقوا وضَرُّاو -كما يأتي-، خَرُّوا للهِ سُجَّداً، تعظيماً لله عز وجل.

وفي قولِه: «**فِي السَّمَاءِ**» هذا فيهِ إثباتُ علوِّ اللهِ سبحانه وتعالى، فهو كقولِهِ تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [الملك: ١٦-١٧]، والذي في السماءِ هو اللهُ سبحانه وتعالى، أي: العلو، هو العليُّ الأعلى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾[الأنعام: ١٨]، ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، والعرشُ هو أعلى المخلوقاتِ، وسقفُ المخلوقاتِ وأعظمُها.

وقال النبيُّ ﷺ للجاريةِ: «**أَيْنَ اللهُ**» قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ لِسَيِّدِهَا: «**أَعْتِقْهَا، فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ**»(١) والأدلّةُ على ذلكَ كثيرةٌ، وقد صنَّفَ الحافظُ الذهبيُّ رحمه الله كتاباً سمّاه: «**العلو للعليّ الغفّار**» ساقَ فيهِ الأدلةَ على علوِّ اللهِ على عرشِهِ، وهي كثيرةٌ.

قالَ العلماءُ: إنَّ أدلةَ علوِّ اللهِ على عرشِهِ تبلغُ ألفَ دليلٍ أو أكثرَ من الوحي، ومن الفطرةِ، ومن الأدلةِ العقليةِ، وهذا ثابتٌ لا شكَّ فيه، ولا يُنْكرُه إلّا الملاحدةُ من الجهميّةِ وغيرِهم.

وقوله: «**ضَرَبَتِ المَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا**» الملائكة مِنْ أعظمِ المخلوقاتِ، لا

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٧).

سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾

يعلمُ عِظَم خِلْقةِ الملائكةِ إلَّا اللهُ سبحانه وتعالى، وإذا كانوا على هذهِ الحالةِ من العِظَم، ومع هذا لا تصلُحُ عبادتُهم من دونِ اللهِ، فهم مع قوّتِهم وعِظَم خِلْقَتِهم يخافونَ من اللهِ سبحانه وتعالى، إذا سَمِعوا كلامَه ضربوا بأجنِحَتهم. وهذا فيه إثباتُ الأجنحةِ للملائكةِ، وهي ثابتةٌ بالقرآنِ كما في قولِهِ تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ﴾.

«**خضعاناً**» هذا مفعولٌ لأجله، يعني: لماذا ضربوا بأجنحتهم؟، لأجل الخضوعِ لله. وتعظيماً له، وخوفاً منه عز وجل.

فإنْ كانَتْ هذهِ حالتُهم فلا يجوزُ أن يُعبدوا مع اللهِ: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢]، قال تعالى في حقِّهم: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٧] يعني: الملائكة: ﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

«**لقوله**» أي: لقولِ اللهِ سبحانه وتعالى، فيه إثباتُ القولِ لله، وإثباتُ الكلامِ للهِ جلَّ وعلا، وأنه يتكلّمُ كما يليقُ بجلالِهِ سبحانه وتعالى، كلاماً يُسمَع، تسمعُهُ الملائكةُ، ويسمعُهُ جبريلُ، وإذا سمعَهُ الملائكةُ أصابَهم هذا الرُّعبُ والخوفُ من اللهِ.

قوله: «**كأنه**» أي: كأنَّ قولَه تعالى وتكَلُّمه سبحانه بالوحي.

«**سلسلة على صفوان**» تشبيهٌ لصوتِ الوحي الذي يأتي إلى المَلَك، أو صوتِ المَلَك نفسِهِ بصوتِ السلسلةِ إذا جُرَّت على حجرٍ أمْلَس.

«**ينفذهم ذلك**» أي: أنَّ كلامَ اللهِ يبلغُ إلى قلوبِهم فيخافونَ.

فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا: بَعضُهُ فَوْقَ بَعضٍ» وَصَفَهُ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ، فَحَرَّفَهَا وَبدَدَّ بَيْنَ أَصَابِعِهِ.

«﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾» يعني: أُزيل عنها الفزعُ، تساءلوا بينهم: ماذا قالَ ربُّكم؟.

«﴿قَالُواْ ٱلْحَقَّ﴾»: أي قالَ بعضُهم لبعضٍ: قالَ اللهُ الحقَّ، لكنَّ كلامَهُ حقٌّ سبحانه وتعالى.

قال ﷺ: «**فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ**» المسترق هو: الذي يأخذُ الشيءَ بسرعةٍ وخُفية، ومنه سُمِّي السارقُ الذي يأخذُ المالَ على وجهِ الخُفيةِ والسرعةِ حيثُ لا يراهُ أحدٌ، ومُسْتَرِقُ السمعِ، هو الشيطانُ الذي يخطفُ الكلمةَ من الوحي الذي تتكلمُ بهِ الملائكةُ في السماءِ، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحجر: ١٨].

«**ومسترق السمع هكذا بعضهم فوق بعض**» معناه: أنَّ الشياطينَ يَعْلُو بعضُها بعضاً حتى تصلَ إلى عنانِ السماءِ، كلُّ واحدٍ يركبُ على الآخرِ، من أجلِ استراقِ السمعِ.

«**وصفه سفيان**» يعني: راوي الحديث، وهو سفيانُ بنُ عيينةَ، أحدُ كبارِ المحدِّثينَ المشهورينَ الثقاتِ الأثباتِ رحمه الله.

يعني: وصَفَ تراكمَهم ووصفَ ركوبَ بعضِهم فوقَ بعضٍ في الجوِّ.

«**بكفه، فحرّفها**» يعني: أمالها، وفرّق أصابعَها، والأصابعُ يكونُ بعضُها فوقَ بعضٍ، هذا معناه: أنَّ سفيانَ أرادَ أن يوضّحَ لتلاميذِهِ والرواةِ عنه بالمثالِ المحسوسِ المُشاهَدِ عمليةَ الشياطينِ في الهواءِ، فهذا فيهِ من وسائلِ التعليمِ: ضربُ الأمثلةِ للطلّابِ حتّى يفهموا، مثلَ ما فعَلَ النبيُّ ﷺ لما أرادَ أَنْ يفسِّرَ قوله

«فَيَسمَعُ الكَلِمَةَ، فَيُلقِيها إلَى مَن تَحتَهُ، ثُمَّ يُلقِيها الآخَرُ إلَى مَن تَحتَهُ،

تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام:١٥٣]، فالنبيُّ ﷺ أرادَ أَنْ يوضِّحَ هذهِ الآيةَ بمثالٍ محسوسٍ، خطّاً مستقيماً على الأرضِ، وخطَّ عن يمينهِ وشمالِهِ خطوطاً، وقال للمستقيم: «هذا صراطُ الله» وقال للأخرى: «**هَذِهِ سُبُلٌ، عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو النَّاسَ إِلَيْهَا**»[1] هذا توضيحٌ للمعاني بالمحسوساتِ، وهي طريقةٌ شرعيةٌ، وطريقةٌ ناجحةٌ في الإفهامِ، وهذا ما أرادَهُ سفيانُ رحمه الله من وصفِهِ عَمَليَّة الشياطينِ في الهوى بكفِّه وجعْلِ أصابعِهِ بعضَها فوقَ بعضٍ مفرَّجةً من أجلِ أن يوضِّحَ لهم.

وقوله: «**فيسمع الكلمة**» أي: يَسْمَع مُسترِقُ السَّمعِ الكلمةَ مما تكلَّمتْ به الملائكةُ، فيُلقيها إلى مَنْ تحتَهُ من الشياطينِ، والذي تحته يُلقيها إلى الآخرِ، واحداً بعدَ واحدٍ، حتى يُلقيَها الأخيرُ على لسانِ الساحرِ أو الكاهنِ من بني آدمَ.

فهذا فيه دليلٌ على أنَّ السّحرةَ والكهانَ يتلقوْنَ عن الشياطينِ، ففيهِ إبطالٌ لعملِ السّحرةِ والكهانِ، قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٣]، هذا خبرٌ من اللهِ سبحانه وتعالى أنَّ الكهانَ والسحرةَ يتلقّوْنَ عن الشياطينِ، فهذا فيهِ بُطلانُ السحرِ والكهانةِ، وأنَّ مصدرَهما واحدٌ؛ عن الشياطينِ الذين هم أكفرُ الخلقِ، وأَغَشُّ الخلقِ للخلقِ.

والسحرُ معروفٌ، وهو: عمليّةٌ يَعْمَلُها السَّاحرُ إما بالعُقَد والنَّفْث ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾﴾ [الفلق: ٤]، وإمـا بكلامِ الكفرِ والشركِ، فهو

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٣٥) والنسائي في «الكبرى» (١١١٧٤) والدارمي (٢٠٢) وابن حبان (٦).

عزائمُ ورُقى شيطانيةٌ، وإما بموادَّ خبيثةٍ تركَّبُ بعضُها مع بعضٍ ثم يتكوّنُ منها السحرُ، فالسِّحرُ عملٌ شيطانيٌّ، والسحرُ كفرٌ، والسَّاحر كافرٌ، بدليلِ قولِهِ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فدلَّ على أنَّ الذي يتعلمُ السحرَ يكفرُ، لأنَّ السحرَ كفرٌ.

وأما الكِهانةُ فمعناها: الإخبارُ عن المغيباتِ بسببِ ما يتلقاهُ الكاهنُ عن الشيطانِ، لأنَّ الشيطانَ يُخبِرُ الكاهنَ بأمورٍ غائبةٍ عن بني آدمَ، لأنَّ الشيطانَ عندَه قدرةٌ أكبرُ من قدرةِ بني آدمَ، فهو يطيرُ في الهواءِ، ويصلُ إلى السَّحابِ، ويسترقُ السمعَ، ويطيرُ بسرعةٍ من الأمكنةِ البعيدةِ، فعندَهُ مقدرةٌ ليسَتْ عندَ الإنسيِّ، فالإنسيُّ يخضَعُ للشيطانِ، ويتقربُ إلى الشَّيْطانِ بما يحبُّ من الكفرِ باللهِ والشركِ باللهِ حتى يخدمَهُ الشيطانُ بما يريدُ من الأمورِ الغائبةِ عن بني آدمَ، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأنعام: ١٢٨]، هذا فيهِ أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى إذا حشَرَ الشياطينَ يومَ القيامةِ وحشَرَ الكهَّانَ وعملاءَ الشياطينِ يوبِّخُهم: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ﴾، يعني: أهلَكْتُم كثيراً من الإنسِ، ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾، يعني: الكهَّانُ والسَّحرةُ وكلُّ من يتعاملُ معَ الشياطينِ ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ هم خدمونا ونحنُ خدَمْناهم في الدُّنيا ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ﴾ الآنَ وقَفْنا بينَ يديكَ يا ربَّنا، فيقولُ: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ﴾، هذا مآلُ السحرةِ والكهانِ مع أوليائِهم من الشياطينِ.

وقالَ سُبْحانَه: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾

حَتَى يُلقِيها عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَو الكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقيَهَا، وَرُبَّمَا أَلقَاهَا قَبلَ أَن يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالُ: أَلَيسَ

[الجن: ٦]، يقولونَ: نعوذُ بسيِّدِ هذا الوادي من شرِّ سفهاءِ قومِهِ، ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي: خوفاً. أما لو أَنَّهم عاذوا باللهِ لَأعاذَهم وقوّاهُم، وأذهَبَ ما بهم من الفزعِ، ولا يضرُّهم أحدٌ إذا توكلوا على اللهِ وعاذوا باللهِ، لكن عاذوا بمخلوقٍ فأذلَّهُم اللهُ عزوجل.

وقوله: «**حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الكَاهِنِ**» دلّ على أنهما من فصيلةٍ واحدةٍ، وأنهم يتلقونَ عن الشياطينِ.

قالَ سُبْحانه مبيناً سندَ الكهَّانِ والسَّحرةِ والمشعوذينَ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٣].

قوله: «**فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ**» هذا المقصودُ من استراقِ السمعِ؟، من أجلِ أن يخدعوا الإنسَ، ومن أجلِ أن يخلطوا الحقَّ بالباطلِ، ويلبسوا الحقَّ بالباطلِ، لأنهم لو جاءوا بالباطلِ الخالصِ المحضِ ما صدَّقَهُم أَحدٌ، لكِنْ إذا خلطوهُ بشيءٍ من الحقِّ صدَّقَهم الناسُ، فيكون هذا فيهِ فتنةٌ لضعفاءِ الإيمانِ وضعفاءِ العقولِ، يأخذون الباطلَ الكثيرَ بسببِ حقٍّ يسيرٍ خالَطَهُ.

وهذا واقعٌ في النّاسِ الآنَ فكثيرٌ من النّاسِ يتبعُ أئمةَ الضلالِ، ويتبعُ الفِرَقَ الضَّالةَ والجماعاتِ المنحرفةَ بسببِ أنَّ عندَهم شيئاً من الحَسَناتِ أو شيئاً من الحقِّ، ولا ينظرُ إلى كثرةِ الباطلِ الذي هُمْ عليه، وهذا بلاءٌ وفتنةٌ للناسِ، ليس هذا خاصّاً بالكهَّانِ والسَّحَرةِ، بل هذا عامٌّ في كلِّ مَنْ تقبَّلَ الباطلَ بسببِ التباسِهِ بشيءٍ من الحقِّ.

قَد قَالَ لَنَا يَومَ كَذَا وكَذَا: كَذَا وَكَذَا؟، فَيُصرَّف بِتِلكَ الكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ».

قوله: «فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؟. فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ» هذه الفتنةُ العظيمةُ: لبسُ الحقِّ بالباطلِ، لأنَّ الباطلَ لو كانَ مكشوفاً واضحاً خالصاً ما قبلَهُ أحدٌ، وإنما يُقبَلُ الباطلُ إذا لُبِّس معه شيءٌ من الحقِّ، وهذه فتنةٌ عظيمةٌ يجِبُ أن نتنبَّه لها.

فالحاصل: أن هذا حديثٌ عظيمٌ، فيه فوائدُ عظيمةٌ:

الفائدة الأولى: فيه أنَّ السنةَ النبويةَ تفسِّرُ القرآنَ، فهذا الحديثُ فسَّر هذهِ الآيةَ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ﴾، ففيه ردٌّ على الطائفةِ الخبيثةِ التي تريدُ رفضَ السنةِ والاقتصارَ على القرآنِ، وإذا اقتُصِرَ على القرآنِ من أينَ نفسِّر القرآنَ؟

القرآنُ يُفسَّر بأحدِ أربعةِ أمورٍ:

أولاً: يُفسَّر القرآنُ بالقرآنِ.

ثانياً: إذا لم يكُنْ فيه تفسيرٌ من القرآنِ يُفسَّر بسنةِ الرَّسولِ ﷺ.

ثالثاً: إذا لم يكُنْ فيه تفسيرٌ من الرَّسول ﷺ يُفسَّر بأقوالِ الصَّحابةِ، لأنَّهم تلاميذُ الرَّسول ﷺ، وعنه تعلَّموا وتلقَّوا العلمَ فهم أدْرى النّاسِ بسنةِ الرَّسولِ ﷺ.

رابعاً: إذا لم يكُنْ هناكَ تفسيرٌ من الصحابةِ يفسَّر بمُقْتَضى لغةِ العربِ التي نزَلَ بها، ينظر إلى معنى الكلمةِ في لغةِ العربِ ويفسَّر بلغةِ العربِ التي نَزَل بها.

أما أن يفسَّرَ القرآنُ بغير هذهِ الطرقِ فهذا باطلٌ، إما بالقرآنِ، وإما بالسنةِ، وإما

بقولِ الصَّحابيِّ، وإما بلغةِ العربِ التي نَزَل بها، ولا يفسَّر القرآنُ بغيرِ هذهِ الوجوهِ. نعم، اختلفوا في قولِ التابعيِّ: هل يفسَّر بهِ القرآنُ؟، منهم مَنْ يرى ذلك، فيكونُ وجْهاً خامساً، لأنَّ التابعيَّ له خاصيَّةٌ، لأنه تَتَلْمَذ على صحابةِ الرسولِ ﷺ، فلهُ ميزةٌ على غيرِهِ ممَّنْ تتلمذَ على غيرِ الصحابةِ.

أما تفسيرُ القرآنِ بغيرِ هذهِ الوجوهِ فلا يجوزُ، لأنه قولٌ على اللهِ بلا علمٍ، فالذينَ يفسرونَ القرآنَ بالنظريّاتِ الحديثةِ -أو ما يسمونَهُ بالعلمِ الحديثِ- فهذا خطأٌ، وهذا قولٌ على اللهِ بلا علمٍ، فالنظريّاتُ هذهِ عملُ بشرٍ، تَصْدقُ وتَكْذبُ، وكثيرٌ منها يكذبُ، ويأتي نظرية أخرى تُبْطلُ هذهِ النظريةَ السابقةَ، مثلَ: ما عندَ الأطباءِ، ومثلَ: ما عندَ الفلاسفةِ، لأنه عملُ بشرٍ، فالنظريّاتُ الحديثةُ لا يُفسَّر بها كلامُ ربِّ العالمين، ولا يُقالُ: هذا من الإعجازِ العلميِّ -كما يسمونَهُ-، هذا ليس بإعجازٍ علميٍّ أبداً، كلامُ اللهِ يُصانُ عن نظريّاتِ البشرِ، وعن أقوالِ البشرِ، لأنَّ هذهِ النظريّاتِ تَضْطربُ ويكذِّبُ بعضُها بعضاً، فهل يُفسَّر كلامُ ربِّنا بنظريّاتٍ مضطّربةٍ؟، هذا باطلٌ ولا يجوزُ، ويجبُ رفضُ هذا التفسيرِ، والاقتصارُ على الوجوهِ الأربعةِ -أو الخمسةِ- التي نصَّ عليها أهلُ العلمِ، كما ذكرَها ابنُ كثيرٍ رحمه الله، في أوَّلِ التفسير.

الفائدة الثانية: إثباتُ صفاتِ اللهِ سبحانه وتعالى، فقد أُثبتَ في هذا الحديثِ علوُّ اللهِ على خلقه، وأنه في السماء سبحانه وتعالى، وأُثبِتَ أنَّ اللهَ يتكلمُ بكلامٍ يُسمَع، تسمَعُهُ الملائكةُ وترتَعِدُ عندَ سماعِهِ.

الفائدة الثالثة: وهي التي عقَدَ المصنفُ رحمه الله هذا البابَ مِنْ أجلِها: بطلانُ التعلُّقِ على الملائكةِ، عكسَ ما كانَ عليهِ أهلُ الجاهليةِ من عبادةِ الملائكةِ، واعتقادِ أنهم بناتُ اللهِ، تعالى اللهُ عما يقولونَ علوّاً كبيراً.

ففي هذا بطلانُ الشركِ، لأنه إذا بَطُلَتْ عبادةُ الملائكةِ وهم مَنْ هم في القوَّةِ والمكانةِ عندَ اللهِ والقربِ من اللهِ، إذا بطُلَتْ عبادتُهُم والتعلُّقُ عليهم وطلبُ الحوائجِ منهم فَلَأَنْ يبطُلَ ذلك في حقِّ غيرِهم من بابِ أَوْلى، فالذينَ يتعلقونَ على القبورِ وعلى الأضرحةِ وعلى الأشجارِ والأحجارِ، ويتبركونَ بها، كلُّ هذا باطلٌ، لأنَّ هذه مخلوقاتٌ ليسَ لها من الأمرِ شيءٌ، مُسخَّرةٌ ليس لها من الأمرِ شيءٌ، إنَّما التعلقُ يكونُ باللهِ عز وجل، والتوكُّلُ على اللهِ، لأنَّ الملائكةَ مفتقرونَ إلى اللهِ، وكلُّ المخلوقاتِ مفتقرةٌ إلى اللهِ سبحانه وتعالى، وهو الغني الحميدُ، هو غنيٌّ عن غيرِهِ، وأما غيرُهُ فهم فقراءُ إليه سبحانه وتعالى.

الفائدة الرابعة: في الحديثِ إثباتُ استراقِ السمعِ، وأنَّ الشياطينَ قد يسترقونَ السَّمعَ، وهذا كانَ في الجاهليةِ كثيراً، فلما بُعِثَ النبيُّ ﷺ حُرسَتِ السَّماءُ بالشُّهب، وقلَّ استراقُ السمعِ، قالَ بعضُهم لبعضٍ: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ [الجن: ٩] يعني: هذا في الجاهليةِ، ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ﴾ يعني: بعدَ بعثةِ النبي ﷺ ﴿يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾.

الفائدة الخامسة: فيه بطلانُ السحرِ والكَهانةِ، وأنَّ مصدَرهما واحدٌ، وهو التلقي عن الشياطينِ، فلا يُقبلُ السحرُ، ولا خَبرُ السَّاحرِ، ولا تُقبلُ الكِهانةُ ولا خبرُ الكاهنِ لأنَّ مصدَرَها باطلٌ، وقد جاءَ في الحديث: «**مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْماً**»[1] وفي الحديثِ الآخرِ: «**مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ**»[2] فهذا فيه بطلانُ السِّحرِ

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٩٠٤) والترمذي (١٣٥) وابن ماجه (٦٣٩) وأحمد (٢/ ٤٢٩).

والكِهانةِ، وأنه لا يجوزُ تصديقُ السحرةِ، ولا تصديقُ الكُهّانِ، ولا الذهابُ إليهم، لكِنْ في وقتِنا الحاضرِ السحرةُ والكهانُ خرجوا على النّاسِ باسمِ أطبّاءَ ومعالجينَ، وفتحوا محلاتٍ، يعالجون فيها المَرْضى بالسِّحْر والكهانةِ، لكن لا يقولون: هذا سحرٌ، ولا يقولون: هذا كهانةٌ، بل يُظهرونَ أنهم يعالجونَ النّاس بأمورٍ مباحةٍ، ويذكرونَ اللهَ عندَ الناسِ، وقد يقرؤون شيئاً من القرآنِ من أجلِ التلبيسِ، ولكن في الخفاءِ يقولُ للمريضِ اذبَحْ شاةً على صفةِ كذا وكذا، ولا تأكُلْ منها، خُذْ من دَمِها واعمَلْ كذا وكذا، أو اذبَحْ ديكاً أو دجاجةً، يصفُهُ بأوصافٍ، ويقولُ له: ولا تذكُرْ اسمَ اللهِ عليه، أو يسألُهُ عن اسمِ أمهِ واسمِ أبيهِ، أو يأخذُ ثوبَه وطاقيَّتَه من أجلِ أن يسألَ عملاءَه من الشياطينِ لأنَّ الشياطينَ يخبرُ بعضُهُم بعضاً. ثمَّ يقولُ الساحرُ أو الكاهنُ-: فلانٌ هو الذي سَحَرَك، وهو كلُّه تدجيلٌ، والواجبُ على المسلمينَ أن يتنبَّهوا لهذا، وأَنْ يَحْذروا هؤلاءِ المشعوذينَ والدَّجالينَ الذينَ يُفْسِدون عقائدَ النَّاسِ، ويأكلونَ أموالَهم بالباطلِ.

الفائدة السادسة: ذكرَها الشَّيخُ رحمه الله في قوله: «**قبول النفوسِ للباطلِ، كيف يتعلقونَ بواحدةٍ ولا يعتبرونَ بمائةٍ؟!**» بحيثُ تُقبَل مائةُ كذبةٍ بسببِ كلمةٍ واحدةٍ من الحقِّ، فالنُّفوسُ تَقْبَلُ الباطلَ، حيثُ إنها تقبلُ مائةَ كذبةٍ بسببِ كلمةٍ واحدةٍ من الحقِّ، وهذا فيه: التحذيرُ مِنْ لبسِ الحقِّ بالباطلِ، وأن لا نغترَّ بمَنْ يلبِّسُ علينا، يأتي لنا بأشياءَ من الحقِّ، ويُدْخِلُ تحتَها كثيراً من الباطلِ والخداعِ، والواجبُ على المؤمنِ أن يكونَ كَيِّساً فطناً كما قالَ النبيُّ ﷺ: «**المؤمن كَيِّسٌ فطن**»[1] ويقولُ ﷺ: «**لَا يُلْدَغُ المُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ**»[2]، فالمؤمنُ لا يتسرَّعُ

(١) أخرجه الشهاب القضاعي في «مسنده» برقم (١٢٨).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٣٣) ومسلم (٢٩٩٨).

وَعَنِ النَّوَّاسِ بنِ سَمعَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ تَعَالَى أَن يُوحِيَ بالأَمرِ، تَكَلَّمَ بِالوَحيِ، أَخَذَتِ السَّمَاواتِ مِنهُ رَجفَةٌ (أَو

بقبولِ الأقوالِ أو المذاهبِ أو يعرفُ، وإنْ كان لا يعرفُ يسأَلُ عنها أهلَ العلمِ وأهلَ البصيرةِ، حتَّى يُميّزوا له الصحيحَ من السقيمِ، هذا واجبٌ علينا جميعاً أننا لا ننخدعُ بالدِّعاياتِ المُزَوَّقَة والمُسْتورةِ والمُغلّفةِ بشيءٍ من المحسّناتِ حتى نَسْبُرَ غَوْرَها، ونَخْبُرَ ما بداخلِها إنْ كنا نستطيعُ ذلكَ فالحمدُ للهِ، وإلَّا فإننا نسألُ أهلَ العلمِ وأهلَ البصيرةِ الذينَ يميّزون بينَ الحقِّ والباطلِ.

* * *

قوله ﷺ: **«إذا أراد الله أن يوحي بالأمر»** فهذا فيهِ: إثباتُ الإرادةِ للهِ سبحانه وتعالى، وهي صفةٌ من صفاتِهِ، دلَّتْ عليها الآياتُ القرآنيةُ، والأحاديثُ النَّبويةُ، فاللهُ جلَّ وعلا له إرادةٌ، وإرادتُهُ على نوعينِ:

إرادةٌ كونيةٌ، بها يخلقُ ويرزقُ، ويهدي ويضلُّ، ويحيي ويميتُ.

وإرادةٌ شرعيةٌ دينيةٌ بها يأمرُ عبادَهُ بما يصلحُهُم وينهاهم عما يضُرُّهم، مثلَ قولِهِ تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٢٦ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٦-٢٧]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾، هذهِ إرادةٌ دينيةٌ، كما فصَّلَ ذلكَ أهلُ العلمِ.

«أن يوحي» الوحي هو: الإعلامُ بسرعةٍ وخفاءٍ، وهو على نوعينِ: وحي إلهامٍ. ووحي إرسالٍ.

وحي الإلهامِ: يكونُ بإلهامِ اللهِ بعضَ المخلوقاتِ ببعضِ الأمورِ مثلَ قولِهِ تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨]، أي: ألهمَها، ومثلَ قولِهِ تعالى:

قَالَ: رَعدَةٌ شَدِيدَةٌ: خَوفاً مِنَ الله عَزَّ وَجَلَّ، فَإِذَا سَمِعَ ذَلكَ أَهلُ السَّمَاوَاتِ صَعِقُوا وَخَرُّوا لله سُجَّداً.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القصص: ٧]، أَلْهَمَ اللهُ أمَّ موسى أَنْ تعملَ هذا العملَ بولدِها لمَّا ولدَتْهُ، وكانَ فرعونُ يقتِّلُ الذكورَ، فاللهُ أَلْهَمَها أَنْ تَعْمَلَ هذا العملَ من أجلِ نجاةِ موسى مِنْ هذا الجبَّارِ.

وأما وحي الإرسالِ فهو الذي ينزلُ بهِ جبريلُ عليه السلام إلى الرُّسُل.

«**بالأمر**» أي: بالشأنِ من شؤونِ الكونِ والمخلوقاتِ، أو بالأمرِ من الوحي المُنَزَّلِ على الرسلِ، فهو عامٌّ.

فالأمرُ على نوعينِ: كوني وشرعي.

«**تكلم بالوحي**» تكلماً يليقُ بجلاله، وهذا فيه: إثباتُ الكلامِ لله سبحانه وتعالى.

«**أخذت السماوات منه رجفة (أو قال: رعدة شديدة)**» هذا شكٌّ من الرَّاوي، أي: إذا سمِعَتْ كلامَ اللهِ يصيبُها خوفٌ وهيبةٌ لكلامِ اللهِ، وهذا فيهِ: أنَّ الجماداتِ تدركُ عظمةَ ربِّها، وتُسبِّحُهُ، وتُعظِّمُهُ كما قالَ سبحانه وتعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ﴾ [الشورى: ٥]، وكما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت: ١١]، في هذا: أنَّ السَّماواتِ والأرضَ تتكلَّمُ، وأنها تُسبِّحُ كما قالَ تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ٧٤].

«**فإذا سمع ذلك أهل السماوات**» يعني: سَمِعَ الملائكةُ كلامَ اللهِ أيضاً.

«صعِقُوا» بمعنى: أنهم يُغْشى عليهم من الخوفِ من اللهِ عز وجل والهيبةِ والجلالِ. «وخروا لله» يعني: ينحطّون للهِ ﴿سُجَّدًا﴾ على وجوهِهم تعظيماً للهِ وتعبّداً لله.

قد يكونُ السجودُ قبلَ الصَّعْقِ، وقد يكونُ بعدَ الصَّعْقِ، لأنَّ الواوَ لا تَقْتَضي التّرتيبَ.

وفي هذا دليلٌ على أنَّ الملائكةَ عبادٌ للهِ، يخافونَهُ ويهابونَهُ.

وفي هذا ردٌّ على المشركينَ الذين يعبدونَ الملائكةَ، ويزعمونَ أنَّ الملائكةَ تُقرِّبُهم إلى اللهِ، كما يُقرِّبُ خاصَّةَ الملوكِ إلى الملوكِ من يريدُ قضاءَ حاجتِهِ منهم، قاسوا الخالقَ على المخلوقينَ، تعالى اللهُ عما يقولونَ، فهذا فيهِ ردٌّ عليهم، وهو أن الملائكةَ عبادٌ، كما قالَ تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ٢٦﴾ [الأنبياء: ٢٦]، عبادٌ من عبادِ اللهِ، يخافون من اللهِ، ويسجدونَ له، والعبدُ لا يجوزُ أَنْ يُعبَدَ، ولا أَنْ يُدْعى، ويُستغاثَ به، وإنما يُعبدُ اللهُ سبحانه وتعالى، وهذا هو الذي ساقَ المصنّفُ رحمه الله هذا الحديثَ من أجلِهِ، وهو: الردُّ على المشركينَ الذين يتعلقونَ على المخلوقينَ في قضاءِ الحاجاتِ التي لا يقدرُ عليها إلّا اللهُ، وتفريجِ الكرباتِ، وهو أنه إذا كانت الملائكةُ مع عظمتِهِم وقوَّتِهِم ومكانَتِهِم -بما فيهم جبريلُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ-، كانوا بهذهِ المثابةِ إذا سَمِعوا كلامَ اللهِ، دلَّ على أنَّهم ليسَ لهم من الأمرِ شيءٌ، وأنه لا يجوزُ أن يُدعَوْا، ويُستغاثُ بهم، وإذا كانَ هذا في حقِّ الملائكةِ ففي حقِّ غيرِهِم من بابِ أَوْلى، فلا يجوزُ دعاءُ الصالحينَ، أو الاستغاثةُ بهم، أو التقرُّبُ إليهم بالعبادةِ، أو الذبحُ، أو النَّذْرُ، أو غيرَ ذلكَ، كلُّ هذا باطلٌ، وشركٌ أكبرُ.

وفيه دليلٌ على أنَّ السماواتِ متعددةٌ وأنها سبعٌ طِباقٌ، كما قالَ تعالى: ﴿أَلَمْ

فَيَكُونُ أَوَّلَ مَن يَرفَعُ رَأسَهُ جِبرِيلُ، فَيُكَلِّمُهُ اللهُ مِن وَحيِهِ بِمَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ

تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾ [نوح: ١٥]، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣]، ولكلِّ سماءٍ سكَّانٌ من الملائكةِ.

«فيكون أول من يرفع رأسه» يعني: من السجود.

«جبريل» وهو أعظمُ الملائكةِ، وهو موكَّلٌ بالوحي، كما أنَّ ميكائيلَ موكَّلٌ بالقطرِ والنَّباتِ، وإسرافيلُ موكَّلٌ بالنفخِ في الصُّورِ، وكلُّ نوعٍ من الملائكةِ له عملٌ، منهم ملائكةُ الموتِ، ورئيسُهُم مَلَكُ الموتِ: [الأنعام: ٦١]، ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١].

وهناك ملائكةٌ موكّلونَ بالأَجِنَّةِ في الأرحامِ، كما جاءَ في الحديثِ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسِلُ إِلَيْهِ المَلَكَ»(١) في الطَّوْرِ الرابعِ «وَيُؤْمَرُ بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ» فهؤلاءِ موكّلونَ بالأَجنَّةِ في الأرحامِ.

وهناك ملائكةٌ موكّلونَ بحفظِ أعمالِ بني آدمَ، بكتابةِ الحسناتِ والسيّئاتِ يلازمونَ بني آدم، إلّا في الأحوالِ الخاصَّةِ، دائماً معهم في الليلِ والنَّهارِ يكتبونَ ما يصدُرُ عنهم من أقوالٍ وأفعالٍ طيّبةٍ أو رديئةٍ، وهؤلاءِ يُسمَّوْنَ بالحَفَظَة.

وهناك ملائكةٌ موكّلونَ بحفظِ الإنسانِ نفسِهِ، يحفظونَ الإنسانَ من المخاطرِ، ومن المؤذياتِ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

وهناك أنواعٌ من الملائكةِ لا يعلمُهُم إلّا اللهُ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٣٦) ومسلم (٢٦٤٣).

جِبريلُ عَلَى المَلَائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبرِيلُ؟ فَيَقُولُ: قَالَ الحقَّ، وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ. فَيقُولُونَ كُلُّهُم مِثلَ مَا قَالَ جِبرِيلُ.

«**ثم يمر جبريل على الملائكة**» هذا فيه: فضلُ جبريلَ عليه السلام، وأنَّ اللهَ اختصَّهُ بائتمانِهِ على الوحي، وأنَّ أهلَ السماواتِ يسألونَه وهذا دليلٌ على فضلِهِ كما قالَ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾﴾ [التكوير: ١٩-٢٠]، يعني: ذا مكانةٍ عند الله سبحانه وتعالى، ﴿مُّطَاعٖ ثَمَّ﴾ أي: في الملأِ الأَعلى، تطيعُهُ الملائكةُ ﴿أَمِينٖ﴾ آمينٌ على الوحيِ، لا يزيدُ فيه ولا يُنْقصُ -عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ-.

«**كلما مر بسماء**» هذا كما سبَقَ فيه دليلٌ على تعدُّدِ السَّماواتِ.

«**سأله ملائكتها**» هذا فيه دليلٌ على أنَّ لكلِّ سماءٍ ملائكةً خاصِّينَ بها.

«**ماذا قال ربنا يا جبريل؟، فيقول: قال: الحق وهو العلي الكبير. فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل**» تعظيماً لله سبحانه وتعالى.

وهذا فيه دليلٌ على أنَّ كلامَ اللهِ حقٌّ لا ريبَ فيه، وأنَّ الملائكةَ لا تعلمُ الغيبَ ولذلكَ تَسْأَلُ جبريلَ.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ﴾ هذا فيه إثباتُ العلوِ للهِ عز وجل، والعلو ثلاثةُ أقسامٍ: علو الذاتِ. وعلو القَدْرِ. وعلو القَهْرِ. وكلُّها ثابتةٌ للهِ سبحانه وتعالى.

فهو عليٌّ بذاتِهِ فوقَ مخلوقاتِه، وهو عليُّ القَدْرِ سبحانه وتعالى، وهو عليُّ القهرِ، ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٨] بجميعِ أنواعِ العلو.

وأهلُ السّنّةِ والجماعةِ يثبتون العلوَّ بأنواعِهِ الثلاثةِ.

أما المبتدعةُ فلا يُثبتونَ إلَّا علوَّ القَدْرِ والقَهْرِ فَقَطْ، وأما علوُّ الذاتِ فينفونَه، ولا يُثْبِتونَ العلوَّ لله عز وجل، تعالى اللهُ عما يقولونَ علوًّا كبيراً.

﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ الذي لا أكبرَ منه سبحانه وتعالى، كلُّ المخلوقاتِ صغيرةٌ بالنّسبةِ إلى الله سبحانه وتعالى، ليسَتْ بشيءٍ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]، هذا من عظمتِهِ سبحانه وتعالى.

فدلّ هذا الحديث على مسائلَ عظيمةٍ:

المسألة الأولى: إثباتُ الكلامِ لله سبحانه وتعالى، وهذا بإجماعِ أهلِ السّنّةِ والجماعةِ، لم يخالِفْ فيه إلَّا المبتدعةُ.

المسألة الثانية: إثباتُ الإدراكِ للسّماواتِ والخوفِ من اللهِ، وأنها تُدرِكُ عظمةَ اللهِ، وتخافُهُ، وهي جماداتٌ، كما دلَّتْ على ذلكَ الأدلةُ الأُخْرى فإذا كانتِ السماواتُ تخافُهُ، فكيفَ لا يخافُهُ ابنُ آدمَ هذا الضعيفُ المسكينُ؟، كيف لا يخافُ من اللهِ سبحانه وتعالى؟.

المسألة الثالثة: وهي المسألةُ التي ساقَ المُصنِّفُ هذا الحديثَ من أجلِها، فيه: أنَّ الملائكةَ يخافونَ من اللهِ، ويسجدونَ له، فدلَّ على أنَّهم عبادٌ محتاجونَ وسائطَ، وشفعاءَ عندَ اللهِ عز وجل، الملائكةُ يَشْفعونَ، لكِنْ لا يشفعونَ إلَّا بإذنِ اللهِ سبحانه وتعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٢٦]، فلا تحصُلُ الشَّفاعةُ عندَ اللهِ إلَّا بشرطينِ: الإذْنِ بالشَّفاعةِ، ورضاهُ عن المشفوعِ فيه، بأَنْ يكونَ المشفوعُ فيه من أهلِ الإيمانِ، أما الكافرُ فقالَ اللهُ تعالى فيه: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٨]، ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غافر: ١٨]، وليسَ

اللهُ مثلَ ملوكِ الدُّنيا يشفَعُ الشُّفَعاءُ عندَهم ولو لم يَأذنوا، ويضطرُّ الملوكُ إلى قَبولِ الشَّفاعةِ من أجلِ تأليفِ الكلمةِ، ومن أجلِ حاجتِهم للوزراءِ، أمَّا اللهُ جلَّ وعلا فإنه غنيٌّ عن عبادِهِ، ولا أحدَ يتقدّمُ بالشَّفاعةِ عندَه إلَّا بإذنِهِ، ومحمَّدٌ ﷺ أفضلُ الخلقِ، في يومِ القيامةِ في المَحْشرِ إذا تقدَّمَتِ الخلائقُ إلى محمَّدٍ تطلُبُ منه الشَّفاعةَ لفصلِ القضاءِ، لا يَشْفَعُ إلَّا بعدَ أَنْ يسجُدَ للهِ عز وجل، ويحمدَ اللهَ بمحامِدَ عظيمةٍ، ويدعوهُ بدعاءٍ، ثمّ يُقالُ له: يا محمَّدُ، ارفَعْ رأسَكَ، وسَلْ تُعْطَ، واشفَعْ تشفَّعْ، فالشفاعةُ ملكٌ لله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ﴾ [الزمر: ٤٤]، وتُطلَبُ الشفاعةُ من اللهِ، تقولُ: اللهمَّ شفِّعْ فيَّ نبيَّك محمداً ﷺ، اللهم شفِّع فيَّ عبادَك الصالحينَ، تطلُبُها مِنَ اللهِ، أمَّا أن تقولَ بعدَ موتِ الرسولِ: يا محمَّدُ اشفَعْ لي، أو يا فلانُ اشفَعْ لي، تطلُبُها من الميِّتِ فهذا لا يجوزُ.

فطلبُ الشفاعةِ من القبورِ شركٌ أكبرُ، أما الحي فتُطلَبُ منهُ الشَّفاعةُ بأن يطلبَ منه أن يدعوَ اللهَ عز وجل لِمَنِ احتاجَ إلى ذلكَ، أما الميِّتُ فلا يقدرُ على دعاءٍ، ولا يُطْلَبُ منه شيءٌ.

هذا هو المقصودُ من إيرادِ هذا الحديثِ، وهو بيانُ حالةِ الملائكةِ معَ اللهِ سبحانه وتعالى، وأنهم يخافونَهُ، ويُصْعَقُون من هيبتِهِ سبحانه وتعالى، ومن سماعِ كلامِهِ، ويخرُّون للهِ سجّداً، فدلَّ على أنَّهم عبادٌ فقراءُ إلى اللهِ، ليسَ بيدِهم شيءٌ إلَّا ما أعطاهُمُ اللهُ سبحانه وتعالى، فلا تجوزُ دعوَتُهم مِنْ دونِ اللهِ عز وجل، وإذا كان هذا في حقِّ الملائكةِ ففي حقِّ غيرِهم من بابِ أَوْلى وأَحْرى.

المسألة الرابعة: فيه دليلٌ على تعظيمِ كلامِ اللهِ، وتعظيمِ القرآنِ الكريمِ، لأنهُ كلامُ اللهِ، ووحيٌ من اللهِ، فيجِبُ تعظيمُهُ، والخشوعُ عندَ سماعِهِ، والخوفُ مما فيه من الوعيدِ، والتهديدِ، والرجاءِ بما فيهِ من الوعدِ الكريمِ، فكلامُ اللهِ عز وجل

يُكرَّم، ويُهاب، ويُعظَّمُ، ليسَ مثلَ كلامِ المخلوقينَ، وكذلك حديثُ الرسولِ ﷺ يُجلُّ ويُعظَّم، لأنه وحيٌ من اللهِ عز وجل: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤**﴾ [النجم: ٣-٤]، فهو وحيٌ من اللهِ، وكلام رسوله ﷺ.

المسألة الخامسة: فهي فضلُ جبريلَ -عليه الصلاةُ والسَّلامُ-، وأنّه موكّلٌ بالوحي، وأنَّ الملائكةَ كلَّهم يسألونَه: ماذا قالَ ربُّنا؟، هذا دليلٌ على فضلِهِ ومكانتِهِ عندَ اللهِ عز وجل.

المسألة السادسة: فيه دليلٌ على ما ذَكَرْنا أنَّ السماواتِ طِباقٌ متعدِّدةٌ إلى سبعِ سماواتٍ، وفي كلِّ سماءٍ سكّانٌ من الملائكةِ، يعمرونَها بعبادةِ اللهِ عز وجل من التَّسبيحِ والتهليلِ، وتعظيمِ اللهِ عز وجل.

المسألة السابعة: في الحديثِ دليلٌ -أيضاً- على أنَّ الملائكةَ كلٌّ له عملٌ موكَّلٌ به، إذا كانَ جبريلُ موكلاً بالوحي، فكذلكَ ميكائيلُ موكَّلٌ بالقطرِ والنباتِ كما جاء في الحديثِ، وكذلكَ إسرافيلُ موكَّلٌ بالنفخِ في الصُّورِ، وكذلك بقيةُ الملائكةِ، ولهذا كانَ النبيُّ ﷺ يقولُ في استفتاحِهِ إذا قامَ يتهجَّدُ من الليلِ: «**اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ**»[1] لماذا خَصَّ هؤلاءِ، مع أنَّ اللهَ ربٌّ لكلِّ شيءٍ؟، لمكانةِ هؤلاءِ، لأنَّ جبرائيلَ موكّلٌ بالوحي الذي بهِ حياةُ القلوبِ، وميكائيلُ موكّلٌ بالقطرِ والنَّباتِ الذي فيه حياةُ الأرضِ بعدَ موتها، وإسرافيلُ موكَّلٌ بالنَّفْخِ في الصُّورِ الذي فيه حياةُ الأجسامِ بعدَ موتها، فكلُّهُم موكلونَ بالحياةِ، هذا بحياةِ القلوبِ بالوحي، وهذا بحياةِ الأرضِ بالماءِ والقطرِ، وهذا بحياةِ الأجسادِ يومَ القيامةِ ونفخِ الأرواحِ فيها.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٢٠) والنسائي (١٦٢٥).

المسألة الثامنة: أنَّ الملائكةَ لا يعلمونَ الغيبَ، ويسألونَ غيرَهم عمَّا خَفِيَ عليهم.

* * *

الباب السابع عشر:

باب الشَّفاعة

قالَ الشيخُ الإمامُ رحمه الله: «**باب الشفاعة**» الشَّفاعة معناها: التَّوسُطُ في قضاءِ حاجةِ المحتاجِ لدى مَنْ هي عندَهُ. سُمِّيتْ بذلكَ لأنَّ طالبَ الحاجةِ كان منفرداً في الأولِ، ثمّ لما انضمَّ إليه الشافعُ صارَ شفعاً، لأنَّ الشفعَ ضدُّ الوترِ. فلما كانَ طالبُ الحاجة منفرداً، ثمّ انضمَّ إليه الواسطةُ شفعةُ في الطلبِ، ولذلك سُمِّي شافعاً، وسُمِّي هذا العملُ شفاعةً، قالَ اللهُ سبحانه وتعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ﴾ [النساء: ٨٥]، فالذي يشفَعُ عندَ السلاطينِ، أو عندَ الأغنياءِ، أو عندَ غيرِهم لقضاءِ حاجةِ المحتاجينَ يعتبرُ عملُهُ شفاعةً طيّبةً يُؤجَرُ عليها، قال ﷺ: «**اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا وَيَقْضِي اللهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا شَاءَ**»(١).

أَمَّا إذا كانَتِ الشَّفاعةُ في أمرٍ محرَّمٍ، فهذهِ شفاعةٌ سيئةٌ، كالذي يَشْفَعُ عندَ السلطانِ في تعطيلِ الحدودِ، إذا وجَبَ الحدُّ على شخصٍ شفَعَ عندَه ليُسْقِطَ الحدَّ عنهُ، هذهِ شفاعةٌ سيئةٌ، ولهذا لما تقرَّرَ الحدُّ على امرأةٍ من بني مخزومٍ في عهدِ النبيِّ ﷺ، كانَتْ تستعيرُ المتاعَ وتجحَدُهُ، شقَّ على أهلِها وذويها قطعُ يدِها، تراجعوا بمَنْ يشفَعُ عندَ رسولِ اللهِ ﷺ، فتقرَّرَ رأيُهم أَنْ يطلُبوا مِنْ أسامةَ بنِ زيدٍ رضي الله عنه، حِبِّ رسولِ اللهِ ﷺ وابن حِبِّه، ليشفعَ عندَ رسولِ اللهِ ﷺ في تركِ قطعِ يدِ هذهِ المرأةِ، فكلَّمَ أسامةُ رسولَ اللهِ ﷺ في ذلكَ، فغضِبَ النبيُّ ﷺ غضباً شديداً، وتغيَّظَ على أسامةَ رضي الله عنه، وقالَ له: «**أتشفع في حد من**

(١) أخرجه البخاري (١٤٣٢) ومسلم (٢٦٢٧).

حدود الله؟، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمَّد سرقت لقطعت يدها»[(١)] وقالَ: «**إذا بلغت الحدود السلطان فلعن الله الشافع والمشفّع**»[(٢)].

والحاصلُ؛ أنَّ هذا تعريفُ الشَّفاعةِ، وانقسامُها إلى شفاعةٍ حسنةٍ وشفاعةٍ سيئةٍ، هذا فيما بينَ النّاسِ، والمرادُ هنا: الشَّفاعةُ عندَ اللهِ تعالى.

ومرادُ المُصنِّفِ رحمهُ الله مِنْ هذا البابِ: أنه لما كانَ المشركونَ قديماً وحديثاً يعبدونَ من دونِ اللهِ الأصنامَ والأشجارَ والأحجارَ والقبورَ والأضرحةَ والأولياءَ والصالحينَ والملائكةَ والأنبياءَ، فإذا أنكَرَ عليهم ذلكَ قالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨]، نحنُ نعلمُ أنهم مخلوقونَ، وأنَّ الأمرَ بيدِ اللهِ، ولكنَّ هؤلاءِ لهم مكانةٌ عندَ اللهِ، ونريدُ منهم أَنْ يشفعوا لنا عندَ اللهِ. فيذبحونَ للأولياءِ والصالحينَ والأشجارَ والأحجارَ، ويستغيثونَ بهم، ويصرفونَ لهم أنواعَ العبادةِ، فإذا أنكرَ عليهم قالوا: غرضُنا من ذلكَ هو الشفاعةُ فقط. فبيَّنَ اللهُ أنَّ ذلكَ هو الشركُ، وأنَّ تلكَ هي عبادةُ غيرِ اللهِ، فقال تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨] يقولونَ: نحنُ نعلَمُ أنهم مخلوقونَ، وأنَّهم ليسَ لهم من الأمرِ شيءٌ، ولكنَّا فعَلْنا ذلكَ من أجلِ أن يشفعوا لنا عندَ اللهِ لأنَّ لهُمْ مكانةً عندَ الله، كما قالَ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ [الزمر: ٣] يعني: يَعْبُدونهم، ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ﴾ اعترفوا أنهم يعبدونهم ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ۝٣﴾، سَمَّى فعلَهم هذا كذباً، وسَمّاه كفراً، ولم تنفعْهُم اعتذاراتُهم، وذلكَ لأنَّهم قاسوا الخالقَ سبحانه

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٥) ومسلم (١٦٨٨).

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ» (١٥٨٠) عن الزبير بن العوام.

وتعالى على ملوكِ الدُّنيا، فكما أنَّهم من عادتِهم عندَ ملوكِ الدُّنيا أنَّهم يوسِّطون الشُّفعاءَ بينَهم وبينَ الملوكِ في قضاءِ حوائِجِهم، قاسوا اللهَ جلَّ وعلا بخلقِهِ، اتخذوا عندَ اللهِ الشُّفَعاءَ كما يتخذونَهم عندَ الملوكِ والرؤساءِ، وهذا باطلٌ، لأنه تسويةٌ بينَ الخالقِ والمخلوقِ، فإنَّ ملوكَ الدُّنيا أو سلاطينَ الدُّنيا أو رؤساءَ النّاسِ في الدُّنيا يقبلونَ الشَّفاعةَ لحاجتِهم إلى ذلكَ، وذلك لأنَّ الملكَ أو الرئيسَ بحاجةٍ إلى الوزراءِ والمستشارينَ ليعينوهُ على أمورِ المُلْكِ، فلو لم يَقْبَلْ شفاعَتَهم لنفروا منه، ولم يُعينوهُ، واللهُ جلَّ وعلا غنيٌّ عن خلقِهِ، ليسَ بحاجةٍ إلى أَنْ يعينَهُ أحدٌ، بخلافِ الملوكِ والسلاطينِ فهم بحاجةٍ.

وأيضاً ملوكُ الدُّنيا والسلاطينُ لا يعلمونَ أحوالَ الرّعيّةِ، فهم بحاجةٍ إلى هؤلاءِ ليبلغوا حاجاتِ النّاسِ وأحوالَ النّاسِ، فإذا بلغهم هؤلاءِ الوسائطَ والشُّفعاءُ، فقد بلغوهم ما لم يعرفوا من أحوالِ رعيَّتِهم، أمَّا اللهُ جلَّ وعلا فإنه يعلمُ كلَّ شيءٍ، لا تَخْفى عليه أحوالُ عبادِهِ، يعلم المحتاجينَ والمَرْضى والفقراءَ وأصحاب الحاجاتِ، يعلمُ ذلكَ بدونِ أن يخبرَه أحدٌ سبحانه وتعالى، فلا يُقاسُ الخالقُ بالمخلوقِ.

وأيضاً الملوكُ والرؤساءُ ولو علِموا بأحوالِ النَّاس، فإنهم قد لا يلينونَ لهم، ولا يلتفتونَ إليهم، لكنْ إذا جاءَهم هؤلاءِ الوسطاءُ، وتكلموا معَهُم أثّروا فيهم، فقبلوا الشفاعةَ، أما اللهُ جلَّ وعلا فإنه لا يؤثِّرُ عليهِ أحدٌ، اللهُ جلَّ وعلا يريدُ الرّحمةَ لعبادِهِ، ويريدُ المغفرةَ، ويريدُ قضاءَ حاجاتِ النَّاسِ، وإعطاءَهم، ورزقَهم، وهو مريدٌ لذلك سبحانه وتعالى بدونِ أن يؤثِّرَ عليه أحدٌ.

ففيهِ فرقٌ بينَ الخالقِ والمخلوقِ من هذهِ الوجوهِ، من ناحيةِ أنَّ اللهَ غنيٌّ لا يحتاجُ إلى إعانةِ الشّفيعِ، ومن ناحيةِ أنَّ اللهَ عليمٌ لا يحتاجُ إلى إخبارِ الشفيعِ عن

أحوالِ خلقِهِ، ومن ناحيةٍ أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى مريدٌ للخيرِ والرحمةِ لعبادِهِ، وقضاءِ حوائِجِهم، إذا هم طلبوا من اللهِ بصدقٍ، ولجؤوا إليه بإخلاصٍ قضى حوائِجَهم، بدونِ أن يكونَ هناكَ واسطةٌ.

فتبيَّنَ لنا إذاً الفرقُ بينَ الخالقِ والمخلوقِ، فغلِط المشركونَ في ذلكَ حيثُ سوَّوا الخالقَ بالمخلوقِ، واتخذوا الشفعاءَ عندَه كما يتخذونَ الشفعاءَ عندَ الملوكِ والرؤساءِ.

والشفاعة في كتابِ اللهِ جاءَتْ على قسمينِ:

قسمٌ منفيٌّ. وقسمٌ مثبتٌ.

فالقسم المنفي: هو الشفاعةُ التي تطلبُ من غيرِ اللهِ.

هذه الشفاعةُ منفيّةٌ، لأنَّ الشفاعةَ ملكٌ للهِ، لا تطلَبُ إلَّا منه، وكذلكَ الشَّفاعةُ التي تطلَبُ فيمن لا تقبلُ فيه، وهو الكافرُ، فالكافرُ والمشركُ لا تُقْبلُ فيه الشَّفاعةُ: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ﴾ [غافر: ١٨]، وقالَ اللهُ تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ﴾ [البقرة: ٤٨].

والشفاعةُ المثبتةُ: هي التي توفَّرَ فيها الشَّرطانِ:

الشرط الأول: أن تُطلبَ من اللهِ.

الشرط الثاني: أن تكونَ فيمن تُقْبَلُ فيهِ الشفاعةُ، وهو المؤمنُ الموحِّدُ الذي عندَه شيءٌ من المعاصي دونَ الشركِ، فهذا تُقبلُ فيه الشفاعةُ بإذنِ اللهِ.

قال تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ **هذا الشرطُ الأوَّلُ.**

الشرط الثاني: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ وهم أهلُ الإيمانِ.

وقال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن

﴿يَأْذَنَ ٱللَّهُ﴾ هذا الشرطُ الأولُ.

﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾ هذا هو الشرطُ الثَّاني.

والشفاعة المثبتةُ ستةُ أنواعٍ:

النوع الأول: الشفاعةُ العظمى، وهي المقامُ المحمودُ، وهي التي تكونُ من الرسولِ ﷺ لأهلِ الموقفِ، إذا طالَ الوقوفُ على أهلِ الموقفِ التمسوا من يشفَعُ لهم إلى اللهِ في القضاءِ بينهم، وإراحتِهم من الموقفِ، فيأتونَ إلى آدمَ عليه السلام ثمَّ إلى الأنبياءِ نبيّاً نبيّاً كلُّهم يعتذرونَ، حتى ينتهوا إلى محمَّدٍ ﷺ، فيقولُ: «أنا لها، أنا لها»[1] ثمّ يخر ساجداً بين يدي ربه عزّ وجل، ويفتحُ اللهُ عليهِ بمحامدَ، فلا يزالُ ساجداً حتَّى يُقالَ له: «يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ»[1]، هذا فيهِ أنَّ الرسولَ لا يشفَعُ ابتداءً، وإنما يشفَعُ بعدَ الاستئذانِ، بعدَ أن يخرَّ ساجداً لله، ولا يشفَعُ إلَّا بعدَ أن يؤذنَ له، ويُقالُ: اشفَعْ تشفَّعْ، ثمّ يشفعُ في أهلِ الموقفِ، فيحاسبونَ، ثمّ ينصرفونَ مِنَ الموقفِ إما إلى الجنَّةِ وإمّا إلى النَّارِ.

هذه الشفاعةُ العُظْمى، وهي المقامُ المحمودُ الذي قالَ تَعالى فيه: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ٧٩﴾ [الإسراء: ٧٩]، لأنه يحمدُهُ عليهِ الأولونَ والآخرونَ -عليهِ الصلاةُ والسلامُ-، وهذه لم يخالِفْ فيها أحدٌ وحقيقتُها أنَّ الخلائقَ يطلبونَ من النبيِّ ﷺ أن يدعوَ اللهَ لهم بأن يريحَهم من الموقفِ الطويلِ.

النوع الثاني: شفاعتُهُ ﷺ لأهلِ الجنةِ في أن يدخلوا الجنَّةَ.

النوع الثالث: شفاعتُهُ ﷺ في بعضِ أهل الجنة في رِفعة درجاتهم في الجنة.

النوع الرابع: شفاعتُهُ ﷺ في عمّه أبي طالبٍ، وذلك أنَّ أبا طالبٍ كانت

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٤٠) ومسلم (١٩٣).

مواقفُهُ معَ الرسولِ ﷺ، وتأييده لَهُ، وحمايتُهُ من أذى قومِهِ، كلُّها معروفةٌ، وأنه صبرَ معه على الأذى وعلى الحصارِ والضيّقِ، فهو بذَلَ مع الرسولِ ﷺ شيئاً عظيماً من الحمايةِ والنُّصرةِ والدفاعِ عنه، وهذا من تسخيرِ اللهِ سبحانه وتعالى، وتيسيرِ اللهِ، حيثُ سخَّرَ هذا الكافرَ لحمايةِ النبيِّ ﷺ، وحرِصَ النبيُّ ﷺ على هدايتِهِ، ودخولِهِ في الإسلامِ، حتَّى إنه زارَهُ وهو يُحتضر، وقال له: «**يَا عَمِّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ**»[1] إلَّا أنه كانَ عندَهُ حَضْرةٌ من المشركينَ قالوا له: أترغبُ عن مِلَّةِ عبدِالمطلبِ؟. فأخذَتْهُ النَّخوةُ -والعياذُ باللهِ-، والحَمِيَّةُ الجاهليةُ وقال: هو على ملّةِ عبدِالمطلبِ، وماتَ ولم يقُلْ لا إله إلَّا الله، فصارَ من أهلِ النَّارِ، فالنبيُّ ﷺ يشفعُ له في تخفيفِ العذابِ عنهُ يومَ القيامةِ، لا في إخراجِهِ من النَّارِ، فلا يتعارضُ هذا مع قولِهِ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ۝٤٨﴾ [المدثر: ٤٨]، لأنها لم تنفَعْ أبا طالبٍ بالخروجِ من النَّارِ، وإنما نفعَتْهُ في تخفيفِ العذابِ عنه.

النوع الخامس: الشَّفاعةُ فيمَن استحقَّ النَّارَ من أهلِ التوحيدِ أَنْ لا يدخُلَها.

النوع السادس: الشفاعةُ فيمن دخَلَ النَّارَ من أهلِ التوحيدِ أن يخرجَ منها، وهاتانِ الشفاعتانِ الأخيرتانِ ليستا خاصَّتينِ بالنبيِّ ﷺ، بل هما عامَّتانِ في الأنبياءِ والأولياءِ، والصالحينَ، والأفراطِ. فالأولياءُ يشفعونَ، والصالحونَ، والأفراطِ -وهم الأولادُ الصغارُ- يشفعونَ لآبائِهم.

وهذهِ الشفاعةُ يثبتُها أهلُ السنّةِ والجماعةِ للأحاديثِ الواردةِ الصحيحةِ فيها، ويخالفُ فيها المبتدعةُ من المعتزلةِ، والخوارجِ الذينَ يقولونَ إنَّ مَنْ دخَلَ النَّارَ لا يخرجُ منها، ويخالفونَ بذلكَ الأحاديثَ الصحيحةَ الواردةَ فيها عن النبيِّ ﷺ،

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٠) ومسلم (٢٤).

وَقَوْلِ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [سورة الأنعام: ٥١].

هذهِ أنواعُ الشفاعاتِ الثابتةِ الصحيحةِ التي توفَّرَ فيها الشرطانِ المذكورانِ.

وأمرُ الشفاعةِ أمرٌ عظيمٌ، لأنهُ غلِطَ فيها أممٌ من النّاسِ قديماً وحديثاً، وفَهِموها على غيرِ المقصودِ، فجمهورُ المشركينَ -أو كلُّ المشركينَ- فهموها على غيرِ المقصودِ، وبعضُ المبتدعةِ من المسلمينَ أنكروا بعضَها، فحصَلَ الغلطُ، فلابدَّ من التفصيلِ والإيضاحِ في أمرِ الشفاعةِ، لأنّها أصبحَتْ مزلةَ أقدامٍ، يجبُ على طلبةِ العلمِ أن يهتموا بهذا الأمرِ، لأنَّ فيها مغالطاتٍ عندَ القبوريينَ والخُرافيينَ، لأنّهم لا يفقهون معنى الشفاعةِ، أو أنهم يتعمَّدونَ المعاندَةَ والمخالفةَ، ويُصرُّونَ على ما كانَ عليه آباؤُهم وأجدادُهم ومشايخُهم من الضلالِ في هذا البابِ.

فالشفاعةُ ليسَتْ منفيةً مطلقةً، ولا مُثْبَةً مُطْلقة، بل فيها تفصيلٌ، وفيها إيضاحٌ لابدَّ من معرفتِهِ، ولذلكَ عقَد المُصنِّف رحمه الله هذا البابَ لها من أجلِ هذا الغرضِ.

ثمّ ساقَ رحمه الله بعضَ الآياتِ والأحاديثِ في موضوعِ الشَّفاعة.

***

الآية الأولى: قوله تعالى: «﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾» هذا أمرٌ من اللهِ للنبيِّ ﷺ.

يقول: «﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾» الإنذارُ هو: الإعلامُ بشيءٍ مَخُوْف. أمّا البشارةُ فهي: الإعلامُ بشيءٍ محبوبٍ، والنبيُّ ﷺ بشيرٌ ونذيرٌ، بشيرٌ لأهلِ الإيمانِ بالأجرِ والثوابِ والجنَّةِ، ونذيرٌ لأهلِ الشركِ والمعاصي بالعذابِ والنّارِ.

«﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾» الحشرُ معناه: الجمعُ، لأنَّ اللهَ يجمَعُ الخلائقَ يومَ القيامةِ أوَّلهم وآخرَهم في صعيدٍ واحدٍ، لا يخفى منهم أحدٌ؛ لأجلِ فصلِ القضاءِ بينهم، وجزائِهم بأعمالِهم. وهذا الموقفُ لابدَّ منه، فأنتَ أيُّها الرَّسولُ أنذِر المؤمنينَ بهذا الموقفِ، ولماذا خَصَّ المؤمنين؟، لأنهم هم الذينَ يَمْتثلونَ، وإلَّا فإنه مأمورٌ بأن يُبلِّغَ النّاسَ كلَّهم، ولكنه -أحياناً- يُؤْمر بتخصيصِ المؤمنينِ، لأنَّهم هم الذين يمتثلونَ، وفي إنذارِهم نفعٌ لهم، أما المشركونَ والكفارَ فهم يُبَلَّغونَ من أجلِ إقامةِ الحجَّةِ عليهم، وأما المؤمنونَ فإنهم يُبلَّغون من أجلِ نفعِهم بذلكَ.

«﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ﴾» أي: غَيْر اللهِ.

«﴿وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾» لا أحدَ يتولَّاهم يومَ القيامةِ من الخلقِ، و﴿يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٤-٣٧]، يومُ القيامةِ ما أحدٌ يُسألُ عن أحدٍ، قال تعالى: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يونس: ٣٠]، فـ ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ [الكهف: ٤٤]، يومُ القيامةِ ما أحدٌ يَلْوي على أحدٍ، ولا أحدٌ يسألُ عن أحدٍ، بل إنَّ القريبَ إذا رأى أقربَ النّاسِ إليه يفرُّ منه.

«﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾» أي: واسطة: يتوسَّطُ له عندَ اللهِ، ما أحدٌ يشفعُ له يومَ القيامةِ إلَّا بإذنِ اللهِ سبحانه وتعالى، وبشرطِ أن يكونَ هذا الشخصُ ممَّنْ يرضى اللهُ عنه، هذهِ شفاعةٌ منفيّةٌ فبطَلَ أمرُ هؤلاءِ الذينَ يتَّخذونَ الشفعاءَ ويظنُّونَ أنهم يخلِّصونَهم يومَ القيامةِ من عذابِ اللهِ كما يقولُ صاحبُ «**البردة**»:[1]

(١) «شرح بردة المديح» للبوصيري (ص٢٣).

وَقَولِهِ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [سورة الزمر: ٤٤].

يا أكرمَ الخلقِ ما لي من ألوذُ به سواكَ عندَ حلولِ الحادث العممِ

إن لم تكُـنْ في معـادي آخـذاً بيدي فضلاً وإلَّا قُلْ يا زلّةَ القدمِ

هذا على اعتقادِ المشركينَ أنَّ الرسولَ يأخذُ بيدِهِ ويُخلِّصه من النارِ، وهذا ليس بصحيحٍ، لا يُخلِّصُه من النَّارِ إلَّا اللهُ سبحانه وتعالى إذا كانَ من أهلِ الإيمانِ.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ هذا تعليلٌ لقولِهِ: «﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾»، مِنْ أجلِ ماذا؟، أي: من أجلِ أن يتقوا ربَّهم سبحانه وتعالى، والتَّقْوى معناها: أن يتخذوا ما يقيهم من عذابِ اللهِ يومَ القيامةِ، وذلكَ بالأعمالِ الصالحةِ، بفعلِ الطاعاتِ وتركِ المُحرَّماتِ، ولا يقي من عذابِ اللهِ يومَ القيامةِ إلَّا التقوى.

فهذا فيهِ الردُّ على المشركينَ الذينَ يتخذونَ الشفعاءَ بيَّنَ اللهُ أنه سيأتي يومُ القيامةِ ولا أحدٌ يشفعُ لهم كما يزعمونَ.

* * *

قوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا﴾ هذه الآيةُ جزءٌ من أيةٍ من سورةِ الزُّمر، وهي قولُه تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

فقوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ ﴿أَمِ﴾ هنا بمعنى: بَلْ، أي: بل اتخذوا، وهذا من بابِ الإنكارِ عليهم.

﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ أي: المُشْركون.

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٥].

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: غير اللهِ.

﴿شُفَعَآءَۚ﴾ أي: وسائط، يتوسَّطون بينَهم وبينَ اللهِ في إجابةِ دعواتِهم، وقضاءِ حاجاتِهم.

﴿قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا﴾ فالشَّفاعةُ ليستْ ملكاً لهم، فأنتم تطلبونَ منهم ما لا يملكونَ.

«﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ﴾» إذاً تُطلَبُ الشَّفاعةُ من اللهِ، ولا تُطْلبُ من غيرِهِ.

* * *

قال: وقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾، هذا جزءٌ من آيةِ الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَىُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِىُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾، وهي أعظمُ آيةٍ في كتابِ اللهِ عز وجل، لماذا صارَتْ أعظمَ آيةٍ في كتابِ الله؟، لأنَّها اشتمَلَتْ على النفيِ والإثباتِ: نفي النَّقائِص عن اللهِ تعالى، وإثباتُ الكمالِ لله عز وجل والشَّاهدُ منها قوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾، ﴿مَن﴾ نفي، أي: لا أحد، «﴿يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ﴾» أي: عندَ اللهِ تعالى، ﴿إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ فهو الذي يَأْذنُ للشُّفعاء أَنْ يشفعوا، وبدونِ إذنِهِ لا يُمْكِنُ لأحدٍ أن يشفعَ أبداً، لا الأنبياءِ، ولا الملائكةِ، ولا الأولياءِ، ولا الصالحينَ، وهذا محلُّ الشَّاهِدِ؛ أنَّ الشفاعةَ لا تكونُ إلَّا بإذنِ اللهِ، ففي هذا ردٌّ على المشركينَ الذين اتَّخذوا الشُّفعاءَ بدونِ إذنِهِ سبحانه وتعالى في ذلكَ، وزَعَموا أنَّ هؤلاءِ الشفعاءَ يقومونَ بما يريدونَ منهم عندَ اللهِ عز وجل، ولذلك صَرَفوا لهم العبادةَ، فصاروا يذبحونَ

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة النجم: ٢٦].

للقبورِ، وينذرونَ لها، ويطوفونَ بها، ويتبرَّكون بها، ويتحمَّسونَ بترابِها، وبجُدْرانِها، يعبدونَها من دونِ اللهِ، لأنَّهم يقولونَ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، تركوا اللهَ عز وجل وعبدوا غيرَه، فعملُهُم هذا حابطٌ باطلٌ، لأنهم يضعونَهُ في غيرِ محلِّهِ، وقاسوا الخالقَ على المخلوقِ.

* * *

ثمَّ ساقَ رحمه الله آيةَ النَّجْم: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ كم هنا بمعنى: كثير، فهي خبريّة، أي: كثيرٌ من الملائكةِ.

﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ لأنَّ موطنَ الملائكةَ: السماواتُ، ومع كثرتِهم ﴿لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ هذا نفي، لأنَّ ﴿شَيْـًٔا﴾: نَكِرةٌ في سياقِ النَّفْيِ، أي: لا تغني شيئاً أبداً إلَّا بشرطينِ: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ﴾ هذا الشَّرْطُ الأوَّلُ. ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾ هذا الشَّرط الثَّاني.

يأذنُ للشَّافعِ أَنْ يشفعَ، ويرضى عن المشفوعِ فيه أن يُشفَعَ فيه، وهو المؤْمنُ الموحِّدُ الذي عندَه ذنوبٌ يستحقُّ بها العذابَ، فإذا أذِنَ اللهُ جلَّ وعلا في الشَّفاعةِ فيه، فإنه تنفَعُهُ الشَّفاعةُ، ويَسْلمُ من العذابِ بإذنِ اللهِ عز وجل.

فدلَّ على أنَّ الأمرَ كلَّه لله سبحانه وتعالى، وتُطلَبُ الشفاعةُ وغيرُها من اللهِ، ولا يُتعلَّق على غيرِهِ، ولا تُصرَفُ العبادةُ إلَّا له، ولا يُدعى إلَّا وهو سبحانه وتعالى، ولا يجوزُ اتِّخاذُ الوسائطِ بينَ الخلقِ وبينَ اللهِ في قضاءِ الحاجاتِ، وتفريجِ الكُرُبات، وإجابةِ الدَّعَوات، لا يجوزُ هذا، وإنَّما العبادُ يجِبُ عليهم أن يتوجَّهوا إلى اللهِ سبحانه وتعالى في عباداتِهم، وفي دعواتِهم، وفي سائرِ أمورِهم،

ومهمّةُ الرُّسل هي: التبليغُ عن اللهِ سبحانه وتعالى، أما أنَّهم يكونونَ وسطاءَ بينَ اللهِ وبينَ خلقهِ في قضاءِ الحوائجِ فهذا أمرٌ باطلٌ، ولهذا يقولُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميّةَ: «**هناك واسطةٌ من أثبتَها كفَرَ، وواسطةٌ من أنكرَها كَفَرَ**» فالواسطةُ التي من أنكرَها كَفَر: هم الرُّسُل -عليهم الصلاةُ والسَّلامُ- في تبليغِ مرِ اللهِ سبحانه وتعالى، يعني: مَنْ جَحَدَ رسالةَ الرسولِ كَفَر، فالرسولُ واسطةٌ بينَ اللهِ وبينَ النَّاسِ في تبليغِ الرسالةِ، أما الواسطةُ التي من أثبتَها كَفَر، فهي: جَعْلُ الوسائِطِ بينَ الخلقِ وبينَ اللهِ في قضاءِ الحاجاتِ، وتفريجِ الكرباتِ، هذه من أثبتَهَا كفَرَ، لأنَّ اللهَ كفَّرَ المشركينَ في ذلكَ، واللهُ جلَّ وعلا أمَرَنا أن نتوجَّهَ إليهِ مباشرةً بدونِ أَنْ نُوسِّطَ أحداً، أو نسألَ بجاهِ أحدٍ، أو بحقِّ أحدٍ، حتَّى ولو كانَ هذا الأحدُ له مكانةٌ عندَ اللهِ كالرُّسُل والملائكةِ لأنَّ اللهَ لم يشرعْ لنا أن نُوسِّطَهم في قضاءِ حوائِجِنا، بل اللهُ قالَ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] ما قال: ادعوني بواسطةِ فلانٍ، أو وسِّطوا فلاناً بيني وبينكم، قال: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، وفي الحديثِ: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيهُ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟، هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ**»[1] فالبابُ مفتوحٌ بينَك وبينَ اللهِ عز وجل، لماذا هذا التَّعْريجُ، وهذهِ الأباطيلُ التي تجعلُها بينَك وبينَ الله؟، اتَّصِلْ باللهِ مباشرةً، وهو سميعٌ مجيبٌ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، فهذا إبطالُ الوسائطِ التي يضعونَها بينَهم وبينَ اللهِ، ويزعمونَ أنها تُقرِّبُهم إلى اللهِ زُلْفى، لا أَصْحاب القبورِ، ولا الأشجارِ، ولا الأحْجار، ولا الأَصْنامِ، ولا أيِّ مخلوقٍ حتَّى ولا الأنبياء ولا الملائكةِ، الواسطةُ بينَ اللهِ وبينَ خلقِهِ في قضاءِ الحاجاتِ غيرَ الأعمالِ الصالحةِ

(١) أخرجه البخاري (١١٤٥) ومسلم (٧٥٨).

وَقَولِهِ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الآيتين [سورة سبأ: ٢٢-٢٣].

قَالَ أَبُو العَبَّاسِ: «نَفَى اللهُ عَمَّا سِوَاهُ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ المُشرِكُونَ، فَنَفَى أَنْ يَكُونَ لِغَيرِهِ مُلكٌ أَو قِسطٌ مِنهُ، أَو يَكُونَ عَوناً لله، وَلَم يَبقَ إِلَّا الشَّفَاعَةُ، فَبَيَّنَ أَنَّهَا لَا تَنفَعُ إِلَّا لِمَن أَذِنَ لَهُ الرَّبُّ، كَمَا قَالَ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [سورة الأنبياء: ٢٨].

أمرٌ منفيٌّ، أما الواسطةُ بينَ اللهِ وبين خلقِهِ في تبليغِ الرسالاتِ، فهذا أمرٌ ثابتٌ.

***

ثم ذكرَ الشيخُ قولَه تعالى: «﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾» وتماماً لآيتين: «﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾».

***

ثَمَّ ساقَ رحمه الله كلامَ شيخِ الإسلامِ ابنِ تيميّةَ في توضيحِ هذه الآيةِ وتفسيرِها، وختَمَ به هذا البابَ العظيمَ، الذي هو: «**باب الشفاعة**».

وقَدْ مضى الكلامُ في أوّلِ البابِ وما فيه من آياتٍ وأحاديثَ وما فيهِ من تفصيلٍ في أمرِ الشفاعةِ، لأنَّ أمرَ الشفاعةِ أمرٌ مُشْكِلٌ من قديمِ الزمانِ وحديثِهِ، لأنَّ كثيراً -أو جميع- مَنْ يقَعُ منهم الشركُ في العبادةِ بدعاءِ الأولياءِ والصالحينَ والموتى إذا سُئلوا وقيلَ لهم: هذا شركٌ، قالوا: لا، هذا ليسَ بشركٍ، لأننا لم نقصِدْ أَنْ نعبدَ من دونِ اللهِ أحداً، لأنّنا نعلمُ أنَّ العبادةَ حقٌّ للهِ، ولكنَّ هؤلاءِ أناسٌ صالحون لهم مكانةٌ عندَ الله، ومن العادةِ أنَّ الإنسانَ إذا كانَ له حاجةٌ عند

السُّلطانِ أو عندَ الملكِ أنه لا يتقدَّمُ إليهِ بحاجتِهِ مباشرةً، لأنه يَخْشى أَنْ لا يُقبَل منه أو لا يُعرَف، فحتى لا يُردَّ طلبُهُ يجعلُ بينَه وبينَ المطلوبِ منه واسطةً، فهذهِ الواسطةُ تشفعُ له عندَ مَنْ عندَهُ طلبُ المحتاجِ. هذا حاصلُ ما يجيبونَ به.

وهو جوابٌ باطلٌ، لأنَّ قياسَ الخالقِ على المخلوقِ قياسٌ باطلٌ، لأنَّ اللهَ سبحانه وتعالى يُنزَّه أَنْ يُقاسَ بأحدٍ من خلقِهِ، قال سُبحانَه: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [النحل: ٧٤]، وقالَ سبحانه وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾، إلى غيرِ ذلكَ مما بيَّنَ اللهُ سُبْحانه أنَّه لا يجوزُ أن يُقاسَ بخلقِهِ أو أَنْ يُشبَّه بخلقِهِ لوجودِ الفرقِ العظيمِ بينَ الخالقِ والمخلوقِ، فإذا كانَ ملوكُ الدُّنيا تسوغُ عندَهم شفاعةُ الشافعينَ بغيرِ إذنِهم، فإنَّ الخالقَ جلَّ وعلا لا تسوغُ عندَه لأنه أعظمُ من ذلكَ، لأنَّ ملوكَ الدّنيا بحاجةٍ إلى هؤلاءِ الشفعاءِ لإعانتِهم على أمورِ الملكِ، فيشفعونَهم من أجلِ أن يعينوهُم على أمورِ المُلْكِ، أو لأنَّ ملوكَ الدُّنيا لا يعلمونَ أحوالَ الرعيّةِ، فهم بحاجةٍ إلى مَنْ يُبلِّغُهم، أو لأنَّ ملوكَ الدّنيا لا يريدونَ قضاءَ الحوائجِ أحياناً، ولا يريدونَ الرحمةَ حتَّى يأتيَ من الشفعاءِ مَنْ يتكلمُ معهم، حتى تتأثرَ قلوبهُم بالعطفِ، وهذهِ الأمورُ كلُّها منتفيةٌ عن اللهِ سبحانه وتعالى، فهو ليسَ بحاجةٍ إلى من يُعينُه على أمورِ الملكِ، لأنه غنيٌّ كريمٌ، قادرٌ على كلِّ شيءٍ، وليسَ بحاجةٍ إلى من يُبلِّغُه عن أحوالِ خلقِهِ، لأنه يعلمُ كلَّ شيءٍ، وليسَ بحاجةٍ إلى مَنْ يُؤثِّر عليه ويُعطِّفه، لأنهُ بعبادِهِ رؤوفٌ رحيمٌ، يريدُ لهم الخيرَ، ويريدُ لهم الإعانةَ، ويحبُّ العفوَ والمغفرةَ، ويجودُ على خلقِهِ بدونِ أن يؤثِّر عليه أحدٌ أو يتوسَّطَ عندَه أحدٌ، فهذهِ الأمورُ كلُّها منتفيةٌ، وبذلكَ بطُلَتْ حجةُ المشركينَ، وتبيّنَ أَنَّ فعلَهم هذا هو الشركُ، سمَّاهُ اللهُ

فَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ الَّتِي يَظُنُّها المشرِكُونَ هِيَ مُنْتَفِيةٌ يَومَ القِيَامَةِ، كَمَا نَفَاهَا القُرآنُ، وَأَخبَرَ النبيُّ ﷺ: «أنه يأتي فَيَسْجُدُ لربه وَيَحْمَدُهُ [لَا يَبدَأُ بِالشَّفَاعَةِ أَولاً] ثُمَّ يُقَالَ لَهُ: ارفَع رَأسَكَ، وقُلْ يُسمعْ، وَسَلْ تُعْطَ، واشفَع تُشَفَّع»[1].

شركاً في قولِهِ تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هذا هو الشركُ، وفي الآيةِ الأخرى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾، ثمَّ توعَّدهم بقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزمر: ٣]، فسمَّى فعلَهم هذا كذباً وسمَّاه كفراً، بل سمَّاهُ مبالغةً في الكفرِ، لأنَّ (كفَّار) صيغةُ مبالغةٍ، فالذي يفعل هذا قد بلَغَ غايةَ الكفرِ وأعظمَ الكفرِ -والعياذُ باللهِ-.

وفي هذه الآيةِ يقولُ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢-٢٣] هذه الآيةُ والتي بعدَها يقولُ العلماءُ عنها: إنَّها قطعَتْ عروقَ الشركِ من أصلِهِ.

أما قوله تعالى: ﴿قُلِ﴾ هذا أمرٌ لرسولِهِ محمَّدٍ ﷺ بأَنْ يقولَ لهؤلاءِ الذينَ يدعونَ الملائكةَ وغيرَهم من دونِ اللهِ ويزعمونَ أنهم يشفعونَ لهم عندَ اللهِ بغيرِ إذنِهِ سبحانه وتعالى، قُلْ لهم يا أيُّها الرسولُ، بلِّغهم، أَخْبِرْهم، بيِّنْ لهم.

﴿ٱدْعُواْ﴾ هذا أمرُ توبيخٍ وتعجيزٍ، لأنَّ الأمرَ يأتي -أحياناً- للتَّوبيخِ والتعجيزِ، لا لطلبِ الشيءِ أو تشريعِ الشيءِ، كما في قولِهِ: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن

---

(١) جزء من حديث الشفاعة الطويل الذي يرويه أبو هريرة، وهو عند البخاري (٤٧١٢) ومسلم (١٩٤). وكذلك يرويه أنس وهو عند البخاري (٤٤٧٦) ومسلم (١٩٣).

شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾، ليس هذا أمراً بالكفرِ، وإنما هذا أمرُ توبيخٍ وتهديدٍ، وإلَّا فاللهُ سبحانه وتعالى لا يأمرُ بالكفرِ، وإنما ﴿فَلْيَكْفُرْ ﴾ معناه أمرُ تهديدٍ وتوبيخٍ وقد يكونُ الأمرُ للتعجيزِ ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ﴾ هذا أمرُ تعجيزٍ.

﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم ﴾ هذا فيهِ ردٌّ عليهم، وذلكَ لأنَّهم لم يَبنوا فعلَهم هذا على دليلٍ من الشرعِ النازلِ من عندِ اللهِ، فاللهُ لم يشرَعْ دعاءَ غيرِهِ أبداً، وإنما أمرَ بدعائِهِ وحدَه لا شريكَ له، فمن دَعا غيرَه فهذا زعمٌ منه، والزَّعْمُ باطلٌ، وكذلكَ لم يعتمدوا على دليلٍ عقليٍّ فطريٍّ، لأنَّ العقلَ يدلُّ على أنَّ العبادةَ لا تكونُ إلَّا لمُسْتحقِّها وهو اللهُ سبحانه وتعالى، أما العبدُ الفقيرُ العاجزُ، فإنه لا يستحقُّ العبادةَ، هذا دليلُ العقلِ مع دليلِ الشرعِ بأنَّ العبادةَ والدُّعاءَ لا يصلحانِ إلَّا للهِ سبحانه وتعالى، والزَّعْمُ معناه: الكذبُ، دلّ على أنهم كاذبون في عملِهم هذا، لأنه إذا لم يكُنْ عليهِ دليلٌ فهو كذبٌ.

ومعنى: ﴿زَعَمْتُم ﴾ أي: زعَمْتُم أنهم ينفعونَ أو يضرُّون.

﴿مِن دُونِهِۦ﴾ أي: غير اللهِ سبحانه وتعالى.

﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ وذلك أنَّ المدعوَّ لابدَّ أَنْ يتوفرُ فيهِ أحدُ هذهِ الأحوالِ:

الحالة الأولى: إما أنْ يكونَ مالكاً للمطلوبِ منه، فأنتَ إذا طلبْتَ من أحدٍ شيئاً فلابدَّ أن يكونَ مالكاً له، وهؤلاءِ المدعوونَ لا يملكونَ شيئاً مما يُطلَبُ منهم؟ إذاً دعاؤهم باطلٌ، كيف تطلبونَ من أناسٍ لا يملكونَ ما تطلبونَه منهم فهم: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ أي: ليسَ لهم مُلْكٌ ولو قلَّ، والذّرّة

معروفةٌ هي أصغرُ شيءٍ، إمَّا أنَّها؛ الهَبَاءَةُ التي تطيرُ في الهواءِ، أو أنَّها: النملةُ الصغيرةُ التي لا وزنَ لها، ودائماً يَضْربُ اللهُ هذا المثَلَ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، أقلُّ شيءٍ من الخيرِ والشرِّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ فالظلمُ منتفٍ عن اللهِ سبحانه وتعالى قليلُه وكثيرُه، إذاً كيفَ تدعونَهم وتطلبونَهم وهم لا يملكونَ ما تدعونَهم له وتطلبونَه منهم؟، هذا من العبثِ، كيف تُعرضونَ عن الذي يملكُ السماواتِ والأرضَ ومَنْ فيها، وهو اللهُ، وتنصرفونَ إلى دعاءِ مَنْ لا يملكُ شيئاً، ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾.

الحالة الثانية: إذا لم يكنْ مالكاً فلا أقلَّ من أَنْ يكونَ شريكاً للمالكِ، وهذا منتفٍ في حقِّ الخَلْقِ، لأنهم لا يشاركونَ اللهَ في ملكِهِ: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾﴾[الأحقاف: ٤]، فلا أَحدٌ يشاركُ اللهَ في ملكِ السماواتِ والأرضِ أبداً، لا الملائكةُ، ولا الأنبياءُ، ولا الأولياءُ، الملكُ للهِ.

الحالة الثالثة: إذا لم يكُنْ مالكاً للشيءِ ولا شريكاً فيه فربَّما يكونُ مُعيناً للمالكِ، وإذا كانَ معيناً للمالكِ جاز أن يَسْتشفعَ به إليه، واللهُ نفى هذا وقال: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ لا أحد يعينُ اللهَ من خلقِهِ، لم يتخِذْ من خلقِهِ من يُعينه على تدبيرِ خلقِهِ سبحانه وتعالى، انفردَ بخلقِ السماواتِ والأرضِ، وخلقِ المخلوقاتِ، ولم يتَّخِذْ من يُعينه على ذلكَ، لأنه قادرٌ سبحانه وتعالى على كلِّ شيءٍ.

الحالة الرابعة: قد يكونُ شفيعاً عندَ المالكِ مثلَ ما يشفعُ النّاسُ عندَ الملوك، وهم ليسوا ملوكاً، وليسوا شركاءَ للملوكِ، وليسوا وزراءَ للملوكِ وأعواناً،

وَقَالَ أَبُو هُرَيرَةُ لهُ ﷺ: مَن أَسعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ؟، قَالَ: «مَن قَالَ: لَا إِلهَ إِلَّا الله؛ خَالِصاً مِن قَلبِهِ»[1].

فَتِلكَ الشَّفَاعَةُ لَأهلِ الإِخلَاصِ بِإِذنِ الله، ولَا تَكُونُ لِمَن أَشرَكَ بِاللهِ.

لكنَّهم شفعاء، يأتي ذو جاهٍ ومكانةٍ فيدخلُ على السلطانِ ويشفعُ عندَه، وهو ليسَ معيناً له ولا شريكاً له، هذا جائزٌ في حقِّ المخلوقينَ، لكِنْ في حقِّ الخالقِ لا يجوزُ، لأنَّ الشفاعةَ لا تكونُ إلَّا بإذنِهِ ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ﴾ أي: عندَ اللهِ ﴿إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ هذا بخلافِ المخلوقينَ، قد يُشفعُ عندَهُمْ بدونِ أَنْ يأذنوا، وهل اللهُ أذِنَ في الشفاعةِ في المشركين من المستحيلِ أن تقعَ الشفاعةُ في مشركٍ أو كافر.

قال سبحانه وتعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾، ﴿مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾، إذاً بطُلَتْ شفاعَتُهم من كلِّ الوجوهِ الأربعةِ، فهي شفاعةٌ باطلةٌ، وإنما الشفاعةُ الصحيحةُ هي الشفاعةُ التي يتوفرُ فيها شرطانِ: الشَّرْط الأوَّل: أن تكونَ بإذنِ الله. الشرط الثاني: أن تكونَ في أهلِ التوحيدِ والإخلاصِ.

وفي حديثِ أبي هريرةَ لما سأَلَ النبيَّ ﷺ قالَ: **من أسعد النّاس بشفاعتك يا** رسول الله؟، قال: «**لقد ظننت أن لا يسألني عن هذا الحديث غيرك يا أبا هريرة لما أرى من حرصك على الحديث، أسعد النّاس بشفاعتي: من قال: لا إله إلَّا الله؛ خالصاً من قلبه**».

فدلَّ هذا الحديثُ على أنَّ شفاعةَ الرسولِ ﷺ بعدَ إذنِ اللهِ تعالى بها لا تكونُ إلَّا لأهلِ الإخلاصِ، لا تكونُ لأهلِ الشركِ، وأهلِ الإخلاصِ هم: «**من قال: لا إله إلَّا الله**» أي تلفَّظَ بها، «**خالصاً من قلبه**» لم يقُلْها بلسانِهِ فقَطْ، وإنما قالَها

---

(١) أخرجه البخاري (٩٩).

وَحَقِيقَتُهُ: أَنَّ اللهَ سبحانَهُ هُوَ الَّذِي يَتَفَضَّلُ عَلَى أَهلِ الإِخلَاصِ، فَيَغفِرُ لَهُم بِواسِطَةِ دُعَاءِ مَنْ أَذِنَ لَهُ أَن يَشفَعَ؛ لِيُكرِمَهُ وَيَنَالَ المَقَامَ المَحمُودَ.

فَالشَّفَاعَةُ الَّتِي نَفَاهَا القُرآنُ مَا كَانَ فِيهَا شِركٌ، وَلِهذَا أَثبَتَ الشَّفَاعَةَ بِإِذنِهِ فِي مَوَاضِعَ.

عارفاً لمعناها، عاملاً بمقتضاها، معتقداً لها بقلبِهِ.

أما الذي يقولُ: لا إله إلَّا الله، وهو لا يعرفُ معناها، ولا ما تدلُّ عليه، أو يعرفُ معناها، ولكنه لا يعتقدُها بقلبِهِ، كحالِ المنافقينَ، فهذا لا تنفَعُهُ لا إله إلَّا الله، وليسَ له شفاعةٌ عندَ الله سبحانه وتعالى، إنما الشفاعةُ لأهلِ الإخلاصِ، وهم الذينَ ينطقون بهذهِ الكلمةِ مخلصينَ لله عز وجل في قلوبِهم ما تدلُّ عليه هذهِ الكلمةُ من إفرادِ اللهِ تعالى بالعبادة.

فدلَّ هذا على أنه لا حَظَّ لأهلِ الشركِ في الشفاعةِ.

إذاً كلُّ هؤلاءِ المشركونَ القُدامى والمُحْدثون، هؤلاءِ الذين يأتونَ إلى القبورِ، ويجثونَ عندَها على ركبِهم، ويتمرَّغونَ بجباهِهم على تُرابها، ويَذْبحون لها، وينذرونَ لها، ويتمسحونَ بها، ويقولونَ: هؤلاءِ أولياءُ يشفعونَ لنا عندَ اللهِ. هؤلاءِ كلُّهم محرومونَ من هذهِ الشفاعةِ، وفِعْلُهم هذا تعبٌ بلا فائدةٍ، وضررٌ بلا منفعةٍ، لأنَّ هذا هو عينُ فعلِ المشركينَ السابقينَ.

والآية: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ عامّةٌ في الملائكةِ، وفي الأولياءِ، والصالحينَ، وغيرِهم، كلُّ من دُعِي من دونِ اللهِ عز وجل، فهو بهذِهِ المثابةِ، لا يملِكُ شيئاً ولا مثقال ذرةٍ، ولا يشاركُ المالكُ، وليس هو ظهيرٌ للمالكِ، وليس هو شفيعٌ عندَ المالكِ بشفاعةِ أهلِ الشركِ، وأهلِ عبادةِ القبورِ، والأضرحةِ، والأشجارِ، والأحجارِ، والأصنامِ، وغيرِها، هؤلاءِ لا حظَّ لهم في الشفاعةِ، كلُّ

وَقَد بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا لأَهلِ الإِخلَاصِ وَالتَّوحِيدِ». انتَهَى كَلَامُهُ رَحمهُ الله.

هؤلاءِ القطعانِ الضائعةِ، هؤلاءِ الذينَ يأتونَ إلى هذهِ الأضرحةِ، وينفقونَ الأموالَ، ويُضيِّعون الأوقاتَ، كلُّهم لا حظَّ لهم في الشفاعةِ عندَ اللهِ سبحانه وتعالى، وإنما الشفاعةُ لأهلِ التوحيدِ.

والسببُ في جَعْلِ اللهِ سبحانه وتعالى هذهِ الشفاعةَ أنها إكرامٌ للشافعِ، يأذنُ الله لمَنْ شاءَ من عبادِهِ أن يشفعَ إكراماً له، مثلَ ما يحصُلُ لمحمَّدٍ ﷺ في المقامِ المحمودِ، إكراماً له ﷺ، ورحمةً للمشفوعِ فيه إذا كانَ من أهلِ الشفاعةِ والرحمةِ، هذا هو الحكمةُ في جَعْلِ اللهِ هذه الشفاعةَ، فالأمرُ للهِ سبحانه وتعالى.

وبهذا يتبيّنُ لنا معنى الآيتينِ الكريمتينِ معَ بيانِ شيخِ الإسلامِ ابنِ تيميةَ بهذا الكلامِ الواضحِ.

وأبو العباس كنيةُ شيخِ الإسلامِ ابنِ تيميةَ، واسمُه: أحمدُ بنُ عبدِالحليمِ ابنِ عبدِالسلامِ بنِ تيميةَ الحرانيُّ، الحنبليُّ، الإمامُ المشهورُ. وليسَ له ولدٌ.

وإنَّما يُكنى أبا العباس من بابِ التكريمِ له، ويجوزُ أَنْ يكنى الإنسانُ ولو لم يكُنْ له ولدٌ.

فالحاصلُ؛ أنَّ هذهِ الآيَةَ الكريمةَ قد أَبْطَلَتْ ما يعتقِدُهُ المشركونَ في معبوداتِهم، وردَّتْ عليهم ردّاً مفحماً.

هل يستطيعُ المشركون أَنْ يقولوا: إنَّ معبوداتِنا هذهِ تملكُ في السماواتِ أو في الأرض شيئاً؟ لا يستطيعونَ.

هل يستطيعونَ أن يقولوا: إنها شريكةٌ لله؟، لا يستطيعونَ.

هل يستطيعونَ أن يقولوا: إنها تعينُ اللهَ في تدبيرِ الملكِ؟، لا يستطيعونَ.

هل يستطيعون أن يقولوا: إنَّها تشفع عندَ اللهِ بغيرِ إذنه؟، لا يستطيعونَ.

هل يستطيعونَ أن يقولوا: إنَّ الشفاعةَ تنفَعُ المشركينَ وتنفعُ الكفَّارَ؟، لا يستطيعونَ. كلُّ هذا لا يستطيعونَهُ أبداً.

هل أحدٌ منهم عارَضَ هذهِ الآيةَ، وقال: إنَّ معبوداتِنا تَمْلِكُ، أو أَنَّها شريكةٌ للهِ، أو أَنَّها معينةٌ لله، أو أَنَّها تشفَعُ عندَه بغيرِ إذنِهِ؟، ما أحدٌ يستطيعُ أَنْ يعارضَ كلامَ اللهِ سبحانه وتعالى، لأنَّ كلامَ اللهِ لا يأتيهِ الباطلُ من بينِ يَدَيْه ولا مِنْ خلفِهِ تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ، ولكنْ إذ عُمِيَت البصائرُ، وصار النّاسُ يعملونَ على حسبِ أهوائِهم، وحسبِ التقاليدِ الفاسدةِ؛ حينئذٍ يقعونَ في المهالكِ، يقعونَ فيما وقعوا فيه.

ولو سألتَ أيَّ خرافيٍّ أو أيَّ مشركٍ من عبادِ الأضرحةِ قلتَ له: أجِبْ عن هذهِ الآياتِ؟. ما استطاعَ الجوابَ. وإذا لم يستطِعِ الجوابَ، تبيّنَ أنه مكابرٌ، وأنَّ عملَه باطلٌ.

كانَ الواجبُ على مَنْ يدَّعي الإسلامَ، ويشهدُ أَنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ محمداً رسولُ الله؛ الواجبُ أن يرجعَ إلى القرآنِ، وأن يتدبَّرَ القرآنَ، وأن يعملَ به، وأَنْ يراجِعَ سنَّةَ الرسولِ ﷺ، ويعملَ بها، ولا يذهبَ معَ التقاليدِ الفاسدةِ، أو يتَّبعَ ما كانَ عليه الناسُ، أو الدَّعاوى الباطلةِ أنَّ هذهِ القبورَ تنفعُ، أو أنَّ هؤلاءِ الأمواتِ ينفعونَ مَنْ دعاهم، و مَنْ تقرّبَ إليهم، هذا كلُّه إذا عُرِضَ على الكتابِ والسنةِ تبيَّن بُطْلانَهُ.

نعَمْ، قَدْ يقعُ لهؤلاءِ الذينَ يدعونَ الأولياءَ أو القبورَ أَنْ تحصُلَ لهم حاجاتُهم

التي طلبوها، لكن هذا لا يدلُّ على صحةِ ما هم عليه، لأنهم قد يُعطَوْنَ ما طلبوا من بابِ الفتنةِ، ومن بابِ الاستدراجِ، أو أنه يُصادِف ذلك قضاءً وقدراً من اللهِ سبحانه وتعالى في إعطائِهم هذا الشيءَ، فيظنونَ أنه بسببِ القبورِ، وهو في الواقعِ بقضاءِ اللهِ وقدرِهِ، فحصولُ المطلوبِ لا يدلُّ على صحةِ الطلبِ، إنما الاحتجاجُ يكونُ بكتابِ اللهِ وسنةِ رسولِهِ ﷺ، لا بالعاداتِ، والتقاليدِ، والحكاياتِ، والمناماتِ، والخُرافاتِ، أو أن فلاناً قد حَصَلَ له كذا، فلانٌ ذهبَ إلى القبرِ الفلاني، فلانةٌ ذهبَتْ إلى القبرِ الفلانيِّ فَحَمَلَتْ، هذا ليسَ بدليلٍ أبداً، لأنَّ إعطاءَ الإنسانِ شيئاً مما يحتاجُ إليه، لا يدلُّ على صحةِ ما ذهبَ إليه، أو ما فعلَ من الشركِ والعاداتِ السيئةِ.

يقولُ شيخُ الإسلامِ: «**قد يَرَوْنَ عندَ القبورِ أو يسمعونَ عندَ القبورِ مَنْ يُكلِّمُهم، أو يخرجُ عليهم من القبرِ ويقولُ: أنا فلانٌ الذي تطلبُ، وأنا أقضي حاجتَكَ. يتمثلُ لهم الشيطانُ، ليسَ هو الميتُ، وإنما هو الشيطانُ، يتمثلُ لهم بصورةِ الميتِ، ويخاطبُهم، وقد يجلبُ لهم شيئاً مما يطلبونَ من بعيدٍ، وهو شيطانٌ يريدُ أن يُضلَّهم، ويريدُ أن يُهلكَهم، وأن يُغرِّرَ بهم**»[(١)].

فحصولُ المقصودِ لا يدلُّ على صحةِ العملِ، وكذلكَ كونُهم يشاهدونَ الشخصَ الذي بصورةِ الميتِ، أو يسمعونَ كلاماً يكلِّمُهم، كلُّ هذا ليسَ بحجَّةٍ، لأنَّ هذهِ أعمالٌ شيطانيةٌ، يتمثَّلُ لهم الشيطانُ في صورةِ الميتِ، أو يكلمُهم بصوتِ الميتِ، وهو شيطانٌ يريدُ أن يُضلَّهم عن سبيلِ اللهِ، أو يُعطيَهم بعضَ الحوائجِ، لأنَّ الشيطانَ يستطيعُ أن يسيرَ إلى الأمكنةِ البعيدةِ، وحملَ الأشياءِ والمجيءَ بها، وتَحْضيرَها، والجنُّ يتعاونونَ على هذا الشيءِ ويُحْضِرونَ مطلوبَ

(١) «مجموع الفتاوى» (١/ ١٨٧).

هؤلاءِ، ويُعطونَهم إياه.

الحاصلُ؛ أنها كلَّها أعمالٌ شيطانيةٌ، لأنَّها مخالفةٌ لكتابِ اللهِ وسنَّةِ رسولِهِ ﷺ، وهذهِ من البلايا، يعني: كَوْنهم يحتجّونَ بأنَّ فلاناً شَفِيَ لمَّا ذهبَ إلى القبرِ، فلانةً حَمَلتْ لما ذهبَتْ إلى القبرِ، فلاناً أُعْطِيَ كذا وكذا، وهذا ليسَ بحجَّة أبداً. هذا فتنةٌ وابتلاءٌ وامتحانٌ، وهو من أعمالِ الشياطينِ.

قد يقولونَ: إنه رأى الميِّتَ في الرُّؤيا، وأنه قالَ له كذا وكذا، والرُّؤيا هذهِ من الشَّيطانِ، الشَّيْطانُ قد يأتي النائمَ ويُكلِّمُه، أو يتمثلُ له بصورةِ مَنْ يعرفُ من الأمواتِ، يأتيه في الرُّؤيا وهو شيطانٌ، لأنه ليسَ كلُّ رؤيا تكونُ صحيحةً، الرؤيا على ثلاثةِ أقسامٍ:

رُؤيا هي حديثُ نفسٍ، وأضغاثُ أحلامٍ، لا أصلَ لها.

والقسم الثاني: من الشيطانِ، جاءهُ فقال له في الرؤيا: اعمَلْ كذا، أو اطلُبْ كذا، أو اذهَبْ إلى كذا، وهي رُؤيا شيطانيةٍ، خصوصاً إذا كانَ الإنسانُ نامَ على غيرِ وِرْدٍ؛ لم يقرَأْ آيةَ الكرسيِّ عندَ النومِ، ولم يقرأْ سورةَ الإخلاصِ والمعوذتينِ عندَ النوم، فإنه يتسلَّطُ عليهِ الشيطانُ من أجلِ أن يُضلَّه، أو من أجلِ أن يُكدِّرَ عليه نومَهُ، ويُزْعجَهُ، لأنه يأتيهِ بمُزْعجاتٍ، يرى أشياءَ يكرَهُها.

القسم الثالث: هي الرُّؤيا الصحيحةُ، وهي التي تَجْري على يدِ المَلَك، هذه الرؤيا الصحيحةُ وليس فيها تضليلٌ، وإنَّما فيها خيرٌ، وهي جزءٌ من النبوّةِ -كما في الحديثِ-[1]، وهي من المُبشِّراتِ، لكن هذهِ لا تحصلُ إلَّا لأهلِ الإيمانِ في الغالبِ، وقد تحصُلُ الرُّؤيا للكفّارِ لحكمةٍ يريدُها اللهُ سبحانه وتعالى، كما

(١) أخرجه البخاري (٦٩٨٣) ومسلم (٢٢٦٣).

حصلَتْ للملكِ في قصةِ يوسفَ عليه السلام، والملِك كان كافراً، هذهِ رؤيا صحيحةٌ جرَتْ لكافرٍ لأمرٍ أرادَ اللهُ، وهو: الإرهاصُ ليوسفَ عليه السلام من أجلِ أن يُكْرِمَهُ اللهُ بتأويلِ هذهِ الرؤيا، ويتبيَّنَ عملُهُ وفضلُه، ثمّ يُخرجَ من السجنِ، ثمّ يصلَ إلى درجةِ المُلك.

الحاصلُ؛ أنَّ الرؤيا، لا يُعتمَدُ عليها في العباداتِ لأنَّ العباداتِ -ولا سيَّما التّوحيدُ- لا يُبنى إلَّا على دليلٍ من كتابِ اللهِ أو من سنَّةِ رسولِهِ ﷺ، أو إجماعِ المسلمين، أما المناماتُ والرُّؤى والحكاياتُ هذه كلُّها لا تُبْنى عليها الأحكامُ الشرعيةُ.

لو جاءك واحدٌ في الرؤيا وقالَ لك: صلِّ كذا وكذا من الصَّلواتِ، أو صُمْ، لم يُجزِ العملُ بهذهِ الرؤيا، لأنَّ التشريعَ انتهى، ما هناكَ دليلٌ إلَّا من الكتابِ أو السنةِ، فليس هناكَ تشريعٌ بعدَ وفاةِ رسولِ اللهِ ﷺ، ولا سيّما في أمورِ التوحيدِ، وأمور العقيدة، فهؤلاءِ الذين شرّعوا في أمور العقيدة، فبنوا الأضرحة على القبور، والرسولُ ينهى عن ذلكَ، وطافوا بها، وتقربوا إليها، كلُّ هذا منافٍ للكتابِ والسنةِ، لأنَّ اللهَ سبحانه وتعالى لم يشرَعْ لنا هذهِ الشركيّاتِ، وهذهِ الخرافاتِ، وهذه البِدعيّاتِ والمحدثاتِ.

* * *

الباب الثامن عشر:

بَابٌ قَولُ الله تَعَالَى

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ الآية [سورة القصص: ٥٦].

غرضُ المصنّفِ رحمه الله مِنْ عَقْدِ هذا البابِ: الردُّ على الذينَ غَلَوْا في النبيِّ ﷺ، وعلى المشركينَ الذين يتعلَّقونَ بالأولياءِ والصالحينَ، يدعونَهم من دونِ اللهِ، ويستغيثون بهم، لأنه إذا كانَ رسولُ اللهِ ﷺ لم يملِكْ لعمِّه أبي طالبٍ شيئاً، وأنه نُهي عن الاستغفارِ له، ففي حقِّ غيرِ النبيِّ ﷺ من بابِ أولى، فدلَّ ذلكَ على أنه ﷺ لا يُدعى مِنْ دونِ اللهِ، ولا يُطْلَبُ منه شيءٌ من الأمورِ التي لا يَقْدِرُ عليها إلَّا اللهُ، لأنه لم يملِكْ هذا لعمِّهِ أبي طالبٍ معَ حرصِهِ على نفعِهِ، وعاتبَهُ اللهُ بقوله: «﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾»، وبقولِهِ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾، فإذا كانَ هذا في حقِّ النبيِّ ﷺ، وهو أفضلُ الخلقِ، دلَّ على أنه لا يُدعى من دونِ اللهِ، ولا يُطلَبُ منهُ شيءٌ من الأمورِ التي لا يَقْدرُ عليها إلَّا اللهُ، فغيرُهُ من بابِ أولى من الأولياءِ، والصالحينَ، وأصحابِ الأضرحةِ، مهما بلَغوا من الصلاحِ، ومهما بلغوا من المكانةِ في الدِّينِ، فإنهم لا يُطلَبُ منهم إلَّا ما يقدرونَ عليه من أمورِ الدُّنيا، إذا كانوا على قيدِ الحياةِ، أمَّا أمورُ الهدايةِ، وأمورُ قضاءِ الحاجاتِ التي لا يقدرُ عليها إلَّا اللهُ من شفاءِ المرضى، وإنزالِ المطرِ، وجلبِ الأرزاقِ، وإعطاءِ الأولادِ، هذا كلُّه لا يُطلبُ إلَّا من اللهِ سبحانه وتعالى، ولا يطلبُ من غيرِ اللهِ، لا من نبيٍّ، ولا مِنْ وليٍّ، ولا من أيِّ مخلوقٍ، ومن طلبَهُ من غيرِ اللهِ فهو مشركٌ الشركَ الأكبرَ المخرجَ من الملّةِ.

فهذا غرضُ المصنّفِ رحمه الله من عقدِ هذا البابِ.

وَفِي الصَّحِيحِ[1] عَنِ ابنِ المُسَيِّبِ عَن أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الوَفَاةُ، جَاءَهُ رَسُولُ الله ﷺ وَعِنْدَهُ عَبْدُالله بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ، وَأَبُو جَهلٍ، ....

قال: «**في الصحيح**» يعني: في الصحيحينِ صحيحِ البخاريِّ وصحيحِ مُسلِم.

«**عن ابن المسيّب**» هو: سعيدُ بنُ المسيّبِ بن حَزَن بنِ أبي وهبٍ المخزوميُّ، أحدُ أكابرِ التابعين، وكانَ له منزلةٌ في العلمِ عظيمةٌ، فهو من أكبرِ علماءِ التابعينَ، وهو أحدُ الفقهاءِ السبعةِ الذين انتهَتْ إليهم الفتوى في الدُّنيا في زمانِهِم.

وأبوهُ المسيّبُ بنُ حَزَن، صحابيٌّ، وجدُّهُ الحَزَن -أيضاً- صحابيٌّ، فهو من كبارِ التابعينَ، وأبوه وجدُّه صحابيّانِ.

«**عن أبيه**» المسيّب.

«**قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة**» معناه: قاربَ الوفاةَ، وليس المرادُ أنه نزَلَ به الموتُ، لأنه إذا نزَلَ الموتُ بالمُحْتَضِر، وبلغَتِ الروحُ الغرغرةَ لا تُقبَلُ منه توبةٌ، كما جاءَ في الحديثِ: «**إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ**»[2] فالمرادُ بهذا - واللهُ أعلمُ- أنه لما حضرَتْهُ الوفاةُ وظهرَتْ عليه علاماتُ الموتِ قبلَ أن تبلغَ روحُه الغرغرةَ، وقبلَ أن يأتيَ الوقتُ الذي لا تُقبَلُ منه التوبةُ. ويَحتملُ أنه حضرَتْهُ الوفاةُ يعني: بلغَ نزعُ الرُّوحِ، فيكون هذا خاصّاً بأبي طالبٍ، وأما غيرُهُ فإذا وصَلَ إلى هذا الحدِّ فإنه لا تُقبَلُ منه توبةٌ. واللهُ أعلمُ.

وأبو طالبٍ هو: أبو طالب بنِ عبدالمطّلبِ، عمُّ الرسولِ ﷺ، كَفَل الرَّسولَ ﷺ بعدَ موتِ جدِّه عبدِالمطّلِبِ، وبقي أبو طالبٍ حولَ الرسولِ ﷺ قبل البعثةِ وبعدَ البعثةِ، يدافعُ عنه، ويحميهِ، إلى سنةِ ثمانٍ من البعثةِ، وهو لم يفارِقْهُ، يُدافِع

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٠) ومسلم (٢٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٣٧) وابن ماجه (٤٢٥٣).

فَقَالَ لَهُ: «يَا عَمِّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ».

عنه، ويَحْميه من أذى قومِهِ، ويصبرُ معه على مضايقاتِ المشركينَ، وبذَلَ معه شيئاً كثيراً، وحرصَ النبيُّ ﷺ على هدايتِهِ، لعلَّ اللهُ أن ينقذَهُ من النَّارِ، ومن ذلكَ أنه لما حضَرَتْهُ الوفاةُ جاءَ إليه، وهذا مِنْ حرصِهِ ﷺ على الدعوةِ إلى اللهِ خُصوصاً مع أقارِبِهِ، ففيهِ حرصُهُ ﷺ على الدعوةِ إلى اللهِ، وصبرِهِ على ذلكَ.

«**وعنده عبدالله بن أبي أمية المخزومي، وأبو جهل**» المخزوميُّ، أما عبدُاللهِ ابنُ أبي أميةَ فقَدْ منَّ اللهُ عليهِ بالإسلامِ فأسلَمَ، وأما أبو جهلٍ عمرُو بنُ هشامٍ -قبَّحَهُ اللهُ- فهذا ألدُّ أعداءِ الإسلامِ، وأعظمُ الذينَ آذوا رسولَ اللهِ ﷺ، وسمّاه رسولُ اللهِ ﷺ: «**فرعون هذه الأمّة**»(١)، وقُتِل يومَ بدرٍ، وهو الذي قادَ المشركينَ إلى بدرٍ، وهو الذي حرَّضَهم على رسولِ اللهِ ﷺ، فقُتل معَ صناديدِ قريشٍ في غزوةِ بدرٍ كافراً -والعياذ بالله-.

«**فقال له**» أي: قالَ النبيُّ ﷺ لأبي طالبٍ.

«**يا عم**» هذا فيه استعطافٌ.

«**قل: لا إله إلَّا الله**» يعني: انطِقْ بهذِهِ الكلمةِ، معتقداً لها بقلبِكَ.

«**كلمة أحاج لك بها عند الله**» «**كلمة**» منصوبٌ على أنه بدلٌ من: لا إله إلَّا الله، لأنَّ لا إله إلَّا الله في محلِّ نصبٍ، مقولِ القَوْلِ، و(كلمة) بدلٌ منها، وبدلُ المنصوبِ منصوبٌ، لأنه أحدُ التوابعِ الأَرْبعِ.

«**أحاج لك بها عند الله**» يعني: أشهدُ لكَ بها عندَ اللهِ يومَ القيامةِ، من أجلِ نجاتِك من النارِ، و«**أحاج**» مجزومٌ على أنه جوابُ الأمرِ، وحُرِّك بالفتحِ من أجلِ التقاءِ الساكنينِ، وإلَّا أصله: أحاجج، فأدغَمْتُ الجيمَ في الجيمِ فصارَتْ أحاج،

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٣) والنسائي في «الكبرى» (٦٠٠٤) والبيهقي (٩/ ٦٢).

فَقَالَا لَهُ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِالمُطَّلِبِ؟، فَأَعَادَ عَلَيهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَعَادَا، فَكَانَ آخِرَ مَا قَالَ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِالمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله.

التقى ساكنانِ، فحُرِّك بالفتح للتخلُّصِ من التقاءِ الساكنينِ.

بيّنَ له ﷺ فائدةَ ذلك، ترغيباً له.

ففيهِ أنَّ الداعيةَ إلى اللهِ يبيِّنُ للناسِ الترغيبَ، يُرغبُهم في الخيرِ، ويبيّنُ لهم العواقبَ الحسنةَ إنِ اسْتَجابوا، ويُحذِّرُهم من العواقبِ الوخيمةِ إنْ لم يَسْتجيبوا، فالداعيةُ يبشِّرُ وينذرُ.

ولكنَّ جلساءَ السوءِ -والعياذُ باللهِ- تسبَّبوا في شقاوةِ هذا الرجلِ: «**فقالا له**» قالَ: أبو جهل وعبدُالله بنِ أمية لأبي طالبٍ معارضين لرسولِ اللهِ ﷺ: «**أترغب عن ملة عبدالمطلب؟**» أي: أتترك ملّة أبيك؟، وهذا من إثارةِ النخوةِ الجاهليةِ، والحميّةُ الجاهليةُ، وهي: التعصّبُ الممقوتُ، وأتيا بالحجةِ الملعونةِ، وهي: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾، وهذه يحتجُّ بها المشركونَ، إذا جاءَتْهم الرُّسُلَ قالوا: نحنُ وجَدْنا آباءَنا على هذا، لا نقدرُ أن نتركَ دينَ آبائِنا ونتبعَكم. وفرعونُ لمَّا جاءَه موسى وهارونُ عليه السلام قال: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾﴾، يحتجُّ عليهم بما كانَتْ عليهِ القرونُ الأولى من الكفرِ والشركِ، فهي حجَّةٌ مطّردةٌ عندَ المشركينَ، الاحتجاجُ بما عليه النّاسُ، والآباءُ، والأجدادُ، وهذه الحجَّةُ حالَتْ بينَ كثيرٍ من النّاسِ وبينَ الإيمانِ -والعياذُ باللهِ- إلَّا مَنْ هداهُ اللهُ.

«**فأعاد عليه رسول الله ﷺ**» هذا فيه: أَنَّ الداعيةَ لا ييأسُ، أي: طلَبَ منه أن يقولَ: لا إله إلَّا الله.

«**فأعادا عليه**» أعادَ عليه الرّجلانِ، قولَتَهم القبيحةَ: «**أترغب عن ملّة عبدالمطّلب؟**».

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ» فَأَنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة التوبة: ١١٣].

فعندَ ذلكَ أخذَتْهُ الحميّةُ الجاهليةُ، فقال: «**هو على ملة عبدالمطّلب**».

«**هو**» هذا ضميرُ الغائبِ، يَحتملُ أنَّ الرّاوي صرَفَهُ، ولم يَقُلْ: أنا، من بابِ كراهةِ هذا اللّفظِ.

وجاء في بعضِ الرواياتِ: «**أنا على ملّة عبدالمطّلب**».

«**وأبى أن يقول: لا إله إلّا الله**» وماتَ -والعياذُ باللهِ- على الشركِ.

فعندَ ذلكَ النَّبي ﷺ من شفقَتِهِ على عمِّه، ولما رأى أنهُ ماتَ على الشركِ، وكان منه في حياتِهِ من النُّصرةِ والتأييدِ قال: «**لأستغفرنّ لك ما لم أُنه عنك**» هذا كلُّه من كمالِ شفقتِهِ ﷺ، ومن مجازاتِهِ على المعروفِ، ووفائِهِ ﷺ.

«**فأنزل الله سبحانه**: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾» نهاه اللهُ عن ذلكَ، ونهى المؤمنينَ، لأنَّ المسلمينَ لما رأَوْا رسولَ اللهِ ﷺ يستغفرُ لعمِّه قالوا: إذاً نستغفرُ لموتانا، فأنزلَ اللهُ هذهِ الآيةَ.

﴿مَا كَانَ﴾ أي: لا يليقُ ولا ينبغي، وهذا خبرٌ معناه: النَّهي والتحذيرُ.

«﴿لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾» المشركُ لا يجوزُ الاستغفارُ له ولا التّرحمُ عليه إذا ماتَ على الشركِ، وكذلكَ في حالةِ الحياةِ فالمشركُ لا يُستغفرُ له وهو حيٌّ، ولا يُترحّمُ عليه، وإنما يُطلَبُ له الهاديةُ، يُقال: اللهمَّ اهدِهِ، أما الاستغفارُ والترحُّمُ فإنه لا يجوزُ للمشركينَ، لا أحياءً ولا أمواتاً، لأنه لا تجوزُ محبّتُهُم وموالاتُهم ما داموا على الشركِ، وإبراهيمُ عليه السلام استغفرَ لأبيهِ لأنه وعدَهُ أن يستغفرَ له، ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾.

وَأَنزَلَ اللهُ فِي أَبِي طَالِبٍ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾.

«وأنزل الله في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾» ﴿إِنَّكَ﴾ أيُّها الرسولُ، ﴿لَا تَهْدِي﴾ لا تملِكُ هدايةَ ﴿مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ مِنْ أقاربك وعمِّك، والمرادُ بالمحبةِ هنا: المحبةُ الطبيعيةُ، ليسَتِ المحبةُ الدينيّةُ، فالمحبةُ الدينيّةُ لا تجوزُ للمشركِ، ولو كانَ أقربَ النّاسِ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾، فالمودّةُ الدينيّةُ لا تجوزُ، أما الحبُّ الطبيعيُّ فهذا لا يدخلُ في الأمورِ الدينيّةِ.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ فنفى سبحانه وتعالى عن نبيِّه محمَّدٍ ﷺ أنه يملكُ الهدايةَ لأحدٍ، كما قالَ تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾، قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣].

فإنْ قلتَ: أليسَ اللهُ جلَّ وعلا قالَ في الآيةِ الأخرى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾، فأثبتَ في هذهِ الآيةِ أنَّ الرسولَ يَهْدي إلى صراطٍ مستقيمٍ؟.

فالجوابُ عن ذلك: أنَّ الهدايةَ هدايتانِ: هدايةٌ يملِكُها الرسولُ ﷺ، وهدايةٌ لا يملِكُها.

أما الهدايةُ التي يملِكُها الرسولُ فهي: هدايةُ الإرشادِ والدعوةِ والبيانِ ويملِكُها كلُّ عالمٍ يدعو إلى الخيرِ.

أما الهدايةُ المنفيّةُ فهي: هدايةُ القلوبِ، وإدخالُ الإيمانِ في القلوبِ، فهذه لا يملكُها أحدٌ إلّا اللهُ سبحانه وتعالى.

فنحنُ علينا الدعوةُ، وهدايةُ الإرشادِ والإبلاغُ، أما هدايةُ القلوبِ فهذهِ بيدِ اللهِ سبحانه وتعالى، لا أَحد يستطيعُ أَنْ يُوجدَ الإيمانَ في قلبِ أحدٍ إلَّا اللهَ عز وجل، هذا هو الجوابُ عن الآيتينِ الكريمتينِ.

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۝٧﴾ [القلم: ٧]، فلا يضَعُ هدايةَ القلبِ إلا فيمن يستحقُّها، أما الذي لا يستحقُّها فإنَّ اللهَ يَحْرِمُهُ منها، واللهُ عليمٌ حكيمٌ جلَّ وعلا، ما يُعطي هدايةَ القلبِ لكل أحدٍ، وإنما يُعطيها سُبحانه مَنْ يعلمُ أنه يستحقُّها، وأنه أهلٌ لها، أما الذي يعلمُ منه أنه ليسَ أهلاً لها، ولا يستحقُّها، فإنَّ اللهَ يَحْرِمُهُ منها، ومن ذلكَ حرمانُ أبي طالبٍ، حرمَهُ اللهُ من الهدايةِ لأنه لا يستحقُّها، فلذلكَ حرمَهُ منها، والحرمانُ له أسبابٌ:

ومنها: التعصُّبُ للباطلِ، وحميّةُ الجاهليةِ تسبّبانِ أنَّ الإنسانَ لا يُوفِّقُهُ اللهُ جلَّ وعلا، فمن تبيّنَ له الحقُّ ولم يقبَلْه فإنه يعاقَبُ بالحرمانِ -والعياذُ باللهِ-، يعاقَبُ بالزّيغِ والضّلالِ، ولا يُقبَلُ الحقُّ بعدَ ذلك، فهذا فيه الحثُّ على أَنَّ من بلغَهُ الحقُّ وجَبَ عليه أن يقبلَه مباشرةً، ولا يتلكّأُ ولا يتأخَّرُ، لأنه إنْ تأخَّرَ فحريٌّ أن يُحْرَم منه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾، ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وهذا الحديثُ معَ الآيةِ يدُلان على مسائلَ عظيمةٍ:

المسألة الأولى: فيه مشروعيةُ الدعوةِ إلى اللهِ سبحانه وتعالى، فإنَّ الرسولَ ﷺ أتى عمَّه وهو في سياقِ الموتِ، من أجلِ ماذا؟، من أجلِ الدعوةِ إلى اللهِ عز وجل، ففيهِ: الدعوةُ إلى الله، وأنَّ الداعيةَ لا ييأسُ، ولا يقنطُ من القَبولِ، أو يَكْسل عن مواصلةِ الدعوةِ، ويقولُ: النّاسُ ما هم بقابلين، النّاسُ ما فيهم خير، الإنسانُ

يدعو إلى اللهِ، من قَبِل فالحمدُ لله، ومن لم يَقْبلْ قامَتْ عليه الحجّةُ، وحصَلَ الأجرُ للداعيةِ.

المسألة الثانية: في الحديثِ دليلٌ على مشروعيةِ عيادةِ المريضِ المُشْركِ من أجلِ دعوتِهِ إلى اللهِ عز وجل، فإنَّ الرسولَ عادَ عمَّه وهو مشركٌ من أجلِ دعوتِهِ إلى اللهِ.

المسألة الثالثة: -وهي مهمةٌ جدّاً-: أَنَّ من قالَ: لا إله إلَّا الله فإنه يُقبَلُ منه، ويُحكَمُ بإسلامِهِ، ما لم يظهَرْ منه ما يُناقضُ هذهِ الكلمةَ من قولٍ أو فعلٍ، فإن ظَهَر منه ما يناقضُ هذهِ الكلمةَ حُكِمَ بردَّتِهِ، أما ما لَمْ يظهَرْ منه ما يناقضُ هذهِ الكلمةَ، فإنه يُحكَم بإسلامِهِ، فإن كانَ صادقاً فيما بينَه وبينَ اللهِ، فهو مسلمٌ حقّاً، وإن كانَ كاذباً فيما بينه وبينَ اللهِ فهو مُنافِقٌ، أمرُهُ إلى اللهِ عز وجل، أما نحنُ فليسَ لنا إلّا الظاهرُ.

المسألة الرابعة: في الحديثِ دليلٌ على أنَّ الأعمالَ بالخواتيمِ، فأبو طالبٍ عاشَ على الكفرِ والشركِ، لكنه لو قالَ: لا إله إلَّا الله عندَ الوفاةِ، واستجابَ للرسولِ ﷺ لختِمَ له بالإسلامِ، فدلَّ على أنَّ الأعمالَ بالخواتيمِ، وهذا يُصدِّقُه قولُ الرسول ﷺ في حديثِ عبدِالله بنِ مسعود: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا**»[١] فالأعمالُ بالخواتيمِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٨) ومسلم (٢٦٤٣).

المسألة الخامسة: فيهِ التحذيرُ من جلساءِ السوءِ، ماذا جرَّ على أبي طالبٍ هؤلاءِ الجلساءُ، وماتَ على الكفرِ بسببِ مشورتِهما -والعياذُ باللهِ-.

المسألة السادسة: في الحديثِ ردٌّ على مَنْ زعَمَ إسلامَ أبي طالبٍ من الشيعةِ والخرافيينَ لأنَّ آخرَ ما قال: هو على ملةِ عبدِالمطلبِ وأبى أَنْ يقولَ لا إله إلَّا الله.

المسألة السابعة: وهي عظيمةٌ جدّاً: تفسيرُ لا إله إلَّا الله كما يقولُ الشَّيخُ رحمه الله، وأنَّ معناها: تركُ عبادةِ غيرِ اللهِ، لأنَّ أبا جهلٍ وزميلَه فَهِما أنه إذا قال: لا إلَّا إلَّا الله فقَدْ ترَكَ ملّةَ عبدِالمطّلبِ، وأن لا إله إلَّا الله ليسَتْ مجرّدَ كلمةٍ تُقال، وإنَّما هي كفرٌ بالطّاغوتِ وإيمانٌ باللهِ عز وجل، بخلافِ ما يعتقِدُهُ كثيرٌ من الخرافيينَ في هذا الزمانِ، يقولون: لا إله إلَّا الله، ويقولونَ: يا حسينُ، ويا فلانُ ويذبحونَ للمَوْتى، ويستغيثونَ بهم، وهُمْ يقولونَ: لا إله إلَّا الله!!، بل لهم أورادٌ صباحيَّةٌ ومسائيةٌ يقولونَها بالمئاتِ، ثمّ يذبحونَ للضريحِ ويطوفونَ به، ويستغيثونَ به.

فدلَّ على أَنَّ أبا جهلٍ أَفْهَمُ منهم بمعنى لا إله إلَّا الله، لأنَّ أبا جهلٍ فَهِم أنَّ معنى لا إله إلَّا الله: تركُ عبادةِ الأوثانِ، وهؤلاءِ ما فهموا هذا، ما فَهِموا أن لا إله إلَّا الله؛ معناها تركُ عبادةِ القبورِ، وهذا من الفقهِ العظيمِ، وهذه هي العقيدةُ الصحيحةُ، والداعي إلى اللهِ يجبُ أن يفهمَ هذا الفقهَ، لأنَّ هذا هو فقهُ الدعوةِ.

المسألة الثامنة: فيه الردُّ على المرجئةِ، الذينَ يقولونَ: إنَّ الإيمانَ هو مجرّدُ المعرفةِ أو الاعتقادِ، فإذا عرَفَ الإنسانُ بقلبِهِ أو اعتقدَ أنه لا إله إلَّا اللهُ وأنَّ محمَّداً رسولُ الله، ولو لم يعمَلْ؛ فإنه يكونُ مسلماً، لأنَّ الأعمالَ ليسَتْ شرطاً في الإيمانِ، بل مجرَّدُ المعرفةِ أو الاعتقادِ بالقلبِ يكفي عندَهم، وهذا باطلٌ، لأَنَّها لم تعتَبرْ معرفةُ أبي طالبٍ لرسالةِ النبيِّ ﷺ، لم تعتبَرْ إسلاماً، واللهُ تعالى قالَ عن

المشركين: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: ٣٣]، فهم يعرفونَ أنه رسولُ الله، لكنَّ الكِبرَ والحميةَ الجاهليةَ، جعلَتْهُم لا يقبلونَ الدعوةَ، مع أنَّهم يعرفونَها بقلوبِهم، واللهُ جلَّ وعلا حكى عَنْ موسى عليه السلام أنه قالَ لفرعونَ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ففرعونُ عارفٌ بقلبِهِ صحّةَ ما جاءَ به موسى، ولكِنْ منعَهُ الكِبرُ والمُعاندةُ، وقال تَعالى عن المشركينَ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾، وأيضاً قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فاليهودُ يعرفونَ أنه رسولُ اللهِ -أيضاً- كما قالَ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ يعرفونَ أنه رسولُ الله.

وكانَ أبو طالبٍ يعرفُ أنه رسولُ الله، وصرّحَ بهذا في قصائدِهِ، يقولُ:[١]

«ولقد علمت أن دين محمَّد ... من خير أديان البرية ديناً

لولا الملامة أو حذار مسبة ... لرأيتني سمحاً بذاك مبيناً»

فالذي منعه هو ما جاءَ في هذا الحديثِ: أبى أن يقولَ: لا إله إلَّا الله وقال: «وهو على ملّة عبدالمطّلب»، وهو يعرفُ أنه رسولُ اللهِ.

المسألة التّاسعة: فيه تحريمُ الاستغفارِ للمشركينَ، والترحُّم عليهم، وموالاتِهم، ومحبّتِهم، لأنَّ اللهَ جلَّ وعلا يقولُ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن

(١) «سيرة ابن إسحاق» (٢/ ١٣٦).

يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾.

المسألة العاشرة: فيه التحذيرُ من التعصُّبِ لدينِ الآباءِ والأجدادِ إذا كانَ يخالفُ ما جاءَتْ به الرسُلُ، فإنَّ الذي حمَلَ أبا طالبٍ على ما وقَعَ فيه هو التعصُّبُ لدينِ عبدِالمطّلبِ، وأنه سببٌ لسوءِ الخاتمةِ -والعياذُ باللهِ-، فَلْيحذَرِ المسلمُ من هذا. الواجبُ على المسلمِ أن يقبلَ الحقَّ ولو خالفَ ما عليه آباؤُهُ وأجدادُهُ، أما إذا كان آباؤُهُ وأجدادُهُ على حقٍّ، فاتباعُهُم حقٌّ، ويوسفُ عليه السلام يقولُ: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

فاتباعُ الآباءِ والأجدادِ على الحقِّ مشروعٌ.

المسألة الحادية عشرة: وهي المقصودةُ بالذّاتِ من عقدِ هذا البابِ، وهي: الردُّ على المشركينَ الذينَ يتعلّقونَ بالأولياءِ والصالحينَ، ويدعونَهم من دونِ اللهِ، لأنهُ إذا كانَ الرسولُ ﷺ لم يملِكْ لعمِّه أبي طالبٍ الهدايةَ فغيرُهُ من بابٍ أولى، وهذه هي المناسِبةُ للتّرجمةِ.

واللهُ تعالى أعلمُ.

* * *

الباب التاسع عشر:

بَاب ما جاء أن سَبَب كُفر بني آدمَ وتركِهم دينَهم هو الغلوُّ في الصالحين

قال الشيخُ رحمه الله: «باب ما جاء» يعني: ما وردَ من الأدلةِ من أَنَّ «سبب كفر بني آدم» السَّببُ في اللغةِ: ما يُتوصَّلُ به إلى الشيءِ، ولذلكَ سُمِّي الحبلُ سبباً، قال تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ يعني: فليَمْدُدْ بحبلٍ إلى السماءِ. أما السَّببُ عندَ الأصوليينَ فهو: ما يلزمُ مِنْ عدمِهِ العدمُ، ولا يلزمُ من وجودِهِ وجودٌ ولا عدمٌ لذاتِهِ.

«كفر بني آدم» يعني: كفرُهم باللهِ عز وجل.

«وتركهم» بالجرِّ عطفاً على (كفرِ) المُضاف إليهِ، لأنَّ المعطوفَ على المجرورِ مجرورٌ.

«دينهم» دينهم منصوبٌ على المفعوليّةِ، لأنَّ المصدرَ إذا أضيفَ أَوْ دخلَتْ عليه «ال» فإنه يعملُ عملَ فِعْلِهِ.

«هو الغلو في الصالحين» الغلو في اللغةِ: هو الزيادةُ عن الحدِّ، يُقالُ: غَلى القِدْرُ إذا زادَ ومنه يقالُ: غَلَى السِّعْر؛ إذا زادَ في الأسواقِ، فالغلو في اللغةِ: هو الزيادةُ عن الحدِّ.

أما في الشرعِ: هو الزيادةُ عن الحدِّ المشروعِ، يسمَّى غلوّاً، ويُسمَّى طُغياناً.

والغلو في الصالحينَ، هو: الزيادةُ في مدحِهم، ورفعِهم فوقَ مكانتِهم؛ بأنْ يُجعلَ لهم شيءٌ من العبادةِ.

* * *

وَقَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [سورة النساء: ١٧١].

قال: «**وقول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾**» المرادُ بأهلِ الكتابِ: اليهودِ والنَّصارى، سُمّوا بأهلِ الكتابِ: لأنَّ اللهَ سُبْحانه أنزلَ على أنبيائِهم الكتبَ. اليهودُ أنزلَ اللهُ على نبيِّهم موسى عليه السلام التوراةَ. والنَّصارى أنزلَ اللهُ على نبيِّهم عيسى -عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ- الإنجيلَ، فلذلكَ سُمُّوا أهلَ الكتابِ فَرْقاً بينهم وبين الأُمّيّينَ والوثنيّينَ الذينَ لا كتابَ لهم.

وهذا فيه تنبيهٌ على أنَّ المطلوبَ منهم أَنْ يتقيَّدوا بالكتابِ الذي أُنزِلَ عليهم، وعدمِ مجاوزتِهِ، وهو تنبيهٌ لكُلِّ عالمٍ بأن يتلزمَ الاعتدالَ.

«﴿لَا تَغۡلُواْ﴾» هذا نهيٌ من اللهِ تعالى لهم عن الغُلوِّ، لأنَّ الغلوَّ إما أَنْ يكونَ في شخصٍ، أو يكونَ في دينٍ.

والغلو في الشخص هو: المبالغةُ في مدحِهِ، ورفعِهِ فوقَ منزلتِهِ التي أنزلَهُ اللهُ فيها.

وأما الغلو في الدِّين فهو: الزيادةُ عن الحدِّ المشروعِ في العباداتِ، في مقاديرِها، أو في كيفيّتِها، كما في قصةِ الثَّلاثةِ الذي جاءوا يسألونَ عن عبادةِ النبيِّ ﷺ، فلمَّا أُخبروا بها كأنَّهم تقالّوها، ولكنَّهم قالوا: أين نحنُ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ وقد غُفِرَ له ما تقدَّمَ من ذنبِهِ وما تأخَّر؟، فقالَ أحدُهُم: أمَّا أنا فأُصلِّي ولا أنامُ، قال الآخرُ: أمَّا أنا فأَصومُ ولا أفطرُ، وقالَ الثالثُ: أما أنا فلا أتزوجُ النِّساءَ [يعني: يتبتّل]، وفي روايةٍ: لا آكلُ اللحمَ [من باب التّقشّف وحِرمان النفس]. هذا غلوٌّ أيضاً، فلما بلغَ ذلكَ النبي ﷺ قال لهم: «**أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَعْرَفَكُمْ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَخْشَاكُمْ للهِ، وَإِنِّي وَأُصَلِّي وَأَنَامُ،**

وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»(١)، هذا غلوٌّ نهى عنهُ الرسولُ ﷺ، وأمَرَ بالتَّوسُّطِ وعدمِ الغلوِّ.

ولما لُقِطَتْ له -عليهِ الصلاةُ والسلامُ- حصى الجمارِ أمثالَ حصى الخَذْف -يعني: أكبر من الحِمَّص بقليلٍ- أخذَها ﷺ في كفّه وقال: «**أَمْثَالَ هَؤُلَاءِ فَارْمُوا، وَإِيَّاكُمْ وَالغُلُوَّ؛ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الغُلُوّ**»(٢).

واليهودَ والنَّصارى غلَوْا في أَنْبيائِهِم، وغلَوْا في دينِهم -أيضاً-، غَلَوْا في أنبيائِهم، حيثُ قالتِ النَّصارى للمسيحِ: ابنُ اللهِ، فرفعوهُ فوقَ منزلةِ البشريةِ إلى منزلةِ الربوبيةِ ويسمُّونه الرَّبّ. وأما اليهودُ فقد غلوْا في عزيرٍ، قالوا: هو ابنُ اللهِ.

وكذلك النَّصارى غلوْا في دينِهم فابتدعوا الرهبانيةَ، وهي: التَّبتُّلُ والتَّعبُّدُ، ولزومُ الصّوامعِ، وعدمُ الخروجِ منها، رهبانيةً ابتدعوها، كما قالَ الله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾، هذا مِنَ الغُلو في الدِّينِ، قالَ تعالى: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾، وفي الآيةِ الأُخرى في سورةِ النساءِ يقولُ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۘ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٧١)﴾.

فكذلكَ الذين غلَوْا في الصالحينَ من هذهِ الأمةِ حتَّى عبدوهُم معَ اللهِ سبحانه وتعالى، وجعلوا لهم شيئاً من الرّبوبيّةِ والألوهيّةِ، سواءً بسواءٍ.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣) ومسلم (١٤٠١).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٠٢٩) والنسائي (٣٠٥٧).

فِي الصَّحِيحِ[(١)] **عَن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهما فِي قَولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [سورة نوح: ٢٣].**

قال: «**في الصحيح**» يعني: صحيح البخاريّ.

«**عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى**» يعني: في تفسيرِ قولِهِ تعالى: «﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾، **قال: هذهِ أسماءُ رجال صالحين من قوم نوح.. إلخ**».

قومُ نوحٍ لمَّا نهاهُمْ نبيُّ اللهِ نوحٌ -عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ- عن الشركِ، وأمرَهُم بعبادةِ اللهِ وحدَه لا شريكَ له؛ تواصَوْا فيما بينَهم بهذهِ الوصيّةِ الكافرةِ:

«﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾» يعني: لا تُطيعوا نوحاً عليه السلام، لا تَتْركوا آلهتَكم التي تعبدونَها من دونِ اللهِ.

﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ هذهِ أسماءُ رجالٍ صالحينَ، وكان هذا في الأوّلِ، لأنَّ النَّاسَ كانوا بعدَ آدمَ عليه السلام على دينِ التوحيد -كما قالَ ابنُ عباسٍ-، كانوا على دينِ التوحيدِ دينِ أبيهم آدمَ -عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ- عشرةَ قرونٍ، وكانَ هؤلاءِ الصالحونَ في هذا العهدِ -عهد التوحيد-، فلمَّا ماتوا -ويُروى: أنهم ماتوا في سنةٍ واحدةٍ- حزنوا عليهم حزناً شديداً، وبكوا عليهم، فاستغلَّ الشيطانُ -لعنَهُ اللهُ- هذهِ العاطفةَ فيهم، وأشارَ عليهم بمشورةٍ ظاهرُها النصحُ، وباطنُها الخديعةُ والمكرُ، أشارَ عليهم بأَنْ يُصوِّروا تماثيلَهم، يعني: يجعلوا لهم صوراً على شكلِ تماثيلَ، كلُّ واحدٍ له صورةٌ، وأَنْ يَنْصبوا هذهِ التماثيلَ على مجالسِهم؛ مِنْ أجلِ أن يَنْشطوا على

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٢٠)، وعنده بلفظ: وتنسَّخ العلم.

قَالَ: (هَذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ: أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِم الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَاباً، وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، وَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَنُسِيَ العِلْمُ عُبِدَتْ).

العبادةِ، إذا رأَوْهم تذكَّروا حالتَهم فنَشِطوا على العبادةِ، فهو جاءَهم مِنْ بابِ النُّصحِ، وأشارَ عليهم بمشورةٍ ظاهرُها الخيرُ، وأنَّ هذهِ وسيلةٌ للنشاطِ على العبادةِ، والتَّقوى، والصلاحِ، والاقتداءِ بهؤلاءِ، إذا رأَوْا صورَهم تذكّروا صلاحَهم وحالتَهم فاقتدوا بهم، هذا ظاهرُ نصيحتِهِ، ولكنَّه في الباطنِ يمكُرُ بهم، لأنه يَرْمي إلى مَرْمى بعيدٍ -لعنَهُ اللهُ-، ينظرُ إلى العواقبِ، إلى الأجيالِ القادمةِ، يُؤسِّسُ هذا الأساسَ للأجيالِ القادمةِ، وإلَّا فإنهُ يعرفُ أنَّ هؤلاءِ -ما دامَ العلمُ موجوداً، وما دامَ أنَّهم على التوحيدِ- لن يتركوا عبادةَ اللهِ عز وجل، فقَبِلوا هذهِ المشورةَ لأنَّ ظاهرَها أنَّها خيرٌ، وابتدعوا هذهِ البدعةَ.

وهذا دليلٌ على أنَّ البدعَ لا تجوزُ وإن كانَ ظاهرُها الخَيْر، وإن كانت نيَّةُ أصحابِها الخَيْرَ.

ابتدعوا هذهِ البدعةَ، وصوّروا هذه التماثيلَ على مجالسِ هؤلاءِ الصالحينَ ولم تُعبد في هذا الجيلِ، لأنَّهم على علمٍ وعلى دينٍ، لكن لما ماتَ هذا الجيلُ، ونُسي العلمُ -وفي رواية: نُسِخ العلمُ بموتِ العلماءِ-، لأنَّ الشيطانَ لا يتسلّطُ -في الغالبِ- معَ وجودِ العلماءِ، لأنَّ العلماءَ يكافحونَه، ويردُّونَ كيدَه، إنما يتسلّطُ عندَ عدمِ العلماءِ.

«**حتى إذا هلك أولئك، ونُسي العلم**» يعني: بموتِ العلماءِ الذي يُحذِّرونَ من الشركِ، «**عُبدت**» هذهِ الصورُ لأنَّ الشيطانَ قالَ لهم: إنَّ آباءَكم ما نَصَبوا هذهِ

وَقَالَ ابنُ القَيِّم[١]: (قَالَ غَيرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: لَمَّا مَاتُوا؛ عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِم، ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُم، ثُمَّ طَالَ عَلَيهِم الأَمَدُ فَعَبَدُوهُم).

الصورَ إلَّا من أجلِ أن يتقرّبوا إليها، ويُسْقَوْن بها المطرَ، فصدَّقُوهُ في هذا.

ومقالتُهُ لهذا الجيلِ المتأخِّرِ تخالِفُ مقالتَهُ للجيلِ السابقِ، هذا من بابِ المكرِ، فصدَّقوهُ في هذا فعبدوهُم، ومن حينِها حدَثَ الشركُ في الأرضِ، وغُيِّرَ دينُ آدمَ -عليهِ الصلاةُ والسلامُ- فبعثَ اللهُ نبيَّه نوحاً عليه السلام أوَّلَ الرُّسلِ.

وهذا أوَّلُ شركٍ حدَثَ في الأرضِ، وسببُهُ هو الغلو في الصالحينَ، ثم بعثَ اللهَ نبيّه نوحاً عليه السلام يَنْهى عن ذلكَ، ويريدُ ردَّهم إلى التوحيدِ، ولكِنْ لم يُؤْمِنْ معهُ إلَّا القليلُ كما قالَ اللهُ سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾، كما قالَ كفّارُ قريشٍ لما نَهاهُم محمَّدٌ ﷺ عن الشركِ: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ ءَالِهَتِكُمْ﴾ لا تطيعوا محمَّداً فدينُ المشركينَ واحدٌ من قديمِ الزمانِ وحديثِهِ.

***

«قالَ ابنُ القيّم» ابن القيّم هو: محمَّدُ بنُ أبي بكرِ بنِ أيوبَ الزرعيُّ الدمشقيّ، الإمامُ الجليلُ، الحافظُ، صاحبُ المصنّفاتِ المشهورةِ في التوحيدِ والأصولِ والفقهِ ومختلفِ العلومِ، وهو أكبرُ تلاميذِ شيخِ الإسلامِ ابنِ تيميّةَ -رحِمَهُما اللهُ- علماً وقدراً.

قال: «لما ماتوا» يعني: لما مات هؤلاءِ الصالحونَ. وهذا تفسيرٌ وتوضيحٌ لما قالَه ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما.

---

(١) «توضيح المقاصد وتصحيح القواعد» لابن القيم (٢/ ٣٦٠).

«**عَكَفوا على قبورهم**» العُكوف هو: طولُ البقاءِ في المكانِ، ومنه: الاعتكافُ في المساجدِ، كما عرّفَهُ الفقهاءُ بأنه: لزومُ مسجدٍ لطاعةِ اللهِ.

«**ثم صوّروا تماثيلهم**» هذهِ خطوةٌ ثانيةٌ.

«**ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم**» هذهِ خطوةٌ ثالثةٌ.

فهذه الآثار مع الآية الكريمة تدلّ على مسائل عظيمة:

المسألة الأولى: تحريمُ الغلو في الصالحينَ، بمعنى ما ذكرناهُ في الغلوِ، وأنه يؤولُ إلى الشركِ، فإنَّ غلوَّ قومِ نوحٍ في الصالحينَ آل بهم إلى الشركِ -والعياذُ باللهِ-، فهذا شاهدٌ للتّرجمةِ: «**باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين**» وهذا ظاهرٌ، فإنَّ ما وقَعَ في قومِ نوحٍ كان سببُهُ الغلو في الصالحينَ.

وفيه ردٌّ على عبّادِ القبورِ اليومَ، الذينَ يقولونَ: البناءُ على القبورِ من بابِ المحبةِ للصالحينَ. وكونُنا نستغيثُ بهم، ونستَشْفعُ بهم، ونذبحُ لهم، وننذَرُ لهم، ونتبرّكُ بتربتِهم، هذا ليسَ من الشركِ، هذا من بابِ محبةِ الصالحينَ. ويقولونَ: للذينَ يُنْكرون هذا أنتُمْ تُبْغِضونَ الصالحينَ. هكذا فسَّروا المحبةَ والبُغضَ، بأَنَّ المحبةَ: عبادتُهم، والبغضَ: تركُ عبادتِهم، هذا مِنْ انتكاسِ الفِطَرِ -والعياذُ باللهِ-.

فالآيةُ والأثرُ يردّانِ عليهم، لأنَّ هذا ليسَ من محبةِ الصالحينَ، وإنما هو الغلوّ فيهم الذي يؤولُ إلى الشركِ -والعياذُ باللهِ-.

المسألة الثّانية: في هذهِ الآثارِ دليلٌ على أنَّ الغلوَّ في الصالحينَ من سُنَّةِ اليهودِ والنَّصارى، قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾،

فالغلوُّ في الصالحينَ من سُنَّةِ اليهودِ والنَّصارى، وليسَ من سُنَّةِ المُسلمينَ، فهؤلاءِ القبوريّونَ سلفَهُم اليهودُ والنَّصارى، وبئس السَّلَفُ.

المسألة الثالثة: فيهِ التحذيرُ من التّصويرِ، ونشرِ الصُّورِ لأنَّ ذلك وسيلةٌ إلى الشركِ، فأولُ شركٍ حدَثَ في الأرضِ هو بسببِ المنصوبةِ، وهذه إحدى علّتي تحريمِ التصويرِ، لأنَّ التصويرَ ممنوعٌ لعلّتينِ:

العلة الأولى: أنه وسيلةٌ إلى الشركِ.

العلّة الثانية: أنَّ فيه مُضاهاةً لخلقِ اللهِ عز وجل.

وقد قالَ تعالى كما في الحديثِ القدسيِّ: «**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً**»(١)، فالمصوّرُ يحاول أَنْ يضاهي خَلْقَ اللهِ تعالى بإيجادِ الصورةِ، فلذلكَ يجعلُ لها أعضاءً، ويجعلُ لها عينين، ويجعلُ لها أنفاً، ويجعل لها شفتين، ويجعلُ لها وجهاً، ويجعلُ لها يدينِ، ويَجْعلُ لها رجلينِ، يضاهي خلقَ اللهِ، إلّا أَنَّهُ لا يَقْدرُ على نفخِ الروحِ فيها، ويجعلُ الصورةَ على شكل ضاحكةٍ، أو على شكلِ باكيةٍ، أو شكلِ مُقطِّبةِ الجبينِ، أو مسرورةٍ، كلُّ هذا مضاهاةٌ لخلقِ اللهِ، وإن كانوا يُسَمُّون هذا من بابِ الفنونِ، وهي فنونٌ شيطانيةٌ، والجنونُ فنونٌ، فتسميتُهُ من بابِ الفنونِ لا يُسوِّغُ عملَه، والتصويرُ ملعونٌ مَنْ فعلَهُ، ففيه: التحذيرُ من التصويرِ ونصبِ الصورِ. لأنَّ ذلك يؤولُ إلى الشركِ باللهِ عز وجل، وهذا أعظمُ العلّتينِ في النهي عن التصويرِ ونصبِ الصورِ، لا سيّما صورُ المعظمينَ من الملوكِ والرؤساءِ ومن الصالحينَ والمشايخِ إذا نُصبَتْ فإنَّ هذا يؤولُ إلى عبادتِها، ولو على المَدى البعيدِ، لأنَّ الشيطانَ حاضرٌ

(١) أخرجه البخاري (٥٩٥٣) ومسلم (٢١١١).

ويستغلُّ الجهلَ والعواطفَ.

المسألة الرابعة: في الآيةِ والآثارِ دليلٌ على تحريمِ البدعِ في الدينِ، وأنها تؤولُ إلى الشركِ، ولذلكَ قالَ العلماءُ: البدعةُ تُوصِلُ إلى الشركِ ولو على المَدى البعيدِ. وهذه بدعةُ قومِ نوحٍ وصَّلت إلى الشركِ، وهذا شيءٌ واضحٌ.

المسألة الخامسة: فيه دليلٌ على أنَّ حسنَ النيّةِ لا يسوِّغُ العملَ غيرَ المشروعِ، لأنَّ قومَ نوحٍ نيّتُهُم حسنةٌ، عندما صوَّروا الصورَ يريدونَ النَّشاطَ على العبادةِ، وتذكُّرَ أحوالِ هؤلاءِ الصالحينَ، ولا قصدوا الشركَ أبداً، وإنَّما قصدوا مقصداً حسناً، لكنْ لما كانَ هذا الأمرُ بدعةً صارَ محرّماً لأنه يُفضي إلى الشركِ ولو على المَدى البعيدِ، فالنيةُ الحسنةُ لا تسوِّغُ العملَ غيرَ المشروعِ.

المسألة السادسة: وهي عظيمةٌ جداً: فيه بيانُ فضيلةِ وجودِ العلمِ والعلماءِ في النّاسِ، ومضرّةِ فَقْدِهم، لأنَّ الشيطانَ ما تجرَّأَ على الدعوةِ إلى الشركِ معَ وجودِ العلمِ ووجودِ العلماءِ، إنَّما تجرَّأَ لمَّا فُقِدَ العلمُ وماتَ العلماءُ، فهذا دليلٌ على أنَّ وجودَ العلمِ ووجودَ العلماءِ فيه خيرٌ كثيرٌ للأمةِ، وأنَّ فقدَهم فيهِ شرٌّ كثيرٌ.

المسألة السابعة: فيه التحذيرُ من مكرِ الشيطانِ، وأنه يُظهِرُ الأشياءَ القبيحةَ بمظهرِ الأشياءِ الطيّبةِ حتى يغرِّرَ بالناسِ. هذا من ناحيةٍ.

ومن ناحيةٍ أخرى أنه يتدرَّجُ بالناسِ شيئاً فشيئاً، لأنه تدرَّجَ بقومِ نوحٍ من تذكُّرَ العبادةَ والنَّشاطَ والمَقْصَدَ الحسنَ، تدرَّجَ بهم إلى المَقْصدِ السيءِ والشركِ باللهِ عز وجل.

وليسَ هذا مقصوراً على شيطانِ الجنِّ، بل وشيطان الإنسِ وكذلكَ يعملُ هذا العملَ، فدعاةُ السوءِ ودعاةُ الضّلالِ -أيضاً- يمكرونَ بالأمةِ الإسلاميةِ مثلَ

ما يَمْكُر الشيطانُ: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾.

المسألة الثامنة: فيه دليلٌ على تحريمِ الغلو في قبورِ الصالحينَ، فقولُ ابنِ القيمِ: «**لما ماتوا عكفوا على قبورهم**» فيه: التحذيرُ من الغلوِ في قبورِ الصالحينَ، وذلك بالعكوفِ عندَها، أو البناءِ عليها، أو غيرِ ذلك من أيِّ مظاهرِ الغلو، والنبيُّ ﷺ حذَّرَ من البناءِ على القبر، وحذّر ﷺ من الصلاةِ عندَ القبورِ، والدعاءِ عندَ القبورِ، لأنَّ ذلكَ وسيلةٌ إلى الشركِ، وحذَّرَ ﷺ من إسراجِ القبورِ، فقال: «**لعن الله زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسّرج**»(١) لأنَّ هذا يغرّ العوامَ، ويقولونَ: ما عمِلَ به هذا العَمل إلَّا لأنَّه يَضُر أو ينفَعُ، ولذلكَ أَوْصى النبيُّ ﷺ عليَّ بنَ أبي طالبٍ رضي الله عنه قالَ: «**لَا تَدَعَ قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ**»(٢) المُشْرِف: هو المرتفعُ بالبناءِ، «**إِلَّا سَوَّيْتَهُ**» يعني: هدمت البناءَ الذي عليهِ، وكذلكَ نهى ﷺ عن تجصيصِ القبورِ، وطلائِها بالجصِّ، أو بالنورةِ، أو بالبويات، أو الألوانِ المزخرفةِ، لأنَّ هذا يغرّ العوامَ، ويظنونَ أنه ما عُمِل به هذا العملُ إلَّا لأنهُ له خاصيةٌ، ونَهى ﷺ عن الكتابةِ على القبورِ، فلا يُكتَبُ على القبورِ اسمَ الميتِ، ولا تاريخَ وفاتِهِ، ولا مكانتِهِ، فلا يُقالُ: هذا قبرُ العالمِ الفلانيِّ الذي عَمِل كذا وكذا، كلُّ هذا لا يجوزُ، لأنَّ هذا يغررُ بالناسِ فيما بعدُ، ويقولونَ: ما كُتِبَتْ هذهِ الكتابةُ إلَّا لأنَّ هذا الميّتَ له خاصيّةٌ. كلُّ هذهِ الأمورِ نهى عنها الشارعُ، لأنها وسائلُ إلى الشركِ.

والمشروعُ في القبورِ أن تُدفنَ كما كان على عهدِ النبيِّ ﷺ تُدفنُ بترابِها،

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٠) والنسائي (٢٠٤٣) وغيرهما.

(٢) أخرجه مسلم (٩٦٩).

وَعَن عُمَرَ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابنَ مَريَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبدٌ، فَقُولُوا: عَبدُ الله وَرَسُولُهُ» أَخرَجَاهُ[1].

وتُرفَعُ عن الأرضِ قدرَ شبرٍ بالترابِ من أجلِ أن تُعرَفَ أنها قبورٌ فلا تُداسُ، ويُجعلُ عليها نصائبُ من طرفيها لتحديدِ القبرِ، لأجلِ أن لا يوطأَ، وما زادَ عن ذلكَ فهو ممنوعٌ.

هكذا كانتِ القبورُ في عهدِ النبيِّ ﷺ، وهذهِ سنةُ النبيِّ ﷺ في دفنِ الأمواتِ.

المسألة التاسعة: فيهِ أَنَّ درأَ المفاسدِ مقدمٌ على جلبِ المصالحِ، وهذه قاعدةٌ مشهورةٌ، لأنَّ عمَلَ قومِ نوحٍ فيه مصلحةٌ جزئيةٌ وهي: تذكُّرُ حالةِ الصالحينَ، لكنَّ المفسدةَ أكبرُ من هذا، وهو أنَّ ذلكَ يؤولُ إلى الشركِ -والعياذُ باللهِ-.

❊❊❊

قوله: «**وعن عمر**» المرادُ به: عمرُ بنُ الخطابِ بنِ عمرو بنِ نُفَيْل العدويُّ القرشيُّ، ثاني الخلفاءِ الراشدينَ، وأفضلُ هذهِ الأمةِ بعدَ أبي بكرٍ الصدّيق، رضِيَ اللهُ تعالى عن الجميعِ.

فهو عمرُ بنُ الخطابِ الذي أعزَّ اللهُ به الإسلامَ والمسلمينَ، وفتحَ اللهُ على يديهِ الفتوحاتِ في المشرقِ والمغربِ، حتى اتسعَتْ رُقْعةُ الإسلامِ في الأرضِ، وله من الفضائلِ الشيءُ الكثيرُ، رضِيَ اللهُ تعالى عنه وأرضاهُ وعن جميعِ صحابةِ رسولِ اللهِ والتابعين لهم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ.

«**أن رسول الله ﷺ قال: «لا تُطْرُونِي»** هذا نهيٌ منه ﷺ عن الإطراءِ في حقِّهِ، والإطراء هو: زيادةُ المدحِ والمبالغةِ فيه، كما هي عادةُ بعضِ المدّاحينَ من

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٥).

الشعراءِ وغيرِهم، وهذه صفةٌ ذميمةٌ، فإنَّ كثرةَ المدحِ والزيادةِ في ذلكَ منهي عنها في حقِّ الرسولِ ﷺ وفي حقِّ غيرِهِ، ولكنْ في حقِّ الرسولِ أعظمُ، لأنَّ ذلك يُؤدي إلى الشركِ والكفرِ، فإنَّ الغلوَ في مدحِ الأنبياءِ يؤدي إلى الشركِ، كما حصَلَ للنَّصارى واليهودِ حينما غلَوْا في الأنبياءِ.

فمعنى قوله: «**لَا تُطْرُونِي**» يعني: لا تَزيدوا في مَدْحي.

«**كَمَا أَطْرَت النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ**» النَّصارى المراد بهم: أتباعُ عيسى عليه السلام، قيلَ: سُمُّوا نصارى نسبةً إلى البلدِ: النَّاصرة في فلسطينَ، أو من قولِهِ تعالى: ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾، وهم أهلُ ملّةٍ من المللِ الكتابيّةِ، ويسمَّون بالنَّصارى، أما أن يسمَّوْا بالمسيحيينَ -كما عليهِ النَّاسُ الآن- فهذا غلطٌ، لأنه لا يُقالُ: المسيحيونَ إلَّا لمن اتَّبعَ المسيحَ عليه السلام، أما الذي لم يتّبِعْهُ فإنه ليسَ مسيحيّاً، وإنما هو نصراني، فاسمُهُم في الكتابِ والسنةِ: النَّصارى.

كما أنَّ اليهودَ نفروا من الاسمِ الخاصِّ بهم في الكتابِ والسنةِ وهو اليهودُ فسمّوا أنفسَهم إسرائيلَ، وإسرائيلُ هو نبيُّ اللهِ يعقوبُ -عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ- فليسوا هم إسرائيلُ، وإنَّما هم اليهودُ. هذا هو اللفظُ الموضوعُ لهم، الذي رُبِطَتْ به اللعنة والغضبُ من اللهِ سبحانه وتعالى بسببِ كفرِهم باللهِ وعنادِهم وتعنّتِهم، فهم اليهودُ.

نعم، يُقال: بنو إسرائيلَ -كما سمّاهم اللهُ بذلك- لأنهم من ذريةِ يعقوبَ عليه السلام في الغالبِ، وفيهم أناسٌ يَهود ليسوا من ذريةِ إسرائيلَ، لكنَّ الغالبَ عليهم أنَّهم من بني إسرائيلَ.

وعلى كلِّ حالٍ؛ لا يجوزُ أن يُقالَ: إِسْرائيل، وإنما يُقال: اليهود، أو يُقال: بنو إسرائيل.

«كَمَا أَطْرَت النَّصَارَى» أي: كما غَلَت النَّصارى في مدحِ المسيحِ عليه السلام.

«ابْنِ مَرْيَمَ» يُنسب إلى أمِّه عليه السلام لأنهُ ليسَ له أبٌ، لأنَّ اللهَ خلقَهُ من أمٍّ بلا أبٍ بقوله: ﴿كُن﴾، ولذلك يُقال: (كلمة الله)، لأنه تكوَّن بها من غيرِ أبٍ، فتكوّن بأمرِ اللهِ سبحانه وتعالى حينَ قالَ له: ﴿كُن﴾ فكانَ بأمرِ اللهِ، هذا سببُ تسميتِهِ كَلِمة اللهِ، واللهُ قادرٌ على كلِّ شيءٍ، فاللهُ خلقَ آدمَ من غيرِ أبٍ ولا أُمٍّ، خلقَه من ترابٍ بشراً سوياً، وخلقَ حوّاءَ من غيرِ أمّ، خلقَها مِنْ آدمَ: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، وخلقَ عيسى من أمٍّ بلا أبٍ، وخلقَ سائرَ البشرِ من أمٍّ وأبٍ، ولهذا يقولُ اللهُ جلَّ وعلا: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾، فإذا كنتُمْ تَعْجبون من خلقِ عيسى من أمٍّ بلا أبٍ، فآدمُ عليه السلام أولى بالعجبِ، لأنَّ اللهَ خلقَهُ من ترابٍ ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾، فلا غرابةَ في قدرةِ اللهِ سبحانه وتعالى، فاللهُ قادرٌ على كلِّ شيءٍ، لا تتحكَّمُ فيه الأسبابُ، وإنما هو سُبحانه يتحكَّمُ في الأسبابِ والمخلوقاتِ: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ سبحانه وتعالى، لا حَجْر على قدرتِهِ سبحانه وتعالى.

وكيف أَطْرَت النَّصارى ابنَ مريم؟، قالوا: إنه ابنُ الله، أو هو اللهُ، أو ثالثُ ثلاثةٍ. ولا يزالونَ على هذهِ المقالةِ إلى الآنَ، في إذاعاتِهم، وفي كتاباتِهم.

فسببُ وقوعِهم في هذا الكفرِ هو: الغلو -والعياذُ باللهِ-، لأنَّهم لم يرتَضوا أن يَصِفوا عيسى بأنهُ عبدُ اللهِ ورسولُهُ، وإنَّما زادوا وقالوا: إنه ابنُ اللهِ جاءَ ليخلِّصَ النّاسَ من الخطيئةِ، وقُتِلَ وصُلِب من أجلِ أن يُخلِّص النّاسَ من الخطيئةِ، ثمَّ بعد قتلِهِ وصلبِهِ قامَ وصعدَ إلى السماءِ.

وهـذا كـذبٌ مَحْضٌ، كذَّبَـهُ اللهُ وردَّه بقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ

لَهُمْۚ﴾، فالذي قُتِل وصُلِب هو شخصٌ غيرُ المسيحِ، ألقى اللهُ شبهَ المسيحِ عليه، فقُتِلَ وصُلِبَ، لأنه خانَ ودلَّ الكفرةَ على مكانِ المسيحِ، أما المسيحُ فإنه رفَعَهُ اللهُ إليه، ولهذا لم يجزموا أنَّ الذي قتلوهُ هو المَسيح: قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾.

فالحاصلُ؛ أنَّ هذا هو غلوُّ النَّصارى، أنَّهم مدحوا المسيحَ ورفعوهُ فوقَ منزلتِهِ، حتَّى عبدوهُ من دونِ اللهِ، وادّعوا فيهِ الربوبيةَ بسببِ الغلوِّ، وعيسى -عليه السلام- يقولُ: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ [مريم: ٣٠-٣١]، وفي يومِ القيامةِ يتبرّأُ من هؤلاءِ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ﴾، فالعبادةُ حقُّ اللهِ ليست حقّاً لمخلوقٍ، ﴿مَا يَكُونُ لِىٓ﴾ ما ينبغي ولا يليقُ ولا يصحُّ ﴿أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ﴾ لأنَّ العبادةَ حقٌّ للهِ سبحانه وتعالى، ثمَّ ردَّ ذلكَ إلى اللهِ ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة: ١١٦]، واللهُ يعلمُ سبحانه وتعالى أنَّ عيسى لم يقُلْ هذهِ المقالةَ، وإنما هذا من بابِ التوبيخِ لهؤلاءِ، ثمَّ قال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ﴾ [المائدة: ١١٧-١١٩]، هذا تصديقٌ للمسيحِ عليه السلام على رؤوسِ الأشهادِ يومَ القيامةِ، حينَما يجتمعُ -عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ- في الدُّنيا والآخرةِ أنه عبدُ اللهِ ورسولُه، ليسَ له من الربوبيةِ شيءٌ، ولا يستحقُّ من العبادةِ شيئاً، وإنَّما العبادةُ حقٌّ للهِ سبحانه وتعالى وحدَه لا شريكَ، وإذا كانَ

....

المسيحُ ليسَ له حقٌّ في العبادةِ، ومحمَّدٌ ﷺ ليسَ له حقٌّ في العبادةِ، وجميعُ الرسلِ، فكيفَ بغيرِهم من الأولياءِ والصالحينَ.

ففي هذا الحديثِ دليلٌ على ما ساقَهُ المصنِّفُ من أجلِهِ، وهو أنَّ الغلوَّ في الصالحينَ يسبِّبُ كفرَ بني آدم وتركَهم دينَهم.

وفي هذا شفقتُهُ ﷺ بأمَّتِهِ، حيثُ حذَّرَهم مما وقعَتْ فيه النَّصارى.

وفيه: النهيُ عن التشبّهِ بالكفّارِ.

ثمّ قال ﷺ: **«إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»** **«إنما»** هذه كلمةُ حَصْرٍ، أي: أن شأني ومكانتي أنني عبدُ اللهِ سبحانه وتعالى، ليسَ لي من الربوبيةِ شيءٌ، والعبد لا يُغلَى فيه ويُطرى، ويُرفعُ فوقَ منزلتِهِ.

«فقولوا: عبد الله ورسوله» أرشَدَنا إلى أَنْ نقولَ فيه الكلامَ الواقعَ واللَّائقَ به ﷺ، وهو أنه عبدُ اللهِ ورسولُه. فدلَّ هذا على أنه يُمدَحُ ﷺ بصفاتِهِ من غيرِ زيادةٍ ومن غيرِ نقصٍ، وهي: العبوديةُ والرسالةُ، والله جلَّ وعلا وصَفَ محمَّداً بأنه عبدٌ في كثيرٍ من الآياتِ، في مقامِ التنزيلِ قالَ تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾ [الكهف: ١]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ١]، وفي مقام الإسراء قال تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]، والمعراج في قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم: ٨-١٠]، وفي مقامِ التحدِّي وصفَهُ اللهُ بالعبوديةِ قالَ تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة: ٢٣].

ففي قوله: «عبد الله» ردٌّ على الغلاةِ الذينَ يغلونَ في حقِّهِ ﷺ.

وفي قوله: «رسوله» ردٌّ على المكذبين الذينَ يكذّبونَ برسالتِهِ ﷺ، والمؤمنونَ يقولونَ: هو عبدُ اللهِ ورسولُه.

هذا وجهُ الجمعِ بينَ هذينِ اللّفظينِ، أنَّ فيهما رداً على أهلِ الإفراطِ وأهل التفريطِ في حقِّه ﷺ.

وفيه: ردٌّ على الذينَ غلَوْا في مدحِهِ ﷺ من أصحابِ القصائدِ، كقصيدةِ البُردة والهمزيةِ وغيرِهما من القصائدِ الشركيّةِ التي غلَتْ في مدحِهِ ﷺ، حتّى قالَ البوصيري:(١)

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

فنَسِيَ اللهَ سبحانه وتعالى.

ثمَّ قالَ:

إن لم تكن في معادي آخذاً بيدي فضلاً وإلّا قل يا زلة القدم

يعني: ما ينجيهِ من النَّار يومَ القيامةِ إلّا الرسولُ.

ثم قالَ:

فإن من جودك الدّنيا وضرّتها ومن علومك علم اللّوح والقلم

الدُّنيا والآخرةُ كلُّها من جودِ النبيِّ ﷺ، أما اللهُ فليسَ له فضلٌ، هل بعدَ هذا الغلوِّ من غلوّ؟

واللّوحُ المحفوظُ والقلمُ الذي كتبَ اللهُ به المقاديرَ هذا بعضُ علمِ النبيِّ

---

(١) انظر «شرح بردة المديح» للبوصيري (ص٢٣).

وَقَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِيَّاكُم وَالغُلُوَّ؛ فَإِنَّمَا أَهلَكَ مَنْ كَانَ قَبلَكُم الغُلُوُّ»[(١)].

ﷺ، ونسِيَ اللهَ تماماً -والعياذُ باللهِ-.

وكذلكَ من نهَجَ على نهجِ البردةِ ممَّنْ جاءَ بعدَه، وحاكاهُ في هذا الغلو، هذا كُلُّه من الغلو في مدحِ النبيِّ ﷺ ومن الإطراءِ.

أما المؤمنونَ فيمدحونَ الرسولَ ﷺ بما فيهِ من الصفاتِ الحميدةِ والرسالةِ والعبوديةِ، كما أرشدَ إلى ذلكَ النبيُّ ﷺ، كما عليهِ شعراءُ الرسولِ ﷺ الذينَ مدحوهُ وأقرَّهم، مثلَ: حسّان بنِ ثابتٍ، وكَعْب بن مالكٍ، وكعب بن زُهيرٍ، وعبداللهِ بن رواحةَ، وغيرِهم من شعراءِ الرسولِ ﷺ الذين مدحوهُ بصفاتِهِ ﷺ، وردُّوا على الكفّارِ والمشركينَ.

هذا هو المدحُ الصحيحُ المُعتدِلُ، الذي فيه الأجرُ وفيه الخيرُ، وهو وصفُهُ ﷺ بصفاتِهِ الكريمةِ من غيرِ زيادةٍ ولا نُقصان.

* * *

ثمّ قالَ المصنِّفُ رحمه الله: «**وقال: قال رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالغُلُوَّ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الغُلُوُّ»**» هكذا ذكرَهُ المصنفُ رحمه الله من غيرِ أن يذكرَ راويهِ، ومن غيرِ أن يعزوهُ إلى مخرِّجٍ من أصحابِ الكتبِ، بل جعَلَ مكانَ ذلك بياضاً.

والحديثُ رواهُ ابنُ عباسٍ، وخرَّجهُ أحمدُ في «مسندِهِ»[(٢)]، والنسائي

---

(١) أخرجه النسائي (٣٠٥٧)، وابن ماجه (٣٠٢٩) وأحمد (١/ ٣٤٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) برقم (١/ ٣٤٧).

في «سُننِهِ»[1]، وابنُ ماجَه في «سُننِهِ»[2].

وهذا حصل في مُنْصَرفهِ ﷺ في حَجَّةِ الوداعِ من مزدلفةَ إلى منى من أجلِ رمي جمرةِ العقبةِ، ولما كانَ في الطريقِ بينَ مزدلفةِ ومنى قالَ لابنِ عباسٍ: «**التقط لي الحصى**»، فلقطَ له سبعُ حصياتٍ مثلَ حصى الخَذَف، وهي الصِّغارُ التي تُخْذَف على رؤوسِ الأصابعِ، وهي أكبرُ من الحِمَّص بقليلٍ، فأخذَها ﷺ بيدِهِ الكريمةِ، ثمّ نَفَضَها والناسُ ينظرونَ إليه، ثمّ قالَ ﷺ: «**أَمْثَالَ هَؤُلَاءِ فَارْمُوا وَإِيَّاكُمْ وَالغُلُوَّ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الغُلُوُّ**»، وهذا يدلُّ على أنَّ الواجبَ علينا أن نتقيَّدَ بالعبادةِ كما جاءَت.

فـ «**إياكم**» هذهِ كلمةُ تحذيرٍ.

«**والغلو**» تقدَّم معناه، وهو: الزيادةُ على الحدِّ المشروعِ، وهذا لا يجوزُ، وهو مردودٌ وهلاكٌ، بل نتقيّدُ بضوابطِ العبادةِ كما جاءَتْ في سنةِ رسولِ اللهِ ﷺ، وليس لنا تدخُّلٌ في تحديدِ العبادةِ ومواقيتِها وصفاتِها، وهيئاتِها، وإنما يُتَّبعُ في هذا ما دلَّ عليهِ الدليلُ من كتابِ اللهِ وسنةِ رسولِهِ ﷺ، علينا الامتثالُ فقطْ.

«**فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو**» مثلَ النَّصارى غلَوْا في عيسى عليه السلام، يعني: فأخرَجَهم الغلو من الدينِ إلى الكفرِ -والعياذُ باللهِ- فهلكوا، وهم يريدونَ النَّجاةَ، لكن لمَّا كانَتْ طريقتُهم غيرَ مشروعةٍ لم تحصُل لهم النَّجاةُ، وإنما حصَلَ لهم الهلاكُ، فكلُّ واحدٍ يريدُ النَّجاةَ من غيرِ أن يسلُكَ طريقَها فإنه هالكٌ، لا نجاةَ إلَّا باتباعِ الرسولِ ﷺ، مهما كلَّفَ الإنسانَ نفسَهُ إذا خالَفَ منهجَ الرسولِ ﷺ فإنه غالٍ وهالكٍ، وهو مشابهٌ لمن كانَ قبلَنا من الغلاةِ.

---

(١) برقم (٣٠٥٧).

(٢) برقم (٣٠٢٩).

ففي هذا: التحذيرُ من الغلوِّ في العباداتِ، والغلوُّ في الأشخاصِ، والغلو في كلِّ شيءٍ، فالغلو في كلِّ شيءٍ ممنوعٌ، والمثلُ يقولُ: «**كل شيءٍ جاوزَ حدَّه انقلَب إلى ضدِّه**»، كلُّ غلوٍّ فهو طريقُ هلاكٍ، وإنَّما طريقُ النَّجاةِ هو الاعتدالُ والاستقامةُ: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْ﴾ [هود: ١١٢].

وما هلكَتِ الخوارجُ والمعتزلةُ وعلماءُ الكلامِ إلَّا بسببِ غُلوِّهم.

فالخوارجُ عندَهم عبادةٌ عظيمةٌ، حتى إنَّ الصحابةَ يَحْقرون صلاتَهم إلى صلاتِهم، وعندَهم قراءةٌ للقرآنِ كثيرةٌ، لكنَّهم لم يقتصروا على المشروعِ، زادوا -والعياذُ باللهِ- حتَّى هلكوا، وكلُّ مَنْ فعلَ هذا فإنه يهلَكُ، والتجربةُ موجودةٌ، وما وصَلَ أحدٌ من المتنطّعينَ والغلاةِ إلى النتيجةِ المطلوبةِ أبداً، وإنما يكونُ سبيلُهم الهلاكَ في الدُّنيا والآخرةِ.

فهذا ممَّا يحذِّرُ منه في هذا الزمانِ، لأنَّ ظاهرةَ الغلو والتّنطعِ كثُرَتْ إلَّا مَنْ رحِمَ اللهُ عز وجل، وذلك لما فشا الجَهْلُ في النّاسِ جاء الغلوُّ وجاءتِ المخالفاتُ بتزيينِ شياطينِ الإنسِ والجنِّ.

فالواجبُ علينا أن نُحذِّرَ من هذا، وأَنْ نلزمَ طريقَ الاستقامةِ في كلِّ شيءٍ.

أمَّا المعتزلةُ فغلَوْا في تنزيهِ اللهِ، حتَّى نفَوْا صفاتِ اللهِ التي وصَفَ بها نفسَهُ.

والممثلةُ غلَوْا في إثباتِ الصفاتِ، حتى شبَّهوا الخالقَ بالمخلوقِ، فغلَوْا في ذلك، فَضَلُّوا -والعياذُ باللهِ-.

وأهلُ السّنّةِ والجماعةِ توسَّطوا؛ فأَثْبتوا للهِ الأسماءَ والصفاتِ كما جاءَتْ، تنزيهاً بلا تعطيلٍ، هذا نفيٌ للغلوِّ في التنزيهِ، وإثباتٌ بلا تمثيلٍ، هذا نفي للغلوِّ في الإثباتِ، فهم توسَّطوا.

أما المعتزلةُ فهم غَلَوْا في التنزيهِ حتَّى نَفَوا الصفاتِ.

والممثلةُ غلَوْا في الإثباتِ حتَّى شبَّهوا اللهَ بخلقِهِ، تعالى اللهُ عمَّا يقولونَ.

والخوارجُ والمعتزلةُ غلَوْا في الأمرِ بالمعروفِ والنهي عَنِ المنكرِ، حتَّى خرجوا على أئمّةِ المسلمينَ، ومن أصولِهم: الأمرُ بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ، بمعنى: الخروج على الأئمةِ.

والأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكرِ مطلوبٌ، ولكنْ في حدودِ الشريعةِ، قالَ ﷺ: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ**»[1] فجَعَلَ الأمرَ بالمعروفِ والنهيَ عن المنكرِ مراتبَ حسبَ الاستطاعةِ، ولم يَأْمُرْ بالخروجِ على الولاةِ، ونَقْضِ البيعةِ، والتفريقِ بينَ المسلمينَ، وهذهِ طريقةُ المعتزلةِ والخوارجِ.

والخوارجُ خرجوا على أميرِ المؤمنينَ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه، وانتهى بهم الأمرُ إلى أَنْ قتلوهُ رضي الله عنه، هذا كلُّه بسببِ الغُلوِّ، بزَعْمِهم أنَّهم يأمرونَ بالمَعْروفِ وينْهَوْنَ عن المنكرِ، فسبَّبَ لهم هذا الهلاكُ، وهذا مصداقُ قولِهِ ﷺ: «**فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الغُلُوُّ**».

فالغلو هلاكٌ في الدُّنيا، وهلاكٌ في الآخرةِ، ولا يأتي بخيرٍ أبداً، ودينُ اللهِ بينَ الغالي فيه والجافي عنه، دينُ اللهِ وسطٌ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[البقرة: ١٤٣]، وسطٌ بينَ الغلوِّ وبينَ الجفاءِ، وهذهِ الأمةُ عدولٌ خيارٌ، ليسَ فيهم غلوٌّ، وليسَ فيهم جفاءٌ، وإنما فيهم الاعتدالُ، هذا هو طريقُ النجاةِ دائماً وأبداً.

***

(١) أخرجه مسلم (٤٩).

وَلِمُسلِمٍ[(١)] عَنِ ابنِ مَسعُودٍ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ» قَالَهَا ثَلاثاً.

قال: «**ولمسلم**» يعني: روى الإمامُ مُسلِمٌ رحمه الله في صحيحِهِ.

«**عن ابن مسعود**» عبدُالله بنُ مسعودِ بنِ غافلٍ الهذليُّ، الصحابيُّ الجليلُ، والعالمُ الكبيرُ، الذي يُعدُّ من أكابرِ علماءِ الصحابةِ، وإليه المرجعُ في الفتوى، وروايةِ الحديثِ، وغيرِ ذلك، فهو من أكابرِ الصحابةِ، ومن السابقينَ الأولينَ إلى الإسلامِ، رضِيَ اللهُ تعالى عنه، وكانَ -أيضاً- من أشدِّ النّاسِ تحذيراً من البدعِ والغلوِّ، ومواقفُهُ من المبتدعةِ مشهورةٌ، وكلماتُهُ رضِيَ اللهُ تعالى عنه في ذلك مأثورةٌ.

«**أن رسول الله ﷺ قال: «هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ» قالها ثلاثاً**» المتنطعونَ: جَمْع متنطع، وأَصْل التَّنَطع هو التقعُّرُ في الكلامِ إظهاراً للفصاحةِ، هذا هو أصلُ التنطعِ في اللغةِ. والمرادُ هنا: التنطعُ في الكلامِ، والتَّنطعُ في الاستدلالِ، والتنطعُ في العبادةِ.

والتنطعُ في الكلامِ معناه: أَنْ يتكلَّمَ الإنسانُ بالكلماتِ الغريبةِ من اللغةِ التي لا يَفْهمُها الناسُ، فيأتي بأسلوبٍ وألفاظٍ من وحشي اللغةِ لا يعرفُها النّاسُ.

وكذلك من التنطعِ في الكلامِ: أن يخاطبَ الحاضرينَ بأشياءَ لا يفهمونَها، فالنّاس بحاجةٍ إلى أَنْ يُبيَّنَ لهم عقيدتَهم وعبادتُهم وطهارتُهم ومعاملاتُهم، ثمَّ يذهب يَتَكلَّم في أشياءَ بعيدةٍ عَنْهم، بَلْ بعيدةٌ من مُجْتمعِهم، يتكلَّم في أمورِ السياسةِ، والأمورِ البعيدةِ، وأمورِ الدُّولِ، ولأمورِ وسائلِ الإعلامِ، وأمور بعيدة، العوامُ لا يعرفونَ منها شيئاً، ولا يستفيدونَ منها شيئاً، ويخرجونَ مِنْ عندِه

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٠).

بجَهْلِهم، لا يعرفونَ أمورَ دينِهم، بل منهُمْ مَنْ لا يعرفُ كيفَ يُصلِّي، منهم من لا يَعْرفُ كيفَ يتوضأُ، ومنهم من لا يَعْرفُ كيفَ يغتسلُ من الجنابةِ، فيخرجونَ بجَهْلِهم، وما انتفعوا بهذا الكلامِ البعيدِ الغريبِ عن أسماعِهم.. هذا مِنَ التنطعِ.

وغرضُ المتكلمِ أن يُبيِّنَ للنَّاسِ أنه فاهمٌ، وأنه مثقّفٌ ولو على حسابِ الحاضرينَ، ولو ما فَهِموا، ولو ما عرفوا شيئاً. وهذا من التنطعِ.

والمطلوبُ من الخطيبِ والمحاضرِ والمتكلمِ والمُدرِّسِ: أن يتكلمَ في حدودِ ما يفهَمُهُ الحاضرونَ، وما هُمْ بحاجةٍ إليه في أمورِ دينِهم، وفي أمورِ معاملاتِهم وأخلاقِهم، هذا هو المطلوبُ.

وأن يكونَ قصدُه نفعَ الحاضرينَ، وتعليمَ الحاضرينَ، لا يكونُ قصدُهُ إظهارَ شخصيَّتِهِ، وإظهارَ فصاحتِهِ، فهذا هالكٌ كما قالَ النبيُّ ﷺ: «**هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ**».

فَلْنحذَرْ من هذا حينما نتكلمُ في درسٍ، حينَما نخطبُ في جمعةٍ، أو عيدٍ أو استسقاءٍ، حينما نُلْقي محاضرةً، علينا أن نراعيَ حالةَ الحاضرينَ، وأن نأتيَ من الكلامِ بما يفهمونَه، وما يستفيدونَ منه، وأيضاً يكونُ بأسلوبٍ سَهْلٍ، لا نتعمَّدُ المجيءَ بأساليبَ لا يفهمونها، وكلماتٍ لا يفهمونَها، بل يُخْتارُ الموضوعُ المناسبُ، والأسلوبُ المناسبُ، واللغةُ التي يفهمونَها. هذا الذي يريدُ الخيرَ للنَّاسِ، ويريدُ تعليمَ الناسِ.

أما الذي يريدُ أَنْ يُظهِرَ نفسَهُ على حسابِ النَّاسِ، فهذا هو المُتنطِّعُ، وهذا لا يفيدُ شيئاً، ويَخرجُ كما دخلَ من غيرِ فائدةٍ. فعلينا أن نتنبَّه لذلكَ، لئلا نكونَ من المتنطعينَ في الكلامِ.

وأميرُ المؤمنينَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ يقولُ: «**حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ،**

....

أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ؟»(١).

أما التنطعُ في الاستدلالِ فهو: طريقةُ أهلِ الكلامِ وأهلِ المنطقِ الذين عدَلوا عن الاستدلالِ بالكتابِ والسنةِ إلى الاستدلالِ بقواعدِ المنطقِ، ومصطلحاتِ المتكلمينَ.

والمنطقُ هذا مَنْ أينَ جاء؟، وقواعدُ المنطقِ مَنْ أينَ جاءَتْ؟، جاءَتْ من اليونانِ، استجلبوها واستَعْمَلوها في الإسلامِ، وتركوا الاستدلالَ بالكتابِ والسنةِ، وقالوا: إنَّ الأدلةَ السمعيةَ لا تفيدُ اليقينَ، وإنما الذي يفيدُ اليقينَ هو الأدلةُ العقليةُ -بزعمهم-، فبذلكَ هَلَكوا.

الواجبُ أن يكونَ الاستدلالُ بالأدلةِ الشرعيةِ من الكتابِ والسنةِ وإجماعِ المسلمينَ والقياسِ الصحيحِ كما عليهِ علماءُ أهلِ السّنّةِ والجماعةِ، ولهذا يقولُ الإمامُ الشافعيُّ رحمه الله: «**حُكْمي في أهلِ الكلامِ: أَنْ يُضْربوا بالجريدِ والنعالِ، وأَنْ يطافَ بهم في القبائلِ، وأَنْ يُقالَ: هذا جزاءُ مَنْ أَعْرَضَ عن الكتابِ والسنةِ واشتغلَ بعلمِ الكلامِ**»(٢).

فمن هؤلاءِ مَنْ يتركُ كلامَ اللهِ وكلامَ رسولِهِ ويأتي بقواعدِ المنطقِ، حتَّى في العقائدِ وهو ما يُسمونَه الآنَ علمَ التوحيدِ، يُسمّون علمَ المنطقِ، وعلمَ الكلامِ: علمَ التوحيدِ، ولذلك وقَعوا في الهلاكِ، وضَلُّوا وأَضَلُّوا، وقد انتهى أمرُهم إلى الحيرةِ، كما شَهِد بذلكَ أكابرُهم، وبعضُهم عندَ الوفاةِ أشهد الحاضرينَ بأنه ماتَ وهو لا يعرفُ شيئاً، مع أنه أَفْنى عُمُرَه في علمِ الكلامِ والجدلِ والمنطقِ، هذا مآلُ المتنطعين -والعياذُ باللهِ-، وشهاداتُهم على أنفسِهم موجودةٌ، مما يدلُّ على

(١) أخرجه البخاري (١٢٧).

(٢) «المستفاد من ذيل تاريخ بغداد» (٢/ ١٤٥) و«سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٢٩).

صدقِ قولِ الرسولِ ﷺ: «**هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ**».

أما التنطع في العبادةِ فهو كما سلَفَ، هو: أن يزيدَ الإنسانُ في العبادةِ على الحدِّ المشروعِ، وهذه رهبانيةُ النَّصارى، أما الحدُّ المشروعُ فهو كَمَا قالَ ﷺ: «**أُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، وَآكُلُ اللَّحْمَ، وَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»[1] هذا هو الاعتدالُ، وأما التبتُّلُ وعدمُ التزوجِ، والصيامُ دائماً ولا يُفطر، والصلاةُ كُلّ الليلِ ولا ينامُ، هذا كلُّه من الغلوِّ ومن التنطعِ الذي يَهْلكُ صاحبُهُ كما هَلَكتِ النَّصارى في رهبانيَّتِهم، والنبيُّ ﷺ حذّرَ من الغلوِ، وحذّرَ من رهبانيةِ النَّصارى، وأمَرَ بالاعتدالِ والتوسطِ، وقال: «**هذا الدِّينُ يُسْرٌ، ولَن يُشادّ الدِّين أحدٌ إِلّا غَلبَه**»[2] ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا**﴾، وقال ﷺ: «**إن المنبتّ لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى**»[3] والمُنْبتُّ هو: الذي يكلِّفُ نفسَه بالسيرِ ولا يستريحُ ولا يريحُ راحلتَه، هذا ينبتُّ، يعني: ينقطعُ وتموتُ راحلتُهُ، ويقفُ في وسطِ الطريقِ: «**فلا ظهراً أبقى**» لأنَّ راحلتَهُ ماتَتْ، «**ولا أرضاً قطع**» لأنَّ المسافةَ باقيةٌ. أما لو أخذَ الطريقَ على مراحلَ، وشيئاً فشيئاً، وأراحَ نفسَه، وأراحَ راحلتَه لقطَعَ الطريقَ، وبلغَ المقصودَ ولهذا قال ﷺ: «**أَوْغِلُوا فِيهِ بِرِفْقٍ**»[4].

فالحاصلُ؛ أن التنطعَ في العبادةِ هو: الزيادةُ فيها عن الحدِّ المشروعِ، والمطلوبُ أنَّ الإنسانَ يتوسَّطُ في العبادةِ من غيرِ زيادةٍ، ومن غيرِ نقصانٍ.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣) ومسلم (١٤٠١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٩).

(٣) أخرجه الحاكم في «معرفة الحديث» (ص٩٥) والبيهقي (٣/ ١٨) والقضاعي (١١٤٧).

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ١٩٨).

ونبينُ هنا ما يُستفاد من هذهِ الأحاديثِ باختصارٍ:

المسألة الأولى: التحذيرُ من الغلوِّ في مدحِهِ ﷺ، لأنَّ ذلكَ يؤدي إلى الشركِ، كما أدَّى بالنَّصارى إلى الشركِ.

المسألة الثانية: فيهِ الردُّ على أصحابِ المدائحِ النبويةِ التي غَلَوْا فيها في حقِّهِ ﷺ، كصاحبِ البردةِ، وغيرِهِ.

المسألة الثالثة: فيه النَّهْيُ عن التشبهِ بالنَّصارى، لقولِهِ: «**كما أطرت النصارى ابن مريم**».

ومن الغلوِّ في حقِّهِ ﷺ: إحياءُ المَوْلِدِ كُلَّ سنةٍ، لأنَّ النَّصارى يُحْيون المَوْلدَ بالنسبةِ للمسيحِ على رأسِ كُلِّ سنةٍ من تاريخِهم، فبعضُ المسلمينَ تشبَّهَ بالنَّصارى فأَحْدثَ المَوْلد في الإسلامِ بعدَ مُضِيِّ القرونِ المفضلةِ، لأنَّ المولدَ ليسَ له ذكرٌ في القرونِ المفضلةِ كلِّها، وإنَّما حدَثَ بعدَ المائةِ الرابعةِ، أو بعدَ المائةِ السَّادسةِ لمَّا انقرضَ عهدُ القرونِ المفضلةِ، فهو بدعةٌ، وهو من التشبهِ بالنَّصارى.

المسألة الرابعة: فيهِ مشروعيةُ مدحِهِ ﷺ بصفاتِهِ الكريمةِ: عَبْد اللهِ ورَسوله، الدَّاعي إلى اللهِ، بلَّغَ البلاغَ المبينَ، جاهَدَ في اللهِ حقَّ جهادِهِ، كلُّ هذا من صفاتِهِ ﷺ؛ فذِكْرُهُ طيِّبٌ.

المسألة الخامسة: يُستفادُ من ذلكَ: كمالُ شفقتِهِ ﷺ على أُمتِهِ، وأنه حذَّرَها من الإطراءِ في حقِّهِ ﷺ، وحذَّرَها مِنَ الغلوِّ، وحذَّرَها من التنطعِ.

ثلاثةُ أساليبِ جاءَ بها ﷺ: الإطراءُ والغلوُّ والتنطعُ. نوَّعَها ﷺ مِنْ بابِ التأكيدِ والتحذيرِ من الغلوّ.

المسألة السادسة: فيه أَنَّ مَنْ نَهى عن شيءٍ فإنهُ يَذْكر البديلَ الصالحَ عنه إِنْ كانَ له بديلٌ، فإنَّه ﷺ لمَّا نَهاهم عن الإطراءِ قال: «**إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**» هذا البديلُ الصالحُ.

المسألة السابعة: في الحديثِ: النَّهْي عن الغلوِّ في العباداتِ، ومنها حَصَى الجمارِ، قالَ فيها ﷺ: «**إِيَّاكُمْ وَالغُلُوَّ فَإِنَّمَا أَهَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الغُلُوَّ**»، والغلوُّ في العباداتِ، هو: الزيادةُ فيها عن الحدِّ المشروعِ: كميَّةً وكَيْفِيَّة ووقتاً، إلى غيرِ ذلكَ، نحن لا نُحدثُ شيئاً من عندِ أنفسِنا.

والبدعةُ تنقسمُ إلى قسمينِ: بدعةٌ حقيقيةٌ، وبدعةٌ إضافيةٌ.

البدعةُ الحقيقيةُ: إذا أُحدِثَ شيءٌ لا أصلَ له، مثلَ المولدِ والتبركِ بالآثارِ.

والإضافيةُ: أن نُحدِث للعبادةِ المشروعةِ وقتاً أو صفةً لم يشرعْها اللهُ ورسولُهُ، كما لو قلنا: ليلةَ النصفِ من شعبانَ يصلونَ النَّاسَ ويتهجّدونَ، أو نصومُ النِّصْفَ من شعبانَ.

فالصيامُ مشروعٌ، وقيامُ الليلِ مشروعٌ، لكِنْ إذا حدّدناهُ بوقتٍ لا دليلَ عليهِ فهذا بدعةٌ إضافيةٌ، لأنَّ أصل العبادةِ مشروعٌ، ولكنَّ تَقْييدَها بوقتٍ محدَّدٍ، منه إضافةٌ إلى العبادةِ وهي غيرُ مشروعةٍ، فهذهِ بدعةٌ تسمَّى إضافيةً.

ذِكْرُ اللهِ مشروعٌ؛ التَّسبيح والتَّهْليل والتَّكْبير، لكِنْ إذا قُلْنا للنَّاسِ: سبِّحوا ألفَ تسبيحةٍ، كبِّروا ألفَ تكبيرةٍ، قولوا: كذا ألفَ مرةٍ بدونِ دليلٍ. فهذا يُعتبرُ بدعةً إضافيةً.

المسألة الثامنة: فيهِ التحذيرُ من التَّنطُّع في الكلامِ، والتنطُّعِ في الاستدلالِ، والتنطُّعِ في العبادةِ، وعرفنا بماذا يكونُ التنطعُ في الكلامِ، والتنطعُ في

الاستدلالِ، والتنطعُ في العبادةِ.

المسألة التاسعة: فيهِ تكرارُ النَّصيحةِ حتَّى ترسخَ وتَثْبتَ، لأنَّ النبيَّ ﷺ كرَّرَ قوله: «**هَلَكَ المتَنَطِّعُونَ**» قالَها ثلاثاً من أجلِ أَنْ ترسخَ هذهِ النصيحةُ، وتَثْبتَ في قلوبِ السامعينَ.

واللهُ تعالى أعلمُ.

* * *

الباب العشرون:

بَاب ما جاءَ من التغليظ فيمن عبدَ اللّه عندَ قبرِ رجلٍ صالح، فكيف إذا عبده؟

قالَ المُؤلِّفُ رحمه الله: «**باب ما جاء في التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح، فكيف إذا عبده**»؛ لمَّا ذَكَر المؤلفُ رحمه الله في البابِ الذي قبلَ هذا: التحذيرَ من الغلوِّ في الصالحينَ، وأنَّهُ سببٌ لكفرِ بني آدمَ، وتركِهم دينَهم، ذكَرَ في هذا البابِ الغُلوَّ في قبورِهم، لأنهُ نوعٌ من الغلوِّ فيهم.

والتغليظُ معناه؛ بيانُ شدّةِ الأمرِ، خلافَ التَّسْهيلِ أو التَّخْفيفِ.

«**فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح**» عَبَدَ اللهَ بدعاءِ اللهِ عندَ القبرِ رجاءَ الإجابةِ، يظنُّ أنَّ الدعاءَ في هذا المكانِ سببٌ للإجابةِ، أو بالصَّلاةِ، يظنُّ أنَّ الصَّلاةَ عندَ القبرِ سببٌ للإجابةِ، أو الذَّبحِ عندَ القبرِ، وإنْ كانَ الفاعلُ يعبدُ اللهَ بهذهِ العباداتِ ولكنه فعلَها عندَ القبرِ رجاءَ أن تُقبلَ، وأنَّ العبادةَ عندَ القبرِ لها مزيةٌ عن العبادةِ في مكانٍ آخرَ، فهذا مبنيٌّ على ظنٍّ فاسدٍ، لأنَّ القبورَ ليسَتْ مكاناً للعبادةِ، وأنَّ العبادةَ عندَها وإنْ كانَتْ خالصةً للهِ فإنها سببٌ للشركِ، ولهذا حَذَّرَ النبيُّ ﷺ من العبادةِ عندَ القبورِ سدّاً للذريعةِ.

أمَّا إذا كانَ يدعو القبرَ، ويستغيثُ بالميتِ؛ فهذا شركٌ أكبرُ.

وأمَّا إذا كانَ يعبدُ اللهَ مخلصاً له العبادةَ لكِنْ عندَ القبرِ، فهذا وسيلةٌ إلى الشركِ، وطريقٌ إلى الشركِ، فهو محرَّمٌ، فكيفَ إذا عبدَه؟!

والذي عليهِ القبوريونَ اليومَ، أنهم يعبدونَ القبورَ صراحةً؛ ويستغيثونَ بها،

فِي الصَّحِيحِ[1] عَن عَائِشَةَ: أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- ذَكَرَت لِرَسُولِ اللهِ ﷺ كَنِيسَةً رَأتهَا بأَرْضِ الحَبَشَةِ، وَمَا فِيهَا مِن الصُّوَرِ، فَقَالَ: «أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ -أَو العَبدُ الصَّالِحُ-؛ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللهِ».

ويذبحونَ لها، وينادونَ المَوْتى: المَدَدُ يا فلانُ، المَدَد يا بَدَوي، المددُ يا عليُّ، يطلبونَ منهم المَدَدَ صراحةً، ويذبحونَ لهم، وينذرونَ لهم، ويصرفونَ لهم أنواعاً من العبادةِ، فهم داخلونَ فيمن عبدَ القبرَ.

***

قال: «**في الصحيح**» يعني: في الصحيحينِ: صحيحِ البخاريِّ وصحيحِ مُسْلِم.

«**عن عائشة**» أَمِّ المؤمنينَ، بنت أبي بكرٍ الصِّديق.

«**أن أم سلمة**» اسمُها: هندُ بنتُ أبي أميةَ المخزوميَّةُ، القُرشيَّةُ، زوجُ أبي سلمةَ، هاجَرَتْ هي وزَوْجُها أبو سلمةَ الهجرتينِ: الهجرةِ إلى الحبشةِ، والهجرةِ إلى المدينةِ، وتُوفِّيَ أبو سلمةَ رضي الله عنه في المدينةِ، فتزوَّجَها رسولُ اللهِ ﷺ فصارَتْ من أمهاتِ المؤمنينَ -رضِيَ اللهُ تعالى عنها-.

«**أنها ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها في أرض الحبشة**» الكنيسةُ هي مَعْبدُ النَّصارى الذي يَجْتمعونَ فيهِ يومَ الأحدِ لعبادتِهم. أما الصَّوْمَعةُ فهي مَعْبد خاصٌّ لفردٍ من النَّصارى يَخْلو فيه، ويَنْقَطع عن الدُّنيا. فالصَّوْمَعة للأفرادِ من النَّصارى، وأما الكنيسةُ فهي للجميعِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٤) ومسلم (٥٢٨).

«**وما فيها من الصور**» يعني: من صورِ الصالحينَ.

«**أولئكِ**» بالكسر خطابٌ لأمِّ سلمةَ، ويجوزُ الفتح: «**أولئكَ**» خطابٌ للمذكرِ، ولكنَّ الكَسْرَ أشهرُ، لأنهُ يخاطِبُ امرأةً.

«**أُولَئِكِ إِذَا مَاتَ فِيهِمْ الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَوْ العَبْدُ الصَّالِحُ**» هذا شَكٌّ من الرَّاوي: هَلْ قالَ الرسولُ ﷺ: رجلٌ أو عبدٌ، وهذا مِنْ تحرِّيهم رضي الله عنهم في الروايةِ، وأنه لم يجزِمْ باللّفظِ الذي قالَه النبيُّ ﷺ.

«**بنوا على قبره مسجداً**» أي: مُصلًّى، فالمراد بالمَسْجدِ هنا: المصلى والمتعبَّد، يعني: اتخذوا عليهِ كنيسةً يتعبّدونَ فيها، فسُمِّيَ مسجداً.

«**وصوروا فيه تلك الصور**» أي: صُوَر الصالحينَ، يَنْصِبونَها في هذا المكانِ، من بابِ الغلوِّ في الصالحينَ وتخليدِ شخصيَّاتِهم، واتخاذِ التَّماثيلِ تخليداً للشَّخْصيَّاتِ من هذا البابِ، هو مِنْ بابِ تعظيمِ الصالحينَ، أو تعظيمِ العظماءِ، ولو كانوا مِنْ غيرِ الصالحينَ كالرُّؤساءِ والسَّلاطينِ والملوكِ، وهذا لا يجوزُ في الإسلامِ، لأنه وسيلةٌ إلى الشركِ، ولا سيما في مواطنِ العبادةِ، كالمساجدِ ومحلاتِ العبادةِ، فهذا الأمرُ أشدُّ.

ثمَّ قالَ ﷺ: «**أُولَئِكَ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللهِ**» فدلَّ على أنَّ مَنْ بنى المسجدَ على القبرِ، أو صوَّرَ الصورَ ونصبَها؛ إنه مِنْ شرارِ الخلقِ. وشرار: جَمْع شرّ، وهو أفعلُ تفضيلٍ، والمرادُ به: أشدُّ الناسِ شرّاً، فدلَّ على أنَّ الذي يبني المساجدَ على القبورِ أنه أشدُّ النَّاسِ شرّاً -والعياذُ باللهِ-، وفي الحديثِ الآخرِ الذي سيأتي: «**إن من شرار الخلق من تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يبنون المساجد على القبور**» لأنَّهم فتَحوا للنَّاس بابَ الشركِ بهذا الفعلِ، وتسبَّبوا في انحرافِ الأمةِ، وما حدَثَ الشركُ في هذهِ الأمةِ إلَّا بسببِ البناءِ على القبورِ.

فَهَؤُلَاءِ جَمَعُوا بَيْنَ الفِتنَتَينِ: فِتنَةِ القُبُورِ، وَفِتنَةِ التَّمَاثِيلِ.

وأوَّلُ مَنْ بنى على القبورِ في الإسلامِ -كما يقولُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ- هم[1]: الشيعةُ، الفاطميونَ، ثمَّ قلَّدَهم مَنْ قلَّدَهم من المنتسبينَ إلى السّنّةِ من الصوفيةِ وغيرِهم، فبنيتِ المساجدُ على القبورِ في الأمصارِ.

ولا تزالُ الأمةُ الإسلاميةُ تعاني مِنْ شرِّ هذهِ القبورِ وفتنتِها، وحدوثِ الشِّرْكِ في الأمةِ، الذي لا يُقرُّهُ مَنْ يؤمنُ باللهِ ورسولِهِ، لأنَّه شركٌ صُراحٌ، وأصبحتْ هذهِ المساجدُ المبنيةُ على القبورِ أوثاناً تُعبَدُ من دونِ اللهِ، ويظنُّ أصحابُها أنَّ ذلكَ من الإسلامِ، وأنَّ مَنْ أنكرَهُ فهو خارجٌ عن الإسلامِ، كالذينَ يقولونَ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٣]، فهم شرارُ الخلقِ، وإن كانوا يزعمونَ في أنفسِهم أنَّ ذلكَ إصلاحٌ، وأنَّهم خيرُ الخلقِ.

ثمَّ ذكَرَ الشَّيخُ عبارةً لشيخِ الإسلامِ ابنِ تيميةَ بعدَ الحديثِ وهي قولُهُ: «**فهؤلاء**» يعني: اليهودَ والنَّصارى.

«**جمعوا بين فتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل**» فتنةُ القبورِ هي الغلوُّ في القبورِ، وتعظيمُ القبورِ حتَّى تُتَّخذَ مُتعبَّداتٍ، هذه فتنةٌ عظيمةٌ في الأممِ السابقةِ وفي هذهِ الأمةِ.

والفتنة الثانية: فتنةُ التماثيلِ، وهي فتنةٌ قديمةٌ كما في قصةِ قومِ نوحٍ، فقومُ نوحٍ إنَّما وقَعَ الشركُ فيهم بسببِ نَصْبِ التماثيلِ، ووقَعَ الشركُ في اليهودِ بسببِ تمثالِ العِجلِ الذي عَمِله السامريُّ، ووقَعَ في النَّصارى بسببِ نَصْب الصليبِ على صورةِ المسيحِ بزعمِهم، ويُخشَى أَنْ يقعَ الشركُ في هذهِ الأمةِ بسببِ نصبِ التماثيلِ للعلماءِ والعبادِ الصالحينَ، فهذه فتنةٌ عظيمةٌ، حذَّرَ منها النبيُّ ﷺ.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٣٣٨).

وَلَهُمَا[١] عَنهَا، قَالَت: لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ الله ﷺ؛ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، وَهُو كَذلِكَ:

قال: «**ولهما**» أي: البخاريّ ومُسلِم.

«**عنها قالت: لما نُزل برسول الله**» يعني: نَزَلَ بِهِ الموتُ -عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ-.

«**طَفِقَ**» طَفِقَ: من أفعالِ الشروعِ عندَ أهلِ اللغةِ، أي: جَعَل يَفْعَلُ كذا.

«**يطرح خميصة**» أي: يضعها، والخميصةُ: كساءٌ له أعلامٌ، أي فيه خطوطٌ.

«**على وجهه**» يغطّي وجْهَهُ ﷺ بها وهو في هذهِ الحالةِ.

«**فإذا اغتم بها**» أي: ضيّقتْ نفسُهُ -عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ-.

«**كشفها**» من أجلِ أَنْ يتنفَّسَ.

«**فقال: -وهو كذلك-**» يعني: في هذهِ الحالةِ الحرجةِ، لم يشتغِلْ عن الدعوةِ إلى التوحيدِ، وإنكارِ الشركِ، ونصيحةِ الأمةِ، صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه.

والمناسبةُ: أنه لمَّا شَعَر بالموتِ خَشِي على أمّته أن تفعلَ عندَ قبرِهِ ما فَعَل مَنْ قَبْلها من الأممِ عندَ قبورِ الأنبياءِ والصالحينَ، فلم يترُكِ الفرصةَ تَذْهب، وإنَّما استغَلَّها بالنصيحةِ للأمةِ -عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ-.

فإذا كانَ النبيُّ ﷺ يحذِّرُ من الشركِ وهو في هذهِ الحالةِ، فهذا دليلٌ على أنَّ التحذيرَ من الشركِ أمرٌ متعيِّنٌ، وأنه يجبُ على الدُّعاةِ أن يهتموا بهذا الأمرِ اهتماماً بالغاً قبلَ غيرِه، قبل أن يحثُّوا النَّاسَ على الصلاةِ والصيامِ، وتركِ الرِّبا، وتركِ الزِّنا، وتركِ شربِ الخمرِ، قبلَ ذلك ينهوهم عن الشركِ، لا سيّما إذا كانَ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٥) و(١٣٩٠)، ومسلم (٥٣١).

«لَعْنَةُ اللهِ عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ».

واقعاً في الأمةِ، فالسُّكوتُ عنه من الغشِّ للأمةِ، فلابدَّ أن يُبدَأَ به، وأن يُعمَلَ على إزالتِهِ قبلَ كلِّ شيءٍ، لأنه إذا صَلُحَت العقيدةُ صلُحَتْ بقيةُ الأعمالِ.

أمَّا إذا فَسَدتِ العقيدَةُ فلا فائدةَ في الأعمالِ كلِّها، ولو ترَكَ الرِّبا، وتَصدَّقَ بمالِهِ، وصلَّى الليلَ والنَّهارَ، وصامَ الدَّهرَ، وحجَّ، واعتَمَرَ، وعندَه شيءٌ من الشركِ الأكبرِ، فإنَّ أعمالَه تكونُ هباءً منثوراً، لا فائدةَ منها، أما إذا كانَ موحداً خالياً من الشركِ، فلو وقَعَ في الكبائرِ، ولو وقَعَ في الزِّنا، ووقَعَ في الرِّبا، ووقَعَ في المحرماتِ التي دونَ الشركِ، فإنه يُرْجى له المغفرةُ، وإِنْ عُذِّبَ بذنوبِهِ فإنَّه لا يُخلَّدُ في النارِ وهو مؤمنٌ موحِّدٌ، حكمُهُ حكْمُ المؤمنينَ، ولابدَّ له من دخولِ الجنةِ بتوحيدِهِ وإيمانِهِ، وإِنْ كانَ ضعيفاً، أما إذا كانَ عندَهُ شركٌ أكبرُ، فهذا لا فائدةَ في أعمالِهِ، لو ترَكَ المحرماتِ كلِّها، وأَدَّى الواجباتِ كلِّها ولم يتجنَّبِ الشركَ، فإنه لا فائدةَ في أعمالِهِ كلِّها.

فكيف إذاً نهتمُّ بجوانبَ فرعيةٍ، أو جوانبَ جزئيةٍ، ونتركُ هذا الأمرَ الخطيرَ يعجُّ في جسمِ الأمةِ الإسلاميةِ، ولا نحذِّرُ منه، ولا ندعو إلى تركِهِ، ولا نَسْعى في إزالتِهِ عن الأمةِ؟ بحجَّةِ أنَّنا نريدُ أَنْ نَجْمَعَ الأمةَ كما يقولونَ.

هذا هو صميمُ الدَّعوةِ، هذا هو الذي جاءتِ الرُّسُلُ من أوَّلِهم إلى آخرِهم للتحذيرِ منه، كلُّ رسولٍ يقولُ لقومِهِ: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾، لأن العبادةَ لا تنفعُ معَ وجودِ الشركِ، فهذا أمرٌ عظيمٌ.

قوله ﷺ: «**لعنة الله على اليهود والنصارى**» اللعنةُ هي: الطَّرْدُ والإبعادُ من رحمةِ اللهِ.

واليهود: الأمةُ الغضوبُ عليها، والنَّصارى: الأمةُ الضالةُ.

يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا، وَلَولَا ذَلِكَ أُبرِزَ قَبرُهُ، غَيرَ أَنَّهُ خَشِيَ أَن يُتخَذَ مَسجِداً. أَخرَجَاهُ.

﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، المغضوبُ عليهم: اليَهود، ومن اقتَدَى بهم من هذهِ الأمةِ، ممَّنْ عَلِمَ ولم يَعْمَلْ بعلمِهِ، والضَّالونَ هم: النَّصارى الذينَ يعبدونَ اللهَ على غيرِ علمٍ، بل بالبدعِ والمحدثاتِ والخرافاتِ من النَّصارى وكلُّ من اقتدى بهم.

«**اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» يعني: أَمْكنة للعبادةِ يُصلُّون عندَها، ويَدْعون اللهَ عندها، ظنّاً منهم أنَّ العبادةَ عندَ القبورِ أفضلُ من العبادةِ في الأمكنةِ الأُخْرى، مع أنَّ العبادةَ عندَ القبورِ لا تجوزُ، لأنها وسيلةٌ إلى الشركِ.

قالت عائشة رضي الله عنها: «**يحذّر ما صنعوا**» أي: أنَّ الذي حمَلَ النبيَّ ﷺ على أَنْ يقولَ هذهِ الكلمةَ في هذهِ الحالةِ الحرِجةِ: أنه يحذِّرُ أمَّتَهُ ممَّا صنَعَ اليهودُ والنَّصارى، لئلَّا يفعلوا بقبرِ نبيِّهم ما فَعَلَ اليهودُ والنَّصارى معَ قبورِ أنبيائِهم. فالذي حَمَلَه على هذا تحذيرُ هذهِ الأمةِ لئلَّا تعملَ هذا العملَ، فلا تَتَّخَذ القبورَ مساجدَ، سواءً بُنِي عليها أو لم يُبنَ عليها، إذا بُني عليها فالأمرُ أشدُّ، وإذا لم يُبنَ عليها، وصلّي عندَها، ودعا عندَها فكذلك، هذا من اتِّخاذها مساجدَ كما يأتي.

«**ولو ذلك**» أي: ولولا الخوفُ من أَنْ يحصلَ عندَ قبرِه ﷺ مثلَ ما حصَلَ عندَ قبورِ أنبياءِ بني إسرائيلَ.

«**أبرز قبره**» أي: لدُفِنَ في مكانٍ بارزٍ يراهُ النَّاسُ.

«**ولكنه خَشي**» بالفتح، أو «**خُشي**» بالضم.

«**أن يتخذ قبره مسجداً**» يعني: مكان صلاةٍ ودعاءٍ، كما فَعَل اليهودُ والنَّصارى عندَ قبورِ أنبيائِهم.

فقطعاً لهذهِ الذريعةِ وسدّاً لهذا البابِ دُفِنَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- في بيتِهِ في حجرةِ عائشةَ، داخلَ الجُدْرانِ وتحتَ السَّقْف، لا يراهُ أحدٌ.

ولا يزالُ -والحمدُ للهِ- في صيانةٍ وأمانةٍ، فلا يزالُ في بيتِهِ ﷺ محاطاً بالجُدرانِ لا يراهُ أحدٌ، صيانةً لقبرِهِ أن يُفعَلَ عندَهُ كما فعلتِ اليَهودُ والنَّصارى عندَ قبورِ أنبيائِهم.

هذهِ هي الحكمةُ في دفنِهِ ﷺ في بيتِهِ، وعدمِ دفنِهِ في المقبرةِ مع أصحابِهِ في البقيعِ.

قال ابنُ القيِّمِ[1]:

ودعا بأن لا يجعل القبر الذي ... قد ضمه وثناً من الأوثان

فأجاب رب العالمين دعاءه ... وأحاطه بثلاثة الجدران

حتى اغترت أرجاؤه بدعائه ... في عزة وحماية وصيان

فدلَّ ذلكَ على تحريمِ الغلو في القبورِ، والبناءِ عليها، واتخاذِ بقاعِها أمكنةً للصلاةِ عندَها، والدعاءِ عندَهَا.

ويُستفادُ من هذينِ الحديثينِ مسائلُ عظيمةٌ:

المسألة الأولى: تحريمُ البناءِ على القبورِ، لأنَّ ذلكَ وسيلةٌ إلى الشركِ باللهِ عز وجل، لأنَّ القبرَ إذا بُني عليهِ بنيّةٌ، أو جُعِل عليه ستائرُ وزُخرف، فإنَّ العوامَ والجُهّال يفتتنونَ به، ويظنّونَ أنه ما عُمِل به هذا العملُ إلّا لأنَّ فيه سراً، وأنَّه محلٌّ للعبادةِ والدعاءِ وطلبِ الحاجاتِ -كما هو الواقعُ-، ولهذا كانَ هديُ الإسلامِ في

---

(١) «توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم» (٢/ ٣٥٢).

القبورِ أنَّ الميتَ يُدفنُ في المقبرةِ العامةِ مع أمواتِ المسلمينَ، ويُدفَن في ترابِ قبرِهِ الذي حُفرَ منه، لا يزادُ عليه، ويُرفعُ عن الأرضِ قدرَ شبرٍ من الترابِ من أجلِ أن يُعْرفَ أنه قبرٌ فلا يُداسُ، ولا يُبنى عليه شيءٌ، هكذا كانَ قبرُ النبيِّ وكانَتْ قبورُ الصَّحابةِ في عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ، وهذا هو هدي الإسلامِ في القبورِ، لا يُبنى عليها بنيّةٌ، ولا يُكتَب عليها، ولا تُزخرفُ، ولا تُجصَّص، لأنَّ هذهِ الأمورَ إذا فُعِلت صارَتْ وسيلةً إلى الشركِ، وقد أمرَ النبيُّ ﷺ بهدمِ القبورِ المُشرفةِ، فقالَ لعليِّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه: «**لَا تَدَعَ قَبْرًا مُشْرِفًا [يعني مرتفعاً] إِلَّا سَوَّيْتَهُ**» يعني: هدَمْت ما عليه مِنَ البناءِ، حتَّى يصبحَ كسائرِ القبورِ لا يُلفتُ النظرَ، ولا يُفتتنُ به، فالقبورُ إذا كانَتْ على الهدي الشرعيِّ لا يُفتتَنُ بها، أما إذا بُني على بعضِها، وجُصِّص، وزُخرف، فإن النّاسَ سينصرفونَ إليه ولابدَّ.

المسألة الثانية: في الحديثِ دليلٌ على تحريمِ العبادةِ عندَ القبرِ، حتَّى ولو لم يُبْنَ عليه بنيّةٌ، لا بدعاءٍ، ولا بصلاةٍ، ولا بذبحٍ، ولا بنذرٍ، ولا بغيرِ ذلكَ، وإنما هدي الإسلامِ أنَّ القبورَ تُزارُ من أجلِ السلامِ على الأمواتِ، والدعاءِ لهم بالمغفرةِ والرحمةِ، واتعاظِ الزائرِ بأحوالِ الموتى، هذا هو هدي الإسلامِ في القبورِ، وأَنْ لا تُهانَ القبورُ -أيضاً-، ولا تُمتَهن، بل يُحافظُ عليها، فلا تُهانُ ولا تُداسُ.

فهدي الإسلام وسطٌ بينَ إفراطٍ وتفريطٍ، بينَ الغلوِّ فيها، وبينَ التساهُلِ في شأنِها وإهانتِها، يُحافِظُ عليها الإسلامُ، ولكنَّه لا يَغْلو فيها، هدي الإسلام هو الوسطُ في كلِّ شيءٍ -والحمدُ لله-، لأنَّ من النَّاسِ مَنْ يمتهنُ القبورَ، ويَبْني عليها المساكنَ، أو يجعلها محلاً للقماماتِ والقاذوراتِ، أو بِدَوْسِ الأقدامِ عليها، أو مرورِ الحيواناتِ عليها، أو يقضونَ حوائجَهم ويبولونَ عليها، وهذا حرامٌ لا يُقرِّه الإسلامُ.

المسألة الثالثة: فيه دليلٌ على تحريمِ نصبِ الصورِ من التماثيلِ وغيرِها، لأنَّ ذلكَ وسيلةٌ إلى الشركِ بهذهِ الصورِ ولو على المَدى البعيدِ، كما حَصلَ لقومِ نوحٍ.

المسألة الرابعة: فيه دليلٌ على أنَّ النيّةَ الصالحةَ لا تُسوِّغُ العملَ السيءَ، فهؤلاءِ إنما فعلوا هذا لظنِّهم أنَّ فيه خيراً، وفيه تذكراً لأحوالِ هؤلاءِ الصالحينَ، أو إكراماً للصالحينَ -كما يقولونَ-، أو تخليداً لذكراهُم، فهذا وإنْ كانَ قَصْدُهم فيه حسناً، فإنَّ هذا العملَ غيرُ مشروعٍ لأنه يُفضي إلى الشركِ في العبادةِ، والشارعُ جاءَ بسدِّ الذرائعِ المُفضيةِ إلى الشركِ دونَ نظرٍ إلى نيَّاتِ أصحابِها.

المسألة الخامسة: فيه دليلٌ على جوازِ لعنِ الكفارِ وأصحابِ الكبائرِ على وجهِ العمومِ، لأنَّ النبيَّ ﷺ لَعَن اليهودَ والنَّصارى، وهذا لَعْنٌ على العمومِ، فلعنُ الكفارِ وأصحابِ الكبائرِ على العمومِ لا بأسَ به لأجلِ التنفيرِ فِ فِعْلِهم، وأما لعنُ المعيّنِ ففيهِ خلافٌ.

المسألة السادسة: في الحديثينِ دليلٌ على التحذيرِ من التشبُّهِ بالنَّصارى، لأنَّ البناءَ على القبورِ والصَّلاة عندَها من هدي النَّصارى، ونحن مَنْهيُّونَ عن هدي النَّصارى، ففي قولِ عائشةَ رضي الله عنها: «**يحذّر ما صنعوا**» دليلٌ على النَّهي عن التشبهِ بالنَّصارى، ولا سيما في أمورِ العقيدةِ.

المسألة السابعة: أنَّ الذينَ يبنونَ على القبورِ والذينَ يذهبونَ إليها للتعبُّدِ عندَها هُمْ شرارُ الخلقِ، لا أحدَ شرٌّ منهم، لأنَّ معصيتَهم فوقَ كُلِّ معصيةٍ، فالزاني وشاربُ الخمرِ والسارقُ أخفُّ من الذي يبني على القبورِ، ولو كانَ زاهداً عابداً.

فالزاني والشَّاربُ -الذي يشربُ الخمرَ- ومعه أصلُ التوحيدِ وأصلُ العقيدةِ هـذا خيرٌ من الذيـنَ يبنونَ على القبـورِ، والذينَ يذهبـونَ للعبادةِ عندَهـا، وإن كانـوا

يبكونَ الليلَ والنَّهارَ، ويصومونَ، فهم شرارُ الخلقِ -والعياذُ باللهِ-.

المسألة الثامنة: فيه دليلٌ على أنَّ المصورينَ هُمْ شرارُ الخلقِ، لأنَّ فعلَهم هذا وسيلةٌ إلى الشركِ، ولأنه مضاهاةٌ لخلقِ اللهِ، قالَ اللهُ تعالى في الحديثِ القدسيِّ[1]: «**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي**» يعني: المصورين، «**فَلْيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً**» وهذا تعجيزٌ لهم، فدلَّ على أنَّ المصورينَ هُمْ شرارُ الخلقِ، سواءً كانوا يصورونَ ببناءِ التماثيلِ، أو يصورونَ بالرسمِ، أو يصورونَ بالتقاطِ الصورِ بالآلةِ الفوتوغرافيةِ، كلُّ ذلكَ داخلٌ في الوعيدِ والنَّهْي الشديدِ، وأنَّهم شرارُ الخلقِ عندَ اللهِ. ومن أخرجَ التصويرَ بالكمرةِ عن حكمِ التصويرِ المنهي عنه فليسَ له دليلٌ ولا عبرةَ بقولِهِ.

المسألة التاسعة: في الحديثِ دليلٌ على وجوبِ الاهتمامِ بأمرِ العقيدةِ، والدعوةِ إليها قبلَ كلِّ شيءٍ من أنواعِ الفسادِ، نبدأُ بإصلاحِ العقيدةِ قبلَ إصلاحِ الأمورِ الأُخرى، لأنَّ هذا منهجُ الأنبياءِ -عليهم الصلاةُ والسّلامُ-.

المسألة العاشرة: في الحديثِ دليلٌ على كمالِ حرصِهِ ﷺ على أُمَّته، ونصيحتِهِ لأُمَّتِهِ، وأنه بلَّغَ البلاغَ المبينَ حتَّى في آخرِ لحظةٍ من حياتِهِ ﷺ، بل في حالةٍ حرِجةٍ، وهي حالةُ الاحتضارِ.

المسألة الحادية عشر: فيه دليلٌ على بيانِ الحكمةِ من دفنِهِ ﷺ في بيتِهِ.

وعدمُ دفنِهِ في المقبرةِ العامةِ، وأنَّ ذلك لأجلِ الحفاظِ على عقيدةِ المسلمينَ من الغلوِّ في حقِّهِ ﷺ، وأن يُفعلَ عندَ قبرِهِ كما فُعِلَ عندَ قبورِ الأنبياءِ والصالحينَ في بني إسرائيلَ، هذا هو بيانُ الحكمةِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٥٣) ومسلم (٢١١١).

وهذا فيهِ بيانُ الإشكالِ الذي لا يزالُ يتردّدُ عندَ بعضِ النَّاسِ، ويقولونَ: إنَّ مسجدَ الرسولِ مبنيٌّ على القبرِ، فهذا دليلٌ على جوازِ البناءِ على القبورِ بزَعْمِهم.

ونقولُ: إنَّ النبيَّ ﷺ لم يُدفنْ في المسجدِ، وإنَّما دُفِنَ في بيتِهِ خارجَ المسجدِ، والحكمةُ في ذلكَ ما ذكرَتْهُ أمُّ المؤمنينَ أنهُ خشِيَ أَنْ يُتَّخذَ مسجداً، فالبيتُ منفردٌ عن المسجدِ، وفي معزلٍ عن المسجدِ، وإنما أُدْخِلَ البيتُ في المسجدِ بعدَ عهدِ الخلفاءِ الراشدينَ في وقتِ الوليدِ بنِ عبدالملكِ؛ لمَّا أرادَ أَنْ يُوسِّعَ المسجدَ عمَّمَ التوسعةَ من جهةِ المشرقِ، فأدخلَ حجرةَ النبيِّ ﷺ، ولم يكُنْ هذا بمشورةِ أهلِ العلمِ، وإنَّما هذا عملُ الخليفةِ بدونِ مشورةِ أهلِ العلمِ، ولكِنْ معَ هذا فالبيتُ لا يزالُ على شكلِهِ وحيازتِهِ، والمسجدُ لا يزالُ على وضعِهِ والحمدُ للهِ، وما يحصُلُ من النّاسِ الجهالِ إنما يكونُ في مسجدِ الرسولِ وليسَ عندَ القبرِ، لأنَّ القبرَ بعيدٌ عنهم، ومَصُونٌ عنهم، ولا يَرَوْنَه، ولهذا لمَّا دعا النبيُّ ﷺ ربَّه قال: «**اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ**»[1] استجابَ اللهُ دعاءَه، فصانَهُ في بيتِهِ.

ولهذا يقولُ العلامةُ ابنُ القيِّمِ:

فأجاب رب العالمين دعـاءه وأحاطـه بثلاثـة الجـــدران

يعنـي: صـارَ القبـرُ داخلَ الجـدرانِ، فلا يُرى أبداً، وذلكَ صيانةٌ له عن الغلوِّ -عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ-.

(١) أخرجه البخاري (١٣١١) ومالك في «الموطأ» (١٤٦).

وَلِمُسلِمٍ[(١)] عَن جُنْدُبِ بنِ عَبدِالله قَالَ: سَمِعتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبلَ أنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ وهُوَ يَقُولُ: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى الله أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ الله قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلاً، لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً.

قوله: «**ولمسلم عن جندب بن عبدالله**» هو: جُندبُ بنُ عبدِاللهِ البَجَلي، رضِيَ اللهُ تعالى عنه.

«**قال: سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس**» يُحْتَمل أنَّ المرادَ: خمسُ سنينَ، ويَحْتملُ أنَّ المرادَ: خمسُ ليالٍ.

«**وهو يقول: إني أبرأ إلى الله**» البراءةُ معناها: نفيُ الشيءِ والابتعادُ عنه، كما يُقالُ: برَأَ القلَمَ إذا قَطَعَه وأَبْعَد جزءاً منه، فالبرءُ هو: البعدُ والانقطاعُ، فـ «**أبرأ إلى الله**» أي: ابتعدُ عن ذلكَ وأكرهُهُ.

«**أن يكون لي منكم خليل**» من الصحابةِ، فليسَ له من الصحابةِ خليلٌ، والسَّببُ في ذلكَ، أنَّ اللهَ اتَّخذَهُ خليلاً، والخُلّة لا تَقْبَلُ الاشتراكَ، فلا يُمْكِنُ أَنْ يكونَ خليلُ اللهِ وخليلُ أحدٍ من الخلقِ، لأنَّ الخُلّةَ لابدَّ أن تكونَ لواحدٍ، لا تَقبلُ الاشتراكَ، والخُلّة هي أَعلى درجاتِ المحبةِ، كما قالَ الشاعرُ:[(٢)]

تخللت مسلك الروح منّي وبذا سمّي الخليل خليلاً

وعبادُ اللهِ وأنبياؤه كلُّهم يشتركونَ في المحبةِ، فاللهُ يُحبُّ التوابينَ، ويُحِبُّ المُتطَهِّرين ويُحِبُّ المتقينَ، ويُحِبُّ المحسنينَ، أما الخُلَّة فهي لم تَحْصُلْ إلّا لاثنينِ فقط، هما: محمَّدٌ ﷺ وإبراهيمُ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٢).

(٢) وهو لبشار بن برد.

أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا القُبُورَ مَسَاجِدَ؛ فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ».

خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾، أمَّا بقيَّةُ الأنبياءِ والمؤمنينَ فإنَّ اللهَ يحبُّهم ويُحبُّونه كما جاءَتْ بذلكَ النصوصُ لكِنْ لم يتخِذِ اللهُ منهم خليلاً.

ثمَّ قالَ ﷺ: «**وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أُمَّتِي خَلِيلاً**» يعني: على فرضٍ، لو صحَّ لي وجازَ لي أَنْ اتَّخذ من أمتي خليلاً.

«**لاتخذت أبا بكر خليلاً**» فهذا فيه فضيلةُ أبي بكرٍ الصِّديق -رضِيَ اللهُ تعالى عنه-، وأنه أَحبُّ النّاسِ إلى رَسولِ اللهِ ﷺ.

وأبو بكر كنيتُهُ، أما اسمُهُ: فعبدُاللهِ بنُ عثمانَ، ولُقِّبَ بالصِّديقِ لكثرةِ صدقِهِ معَ اللهِ سُبحانه وتعالى ومَعَ رسولِهِ ﷺ ومَعَ عبادِ اللهِ، فهو كثيرُ الصِّدقِ، رضِيَ اللهُ تعالى عنه.

وفي قوله: «**وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلاً لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً**» هذا إشارةٌ إلى استخلافِ أبي بكرٍ مِنْ بعدِهِ لأنَّ الرسولَ ﷺ قالَ هذا في آخرِ حياتِهِ، كما أنه ﷺ في مرضِ موتِهِ أمَرَ أبا بكر أَنْ يصلِّيَ بالنَّاسِ، ولمَّا قيلَ له عن عمرَ؛ أبى وغَضِبَ، وأَمَرَ أن يُؤمرَ أبو بكرٍ أَنْ يصلِّيَ بالناسِ، فهذا فيه إشارةٌ إلى خلافتِهِ.

وفي ذلكَ ردٌّ على الرافضةِ الذينَ يُبْغضونَ أبا بكرٍ الصِّديق، ويطعنونَ في خلافتِهِ وخلافةِ إخوانِهِ: عُمَر وعُثمان، ويقولونَ: إنَّ الخلافةَ لعليٍّ بعدَ الرسولِ، وإنَّما الصَّحابةُ اغتَصَبوها، وظَلَموا عليًّا، هكذا يقولونَ -قبَّحَهُمُ اللهُ-. فعليٌّ رضِيَ اللهُ عنهُ هو الخليفةُ الرابعُ وهذا بإجماعِ المسلمينَ.

ثـمَّ قالَ ﷺ: «**أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ** «**أَلَا**» حرفُ تنبيهٍ، «**وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يَتَّخِذُونَ القُبُورَ مَسَاجِدَ**» يعني أنَّ اليهودَ والنَّصارى يَغْلونَ في قبورِ الأنبياءِ ويبنونَ

فَقَد نَهَى عَنهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ لَعَنَ -وَهُوَ فِي السِّيَاقِ- مَنْ فَعَلَهُ.

عليها المساجدَ ويُصلونَ عندَها.

«**أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا القُبُورَ مَسَاجِدَ**» كررَّ كلمةَ «**أَلَا**» مرةً ثانيةً لأجلِ التنبيهِ والتأكيدِ. ومعنى اتِّخاذِها مَساجد أي: مُصلَّيات.

ثم لَمْ يقتصِرْ على هذا، بَلْ قالَ: «**فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ**» تأكيدٌ بعدَ تأكيدٍ، لأهمِّيةِ هذا الأمرِ.

واتخاذُ القبورِ مساجدَ على معنيينِ:

المعنى الأول: وهو المرادُ بهذا الحديثِ-: اتخاذُها مُصلَّيات يُصلَّى عندَها وإن لم يُبنَ مسجدٌ، كما يأتي.

المعنى الثاني: أن يُبنَى عليها مسجدٌ كما حصَلَ من اليهودِ والنَّصارى وكما حصَلَ في القرونِ المتأخرةِ من هذهِ الأمةِ.

وأوَّلَ من بني المساجدَ على القبورِ -كما يقولُ الشَّيخ: تقيُّ الدينِ[١] هم: الشيعةُ الفاطميونَ في مصرَ والمغربِ، ثمَّ قلَّدَهم الخرافيونَ الذينَ يَنْتسبون إلى أهلِ السّنّةِ من الصوفيةِ وغيرِهم، وبنَوْا على القبورِ، وهذا إنَّما حدثَ بعدَ القرونِ المُفضلةِ، التي ثنى عليها رسولُ اللهِ ﷺ.

* * *

ثمَّ نقلَ الشَّيخُ رحمه الله كلامَ شيخِ الإسلامِ ابنِ تيميةَ فقال: «**فقد نهى عنه في آخر حياته**» يعني: قبلَ أَنْ يموتَ بخمسٍ -كما في حديثِ جُندب-.

«**ثم إنه لعن -وهو في السياق-**» في سياقِ الموتِ، كما في حديثِ عائشةَ

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٣٣٨).

وَالصَّلَاةُ عِندَهَا مِن ذَلِكَ، وَإِن لَم يُبنَ مَسجِدٌ، وَهُوَ مَعنَى قَولِهِ: «خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا»؛ فَإِنَّ الصَّحَابَةَ لَم يَكُونُوا لِيَبنُوا حَولَ قَبرِهِ مَسجِداً.

الذي سبَقَ: أنه ﷺ لمَّا نزَلَ به جعَلَ يطرَحُ خميصةً له على وجهِهِ، فإذا اغتمَّ بها كشَفَها، فقال وهو كذلكَ -يعني: في هذه الحالةِ الحرِجةِ-: «**لَعْنَةُ اللهِ عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**».

قالَتْ عائشةُ رضي الله عنها: يحذِّرُ ما صنعوا، ولولا ذلكَ لأبرزَ قبرُهُ، غيرَ أنه خشي أن يُتَّخذَ مسجداً.

قال الشيخُ: «**فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجداً**» لأنَّهم معصومونَ عن ذلكَ رضي الله عنهم، ولا يمكن ذلك أبداً في حقِّهم، بل لم تُبْنَ المساجدُ في القرونِ الأربعةِ كلِّها، لأنَّ القرونَ الأربعةَ أثنى عليها رسولُ اللهِ ﷺ بقولِهِ: «**خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»[١]، فإذا كانتِ القرونُ الأربعةُ لم يُبنَ فيها على القبورِ مَساجِدَ فكيفَ يُبنى في عهدِ الصحابةِ الذينَ هم القرنُ الأوَّل، رضِيَ اللهُ تعالى عنهم؟، فدلَّ على أنَّ المرادَ باتِّخاذِها مسَاجِد: تَحرِّي الصَّلاة عندَها ظنّاً أن الصلاةَ عندَها فيها مزيّةٌ، وأنها يُستجابُ الدعاءُ عندَها، لأنَّ ذلكَ وسيلةٌ من وسائلِ الشركِ، والنبيُّ ﷺ نهى عن الصلاةِ عندَ القبورِ، واتِّخاذِها مساجدَ سدّاً لذريعةِ الشركِ، لأنهُ إذا صُلّي عندَها، ودُعِيَ عندَها، فإنَّ ذلكَ يتطوّرُ وتُدعى من دونِ اللهِ، وتُعبدُ من دونِ اللهِ، كما حصَلَ عندَ الأضرحةِ الآنَ حيثُ صارَتْ تُعبدُ مِنْ دونِ اللهِ؛ فيُذبح لها، ويُنْذَر لها، ويُستغاثُ بالموتى، ويُتمرّغُ على تُربتِها، ويُعكَفُ عندَها، ويُطافُ حولَها كما يُطاف بالكعبةِ، كلُّ ذلكَ لأنَّ البابَ فُتِح لمَّا بُني عليها.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥١) ومسلم (٢٥٣٥).

وَكُلُّ مَوضِعٍ قُصِدَت الصَّلَاةُ فِيهِ؛ فَقَد اتُّخِذَ مَسجِداً، بَل كُلُّ مَوضِعٍ يُصَلَّى فِيهِ يُسَمَّى مَسجِداً، كَمَا قَالَ ﷺ: «جُعِلَت لِيَ الأَرضُ مَسجِداً وَطَهُوراً»(١).

ثمَّ قال رحمه الله: «**وكل موضع قُصدت الصلاة فيه**» أي: كلُّ موضعٍ يُتردَّدُ عليه ويُصلَّى فيه، سواءً كانَ عندَه قبرٌ أو ليسَ عندَه قبرٌ «**فقد اتَّخذ مسجداً**» وإن لم يُبنَ، ولو كانَ صحراءَ فهو يُسمَّى مسجداً، يعني: مكان صلاةٍ ومَكان سجودٍ.

«**بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجداً**» حتى لو لم يُبْنَ عليه.

«**كما قال ﷺ: «وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا»**» يعني: صالحةً للصَّلاةِ فيها.

فدلَّ على أنَّ المكانَ الذي يُصلَّى فيه يُسمَّى مسجداً، سواء قُصدَ أو لم يُقصَد، سواء بُني عليه أو لم يُبنَ.

فالحاصلُ؛ أنَّ معنى اتخاذِ القبورِ مساجدَ يشملُ معنيينِ:

المعنى الأول: الصَّلاةُ عندَها وإِنْ لم يُبنَ مسجداً، وهذا هو المعنى المرادُ من الأحاديثِ.

والمعنى الثاني: بناءُ المساجدِ فيها والقِبابُ، وهذا -أيضاً- منهيٌّ عنه، فإنَّ النبيَّ ﷺ قالَ لعليِّ بنِ أبي طالبٍ: «**لَا تَدَعَ قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ**» يعني: إلَّا هَدَمْتَه، وسوَّيتَهُ بالأرضِ، لأنَّ هذا يفتنُ النَّاسَ، ويصبحُ وسيلةً من وسائلِ الشركِ.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥) ومسلم (٥٢١).

وَلأَحمَدَ[١] بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَن ابنِ مَسعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَرفُوعاً: «إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ القُبُورَ مَسَاجِدَ». وَرَوَاهُ أَبُو حَاتِمٍ فِي «صَحِيحِهِ»[٢].

ثمَّ قالَ: «**ولأحمد**» أي: لأحمدَ بنِ حنبلٍ رحمه الله.

«**بسند جيد، عن ابن مسعود مرفوعاً**» إلى النبيِّ ﷺ، يعني: وليسَ من كلامِ ابنِ مسعودٍ، وإنَّما هو من كلامِ الرسولِ ﷺ.

«**إن من شرار النّاس**» شِرار جمع: شرّ، وشر أَفْعل تفضيلٍ، بمعنى أَشرّ، أي أشد النّاس شرّاً.

«**الذين تدركهم الساعة**» أي: قِيام السَّاعةِ، وذلكَ عندَ نفخةِ الصَّعقِ التي يموتُ بها الخلقُ -إلَّا مَنْ شاءَ اللهُ-، وهي المذكورةُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ صُعِقوا أي: ماتوا مرةً واحدةً من أثرِ الصعقةِ، إذا نفَخ إسرافيلُ في الصورِ النخفةَ الأُولى صَعِقَ كلُّ الأحياءِ، إلَّا من استثنى اللهُ سُبحانه وتَعالى بقوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ﴾، ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ وهذهِ نفخةُ البعثِ. الأولى: نَفخة الموتِ، والثانية: نفخةُ البعثِ، ينفخُ إسرافيلُ عليه السلام في الصورِ مرّةً ثانيةً، فيقومونَ من قبورِهم أحياءَ يمشونَ: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾، وهذا بقدرةِ اللهِ سبحانه وتعالى، فهاتانِ نفختانِ: نفخةُ الصَّعْق، ونَفْخة البعثِ.

وهناكَ نفخةٌ ثالثةٌ ذكرَها اللهُ في آخرِ سورةِ النملِ: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فهـذهِ نفخةُ الفزعِ، وبعضُ العلماءِ

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٤٠٥).

(٢) يعني ابن حبان برقم (٦٨٤٧).

-كشيخِ الإسلامِ ابنِ تيميةَ وغيرِه- يَرَون أنَّ النفخاتِ ثلاثةٌ:

نَفْخة الفزعِ، وهي المذكورةُ في سورةِ النَّملِ.

ونَفْخة الموتِ. ونَفْخة البعثِ. وهما المذكورتانِ في سورةِ الزُمَرِ.

وبعضُ العلماءِ يرى أنهُ ليسَ هناكَ إلَّا نفختانِ: نفخةُ الصَّعْقِ، ونفخةُ البعثِ، ونفخةُ الصَّعقِ هذهِ عندَهم هي نفخةُ الفزعِ، يفزعونَ ثمَّ يموتونَ.

فالذينَ يحضرونَ هذا الحدثَ الهائلَ -وهو: نفخةُ الصعقِ- همْ شرارُ النَّاسِ، لأنَّ المؤمنينَ يموتونَ قبلَ ذلكَ، كما قالَ ﷺ: «**لا تقوم الساعة وفي الأرض من يقول: الله، الله**»[1] لأنهُ إذا كانَ فيها مَنْ يقولُ: الله، الله، ويذكرُ اللهُ فالحياةُ تَبْقى في هذهِ الدُّنيا، لأنَّ ذكرَ اللهِ والتوحيدَ والعبادةَ عِمارةٌ لهذهِ الأرضِ، فإذا فُقِدَ ذلكَ استحقَّ أهلُها العقوبةَ، فيَحْصلُ بذلكَ الموتُ العامُ.

أما قوله ﷺ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الحَقِّ ظَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ**»[2] فالمرادُ بذلكَ أنهم يموتونَ قبلَ ذلكَ، يقبضُ اللهُ أرواحَهم قبلَ ذلكَ بريحٍ يُرْسِلُها اللهُ تقبضُ روحَ كُلِّ مؤمنٍ ومُؤْمنةٍ، ولا يحضرونَ هذا الحدثَ المُروّع، رحمة من الله تعالى بهم.

يُستفادُ من هذينِ الحديثينِ مسائلُ عظيمة:

المسألة الأولى: يُستفادُ من الحديثينِ إثباتُ المحبةِ للهِ سبحانه وتعالى، وأنَّها صفةٌ من صفاتِه، وأنهُ يُحِبُّ أولياءَه ورسلَه، ويحِبُّ عبادَه المؤمنينَ، وهذهِ صفةٌ من صفاتِهِ اللَّائقةِ بجلالِهِ، كما يُبغِضُ الكافرينَ والمنافقينَ، ويكرهُ، ويَمْقتُ،

---

(١) أخرجه البخاري (٣١١٦) ومسلم (١٩٢٠).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٨).

ويَغْضبُ، ويَرْضى، ويَضْحكُ، كلُّ هذهِ من صفاتِهِ سُبحانه وتعالى، وهي صفاتٌ لائقةٌ بِهِ جلَّ وعَلا.

وهذا مذهبُ أهلِ السّنّةِ والجَماعةِ أنّهم يثبتونَ ما جاءَ في الكتابِ والسنةِ من صفاتِهِ الذاتيةِ، ومن صفاتِهِ الفعليةِ سبحانه وتعالى على ما يليقُ بجلالِهِ، ومن ذلكَ: إثباتُ المحبةِ، وأنه يحِبُّ. وتكرَّرَ ذكرُ محبتِهِ لعبادِهِ في آياتٍ كثيرةٍ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾، إلى غيرِ من الآياتِ والأحاديثِ التي تُثبتُ أنَّ اللهَ يحبُّ عبادَه المؤمنينَ.

المسألة الثانية: في الحديثِ دليلٌ على أنَّ الخُلّةَ أَعْلى درجاتِ المحبةِ، ولذلكَ لم تحصُلْ إلّا للخليلينِ: محمَّد وإبراهيم -عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ-، أما بقيةُ الأنبياءِ والصالحينَ فإنَّ اللهَ يحبُّهم، لكنْ لم تَصِلْ محبَّتُهم إلى مرتبةِ الخُلّة.

وكذلك النبيُّ ﷺ يحِبُّ أصحابَه؛ فيحِبُّ عائشةَ، ويحِبُّ أبا بكرٍ، ويحِبُّ عمَرَ، وقالَ لمعاذٍ: «**يا معاذ إني أحبك**»[1] فهو يحِبُّ أصحابَه -عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ-، أما الخُلّةُ فإنه لم يُخالِلْ أحداً منهم حتَّى ولا أبا بكرٍ، لأنَّ الخُلّةَ لا تقبَلُ الاشتراكَ، فلم تَكُنْ إلّا للهِ سبحانه وتعالى خالصةً، فهذا فيهِ دليلٌ على أنَّ الخُلّةَ أعلى درجاتِ المحبةِ. وقولُ بعضِ الصحابةِ: خليلي رسولُ اللهِ هذا من قِبلِ الصحابي لا مِنْ قبَلِ الرسولِ ﷺ.

المسألة الثالثة: فيه دليلٌ على فضلِ الخليلينِ: محمَّد وإبراهيم -عليهما

---

(١) أخرجه النسائي (١٣٠٣) وأبو داود (١٥٢٢).

الصَّلاةُ والسَّلام-، حيثُ نالا هذهِ المرتبةَ التي لم ينَلْها أحدٌ غيرهُمْ.

المسألة الرابعة: في الحديثِ دليلٌ على فَضْلِ أبي بكرٍ الصدِّيق، لأنَّ الرسولَ ﷺ قالَ: «**لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلاً لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً**» فهذا فيهِ فضيلةُ أبي بكرٍ، وفيهِ إشارةٌ إلى استخلافِهِ من بعدِهِ.

المسألة الخامسة: في الحديثِ دليلٌ على تحريمِ الصلاةِ عندَ القبورِ، وبناءِ المساجدِ عليها، لأنَّ قولَه ﷺ: «**فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ**» يَشْمَلُ المعنيينِ: الصلاةَ المجردةَ عن البناءِ، أو مَعَ البناءِ على القبرِ، كلُّه من اتِّخاذِها مساجدَ، وذلكَ سدّاً لذريعةِ الشركِ، لا كما يقولُهُ مَنْ قلَّ فَهْمُهُ أو أرادَ التضليلَ ممَّنْ زعَمَ أنَّ العلةَ هي: نجاسةُ المكانِ، فهذه علةٌ غيرَ صحيحةٍ، لأنَّ المكانَ ليسَ فيهِ نجاسةٌ. أو مَنْ قالَ: المرادُ لا يُصلِّي فوقَ القبرِ.

المسألة السادسة: في الحديثِ دليلٌ على بُطْلانِ الصلاةِ عندَ القبورِ، أو في المساجدِ المبنيّةِ على القبورِ، لأنَّ الرسولَ ﷺ نهى عن ذلكَ، والنَّهْيُ يَقْتَضي الفسادَ عندَ الأصوليينَ، فالذي يُصلِّي عندَ القبرِ صلاتُهُ غيرُ صحيحةٍ، فعليهِ أن يعيدَ الفريضةَ، لأنَّ صلاتَه عندَ القبرِ أو في المسجدِ المبنيِّ على القبرِ غيرُ صحيحةٍ، لأنَّها صلاةٌ منهيٌّ عنها، والصَّلاةُ المنهيُّ عنها غيرُ مشروعةٍ، فهي لا تصِحُّ.

المسألة السابعة: في الحديثِ دليلٌ على أنَّ الذينَ يتخذونَ القبورَ مساجدَ شِرار الخَلْقِ، فالذينَ يفعلونَ هذا الفعلَ سواءً كانوا من اليهود أو من النصارى أو من المنتسبين إلى الإسلام هُمْ شرُّ الخلقِ، لا أحدَ شرّ منهم، والعياذُ باللهِ.

المسألة الثامنة: أنَّ الحديثَ يدلُّ على أنَّ الساعةَ لا تقومُ على أهلِ الإيمانِ، وإنَّما تقومُ على الكفّارِ، لأنَّ أهلَ الإيمانِ من خيرِ النَّاسِ، وليسوا شرَّ النَّاسِ، فلا

تقومُ عليهم السَّاعةُ، وإنما يموتونَ قبلَ ذلك، تُقبضُ أرواحُهم كما دلَّتْ على ذلكَ الأحاديثُ الواردةُ عن النبيِّ ﷺ، وأَنَّ اللهَ يُرسِلُ ريحاً قبلَ قيامِ الساعةِ تقبضُ روحَ كلِّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ، فلا يَبْقى في الأرضِ إلَّا الكفَّارُ وشرارُ الخلقِ، يتهارجونَ كما تتهارج الحُمُر، لأَنَّهم ليسَ عندَهم دينٌ، ولا خلقٌ، ولا مروءةٌ.

* * *

الباب الحادي والعشرون:

بَاب ما جاء أن الغلوَّ في قبورِ الصالحين يُصيِّرُها أوثاناً تُعبد من دون اللَّه

قوله رحمه الله: «**باب ما جاء**» أي: من الوعيدِ.

«**أن الغلو في قبور الصالحين**» الغلوُّ تقدَّم لنا معناه، وهو: الزيادةُ عن الحدِّ المشروعِ.

والغلو في قبورِ الصالحينَ هو: الزيادةُ في تعظيمِها، لأنَّ ذلكَ يؤدي إلى الشركِ، لأنَّ المشروعَ في قبورِ الصالحين -وقبورِ المسلمين عموماً- احترامُها، وعدمُ إهانتها، وصيانتُها عن الأذى، وزيارتُها للسلامِ على الأمواتِ، والدعاءِ لهم، والاعتبارِ بأحوالِهم، هذا هو المشروعُ، أما الغلوُّ فهو قَصْدُها للتبرُّك، أو الدعاءِ عندَها، أو الصلاةِ عندَها رجاءَ الإجابةِ، هذا هو الغُلُو، لأنَّ هذا لم يَشْرَعْهُ اللهُ ولا رسولُه، ولأنَّه وسيلةٌ إلى الشركِ.

«**يصيّرها**» أي: يجعلُها في المستقبلِ، وعلى امتدادِ الزمانِ.

«**أوثانا تعبد**» الأوثان: جَمْع وثن، والوثن ما عُبِدَ من دونِ اللهِ من قبرٍ، أو شجرٍ، أو حجرٍ، أو بقاعٍ، أو غيرِ ذلكَ، أما الصَّنَم فهو: ما عُبِدَ مِنْ دونِ اللهِ وهو على صورةِ إنسانٍ أو حيوانٍ، كما كانَ قومُ إبراهيمَ يعبدونَ التماثيلَ: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾، والتماثيلُ جَمْع تمثال، وهو: ما كانَ على صورةِ إنسانٍ، أو حيوانٍ هذا هو الفرقُ بينَ الوثنِ والصَّنَمِ، وقد يُرادُ بالصَّنمِ الوَثَن، والعَكْس.

والشارحُ رحمه الله يقولُ: إذا ذُكِرَ أحدُهما شَمِلَ الآخرَ، إذا ذُكِرَ الصَّنَم فقَطْ

رَوَى مَالِكٌ فِي «المُوَطَّأ»(١): أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعبَدُ، اشتَدَّ غَضَبُ الله عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ».

دخَلَ فيه الوثنُ، وإذا ذُكر الوثنُ فقَطْ دخَلَ فيه الصنَمُ، أما إذا ذُكرا جميعاً افترَقا في المعنى، فصارَ الصَّنَم: ما كانَ على شكلِ تمثالٍ، وأما الوثنُ فيُرادُ به: ما عُبدَ من دونِ اللهِ من الشجرِ، والحجرِ، والقبورِ والصُّورِ وغيرِ ذلك، ولم يكُنْ على صورةِ تمثالٍ، فبينهما عمومٌ وخصوصٌ مطلقٌ، يجمعُها أنها تُعبَدُ من دونِ اللهِ عز وجل.

***

قال: «**روى مالك**» هو: مالكُ بنُ أنسٍ إمامُ دارِ الهجرةِ، وأحدُ الأئمةِ الأربعةِ المجتهدينَ: الذينَ هم أبو حنيفةَ، ومالكٌ، والشافعيُّ وأحمدُ أصحابُ المذاهبِ الأربعةِ الباقيةِ.

وهناك مذاهبُ لأهلِ السّنّةِ، لكن انقرضَتْ، مثلَ: مَذْهب سفيانَ الثَّوْري، ومَذْهب ابنِ جريرٍ الطَّبَري.

فمالكٌ هو أحدُ الأئمةِ الأربعةِ المقلَّدينَ، وهو إمامٌ جليلٌ، يُسمَّى بإمامِ دارِ الهجرةِ -يعني: المدينة-، ويُسمَّى عالمُ المدينةِ، واشتُهِرَ في وقتِهِ، حتَّى قيلَ: لا يُفتى ومالكٌ في المدينةِ، وذلكَ لعظيمِ منزلتِهِ وثقةِ النّاسِ به، رحمه الله رحمةً واسعةً.

«**في الموطأ**» الموطأ، كتابٌ أَلَّفَه مالكٌ في الحديثِ والفقهِ، حيثُ يذكرُ فيه الأحاديثَ ويذكرُ فقهَها، وما يُؤخذُ منها، فهو كتابٌ عظيمٌ من الكتبِ التي جَمَعتْ بينَ الفقهِ والحديثِ، ومرجعٌ من مراجعِ الأمةِ الإسلاميةِ، شرحَهُ علماءُ

---

(١) أخرجه مالك (١/ ١٧٢) عن عطاء بن يسار مرسلاً، وأخرجه الحميدي (١٠٢٥)، وأبو يعلى (٦٦٨١) من حديث أبي هريرة بسند جيِّد. وانظر «سنن أبي داود» (٢٠٤٢).

كثيرونَ، لكِنْ أَشْهرُ شُروحِهِ: «**التمهيد**» لابنِ عبدِالبرّ، وشرحَهُ أبو الوليد الباجي في كتابِهِ: «**المُنْتقى**»، وشرحه الزُّرقاني -أيضاً-، وشرحَهُ السيوطيُّ، وله شروحٌ كثيرةٌ، لكِنْ أَشْهرُها وأعظمُها وأكثرُها فائدةً هو: كتابُ: «**التمهيد**» للإمام ابنِ عبدِالبرِّ النَّمَري رحمه الله.

سُمِّي الموطأُ مِنَ التوطئةِ وهي: التَّسْهيلُ والتَّقريبُ، لأنه رحمه الله سهَّلَهُ للنّاسِ، ووطّأه للنَّاس بترتيبِهِ وتبويبِهِ، حتَّى أصبحَ سَهْلاً، هذا معنى تَسْميتِهِ بالموطأ.

«**إن رسول الله ﷺ قال: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ»**» هذا دعاءٌ من الرسولِ ﷺ، دعا بِهِ ربَّه أَنْ يصونَ قبرَه من الغلوِّ به، كما حصَلَ لقبورِ الأنبياءِ السابقينَ من اليهودِ والنَّصارى، حيثُ غلو في قبورِ أنبيائِهم، فقالَ: «**اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ**» فدلَّ على أنَّ الغلوَ في القبرِ يصيِّره وثناً، وهذا الشاهدُ من الحديثِ للبابِ، ولكنَّ اللهَ حماهُ وللهِ الحمدُ، حماه بأَنْ دُفِنَ في بيتِهِ، ومُنِعَ النَّاسُ من الوصولِ إليه وسَيَبْقى مَصوناً -بإذنِ اللهِ- استجابةً لدعوةِ رسولِهِ ﷺ، ودُفِنَ في بيتِهِ من أجلِ هذا، كما مَرَّ قولُ عائشةَ: «**وَلَوْلَا ذَلِكَ لَأَبْرَزُوا قَبْرَهُ، غَيْرَ أَنِّي أَخْشَى أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا**» فدَفْنُهُ ﷺ في بيتِهِ له سرٌّ عظيمٌ، هو: صيانتُهُ من قصدِ النّاسِ له بالدعاءِ، والصَّلاةِ عندَه، والتبرّكِ به، يقولُ ابنُ القيِّمِ رحمه الله-:[1]

فأجاب رب العالمين دعاءه وأحاطه بثلاثة الجدران

والمشروع: السَّلامُ عليه من غيرِ مكوثٍ عنده وطولِ قيامٍ ولا تَكرُّرِ زيارةٍ كما كانَ الصحابةُ يفعلونَ ذلكَ:

---

(١) «توضيح المقاصد وتصحيح القواعد» (٢/ ٣٥٢).

فَقَدْ كانَ ابنُ عمرَ يقِفُ -إذا جاءَ من سفرٍ- مقابلَ وجهِ النبيِّ ﷺ فيقولُ: السلامُ عليكَ يا رسولَ اللهِ، ثمّ يتأخرُ إلى جهةِ الشرقِ قليلاً فيقولُ: السَّلامُ عليكَ يا أبا بكرٍ، ثمّ يتأخرُ قليلاً فيقولُ: السَّلامُ عليك يا أبتِ، ثمّ ينصرفُ.

وهكذا كانَ عملُ المسلمينَ عندَ السلامِ على الرسولِ ﷺ وعلى صاحبيهِ رضي الله عنهما، ما كانوا يجلسونَ، وما كانوا يتردَّدونَ، حتَّى إنَّ الصَّحابةَ في المدينةِ ما كانوا كلَّما دخلوا إلى المسجدِ راحوا يسلمونَ على الرسولِ، لأنَّ هذا يُعتبَرُ من الغلوِّ، إنَّما كانوا يسلمونَ على الرسولِ إذا جاؤوا من سفرٍ -كما فعلَ ابنُ عمرَ رضِيَ اللهُ تعالى عنه-، فالصَّحابةُ يأتونَ إلى المسجدِ، ويتردّدونَ عليهِ للصَّلاةِ، ولطلبِ العلمِ، وللاعتكافِ فيه، لكِنْ ما كانوا كلَّما دخلوا ذهبوا يسلمونَ على الرسولِ ﷺ، لأنَّهم عرفوا أنَّ هذا من الغلوِّ الذي حذَّرَ منه النبيُّ ﷺ، وهُمْ أعلمُ النَّاسِ وأفقَهُ النّاسِ بمقاصدِ الرسولِ. ومن أجلِ ذلكَ ما كانوا يتردَّدونَ على القبرِ، حتَّى إنَّ مالكاً رحمه الله، كانَ يكرَهُ أَنْ يقولَ الإنسانُ: زُرْتُ قبرَ الرسولِ ﷺ، لأنَّ زيادةَ قبرِ الرسولِ ﷺ لم يرِدْ بها دليلٌ خاصٌّ، والأحاديثُ المرويةُ في زيارةِ قبرِهِ كلُّها موضوعةٌ أو ضعيفةٌ شديدةُ الضعفِ، لم يثبُتْ منها شيءٌ، وإنَّما تدخُلُ زيارةُ قبرِهِ ﷺ في عمومِ قولِهِ ﷺ: «**زُورُوا القُبُورَ، فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُمُ الآخِرَةَ**»[1]، فزيارةُ قبرِهِ تَدْخلُ في عمومِ زيارةِ القبورِ التي أمرَ بها النبيُّ ﷺ، أما أنَّه ورَدَ لفظٌ خاصٌّ بزيارةِ قبرِ الرسولِ ﷺ، فهذا لم يثبُتْ أبداً، كما نبَّهَ على ذلكَ الحفاظُ؛ كشيخِ الإسلامِ ابنِ تيميةَ، وابنِ حجرٍ، وابنِ عبدِالهادي، وغيرِهم من الأئمةِ الحفاظِ.

ولابنِ عبدالهادي كتابٌ مستقلٌ اسمُهُ: «**الصارمُ المنكي في الردِّ على**

---

(١) أخرجه مسلم (٩٧٦).

السُّبكي» تناولَ الأحاديثَ التي استدلَّ بها السبكيُّ على مشروعيةِ السفرِ لزيارةِ قبرِ الرسولِ ﷺ، فبينَ ما فيها من المقالِ واحداً واحداً، حتَّى أتى على آخرِها.

فهذا الكتابُ -الصارم المُنْكي- كتابٌ نفيسٌ جدّاً، يحتاجُهُ طالبُ العلمِ، ليتسلّحَ به ضدَّ الخرافيينَ الذي يحتجونَ بهذهِ الأحاديثِ التي لا تَصْلحُ للاحتجاجِ.

ثمَّ قالَ ﷺ: «**اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**» تحذيرٌ بعدَ تحذيرٍ، حيثُ سبَقَ عدةَ مراتٍ أنَّ الرسولَ ﷺ لَعَنَ اليهودَ والنَّصارى وهو في سياقِ الموتِ لأنَّهم اتخذوا قبورَ أنبيائِهم مساجدَ؛ يُحذِّرُ ما صَنَعوا، وقالَ -قبلَ أن يموتَ بخمسٍ-: «**ألا إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد**»(١) وهنا يقولُ: «**اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ**».

«**غَضَبُ اللهِ**» والغَضَبُ صفةٌ من صفاتِهِ سبحانه وتعالى فاللهُ يَغْضَبُ، كما أنهُ يفرحُ ويَضْحكُ ويحبُّ، كما جاءَتْ بذلكَ النصوصُ، وكلُّ هذهِ الصفاتِ تليقُ بجلالِهِ، ليسَ كغضبِ المخلوقِ، ولا كفرحِ المخلوقِ، ولا كضَحِكِ المخلوقِ، ويحِبُّ كما يليقُ بجلالِهِ لا كمحبةِ المخلوقِ.

ونُثْبتُ للهِ ما أثبتَهُ لنفسِهِ أو أثبتَهُ له رسولُهُ من الصفاتِ من غيرِ تحريفٍ ولا تأويلٍ، ومن غيرِ تكييفٍ ولا تمثيلٍ، فنُثبتُ أنَّ اللهَ يغضبُ، وأنه يشتدَّ غضبُهُ، وأنه يَمْقتُ، والمقتُ أشدُّ الغضبِ: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، فاللهُ يمقتُ بمعنى: أنه يَشْتدُّ غضبُهُ.

وهذا فيهِ أنَّ مَنْ جَعَلَ القبرَ مسجداً فقد اتَّخذَهُ وثناً يُعبَد.

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٢).

وَلابنِ جَرِيرٍ[1] بِسَنَدِهِ: عَن سُفيَانَ، عَن مَنصُورٍ، عَن مُجَاهِدٍ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩﴾ [سورة النجم: ١٩]؛ قَالَ: «كَانَ يَلُتُّ لَهُم السُّوِيقَ، فَمَاتَ، فَعَكَفُوا عَلَى قَبرِهِ».

ودلَّ على أنَّ هذهِ الأضرحةَ المبنيةَ على القبورِ التي يُطافُ بها الآنَ، ويُنذَرُ لها، ويُذبَحُ لها، ويُستغاثُ بها أوثانٌ، لا فرقَ بينها وبينَ اللَّاتِ والعُزَّى ومناةَ الثالثةَ الأخرى، وإنْ سمُّوها مساجدَ، أو سمَّوها مقاماتٍ للصالحينَ، فالتسميةُ لا تُغيِّرُ المعنى، فهي أوثانٌ كما سمَّاها الرسولُ ﷺ.

***

ثمَّ قالَ: «**ولابن جرير**» ابن جريرٍ هو: الإمامُ الجليلُ، إمامُ المفسرينَ، محمَّدُ بنُ جريرٍ الطبريُّ، صاحبُ كتابِ «**التفسيرِ**» الذي أصبحَ مرجعاً للمفسرينَ الذينَ جاؤوا مِنْ بعدِه، فأعظمُ التفاسيرِ هو تفسيرُ ابنِ جريرٍ، أما تفاسيرُ أهلِ الكلامِ وأهلِ المنطقِ فليسَ مرجعُها كتبَ أهلِ السنةِ، بَلْ مرجعُها قواعدُ المنطقِ وعلمُ الكلامِ، مثلَ: «**تفسير الرازي**» و«**تفسير الزمخشري**» وفيها من الخلطِ، وفيها مِنَ الشرِّ الشيءُ الكثيرُ، وإنْ كانَ فيها فوائدُ،، فـ «**تفسير الزمخشري**» فيهِ فوائدُ لغويةٌ، وأسرارٌ بلاغيةٌ، وبيانٌ لتفسيرِ الألفاظِ من جهةِ اللغةِ، فهو جيِّدٌ من هذهِ الناحيةِ، ولكنَّه من ناحيةِ العقيدةِ ومن ناحيةِ التأويلِ يشتَملُ على كثيرٍ من الشرِّ والقولِ بخلقِ القرآنِ، فهو من هذهِ الناحيةِ تفسيرٌ مختلطٌ، لا يَصْلحُ أن يُطالِعَ فيه إلَّا طالبُ العلمِ المتأصِّلُ من أجلِ أَنْ يأخذَ ما فيهِ من الفوائدِ، ويتركَ ما فيهِ من الأباطيلِ، أما المبتدئُ والجاهِلُ فلا يَصْلحُ أَنْ يُطالِعَ في تفسيرِ الزمخشري.

وأمَّا: «**تفسيرُ الرازي**» فهو أكثرُ شرّاً من: «**تفسيرِ الزمخشري**» لأنـه كلَّه جدلٌ

---

(١) في «تفسيره» (٢٧/ ٥٨).

وافتراضاتُ، وأحياناً يأتي بإشكالاتٍ ولا يُجيبُ عليها.

إنَّما التفاسيرُ الموثوقةُ هي التفاسيرُ المبنيَّةُ على كلامِ اللهِ عز وجل على قواعدِ التفسيرِ المعروفةِ: تَفْسير القرآنِ بالقرآنِ، أَوْ تَفْسير القرآنِ بالسُّنةِ، أو تَفْسير القرآنِ بأقوالِ الصَّحابة، أو تَفْسير القرآنِ بمُقْتَضى اللغةِ العربيةِ، هذهِ وجوهُ التفسيرِ.

أما أن يُدخَل فيها علمُ الكلامِ وعلمُ المنطقِ، فهذا ليسَ من التفسيرِ.

فأوثقُ التفاسيرِ هو: «**تفسيرُ ابنِ جرير**» وكذلكَ: «**تفسيرُ ابن كثير**»، وكذلك: «**تفسيرُ البغوي**» هذه كتبٌ موثوقةٌ، تنهجُ منهجَ السلفِ، وتُفسِّرُ القرآنَ بالوجوهِ المعروفةِ التي هي وجوهُ التفسيرِ الصحيحةِ، وما عداها ففيهِ خلطٌ.

وكلُّ مفسرٍ له اتجاهٌ، بعضُهم يتَّجهُ إلى النحوِ كأبي حيّانَ، وبعضُهم يتَّجهُ إلى البلاغةِ كالزمخشري، وبعضُهم يتجهُ إلى الأحكامِ الفقهيةِ كالقرطبي.

قال: «**عن سفيان**» سفيانَ هذا يحتملُ أنه: سفيانُ بنُ عيينةَ، الإمامُ المشهورُ، ويحتملُ أنه: سفيانُ الثوريُّ، وهذا هو الذي رجَّحَهُ الشارحُ.

وسفيانُ الثّوريُّ إمامٌ جليلٌ في علمِ الحديثِ وفي علمِ الفقهِ، وله مذهبٌ مستقلٌّ، لكنَّه انقرَضَ.

«**عن منصور**» منصور هو: منصورُ بنُ المعتمرِ، إمامٌ جليلٌ وثقةٌ.

«**عن مجاهد**» مجاهدُ بنُ جَبْر، التابعيُّ الجليلُ، من أكبرِ تلاميذِ عبدِالله بنِ عباسٍ -رضِيَ اللهُ تعالى عنهما-، وهو الذي يقولُ: «**عرضت المصحف على ابن عباس من أوَّلِهِ إلى آخرِه، أقف عندَ كلِّ آيةٍ، وأسألهُ عن معناها**» هذا هُو مجاهدُ ابنُ جَبْر، من أكبرِ أئمةِ المفسرين، ومن أكبرِ تلاميذِ عبدِالله بنِ عباسٍ -رضِيَ اللهُ

وَكَذَا قَالَ أَبُو الجَوزَاءِ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ: «كَانَ يَلُتُّ السُّويقَ للحَاجِّ»(١).

تعالى عنهما-.

«**في قوله تعالى:** ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾» هذهِ أسماءُ أصنامِ العربِ.

اللَّاتُ في الطائفِ، والعُزَّى في مكّةَ عندَ عرفات، ومناةُ على طريقِ المدينةِ بالمشلّلِ عند قُدَيْد، كان يُحرِم منها المشركونَ إذا جاءوا للحجِّ. والشاهد من ذلك: اللَّات.

«**قال: كان يَلُتُّ لهم السّويق**» ولَتُّ السويق هو: خَلْطُه بالسمنِ.

كانَ هذا الرجلُ يعملُ هذا العملَ من أجلِ إطعامِ النّاسِ، يعني: يُحسِنُ إلى النّاسِ، فأحبوهُ، وتعلَّقَتْ قلوبُهُم به، لأنهُ يبذُلُ الطعامَ، فلمَّا ماتَ عكفوا على قبرِهِ حتَّى صارَ وثناً.

«**فمات، فعكفوا على قبره**» دلَّ على أنَّ الغلوَّ في قبورِ الصالحينَ يُصيِّرها أوثاناً تُعبَدُ من دونِ اللهِ، لأنَّ اللَّاتَ رجلٌ صالحٌ ما صارَ قبره وثناً إلَّا بسببِ الغلوِّ فيه، والعكوفِ عندَ قبرِهِ.

«**وكذا قال أبو الجوزاء**» وأبو الجوزاءِ هو: سفيانُ بنُ عبدِالله الرَّبَعي.

«**عن ابن عباس قال: كان يَلُتُّ السّويق للحاج**» هذا مثْلُ روايةِ ابنِ جريرٍ، في أنَّ اللاتَ اسمُ رجلٍ غلَوْا في قبرِهِ حتى صارَ وثناً يُعبَدُ.

* * *

قال: «**وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لعن رسول الله ﷺ**» اللعنُ هو: الطَّرْدُ والإبعادُ عن رحمةِ اللهِ عز وجل.

---

(١) أخرجه أيضاً ابن جرير (٢٧/ ٥٩).

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهما قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ الله ﷺ زَائِرَاتِ القُبُورِ، وَالمتَّخِذِينَ عَلَيْهَا المَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ». رَوَاهُ أَهلُ السُّنَنِ[(١)].

ومعنى «**لعن رسول الله**» أي: دعا عليهم باللعنةِ.

فهذا فيه دليلٌ على لعنِ أصحابِ الكبائرِ.

«**زائرات القبور**» أي: النساءُ اللاتي تزورُ القبورَ.

فدلَّ هذا على تحريمِ زيارةِ النساءِ للقبورِ، وهذا مذهبُ جمهورِ أهلِ العلمِ، أنه لا يجوزُ للنساءِ أن تزورَ القبورَ لهذا الحديثِ.

قالَ العلماءُ: لأنَّ المرأةَ ضعيفةٌ، فإذا رأَتْ قبرَ قريبِها من ابنِها، أو أَبيها، أو أخيها، أو زوجِها؛ فإنها لا تملِكُ نفسَها من النياحةِ ومن الجزعِ.

وأيضاً: المرأةُ عورةٌ، فإذا ذهبَتْ إلى المقابرِ واختلطَتْ بالرجالِ حصَلَ من ذلكَ فواحشُ وزنى وشرّ، لأنها فتنةٌ، كما هو الواقعُ الآنَ عندَ الأضرحةِ من اختلاطِ النساءِ بالرجالِ، وما يحصلُ من المفاسدِ.

وذهبَ بعضُ العلماءِ إلى جوازِ زيارةِ النساءِ للقبورِ أخذاً من عمومِ قولِهِ ﷺ: «**كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ القُبُورِ، فَزُورُوهَا فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ بِالآخِرَةِ**»[(٢)] قالوا: هذا لفظٌ عامٌّ يدخلُ فيهِ الرجالُ والنِّساءُ.

والجوابُ عن ذلكَ من وجهينِ:

الوجه الأول: أنَّ قولَه: «**فَزُورُوهَا**» هذا الخطابُ للرجالِ، وخطابُ الرجالِ لا تَدْخُلُ فيه النساءُ.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٢٣٦)، والترمذي (٣٢٠)، وابن ماجه (١٥٧٥)، والنسائي (٤/ ٩٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٥٧١) وأحمد (١/ ١٤٥)، وانظر «صحيح مسلم» (٩٧٧).

....

الوجه الثاني: أنَّه على فرضٍ أنَّ هذا الخطابَ عامٌّ للرجالِ والنساءِ، فإنه مخصوصٌ بهذا الحديثِ.

واحتجُّوا -أيضاً- بأنَّ عائشةَ رضي الله عنها زارَتْ قبرَ أخيها عبدِالرحمنِ. قالوا: فهذا دليلٌ على جوازِ زيارةِ النساءِ للقبورِ.

والجوابُ عن ذلك: أنَّ فعلَ عائشةَ هذا محمولٌ على أنها لم يَبْلُغْها النَّهْي، ولو بلَغَها النَّهْي لم تكُنْ لتخالِفَ رسولَ اللهِ ﷺ.

والجواب الثاني: وعلى فرضِ أنها بلَغَها هذا الحديثُ، فهذا اجتهادٌ منها، ولا شكَّ أنَّ الحُجَّةَ في حديثِ رسولِ اللهِ ﷺ لا في اجتهادِ المجتهدينَ.

فبناءً على ذلكَ فالقولُ الصحيحُ الراجحُ هو: منعُ النساءِ من زيارةِ القبورِ، وإنْ كان بعضُ الباحثينَ في هذا العصرِ أظهرَ هذهِ المسألةَ وكتبَ فيها، وأباحَ للنساءِ زيارةَ القبورِ، فهذا قولٌ مرجوحٌ، ولم يأتِ بجديدٍ وإنما أثارَ هذهِ المسألةَ فقط، ولا يجوزُ لطالبِ العلمِ أَنْ يتتبّعَ المسائلَ الغريبةَ ويذهبَ يثيرُها من جديدٍ، ويبعثُها على النّاسِ من جديدٍ، لما يترتبُ على ذلكَ من المفاسدِ.

قوله: «**زَائِرَاتِ القُبُورِ، وَالمتَّخِذِينَ عَلَيْهَا المَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ**» أما لعنةُ المتخذينَ عليها المساجدَ فهذا سبَقَ في قولِهِ ﷺ: «**لَعْنَةُ اللهِ عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**».

وأما لعنةُ المتخذينَ عليها السّرجَ، فالمرادُ بذلكَ: إضاءةُ المقبرةِ بالأنوارِ. لأنَّ هذا وسيلةٌ إلى الغلوِّ في القبورِ، ويُفضِي إلى الشركِ، فإنَّ هذا يجلبُ إليها أنظارَ النّاسِ والجُهالِ، ثمَّ يزورونَها، ويتردّدونَ عليه، ثمّ يؤولُ هذا إلى الشركِ، فلا يجوزُ أن تُضاءَ المقابرُ، بل تُجْعَل المقابرُ خاليةً من الإضاءةِ، وإذا احتاجَ

النَّاسُ إلى دفنِ ميِّتٍ في الليلِ فإنهم يأخذونَ معهم سراجاً، كما فعلَ النبيُّ ﷺ والصَّحابةُ عندَ الدفنِ بالليلِ.

وفي هذه النصوصِ فوائدُ عظيمةٌ:

الفائدة الأولى: أنَّ الغلوَّ في قبورِ الأنبياءِ يُصيِّرها أوثاناً تُعبدُ من دونِ اللهِ بدليلِ قولِهِ ﷺ: «**اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ**».

ومن الغلوِّ فيها: اتخاذُها مساجدَ، كما قالَ ﷺ: «**اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**» يعني: مُصليات، يصلونَ عندَها رجاءَ الإجابة.

الفائدة الثانية: أنَّ اللهَ سبحانه صانَ قبرَ رسولِهِ ﷺ، وأجابَ دعاءَه، فحُفِظَ من الغلوِّ فيه، وأُحيطَ بالجُدرانِ التي تمنعُ الوصولَ إليه، بل تمنعُ رؤيتَه والوصولَ إليه، كلُّ ذلكَ من أجلِ منعِ الغلو في قبرِهِ ﷺ.

الفائدة الثالثة: فيهِ أنَّ العكوفَ على قبورِ الصالحينَ يُصيِّرُها أوثاناً تُعبَدُ من دونِ اللهِ، كما حصَلَ لقبرِ اللَّاتِ، فإنه صارَ وثناً بسببِ العكوفِ عندَه بعدَ موتِهِ، كما أنَّ الشركَ حصَلَ في قومِ نوحٍ بسببِ الغلوِّ في الصالحينَ، فسياسةُ إبليسَ -لعنهُ اللهُ- واحدة مع الأولينَ والآخرينَ، يأتي النَّاسُ من بابِ الغلوِّ في الصالحينَ.

الفائدة الرابعة: فيه الردُّ على مَنْ زعمَ أنَّ البناءَ على قبورِ الصالحينَ من محبةِ الصالحينَ، ويقولونَ: أنتم لا تبنونَ على قبورِ الصالحينَ لأنكم تُبْغِضون الصالحينَ.

ففي هذا الحديثِ وهذهِ الآيةِ ردٌّ عليهم وأنَّ البناءَ على قبورِهم والغلوَّ فيها ليسَ من محبَّتِهم، وإنَّما هو مِن اتخاذِهم أوثاناً تُعبَد مِنْ دونِ اللهِ.

الفائدة الخامسة: في الحديثِ دليلٌ على تحريمِ زيارةِ النساءِ للقبورِ، وهو

مخصِّصٌ لقوله ﷺ: «**كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ القُبُورِ فَزُورُوهَا**»، فالرسولُ ﷺ في أولِ الأمرِ منعَ من زيارةِ القبورِ مطلقاً للرجالِ والنِّساءِ، لأنَّهم كانوا حديثي عهدٍ بالشركِ وبالجاهليةِ، فمنَعَهُم من زيارةِ القبورِ خشيةً من أن يترسَّبَ فيهم شيءٌ من أمورِ الجاهليةِ عندَ القبورِ، فلمَّا استقرَّ التوحيدُ في قلوبِهم، وعرَفوا التوحيدَ، أَذِن للرجالِ في زيارةِ القبورِ خاصةً، ومنَعَ النساءَ، لأنَّ المحذورَ باقٍ في حقِّهنَّ.

الفائدة السادسة: في الحديثِ دليلٌ على تحريمِ إضاءةِ المقابرِ بالأنوارِ، بأيِّ وسيلةٍ، سواءً كان بالسُّرجِ، أو كانَ بالكهرباءِ، أو غيرَ ذلك، كلُّ أنواعِ الإضاءةِ على حسبِ الأزمنةِ ممنوعةٌ، والواجبُ أن تكونَ القبورُ خاليةً من الإضاءةِ، لأنَّ الإضاءةَ وسيلةٌ إلى اتخاذِها أوثاناً، والرسولُ ﷺ لعن مَنْ فعلَ ذلكَ، لأنه وسيلةٌ إلى الشركِ.

* * *

الباب الثاني والعشرون:

بَاب ما جاء في حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم جناب التوحيدَ وسدِّه كلَّ طريق يُوصِلُ إلى الشرك

هذا البابُ عقدَهُ الشَّيخُ رحمه الله في بيانِ حمايةِ المُصْطَفى ﷺ لجَنابِ التَّوحيدِ، والأبوابُ التي قبلَه -أيضاً- هي في حمايةِ التوحيدِ، لكنَّ الأبوابَ التي قبلَه عامةٌ، وما في هذا البابِ أمورٌ خاصةٌ، وإلَّا كُلُّ الأبوابِ السابقةِ: الغلوُّ في الصالحينَ، وبناءُ المساجدِ على القبورِ، والغلوُّ في القبورِ، كلُّ هذا من الوسائلِ المُفضيةِ إلى الشركِ، وقد نهى النبيُّ ﷺ عنها سدّاً للطريقِ الموصِّلِ إلى الشركِ، وهذهِ الأبوابُ كلُّها في موضوعٍ واحدٍ.

ولا تَعْجبوا من كونِ الشَّيخِ كرَّرَ هذهِ الأبوابَ واحداً بعدَ واحدٍ، لأنَّ هذهِ المسألةَ عظيمةٌ، فالشركُ إنَّما حصَلَ في هذهِ الأمةِ بسببِ الفتنةِ في القبورِ والغلوِّ فيها، وبسببِ الغلوِّ في الصالحينَ، والغلوِّ في الرسولِ ﷺ، فالشركُ إنَّما حصَلَ في هذهِ الأمةِ بسببِ هذهِ الأمورِ، منذُ أَنْ بُنِيَتِ المساجدُ على القبورِ، ومنذُ أَنْ ظهَرَ التصوّفُ في هذهِ الأمةِ، والشرك يكثُرُ ويتعاظمُ في هذهِ الأمةِ إلَّا مَنْ رحِمَ اللهُ عز وجل، فالأمرُ خطيرٌ جدّاً، ولذلكَ كرَّرَ الشّيخُ رحمه الله في هذا الموضوعِ، وأبدى وأعادَ، لأنه هو المرضُ الذي أصابَ الأمةَ من أجلِ أَنْ ينبِّهَ العلماءَ، وينبِّهَ المسلمينَ على هذا الخطرِ الشديدِ ليقوموا بعلاجِهِ، والدعوةِ إلى التوحيدِ، ونفي الشركِ من هذهِ الأمةِ، وإلَّا إنْ سكَتَ العلماءُ عن هذا الأمرِ فإنه يَتعاظَمُ، وبالتالي في النّهايةِ يكثُرُ الجَهْلُ، وتعتبرُ هذهِ الأمورُ، من الدينِ، ويعتبرُ مَنْ نَهى عَنْها مِنَ الخارجينَ عن الدينِ كما حصلَ الآنَ؛ أنَّ مَنْ يُنْكِرُ هذهِ الأُمورَ، وينبِّهُ النَّاسَ إلى خطرِها، ويدعو إلى التوحيدِ يرمونَه بأنه متشدِّدٌ، وأنه خارجٌ عن الأمةِ، لأنَّ الأمةَ

عندَهم هم عبادُ القبورِ، ومن أنكرَ عبادةَ القبورِ صار خارجاً عن الأمةِ، وهذا من قلبِ الحقائقِ -والعياذُ باللهِ-، فالدينُ الذي جاءَتْ به الرسلُ هو إخلاصُ العبادةِ للهِ عز وجل، هذا هو الدينُ.

أما عبادةُ القبورِ فهي دينُ أبي جهلٍ وأبي لهبٍ ودينُ المشركين، ليسَتْ هي دينُ الرسلِ -عليهم الصلاةُ والسَّلامُ-، ولكن إذا ظهَرَ الجهْلُ، وظهَرَ اتِّباعُ الهوى حصَلَ في الأمةِ ما حصَلَ مِنْ جَعْلِ هذهِ الأمورِ الشركيةِ من الدينِ، وجَعْلِ التوحيدِ هو الخروجُ عن الدينِ، ولا حولَ ولا قوةَ إلَّا باللهِ.

قوله: «**باب ما جاء في حماية المصطفى**» المصطفى معناه: المُختارُ، من الصفوةِ، أصله: مُصْتَفى بالتاءِ، ثمّ أُبدلَتْ التاءُ طاءً، فصار مُصْطفى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ يعني: يَخْتار، ﴿ ﴾ ﴿ ﴾ ﴿ ﴾، أي: المختارين، ومنهم: نبيُّنا محمَّدٌ ﷺ، بل هو خيرُهم وأفضلُهم، فهو المُصْطفى ﷺ، اختارَهُ اللهُ للرسالةِ، والقيامِ بدعوتِهِ على فترةٍ من الرُّسُلِ، وهو خاتمُ النبيينَ ﷺ.

وقوله: «**جناب التوحيد**» الجَنابُ هو: الجانبُ، فالجَنابُ والجانبُ بمعنىً واحدٍ، أي: حمايتُهُ ﷺ حدود التوحيدِ مِنْ أَنْ يدخلَ عليهِ الشركُ بسببِ وسائلِ الشركِ والتَّساهلِ فيها، فالرسولُ ﷺ حَمَى حدودَ التوحيدِ حمايةً بليغةً، بحيثُ أنه نهى عن كلِّ سببٍ أو وسيلةٍ تُوصِّل إلى الشركِ، ولو كانَتْ هذه الوسيلةُ في أصلِها مشروعةً كالصلاةِ، فإذا فُعِلَتْ عندَ القبورِ، فهو وسيلةٌ إلى الشركِ، ولو حسُنَتْ نيةُ فاعلِها، فالنيةُ لا تبرِّرُ ولا تُزكِّي العملَ إذا كان يُؤدي إلى محذورٍ، والدعاءُ مشروعٌ، ولكن إذا دُعي عندَ القبرِ، فهذا ممنوعٌ، لأنه وسيلةٌ إلى الشركِ بهذا القبرِ، هذا سدُّ الوسائلِ.

وَقَولُ الله تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ الآية [سورة التوبة: ١٢٨-١٢٩].

فالرسولُ نهى عن الصلاةِ عندَ القبورِ، ونهى عن الدعاءِ عندَ القبورِ، ونهى عن البناءِ على القبورِ، ونهى عن العكوفِ عندَ القبورِ، واتخاذِ القبورِ عيداً، إلى غيرِ ذلك، كلُّ هذا من الوسائلِ التي تُفضي إلى الشركِ، وهي ليسَتْ شركاً في نفسِها، بل قد تكونُ مشروعةً في الأصلِ، ولكنَّها تؤدي إلى الشركِ باللهِ عز وجل، ولذلكَ مَنعَها ﷺ.

***

قال: «**وقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾**» وتمام الآية: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨)﴾، هذهِ الآيةُ في ختامِ سورةِ التوبةِ.

قوله تعالى: «﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ﴾» اللَّام لام القسم، تدلُّ على قسمٍ مقدَّرٍ، تقديره: واللهِ لقد جاءَكم، وقَدْ حرفُ تحقيقٍ. والخُطابُ للعربِ خاصَّةً، وهو للناسِ عامةً -أيضاً، لكنْ للعربِ خاصةٌ لأنَّ الرسولَ عربيٌّ، بُعِثَ بلسانِهم، فالمنَّةُ عليهم به أعظمُ.

«﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ﴾» أيُّها المسلمونَ عموماً والعربُ خصوصاً.

«﴿رَسُولٌ﴾» الرسول هو: مَنْ أوحي إليه بشرعٍ وأُمر بتبليغِهِ.

وأما النبي فهو: من أُوحي إليه بشرعٍ ولم يُؤْمر بتبليغِهِ.

هذا التعريفُ المشهورُ عندَ أهلِ العلمِ، ويذكرهُ المفسرونَ عندَ قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ من سورةِ الحجِّ، يذكرونَ هناك تعريفَ الرسولِ وتعريفَ النبيِّ، والفرقَ بينهما،

وذكرَهُ شيخُ الإسلامِ ابنِ تيميةَ في كتبِهِ، وأشهرُها كتابه: «**النبوّات**»: (الرسولُ مَنْ أُوحِي إليه بشرعٍ، بخلافِ النبيِّ فإن النبيَّ يُبعثُ بشريعةِ من قبله، كأنبياءِ بني إسرائيلَ، يُبعثون بالدعوةِ إلى التوراةِ التي نزلَتْ على موسى عليه السلام).

وقد يوحى إلى النبيِّ وحيٌ خاصٌّ في بعضِ القضايا، لكنَّ الغالبَ أنه يُبعَثُ بشريعةٍ سابقةٍ، كأنبياءِ بني إسرائيلَ، أما الرسولُ فإنه يُبعَثُ بشريعةٍ مستقلّةٍ.

والمراد بتبليغِهِ هنا: الجهادُ والإلزامُ، أي: أُمر أن يُلزمَ النّاسَ باتباعِهِ، ويجاهدَهم على ذلكَ، خلاف النبيِّ فإنه يؤمرُ بالتبليغِ، بمعنى: تعليم الناسِ شَرْع من قبلِهِ وإفتائهم فيه. وهذا مأمورٌ به غيرُ الأنبياءِ، حتَّى العلماءُ.

فالتبليغُ الذي معناهُ التعليمُ والإفتاءُ، وبيانُ الحلالِ والحرامِ والحقِّ من الباطلِ، هذا مأمورٌ بهِ كلُّ مَنْ عندَهُ علمٌ، إنَّما المرادُ بالتبليغِ هنا: التبليغُ الخاصُّ الذي هو الإلزامُ، والجهادُ على ذلكَ. والنبيُّ أيضاً يجاهدُ. لكِنْ يجاهدُ على شرعِ مَنْ قبلَهُ.

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: من جنسِكم من العربِ، تعرفونَ لسانَه، ويخاطبُكُم بما تعرفونَ، كما قالَ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾، فهذا من نعمةِ اللهِ أَنْ جعَلَ هذا الرسولَ عربيّاً يتكلمُ بلغتِنا، ولم يَجْعَلْهُ أعجميّاً لا نفهمُ ما يقولُ، ولهذا قالَ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾.

فمن رحمةِ اللهِ أَنْ جعَلَ هذا الرسولَ يتكلمُ بلغتِنا، ونعرفُ نسبَهُ، ونعرفُ لغتَهُ، ولم يكنْ أجنبياً لا نَعْرفُهُ، أو يكُنْ أعجمياً لا نفهمُ لغتَه، هذا من تمامِ النِّعمةِ على هذهِ الأمةِ، ولم يكُنْ من الملائكةِ، وهُمْ جنسٌ آخرُ من غيرِ بني آدمَ، بل هُوَ من جِنْسِنا، ويتكلمُ بِلُغَتنا.

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾ أي: شاقٌّ.

﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ العَنَتُ معناه: العَتبُ والمشقَّةُ، ومعناه: أنَّ الرسولَ ﷺ يشقُّ عليه ما يَشُقُّ على أمتِهِ، وكان يُحِبُ لهم التَّسهيلَ دائماً، ولهذا كانَ ﷺ يحِبُّ أن يأتيَ بعضَ الأعمالِ ولكنه يتركُها رحمةً بأمَّته خشيةَ أَنْ يشُقَّ عليهم، ومن ذلكَ: صلاةُ التراويحِ، فإنه صلَّاها بأصحابِهِ ليالي من رمضانَ، ثمَّ تخلفَ عنهم في الليلةِ الثالثةِ أو الرابعةِ، فلمَّا صلَّى الفجرَ، بيَّنَ لهم ﷺ أنه لم يتخلَّفْ عنهم إلَّا خوفَ أن تُفرَضَ عليهم صلاةُ التراويحِ، ثمَّ يَعْجزوا عنها، هذا من رحمتِهِ وشفقتِهِ بأمَّتِهِ.

وقالَ ﷺ: «**لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ**»[1]، فلَمْ يَمْنعهُ من ذلكَ إلَّا خوفُ المشقةِ على أمتِهِ، وكانَ يحبُّ تأخيرَ صلاةِ العشاءِ إلى ثلثِ الليلِ، ولكنَّه خشِيَ المشقةَ على أمتِهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ.

وهكذا كلُّ أوامرِهِ، يُراعي فيها التوسيعُ على الأمةِ، وعدمُ المشقةِ، لا يحبُّ لهم المشقةَ أبداً، ويحبُّ لهم دائماً التيسيرَ عليهم، ولذلكَ جاءَتْ شريعتُهُ سمحةً سَهْلةً، كما قالَ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾.

ولمَّا ذكَرَ الإفطارَ في رمضانَ للمسافِرِ والمريضِ ذكَرَ أنه شرَعَ ذلك مِنْ أجْلِ التسهيلِ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾.

هذا من صفةِ الرسولِ ﷺ أنه يحبُّ التيسيرَ لأمتِهِ، ويكرَهُ المشقةَ عليها.

﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ خاصة.

---

(١) أخرجه البخاري (٨٨٧) ومسلم (٢٥٢).

﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ الرأفة هي: شدّةُ الشفقةِ، ﴿رَّحِيمٌ﴾ يعني: عظيم الرحمةِ بأمّته ﷺ، أما بالكفّارِ فإنه كانَ شديداً على الكفّارِ، كما وصفَهُ اللهُ تعالى بذلك: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾، وكما قالَ اللهُ سبحانه وتعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: رُحَماء، ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يعني: يتّصفونَ بالغلظةِ والشِّدةِ على الكافرينَ، لأنّهم أعداءٌ للهِ وأعداءٌ لرسولِهِ، فتناسِبُهُم الشدةُ والغلظةُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ﴾ لأنّهم كفارٌ، لا تأْخُذْكُم بهم الرحمةُ والشفقةُ فلا تقاتلونَهم، بل قاتِلوهُم، واقْتُلوهم، ما داموا مصرينَ على الكفرِ: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾، الكافرُ ليسَ له جزاءٌ إلَّا القتل إذا أصرَّ على الكفرِ، أو يَخْضَع لحكمِ الإسلامِ ويَدْفع الجزيةَ صاغراً، هذا في الدُّنيا. وأما في الآخرةِ فله النَّارُ -والعياذُ باللهِ-، وهذا أشدُّ من القتلِ، لأنه عدوٌّ للهِ، وعدوٌّ لرسولِهِ، وعدوٌّ لدينِهِ، فلا تُناسِبُ معه الرحمةُ والشفقةُ.

فهذهِ الآيةُ الكريمةُ مناسبةُ إيرادِ الشَّيخِ لها في هذا البابِ: أنه إذا كانَ الرسولُ ﷺ مُتَّصفاً بهذهِ الصفاتِ التي هي أنه: عربيٌّ، يتكلمُ بلسانِنا ونفهمُ لغتَهُ، وأنه يشقُّ عليهِ ما يشقُّ علينا، وأنه بالمؤمنينَ رؤوفٌ رحيمٌ، فهل يليقُ بمَنْ هذهِ صفاتُهُ أن يتركَ الأمةَ تقعُ في الشركِ الذي يُبعدُها عن اللهِ، ويُسببُ لها دخولَ النَّارِ؟، هل يليقُ بمَنْ هذهِ صفاتُهُ أن يتساهلَ بأمرِ الشركِ؟، أو أَنْ يتركَهُ ولا يهتمَّ بالتحذيرِ منه، لأنَّ هذا هو أعظمُ الخطرِ على الأمةِ؟ وهذا هو الذي يَشُقُّ على الأمةِ، لأنه يفسِدُ عليها حياتَها، ولا يجعلُ لها مستقبلاً عند الله -عز وجل-، لأنَّ المشركَ مستقبلُهُ

النارَ ليس له مستقبلٌ إلّا العذابَ، فهل يليقُ بهذا الرسولِ الذي هذهِ صفاتُهُ أن يتساهلَ في أمرِ الشركِ؟، لا، بَل اللّائقُ به أَنْ يُبالغَ أشدَّ المبالغةِ في حمايةِ الأمةِ من الشركِ، وقد فَعَلَ ﷺ، فقد سدَّ كُلَّ الطرقِ المُوصلةِ إلى الشركِ بالأحاديثِ التي سمِعْتُم في الأبوابِ السابقةِ.

هناكَ ناسٌ الآنَ يقولونَ: لا تذكروا الشركَ، ولا تذكروا العقائدَ، يكفي التَّسمِّي بالإسلامِ، لأنَّ هذا يُنفِّرُ النَّاسَ، وَيُفرِّقُ النّاسَ، اتركوا كلاً على عقيدتِهِ، دعونا نجتمعُ ولا تُفرِّقونا.

يا سبحانَ اللهِ!!، نتركُ الشركَ ولا نتكلمُ في أمرِ التوحيدِ من أجلِ أن نَجْمعَ النّاسَ؟!!.

وهذا الكلامُ باطلٌ من وجوهٍ:

أولاً: لا يمكنُ اجتماعُ النّاسِ إلّا على العقيدةِ الصحيحةِ.

وثانياً: ما الفائدةُ من الاجتماعِ على غيرِ عقيدةٍ، هذا ماذا يؤدي إليه؟، لا يؤدي إلى نتيجةٍ أبداً.

فلا بدَّ من الاهتمامِ بالعقيدةِ، ولا بدَّ من تَخْليصِها من الشركِ، ولا بدَّ من بيانِ التوحيدِ، حتّى يحصُلَ الاجتماعُ الصحيحُ على الدينِ، لا يجتمعُ النَّاسُ إلّا على التوحيدِ، لا يُوحِّد النّاسَ إلّا كلمةُ: لا إله إلّا الله؛ قولاً وعملاً واعتقاداً.

هذا هو الذي جمَعَ العربَ على عهدِ الرسولِ ﷺ، وجعَلَهم أمةً واحدةً هو الذي يَجْمعُهُم في آخرِ الزمانِ، أما بدونِ ذلك فلا يمكِنُ الاجتماعُ مهما حاولتُم، فلا تتبعوا أنفسَكم أبداً، وهذا من الجهلِ أو من المُغالطةِ.

فالتوحيدُ ليسَ هو الذي يُفرِّقُ النَّاسَ، بل العَكْسُ؛ الذي يفرِّقُ النّاسَ

عَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[(١)] بِإِسنَادٍ حَسَنٍ، رُوَاتُهُ ثِقَاتٌ.

هو الشركُ، والعقائدُ الفاسدةُ، والبدعُ والمَنْهجيَّاتُ هذه هي التي تُفرِّقُ الناسَ، أما التوحيدُ والاتباعُ للرسولِ ﷺ فهذا هو الذي يُوحِّدُ النَّاسَ، كما وحَّدَهم في أولِ الأمرِ، ولا يُصلِحُ آخرَ هذهِ الأمةِ إلَّا ما أَصْلَحَ أوَّلَها.

قوله: (عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا**» الحديث).

***

ثلاثُ كلماتٍ قالَها ﷺ في هذا الحديثِ:

الكلمةُ الأولى: قوله ﷺ: «**لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا**» يعني: لا تُعطِّلوا البيوتَ من ذكرِ اللهِ، ومن صلاةِ النَّافلةِ، وتلاوةِ القرآنِ، لأنها إذا عُطِّلَتْ صارَتْ مثلَ القبورِ، لأنَّ القبورَ ليسَ فيها عملٌ، خاويةٌ خاليةٌ، حُفَرٌ مظلمةٌ، إلَّا مَنْ نوَّرَها اللهُ عليهِ بنورِ الإيمانِ الذي سبَقَ لهم في الحياةِ الدُّنيا.

فهذا فيهِ العناية بالبيوتِ، بيوتِ المسلمينَ، وأَنْ تُعمَر بذكرِ اللهِ، وبتلاوةِ القرآنِ، وصلاةِ النافلةِ، والإكثارِ مِنْ ذكرِ اللهِ، بَلْ إنَّ الرسولَ ﷺ أَمَرَ بأَنْ تُجعَل النوافلُ التي لا تُشرَعُ لها الجماعةُ كلُّها في البيوتِ، أما الفرائضُ فإنها تكونُ في المساجدِ، وذلكَ لعمارةِ البيوتِ، لأنها إذا عُمِرَتْ بذكرِ اللهِ ابتعدَتْ عنها الشياطينُ، ونشأَ أهلُ البيوتِ من النساءِ والذريةِ والساكنينَ فيها على طاعةِ اللهِ، وصارَتْ هذهِ البيوتُ مدارسَ خيرٍ، يتخرَّجُ منها المسلِمُ المُوحِّدُ.

---

(١) برقم (٢٠٤٢).

أما إذا كانَتْ هذهِ البيوتُ خاليةً من ذكرِ اللهِ، فإنَّ أهلَها يعيشونَ في الجَهْلِ، ويعيشونَ في الغفلةِ، ويصيرونَ مثلَ الموتى، فما بالُكم إذا خَلَت البيوتُ من ذكرِ اللهِ، وجُلِبَ إليها وسائلُ الشَّر من الأفلامِ الخليعةِ، وجُلِبَ إليها الجهازُ الذي يستقبلُ محطاتِ التلفزيون من العالمِ بما فيها من فسادٍ وخلاعةٍ ومجونٍ وكفرٍ وإلحادٍ وشرورٍ عظيمةٍ، كلُّها تدخُلُ في هذا البيتِ بواسطةِ هذا الجهازِ الشيطانيِّ الذي ينصُبُهُ صاحبُ البيتِ ماذا تكونُ هذهِ البيوتُ؟، تكونُ بيوتاً للشيطانِ، لا تكونُ مقابرَ فقَطْ، وإنَّما تكونُ مآوي للشياطينِ -والعياذُ باللهِ-، ويتخرجُ منها أشرارٌ من الذريةِ والنساءِ، يصاحبُهم عدمُ الحياءِ، وعدمُ الغيرةِ، وحبُّ الشرِّ، والحرصُ على تنفيذِ ما يرَوْنَه في هذهِ المبثوثاتِ من الشرورِ، وفسادِ الأخلاقِ، وفسادِ الأمورِ، سيُطبِّقونَ هذهِ الأمورَ التي يَروْنَها ويشاهدونَها، وتؤثِّرُ على أخلاقِهم وعلى عفَّتِهم، ويتكاسلونَ عن الصَّلاةِ، بل يُضيِّعونَ الصلاةَ بسببِها، ويقولونَ: هذا العالمُ المتحضِّرُ، انظروا إلى العالمِ ماذا يفعلونَ؟.

هذه هي الحياةُ، وهذهِ الحضارةُ، وهذا هو الرُّقيُّ، نحنُ مشتغلونَ بأمورٍ بعيدةٍ عن الحياةِ.

سيقولونَ هذا شِئْتُم أم أبيتُم أيُّها الآباءُ، وأنتم السَّببُ في هذا، أنتم المَسؤولونَ أمامَ اللهِ سبحانه وتعالى يومَ القيامةِ، اللهُ قالَ لكم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾، أنتم ما وقَيْتُم أنفسَكم، ولا وَقَيْتُم أهليكم من النَّارِ، بل جلبْتُم النَّارَ إلى بيوتِكم.

اتقوا اللهَ يا من ابتُليتُمْ بهذهِ الآلةِ الخبيثةِ؛ أزيلوها عن بيوتِكم، فالرَّسولُ ﷺ يقول: «**لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا**» وأمرَكُم بالعنايةِ بالبيوتِ، بأَنْ تَعْمُروها بطاعةِ اللهِ، وأخبرَ ﷺ أنَّ الشيطانَ يفرُّ من البيتِ الذي تُقرَأُ فيهِ سورةُ البقرةِ، وقالَ: «إنها

لا تطيقها البَطَلَة»[1] أي: الشَّياطينُ، أي لا تطيقُ سماعَ سورةِ البقرةِ، فتنبَّهوا لبيوتِكم «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا» هذا فيهِ العنايةُ بالبيوتِ المُسْلمةِ، وأن لا تُهمَلَ، ولا تُجلبَ إليها وسائلُ الشرِّ والتدميرِ الخلقي، بل يُعتنى بها غايةُ الاعتناءِ، يُأمَرُ بالمعروفِ ويُنْهى عن المنكرِ فيها.

كما أنَّ في الحديثِ الحثَّ على عمارةِ البيوتِ بذكرِ اللهِ فيهِ، النَّهيُ عن الصَّلاةِ عندَ القبورِ؛ من مفهومِ الحديثِ، لأنَّ الذي لا يُصَلَّى عندَه هو القبرُ، فالبيتُ الذي لا يُصلَّى فيه نافلةٌ، ولا يُقرأ فيهِ قرآنٌ، ولا يُدْعى فيهِ صار مثلَ القبرِ، لأنه ممنوعٌ من الصلاةِ عندَه، والدعاءِ عندَه، فالحديثُ يدلُّ بمفهومِهِ على منعِ الصلاةِ عندَ القبرِ، ومنعِ الدعاءِ عندَ القبورِ.

الكلمة الثانية، قوله ﷺ: «لَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا» العيدُ: اسمٌ لما يعودُ ويتكرَّرُ في اليومِ أو في الأسبوعِ، أو في الشهرِ، أو في السَّنةِ، سُمِّي عيداً من العودِ، وهو التكرُّرُ.

والعيد ينقسِمُ إلى قسمينِ: عيدٌ زمانيٌّ، وعيدٌ مكانيٌّ.

فالعيدُ الزمانيُّ المشروعُ: عيدُ الفطرِ، وعيدُ الأَضْحى، هذهِ أعيادُ الإسلامِ المشروعةِ. والعيدُ الزمانيُّ الممنوعُ: أعيادُ الموالدِ، فهي الأعيادُ الزمانيةُ المُحرَّمةُ، وأعيادُ الجاهليةِ التي كانوا يعملونَها في الجاهليةِ، أعيادُ الفُرسِ: النَّيروزُ والمهرجانُ، وعيدُ الميلادِ المسيحيّ، بل الميلادُ النَّصرانيُّ ولا نقولُ المَسيحيّ لأنَّ اللهَ برّأَ المسيحَ من هذا، وإنما هو العيدُ النَّصْرانيُّ، ومثلُهُ كلُّ عيدٍ فعَلَهُ بعضُ المسلمينَ أو المُنْتَسبينَ للإسلامِ مما لم يَشْرَعْهُ اللهُ كعيدِ المولدِ

---

(١) أخرجه مسلم (٨٠٤).

للرسولِ، أو المولدِ للشيخِ، أو الموالدِ للعظماءِ، أو لغيرِ ذلكَ، كلُّ هذه أعيادٌ جاهليةٌ، وهي أعيادٌ زمانيةٌ جاهلية، لا يجوزُ عملُها.

لأنَّ اللهَ شرَعَ لنا عيدينِ: عيد الأَضْحى، وعيد الفِطْر، وكلُّ عيدٍ من هذينِ العيدينِ بعدَ أداءِ ركنٍ من أركانِ الإسلامِ، فعيدُ الفطرِ بعدَ أداءِ ركنِ الصيامِ، وعيدُ الأضحى بعدَ أداءِ ركنِ الحجِّ وهو الوقوفُ بعرفةَ، لأنَّ الوقوفَ بعرفةَ هو الركنُ الأعظمُ للحجِّ كما قالَ النبيُّ ﷺ: «**الحج عرفة**»[1] وما بعدَه من المناسِكِ فهي تابعةٌ له، فَمَنْ وقَفَ بعرفةَ فقد أدَّى الركنَ الأكبرَ للحجِّ، ويتبَعُهُ بقيةُ الأركانِ، أما مَنْ لَمْ يقِفْ بعرفةَ فقد فاتَهُ الحجُّ، فلا فائدةَ من أنه يأتي ببقيةِ الأَركانِ، لأنه لم يأتِ بالأساسِ وهو الوقوفُ بعرفةَ، فجَعَلَ اللهُ عيدَ الأضحى شكراً للهِ بعدَ أداءِ الركنِ الأعظمِ من أركانِ الحجِّ، هذهِ أعيادُ الإسلامِ الزمانيةُ.

أَمّا الأعيادُ المكانيةُ: فهي -أيضاً- تَنْقَسِمُ إلى قسمينِ:

أعيادٌ شرعيةٌ، وأعيادٌ محرَّمةٌ.

الأعيادُ الشرعيةُ مثلَ الاجتماعِ في المساجدِ في اليومِ والليلةِ خمسَ مراتٍ، فهذا عيدٌ مكانيٌّ مشروعٌ.

كذلكَ الاجتماعُ في الأسبوعِ لصلاةِ الجمعةِ؛ هذا عيدُ الأسبوعِ عيدٌ مكانيٌّ.

وكذلكَ من الأعيادِ المكانيةِ المشاعرُ: المسجدُ الحرامُ، ومنىً وعرفةُ، ومزدلفةُ، التي يَجْتَمِعُ فيها المسلمونَ أيامَ الحجِّ لأداءِ المناسِكِ، هذه أعيادٌ إسلاميةٌ مكانيةٌ.

أما الأعيادُ المكانيةُ المحرمةُ، فهي: الاجتماعُ عندَ القبورِ، سواءٌ قبرُ الرسولِ

---

(١) أخرجه الترمذي (٨٨٩) والنسائي (٣٠٤٤) وابن ماجه (٣٠١٥).

ﷺ أَوْ قبرُ غيرِهِ، والسَّفرُ إلى القبورِ، والتردُّدُ على القبورِ من أجلِ الدعاءِ عندَها، والصلاةِ عندَها، ولهذا قال ﷺ: «**لَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا**» أي: مكاناً للعبادةِ، تصلُّون عندَه، وتدعونَ عندَه، وتُردِّدونَ عليه.

وهذا من حمايتِهِ ﷺ لجنابِ التوحيدِ، ففيهِ شاهدٌ للبابِ من حيثُ أنَّ النبيَّ ﷺ نهى عن اتخاذِ قبرِهِ عيداً، أي: مكاناً يُجتَمَعُ عندَهُ للعبادةِ، فالعبادةُ لا تُشرعُ عندَ القبورِ، لا قبورِ الأنبياءِ والرُّسُلِ، ولا قبورِ غيرِهم من الأولياءِ والصالحينَ أبداً، فالمقابرُ ليسَتْ محلاً للعبادةِ، فمن تردَّدَ عليها، وجلَسَ عندَها، أو وقَفَ عندَها للتبرُّكِ بها، أو للدُّعاءِ عندَها، أو للصَّلاةِ عندَها أو سافرَ إليها فقَد اتَّخذَها عيداً جاهليّاً وعيداً مُحرَّماً، ولهذا لمَّا جاءَ رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ يسألُهُ بأنه نذَرَ أن ينحرَ إبلاً ببوانةَ -اسمُ مكانٍ-، فقالَ له النبيُّ ﷺ: «**هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟**» قَالُوا: لَا قَالَ: «**هَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟**» يعني: مكانٌ لاجتماعِ أهلِ الجاهليةِ، قَالُوا لَا قَالَ: «**فَأَوْفِ بِنَذْرِكَ، فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُهُ ابْنُ آدَمَ**»(١) والشاهدُ منه، أنه قال: «**هَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟**» يعني: هل هذا المكانُ الذي خصَّصْتَهُ هل كان الجاهليونَ يُخصِّصونَه؟، فدلَّ على أنَّ تخصيصَ مكانٍ للعبادةِ لم يُخَصِّصْهُ اللهُ ولا رسولُهُ أنه من أعيادِ الجاهليةِ، لا تجوزُ العبادةُ فيه أبداً، ومن ذلكَ: القبورُ، فالتردُّدُ عليها، والجلوسُ عندَها من أجلِ التبرُّكِ بتربتِها، أو مِنْ أجلِ الدعاءِ عندَها، أو الصلاةِ عندَها، كلُّ هذا مِن اتِّخاذِها عيداً، وهو وسيلةٌ من وسائلِ الشركِ.

كما هو واقعٌ الآنَ عندَ الأضرحةِ مما لا يَخْفاكُم، وتسمعونَ عنهُ في البلادِ الأُخرى التي بُليَتْ بهذهِ الفتنةِ -والعياذُ باللهِ-، ولم تجِدْ من دعاةِ التوحيدِ مَنْ

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٣١٣).

يقومُ بنصيحةِ المسلمينَ عنها والأمرُ بإزالتِها.

نرجو اللهَ أن يُهيءَ للمسلمينَ مَنْ يقومُ بإصلاحِ عقيدتِهم، وإزاحةِ هذهِ الفتنةِ العظيمةِ عنهم، كما منَّ على هذهِ البلادِ -وللهِ الحمدُ- بهذهِ الدعوةِ المباركةِ التي أزاحَتْ عنها هذهِ الأوثانَ الجاهليةَ.

نسألُ اللهَ أنْ يُثبِّتنا وإيَّاكُم وإخوانَنا المسلمينَ على هذا الدِّينِ، وأَنْ يُتمَّ علينا هذهِ النعمةَ، وأَنْ لا يزيغَ قلوبَنا بعدَ إِذْ هدانا، وإلَّا فنحنُ معرَّضونَ للفتنةِ، ولا نُزكِّي أنفسَنا، ولا نَأْمَن أَنْ نُصابَ بمِثْلِ ما أُصيبَ بهِ أولئِكَ، إذا تَساهَلْنا وغفِلْنا وترَكْنا الدَّعوةَ إلى اللهِ وترَكْنا بيانَ التوحيدِ والتحذيرَ من الشِّركِ فإنه يُدَبُّ إلينا ما وقَعَ في البلادِ المجاورةِ لنا.

الكلمةُ الثالثةُ الواردةُ في هذا الحديثِ قوله ﷺ: «**صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ**» هذا أمرٌ بالصَّلاةِ عليه ﷺ، وقد أمَرَ اللهُ بذلكَ في مُحْكمِ كتابهِ فقالَ: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦**﴾، أمرَنا اللهُ بالصَّلاةِ والسَّلامِ على رسولِهِ ﷺ، وذكَرَ سُبْحانه أنه هو وملائكتُهُ يصلّونَ عليه.

والصَّلاةُ من اللهِ: ثناؤُهُ على عبدِهِ في الملأِ الأَعْلى. والصَّلاةُ من الملائكةِ: الاستغفارُ، ومن الآدميينَ الدعاءُ كما ذكرَ البخاريُّ عن أبي العاليةَ.

وقوله: «**صَلُّوا عَلَيَّ**» هذا أمرٌ يفيدُ الوجوبَ، فالصلاةُ على النبيِّ ﷺ مشروعةٌ ومتأكدةٌ، وتجِبُ في بعضِ المواضعِ.

فتجبُ في الخُطْبتينِ للجمعةِ والعيدِ وخطبةِ الاستسقاءِ، وتجِبُ الصَّلاةُ على رسولِ اللهِ ﷺ في التشهُّدِ الأخيرِ في الصَّلاةِ، وكذلك تجِبُ الصَّلاةُ على رسولِ

اللهِ عندَ ذكرِهِ ﷺ، وتُستَحَبُّ في بقيةِ الأحوالِ، وكلَّما أكثرَ الإنسانُ من الصَّلاةِ على الرسولِ ﷺ كثُر أجرُهُ، كما قالَ ﷺ: «**مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا**»[1].

قوله: «**فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي**» فاللهُ جلَّ وعلا وَكَّلَ بصلاةِ المصلينَ على النبيِّ ﷺ مَنْ يُبلِّغ الرسولَ إيَّاها وهو في قبرِهِ ﷺ، ففي أيِّ مكانٍ صلَّيْتَ عليه فإنَّ صلاتَك تبلغُهُ ولو كنتَ في المشرقِ أو في المغربِ، وهذا من آياتِ اللهِ سبحانه وتعالى، أنها تَبْلُغُهُ الصلاةُ عليهِ في قبرِهِ ﷺ، وهذا من أمورِ البرزخِ التي لا يعلَمُها إلَّا اللهُ سبحانه وتعالى.

فقوله: «**فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ**» أي: أينما كُنْتُم في برٍّ، أو في بحرٍ، قريبينَ أو بعيدينَ، في المشرقِ أو المَغْرِبِ.

وفي هذا الحديثِ دليلٌ على أنه ليسَ للصلاةِ عليهِ عندَ قبرِهِ خاصيَّةٌ، بل إذا قَصَدَ الإنسانُ القبرَ لأجلِ الصَّلاةِ عليه فهذا منهيٌّ عنه، لكِنْ إذا قَصَدَ قبرَهُ للسَّلامِ عليه ويُصلِّي عليه فهذا مشروعٌ، فتُسلِّمُ وتُصلِّي على الرسولِ عندَ قبرِه إذا قدِمْتَ من سفرٍ، أما أن تقصدَهُ من أجلِ أن تجلسَ أو تقِفَ وتُصلي عليه دائماً فهذا غيرُ مشروعٍ، لأنه مطلوبٌ منكَ الصَّلاةُ والسَّلامُ عليهِ في أيِّ مكانٍ.

* * *

(١) أخرجه مسلم (٤٠٨).

وَعَن عَلِيِّ بنِ الحُسَينِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً يَجِيءُ إِلَى فُرجَةٍ كَانَت عِندَ قَبرِ النَّبِيِّ ﷺ، فَيَدخُلَ فِيهَا فَيَدعُو، فَنَهَاهُ، وَقَالَ: أَلَا أُحَدِّثُكُم بِحَدِيثٍ سَمِعْتُهُ مِن أَبِي عَن جَدِّي عَن رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّ تَسلِيمَكُم لَيَبْلُغُنِي أَينَ كُنتُم». رَوَاهُ فِي «المُختَارَةِ»[(١)].

قال: «**عن علي بن الحسين**» أحدُ أعلامِ التابعينَ، وهو عليُّ بنُ الحسينِ بنِ علي بنِ أبي طالبٍ، وجدَّتُهُ فاطمةُ بنتُ الرسولِ ﷺ، وأبو جدَّتِهِ هو رسولُ اللهِ ﷺ، فهو من بيتِ النبوّةِ، وهو يلقَّبُ بزينِ العابدينَ، وهو من كبارِ أئمةِ التابعينَ، رضِيَ اللهُ تعالى عنه.

«**أنه رأى رجلاً يجيء إلى فُرْجَة كانت عند قبر النبي ﷺ**» قُبِرَ الرَّسولُ ﷺ في بيتِه، في حجرةِ عائشةَ، وفي أحدِ الجُدران فُرْجَةٌ، أي: نَقْبٌ في الجدارِ، رآه هذا الرَّجلُ، فصارَ يتردَّد، ويأتي ويدخلُ من هذهِ الفُرْجَةِ، ويدعو عندَ قبرِ النبيِّ ﷺ، فلمَّا رآه عليُّ بنُ الحسينِ رحمه الله نهاهُ عن ذلكَ، قال له: لا تفعلْ هذا، لا تتردَّدْ على قبرِ الرسولِ، ولا تدعُ عندَه. وهذا من إنكارِ المُنْكرِ، ولا سيما ما يُؤَدي إلى الشركِ.

فالتردُّدُ على قبرِ الرسولِ والدُّعاءُ عندَه من وسائلِ الشركِ به، فيجِبُ إنكارُه، ولذلكَ أنكرَ عليُّ بنُ الحسينِ على هذا الرجلِ ونَهاه.

ثمَّ لم يكتَفِ بهذا، بل بيَّنَ الدليلَ والحجَّةَ على هذا الإنكارِ، فقالَ: «**ألا أحدثكم حديثاً سمعته عن أبي**» يعني: الحُسَين رضي الله عنه «**عن جدّي**» يعني: علي بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه «**عن رسول الله ﷺ قال: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا»**»

---

(١) برقم (٤٢٨) وأخرجه ابن أبي شيبة (٧٥٤٢) وعبدالرزاق (٦٧٢٦).

هذا مثلُ ما في حديثِ أبي هريرةَ السابقِ ومعنى اتِّخاذ القَبْرِ عيداً: بأن يُتردَّد عليه، ويُجتمَع عندَه لأجلِ الدعاءِ أو التبركِ أو الصَّلاةِ على الرسولِ ﷺ.

فهذا مثلُ حديثِ أبي هريرةَ الذي قبلَه إلَّا أنه زادَ عليه: الإنكارَ على مَنْ يأتي ويدعو عندَ قبرِ الرسولِ ﷺ، فهو يعَدُّ مفسِّراً لحديثِ أبي هريرةَ، يبيِّنُ معنى اتِّخاذِهِ عيداً، وأنه يكونُ في الدعاءِ عندَه، والتردّدِ عليهِ.

ثمَّ قالَ: «**رواه في المختارة**» المختارة: كتابٌ اسمُه: «**الأحاديث الجياد المختارة**» ومؤلفه هو: عبدُاللهِ بنُ محمَّدِ بنِ عبدِالواحدِ المقدسيُّ الحنبليُّ، ألّفَ هذا الكتابَ، وجَمَعَ فيهِ الأحاديثَ الجيادَ الزائدةَ على ما في الصحيحينِ، فهو كالمستدركِ، لكنَّها أحسنُ مِنْ «**مستدرك الحاكم**».

ما يُستفاد من الآيةِ الكريمةِ ومن الحديثينِ:

أولاً: يستفادُ من الآيةِ: امتنانُ اللهِ على هذهِ الأمةِ ببعثةِ هذا الرسولِ ﷺ، وهي نعمةٌ عظيمةٌ، قالَ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، هذهِ أعظمُ منّةٍ على الخلقِ، لأنه ببعثةِ هذا الرسولِ واتباعهِ خرجوا من الظلماتِ إلى النورِ، ومن الكفرِ إلى الإيمانِ، ومن النَّارِ إلى الجنةِ.

المسألة الثانية: في الآيةِ دليلٌ على صفاتٍ عظيمةٍ من صفاتِهِ ﷺ:

الصفة الأولى: ﴿رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾.

الثانية: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾.

....

الثالثة: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾.

الرابعة: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ﴾.

الخامسة: ﴿رَّحِيمٌ﴾.

خمسُ صفاتٍ من صفاتِهِ ﷺ.

المسألة الثالثة: في الحديثِ دليلٌ على أنه ﷺ قَدْ سدَّ الطريقَ المُفْضيَةَ إلى الشركِ، بمقتضى هذهِ الصفاتِ العظيمةِ التي ذكَرَها اللهُ جلَّ وعلا فيه، ولهذا جاءَ في الحديثِ أنه ﷺ قالَ: «**ما تركت شيئاً مما يقربكم إلى الله إلَّا وبينته لكم، وما تركت شيئاً يُبعدكم عن الله إلَّا وبينته لكم**»[1] أو كما قالَ ﷺ، ويقولُ أبو ذرٍ: «**لقد توفي رسول الله وما طائر يقلب جناحيه إلَّا وذكر لنا منه علماً، علمه من علمه، وجهله من جهله**»[2]، واللهُ يقولُ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾، فلا يمكنُ أنه يتركُ الناسَ ولا يبينُ لهم أعظمَ خطرٍ عليهم وهو الشركُ.

المسألة الرابعة: حديثُ أبي هريرةَ يدلُّ على وجوبِ العنايةِ بالبيوتِ -بيوتِ المسلمينَ- وعمارتِها بالعبادةِ، وإبعادِ وسائلِ الشرِّ عنها، وهذهِ مسألةٌ عظيمةٌ يجِبُ التنبهُ لها في هذا الزمانِ أكثرَ مِنْ غيرِهِ.

المسألة الخامسة: فيه أنَّ القبورَ لا تَصْلُحُ للصلاةِ عندَها من مفهومِ حديثِ أبي هريرةَ، فدلَّ على أنَّ القبورَ لا تصلحُ للصَّلاةِ عندَها، ولا للدعاءِ، ولا للعبادةِ، وإنما هذا إما أن يكونَ في بيوتِ المسلمينَ إذا كانَ نافلةً وإما أَنْ يكونَ في بيوتِ اللهِ المساجدِ إذا كانَ فريضةً.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٤٣٣٢) عن ابن مسعود.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٥٣، ١٦٢).

المسألة السادسة: في حديثِ أبي هريرةَ النَّهْيُ عن التردُّدِ على قبرِهِ ﷺ، والقيامِ أو الجلوسِ عندَه، والدعاءِ والصَّلاةِ عندَه، لأنَّ هذا من اتخاذِهِ عيداً، فقد نَهى عنه رسولُ اللهِ ﷺ.

المسألة السابعة: في حديثِ أبي هريرةَ أَنَّ الرسولَ سدَّ الطريقَ المُفضيةَ إلى الشركِ، بنهيِهِ عن اتخاذِ قبرِهِ عيداً، لأنَّ هذا مِنْ وسائلِ الشركِ، ومن الطرقِ المُوصلةِ إلى الشركِ.

المسألة الثامنة: في حديثِ أبي هريرةَ مشروعيةُ الصلاةِ عليه ﷺ في أيِّ مكانٍ.

المسألة التاسعة: في الحديثِ النَّهْيُ عن التردّدِ على قبرِ الرسولِ ﷺ من أجلِ الصلاةِ عليه والسَّلامِ عليه، لأنَّ هذا وسيلةٌ إلى الشركِ، ومن اتخاذِهِ عيداً، ولهذا ما كانَ الصَّحابةُ رضي الله عنهم كلما دخلوا المسجدَ يذهبونَ إلى قبرِ الرسولِ ليُسلِّموا عليه أو يُصلُّوا عليهِ، أبداً، إنما يفعلونَ هذا إذا جاءوا مِنْ سفرٍ فقَطْ، لأنَّكَ إذا أكثرتَ التردُّدَ عليه صارَ من اتخاذِهِ عيداً.

المسألة العاشرة: في حديثِ عليِّ بنِ الحسينِ رحمه الله وجوبُ الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ، وتعليمِ الجاهلِ، لأنه لمَّا رأى هذا الرجلَ وما يفعلُهُ من وسائلِ الشركِ لم يَسْكُتْ على هذا، بل نهاهُ عن ذلكَ، وحذَّرهُ من ذلكَ، وكانَ في ذلكَ الخيرُ والبركةُ لهذهِ الأمةِ.

المسألة الحادية عشرة: في الحديثِ دليلٌ على أنَّ مَنْ أنكرَ شيئاً أو أَمرَ بشيءٍ فإنه يُطالَبُ بالدليلِ، لأنَّ عليَّ بنَ الحسينِ لمَّا نَهى هذا الرجلَ ذكرَ له الدليلَ عن رسولِ اللهِ ﷺ، من أجلِ إقامةِ الحُجَّةِ، ومن أجلِ معرفةِ الحقِّ بدليلِهِ، وهذا منهجٌ من مناهجِ الدعوةِ: أنَّ الداعيةَ إلى اللهِ إذا أمَرَ بشيءٍ أو نهى عن شيءٍ يذكرُ الدليلَ ويوضِّحُهُ للناسِ من أجلِ أن يَقْتَنعوا، ومن أجلِ أن تقومَ الحُجَّةُ على المخالفِ.

المسألة الثانية عشرة: في عمومِ الآيةِ والحديثينِ أنَّ النبيَّ ﷺ سدَّ الطرقَ المُفضيةَ إلى الشركِ، وهو الشَّاهدُ للبابِ من الآيةِ والحديثينِ.

المسألة الثالثة عشرة: في الحديثينِ دليلٌ على أنَّ الرسولَ ﷺ تبلُغُه صلواتُ أمَّتِهِ عليه في أيِّ مكانٍ كانوا من الأرضِ، وهذا ممَّا يحُثُّ المسلمينَ على الإكثارِ من الصَّلاةِ والسَّلامِ عليهِ، لأنَّ هذا يَبْلغُهُ ﷺ، وقَدْ قالَ ﷺ: «**مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا**»(١).

وفي الصَّلاةِ على الرسولِ ﷺ أُلِّفَتْ كُتُبٌ، منها -أو مِنْ أحسنِها- كتابُ: «**جلاء الأفهام في الصَّلاةِ والسَّلامِ على خيرِ الأنامِ**» للإمامِ ابنِ القيِّمِ، فهو كتابٌ جيدٌ في هذا الموضوعِ، حيثُ جَمَعَ فيهِ الأدلةَ وفِقْهَها، وما تدلُّ عليهِ وبسَطَ الكلامَ في هذا.

أما الكُتُبُ التي أُلِّفتْ في الصَّلاةِ والسَّلامِ عليه، والتبركِ به، والتَّوسلِ به، مثلَ كتابِ «**دلائل الخيرات**»، ومثلَ كُتُبِ الخرافيينَ؛ فهذهِ يجِبُ الحَذَرُ منها، وإِنْ سمُّوها كُتُبَ الصَّلاةِ على الرسولِ ﷺ، فإنهم دسُّوا فيها من الشرورِ والفتنِ والشركيّاتِ الشيءَ الكثيرَ -والعياذُ باللهِ-.

وكذلكَ صلاةُ الفاتحِ عندَ التِّيجانيةِ -أيضاً- هي من الأمورِ المُحْدثةِ، وفيها غلَوْا في حقِّه ﷺ، وهي صلاةٌ لا دليلَ عليها من كتابِ اللهِ ولا مِنْ سنَّةِ نبيِّهِ ﷺ، إنَّما من أرادَ أَنْ يعرفَ أحكامَ الصَّلاةِ عليه وأدلَّتَها مع الأمانةِ العلميةِ فليراجعْ كتابَ «**جلاء الأفهام**» للإمامِ ابنِ القيّمِ، هذا هو الكتابُ الذي يستفيدُ منهُ طالبُ العلمِ، ويأمنُ من الدسِّ الذي في الكتبِ الأُخرى.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٠٨).

الباب الثالث والعشرون:

بَاب ما جاء أن بعضَ هذه الأمة يعبدُ الأوثانَ

قوله رحمه الله: «**باب ما جاء**» أي: من الأدلةِ في الكتابِ والسنةِ.

«**أن بعض هذه الأمة**» يعني: وليسَ كلُّها، فالأمةُ لا تجتمِعُ على ضلالةٍ -ولله الحمدُ-، بل يبقى فيها من يَثْبتُ على الحقِّ، كما قالَ ﷺ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الحَقِّ مَنْصُورَةٌ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ**»، فهذه الأمةُ لا تضلُّ كلُّها، وإنَّما يضلُّ الكثيرُ، ولكِنْ يَبْقى من هذهِ الأمةِ مَنْ يَثْبُتُ على الحقِّ إلى أَنْ تقومَ السَّاعةُ. فهذا مِنْ فضلِ اللهِ ورحمتِهِ.

ولهذا قالَ المُصنِّفُ رحمه الله: «**أن بعض هذه الأمة**»، وهذا مِنْ دقَّةِ فقهِهِ رحمه الله، وعدمِ تَسرُّعِهِ في الأحكامِ، بخلافِ الذينَ يكفِّرونَ عمومَ الأمةِ كما عليهِ بعضُ الكتابِ المعاصرينَ.

«**يعبد الأوثان**» أي يُشرك باللهِ عز وجل، والأوثانُ -كما سبَقَ-: جُمْعُ وَثَن، والمراد به: كلُّ ما عُبِدَ مِنْ دونِ اللهِ من صنمٍ، أو قبرٍ، أو حجرٍ، أو شجرٍ، أو جنٍّ، أو إِنْسٍ، كلُّهُ يسمَّى وثناً؛ فالوثنُ كلُّ ما عُبِدَ مِنْ دونِ اللهِ؛ مأخوذٌ مِنْ وَثَن بالمكانِ إذا ثبتَ وبقِيَ فيه.

وقَصْدُ الشَّيخِ رحمه الله من هذهِ الترجمةِ: الردُّ على مَنْ زَعَم أنه لا يقعُ في هذهِ الأمةِ شركٌ، وهم عبادُ القبورِ يقولونَ: هذا الذي نعمَلُهُ ليسَ بشركٍ، لأنَّ هذهِ الأمةَ لا يقعُ فيها شركٌ؛ وإنما هو من بابِ التوسلِ بالصالحينَ، أو محبةِ الصالحينَ، أو ما أشبهَ ذلك من الأعذارِ الباردةِ.

وهذهِ مقالةُ المشركينَ الأولينَ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا

وَقَوْلُهُ تَعَالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [سورة النساء: ٥١].

عِندَ ٱللَّهِ﴾، لكن هؤلاءِ -والعياذُ باللهِ- يقرأونَ القرآنَ ولا يفقهونَ معناه، أو يعرفونَ معناه، ويغالطونَ ويكابرونَ تبعاً لهواهُمْ.

***

قال: «**وقوله تعالى**: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾» هذا استفهامُ تقريرٍ، أي: قَدْ رأيتَ وعلمتَ يا محمَّد.

«﴿إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾» أي: حظًّا من الكتابِ، فالنَّصيب: الحظّ؛ والمُرادُ بهم اليهودُ، لأنَّ اللهَ أعطاهم التوراةَ التي أنزلَها على موسى -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- من عندِ اللهِ، فهو كتابٌ عظيمٌ من عندِ اللهِ.

وهذا من بابِ الإنكارِ عليهم، لأنَّ المفروض أَنَّ الذي أُوتي نصيباً من الكتابِ وعلمِ الحقِّ يجِبُ عليه أن يعملَ به: فكونُهم يخالفونَ الحقَّ -وعندَهم الكتابُ- هذا دليلٌ على غِلظِ كفرِهم وعنادِهم.

«﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ﴾» أي: يصدِّقونَ بالجبتِ، وهو الشركُ، أو السِّحرُ، أو الساحرُ، أو الكاهنُ، أو الشيطانُ، كلُّ ذلكَ يسمَّى جبتاً.

«﴿وَٱلطَّٰغُوتِ﴾» في اللغةِ: مأخوذٌ من الطغيانِ، وهو: مجاوزةُ الحدِّ؛ والمرادُ به هنا: ما تجاوزَ بهِ العبدُ حدَّه من معبودٍ، أو متبوعٍ، أو مطاعٍ في غيرِ طاعةِ اللهِ، كلُّه طاغوتٌ.

ويقولُ العلامةُ ابنُ القيمِ: (الطواغيتُ كثيرونَ، ورؤوسُهم خمسةٌ: إبليسُ -لعنَهُ اللهُ-. ومن عُبد وهو راضٍ. ومَنْ دعا النَّاسَ إلى عبادةِ نفسِهِ. ومن ادَّعى

شيئاً مِنْ علمِ الغيبِ. ومن حكمَ بغيرِ ما أنزلَ اللهُ)[1].

«﴿وَيَقُولُونَ﴾» أي: يقولُ هؤلاءِ اليهودُ.

﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهم مشركو قريشٍ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ۝٥١﴾ أي: هؤلاءِ الكفارُ أهدى من الذينَ آمنوا سبيلاً، أي: منهجُ الكفارِ أهدى من منهجِ المسلمينَ المتبعينَ لمحمَّدٍ ﷺ. وهذا وَهُمْ عندَهم الكتابُ، ويعرفونَ الحقَّ من الباطلِ!.

وسببُ ذلكَ: أنَّ الرسولَ ﷺ لمَّا هاجَرَ إلى المدينةِ، وبايعَهُ الأنصارُ من الأوسِ والخزرجِ، وصارَتْ للمسلمينَ دولةٌ عظيمةٌ في المدينةِ، اغتاظَ اليهودُ الذينَ كانوا في المدينةِ من المسلمينَ، وضاقوا بهم ذرعاً، فذهبَ كعبُ بنُ الأشرفِ وحيّي بنُ أخطبَ إلى المشركينَ في مكّةَ يَسْتَنْجدونَهم على قتالِ الرسولِ ﷺ وأصحابِهِ، فانتهَزَ المشركون الفرصةَ وقالوا: أنتم أهلُ كتابٍ، تعرفونَ الحقَّ من الباطلِ، بيِّنوا لنا أنحنُ أهدى أَمْ محمَّد؟، فقالوا: وما أَنْتم وما محمَّد؟ - يعني: بينوا لنا صِفَتَكم وصفةَ محمَّد-، قالوا: محمَّد صنبورٌ مبتورٌ، قطَّع أرحامَنا وسبَّ آلهتنا. ونحنُ نذبحُ الكومَ، ونُطْعِمُ الحجيجَ، ونسقي الحجيجَ، ونفكُّ العاني، ونَصِلُ الأرحامَ. يصفونَ أنفسَهم بهذهِ الصفاتِ.

ومحمَّدٌ قطَّع أرحامَنا، وتبعَهُ سرَّاقُ الحجيجِ مِنْ غفارِ.

قالوا: أنتُمْ خيرٌ وأَهْدى سبيلاً.

والشَّاهدُ من الآيةِ للبابِ: أنه إذا كانَ في اليهودِ من يُؤْمنُ بالجبتِ والطاغوتِ فسيكونُ في هذهِ الأمةِ من يفعلُ ذلكَ تشبُّهاً بهم، لأنَّ الرسولَ ﷺ أخبرَ أنه يكونُ

---

(١) «الكافية الشافعية في الانتصار للفرقة الناجية» (١/ ٣٤).

وَقَولُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ﴾ [سورة المائدة: ٦٠].

في هذهِ الأمةِ من يتشبَّهُ باليهودِ والنَّصارى، ومن ذلكَ: التشبُّهُ بهم في الإيمانِ بالجبتِ والطاغوتِ.

وكذلكَ يوجدُ في هذهِ الأمةِ من يُمجِّدُ الكفّارَ، وينتقّصُ المسلمينَ، كما كانَ اليهودُ يقولونَ: ﴿هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾، فمنَ النّاسِ من يثني اليومَ على دولِ الكفرِ والإلحادِ، ويصفُهم بصفاتِ الكمالِ والعظمةِ، وينتقصُ المسلمينَ، ويصفُهُم بالتأخرِ والرجعيةِ، إلى آخرهِ، فهذا شيءٌ موجودٌ.

فدلَّ على أنَّ هذهِ الأمةَ يقعُ فيها ما وقَعَ في اليهودِ من الإيمانِ بالجبتِ والطاغوتِ، ومن الشركِ باللهِ عز وجل.

وكلُّ ما وقَعَ في اليهودِ أو في النَّصارى فإنه سيقعُ في هذهِ الأمةِ من بعضِ أفرادِها أو طوائِفِها من يفعَلُهُ تشبُّهاً بهم، فها هي الأضرحةُ، والبناءُ على القبورِ، والطَّوافُ بها، وإقامةُ الموالدِ، والاستغاثةُ بالأمواتِ، والذبحُ والنَّذْرُ لهم موجودٌ، كما كانَ في اليهودِ.

هذا الشاهدُ من الآيةِ للترجمةِ.

* * *

قال: «وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ﴾» تمام الآية: ﴿أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾، هذهِ الآيةُ في الردِّ على الذينَ يَسْخَرون من المسلمينَ ومن دينهِم من اليهودِ والنَّصارى والوثنيينَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ [سورة الكهف: ٢١].

يقولُ تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾ أي: أُخبِرُكُم والاستفهامُ هنا المرادُ به: التقريرُ والتوبيخُ.

﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾ الذي زعَمْتُم فينا.

﴿مَثُوبَةً﴾ منصوبٌ على التمييزِ، يعني: جزاءً عندَ اللهِ سبحانه وتعالى.

﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: طرَدَهُ وأبعدَهُ من رحمتِهِ بسببِ كفرِهِ، وهو أنتُمْ أيُّها اليهودُ والنَّصارى.

﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ والغضبُ ضدُّ الرِّضا، فاللهُ جلَّ وعلا يَرْضى عن عبادِهِ المؤمنينَ ويغضَبُ على الكافرينَ، وغضبُهُ لا يقومُ له شيءٌ، والمغضوبُ عليهِمْ هم الذينَ عندَهم علمٌ ولم يَعْلموا به، لأنَّهم عَصَوا اللهَ على بصيرةٍ.

﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ مسَخَهُم قردةً وخنازيرَ، بسببِ كُفْرِهم.

والشَّاهدُ في قولِه: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ دلَّ على أنَّ في أهلِ الكتابِ مَنْ يعبدُ الطاغوتَ، فلا بدَّ أن يكونَ في هذهِ الأمةِ من يتشبَّهُ بهم ويعبدُ الطاغوتَ.

فالآيةُ الأُولى فيها: أنهم يؤمنونَ بالجبتِ والطاغوتِ، وهذهِ الآيةُ فيها أنَّ فيهم مَنْ عبدَ الطاغوتَ، فلا بدَّ أَنْ يكونَ من هذهِ الأمةِ مَنْ يتشبَّهُ بهم في ذلكَ.

قال: «**وقوله تعالى**: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾» هذا في قصةِ أصحابِ الكهفِ، وذلكَ أنَّ جماعةً من الفِتيانِ في الزمانِ القديمِ آمنوا باللهِ، وأنكروا ما عليهِ أهلُ بلدِهم من الشركِ باللهِ، فلمَّا ماتوا بنى قومُهُم عليهم مسجداً لأجلِ التبركِ بهم.

عَن أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذوَ القُذَّةِ بِالقُذَّةِ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله! اليَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «فَمَنْ؟». أَخرَجَاهُ[1].

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ۝٢١﴾ فقالوا: هؤلاءِ رجالٌ صالحونَ، فيهم بركةٌ، فيهم خيرٌ، نَبْني عليهم مسجداً من أجلِ التّبرُّكِ بهم، والصَّلاةُ عندَهم، والدُّعاءُ عندَهم، لأنّهم من أولياءِ اللهِ، ونفَّذوا ذلكَ بقوةِ السُّلْطةِ لا بقوةِ الحجَّةِ، لأنّهم غُلِبوا على أمرِهم، أي: تمكّنوا من تنفيذِ ما أرادوا بقوَّتِهم.

فالشاهد من الآيةِ: أنه كانَ في أولِ الخليقةِ من يَبْني المساجدَ على القبورِ، فلا بدَّ أن يكونَ في هذهِ الأمةِ مَنْ يبني المساجدَ على القبورِ، تشبُّهاً بهم، وقد وقَعَ هذا، ووُجِد في هذهِ الأمةِ مَنْ يبني المساجدَ على القبورِ، فدلَّ على وقوعِ الشركِ في هذهِ الأمةِ كما وقعَ في الأممِ السابقةِ عن طريقِ التشبُّهِ والمُحاكاةِ.

* * *

قوله: «**عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لَتَتَّبِعُنَّ»** سبقَ أنَّ اللّامَ هذه لام قسم، فهي على تقديرِ: واللهِ لتتّبعُنَّ، وأكّدَهُ بالنونِ الثقيلةِ.

«**سُنَنَ**» أي: طريق.

فالسَّنن -بالفتح-: الطريق، أما السُّنن -بالضم- فهي جَمْع: سنَّة، وهي الطرقُ.

فمن قرأَه سَنَن فالمرادُ به: الطريقُ، وهذا هو المشهورُ.

ومن قرأَه سُنَن فالمرادُ به: جمع: سُنّة وهي: الطرقُ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٥٦) ومسلم (٢٦٦٩).

والمعنى واحد.

«حَذْوَ القُذَّةِ بِالقُذَّةِ» حَذْوَ: منصوبٌ على الحالِ، والقُذَّة: ريشةُ السهمِ الذي يُرمَى به، والمعنى: تُشبهونهم كما أَشْبَهَتْ ريشةُ السَّهْمِ ريشةَ السَّهمِ الأُخْرى.

«حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ» الجُحر -بالضم- هو: السَّرَب الذي يكونُ في الأرضِ، ومنه جُحر الضبِ، لأنه يحفرُ جحراً من أَعْسرِ الجُحورِ، ومع هذا لو دخَلَهُ اليهودُ والنَّصارى لكانَ في هذهِ الأمةِ مَنْ يفعلُ ذلكَ تقليداً لهم.

وَقَدْ وقَعَ ما أخبرَ به ﷺ، فالتقليدُ والتشبهُ بالكفارِ قائمٌ على قدمٍ وساقٍ بأتفهِ الأشياءِ وأَحْقَرِ الأشياءِ، لا لشيءٍ إلَّا لأنَّهم يفعلونَه، والمُقلِّد يرى أنَّهم أهلُ العقولِ، وأنهم أهلُ التقدمِ والحضارةِ، فيقلِّدُهم من أجلِ ذلكَ.

وهذا الحديثُ خبرٌ بمعنى النَّهْي، أي: لا تتشبَّهوا بهم، ولا تُقلِّدوهُم، وقد جاءَ النَّهْي عن التَّشبُّهِ بهم بقولِهِ: «**لَا تَشَبَّهُوا بِاليَهُودِ وَلَا بِالنَّصَارَى**»، وقولِهِ: «**مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**».

والشَّاهدُ من هذا الحديثِ واضحٌ: أنه يكونُ في هذهِ الأمةِ مَنْ يتشبَّهُ باليهودِ والنَّصارى في كلِّ شيءٍ، واليهودُ والنَّصارى يعملونَ الشركَ فلا بدَّ أَنْ يوجدَ في هذهِ الأمةِ مَنْ يعمَلُ الشركَ مثلَهم سواءً بسواءٍ.

نعم، اليهودُ والنَّصارى بنَوْا على القبورِ، فيوجدُ في هذهِ الأمةِ مَنْ يبني على القبورِ تشبُّهاً بهم، والنَّصارى يعملونَ عيدَ المولدِ للمسيحِ عليه السلام فيُوجَدُ في هذهِ الأمةِ من يعمَلُ عيدَ المولدِ لمحمَّدٍ ﷺ تشبُّهاً بالنَّصارى.

كما وُجِدَ في اليهودِ والنَّصارى مَنْ يحلِقُ لحيتَهُ ويُوَفِّر شارِبَه، فوُجِدَ من هذهِ الأمةِ مَنْ يحلِقُ لحيتَهُ ويوفِّرُ شارِبَه، إلى غيرِ ذلكَ من أنواعِ التشبُّهِ التي لا

تُحصَى مصداقاً لقولِهِ من بابِ التحذيرِ والنَّهي: «**لَتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ القُذَّةِ بِالقُذَّةِ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرِ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ**».

فالشاهد منه: أنه لا بُدَّ أَنْ يوجَدَ في هذهِ الأمةِ من يتشبَّهُ باليهودِ والنَّصارى في الشركِ باللهِ عز وجل، كما أنَّهم ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ فلا بدَّ أَنْ يوجَدَ في هذهِ الأمةِ مَنْ يغلو بالأئمةِ، ويتَّخِذُهم أرباباً من دونِ اللهِ، كما عندَ الصوفيةِ الذينَ يتخذونَ رؤساءَ الطرقِ والمشايخَ أرباباً من دونِ اللهِ، يحلّلونَ ويحرّمونَ، ويقولونَ: المريدُ ينبغي أن يكونَ مع الشَّيخِ كالميِّتِ بينَ يدي غاسلِهِ. وكذلكَ مَنْ يتعصَّبُ لشيخِهِ ولو خالفَ الدليلَ. إلى غيرِ ذلكَ.

أما فقهُ هذهِ النصوصِ، فإنها تدلُّ على مسائلَ كثيرةٍ:

المسألة الأولى: في الآيةِ الأولى دليلٌ على أنَّ من اليهودِ والنَّصارى من يؤمنونَ بالجبتِ والطاغوتِ، الذي هو: الشركُ، والسِّحْرُ، والكِهانةُ، والطِّيَرةُ، والتّنجيمُ، والحكمُ بغيرِ ما أنزلَ اللهُ. فسيوجدُ في هذهِ الأمةِ من يؤمنُ بالجبتِ والطاغوتِ؛ تشبُّهاً بهم.

المسألة الثانية: في الآيةِ دليلٌ على أنَّ الموافقةَ لهم في الظاهرِ تُسمَّى إيماناً ولو لم يوافِقْهُم في الباطنِ، لأنَّ اليهودَ لمَّا قالوا لكفَّار قريشٍ: أنتم أَهْدى من الذينَ آمنوا سبيلاً. هُمْ في الباطنِ يعتقدونَ بُطلانَ هذا الكلامِ، لكنَّهم وافقوهُم في الظاهرِ ليحصلوا على مناصَرَتِهم لهم، ومعَ هذا سمَّى اللهُ هذا إيماناً بالجبْتِ والطاغوتِ.

فالذي يمدَحُ الكفرَ والكفَّارَ ولو بلسانِهِ، ويفضِّلُ الكفرَ والكفارَ على

المؤمنينَ؛ يُعتبر مؤمناً بالجبتِ والطاغوتِ، ولو كانَ قلبُهُ لا يوافِقُ على هذا؛ ما لَمْ يكنْ مُكرهاً، ففيهِ ردٌّ على مرجئةِ هذا العصرِ الذين يقولونَ: إنَّ مَنْ تكلَّم بكلامِ الكفرِ لا يكفرُ حتَّى يعتقدَ بقلبِهِ صحةَ ما يقولُ.

وهذه دقيقةٌ عظيمةٌ ذكرَها الشيخُ في المسائلِ، وهي عظيمةٌ جداً.

المسألة الثالثة: في الآيةِ الثانيةِ بيانُ أنَّ في أهلِ الكتابِ مَنْ عبدَ الطاغوتَ، بمعنى: أنهُ دعا غيرَ اللهِ، أو ذبَحَ لغيرِ اللهِ، أو نذرَ لغيرِ اللهِ، فلا بدَّ أن يكونَ في هذهِ الأمةِ مَنْ يعبد الطاغوتَ تشبُّهاً بهم.

ففيهِ الردُّ على مَنْ زعَم أنه لا يقعُ في هذهِ الأمةِ شركٌ، لأنَّ الحديثَ يدلُّ على أنه يوجدُ مَنْ يتشبَّهُ باليهودِ والنَّصارى في عبادةِ الطاغوتِ التي منها عبادةُ القبورِ والأضرحةِ، ومنها الحكمُ بغيرِ ما أنزلَ اللهُ، ومنها الشيءُ الكثيرُ الذي كلُّه من عبادةِ الطاغوتِ.

المسألة الرابعة: في الآيةِ الثانيةِ دليلٌ على ذكرِ عيوبِ المردودِ عليه، وذلكَ في قولِهِ: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ ففيهِ ذكرُ معائبِ المردودِ عليه حتَّى يَخْتَزِي ويُفْحَم في الخصومةِ.

المسألة الخامسة: في الآيةِ ردٌّ على مَنْ يقولُ: إنه ينبغي ذِكْرُ محاسنِ المردودِ عليه وهو ما يُسمُّونَه بالموازناتِ.

وذكرُ محاسنِ الطوائفِ الضالّةِ والأشْخاصِ الضالينَ من المبتدعةِ وغيرِهم، ووجهُ الردِّ: أنَّ اللهَ ذكرَ في هذهِ الآيةِ معايبَهم، ولم يَذْكُرْ لهم شيئاً من المَحاسنِ.

ففي الآيةِ ردٌّ صريحٌ على هذهِ المقالةِ التي يُرادُ منها السُّكوتُ عن البدعِ

والخرافاتِ أَوْ ذكرُ محاسنِ المبتدعةِ والمخالفينَ للحقِّ.

المسألة السادسة: في الآيةِ الثالثةِ دليلٌ على أنه كانَ في الأممِ السابقةِ من يَبْني المساجدَ على القبورِ، فلا بُدَّ أن يوجدَ في هذهِ الأمةِ مَنْ يبني المساجدَ على القبورِ وقد وقَع هذا.

ففيهِ ردٌّ على مَنْ زَعَمَ أنه لا يقعُ في هذهِ الأمةِ شركٌ، ووجهُ الردِّ: لأنَّ بناءَ المساجدِ على القبورِ وسيلةٌ إلى الشركِ.

المسألة السابعة: في الحديثِ دليلٌ على معجزةٍ من معجزاتِهِ ﷺ، حيثُ أخبرَ أنه سيكونُ في هذهِ الأمةِ مَنْ يتشبَّهُ باليهودِ والنَّصارى، وقد وقَعَ كما أخبرَ ﷺ.

المسألة الثامنة: في الحديثِ دليلٌ على تحريمِ التشبّهِ باليهودِ والنَّصارى، لأنَّ الحديثَ خبرٌ معناه النَّهي والإنكارُ على مَنْ فعلَ ذلكَ.

المسألة التاسعة: في الحديثِ دليلٌ للتَّرجمةِ: أنَّ بعضَ هذهِ الأمةِ يَعْبدُ الأوثانَ، لأنَّ في اليهودِ والنَّصارى مَنْ يعبدُ الأوثانَ، فلا بُدَّ أن يوجدَ في هذهِ الأمةِ من يتشبّهُ بهم فيعبدُ الأوثانَ، كما هو واقعٌ وحاصلٌ في عبادةِ القبورِ والأضرحةِ الآنَ بكثرةٍ وعلى مَسْمعٍ من علماءِ المسلمينَ ومَرْأى ولم يُنْكِرْ ذلكَ الكثيرَ منهم، بل بعضُهُم أجازَهُ وشجَّع عليهِ.

ولا حولَ ولا قوةَ إلَّا باللهِ العليِّ العظيمِ.

وَلِمُسلِمٍ[1]، عَن ثَوبَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا.

هذا حديثٌ عظيمٌ فيه أمورٌ مخيفةٌ، وفيه أخبارٌ عظيمةٌ، وفيهِ بشارةٌ:

فقوله: «**عن ثوبان**» ثوبان هو: مَوْلى رَسولِ اللهِ ﷺ، والمَوْلى معناه: العتيقُ، لازمَ الرسولَ ﷺ، وله فضائلُ كثيرةٌ رضي الله عنه.

«**أن رسول الله ﷺ قال: إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ**» يعني: جمَعَها، وحواها وطواها له ﷺ حتَّى صارَتْ حَجْماً صغيراً، يرى النبيُّ ﷺ أطرافَه ما بعُدَ منها وما قرُبَ، واللهُ قادرٌ على كلِّ شيءٍ.

أو أنَّ المرادَ -واللهُ أعلمُ- أنه قَوَّى بَصَرَ رسولِهِ ﷺ فصارَ يرى كُلَّ الأرضِ مشارِقِها ومغاربِها، كما حصَلَ له ﷺ لما سألَهُ المشركونَ عن بيتِ المقدسِ، حيثُ قوَّى بصَرَ رسولِهِ فصارَ ينظُرُ إلى بيتِ المقدسِ وهو في مكّةَ يخطُبُ في المشركينَ، ويصفُ لهم المسجدَ عن معاينةٍ ومشاهدةٍ، حتى ذكَرَ لهم علاماتِهِ والأشياءَ التي يعرفونَها فيه، وحتّى أنه أخبرَهم عن عيرِهم التي في الطريقِ التي كانوا يَنْتَظرونَها، أخبرَهُم أينَ هي؟.

«**فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا**» رأى المَشْرِقَ والمَغْربَ وجمعَها لكثرةِ الطالعِ والغاربِ من الكواكبِ.

«**وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا**» بالبناءِ على الفاعلِ وهو اللهُ سبحانه وتعالى، أو «**مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا**» بالبناءِ للمفعولِ، والفاعلُ هو اللهُ سبحانه وتعالى.

---

(١) برقم (٢٨٨٩).

وَأُعْطِيتُ الكَنْزَيْنِ: الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ.

ولم يذكُرْ ﷺ الشَّمالَ والجنوبَ من الأرضِ لقلَّةِ سكانِها ولأنَّ هذا لم تَبْلغْهُ الفتوحاتِ، وإنما الفتوحاتُ امتدَّتْ من المشرقِ إلى المغربِ.

«**وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا**» هذا خبرٌ عن المستقبلِ، وهو لا ينطقُ عن الهوى ﷺ.

ففيه دليلٌ من أدلّةِ نبوّتهِ ﷺ.

الدّليل الأول: زَوي الأرضَ له. هذا دليلٌ على نبوَّتِهِ.

الدليل الثاني: أنه أخبرَ عن مُلْكِ أُمَّتِهِ، وأنه سيتَّسِعُ ويبلغُ المشرقَ والمغربَ في يومِ أَنْ كانَ ملكُ المسلمينَ في المدينةِ وما حولَها فقط.

فهذا من علاماتِ نبوَّتِهِ ﷺ.

وقد وقَعَ كما أخبرَ، فانتشرتِ الفتوحاتُ في عهدِ الخلفاءِ الراشدينَ وخلفاءِ بني أميةَ وبني العباسِ حتى سقطَتْ دولةُ الفُرْسِ بالمشرقِ، وسقطَتْ دولةُ الرومِ بالمغربِ، وامتدّ سلطانُ المسلمينَ في الشرقِ إلى أَنْ وصَلَ السّندَ، وفي المغربِ إلى أَنْ وصَلَ إلى طَنْجَةَ في أقصى المغربِ، بل امتدَّ إلى أَنْ وصَلَ إلى جبالِ البَرَانِس وهي حدودُ فرنسا، حيثُ دخلَتِ الأندلسُ في الخلافةِ الأمويّةِ في ملكِ المسلمينَ، وهذا مِصْداقٌ لخبرِهِ ﷺ: «**وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا**».

«**وَأُعْطِيتُ الكَنْزَيْنِ: الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ**» المرادُ بالكنزينِ: الأموالِ النّفيسةِ، «**الأَحْمَرَ**»: الذَّهَب، «**وَالأَبْيَضَ**»: الفضَّة، وهذا عبارةٌ عن أموالِ الفرسِ والرُّومِ. فأموالُ الفرسِ من الذهبِ، وأموالُ الرُّومِ من الفضةِ، أو العكسِ، قولانِ في المسألةِ.

وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بعَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ.

وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ

وقد وقَعَ ما أخبرَ به ﷺ، فقد جيءَ بأموالِ الفرسِ والرُّومِ في خلافةِ عمرِ بنِ الخطابِ، ووزِّعَتْ بينَ المسلمينَ في المدينةِ، حتَّى أنَّه جيءَ بتاجِ كِسْرى الذي يلبِسُهُ على رأسِهِ، وجيءَ بسوارَيْهِ الذَيْنِ يلبسُهُما في يديهِ، وهذا مصداقُ ما أخبرَ به ﷺ.

وقوله: «**وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لأُمَّتِي**» هذا من شفقتِهِ ﷺ بأمَّتِهِ.

«**أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ**» المرادُ بالسَّنَةِ: الجُدْب، أي: لا يعمُّ الجَدْبُ والقَحْطُ كلَّ بلادِ المسلمينَ، فتَهْلكَ أموالُهم وزروعُهم وما يأكلونَ منه، فالسنةُ المرادُ بها: الجَدْب كما قالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ يعني: بالجَدْب.

دعا النبيُّ ﷺ ربَّه أَنْ لا يُنزِلَ الجَدْبَ والقَحْطَ على أمةِ محمَّدٍ كلِّهم، لأنهُ إذا نزلَ بهم كلِّهم هلكوا.

وقوله: «**وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ**» يعني: من الكفارِ، أي: لا يُسلِّطُ الكفارَ على المسلمينَ.

«**فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ**» البيضَة: الحَوْزة، يعني: لا يستبيحُ الكفارُ حوزةَ المسلمينَ وبلادَهم، أو المراد بالبيضةِ: اجتماعُ الكلمةِ. والمعنى عامٌّ معناه: لا يستبيحُ بلادَهم وجماعتَهم.

«**وَإِنَّ رَبِّي قَالَ يَا مُحَمَّدُ**» هذهِ إجابةُ اللهِ لدعوةِ رسولِهِ ﷺ.

لأُمَّتِكَ: أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا».

«**إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ**» إذا قدَّرَ اللهُ قدراً فلا بدَّ من نفاذِهِ، فأَقْدارُ اللهِ نافذةٌ في المسلمينَ والكفّارِ وعمومِ النَّاسِ، لا أحدَ يستطيعُ ردَّ القضاءِ والقدرِ، فهذا فيهِ إثباتُ القدرِ، وأنَّ قدرَ اللهِ نافذٌ، لا يستطيعُ أحدٌ ردَّهُ.

«**وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ**» استجابَ اللهُ الدعوةَ الأُولى مطلقاً، وأنه سُبْحانه لا يُنْزِلُ قحطاً عامّاً للبلادِ كلِّها، وإنما يُنْزِلُ القحطَ في بعضِ البلادِ دونَ بعضٍ بخلافِ الأممِ السابقةِ، فإنّ اللهَ ينزلُ القَحْطَ العامَّ عليهم فيضرُّهم، كما حصَلَ لقومِ فرعونَ، أما هذهِ الأمةُ لكرامتِها على اللهِ فإنَّ اللهَ لا يُنْزِلُ عليها القحطَ العامَّ.

«**وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا**» استجابَ اللهُ له الدعوةَ الثانيةَ استجابةً مُعلَّقةً، يعني: ما دامَتْ أمتكَ مجتمعةً على الحقِّ كلمتُها واحدةٌ، فإنَّ اللهَ لا يُسلِّطُ عليهم عدوّاً من الكفارِ، أمَّا إذا حصَلَ في الأمةِ افتراقُ كلمةٍ، وحصَلَ بينهم قتالٌ فيما بينَهم، وسبى بعضُهم بعضاً، فحينئذٍ يعاقبُهم اللهُ عز وجل ويُسلِّطُ عليهم الكفّارَ.

قوله: «**وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا**» أي: إذا اجتمعَتْ كلمةُ المسلمينَ، ولم يكُنْ بينَهم اختلافٌ ولا تقاتلٌ فيما بينَهم، فلو اجتمَعَ أهلُ الأرضِ كُلُّهم على قتالِ المسلمينَ أو أرادَ سلبَ شيءٍ من مُلْكِهم فلَنْ يستَطيعوا، وأما إذا اختلفوا فيما

بينَهم، وتقاتلوا فيما بَيْنَهم، وأخذَ بعضُهُم أموالَ بعضٍ، فإنَّ اللهَ يعاقِبُهم، ويُسلِّطُ عليهم الكفّارَ.

وقَدْ حصَلَ مِصْداقُ هذا، فإنه لمَّا كانتِ الأمةُ مجتمعةً في عهدِ أبي بكرٍ الصدّيق وعمرِ بنِ الخطابِ، وأوَّلِ خلافةِ أميرِ المؤمنينَ عثمانَ، وسلطانُ المسلمينَ ظاهرٌ في الأرضِ، قد خافَتْهُمُ الأممُ، فصارَ الكفارُ يخافونَ من المسلمينَ.

ولما وقعتِ الفتنةُ بينَ المسلمينَ في خلافةِ عثمانَ -رضِيَ اللهُ تعالى عنه- بسببِ اليهوديِّ الذي ادّعى الإسلامَ وهو: عبدُاللهِ بنُ سبأ اليمانيُّ، وصارَ يُحرِّضُ المسلمينَ على الخليفةِ عثمانَ ذي النورينِ رضي الله عنه، واجتمعَ حوله من الأوباشِ وضعافِ الإيمانِ من الشبابِ الطائشِ، اجتمعوا على هذهِ الطاغيةِ، وفي النّهايةِ حاصروا عثمانَ رضي الله عنه وقتلوهُ، ولمَّا قتلوا عثمانَ عاقَبَ اللهُ المسلمينَ فجعَلَ بأسَهم بينهم، وسلَّطَ عليهم عدوَّهم.

وما زالتِ المداولاتُ والحروبُ بينَ المسلمينَ بعضُهم معَ بعضٍ وبينَ المسلمينَ والكفارِ.

صحيحٌ أنها قامَتْ دولةُ بني أميةَ بعدَ ذلكَ وانتشرَ الإسلامُ، ودولةُ بني العباسِ، ولكنْ لم تَخْلُ الأمةُ مِنَ اقتِتالٍ ومن فتنٍ فيما بينها، إلى أَنْ جاءَت الداهيةُ الدَّهياءُ في آخرِ خلافةِ بني العباسِ، فغزا التّتارُ بلادَ المسلمينَ، واستباحوا عاصمةَ المسلمينَ بغدادَ، وقتلوا الخليفةَ العباسيَّ، وقتلوا من المسلمينَ مئاتِ الألوفِ، وأحرقوا -كتبَ المسلمينَ- وألقوها في نهرِ دجلةَ حتى تغيرَ الماءُ بمدادِ الكتبِ، وتسلّلوا إلى بقيةِ البلادِ، وحصَلَ من الحروبِ الطاحنةِ ما سجَّلَهُ التاريخُ.

رَوَاهُ البَرقَانِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» وَزَادَ: «وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئِمَّةَ المُضِلِّينَ.

وكذلك الصليبيّونَ زحَفوا على المسلمينَ واستولوا على الأندلسِ، وزَحفوا إلى بلادِ الشامِ واستولوا على بيتِ المقدسِ وبقي بيتُ المَقْدسِ حوالي مائةِ سنةٍ تحتَ أيدي الصليبيّين، حتى جاءَ صلاحُ الدينِ الأيوبي رحمه الله، فخلّصَ بيتَ المقدسِ من أيدي الصليبيّينَ.

ولا يزالُ الخلافُ وتسلَّطَ الكفارُ على المسلمينَ إلى وقتِنا هذا، بل في وقتِنا هذا اشتدَّ فيهِ الأمرُ، والسببُ في هذا هو اختلافُ المسلمينَ فيما بينَهم، كما في هذا الحديثِ: «**حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا**» فإذا حصَلَ للمسلمينَ هذا سلَّطَ اللهُ عليهم الكفارَ بسببِ الاختلافِ، واستباحةِ حرمةِ المسلمينَ فيما بينهم، هذا يقتلُ هذا، وهذا يُسْبي هذا، مع أنَّهم إخوةٌ مسلمونَ.

والواجبُ على المسلمينَ أن يكونوا أمةً واحدةً: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾، ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟﴾، ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟﴾، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾، فالاختلافُ عذابٌ، وسببٌ لتسلُّطِ الكفارِ، والاجتماعُ رحمةٌ وقوةٌ وعزّةٌ للمسلمينَ ولن يحصلَ الاجتماعُ إلَّا تحتَ عقيدةِ التوحيدِ.

قوله: «**رواه البَرْقاني في صحيحه**» البَرْقاني هو: أبو بكر محمَّدُ الخوارزميُّ الشافعيُّ، وكتابه يُسمَّى بالمسندِ الصحيحِ، جمعَ فيهِ الأحاديثَ الصحيحةَ، ويقولُ: أنه جمَعَ فيهِ أحاديثَ الصحيحَينِ وزادَ عليهما ما صحَّ عندَه من الأحاديثِ.

«**وزاد**» يعني: على روايةِ مسلم.

أنَّ الرسولَ ﷺ قال: «**وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ**» هذا سببٌ آخرُ، السببُ الأولُ: الاختلافُ بينهم. السببُ الثاني: وجودُ دعاةِ الفتنَةِ، ودعاةُ الضّلالِ. فهؤلاءِ سببٌ آخرُ لهلاكِ المسلمينَ، وسببٌ لتفرقِ كلمتِهم، وتسلُّطِ العدوِّ عليهم، بأنْ يكونَ هناكَ دعاةُ ضلالٍ، ودعاةُ فتنةٍ، ودعاةُ فُرقةٍ، وتحريشٌ بينَ المسلمين، كما حصلَ من الداعيةِ الخبيثِ الأوَّلِ عبدِاللهِ بنِ سبأٍ.

والأئمةُ جَمْع: إمام، والإمامُ هو القدوةُ الذي يُقتدَى به في الخيرِ أو الشرِّ. فإذا كانَتِ القدوةُ من أهلِ الضلالِ ضلَّت الأمةُ، وحصَلَ فيهم الشرُّ، ويرادُ بهم الأمراءُ الضالونَ، والعلماءُ الضَّالونَ، والعُبَّاد الضالونَ، والدُّعاةُ الضَّالونَ، كلُّ هؤلاءِ من الأئمةِ المضلّينَ، فإذا قادَ الأمةَ هؤلاءِ قادوها إلى الهلاكِ، أما إذا قادَ الأمةَ دعاةُ الحقِّ قادوها إلى الصَّلاحِ والسلامةِ.

ففي قولِهِ: «**أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ**» مفهومه: أنَّ الأئمةَ المصلحينَ خيرٌ للأمةِ، يجمعونَ كلمتَها، ويصلحونَ عقيدَتَها، ويردُّونَها إلى منهجِ السلفِ الصالحِ، ويحصلُ بهم الخيرُ.

أما دعاةُ الضلالِ فإنهم يصدونَها عن الحقِّ، ويدعونَها إلى خلافِ منهجِ السلفِ.

والآنَ فيما بيننا ظهَرَ من يُزهِّدُ في منهجِ السلفِ، ويعتبرُهُ من الأمورِ الرَّجعيَّة، ومن الأمورِ القاصرةِ، ويريدُ مِنَ المسلمينَ أن ينهجوا مناهجَ حديثةٍ، ابتكرَها جهّالٌ أو ضُلّالٌ، يريدونَ أنَّ الدعاةَ يسيرونَ على هذا المنهجِ المُبتكرِ المُحْدَثِ، ويتركونَ منهجَ السلفِ الصالحِ الذي فيه الخيرُ، وفيهِ الصَّلاحُ والفلاحُ، هذا ظهرَ وقد أخبرَ ﷺ أنه يكونُ في هذهِ الأمةِ دعاةٌ على أبوابِ جهنَّمَ من أطاعَهُم قذفوهُ فيها، قالوا: صفهُم لنا يا رسولَ اللهِ، قالَ: «**هُمْ قَوْمٌ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ**

وَإِذَا وُضِعَ عَلَيهِمُ السَّيْفُ لَمْ يُرْفَعْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ.........

بِأَلْسِنَتِنَا»[1] فلنحذَرْ من هؤلاءِ غايةَ الحذرِ.

لا نجاةَ لنا إلَّا باتِّباعِ دعاةِ الصلاحِ الذينَ يدعونَ إلى منهجِ السَّلفِ الصَّالحِ وإلى اتباعِ الكتابِ والسنّةِ، هؤلاءِ همْ الخيرُ على الأمةِ.

أما مَنْ أرادَ بالأمةِ خلافَ ذلكَ، وابتكرَ لها منهجاً أو خطَّطَ لها تخطيطاً جديداً يخالِفُ منهجَ السلفِ، فهذا لا يريدُ للأمةِ خيراً سواءً كان متعمداً أو لم يتعمَّدْ.

وأخطرُ ما على الأمةِ الآنَ الدعاةُ الجُهّالُ الذينَ لا يعرفونَ العلمَ، ويدعونَ النّاسَ بجهلٍ وضلالٍ، أو الدعاةُ المغرضونَ الذينَ يعرفونَ الحقَّ لكنَّهم مُغْرضونَ، يريدونَ صرفَ الأمةِ عن جادّةِ الصوابِ.

الحاصلُ، أنَّ الأمةَ على خطرٍ من هؤلاءِ، فعلينا أَنْ نتنبَّهَ لهذا الأمرِ، وأن نعالجَ هذا الأمرَ قبلَ أن يَسْتَحْفلَ.

قوله: «**وإذا وضع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة**» كذلكَ خافَ عليهم النبيُّ ﷺ أنه إذا بدأ القتالُ بينَ المسلمينَ فإنه لا يُرفَعُ إلى يومِ القيامةِ، وهذهِ بليّةٌ أخرى.

البليّة الأولى: تسلُّطُ الكفارِ على المسلمينَ.

والبليّة الثانية: إذا وقَع القتالُ بينَ المسلمينَ فإنه لا يُرفعُ إلى يومِ القيامةِ عقوبةً لهم.

وذلكَ حصَل كما أخبرَ به ﷺ؛ فإنه لمَّا قُتِلَ الخليفةُ الراشدُ أميرُ المؤمنينَ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤١١) ومسلم (١٨٤٧).

وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى تَعْبُدَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتِي الأَوْثَانَ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ،

عثمانُ فإنه لا يزالُ القتالُ مستمرّاً بينَ المسلمينَ، وسيستمرُّ إلى يومِ القيامةِ. ولا حولَ ولا قوةُ إلّا باللهِ كما أخبرَ النبيُّ ﷺ.

قوله: «**ولا تقوم الساعة حتى يلحق حيٌّ من أمتي بالمشركين**» الحي: المرادُ به: القبيلةُ، ومعنى يلحق: يتبعُ؛ إما بأَنْ يذهبوا إلى بلادِهم ويَسْكنوا معهم ويكونوا مِنْ دولتِهم، وإمَّا بأَنْ يبقوا في بلادِ المسلمينَ ولكِنْ يكونونَ على منهجِ الكُفارِ ويرتدّونَ عن الإسلامِ.

ووقعَ هذا كما أَخبرَ به ﷺ، ففيهِمْ من ذهبَ إلى بلادِ الكفارِ ولم يرجِعْ وصارَ يوافِقُ الكفَّارَ في أمورِهم الدينيةِ، ويَجْري عليهم حُكْمُهم وهو مختارٌ للإقامةِ بينهم. وفيهم مَنْ بقِيَ في بلادِ المسلمينَ ويعتَنِقُ مذاهبَ الكفرِ من شيوعيةٍ وبعثيةٍ وقوميةٍ وغيرِ ذلكَ، وهؤلاءِ لحِقوا بالمشركينَ في قلوبِهم وعقائدِهم كما أخبرَ ﷺ وإِنْ لم يلحقوا بهم في أبدانِهم.

قوله: «**وحتى تعبد فِئام من أمتي الأوثان**» الفِئام: الجماعاتَ، والأوثان: كلُّ ما عبِدَ من دونِ اللهِ.

وقد وقَعَ ما أخبرَ به ﷺ، فعَبَدتْ جماعاتٌ من هذهِ الأمةِ القبورَ والأضرحةَ، واعتبروا هذا هو الدِّينُ الصحيحُ، وسمَّوْا دينَ التوحيدِ الصحيحِ دينَ الخوارجِ.

وهذا مع ما قبلَه هو الشَّاهدُ من هذا الحديثِ للبابِ.

وفيه ردٌّ على مَنْ زَعَمَ أنَّ هذهِ الأمةَ لا يقعُ فيها شركٌ، ووجهُ الردِّ: لأنَّ الرسولَ ﷺ أخبرَ -وهو الصَّادقُ المَصْدوقُ- أنه لا بدَّ أن تَعْبُدَ جماعاتٌ وليسوا أفراداً من هذهِ الأمةِ الأوثانَ.

....

وقوله ﷺ: «**وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي**»، هذا فيه إخبارٌ منه ﷺ بظهورِ المتنبِّئينَ الكَذَبَة الذينَ يدَّعونَ النُّبوةَ.

وقد حصَلَ ما أخبرَ به ﷺ، وأولُ مَنْ ظَهَر في حياتِهِ ﷺ اثنان:

مُسَيْلِمة الكذّاب في اليمامةِ، **والأسود العَنْسي** في اليمنِ.

أمّا الأسودُ العَنْسي فقد قتلَهُ المسلمونَ قبلَ موتِ النبيِّ ﷺ.

وأمّا مُسَيْلِمةُ الكذَّابُ فإنه قد تَبِعَهُ قومٌ من أهلِ اليمامةِ، ولما بُويعَ أبو بكرٍ الصديقُ -رَضِيَ اللهُ تعالى عنه- بالخلافةِ بعدَ وفاةِ الرسولِ ﷺ جهَّزَ له الصديقُ جيشاً من المسلمينَ من المهاجرينَ والأنصارِ بقيادةِ خالدِ بنِ الوليدِ قاصداً اليمامةَ، وحصَلَ قتالٌ شديدٌ جدّاً، وقُتِلَ فيه من المسلمينَ ومِنْ أفاضِلِهم ومن قُرّاءِ القرآنِ العددُ الكثيرُ، ولكِنْ في النّهايةِ قَتل اللهُ مُسَيْلِمةَ الكذّابَ على يدِ المسلمينَ في خلافةِ أبي بكرِ الصديقِ -رضِيَ اللهُ تعالى عنه-، وأراحَ اللهُ المسلمينَ من شرِّه.

ثمّ ظهَرَ طُليحةُ الأسديُّ وادّعى النبوّةَ، وظَهَرَتْ سَجَاح التميميةُ وادّعتِ النبوّةُ، ولكنَّ اللهَ منَّ على طُلَيحةَ فتابَ إلى اللهِ عز وجل، وجاهَدَ في سبيلِ اللهِ، وتُوفِّيَ على الإسلامِ، وكذلكَ سَجَاح تابَتْ إلى اللهِ عز وجل.

ثمّ ظهر **المختارُ بنُ أبي عُبيد الثقفيُّ** في خلافةِ عبدِالملكِ بنِ مروانَ، وادَّعى النبوّةَ، وقتلَهُ اللهُ سبحانه وتعالى على أيدي المسلمينَ.

ولا يزالُ المتنبئونَ الكذَبَةَ يظهرونَ بينَ الحينِ والآخرِ، إلى أَنْ ظَهَر منذُ سنينَ رجلٌ في الباكستانِ يسمَّى **غلام أحمد القادياني**، ادَّعى النبوّةَ، وتَبِعَه قومٌ،

وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي.

وصارَ له أتباعٌ الآنَ يُسمَّوْن القاديانيّة، وقد كفَّرَهم المسلمونَ، ونبذُوهُم -وللهِ الحمدُ-.

وقوله ﷺ: «**وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي**» هذا كما قالَ اللهُ سبحانه وتعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، والخاتم -بفتح التاء-: الذي يختمُ على الشيءِ فلا يُزادُ فيه، يُقالُ: ختَمَ الكتابَ، يعني: وضَعَ الخَتْمَ عليه بحيثُ لا يُزاد فيه، وخَتَم الكيسَ بمعنى أنه أغلقَهُ بحيثُ لا يُزادُ فيه ولا يُنقصُ، فالرسولُ ﷺ خَتَمَ الأنبياءَ، بمعنى أنه هو آخِرُهم، ولا يأتي بعدَه نبيٌّ.

وأما لفظ خاتِم -بالكسر- فهو: اسمُ فاعلٍ، فالنبيُّ ﷺ هو خاتِمُ النبيّينَ، أي: الذي كمَّلَهم وانتهى به عددُهُم، فلا يُبعَثُ نبيٌّ بعدَ رسولِ اللهِ ﷺ إلى أن تقومَ الساعةُ، كما أنَّ شريعتَهُ لا تُنسخُ إلى أن تقومَ السَّاعةُ، وأرسلَهُ اللهُ إلى العالمينَ كافَّةً: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾، أرسَلَهُ إلى العالمِ كافّةً -عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ-، إلى العربِ والعجمِ، والجنِّ والإنسِ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، وأنزلَ عليه شريعةً كاملةً، شاملةً لكلِّ زمانٍ ومكانٍ إلا أَنْ تقومَ السَّاعةُ.

فالذي يدَّعي النبوّةَ بعدَ محمَّدٍ ﷺ فهو كافرٌ، لأنهُ مكذِّبٌ للهِ، لأنَّ اللهَ قالَ: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، ومكذِّبٌ لرسولِ اللهِ في قوله: «**وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ**» ومكذِّبٌ لإجماعِ المسلمينَ، لأنَّ المسلمينَ أجمعوا على أنه لا نبيَّ بعدَ محمَّدٍ ﷺ.

فإن قالَ قائلٌ: أليسَ المسيحُ عيسى بنُ مريمَ ينزلُ في آخرِ الزمانِ كما تواتَرَ ذلك في الأحاديثِ؟

وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الحَقِّ مَنصُورَةً، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى»(١).

قلنا: نَعَمْ، ينزلُ في آخرِ الزمانِ، ولكِنْ لا ينزِلُ بشريعةٍ جديدةٍ، وإنَّما ينزلُ ليعملَ بشريعةِ محمَّدٍ ﷺ، فهو يُعتبرُ مجدِّداً من المجدِّدينَ، ومصلحاً من المصلحينَ، يحكمُ بشريعةِ الإسلامِ، ويتَّبعُ محمَّداً ﷺ، فنزولُ عيسى عليه السلام لا يتخلفُ معَ قولِهِ ﷺ: «أَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ» وقولِ اللهِ: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـنَ﴾، لأنه لا ينزلُ بشريعةٍ، ولا ينزلُ على أنه نبيٌّ يُبعث إلى الناسِ، وإنما ينزلُ على أنه حاكمٌ بشريعةِ محمَّدٍ ﷺ، وتابعٌ لمحمَّدٍ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ-.

ثمَّ قالَ مبشِّراً لأمتِهِ بعدَ هذهِ الأخبارِ المروِّعةِ: «**وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الحَقِّ**» يعني: مع هذهِ الحوادثِ العظيمةِ، وهذا الابتلاءِ العظيمِ، ووقوعِ الشركِ، ووقوعِ اللَّحاقِ بالمشركينَ من بعضِ القبائلِ وتسلُّطِ الكفّارِ، وقلّةِ أهلِ الحقِّ، وكثرةِ أهلِ الباطلِ، مَعْ هذا يَبْقي في هذهِ الأمةِ بقيّةٌ صالحةٌ إلى أَنْ يأتيَ أمرُ اللهِ تبارَكَ وتَعالى.

والطائفةُ في الأصلِ الجماعةُ. والمرادُ هنا من كانَ على الحقِّ ولو كانَ واحداً. بدليلِ قولِه تعالى: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ وهو واحدٌ.

«**عَلَى الحَقِّ ظَاهِرِينَ**» يعني: غالبين.

«**لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ**» مع هذهِ الشرورِ كلِّها، وهذه الفتنُ كلُّها، هذهِ الطائفةُ لا تتضرَّرُ، بل تَبقى على الحقِّ الذي بُعِثَ به محمَّدٌ ﷺ، ولم يُعيِّنْ ﷺ عددَها، ولم يُعيِّنْ مكانَها، لأنَّ العددَ قد يقِلُّ وقَدْ يكثُرُ، وكذلكَ المكانُ قد يكونُ

---

(١) أخرج هذه الزيادة أحمد (٥/ ٢٧٨)، وأبو داود (٤٢٥٢) وابن ماجه (٣٩٥٢)، والترمذي مقطعاً (٢٢٠٢) و(٢٢١٩) و(٢٢٢٩).

تارةً في المشرقِ، وتارةً في المغربِ، وتارةً في العربِ، وتارةً في العجمِ، المهمُّ أنَّـها تَبْقى هذه الطائفةُ من الأمةِ، لتبقى حجّةُ اللهِ سبحانه وتعالى على خلقِهِ.

وقد قالَ أهلُ العلمِ -كالإمامِ أحمدَ وغيرِهِ[١]-: (إن هذه الطائفة هم أهل الحديث)، أي: الذي يتمسّكونَ بسنّةِ الرسولِ ﷺ، كما قالَ ﷺ -لمَّا ذَكَر افتراقَ الأمةِ إلى ثلاثٍ وسبعينَ فرقةً-: «**كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً**» قالوا: مَنْ هي يا رسولُ اللهِ؟، قال: «**من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي**»[٢]، فهم أهلُ الحديثِ الذين يتمسّكونَ بحديثِ الرسولِ ﷺ، ولا يتمسّكونَ بالآراءِ والأَقْوالِ وعلمِ الكلامِ والمنطقِ.

فهم الطائفةُ المنصورةُ وهم الفرقةُ النَّاجيةُ وهُـمْ أَهْلُ الحديثِ وهم أَهْلُ السنّةِ والجماعةِ، لا كما يقول بعضُ المعاصرينَ: إنَّ الفرقةَ الناجيةَ غيرُ الطائفةِ المنصورةِ، وهذا تفريقٌ بغيرِ علمٍ.

وقوله: «**حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ**» المرادُ بأمرِ اللهِ ما يكونُ في آخرِ الزمانِ من قَبَضِ أرواحِ أَهْلِ الإيمانِ، حينَ يبعثُ اللهُ ريحاً طيّبةً في آخرِ الزمانِ قبلَ قيامِ الساعةِ فتقبضُ روحَ كلِّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ، ويبقى شرارُ النَّاسِ، وحينئذٍ تقومُ السَّاعةُ.

ما يستفادُ من هذا الحديثِ:

هذا الحديثُ يدلُّ على مسائلَ عظيمةٍ:

المسألة الأولى: في هذا الحديثِ دلائلُ من دلائلِ النبوّةِ، وهي:

أولاً: قولُه ﷺ: «**إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ حَتَّى رَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا**».

(١) انظر «سنن الإمام الترمذي» (٢٦٤١).

(٢) انظر «شرف أصحاب الحديث» للخطيب (٢٧).

ثانياً: قولُهُ ﷺ: «سيبلغ ملك أمتي ما زُوِيَ لي منها».

ثالثاً: إخبارُهُ ﷺ بأنَّ هذهِ الأمةَ إذا افترقَتْ وتقاتَلَتْ يتسلَّطُ عليها العدُوُّ. وقد وقَعَ ما أخبرَ به ﷺ.

رابعاً: إخبارُه ﷺ عن وقوعِ الشركِ في أمتِهِ. وقد وقَعَ ما أخبرَ بِهِ ﷺ.

خامساً: إخبارُهُ بظهورِ المتنبّئينَ الكَذَبَة. وقَدْ وقَعَ ما أخبرَ به ﷺ، فلا يزالُ المتنبئونَ الكَذَبَة يظهرونَ بينَ الحينِ والآخرِ، لكنْ منهم مَنْ له شوكةٌ، ومنهم مَنْ ليسَ له شوكةٌ.

سادساً: إخبارُهُ ﷺ ببقاءِ الطائفةِ المنصورةِ على الحقِّ. وقد وقَعَ ما أخبرَ به ﷺ، فلا تزالُ هذهِ الأمةُ -وللهِ الحمدُ- يبقى فيها من أهلِ الصلاحِ والإصلاحِ من يَبْقى بهم هذا الدينُ، وتقومُ بهِ حجّةُ اللهِ على العالمينَ، مع اشتدادِ الغُربةِ، وعظيمِ الكُرْبةِ، ولكنَّهم يصبرونَ، ويثبتونَ على الحقِّ.

المسألة الثانية: في هذا الحديثِ كمالُ شفقتِهِ ﷺ بأمَّتِهِ، حيثُ دعا لهم ﷺ بهذهِ الدعواتِ المباركاتِ العظيمة، واستجابَ اللهُ له.

المسألة الثالثة: في هذا الحديثِ أَنَّ تفرُّقَ الأمةِ وتناحُرُها فيما بينَها سببٌ لتسلُّطِ العدوِّ عليها، وأنَّ اجتماعَها وتوحُّدَها على الحقِّ سببٌ لمنعِ الكفّارِ من الاستيلاءِ على شيءٍ من بلادِها.

المسألة الرابعة: في الحديثِ دليلٌ على خطرِ الأئمةِ المضلّينَ، أي: القياداتُ الفاسدةُ من الأمراءِ والعلماءِ والعبّادِ والدعاةِ الفاسدينَ، أما الأئمةُ المصلحونَ فهؤلاءِ خيرٌ على الأمةِ وصلاحٌ لها.

المسألة الخامسة: في الحديثِ دليلٌ على أنه إذا وقَعَ في هذهِ الأمةِ قتالٌ فيما

بينهم أنه سيستمرُّ إلى أَنْ تقومَ الساعةُ، ولا يُرفَعُ، ولكِنْ يكثُرُ ويقلُّ أحياناً.

المسألة السادسة: في الحديثِ دليلٌ فيما ترجَمَ له المصنّفُ -رحمه الله من وقوعِ الشركِ والردّةِ في بعضِ هذهِ الأمةِ، فهذا شاهدٌ لقولِ المصنِّفِ: «**باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان**».

المسألة السابعة: في الحديثِ دليلٌ على خَتْمِ النبوّةِ به ﷺ، وأنَّ من ادَّعى النبوّةَ بعدَه فهو كافرٌ، لأنهُ مُكذِّبٌ للهِ ولرسولِهِ ولإجماعِ المسلمينَ ولِمَا عُلِمَ بالدينِ بالضرورةِ.

المسألة الثامنة: في الحديثِ دليلٌ على بقاءِ الفرقةِ الناجيةِ المنصورةِ، معَ كثرةِ الفتنِ والمحنِ والشُّرورِ، فإنَّ اللهَ سبحانه وتعالى لا يُخلي الأرضَ من الدعاةِ إلى الحقِّ القائمينَ عليهِ من الأئمةِ المُصلِحينَ.

* * *

الباب الرابع والعشرون:

بَاب ما جاء في السِّحر

مناسبةُ هذا البابِ للأبوابِ السابقةِ: أنَّ الشيخَ رحمه الله في الأبوابِ السَّابقةِ ذكَرَ أنواعاً من الشركِ، ووسائلِ الشركِ.

ولمَّا كانَ السحرُ نوعاً من أنواعِ الشركِ عَقَدَ له هذا البابَ، لأنَّ السِّحْر لا يُمْكنُ الوصولُ إليه إلَّا عَنْ طريقِ الشَّياطينِ، فالسَّحرةُ يَخْضعون للشَّياطينِ، ويَسْتَعينون بهم في سِحْرهم، وهذا شركٌ باللهِ عز وجل.

والسِّحرُ في اللغةِ هو: كلُّ ما لَطُفَ وخَفِيَ سببُهُ، ومنه سُمِّي السَّحَر سَحَراً في آخرِ الليلِ، لأنه خفيٌّ وكلُّ ما لَطُف يعني: دقَّ، وخَفِيَ سببُهُ عن النَّاسِ يُسمَّى سِحْراً في اللغةِ، ومنه قولُه ﷺ: «**إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا**» البيانُ معناه: الكلامُ البليغُ لأنهُ يستميلُ النفوسَ ويُؤثِّرُ فيها كما يُؤثِّرُ السِّحْرُ، إلَّا أنه ليسَ حراماً وكذلكَ النَّميمةُ، سُمِّيَتْ سِحْراً[1] لأنها تَعْملُ عملَ السِّحْر في الإفسادِ بينَ النَّاسِ، وإحداثِ البغضاءِ في القلوبِ، وإن لم تَكُنْ سِحْراً في الحقيقةِ، لكنَّها سحرٌ لُغويٌّ، هذا تعريفُ السحرِ في اللغةِ.

أما تعريفُهُ في الشرعِ: فالسحرُ عبارةٌ عن عزائمَ ورُقى وعُقدٍ يؤثِّرُ في بدنِ المسحورِ بالقتلِ أو بالمرضِ، أو بالإخلالِ بعقلِهِ، أو يفرِّقُ بينَ الزوجينِ، أو يَأْخُذُ الزوجَ عن زوجتِهِ فلا يستطيعُ الوصولَ إليها، قالَ تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾ يعني: السَّواحر.

---

(١) في قوله ﷺ: «ألا أنبئكم ما العَضْهُ -يعني السحر- هي النميمةُ القَالَةُ بينَ الناسِ» أخرجه مسلم (٢٦٠٦).

فالسَّاحر يعقِدُ العُقَدَ بالخيطِ ثمَّ ينفثُ فيها مِنْ ريقِهِ، ويستعينُ بالشَّيْطانِ، ويؤثِّر هذا بإذنِ اللهِ في المسحورِ إمَّا قتلاً، وإمَّا مرضاً، وإمَّا تفريقاً بينَه وبينَ حبيبِهِ، وإمَّا أن يَمْنَعَه عن زوجتِهِ فلا يستطيعُ الوصولَ إليها.

وقد سُحِرَ النبيُّ ﷺ[1]، وأثَّرَ فيه السِّحْرُ، وصارَ -عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ- يُخيَّلُ إليه أنهُ فعلَ الشيءَ ولم يكُنْ فعلَهُ، ورقاهُ جبريلُ فبرِئَ بإذنِ اللهِ.

فالسِّحْر له حقيقةٌ، ويُؤثِّر في بدنِ المسحورِ، ولكنَّهُ لا يؤثِّر إلَّا بإذنِ اللهِ القدريِّ، كما قالَ تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: إذن اللهِ القدريِّ الكونيِّ.

وقد ذكَرَ العلماءُ أنَّ السحرَ المحرَّمَ على نوعينِ:

سحرٌ حقيقيٌّ، وهو هذا الذي ذَكَرْنا.

والنوع الثاني: سحرٌ تخييليٌّ، ليسَ له حقيقةٌ، وإنَّما هو خيالٌ وشعوذةٌ، وهو ما يسمَّى بالقُمْرةِ، فالساحرُ يخيِّلُ للنَّاسِ شيئاً وهو ليسَ حقيقةً، كأَنْ يخيِّلَ للنَّاسِ أنهُ دخَل في النَّارِ، وليسَ كذلكَ، أو يخيِّلُ للناسِ أنه يَمْشي على حبلٍ، وهو ليسَ كذلكَ، أو يخيِّلُ للناسِ أنَّ السيارةَ تَمْشي على بطنِهِ، وليسَ كذلكَ، أو يخيِّلُ للناسِ أنه يَطْعَنُ نفسَه بالسلاحِ ولا يؤثِّرُ فيه، وليسَ كذلكَ، والحقيقةُ أنه عَمِلَ شيئاً من التَّخييلِ والقُمْرةِ فأثَّر على الأبصارِ. كما قالَ اللهُ تعالى في قومِ فرعونَ: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾، فسَحروا الأَعْينَ فقَطْ، وذلكَ بما يعلمونَهُ من الحِيَلِ، ويجعلونَ في العِصِيّ التي مَعَهم موادَّ

---

[1] كما في «صحيح البخاري» (٥٧٦٣) ومسلم (٢١٨٩)، ولا عبرة بمن أنكر ذلك من العقلانيين؛ لأن السحر مرض، والنبي ﷺ بشر؛ يجري عليه ما يجري على البشر من الأمراض.

وَقَولُ الله تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [سورة البقرة: ١٠٢].

تحرِّكُها، وتَجْعلُ العَصى كأنَّها حيّةٌ، وهو ليسَ كذلكَ كما قالَ تعالى عَنْ موسى عليه السلام: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾، حيثُ حشَوْها بشيءٍ من الزِّئْبقِ وشيءٍ من الأمورِ التي لا يراها الناسُ، وظنُّوا أنها تتحركُ.

وأنكرتِ المعتزلةُ النوعَ الأولَ، مع أنَّ النوعَ الأولَ هو الخطيرُ، وقالوا: السِّحْرُ كلُّه تَخْييلي.

وهذا غيرُ صحيحٍ، لأنه لو كانَ كذلكَ لَمَا أثَّر في المسحورِ ولمَا قَتَلَ المسحورَ، ولَمَا أمرضَهُ، ولما فرَّقَ بينَه وبينَ زوجِهِ، فدلَّ على أنه حقيقيٌّ، وعملٌ شيطانيٌّ، لأنه عُقدٌ وعزائمُ، ولهذا يقولُ تعالى لنبيِّه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾﴾، إلى قولِهِ: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾﴾ فدلَّ على أنه حقيقيٌّ.

والذي ذكرَهُ الشَّيْخُ في هذا البابِ من النصوصِ على نوعينِ:

النوع الأول: في حكمِ السِّحرِ.

والنوع الثاني: في حكمِ السَّاحرِ.

***

قال: «**وقول الله تعالى**: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾» أي: اليهود، لأنَّ الآيَةَ في سياقِ الآياتِ التي تتحدّثُ عن اليهودِ، أي: تحقَّقوا.

«﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾» أي: استبدلَ السِّحْرَ بالتوراةِ.

وَقَولُهُ: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [سورة النساء: ٥١].

قَالَ عُمَرُ: «الجِبْتُ: السِّحْرُ. وَالطَّاغُوتُ: الشَّيْطَانُ»[1].

«﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ﴾» أي: السَّاحرُ ليسَ له نصيبٌ من الجنَّةِ.

هذا دليلٌ على أنه كافرٌ، فالسحرُ كفرٌ باللهِ عز وجل، وذلكَ من عدّةِ مواضعَ في الآيةِ:

أولاً: قوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾.

ثانياً: قوله: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا﴾ أي: الملكانِ ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾.

ثالثاً: قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ أي: السِّحر ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ أي: نصيبٌ من الجنَّةِ.

***

قالَ المصنِّفُ -رحِمَه اللهُ تعالى-: «**وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾**» ثمَّ ذكرَ تفسيرَ الجِبْتِ والطاغوتِ بقولِهِ: «**وَقَالَ عُمَرُ: الجِبْتُ: السِّحْرُ**» فاليهودُ يؤمنونَ بالسحرِ، وهو كفرٌ باللهِ عز وجل.

«**وَالطَّاغُوتُ الشَّيْطَانُ**» أي: هو رأسُ الطواغيتِ، والطاغوتُ مشتقٌّ من الطغيانِ، وهو مجاوزةُ الحدِّ، كما سَبَقَ.

---

(١) علقه البخاري قبل الحديث (٤٥٨٣)، ووصله سعيد بن منصور (٢٥٣٤)، والطبري في «تفسيره» (٥/ ١٣١).

وَقَالَ جَابِرٌ: «الطَّوَاغِيتُ: كُهَّانٌ كَانَ يَنزِلُ عَلَيهِمُ الشَّيطَانُ، فِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٌ»(١).

قوله: «**وَقَالَ جَابِرٌ: الطَّوَاغِيتُ: كُهَّانٌ تَنزِلُ عَلَيْهِمُ الشَّيَاطِينُ، فِي كُلِّ حَيٍّ مِنْهُمْ وَاحِدٌ**» الكاهنُ هو الذي يدَّعي علمَ الغيبِ، وكانوا في الجاهليةِ يتخذونَ حُكّاماً من الكهّانِ، يحكمونَ بينَ الناسِ.

وكانَ هؤلاءِ الكُهّانُ تنزلُ عليهم الشياطينُ التي تَسْترقُ السَّمْعَ، كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾، وكما جاءَ في الحديثِ أنَّ مُسْتَرِقَ السَّمْعِ قد يَسْمَعُ الكلمةَ من السماءِ فيُلقيها على الكاهنِ، فيكذبُ الكاهنُ معها مائةَ كذبةٍ، فيُصدِّقُهُ النَّاسُ بسببِ هذهِ الكلمةِ التي سُمِعَتْ من السَّماءِ.

فالكاهنُ هو: الذي يُخبرُ النَّاسَ عن المُغَيّباتِ، بسببِ أنه يَسْأَلُ الشياطينَ، وتُخبِّرُهُ الشياطينُ عن الأشياءِ الغائبةِ، والأشياءِ المسروقةِ والمفقودةِ، والأشياءِ البعيدةِ، فهو يُخبِرِ النَّاسَ، فيظنُّونَ أن هذا الكاهنَ يعلمُ الغيبَ، وهو ليسَ كذلكَ، لا يعلمُ الغيبَ، وإنَّما أخبرَتْهُ الشياطينُ بأشياءَ غائبةٍ، لأنَّ الشياطينَ لهم قدرةٌ على الطيرانِ السريعِ، والوصولِ إلى الأمكنةِ البعيدةِ، حتَّى إنَّهم يَصْعَدون إلى السَّحابِ، ويطيرونَ في الآفاقِ، فهم يجوبونَ الآفاقَ بسرعةٍ، فيأتونَ بالأخبارِ ويُخبِّرونَ الكهّانَ، ويَرَوْنَ الأشياءَ المغيّبةَ في البيوتِ أو في الأمكنةِ، لأنَّهم يَدْخلون بعضَ البيوتِ، وعندَهم مقدرةٌ ليسَتْ عندَ الإنسِ، فإذا تقرَّبَ إليهم الإنسِيُّ بما يريدونَ من الشركِ والذبحِ لغيرِ اللهِ والسجودِ لهم؛ فإنهم يَخْدمونَهُ بما يريدُ، فيظنُّ الإنسُ أنَّ هذا الكاهنَ عندَهُ خبرٌ من الغيبِ، وأنه له خاصيّةٌ، والحقيقةُ

---

(١) علقه البخاري أيضاً قبل الحديث (٤٥٨٣)، ووصله الطبري (٣/ ١٩).

أنَّ هذا كلَّه من الشيطانِ.

وكانوا يُحكِّمونَهم في المُنازعاتِ والخُصوماتِ، وكانَ عندَ كلِّ حيٍّ كاهنٌ، يعني: عندَ كلِّ قبيلةٍ كاهنٌ يحكمُ بينَهُم.

فلمَّا جاءَ الإسلامُ أبطلَ اللهُ ذلكَ كلَّه، لكنْ لا يزالُ عندَ بعضِ البوادي والجُهّالِ نوعٌ من هذا الشيءِ، يَسْألونَ الكُهّانَ، ويُحكِّمونَهم، ويرجعونَ إليهم وقَدْ جاءَ في الحديثِ: «**مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ**»[1].

فلا يجوزُ الذهابُ إلى الكُهَّانِ والمشعوذينَ والدجّالينَ لا للعلاجِ، ولا للسُّؤالِ عن الأشياءِ الضائعةِ، ولا الأشياءِ الغائبةِ، وهذا كفرٌ بما أنزلَ اللهُ سبحانه وتعالى، ولا يجوزُ إقرارُهم وتركُهُم، بل يجبُ القضاءُ عليهم، وإراحةُ البلادِ والعبادِ منهم، لأنَّهم دُعاةُ كفرٍ وشركٍ، يُفسدونَ العقائدَ، ويأكلونَ أموالَ النّاسِ بالباطلِ، ويُحْدِثونَ الشرَّ في الأمةِ، فلا يجوزُ تركُهُمْ وإقرارُهُم، فضلاً عن الذهابِ إليهم وتَصْديقِهِم فيما يقولونَ، إنما هذا من عاداتِ الجاهليةِ كما قالَ جابرٌ رضي الله عنه.

فالكُهَّانُ لا يأتونَ بالأخبارِ مِنْ عندِ أَنْفسِهم، وإنما جاءَتْهُم بها الشياطينُ؛ لمَّا عبدُوهُم مِنْ دونِ اللهِ، وأَطاعوهم في معصيةِ اللهِ، وتقرّبوا إليهِمْ بالعبادةِ.

***

(١) أخرجه أبو داود (٣٩٠٤) والترمذي (١٣٥) وابن ماجه (٦٣٩) وأحمد (٢/ ٤٢٩).

وَعَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ»، قَالَوا: يَا رَسُولَ الله، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّرْكُ بِالله، ....

قال: «**عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللهُ عَنْهُ عَنِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «اجْتَنِبُوا**» أي: ابتَعِدوا، ولفظة: «**اجْتَنِبُوا**» أَبْلغ من: لا تَفْعلوا، لأنَّ الاجتنابَ يعني: تَرْكَ الشيءِ وتَرْكَ الأسبابِ المُوصِّلةِ إليه.

«**السَّبْعَ**» أي: المعاصي السبع.

«**المُوبِقَاتِ**» يعني: المُهلكات.

«**قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا هُنَّ؟**» سألوه ﷺ: ما هي هذهِ السبعُ حتى نتجنَّبَها؟، لأنَّ الإنسانَ لا يمكنُ أنْ يتجنّب الشيء إلَّا بَعْد أَنْ يعرفَهُ.

ففي هذا دليلٌ على أنه يجِبُ على المسلمِ أَنْ يسأَلَ عن الأمورِ المحرّمةِ، ويعرفَ الأمورَ الشركيّةَ، حتى يتجنَّبَها.

وهناكَ مَنْ يقولونَ: علّموا النّاسَ التوحيدَ واتركوا الكلامَ في الشركِ، والكلامَ في المحرّماتِ، علِّموهُمُ الخيرَ فقَطْ، ولا تُبيِّنوا لهم الشركَ والأمورَ المحرّمةَ.

وهذا خداعٌ من الشيطانِ، لأنه لا بُدَّ أَنْ يعرِفَ الإنسانُ الخيرَ ويعرفَ الشرَّ من أجلِ أَنْ يَعْملَ بالخيرِ ويتركَ الشرَّ، واللهُ قدَّمَ الكفرَ بالطاغوتِ على الإيمانِ باللهِ فقالَ تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾، وكيفَ يكفرُ بالطاغوتِ وهو لا يعرِفُهُ؟، لا بدَّ أَنْ يعرفَهُ من أجلِ أن يكفرَ به، وإلَّا إذا لَمْ يعرِفهُ ظنَّه خيراً.

«**قَالَ: الشِّرْكُ بِاللهِ**» هذا أكبرُ الكبائرِ، وأعظمُ الموبقاتِ، وأعظمُ ذنبٍ عُصي اللهُ به.

والسِّحْر، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ الله إِلَّا بالحَقِّ، ....

وما هو الشركُ؟، الشركُ هو عبادةُ غيرُ اللهِ سبحانه وتعالى، بأن يصرفَ له شيئاً من العبادةِ إمَّا دعاءً أو استغاثةً: كأَنْ يقولَ: يا سيّدي فُلان أَغِثْنِي اِشْفِني مِنَ المرضِ، أو يذهبونَ إلى القبورِ والأضرحةِ ويقولونَ: يا سيدي فُلان أنا بحَسْبِكَ، أغِثْني، أو اشفني من المرضِ، أو أَعْطِني ولداً، أو هَبْ لي زوجةً... إلى آخرِهِ. وهذا شركٌ باللهِ عز وجل، لأنه دعاءٌ لغيرِ اللهِ.

كذلكَ الذبحُ لغيرِ اللهِ، كأَنْ يذبحَ للقبرِ أو الضريحِ من أجلِ أَنْ يُعطى ولداً، أو يُدفَعَ عنهُ البلاءُ، أو يُشفى من المرضِ، ينذرُ للقبورِ، هذا هو الشركُ باللهِ عز وجل.

فليسَ الشركُ مقصوراً على عبادةِ الأصنامِ، بل الشركُ في كلِّ ما صُرِفَ لغيرِ اللهِ من العبادةِ أياً كانَ المصروفُ له، سواءً كان صنماً أو قبراً أو شجراً أو حجراً أو غيرَ ذلكَ.

والشركُ لا يَغْفِرُهُ اللهُ عز وجل كما قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾.

والمشركُ لا يدخُلُ الجنّةَ أبداً، ومأواهُ النَّارُ، قالَ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾، ﴿حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ يعني: منعَهُ من دخولِها مَنْعاً باتّاً، ﴿وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ مقرُّهُ ومصيرُهُ الأبديُّ ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾.

ثمَّ قالَ ﷺ: «**وَالسِّحْرُ**» وهذا مَحلُّ الشَّاهِدِ من الحديثِ، لأنَّ السحرَ كفرٌ وشركٌ باللهِ عز وجل، وعطفُهُ على الشركِ من بابِ عطفِ الخاصِّ على العامِّ، وإلَّا فالسحرُ نوعٌ من أنواعِ الشركِ، لكنَّ الرسولَ ﷺ خصَّهُ بالذكرِ، وعطفَهُ على الشركِ من بابِ عطفِ الخاصِّ على العامِّ من أجلِ الاهتمامِ بتجنُّبِهِ.

«**وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالحَقِّ**» النفسُ الَّتي حرَّم اللهُ هي نفسُ المؤمنِ

ونفسُ المُعاهِدِ، فالمؤمنُ عَصَم اللهُ دَمه ومالَه وعِرْضَه، فلا يجوزُ الاعتداءُ عليه، قال ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ**»[(١)]، وقالَ ﷺ: «**إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟**»[(٢)].

فالمؤمنُ حرَّمَ اللهُ قتلَه بغيرِ الحقِّ، كما قالَ تعالى: ﴿**وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾**﴾.

وكذلكَ الكافرُ المعاهَدُ، لا يجوزُ قتلُهُ، فقَدْ جاءَ في الحديثِ: «**مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ**»[(٣)].

وقوله ﷺ: «**إِلَّا بِالحَقِّ**» أي: إلَّا بسببٍ يبيحُ قتلَ المؤمنِ أو المُعاهِدِ، وقد بيَّنَهُ رسولُ اللهِ ﷺ بقولِهِ: «**لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ المُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ**»[(٤)].

و«**الثَّيِّبُ الزَّانِي**» المرادُ به: المُحْصَن الذي تزوَّجَ ووطِئَ زوجتَهُ بنكاحٍ صحيحٍ، ثمَّ زنى فإنه يُقتلُ، وكيفيَّةُ قتلِهِ: أنه يُرجَمُ بالحجارةِ حتَّى يموتَ، كما تواتَرَتْ بذلكَ سنَّةُ الرسولِ ﷺ، وذلكَ حمايةٌ للأعراضِ.

«**وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ**» والمرادُ به: القصاصُ، إذا قُتِلَ مُكافِئاً له عمداً عدواناً، فإنه

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥) ومسلم (٢٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦٧) ومسلم (١٢١٨).

(٣) أخرجه البخاري (٣١٦٦).

(٤) أخرجه البخاري (٦٨٧٨) ومسلم (١٦٧٦).

وَأَكْلُ الرِّبَا، ....

يُقتَلُ قَصاصاً، قالَ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾، وقالَ تعالَى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾، وذلكَ حمايةٌ للأنفسِ.

«وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ المفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ» وهو المُرْتَدُّ، وهو الذي ارتكبَ ناقضاً من نواقضِ الإسلامِ، فهذا يُستتابُ، فإنْ تابَ ورجعَ إلى الإسلامِ وإلَّا قُتِلَ مرتدّاً، حمايةً للدينِ من العبثِ.

ثمَّ قالَ ﷺ: «وَأَكْلُ الرِّبَا» والرِّبا لغةً: الزيادةُ، والمرادُ به هنا: زيادةٌ مخصوصةٌ في مالٍ مخصوصٍ، وهي الأصنافُ التي حرَّمَ الرسولُ ﷺ الزيادةَ فيها بقولِهِ: «الذَّهَبُ بِالذَّهَبِ، وَالفِضَّةُ بِالفِضَّةِ، وَالبُرُّ بِالبُرِّ، وَالشَّعِيرُ بِالشَّعِيرِ، وَالتَّمْرُ بِالتَّمْرِ، وَالمِلْحُ بِالمِلْحِ، سَوَاءً بِسَوَاءٍ، يَدًا بِيَدٍ، فَإِذَا اخْتَلَفَتْ هَذِهِ الأَصْنَافُ فَبِيعُوا كَيْفَ شِئْتُمْ إِذَا كَانَ يَدًا بِيَدٍ»[1] وأَلْحَقَ جمهورُ العلماءِ بهذهِ الستةِ ما شابَهها في العلةِ.

والرِّبا من أكبرِ الكبائرِ بعدَ الشركِ، قد توعَّدَ اللهُ عليه بأشدِّ الوعيدِ، كما في آخرِ سورةِ البقرةِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾ إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾، وقد لعنَ النبيُّ ﷺ آكلَ الرِّبا، وموكلَه، وشاهدَيْه، وكاتبَه، فالرِّبا من أعظمِ الكبائرِ بعدَ الشركِ.

وقولـه: «وَأَكْلُ الرِّبَا» ليسَ المرادُ خصوصَ الأكلِ، وإنَّما كلُّ الاستعمالاتِ:

---

(١) أخرجه البخاري (٢١٧٤) ومسلم (١٥٨٧).

وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، ....

مِنْ أكلِهِ ولبسِهِ وإهدائِهِ، إلى غيرِهِ، كلُّ استعمالاتِ الرِّبا حرامٌ، وكذلكَ من ادَّخَرهُ عندَه أو جعلَه رصيداً له في البنكِ.

وإنَّما ذكرَ الأكلَ لأنه غالبُ وجوهِ الانتفاعِ، وإلَّا فكُلُّ وجوهِ استعمالاتِ الرِّبا محرَّمةٌ.

قال ﷺ: «**وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ**» المُراد بِاليتيم: من ماتَ أَبوه وهو دونَ البُلوغ، والواجِبُ الإحسانُ إلى اليتيمِ، لأنه فقَدَ أَباه وعَطفَه، فَيجبُ عَلى المُسلمينَ أَن يَسدّوا مَحلَّ والدِه بالإحسانِ إليهِ وَرِعايتِهِ، وإن كانَ له مالٌ فيَجبُ أن يُحافِظَ عليهِ حَتى يَبلغ رَشيداً، ويُسلَّمَ له مالُهُ بالتَّمامِ، كَما قالَ تعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟﴾ إلى قولِهِ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾.

لأنَّ اليَتيمَ ضَعيفٌ لا يَستطيعُ أن يُدافعَ عَن نَفسِهِ، فإذا تَسلَّطَ عليه ظالمٌ وأكلَ مالَه فهذا من أَعظمِ الظُّلمِ، ولَيس المُرادُ خُصوصَ الأَكلِ، بل كُلُّ استِعمالاتِ مالِ اليَتيمِ حرامٌ، إلَّا ما فيهِ مَصلحةٌ لَه.

قال ﷺ: «**وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ**» التَّولي يَومَ الزَّحفِ، هو: الفرارُ من القِتالِ بينَ المُسلمينَ والكُفارِ إذا حضَرَ المَعركة.

فَمن حَضر المَعركة بَين المُسْلمينَ والكُفارِ وهوَ يَسْتطيعُ القِتالَ فلا يَجوزُ لَه أن يَنصرفَ، بَل يَجِبُ عليه أن يُقاتلَ معَ المسلمينَ، قالَ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ

وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ الغَافِلَاتِ المؤْمِنَاتِ»[1].

وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنفال: ١٥-١٦].

قالَ ﷺ: «**وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ الغَافِلَاتِ المؤْمِنَاتِ**» المُرادُ بالقَذفِ: الرَّمي بالفاحِشةِ، مِن زنا أو لُواطٍ. والمُرادُ بالمُحْصناتِ: العَفيفاتِ عَن الزِّنا مِن الحَرائرِ، ومِثلهن الرّجالُ العَفيفونَ.

والواجِبُ على المُسلمِ أن يَحفظَ لِسانَه، ولا يَرمي أَحداً بالزِّنى، أو باللُّواطِ وإذا قَذفَه ولم يُقمِ البيِّنةَ فإنه يُجلدُ ثَمانينَ جَلدةً، قالَ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ [النور: ٤-٥].

والشَّاهدُ من هذا الحديثِ: أنَّ الرَّسولَ ﷺ عَدَّ السِّحرَ من السَّبعِ الموبِقاتِ.

أما ما يُستفادُ من هذه النصوصِ فهو كما يلي:

أولاً: يُستفادُ من هذهِ النُّصوصِ تَحريمُ تَعلُّمِ السِّحرِ، وتَعليمِهِ، والعَملِ بهِ، وأنه من السبعِ الموبِقاتِ، وأنه مِن الإيمانِ بالجِبتِ وأنه كُفرٌ يُخرجُ مِن المِلَّةِ.

ثانياً: في هذه النصوصِ الأمرُ بالابتِعادِ عن الكَبائرِ خُصوصاً، والمَعاصي عُموماً، وتَركُ أَسْبابِها، لأنَّ كلمَةَ «**اجْتَنِبُوا**» مَعناها: أنَّ الإنسانَ يَتركُ الأَسْبابَ الموصِّلةَ إلى الحَرامِ.

ثالثاً: يُستفادُ من الحديثِ أن الشِّركَ أكبرُ الكَبائرِ، لأنَّ الرَّسولَ ﷺ بَدأَ بِه في هذا الحديثِ، فدَلَّ على أنَّ الشِّركَ باللهِ أكبرُ الكَبائرِ.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٦٧) ومسلم (٨٩).

وَعَن جُندُبٍ مَرفُوعاً: «حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ». رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ[1]، وَقَالَ: «الصَّحِيحُ أَنَّهُ مَوقُوفٌ».

وَفِي «صَحِيحُ البُخَارِيّ»[2] عَن بَجَالَةَ بن عَبَدَةَ؛ قَالَ: كَتَبَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (أَنِ اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ)،........

قوله: «**عن جُنْدُب**» قيل هو: جُنْدُبُ بنُ عبدِاللهِ البَجَليُّ، وقيلِ غَيره. واللهُ أعلم.

«**حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ**» المَعنى: أنَّ حُكمَ السَّاحرِ وُجوبُ قَتلِهِ، لأنه يُفسِدُ في الأَرضَ، كما قالَ تعالى: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [يونس: ٨١]، فالساحِرُ مُفسدٌ في الأَرضِ، يَجبُ قَتلُه، وأيضاً هو كافِرٌ، والكافِرُ يَجِبُ قَتلُه، إنْ كانَ كافراً أَصْلياً وَجَب قَتلُهُ بِكفرِهِ وإفسادِهِ، وإِن كانَ مُسلماً ثمَّ اسْتَعملَ السحرَ وَجَبَ قَتلُهُ لِردَّتِهِ.

والسِّحرُ ناقِضٌ من نَواقِضِ الإِسلامِ، كما ذكرَ ذلكَ الشَّيخُ في نَواقضِ الإِسلامِ العشرةِ، قالَ: (ومنها تَعلّمُ السِّحرِ، وتَعليمُهُ).

قوله: «**وفي صحيح البخاريّ: عن بَجَالة بن عَبَدة، قال: كَتَب عمرُ بنُ الخطابِ**» أميرُ المؤمنين، ثانِي الخُلفاءِ الرَّاشِدينَ، رَضِيَ اللهُ عَنهم أَجمعين.

«**أَنِ اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ**» فَهذا يُؤيِّد حَديث جُنْدب: «**حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ**».

---

(١) أخرجه الترمذي (١٤٦٠)، والحاكم (٤/ ٣٦٠)، والدارقطني (٣/ ١١٤)، والطبراني (١٦٦٥، ١٦٦٦)، والبيهقي (٨/ ١٣٦).

(٢) هذا اللفظ لم يورده البخاري في «صحيحه»، ولكن أورد أصله برقم (٣١٥٦).
وأخرجه أبو داود (٣٠٤٣)، وأحمد (١/ ١٩٠-١٩١) وغيرهما.

قَالَ: فَقَتَلْنَا ثَلَاثَ سَوَاحِرَ.

وَصَحَّ عَنْ حَفصَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْها: (أَنَّهَا أَمَرَت بِقَتلِ جَارِيَةٍ لَهَا سَحَرَتهَا، فَقُتِلَت)[١]. وَكَذلِكَ صَحَّ عَن جُندُبٍ[٢].

إذا كانَ عُمرُ بنُ الخَطابِ -أميرُ المؤمنينَ وثانِي الخُلفاءِ الراشِدينَ- كتبَ إلى الأمصارِ وإلى ولاتِهِ: «**أَنِ اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ**» واشتُهرَ ذلِك، والنَّبيُّ ﷺ يقولُ: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي**»[٣]؛ إذاً فَقَتلُ السَّاحِرِ دلَّ عَليه الحديثُ، وفِعْلُ عمرَ بنِ الخَطَّابِ.

وكان بَجَالة بن عَبْدة كاتِباً لِبعضِ الوُلاةِ، فهو يَذْكرُ ما وَصَلَهم مِن عُمر.

قالَ: «**فَقَتَلْنَا ثَلَاثَ سَوَاحِرَ**» يعني: نَفَّذنا ما كَتَبَ بِهِ أَميرُ المُؤمنينَ، وسَواحر: جَمعُ ساحِرةٍ، وهي المَرأةُ التي تَتَعاطى السِّحرَ.

***

قال: «**وصحّ عن حفصة**» هي: حَفصةُ بنتُ عُمرَ بنِ الخطَّابِ، أمُّ المُؤْمنينَ رضي الله عنها.

«**أنها أمرت بِقتل جارية لَها**» أي: مَملوكة لَها.

«**سحرتها**» سَحرت حَفصةَ رضي الله عنها فَأَمرتْ بِقَتْلِها.

وهذا أيضاً فِعلُ صَحابيّةٍ، وهي أُمُّ المُؤمنينَ، أَمَرتْ بِقتلِ مَمْلوكَتِها لمَّا سَحَرتْ.

***

---

(١) أخرجه الشافعي في «مسنده» ص (٣٨٣) وعبدالرزاق (١٨٧٤٧)، والبيهقي (٨/ ١٣٦).

(٢) أخرجه البخاري في «تاريخه الكبير» (٢/ ٢٢٢)، والبيهقي (٨/ ١٣٦).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧) وابن ماجه (٤٢).

قَالَ أَحمَدُ: (صحَّ عَن ثَلَاثَةٍ مِن أَصحَابِ النَّبِيِّ ﷺ).

ولذلِك «**قالَ أحمد**» هو أَحمدُ بنُ حَنبلٍ، إمامُ أهلِ السُّنَّةِ، والصابرُ على المِحْنةِ، أحدُ الأئمةِ الأربعةِ المَشهورينَ في الإسلامِ الذينَ بقِيتْ مَذاهبُهُم حيّةً، وله من الفضائِلِ رحمه الله الشيءُ الكَثيرُ، وكُتِبَ في مَناقِبِهِ وترجَمتِهِ مُؤلَّفاتٌ، كان إماماً في السنَّةِ، ومُناصراً للحقِّ، وصابِراً على المِحْنةِ، حتى ثَبّتَهُ اللهُ، وثبَّتَ به عَقيدةَ المُسلمين مِنَ الزَّيْغِ حِينما امتُحِنَ النَّاسُ بالقَوْلِ بخلقِ القُرآنِ، فَثَبتَ، وصَبرَ على الجَلْدِ، وعلى السِّجْنِ، وعلى الإهانةِ حَتى أَظهَرَه اللهُ، ونَشر بِه الحَقَّ.

قال: «**صح عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ**» يَعني: صَحَّ قَتلُ السَّاحِرِ عن عُمرَ بنِ الخطابِ، وحَفصةَ أُمِّ المؤمنينَ، وجُنْدبٍ، وهو جُنْدبُ بنُ كَعبٍ الأَزْديُّ الغامِديُّ، ولَه قِصةٌ، وَهي:

أنَّ الوليدَ كانَ يلعَبُ عِنْده ساحِرٌ، ومن جُملةِ سِحْرِهِ أنه يُظهِر للنَّاس أَنه يَقْتلُ الرَّجلَ ثمّ يُحْيِيهِ، حَيثُ يَستعمِلُ القُمْرةَ، أي: السِّحرَ التَّخييلي، فيُخيَّل إلى النَّاسِ أنه يَقطعُ رَأسَ الرجُلِ ثمّ يُعيدُ الرأسَ مكانَهُ، فيما يَظهرُ لِلنَّاسِ، فَجاء جُنْدبُ بنُ كَعبٍ رضي الله عنه مُخْفيًا السيفَ، فَلمَّا وَصله قَطعَ رأْسَهُ، وقالَ: إن كان صادِقاً فَلْيحيي نَفسَه.

قَتلَهُ غَيْرةً على دينِ اللهِ عز وجل، وتَحدِّياً لِهذا الساحِرِ الذي يُحيي المَوتى بِزَعْمِهِ، فبذلِكَ بَطُلتْ هذهِ الحيلةُ الشَّيطانِيةُ، وانْقَشَعَتْ هذهِ القُمْرةُ، وتبيَّن أنه كاذِبٌ.

ويُستفادُ من هذهِ الآثارِ فوائدُ عظيمةٌ:

الفائدة الأولى: كُفرُ الساحرِ، لأنَّ الصَّحابةَ قتلوه، وما قَتلوه إلَّا لِكفرِه.

هذا مع الآياتِ التي تدُلُّ على كُفرِهِ، كقَوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ

عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ ﴾، يَعني: ما اسْتَعملَ السِّحرَ كَما يُظنُّ اليَهودُ، فدلَّ على أنَّ اسْتِعمالَ السِّحرِ كُفْرٌ، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾، يعني: سَببَ كفرِهم أنَّهم ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾ فَدلَّ على أنَّ تَعليمَ السِّحرِ كُفرٌ.

وأنَّ اللهَ قالَ في المَلكينِ: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ ﴾ يَنْصحاه ﴿يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ ﴾ يَعني: نَحن امتِحانٌ واخْتِبارٌ، فمَنْ قَبِلَ السِّحر فَهو كافرٌ، ﴿فَلَا تَكْفُرْ ۖ ﴾ بِتعلُّمِ السِّحرِ.

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا ﴾ يَعني: من المَلكينِ، ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ﴾، هذا دليلٌ على أنَّ السِّحرَ له حقيقةٌ، وأنه يُؤثِّر ويُفرِّق بَينَ المرءِ وزوجِهِ بإحداثِ البَغضاءِ، فهو دَليلٌ لِمذهبِ أَهْلِ السُّنّةِ على أنَّ السِّحرَ له حقيقةٌ يُؤثِّر، وَلو لم يَكُنْ له حَقيقةٌ لم يؤثِّرِ البغضاءَ.

ثمَّ قالَ تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ أي: القَدَريّ الكَونيّ، لأنَّ الإذنَ على نَوعينِ:

النَّوع الأول: القَدَري الكونيّ، الذي تَنْتج عَنه المُقدَّراتُ، خَيرُها وشَرُّها.

والنَّوع الثاني: الإذن الشَّرعي المَذكور في هذهِ الآيةِ: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ﴾ أي: بِشَرعِهِ.

وهذا فيه: أَنَّ الإنْسانَ يَتوكَّلُ على اللهِ، ومَنْ تَوكَّلَ على اللهِ كَفاهُ شَرَّ السَّحرةِ وغَيرِهم، ولِهذا أَمَر اللهُ بالاسْتِعاذةِ به مِن السَّحرةِ: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ ﴾ أي: من شَرِّ السَّواحر.

ثمَّ قالَ جلَّ وعلا: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ ﴾ دلَّ على أَنَّ تعلُّمَ

السِّحرِ ضَررٌ مَحْضٌ، لَيس فيهِ مَصلحةٌ، لأنَّ الأُمورَ على خمسةِ أقسامٍ:

ما كانَ ضَرراً مَحْضاً: ومنه السِّحرُ، والكُفر والمَعاصي.

النوعُ الثاني: ما كان مَصلحةً مَحْضة، ليسَ فيه ضَررٌ البَتّةَ كالطاعاتِ.

النوعُ الثالث: ما كانَ فيه مَضرّةٌ ومَصلحةٌ، لكنَّ مَضرَّتَه أكثرُ مِن مَصْلحته.

النوعُ الرابع: ما كانَ مَصلَحتُهُ أكثرَ مِنْ ضَررِهِ، كالجِهادِ في سَبيلِ اللهِ عَلى ما فيه مِن القَتلِ والجِراحِ.

النوعُ الخامس: ما تَساوى ضَررُهُ ومَصلحتُهُ.

الموضِع الرابع: مِمَّا يَدلُّ على كُفرِ السَّاحرِ: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ أي: قَد عَلِمَ اليَهودُ أنَّ مَنْ تَعلَّم السِّحرَ وعَلَّمَهُ ما له نَصيبٌ في الجنَّةِ، وهذا هو الكافِرُ.

والموضِع الخامِس: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾، قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟﴾ أي: تَركوا السِّحرَ، وهذا دَليلٌ على أن السِّحرَ كُفرٌ يُنافي الإيمانَ، لكِنَّهم لَمْ يَتْركوا السِّحرَ بل اتَّخذوهُ بَدلَ الإيمانِ فَكَفروا.

فهذه خَمسةُ مَواضعَ مِنْ هذهِ الآياتِ تَدلُّ عَلى كُفْرِ السَّاحرِ، مَع عَملِ الصَّحابةِ، وقَتْلِهم لِلسَّحرةِ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه: ٦٩]، دَليلٌ على كُفرِ السَّاحِرِ، حَيثُ نَفَى فَلاحَه، والمُؤمِنُ يُفْلِحُ ولو كانَ إيمانُه ضعيفاً، ولو لَمْ يَكنْ عِندَه إلَّا ذرَّةٌ من الإيمانِ فإنه يُفلِح، وإن عُذِّب، واللهُ نَفى عَن الساحرِ الفَلاحَ مُطلقاً، فدلَّ على أنه كافِرٌ، والعياذُ باللهِ.

هذهِ المَسألةُ الأُولى، وهي مَسألةٌ مُهمّةٌ جِدّاً، ذكَرنا فيها الأدلَّةَ الّتي تَدلُّ على كُفرِ السَّاحرِ.

وكفرُ الساحرِ مُطلقاً كَما ذَكر الشارِحُ هو مذْهبُ الأئمةِ الثَّلاثةِ: أَبي حَنيفةَ، ومالكٍ، وأحمدَ؛ يَروْنَ كفرَ الساحرِ، وقَد سَبقهم جَمعٌ من الصَّحابةِ.

والإمامُ الشافِعي يَقول: (نقولُ للسَّاحرِ: صِفْ لَنا سِحْركَ، فإنْ وَصَفَه بما يَقتَضي الكُفرَ فهو كافرٌ، وإلَّا فَلا).

ولكنَّ هذا المذهبَ مَرجوحٌ، لأنه لا يُمكِنُ السِّحرَ إلَّا بالتَّعاونِ مع الشَّياطينِ، والخُضوعِ لَهم، وحِينئذٍ يكونُ كافِراً.

الفائدة الثانية: في الحديثِ دليلٌ على وُجوبِ قَتلِ السَّاحرِ قَتلَ ردَّةٍ، لأنه صَحَّ عن ثَلاثةٍ من أَصْحابِ النَّبي ﷺ: عُمر وحَفصة وجُنْدب، ولم يظهرْ لهم مُخالفٌ من الصَّحابةِ، فَدلَّ على وجوبِ قتلِهِ، لأنهُ مرتدٌّ، والمرتدُّ يجبُ قتلهُ لقولهِ ﷺ: «**مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ**»[1]، وقولهِ ﷺ: «**لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ المُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ**»[2] فالساحرُ من هذا القِسْمِ الأخيرِ التاركِ لدينِهِ المُفارقِ لِجماعةِ المُسلمينَ. فَيجب قتلُهُ.

الفائدةُ الثالثة: في هذهِ الآثارِ دليلٌ على أَنَّه يُقتَلُ ولا يُستتابُ، لأنهُ لم يُذكَرْ في هذه الآثارِ أنَّ الصَّحابةَ استتابوهُ، وإنَّما فيها أَنَّهم قتلوهُ، ولم يُذكَرْ أَنَّهم استتابوهُ.

وأيضاً إذا تابَ في الظاهرِ فعلمُ السِّحرِ لا يَزولُ مِنْ قلبِهِ، فهو وإن أظهرَ التَّوبةَ فإنه يُقتَلُ في كلِّ حالٍ، لأنَّ التوبةَ لا تُزيلُ السِّحرَ مِنْ قَلبِهِ بعدما تعلَّمه، ومِن

(١) أخرجه البخاري (٣٠١٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٨٧٨) ومسلم (١٦٧٦).

أجلِ دَفعِ فَسادِهِ، لأنه قَد يُظْهِرُ التَّوبةَ وهو غيرُ صادقٍ، بل من أجلِ أَن يَتَّقيَ القَتْلَ.

قالَ الشارحُ: (هذا قولُ الإمامِ مالكٍ، وروايةٌ عن الإمامِ أحمدَ).

والقولُ الثاني -وهو قولُ الشَّافعي، وروايةٌ عن أَحمدَ-: أنه يُستتابُ كغيرِهِ من المُرتدِّينَ، لأنَّ المُشركَ يُستتاب، فالسَّاحرُ -أيضاً- يُستتابُ.

ولكنَّ الرَّأيَ الأولَ أَرجحُ، فيُقتلُ ولا يُستتابُ لِغِلَظ ردّتِهِ، ولأجلِ كَفِّ شرِّه عَن المُسلمينَ، ولأنه يُظهِرُ التَّوبةَ ويخدَعُ النَّاسَ.

لكن إِن كانَ صادِقاً في تَوبتِهِ فهذا فيما بينَهُ وبينَ اللهِ، أمّا الحَدُّ فلا يَسقطُ عنه. وهذا حُكمُهُ في الدُّنيا.

وعلى كلِّ حالٍ؛ أَمرُ السحرِ أمرٌ خطيرٌ.

وفي هذا الزمانِ كثرَ شرُّ السَّحرةِ، وصَاروا يَسْتعملونَ السحْرَ من أجلِ ابتزازِ أَموالِ النَّاسِ، واللَّعبِ عَليهم، وأَمرُ الأموالِ أَخفُّ من أَمرِ العَقيدةِ، وإن كانَت الأموالُ شَيئاً مُهمّاً يَجبُ الحِفاظُ عَليهِ، ولكنَّ العَقيدةَ أَهمُّ، ووجودُ السَّحَرةِ في المجْتَمعاتِ الإسلاميَّةِ وباءٌ خطيرٌ فتَّاكٌ، يَجبُ علاجُهُ، ويَجبُ القَضاءُ عليه.

فالسَّحرةُ في العالمِ في هذا الزَّمانِ يقيمونَ نواديَ، يجتمعونَ فيها، ومؤتمراتٍ يعقدونَها مِن أجلِ إهلاكِ البشرِ، وتعاظَمَ شرُّهم وخطرُهُم، فيجبُ على المسلمينَ أَنْ يحذروا منهم غايةَ الحذرِ، ويجبُ على مَن عَلِمَ بوجودِ ساحرٍ في البلدِ أن يبلِّغَ وُلاةَ الأمورِ عنه.

ولا يجوزُ الذَّهابُ إلى السَّحرةِ وتصديقُ السَّحرةِ، فالسَّحرةُ مِثْلُ الكُهَّانِ أو شرٌّ من الكُهَّانِ، وقد قالَ النبيُّ ﷺ: «**من أتى كاهناً لم تُقبلْ له صلاة أَربعينَ**

يوماً»[1]، وقال ﷺ: «**مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ** ﷺ»[2]، والسِّحرُ من الطاغوتِ ومن الجِبتِ -كما سبقَ-، وهو شَرٌّ من الكِهانةِ.

وإذا كانَ الكاهِنُ يجبُ على المُسلمينَ هجرهُ والابتعادُ عنهُ، وأنَّ مَنْ أتاهُ لا تُقبلُ صلاتُهُ أربعين يوماً، ومن صدَّقهُ يكفر بما أَنزل على محمَّد ﷺ، فكيفَ يذهبُ بعضُ النَّاسِ إلى السَّحرةِ والمُشعْوذينَ، وقَدْ يأمرونَهُ بالشِّركِ، فَيأمرونَهُ بالذَّبحِ لغيرِ اللهِ؟! فالأمرُ خطيرٌ جدّاً.

فيجبُ على المسلمينَ أن يَحذروا من هذا البلاءِ، ومن هذا الوباءِ، وهذا الخطرِ؛ أن لا يتفَشَّى بينَ المسلمينَ.

* * *

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٩٠٤) والترمذي (١٣٥) وابن ماجه (٦٣٩) وأحمد (٢/ ٤٢٩).

الباب الخامس والعشرون:

بَاب بيانُ شيءٍ من أنواع السِّحر

مُناسبةُ هذا البابِ بعدَ البابِ الذي قبلهُ ظاهرةٌ، لأنهُ في البابِ الذي قبلَه بيَّنَ ما جاءَ من الأدلَّةِ في كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِهِ في حُكمِ السِّحرِ وحُكمِ السَّاحرِ، فتطلَّعتِ الأنظارُ إلى أنْ يعرفَ النَّاسُ ما هوَ السِّحرُ، وما هِي أنواعُهُ حتَّى يتجنَّبوهُ.

ومن ثَمَّ يتعيَّنُ على العلماءِ وطلبةِ العلمِ أن يُبيِّنوا للناسِ الحقَّ والباطِلَ، أَنْ يُبيِّنوا للنَّاسِ الحقَّ وأدلَّتَه، وأَن يبيِّنوا للناسِ الباطِلَ وأدلّته وأنواعَهُ؛ مِنْ أجلِ أَن يأخذوا بالحقِّ على بصيرةٍ، وَأنْ يَتركوا الباطِلَ على بصيرةٍ، وإلَّا فإنه إذا لم يُبيَّنِ الحقَّ والباطِلَ التبَس على النَّاسِ، وظنُّوا الحقَّ باطلاً والباطِلُ حَقّاً.

ومِن هنا يُتعيّنُ على الدُّعاةِ وعلى الخُطباءِ في المَساجدِ وعلى المُدرِّسينَ أن يعتنوا بهذا الأمرِ، وأن يبيِّنوا للنّاسِ، أُمورَ عقيدَتهم، وأُمورَ دينهِم.

وممَّا حَمَل المُصنِّفُ -أيضاً- رحمه الله على عقدِ هذا البابِ: أنَّ هناكَ خوارقَ تجري على أيدي بعضِ النَّاسِ خارجةً عن الأسبابِ المعروفةِ، مثلَ: المَشي على الماءِ والطَّيَران في الهواءِ، والإِخبارِ عن الأشياءِ الغائبةِ، وإحضارِ الشَّيءِ البَعيدِ.

وهذه الخَوارقُ إنْ جرتْ على أيدي الصَّالحينَ فَهي كراماتٌ مِنَ اللهِ سُبحانَهُ وتعالى، والكراماتُ ثابتةٌ عندَ أهلِ السُّنّةِ والجَماعةِ، تَجري على أيدي الصَّالحينَ إكراماً لهم مِنَ اللهِ سبحانه وتعالى، وقد تَجْري على أيدي الكفرةِ، والفُسّاقِ، والمنافقينَ، فتكونُ هذه الخوارقُ شيطانيةً، يَفْتِنونَ بها النَّاسَ، ويُلبِّسونَ بها على النَّاسِ، وهِي إما سِحرٌ، وإما بسببِ استِخدام هؤلاءِ الفُسّاقِ للشياطينِ، فيخدمُهُم

قَالَ أَحمَدُ[1]: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بنُ جعفرٍ، حَدَّثَنَا عَوفٌ، عَن حَيَّانَ بنِ العَلَاءِ، حَدَّثَنَا قَطَنُ بنُ قَبِيصَةَ، عَن أَبِيهِ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ العِيَافَةَ وَالطَّرْقَ وَالطِّيَرَةَ مِنَ الجِبْتِ».

الشياطينُ بهذهِ الأمورِ التي ليسَتْ من مَقدورِ بَني آدمَ، وإِمَّا أنَّ لها أسباباً خفيّةً لم تَظهَرْ للنّاسِ من حِيَلٍ، يَعْملونَها.

فمِن أجلِ التباسِ الحقِّ بالباطلِ في هذهِ الخوارقِ أرادَ الشَّيخُ أن يعقدَ هذا البابَ ليبيّنَ أنَّ هذه الخوارقَ مِنَ السِّحرِ، وليسَتْ مِنَ الكَراماتِ.

فيجِبُ أَنْ نعرفَ هذا البابَ، والفرقَ بينَ الكراماتِ وخوارقِ الشَّيطانِ، لئلَّا يلتبسَ الأمرُ، ولئلَّا يتَّخذَ المُخرِّقونَ والمنحرفونَ الخوارقَ الشيطانيةَ دليلاً على الوِلايةِ للهِ عز وجل، فَيعبدونَ هؤلاءِ من دونِ اللهِ عز وجل.

***

قولُه: «**قال أحمد: حدَّثنا محمَّد بن جعفر**» المُراد به: غُنْدُر.

«**حدَّثنا عوف**» هو: عَوفُ بنُ أَبي جَميلةَ، المُسمَّى بعوفِ الأَعرابي، إمامٌ ثقةٌ مَشهورٌ.

«**حدثنا حيان بن العلاء**» حِيَّانُ -بالياء المُثنّاة- بن العَلاءِ، بَصريٌّ مَقْبول.

«**حدثنا قَطَن بن قَبِيصة**» قَطَن بن قَبِيصةَ تابِعيٌّ، بَصريٌّ ثِقةٌ.

«**عن أبيه**»: قَبِيصة بن المُخَارق الهلالي، صَحابيٌّ معروفٌ.

«**أنه**» يَعني: قَبيصة -رضي الله عنه-.

«**سمع النبي ﷺ قال: «إِنَّ العِيَافَةَ، وَالطَّرْقَ، وَالطِّيَرَةَ مِنَ الجِبْتِ**».

---

(١) في «مسنده» (٥/ ٦٠).

قَالَ عَوفٌ: العِيَافَةُ: زَجرُ الطَّيرِ. وَالطَّرقُ: الخَطُّ يُخَطُّ بِالَأرضِ. وَالجِبْتُ: قَالَ الحَسَنُ: رَنَّةُ الشَّيطَانِ. إِسنَادُهُ جَيِّدٌ.

وتفسيرُ هذهِ الألفاظِ مَرويٌّ عن: «**عوف**»، وهو: عَوفُ بنُ أَبي جَميلةَ، المُسمَّى بعوفِ الأعرابي؛ أحدُ رواةِ هذا الحديثِ.

قال: «**العِيافة: زَجْر الطَّير**» ومعناه: التَّشاؤمُ بأصواتِها وأسمائِها ومسارِها.

«**والطَّرْق: الخطُّ يخَطّ في الأرض**» مِنْ أجلِ استطلاعِ الأمورِ الغائبةِ، وهي طَريقةٌ جاهِليةٌ، وهُمْ لا يَعْلمونَ بها الغَيْبَ بِذاتِها، وإنَّما الشَّياطينُ هي التي تَأتي لهم بما يُريدونَ إذا تَقَرّبوا إليهم بالعبادةِ، وكَفروا بِاللهِ عز وجل، لأنَّ الشَّياطينَ تُريدُ إضلالَ بني آدمَ مَهْما استطاعَتْ. قوله:

«**قال الحسن**» هو الحَسنُ البَصريُّ إمامُ التّابعينَ.

«**الجبت: رَنّة الشَّيطان**» أي: صَوتُ الشَّيطان، وصَوتُ الشيطانِ يَشْملُ أَشياءَ كثيرةً، مِنها: الأغاني والمزاميرُ، قالَ تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾.

وصَوْتُ الشيطانِ: كُلّ كلامٍ باطلٍ، وكُلّ كلامِ كفرٍ أو شركٍ.

فهذا فيه بيانٌ لشيءٍ من أنواعِ السِّحرِ:

فالعِيافةُ نوعٌ من أنواعِ السِّحرِ.

والطَّرْق نوعٌ من أنواعِ السِّحرِ.

والطِّيَرة نوعٌ من أنواعِ السِّحرِ.

كلُّها من أنواعِ السِّحرِ، لأنَّها مِن الجِبتِ، والجِبتُ السِّحرُ كَما سَبَقَ، فالسِّحرُ إذاً كَلمةٌ عامَّةٌ تَجمَعُ شروراً كثيرةً، إما قَوليةً، وإما عَمَليّةً.

وَلأَبِي دَاوُدَ وَالنَّسَائِيِّ وابنِ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ»: المُسْنَدُ مِنهُ[1].

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما قَالَ: قَالَ رَسولُ الله ﷺ: «مَنِ اقْتَبَسَ شُعبَةً مِنَ النُّجُومِ؛ فَقَدِ اقتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ، زَادَ مَا زَادَ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[2]، وَإِسنَادُهُ صَحِيحٌ.

ثمَّ قالَ المُصنِّف رحمه الله: «**إسناده جيّد**» أي: إِسنادُ الإمامِ أحمدَ جيّدٌ، لأنَّ رُواتَهُ لَيسَ فيهم أحدٌ مجروحٌ.

قال: «**وروى أبو داود والنسائي وابن حبّان في صحيحه المسنَدَ منه**» أي: رووا أَصْلَ الحديثِ، دونَ التفسيرِ المَذكورِ الذي ذَكَرَهُ عَوْفٌ.

«**وأبو داود**»، هُو الإمامُ المَشهورُ، سُليمانُ بنُ الأَشْعثِ، صاحِبُ السُّنَنِ المَشهورةِ بِسننِ أَبي داودَ وهِيَ إحدى السُّننِ الأَرْبعِ.

«**والنّسائيّ**» هو: أبو عَبدُالرّحمنِ أحمدُ بنُ شُعيبِ النّسائيُّ، الإمامُ الجَليلُ، صاحِبُ «**السُّنن الكبرى**» إِحدى السُّننِ الأَرْبعِ.

«**وابن حبّان في صحيحه**» ابن حبّان هو: أبو حاتِم، مُحمَّدُ بنُ حِبّانِ البُسْتي، صاحِبُ الصَّحيحِ المُسمَّى بـ «**صحيح ابن حِبّان**».

قال: «**وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قالَ رسول الله ﷺ: «مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ فَقَدْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ، زَادَ مَا زَادَ»** رواه أبو داود، وإسنادُه صَحيح».

قوله ﷺ: «**مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً**» يعني: تَعلَّم. والشُّعبة: الطائِفة أو القِطْعة.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٩٠٧)، والنسائي في «الكبرى» (١١١٠٨)، وابن حبان (٦١٣١).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٩٠٥)، وابن ماجه (٣٧٢٦).

«مِنَ النُّجُومِ» يعني: من علم التَّنْجِيم.

والتنجيمُ مَعناه: اعتِقادُ أنَّ النجومَ تُؤثِّرُ في الكَونِ، -كَما قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ-[1] هو: نسبةُ الحَوادثِ الأَرْضيّةِ إلى الأَحْوالِ الفلَكيّةِ.

ولا تَزالُ هذهِ الخصلةِ الجاهليةِ في عَصْرنا الحاضرِ فيما يظهرُ عندَ المُنَجِّمينَ والذين يَذهبونَ إليهم، وبِما يُكتَبُ في بَعضِ الصُّحُفِ والمجلَّاتِ من أحوالِ البُرُوجِ، لأن نِسبةَ هذه الأمورِ إليها في طُلوعِها أو غُروبها، إلى الأفلاكِ في تحرُّكها؛ شِرْكٌ باللهِ عز وجل، لأنَّ الذي يُدبِّرُ النُّجومَ، ويُدبِّرُ الأفلاكَ، ويُدبِّرُ الكَونَ كُلَّه هو اللهُ سبحانه وتعالى، فيجِبُ أنْ نُؤمنَ بذلكَ. أمَّا النُّجومُ وأمَّا الأفلاكُ، وأمَّا جَميعُ المَخْلوقاتِ فليسَ لَها تَدبيرٌ، ولَيسَ لها إِحْداثُ شيءٍ، أو جَلْبُ نَفعٍ، أو دَفعُ ضرٍّ إلَّا بإذن اللهِ سبحانه وتعالى، فالأمرُ يرجعُ كلُّه إلى اللهِ. ويَجبُ على المُسلمِ أن يعتمدَ على اللهِ، وأَن يتوكَّلَ على اللهِ، ولا يتأثَّرَ بما يَقوله المُنجِّمونَ والفلكيُّونَ.

أمّا تعلُّمُ حسابِ منازِلِ القَمرِ من أجلِ مَعرفةِ مواقيتِ العباداتِ، ومواقيتِ الزِّراعةِ والبُذورِ؛ فلا بأسَ به، وهذا ما يُسمِّيهِ العُلماءُ بعلمِ التَّسْيِير.

وأمَّا الاعتقادُ بالنجومِ بأنَّها تُؤثِّرُ فهو عِلمُ التَّأْثيرِ، وهو المُحرَّمُ.

قوله: «فَقَدْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ» وهذا هو الشَّاهدُ منَ الحديثِ للبابِ، حيثُ دلَّ على أنَّ التَّنجيمَ نوعٌ من أنواعِ السِّحرِ، لأنَّ كلاً منَ المُنجِّمِ والسَّاحرِ يدَّعي عِلْمَ الغيبِ الذي اختصَّ اللهُ تعالى بِعلمِهِ.

وقوله: «زَادَ مَا زَادَ» يَعني: كلُّ ما زادَ من الاقتباسِ زادَ منَ السِّحرِ، فمُقِلٌّ

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ١٩٢).

وَلِلنَّسَائِي[1] مِن حَدِيثِ أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا، فَقَدْ سَحَرَ، وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ».

ومُسْتَكْثِر. فهذا تحذيرٌ منَ الرَّسولِ ﷺ.

فالإنسانُ لا يجوزُ له أنْ يتعلَّمَ التَّنجيمَ الذي عليهِ المُشركونَ، لأنَّه سِحرٌ وشركٌ باللهِ عز وجل، وادِّعاءٌ لعلمِ الغيبِ الَّذي لا يَعلمُهُ إلَّا اللهُ سبحانه وتعالى.

والنُّجومُ إنَّما خُلقتْ لفوائدَ بيَّنها اللهُ سبحانه وتعالى في كتابِهِ.

* * *

قالَ: «**وللنسائي من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً»** هذا مِنْ عَملِ السَّحرةِ؛ يعقِدونَ الخُيوطَ ثمّ ينفثُونَ فيها، والنَّفثُ هو: النَّفخُ معَ الرِّيقِ، ينفثُ فيها مِنْ ريقِهِ الخبيثِ، لأنه مُتكيِّفٌ بالشَّيطانِ. فَريقُهُ ممزوجٌ بالخُبثِ وتأثيرِ الشيطانِ.

وقد يضرُّ من وُجِّهَ إليه بإذنِ اللهِ سبحانه وتعالى، كما قالَ تعالى: ﴿**وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ**﴾.

وقد أَمَرَ اللهُ نبيَّهُ بالاستعاذةِ منهُ في سورةِ الفَلقِ، قال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾﴾، ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾: السَّواحر، و﴿ٱلْعُقَدِ﴾ هي: العُقَد التي في الخُيوطِ.

وقوله: «**فَقَدْ سَحَرَ**» يدلُّ على أنَّ هذا العملَ سِحْرٌ.

قوله: «**وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ**» هذا هُو الشَّاهدُ منَ الحديثِ؛ أنَّ منْ أنواعِ الشِّركِ: عَقْد العُقَدِ والنَّفْث فيها بقصدِ السِّحرِ، لأنَّ السَّاحرَ لا يتوصَّلُ إلى سحرِهِ

---

(١) أخرجه النسائي (٤٠٧٩).

إلَّا بالاستعانةِ بالشَّياطينِ، وإذا استعانَ بالشياطينِ فقد أشركَ باللهِ عز وجل.

قوله: «وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ» أي: من اعتقَدَ في شيءٍ من دونِ اللهِ أنه يَنفَع أو يضُرُّ وكَلَهُ اللهُ إلى ذلكَ الشَّيءِ.

فمن اعتقدَ في السَّحرةِ والكُهَّانِ والمُشعوذينَ والمُنجِّمينَ والأمواتِ والأولياءِ أنَّهم ينفعونَ أو يَضرُّون من دونِ اللهِ وُكِلَ إليهم؛ عقوبةً له، وتخلّى اللهُ سبحانه وتعالى عنهُ، ووَكَلَه إلى هؤلاءِ الذينَ لا يَملكونَ ضرّاً ولا نَفعاً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نُشوراً، وتنقطعُ صلَتهُ باللهِ الذي بيدِهِ المُلْكُ، والذي بيدِهِ الخَيرُ، والذي يرحمُ عبادَهُ ويرزُقُهم، ويكِله اللهُ إلى هذهِ المَخلوقاتِ الضَّعيفةِ، لأنه اعتمدَ عليها، وتوكَّلَ عليها، وخافَ منها، ورجَاها، فيوكَلُ إليها.

فمنْ ذهب إلى مشعوذٍ يُريدُ منه العلاجَ والشِّفاءَ من المرضِ وكَلهُ اللهُ إليه، ومن سألَ كاهناً أو عرَّافاً عن شيءٍ من الأشياءِ وكَله اللهُ إليه إذ اعْتمدَ عليه.

ومن توكّلَ على اللهِ، وتعلَّقَ باللهِ سبحانه وتعالى، وخافَ اللهَ ورجاهُ فإنَّ اللهَ يتولَّى أمرَه، كما قال تعالى: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: ٣]، فالذي يتوكَّلُ على اللهِ، ويُؤمنُ باللهِ، ويعتمدُ على اللهِ؛ فإنَّ اللهَ يكْفيهِ، ويصونُهُ من شرِّ عبادِهِ، قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦].

فمن توكَّلَ على اللهِ كفاهُ، ومن توكَّلَ على غيرِ اللهِ وَكَله اللهُ إلى ضَعيفٍ، عاجزٍ لا يُغني عنه منَ اللهِ شيئاً، لا في الدُّنيا ولا في الآخرةِ.

أمَّا في الدُّنيا فيكِلُهُ اللهُ إلى هؤلاءِ الذينَ يُضلُّونه، ويُفسدونَ عقيدتَه، ويوهِّمونَه، ويتسلّطون عليهِ حتى يَعيشَ عِيشةَ القَلقِ والأوهامِ والضَّعفِ والخَوَر.

ولِذلكَ نجدُ الخرافيّينَ والقُبوريينَ دائماً في قلقٍ، ودائماً في خَوفٍ، ودائماً في ذُلّ، لأنّهم تعلّقوا بغيرِ اللهِ.

أمّا في الآخرةِ فمعلومٌ مصيرُهُ إن لمْ يتُبْ.

ونجدُ المُوحِّدينَ الصّادقينَ في قوّةٍ وفي أَمنٍ، وفي سُرورِ بالٍ وراحةِ نفْسٍ وطُمأنينةٍ، لأنّهم توكّلوا على اللهِ.

ومن عبَدَ اللهَ وحدَه تولّى اللهُ أمرهُ في الدُّنيا والآخرةِ، ونجّاهُ مِنَ العذابِ، وأدخله الجنّةَ.

ومن عبَدَ الشّياطينَ والمَخلوقينَ والقُبوريّينَ وغيرَ ذلكَ وكَله اللهُ إليهم يومَ القيامةِ، يقولُ لهم: اذهَبوا إلى مَنْ كُنتمْ تَعْبدونَهم في الدُّنيا، وإذا ذَهبوا إليهم تبرؤوا منهم: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ [البقرة: ١٦٦]، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأحقاف: ٥]، هذا في الدُّنيا.

وفي الآخرةِ: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٦]، وَقْتُ الحاجةِ ووقتُ الخَطرِ كَفروا بعبادَتهم وتبرّؤوا منهم، فيذْهبونَ إلى النّارِ، لأنّهم لم يعْقدوا معَ اللهِ صلةً تَصِلهم باللهِ عز وجل، ولم يَعبدوا اللهَ ويُوحّدوهُ، بل عبَدوا غيرَه.

***

وَعَن ابنِ مَسعُودٍ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «أَلَا هَل أُنَبِّئُكُمْ مَا العَضْه؟ هِيَ النَّمِيمَةُ، القَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ» رَوَاهُ مُسلِمٌ[1].

قالَ: «**وعن ابن مسعود**» رضي الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**أَلَا هَلْ أُنَبِّئُكُمْ مَا العَضْهُ**» العضه: السِّحر، أي: ما هو السِّحر؟.

وهذا فيهِ التَّعليمُ بِطريقةِ السُّؤالِ والجوابِ، لأنَّ ذلكَ أوقَعُ في النَّفس، إذا صارَ الشيءُ مُهمًّا وخطيراً فإنه يُلقى على النّاسِ بطريقِ السُّؤالِ، مِنْ أجلِ أن يتنبّهوا.

ثمَّ قالَ ﷺ في الجوابِ: «**هِيَ النَّمِيمَةُ**» وهذا لِبيانِ خطرِ النَّميمةِ، كأنَّ النبيَّ ﷺ حصَرَ السِّحرَ فيها تحْذيراً مِنها.

ولماذا صارَتْ النَّميمةُ بهذهِ الخُطورةِ؟، لأنَّ النَّميمةَ تَعملُ عملَ السِّحرِ، فتفرِّقُ بينَ النَّاسِ كما يُفرِّق بينهم السِّحرُ، بل هِي أشدُّ، كما قالَ بعضُهم: «يُفسد النمّام في ساعَةٍ ما يُفسِدُهُ السَّاحرُ في سَنَةٍ»[2]، فالنَّميمةُ أشدُّ تأثيراً من السِّحرِ، لأنَّها تفرِّق بين المُسلمينَ والسِّحرُ إنَّما يؤثِّرُ فيمَنْ وَقَع عليه.

والنَّميمة معناها: نقلُ الحديثِ بينَ النَّاسِ على وجهِ الوشايةِ والإفسادِ، يذهبُ إلى شخصٍ فيقولُ له: إنَّ فُلاناً يسُبُّكَ ويتَنَقَّصُكَ ويقولُ فيكَ: كَيْتَ وكَيْتَ. ثمّ يغضبُ هذا الشَّخصُ على فُلانٍ. ثُمَّ يذهبُ إلى الثَّاني، ويقولُ: إنَّ فلاناً يقولُ فيكَ: كذا وكذا، ويسبُّك، ويتنقَّصُك. فيغضبُ هذا على هذا، وهذا على هذا، ثمّ تقومُ القطيعةُ بينَ الوالدِ وولدِهِ، وبينَ الأخِ وأخيهِ، وبينَ المُسلمِ وأخيه والمُسلمِ، حتَّى ربَّما تقومُ الحروبُ الطاحِنةُ بينَ النّاسِ بسببِ النَّميمةِ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٠٦).

(٢) هذا القول ليحيى بن ابي كثير، انظر «حلية الأولياء» (١/ ٤٢١).

وَلَهُمَا[1] عَنِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما: أَنَّ رَسُولُ الله ﷺ قَالَ: «إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا».

والنميمةُ من الكَبائرِ، وقد بيّنَ النَّبيُّ ﷺ أنَّ النَّميمةَ من أسبابِ عذابِ القبرِ، كما جاءَ في الحَديثِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ مرَّ بقبرينِ فقال: «**إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، مَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَا إِنَّهُ كَبِيرٌ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ لَا يَسْتَبْرِئُ مِنْ بَوْلِهِ**»[2].

فدلَّ على أن النَّميمةَ تُسبِّبُ عذابَ القبرِ.

وفي الحديثِ الصَّحيحِ: «**لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ نَمَّامٌ**» وفي روايةٍ: «**لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَتَّاتٌ**».

والنّمّامُ ليس له حُكمُ السَّاحرِ، فلا يَكْفر كما يَكفرُ السّاحرُ.

وإنّما النَّميمةُ مُحرَّمةٌ كما يحرُم السِّحرُ، إلَّا أنَّ السِّحرَ كُفْرٌ، والنَّميمةُ فِسْقٌ.

* * *

قال: «**ولهما**» أي: للشَّيخينِ: البخاريِّ ومسلمٍ.

«**من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا»**» البيانُ هو: البَلاغةُ والفَصاحةُ، لأنَّ النّاسَ يُصْغونَ إلى المُتكلِّمِ إذا كانَ فَصيحاً في كلامِه، وبليغاً في مَنْطقِهِ، بِخلافِ ما إذا كانَ ثَرْثاراً، فإنَّهم لا يُصغونَ إلى كلامِهِ، ويَسْتثقلونه، ويَمِلُّون من سَماعه، فإنِ اسْتَعملَ هذهِ القوّةَ البيانيّةَ في الخيرِ والدِّفاعِ عن الحقِّ، والردِّ على الباطلِ، فَهو مأجورٌ، أمّا إن اسْتَعْملها بضدِّ ذلكَ، فاستعمَلها في نُصرةِ الباطلِ، وهَدمِ الحقِّ فهو آثِمٌ، وهذا هو المَذمومُ.

---

(١) أخرجه البخاري (٥١٤٦) عن ابن عمر. وأخرجه مسلم (٨٦٩) من حديث عمار.

(٢) أخرجه البخاري (٢١٨) ومسلم (٢٩٢).

والنبيُّ ﷺ لم يَذُمَّ البيانَ مطلقاً، وإنَّما ذمَّ البيانَ الذي يقلِبُ الحقَّ باطلاً والباطلَ حقّاً، فإنَّ البليغَ الفصيحَ يستطيعُ بِأسْلوبِهِ أن يُزيِّنَ للنَّاسِ الباطِلَ، وأَنْ يُزوِّرَه بكلامِهِ حتَّى يظنّوهُ صحيحاً، ويَستطيعَ أَنْ يُؤثِّرَ على الحقِّ حتَّى يُخيَّلَ إلى النَّاسِ أنَّهُ باطِلٌ.

فالواجِبُ على المُسلمِ إذا أعطاهُ اللهُ مقدرةً في الكلامِ والمُحاورةِ أَنْ يَستعملَ هذا في طاعةِ اللهِ سبحانه وتعالى، وفي الدَّعوةِ إلى الخيرِ، وترغيبِ النَّاسِ في الخيرِ، وتَنْفيرِهِم من الشرِّ.

أمَّا أَنْ يَستعملَه بضدِّ ذلكَ بأن يستعملَه بالكلامِ في أعراضِ العُلماءِ الرَّبانيينَ وتَبْديعِهم، وتَجْهيلِهم؛ فهذا من السِّحرِ.

أو يَستعملَهُ في تزيينِ الشِّركِ، وعبادةِ القُبورِ، وتَزيينِ البِدَعِ والخُرافاتِ والمُحْدثاتِ؛ فهذا من السِّحرِ، لأنَّ السحرَ يَقلبُ الحقَّ باطلاً والباطلَ حقًّا، كذلكَ البَليغُ الذي يَستعملُ فصاحتَه في الدَّعوةِ إلى الشَّر.

وما ضلَّ كثيرٌ من النّاسِ إلَّا بسببِ الدُّعاةِ البُلغاءِ المُنحرفينَ إمَّا في الإذاعاتِ، وإما في الصُّحفِ، وإمَّا فوقَ المَنابرِ، وإمَّا في مُدرَّجاتِ الجامعاتِ، إذا تكلَّموا اسْتَمالوا الحاضرينَ، ومَلئوا أدْمِغتَهم بِكلامٍ مُزوَّرٍ، حتى يخْرجوا وهم يُبغِضونَ الحقَّ ويُحبّونَ الباطِلَ -والعياذُ باللهِ-، فهذا خطرٌ عظيمٌ.

ما يُستفادُ من هذهِ الأحاديثِ:

أوّلاً: في حديثِ قَبيصةَ رضي الله عنه أنَ العِيافَةَ والطَّرْق والطِّيَرةَ من الجبتِ، والجبتُ هو السحرُ، وكما سبَقَ: أنَّ الجبتَ كلمةٌ عامةٌ تَشملُ السِّحرَ، وتَشْملُ الكِهانةَ، وتشملُ العِيَافةَ، وتشملُ الخطَّ في الأرضِ. يعني: تَشملُ كلَّ ما فيهِ ادّعاءٌ

لعلمِ الغيبِ.

ثانياً: في حديثِ ابنِ عباسٍ تحريمُ تَعلُّمِ التَّنجيمِ، وأنه نَوعٌ من أنواعِ السحرِ.

ثالثاً: في حديثِ أبي هريرةَ أنَّ عقْدَ الخُيوطِ والنَّفْث فيها بِقصدِ التأثيرِ والإِضرارِ بالنَّاسِ أنَّ هذا سحرٌ، ومَنْ سَحَرَ فقدْ أشْركَ، فالسِّحرُ نوعٌ من أنواعِ الشركِ، لأنَّ السَّاحرَ يَسْتعينُ بالشَّيطانِ، ويتقرَّبُ إلى الشَّيطانِ، وهذا هو الشِّركُ.

رابعاً: في حَديثِ أبي هُريرةَ أنَّ مَنْ تعلَّقَ على السَّحرةِ والمُشعوذينَ والدَّجَّالينَ أَنه يوكَّلُ إليهم، ويتَخلَّى اللهُ سبحانه وتعالى عنه، وإذا تَخلى اللهُ عنه ووَكَله إلى غيرهِ هلكَ.

خامساً: في حديثِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه تحريمُ النَّميمةِ، وأنّها من الكبائرِ، وأنَّها نوعٌ من أنواعِ السِّحرِ.

سادساً: في حديثِ ابنِ عُمرَ تحريمُ البلاغةِ التي تُستخدَمُ لنَصْرِ الباطلِ والدَّعوةِ إليهِ، والتَّنفيرِ من الحقِّ، وتَشْويهِ الحقِّ، وأنَّ هذا نوعٌ من أنواعِ السِّحرِ.

* * *

الباب السادس والعشرون:

بَاب ما جاء في الكهان ونحوهم

مناسبةُ هذا البابِ لمَا قبلَهُ: أنَّ ما قبلَهُ في بيانِ السِّحرِ وحُكمِ الساحرِ، وبيانِ بعضِ أنواعِ السِّحْرِ. وهذا في حكمِ الكُهّانِ، وذلكَ للتشابهِ بينَ الكُهّانِ والسَّحرةِ، لأنَّ كلاً منَ السِّحرِ والكهانةِ عملٌ شيطانيٌّ يُنافي العقيدةَ ويضادُّها.

والشيخُ رحمه الله في هذا الكتابِ يبيّنُ العقيدةَ الصحيحةَ، ويُبيّنُ ما يضادُّها من الشركيّاتِ والكفريّاتِ أو يُنْقِصُها من البدعِ والمحدثاتِ.

وهذهِ هي الطريقةُ الصحيحةُ المتمشِّيةُ معَ الكتابِ والسنّةِ؛ أنه يُبيِّنُ الخيرَ ويوضِّحُهُ، ثمَّ يبيِّنُ ضدَّهُ مِنَ الشرِّ؛ من أجلِ أن يكونَ المسلمُ على حذرٍ، لأنه لا يكفي أنَّ الإنسانَ يعرفُ الخيرَ فقَطْ، بل لابُدَّ معَ معرفتِهِ للخيرِ أن يعرفَ الشرَّ؛ من أجلِ أَنْ يتجنَّبَهُ، وإلَّا إذا لَمْ يعرفِ الشرَّ فإنه حريٌّ أن يقعَ فيه وهو لا يَدْري بَلْ قد يظنُّه خيراً.

فقوله: «**باب ما جاء في الكُهّان ونحوهم**» يعني: ومَنْ كانَ مثلُهُم مِنَ العرّافينَ والرّمّالينَ وغيرِ ذلك، لأنَّ هذا بابٌ يشملُ كلَّ ما هو من نوعِ الكِهانةِ.

والكِهانة معناها: ادّعاءُ علمِ الغيبِ، بطرقٍ شيطانيةٍ.

فالكاهنُ هو: الذي يُخبرُ عن المغيّباتِ من الأشياءِ المستقبَلَةِ، والأشياءِ المفقودةِ والضالّةِ، بسببِ أنه يخضَعُ للشياطينِ، لأنَّ الشياطينَ عندَهم مقدرةٌ ليسَتْ عندَ الإنسِ، فهم يَرْتفعونَ في الجوِّ ويحاولونَ استراقَ السَّمعِ من السماءِ، ثمّ يُخبِّرونَ بما يَسمعونَ من يَخضعُ لهم من الإنسِ، ثمّ هذا الإنسيُ يأخذُ الكلمةَ التي سُمعتْ من السماءِ، ويكذبُ معها مائةَ كذبةٍ، من أجلِ أن يلبِّسَ على النَّاسِ.

ولا تُخبرُهُ الشياطينُ إلّا إذا أطاعَهُم وكفَرَ باللهِ عز وجل، وأشرَكَ باللهِ، ونفّذَ ما تُمْليهِ عليه الشياطينُ من الكفرِ والشركِ، وإلّا فالشياطينُ لا تطيعُ المؤمنَ المُوحِّدَ لأنهُ لا يُطيعُها، وإنّما تطيعُ من يأتي على رغبتِهم في الكُفْرِ باللهِ والشركِ باللهِ.

وكانتِ الكهانةُ سوقاً رائجةً عندَ العربِ في الجاهليةِ، وكانَ الكُهّانُ لهم شأنٌ عندَ العربِ، كلُّ قبيلةٍ لها كاهنٌ يتحاكمونَ إليه، وكانتِ الشياطينُ تَسْترِقُ السَّمْعَ، وتُخبِّر بهِ هؤلاءِ الكُهّانَ، فلمّا أرادَ اللهُ بعثةَ نبيِّهِ محمَّداً ﷺ حُرِسَتِ السَّماءُ بالشُّهبِ، ومُنِعوا من استراقِ السَّمْعِ. كما قالَ تعالى حكايةً عن الجنِّ في أولِ سورةِ الجنِّ: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾ [الجن: ٩].

فلمّا بعثَ اللهُ نبيَّهُ محمَّداً ﷺ قَلّتِ الكِهانةُ عمّا كانَتْ عليهِ في الجاهليةِ، وذلكَ لظهورِ الإسلامِ، ومعرفةِ الحقِّ من الباطلِ، لكنَّ لهم وجودًا مُستمِرًا إلى يومِنا هذا.

وكلّما فشا الجَهلُ في الأمةِ ظهَرَ الكُهّانُ، وكلّما كَثُرَ العِلْمُ والتَّمَسُّكُ بالدينِ والعقيدةِ الصحيحةِ قلَّ الكُهّانُ، أو انقَرضوا.

فالجهاتُ التي فيها توحيدٌ، وفيها إسلامٌ صحيحٌ، لا يوجدُ فيها كُهّانٌ، وإن وُجدوا فإنَّهم لا يَظهرونَ، ولا يُعرفونَ إلّا نادراً.

أمَّا المجتمعاتُ الهمجيّةُ، والمجتمعاتُ التي فَشَا فيها الجَهْلُ والخُرافاتُ، فإنَّ الكُهَّانَ يكثرونَ فيها، وتكونُ لهم سوقٌ رائجةٌ فيها، كما كانَتْ لهم في الجاهليةِ.

فمِنْ أجلِ ذلكَ عَقَدَ الشَّيخُ رحمه الله هذا البابَ في موضوعِ الكُهّانِ، وبيانِ

رَوَى مُسلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»[1] عَن بَعضِ أَزوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُول، لَمْ تُقبَلْ لَهُ صَلاَةٌ أَرْبَعِينَ يَوماً».

حُكمِهم، وحكمِ مَنْ يأتي إليهم وحَكْمِ مَنْ يَسأَلُهُم ويُصدِّقُهُم؛ من أجلِ أن يكونَ المسلمونَ على حذرٍ منهم، وأن لا يَغْتَرّوا بهم، ولو ظهروا للنَّاسِ باسمِ أطبّاءَ أو معالجينَ أو أصحابِ خِبرةٍ، فإنَّ هذهِ الأسماءَ أسماءٌ خدّاعةٌ، لا تُغيِّرُ الحقيقةَ، فالكاهنُ كاهنٌ مهما تَسمَّى بالأسماءِ التي يَسْتَتِرُ بها.

***

قال: «**روى مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي ﷺ**» وردَ في روايةٍ أخرى بأنَّها حفصةُ بنتُ عمرَ بنِ الخطَّابِ رضي الله عنهما.

«**عن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا**» العرَّافُ قيلَ: هو الذي يُخبرُ عن الأمورِ الغائبةِ عن طريقِ الحَدْسِ والتّخمينِ والظّنِّ. وقيلَ: هو الكاهنُ. فلا فرقَ بينهما -كما سيأتي في كلامِ شيخِ الإسلامِ ابنِ تيميةَ-[2]؛ أنَّ العرَّافَ اسمٌ عامٌّ يدخلُ فيهِ كُلُّ مَنْ أخبرَ عن المغيّباتِ، سواءً عن طريقِ الشياطينِ، أو عَنْ طريقِ الحَدْسِ والتَّخمينِ، أو عَنْ طريقِ الخطِّ في الرَّملِ، أو قراءةِ الكفِّ والفِنْجَانِ، أو غيرِ ذلكَ.

«**فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ لَمْ تُقبَلْ لَهُ صَلاَةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا**» هذهِ اللَّفظةُ «**فصدَّقه**» ليسَتْ في صحيحِ مُسْلمٍ، وإنَّما وردَتْ في روايةِ الإمامِ أحمدَ في «المسندِ»، والذي في صحيحِ مسلمٍ: «**مَنْ أَتَى عَرَّافًا لَمْ تُقبَلْ لَهُ صَلاَةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمَاً**»، فالحُكْمُ مرتّبٌ على مجيءِ العرَّافِ فقط، لأنَّ إتيانَ العرّافِ والذهابَ إليه جريمةٌ ومحرمٌ حتَّى

---

(١) برقم (٢٢٣٠).

(٢) انظر «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ١٧٣).

وَعَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[1].

ولو لَمْ يُصدِّقْهُ.

ولهذا لمَّا سألَ معاويةُ بنُ الحكمِ رسولَ اللهِ ﷺ عن العرَّافينَ قال: «**لَا تَأْتِهِمْ**» فالنبيُّ ﷺ نهاهُ عن مُجرَّدِ إتيانِهم.

فهذا الحديثُ يَدلُّ على تحريمِ الذهابِ إلى العرَّافينَ، حتَّى ولو لم يُصدِّقْهم، ولو قالَ: أنا أذْهبُ من بابِ الاطلاعِ، فهذا لا يجوزُ.

«**لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمَاً**» في رواية: «**أَرْبَعِينَ يَوْمَاً وَلَيْلَةً**».

فدلَّ هذا على شدّةِ عقوبةِ من يَأْتي العرَّافَ، وأنَّ صلاتَهُ لا تُقبَلُ عندَ اللهِ، ولا ثوابَ له عندَ اللهِ فيها، وإنْ كانَ لا يُؤمرُ بالإعادةِ، لأنَّهُ صلَّى في الظاهرِ، لكنْ فيما بينَهُ وبينَ اللهِ صلاتُهُ لا ثوابَ له فيها لأنَّها غيرُ مقبولةٍ.

وهذا وعيدٌ شديدٌ يدلُّ على تحريمِ الذهابِ إلى العرَّافينَ مجرَّدَ الذَّهابِ، ولو لم يُصدِّقْ، أما إذا صدَّقَهم فسيأتي في الأحاديثِ ما عليهِ من الوعيدِ الشديدِ، والعياذُ باللهِ.

* * *

قال: «**وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا... إلخ»** هذا الحديثُ فيه شيئانِ:

الشيءُ الأولُ: المجيءُ إلى الكاهنِ.

والشيءُ الثاني: تصديقُهُ بما يُخبرُ به من أمرِ الكِهانةِ.

---

(١) برقم (٣٩٠٤).

وَلِلأَربَعَةِ وَالحَاكِمِ[(١)] **-وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرطِهِمَا- عَن أَبِي هُرَيرَةَ: «مَنْ أَتَى عَرَّافاً أَو كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ».**

وَلأَبِي يَعلَى[(٢)] **بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنِ ابنِ مَسعُودٍ مِثلُهُ مَوقُوفاً.**

وحكمُهُ: أنهُ يكونُ كافراً بما أُنزِلَ على محمَّدٍ ﷺ، لأنهُ لا يجتمعُ التَّصديقُ بما أُنزِلَ على محمَّدٍ والتصديقُ بما عندَ الكُهَّانِ من عملِ الشَّياطينِ. ضِدّانِ لا يَجْتمعانِ، لا يمكنُ أَنْ يُصدِّقَ بالقرآنِ ويُصدِّق بالكِهانةِ.

وظاهرُ هذا أنهُ يخرجُ من الملّةِ.

وعن أحمدَ روايتانِ في نوعِ هذا الكفرِ: روايةٌ أنه كفرٌ أكبرُ يُخرِجُ من المِلَّةِ. وروايةٌ أنه دونَ ذلكَ. وفيهِ قولٌ ثالثٌ: وهو التوقُّفُ، وأَنْ يُقرأَ الحديثُ كما جاءَ من غيرِ أَنْ يُفسَّر بالكفرِ الأكبرِ أو الكفرِ الأصغرِ، فنقولُ ما قالَهُ الرَّسولُ ﷺ وَيكْفي.

ولكنَّ الظاهرَ -واللهُ أعلمُ- هو القولُ الأولُ؛ أنهُ كفرٌ يُخرِجُ من الملَّةِ، لأنه لا يجتمعُ التصديقُ بالقرآنِ والتَّصديقُ بالكهانةِ، لأنَّ اللهَ أبطلَ الكِهانةَ، وأخبرَ أنَّها مِنْ عملِ الشياطينِ، فمَنْ صدَّقَها وصوَّبَها كانَ كافراً باللهِ كفراً أكبرَ. هذا هو الظاهرُ مِنَ الحديثِ.

***

قالَ: «**وللأربعة والحاكم -وقال: صحيح على شرطهما- عن أبي هريرة: مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا... إلخ**» في هذا الحديثِ جَمْعٌ بينَ الاثنينِ: العرَّافِ والكاهنِ،

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٩٠٤)، والترمذي (١٣٥)، ابن ماجه ٦٣٩) ولفظه عندهم كحديث أبي داود السابق. وأما اللفظ الذي ذكره المصنف فهو للحاكم في «المستدرك» (١/ ٨).

(٢) برقم (٥٤٠٨).

فإذا جُمِعَ بينَهُما فالكاهنُ هو: الذي يُخبِرُ عن المغيّباتِ بسببِ ما تُلقيهِ عليه الشياطينُ. وأما العرَّافُ فهو الذي يُخبِرُ عن المغيّباتِ بسببِ الحَدْسِ والتَّخْمينِ والخطِّ في الأرضِ، وما أشبهَ ذلكَ.

فإذا ذُكر الاثنانِ جميعاً صارَ لكُلِّ واحدٍ معنى.

أما إذا ذُكر الكاهنُ وحدَهُ دخَلَ فيهِ العرَّافُ، وإذا ذُكِرَ العرَّافُ وحدَهُ دخَلَ فيه الكاهنُ.

قال: «**ولأبي يعلى**» أبو يعلى هو: أبو يعلى المَوْصليُّ، الإمامُ الحافظُ.

«**بسند جيّد عن ابن مسعود مثله**» أي: مثلَ حديثِ أبي هريرةَ: «**مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ**» إلَّا أنه موقوفٌ على ابنِ مسعودٍ، ولم يُرفَعْ إلى النبيِّ ﷺ، والموقوفُ: ما كانَ من كلامِ الصحابيِّ.

فهذا يؤيّدُ ما سَبَقَ.

والأحاديثُ كلُّها تدلُّ على تحريمِ الذهابِ إلى الكُهَّانِ والعرّافينَ، وتَصْديقِهِم بما يقولونَ.

فقد دلّتْ هذهِ الأحاديثُ على مسائلَ:

المسألة الأولى: بُطلانُ الكِهانةِ ومُشتقَّاتُها من العِرافةِ وغيرِ ذلكَ من دعاوى علمِ الغيبِ، وأنَّ هذا كلَّه باطلٌ، لأنَّ الغيبَ لا يَعْلمُهُ إلَّا اللهُ سُبحانه وتعالى، قالَ تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، والنبيُّ ﷺ يقولُ اللهُ عنه: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، فالرَّسولُ لا يعلمُ الغيبَ إلَّا من علَّمَهُ اللهُ، كما قالَ تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ

رَصَدًا ﴿٢٧﴾ [الجن: ٢٦-٢٧]، فقَدْ يُطْلِعُ اللهُ أنبياءَهُ على شيءٍ من الغيبِ من أجلِ إقامةِ الحُجَّةِ على الخَلْقِ، ويكونُ معجزةً لهذا الرسولِ.

المسألة الثانية: في الحديثِ دليلٌ على وجوبِ تكذيبِ الكُهَّانِ ونَحوهم، وأَنْ لا يقعَ في نفسِ الإنسانِ أدنى شكٍّ في كَذِبِهم، فمَنْ صدَّقَهم، أو شكَّ في كَذِبِهم، أو توقَّفَ؛ فقَدْ كفَرَ بما أُنزِلَ على محمَّدٍ ﷺ، لأنه يجِبُ الجزمُ بكذبِهِم.

المسألة الثالثة: فيها دليلٌ على تحريمِ الذهابِ إلى الكُهّانِ ولو لم يُصدِّقهُمْ، وأنه إذا فَعَلَ ذلكَ لم تُقبَلْ له صلاةُ أربعينَ يوماً.

المسألة الرابعة: فيه دليلٌ على أنَّ تصديقَ خبرِ الكُهَّانِ كفرٌ بما أَنْزلَ اللهُ على رسولِهِ محمَّدٍ ﷺ، والذي أنزلَ اللهُ على رسولِهِ هو الكتابُ والسنّةُ.

المسألة الخامسة: تدلُّ هذهِ الأحاديثُ على وجوبِ معاقبةِ الكهانِ ومَنْ يذهَبُ إليهم من قِبَلِ ولاةِ الأمورِ، لأجلِ إراحةِ المسلمينَ مِنْ شرِّهم، ووقايةِ المُجتمعِ من خطرِهِم، لأنَّ خطرَ الكُهّانِ في المجتمعِ خطرٌ شديدٌ يَقضي على عقيدةِ التَّوحيدِ، وينشُرُ الخوفَ والرُّعبَ بينَ النَّاسِ، لأنَّ هؤلاءِ الكُهّانَ يُرهبونَ النَّاسَ بما يقولونَ لهم من الكذبِ والوعيدِ والترهيبِ حتَّى يُخيفوهُم، كما قالَ تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ [الجن: ٦] يعني: خوفاً.

فهؤلاءِ وجودُهم في المجتمعِ يسببُ الإرهابَ، ويُسبِّبُ التشويشَ على عقولِ النَّاسِ، والخوفَ، ويروِّجونَ الكذبَ والشرَّ، حتى يُصبحَ النّاسُ في خوفٍ وقلقٍ بسببِ الكهّانِ، يأتونَهم ويقولونَ لأحدِهِم: إنَّ فلاناً عمِلَ لك سِحْراً، أو رَبَطَك، أو ربط فيكَ الجنَّ، أو غيرَ ذلك من أكاذيبِهم وإرجافاتِهِم.

* * *

وَعَن عِمرَانَ بنِ حُصَينٍ مَرفُوعاً: «لَيسَ مِنَّا مَن تَطَيَّرَ أَو تُطَيِّرَ لَهُ، أَو تَكَهَّنَ أَو تُكُهِّنَ لَهُ، أَو سَحَرَ أَو سُحِرَ لَهُ، وَمَن أَتَى كَاهِناً فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَد كَفَرَ بِمَا أُنزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ». رَوَاهُ البَزَّارُ[1] بِإِسنَادٍ جَيِّدٍ.

قالَ: «**وعن عمران بن حصين مرفوعاً: «ليس منا من تطير أو تطيّر له**» الطيرةُ: سيأتي لهذا بابٌ خاصٌّ.

وهذا الحديثُ كالذي سبقَهُ، يدلُّ على تحريمِ الكِهانةِ، والذهابِ إلى الكُهَّانِ، لأنهم يفسدونَ عقيدةَ مَنْ يذهَبْ إليهم، وبعضُهُم ربَّما تظاهَرَ بذكرِ اسمِ اللهِ أو يُصلِّي، أَوْ غَيْر ذلكَ، حتَّى يقولَ من رآهُ: رأيتُهُ يُصلِّي، رأيتُهُ يذهبُ للمسجدِ.

وما كُلُّ مَنْ يُصلِّي يصيرُ مُسلماً، قَدْ يُصلِّي الإنسانُ ويزكِّي ويصومُ ويحجُّ وهو كافرٌ، إذا فَعَل ذلكَ نفاقاً أو ارتكبَ ناقضاً من نواقضِ الإسلامِ، فالكاهنُ لو صلَّى ولو صامَ ولو حجَّ، ولو تصدَّقَ ولو زكَّى لا تُقبَلُ أعمالُهُ لأنهُ مشركٌ كافرٌ، وكذلكَ الساحرُ.

وبعضُهُم يقولُ: أنا انتفَعْتُ من ذهابي إلى هؤلاءِ، أنا كُنْتُ مريضاً وانتفَعْتُ، وحصولُ الحاجةِ أو حصولُ الغرضِ ليسَ دليلاً على الجَوازِ، فقد يُعطى الإنسانُ حاجتَهُ من بابِ الفتنةِ ومن بابِ الاستدراجِ والاختبارِ، والعبرةُ في كونِهِ دلَّ الدليلُ الشرعيُّ على جوازِ هذا الشيءِ أو على تحريمِهِ هذا هو الشَّأنُ.

والنبيُّ ﷺ يقولُ: «**ليس منّا من تكهّن أو تُكُهِّن له، أو سحر أو سُحر له**»[2]، ويقولُ: «**مَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ**».

---

(١) في «مسنده» (٣٥٧٨).

(٢) أخرجه البزار في «مسنده» (٣٥٧٨) والطبراني في «المعجم الكبير» (١٨/ ١٦٢).

ومعنى: «تكهّن» فعَلَ الكِهانةَ. ومعنى: «تُكُهِّنَ له» فُعِلَتْ الكِهانةُ من أجلِهِ بطلبِهِ.

فمن ذهب إلى الكهّانِ فله حالتانِ:

الحالة الأولى: أَنْ لا يُصدِّقَهم، ولكنْ يقولُ: أريدُ أَنْ أرى ماذا عندَهُم؟.

فهذا لا تُقبَلُ له صلاةٌ أربعينَ يوماً، لأنَّ ذهابَهُ إليهم مُحرَّمٌ، فعوقِبَ بأنه لا تُقبلُ له صلاةٌ أربعينَ يوماً، إلَّا إذا ذهَبَ إليهم من أجلِ التَّثبُّتِ في شأنِهم من أجلِ مَنْعِهم والقضاءِ على فسادِهِم.

أمَّا إذا صدَّقَهم فقَدْ كفَرَ بما أُنزلَ على محمَّدٍ ﷺ، فهو لا يرجعُ سالماً أبداً، ممّا يدلُّ على تحريمِ الذهابِ إلى الكُهّانِ والمشعوذينَ والمُدجِّلينَ.

وقوله: «**رواه البزّار بإسناد جيِّد**» البزار هو: أبو بكرٍ أحمدُ البزَّارُ، صاحبُ «**المسندِ**» المعروفِ بـ «**مسند البزّار**»، وهو إمامٌ جليلٌ، تُوفيَ على رأس القرنِ الثالثِ رحمه الله، ومُسْندُهُ يعرَفُ عندَ العلماءِ بـ «**مسند البزّار**».

وقوله: «**ورواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن من حديث ابن عبّاس**» أي: روى الطبرانيُّ هذا الحديثَ الذي رواهُ عمرانُ بنُ حُصينٍ من حديثِ ابنِ عباسٍ.

«**دون قوله**: «وَمَنْ أَتَى» إلى آخره» يعني: روى منه أوَّلَه: «**ليس منا من تكهّن أو تُكُهِّن له، أو تطيّر أو تُطُيِّر له، أو سُحر أو سُحر له**»، وبإسنادٍ حسنٍ، فهو يُؤيِّد روايةَ البزّارِ عن عمرانَ بنِ حُصينٍ.

* * *

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي «الأَوسَطِ»[(١)] بِإِسنَادٍ حَسَنٍ مِن حَدِيثِ ابنِ عَبَّاسٍ، دُونَ قَولِهِ: «وَمَن أَتَى ...» إِلَى آخِرِهِ.

قَالَ البَغَوِيُّ: «العَرَّافُ: الَّذِي يَدَّعِي مَعرِفَةَ الأُمُورِ بِمُقَدِّمَاتٍ يُستَدَلُّ بِهَا عَلَى المَسرُوقِ وَمَكَانِ الضَّالَّةِ، وَنَحوِ ذَلِكَ».

ثم ذكر الشَّيخُ رحمه الله تفسيرُ هذهِ الألفاظِ التي وردتْ في البابِ نقلاً عن «**البغوي**» وهو: الإمامُ الحافظُ الجليلُ، محيي السنّةِ، الحسينُ بنُ مسعودٍ البغويُّ، نسبةً إلى «بَغْ» من بلادِ المشرقِ، لأنها مِنْ حَرْفينِ، فإذا نُسِبَ إلى اسمٍ من حرفينِ تُزادُ فيه (واو) فيقال: (بغوي) مثلاً.

وهو: إمامٌ جليلٌ، سلفيُّ العقيدةِ، وله مؤلَّفاتٌ جليل، منها: «**تفسيرُ البغوي**» المَطْبوع المَعروف المُتداوَل، وهو يشبهُ «**تفسيرَ ابنِ كثير**» في التَّحقيقِ والأَصالةِ وسلامةِ العقيدةِ، إلَّا أنه أَخْصَر مِنْ «**تفسير ابن كثير**»، ومنها: «**شرح السنّة**» الذي يتكوَّنُ مِنْ حوالي أربعةَ عشرَ مُجلَّداً، وقد طُبع والحمدُ للهِ، ومنها: «**مصابيح السنّة**» التي رتَّبها وزادَ عليها التِّبْريزيُّ في كتابِ «**مِشْكاة المصابيح**».

فهو إمامٌ جليلٌ رحمه الله، وهو مِنْ أئمّةِ الشافعيةِ ويُلقَبُ بمحيي السنّةِ، لأنه إمامٌ مجدِّدٌ رحمه الله.

«العراف: الذي يدّعي معرفة الأمور بمقدِّمات يستدلُّ بها على المسروق ومكان الضالة، ونحو ذلك» وهذا من الشَّيطانِ، فالشياطينُ تأتيهِ بذلكَ، لكنْ يتظاهرُ بعملِ أشياءَ يظنُّ النَّاسُ أنَّ هذهِ الأشياءَ من الأمورِ المُباحةِ، لكنْ هذهِ رموزٌ فَقَطْ، وإلَّا في الحقيقةِ هو يتعاملُ معَ الشيطانِ، وإلَّا ما الذي يُدريهِ عن مكانِ المسروقِ، وما الذي يُدريه عن مكانِ الضالّةِ لولا أنه يتعاملُ معَ الجنِّ ومع

---

(١) برقم (٤٢٦٢)، والبزار (٣٠٤٣) كما في «كشف الأستار».

وَقِيلَ: هُوَ الكَاهِنُ. وَالكَاهِنُ: هُوَ الَّذِي يُخبِرُ عَنِ المُغَيَّبَاتِ فِي المُستَقبَلِ.

وَقِيلَ: الَّذِي يُخبِر عَمَّا فِي الضَّمِيرِ.

وَقَالَ أَبُو العَبَّاسِ ابنُ تَيمِيَّةَ: العَرَّافُ: اسمٌ لِلكَاهِنِ وَالمُنَجِّمِ وَالرَّمَّالِ وَنَحوِهِم؛ مِمَّن يَتَكَلَّمُ فِي مَعرِفَةِ الأُمُورِ بِهَذِهِ الطُّرُق»[1].

الشَّياطينِ.

قال: «**وقيل: هو: الكاهن**» أي: العرّافُ والكاهنُ سواءٌ، لأنَّ كلاً منهما يخبرُ عن الأمورِ الغائبةِ بواسطةِ الشياطينِ، فكلُّهم عملاءُ للشياطينِ، وإنِ اختَلَفوا في الاسم هذا عرَّافٌ، وهذا كاهنٌ، فالمعنى واحدٌ، والمهنةُ واحدةٌ، وهي ادّعاءُ علمِ الغيبِ، وإن اختلفَ اللفظُ.

«**والكاهن هو: الذي يُخبر عن المغيَّبات في المستقبل**» بسببِ أنَّ الشياطينَ تُخبرُهُ بما تعلَم ممَّا لا يعلَمُهُ الإنسانُ، لأنَّ الشياطينَ تدري عن أشياءَ لا يعرِفُها الناسُ، فيُخبرونَ النَّاسَ في مقابلِ أن الناسَ يخضعونَ لهم، ويفعلونَ ما يطلبونَه منهم من الشركِ والكفرِ باللهِ عز وجل، ويتقرّبونَ إليهم، فإذا تقرَّبَ الإنسيُّ إلى الجنيِّ بما يريدُ، خَدَمَهُ الجِنيُّ بما يطلبُهُ منهُ من الأمورِ الغائبةِ.

«**وقيل: هو الذي يُخبر عمّا في الضمير**» يعني: عمَّا في النفسِ، ولا يعلمُ ما في القلوبِ إلَّا اللهُ سبحانه وتعالى، لكنِ الشيطانُ قد يعرفُ شيئاً من هواجسِ الإنسانِ، لأنه هو الذي يوسوسُ للإنسانِ، ولأنه يَجْري من ابنِ آدمَ مَجْرى الدمِ، فيعرِفُ الشيطانُ من الإنسانِ ما لا يعرفُهُ الإنسانُ عن الإنسانِ.

هذا تفسيرُ البغويِّ رحمه الله.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ١٧٣).

قال: «**وقال أبو العبّاس ابن تيمية**» أبو العبّاسِ هذا كنيتُهُ وليسَ له ابنٌ اسمُهُ العباسُ، لأنهُ لم يَتزوَّجْ رحمه الله، ولكِنْ يجوزُ أنَّ الإنسانَ يُكَنّى بأبي فلانٍ ولو لَمْ يكُنْ له ابنٌ.

وهو: أحمدُ بنُ عبدِالحليمِ بنِ عبدِالسلامِ بنِ تيميةَ، شيخُ الإسلامِ، الإمامُ المجدِّدُ المشهورُ، الذي نَفَعَ اللهُ بعلومِهِ، ولا يزالُ نفعُهُ مستمرّاً وللهِ الحمدُ، وكتبُهُ لا تزالُ موضعَ تنافُسِ طلَّابِ العلمِ للحصولِ عليها والاطّلاعِ عليها، وهذا ممَّا كتبَهُ اللهُ من الكرامةِ لهذا العالمِ الجليلِ؛ لصدْقِ نيَّتِهِ، وإخلاصِهِ وجهادِهِ في سبيلِ اللهِ عز وجل، وصبرِهِ واحتسابِهِ.

قال: «**العرّاف: اسمٌ للكاهن والمنجِّم والرمّال ونحوهم**» لأنَّ كلمةَ العرَّافِ عامّةٌ، يدخلُ تحتَها كلُّ من يدَّعي معرفةَ المستقبلِ، سواءٌ بكِهانة أو بتنجيم، أو بخطٍّ في الرملِ، فكلُّهم يتعاملونَ مع الشياطينِ ويتقربونَ إليهم. ولهذا يقولُ اللهُ تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٣]، وهذا يدخلُ فيهِ الكاهنُ والمنجِّمُ والرمَّالُ والعرّافُ، كلُّهم يدخلونَ تحتَ كلمةِ ﴿أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾، وتتنزَّلُ عليهم الشياطينُ، بخلافِ الأنبياءِ -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- فإنهم تتنزَّلُ عليهم الملائكةُ، ولهذا قالَ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾﴾ يعني: القرآنُ، ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ [الشعراء: ٢١٠-٢١٢]، فالأنبياءُ -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- تتنزَّلُ عليهم الملائكةُ من الرَّحْمنِ، وأما الكهَّانُ فتتنزّلُ عليهم الشياطينُ.

فهذا يشملُ كلَّ مَنْ يتكلَّمُ في معرفةِ الأمورِ بهذهِ الطُّرُقِ ممّن يُخبرُ عن

وَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ فِي قَومٍ يَكتُبُونَ (أَبَا جَادٍ)، وَيَنظُرُونَ فِي النُّجُومِ: «مَا أَرَى مَن فَعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِندَ اللهِ مِن خَلَاقٍ»[١].

هذه الأشياءِ بتلكَ الأمورِ التي يُسمُّونَها خطّاً في الرَّملِ، إلى آخرِهِ.

فهذا تفسيرٌ جامعٌ.

وأما اختلافُ الوسائلِ؛ هذا يَسْتعملُ كذا، وذا يستعملُ كذا فلا عبرةَ بها، لأنَّ النتيجةَ وهي ادّعاءُ علمِ الغيبِ؛ نتيجةٌ واحدةٌ.

والذي يهمُّنا النتيجةُ والحكمُ، فالنَّتيجةُ: الإخبارُ بعلمِ الغيبِ، وادعاءُ مشاركةِ اللهِ سبحانه وتعالى في علمِ الغيبِ.

والحكمُ: أنَّ كلَّ هؤلاءِ كفرةٌ، لأنهم يدَّعونَ مشاركةَ اللهِ تعالى في صفةٍ من أعظمِ صفاتِهِ وهي علمُ الغيبِ.

قالَ الشيخُ رحمه الله: «**وقال ابن عبّاس في قوم يكتبون (أبا جاد) وينظرون في النجوم**» (أبا جاد) المرادُ بها: حروفُ الجُمَّل، التي هي: (أبْجَدْ، هَوِّزْ، حُطِّيْ، كَلِمَنْ) إلى آخرِهِ، وهي حروفٌ مقطّعةٌ يكتبونَهَا لتمييزِ الجُمَلِ، والمُشعوذُ إذا كتَبَ هذهِ الحروفَ قال: يَحْدُثُ كذا ويكونُ كذا. وهذه في الحقيقةِ طلاسِمُ.

وهؤلاءِ هُمُ الذينَ قالَ فيهم عبدُاللهِ بنُ عبّاسٍ رضي الله عنه: «**ما أرى مَنْ فَعَلَ ذلك**» أي: كتبَ هذهِ الحروفَ، ونظَرَ في النُّجومِ، وأخبرَ أنه سيحدُثُ كذا وكذا.

«**له عند الله من خَلاق**» أي: ليسَ له نصيبٌ من الجنَّةِ عندَ اللهِ عز وجل، ومعناه: أنه كافرٌ، لأنَّ الذي ليسَ له عندَ اللهِ مِنْ خلاقٍ هو الكافرُ، كما قالَ تعالى في السَّحرةِ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾[البقرة: ١٠٢].

---

(١) أخرجه معمر في «جامعه» (١٩٨٠٥)، والبيهقي (٨/ ١٣٩).

فهذا حكمُ عَبْدِاللهِ بنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما على أصحابِ الطلاسمِ الذينَ يكتبونَ الحروفَ المُقطّعةَ، وينظرونَ في النُّجومِ، ويقولونَ: سَيَحْدثُ كذا. فهذا من ادّعاءِ علمِ الغيبِ، وهو طريقةٌ من طرقِ الكِهانةِ أو العِرافةِ أو التَّنجيمِ أو السِّحْرِ، سمِّها ما شئتَ، لا يهمُّنا الأسماءُ، الذي يهمّنا النتيجةُ والحكمُ الشرعيُّ.

أما الذي يكتبُ (حروفَ الجُمل) لتمييزِ الجُمَلِ فقط وهو تمييزُ الفقراتِ؛ فهذا لا بأسَ به، مثلاً يقولُ: الفِقْرة (أ)، الفِقْرة (ب)، الفِقرة (ج)، الفِقرة (د) لا يدَّعي به علمُ الغيبِ، وإنما يريدُ ترتيبَ الجُمَل فَقَطْ.

والحاصلُ؛ أنَّ هذا بابٌ عظيمٌ؛ لأنهُ يعالِجُ أمراضاً واقعةً في العالمِ اليومَ، لا أقولُ في العالمِ الكافرِ، لأنه ليسَ بعدَ الكفرِ ذنبٌ، لكِنْ في العالمِ الإسلاميِّ، وربما يُسمُّونَه أعمالاً رياضيةً وفنوناً تشكيليةً، ووُجودُ هذا الوباءِ؛ وَباءِ السحرةِ والمشعوذينَ والدجّالينَ والكَهَنةِ والمنجِّمينَ، ويُسمونَ هذا من بابِ الفنونِ، أو يسمونَهم بأَسْماءَ تدلُّ على تَبْجيلِهِم، وعلى أَنَّهم أصحابُ علمٍ، وأصحابُ خبرةٍ، أو أشدُّ من ذلكَ يدَّعونَ أَنَّهم أولياءُ اللهِ، وأنّ هذهِ كراماتٌ تدلُّ على أَنَّهم من أولياءِ اللهِ، وهذه ليستْ كراماتٌ، وإنما هي خوارقُ شيطانيةٍ، لأنَّ الكراماتِ هي التي تَجْري على أيدي الصالحينَ، وليسَ لهم فيها تصرُّفٌ منهم، وإنما هي من اللهِ سبحانه وتعالى.

فالكراماتُ تَجْري على أيدي رجالٍ صالحينَ مستقيمينَ على الكتابِ والسنّةِ. والخوارقُ الشيطانيةُ تجري على أيدي كفرةٍ مشعوذينَ.

وأيضاً الكراماتُ لا صُنْعَ للآدميِّ فيها، وإنما يُجريها اللهُ سبحانه وتعالى، بخلافِ هذهِ الخوارقِ الشيطانيةِ، فهي حِيَلٌ ومِهَنٌ وحِرَفٌ وتَدْجيلٌ يعلمونَهُ هم، ويتظاهرونَ أمامَ الناسِ أنه بسببِ هذه الأشياءِ حَصَلَ ما حَصَلَ. وهو في الحقيقةِ

....

إنما هو مِنْ عملِ الشياطينِ الذينَ لا يراهُمُ النّاسُ.

فالحاصلُ؛ أنَّ هذا بابٌ عظيمٌ، ويشتمِلُ على علاجٍ لمرضٍ خطيرٍ يتفشَّى الآنَ في العالمِ الإسلاميِّ، وهو مرضُ الكهنةِ والسحرةِ والمنجِّمينَ والعرّافينَ؛ الذينَ صارَ لهم صوْلةٌ وجولةٌ في العالمِ، وأشدُّ من ذلكَ إذا ادُّعِيَ أنَّ هؤلاءِ من أولياءِ اللهِ، وأنَّ هؤلاءِ لهم كراماتٌ، مع أنَّهم كفرةٌ لا يُصلُّونَ ولا يصومونَ ولا يتطهَّرون من الجنابةِ!، وربَّما يقولونَ: هذا دليلٌ على كرامتِهِم، وكونِهِ لا يصلي لأنه وُضِعَتْ عنه التكاليفُ، ووصلَ إلى اللهِ، والتكاليفُ هذهِ على الناسِ العوامِ!!.

فالحاصلُ؛ أنَّ هذا البابَ إذا تأمَّلتَهُ وجدتَ أنَّ الشيخَ رحمه الله لم يكتبْهُ من فراغٍ، وإنما كتبَهُ ليعالِجَ بهِ أمراضاً متفشِّيةً، وازدادَتِ الآنَ بحكمِ تأُخّرِ الزمانِ، وبحكم فُشُوِّ الجهلِ، وبحكمِ تقارُبِ العالمِ وارتباطِ بعضِهِ ببعضٍ، وسريانِ الشرورِ في العالمِ بسرعةٍ.

فيجبُ على طلبةِ العلمِ أَنْ يتنبّهوا لهذهِ الأمورِ، ويقوموا بالتَّحذيرِ منها وإنكارِها، لأنَّ أكثرَ النّاسَ سُذَّجٌ لا يعرفونَ هذهِ الأمورَ، فيُغرِّرونَ بهم.

وأيضاً هم محتاجونَ للعلاجِ من الأمراضِ، فيقولونَ: هذهِ فيها منافعُ، وفيها علاجٌ، ولا يدرونَ أنَّ المَضارَّ التي فيها أكبرُ من المنافعِ، إنْ كانَ فيها منافعُ أو يُدْخِلونها في قسمِ الفنونِ والمهاراتِ.

فيجبُ على طلبةِ العلمِ أن يهتمُّوا بهذا الأمرِ، وأن يتفهَّموا هذا الأمرَ، ويتفقَّهوا فيه، ويعالجوا هذه الأمراضَ المتفشِّيةَ التي تقضي على العقيدةِ، وتَقضي على دينِ الإسلامِ، والعياذُ باللهِ.

***

الباب السابع والعشرون:

بَاب ما جاء في النُّشرة

عَن جَابِرٍ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ سُئِلَ عَنِ النُّشْرَةِ؟ فَقَالَ: «هِيَ مِن عَمَلِ الشَّيطَانِ» رَوَاهُ أَحمَدُ[1] بِسَنَدٍ جَيِّدٍ، وأَبُو دَاوُدَ[2]، وَقَالَ: سُئِلَ أَحمَدُ عَنهَا؟، فَقَالَ: (ابنُ مَسعُودٍ يَكرَهُ هَذَا كُلَّهُ).

مناسبةُ هذا البابِ لما قبلَه: أنَّ الشيخَ لمَّا ذكرَ في الأبوابِ السابقةِ السّحرَ وما جاءَ فيه، وذكرَ أنواعاً من السِّحرِ، وذكرَ ما يعمُّ السحرَ وغيرَه من أعمالِ الشياطينِ؛ وهو الكِهانةُ والعِرافةُ وكلُّ ما هو من هذا القبيلِ من الشعوذاتِ؛ انتقلَ إلى بيانِ حُكمِ النُّشرةِ، فقالَ:

«**باب ما جاء في النُّشرة**» يعني: من الأحاديثِ والآثارِ التي تدلُّ على حُكْمِها في الشَّرْعِ.

وهذا في غايةِ المناسبةِ؛ لأنَّ النَّاسَ في حاجةٍ إلى معرفةِ ذلكَ، لأنَّ السحرَ موجودٌ، ومن النَّاسِ من يُبتلَى به ويقعُ عليه السحرُ ويتضرَّرُ به، واللهُ تعالى ما أنزلَ داءً إلَّا أنزلَ له شفاءً، علِمَهُ مَنْ علِمَهُ وجهلَهُ مَن جهِلَهُ، فلابدَّ أن نعرفَ ما هو الدواءُ الصحيحُ للسحرِ، الدواءُ الذي لا يمسُّ العقيدةَ، ونعرفُ -أيضاً ما يخالفُ العقيدةَ فنَتَجَنَّبُهُ، وأيضاً: هناكَ من السحرةِ من يقولُ للناسِ: أنا أُعالجُ السحرَ، وأنا... وأنا؛ فهذا أمرٌ واقعٌ لابدَّ من معرفتِهِ وبيانِ حكمِهِ للناسِ.

والنُّشرة -بضم النون وسكون الشين- مأخوذةٌ من (النّشر) وهو التفريقُ؛

---

(١) في «مسنده» (٣/ ٢٩٤).

(٢) برقم (٣٨٦٨).

وَفِي البُخَارِيِّ[١] عَن قَتَادَةَ: قُلْتُ لابْنِ المُسَيَّبِ: رَجُلٌ بِهِ طِبٌّ، أَوْ يُؤخَذُ عَنِ امْرَأَتِهِ؛ أَيُحَلُّ عَنْهُ أَوْ يُنَشَّرُ؟، قَالَ: (لَا بَأْسَ بِهِ؛ إِنَّمَا يُرِيدُونَ بِهِ الإِصْلَاحَ، فَأَمَّا مَا يَنْفَعُ؛ فَلَمْ يُنْهَ عَنْهُ).

وهي -كما فسَّرها الإمامُ ابنُ القيمِ-: حلَّ السحرَ عن المسحورِ. وهي ضربٌ من العلاجِ، سُمِّي نَشْرة: لأنه يُنشر به، أي: يزالُ ما أصابَ المريضَ وما خامَرَهُ من الداءِ.

وقوله في حديثِ جابرٍ: «**أن رسول الله ﷺ سُئل عن النُّشرة**» أي: النَّشْرة المَعْهودة في الجاهليةِ، وهي التي كانَتْ من عملِ الشَّيْطانِ.

«**فقال: «هي من عمل الشيطان»** لأنها سحرٌ، والسحرُ من عملِ الشيطانِ -كما مرَّ في الأبوابِ السابقةِ-.

«**رواه**» الإمام «**أحمد**» في مسنده «**بسند جيِّد، وأبو داود**» في سننه.

«**وقال**» أي: أبو داودَ، لأنَّ أبا داودَ من تلاميذِ الإمامِ أحمدَ، وروى عنهُ كثيراً من المسائلِ في المذهبِ، ويوجَدُ الآنَ مجلّدٌ مطبوعٌ اسمُهُ «**مسائل أبي داود**» وهي المسائلُ التي رواها أبو داودَ من أجوبةِ الإمامِ أحمدَ على الأسئلةِ التي تَرِدُ عليه.

«**قال سُئل أحمد عنها**» يعني: عن النشرة؛ ما حكمها؟ «**فقال: «ابن مسعود يكره هذا كله**» أي: يحرم النَّشْرة، لأنَّ السلفَ يريدونَ بالكراهةِ التحريمَ، والمُرادُ النشرة التي هي من عملِ الجاهليةِ.

قال: «**وفي البخاري**» أي: في «**صحيح البخاري**».

---

(١) في كتاب الطب، باب هل يستخرج السحر، بعد الحديث (٥٧٦٤).

«**عن قَتادةَ**» هو: قتادةُ بنُ دِعامة السدوسيُّ، نسبةً إلى جدِّه سَدوس، وكان من أكبرِ علماءِ التابعينَ، ويُقالُ: إنه وُلد أكْمَهَ يعني: ليس له عينانِ. وكان نادراً في الحفظِ والذّكاءِ والفقهِ رحمه الله، حتّى كانَ من كبارِ التّابعينَ.

«**قلت لابن المسيّب**» المرادُ به: سعيدُ بنُ المسيّبِ، أحدُ أعلامِ التّابعينَ وأحدُ الفقهاءِ السبعةِ الذين انتهَتْ إليهم الفتوى في زمانِهم، وهو عالِمُ المدينةِ وفقيهُها.

«**رجلٌ به طِب**» يعني: أنّ قتادةَ بنَ دِعامةَ سألَ شَيْخَه سعيدُ بنُ المُسيِّبِ عن رجلٌ به طبٌّ.

والطِّبّ معناه: السِّحْر، يقالُ: مطبوبٌ يعني: مسحورٌ، قالوا: وهذا من بابِ التّفاؤلِ، لأنَّ الطبَّ معناهُ العلاجُ، كما يقولونَ للديغ: سليم، من بابِ التفاؤلِ بالشّفاءِ.

«**أو يؤخّذ عن امرأته**» يؤخّذ: معناه: يُمنع عن جماعِ امرأتِهِ فلا يستطيعُ جماعَها بسببِ السِّحْرِ.

«**أَيُحَلُّ عنه أو يُنشر**» يُحَل وينشَّر بمعنىً واحد، يعني؛ هل يجوزُ أن يحلَّ عن هذا المطبوبِ أو هذا المؤَخّذِ ما أصابه؟.

فأجابه ابنُ المُسيّبِ رحمه الله بقوله: «**لا بأس**» لا بأسَ أَنْ يُحلَّ عنه أو يُنشَّر.

وقوله: «**إنّما يريدون به الإصلاح**» أي: حَلُّ السِّحر يرادُ به الإصلاحُ، بخلافِ السِّحْرِ نفسِهِ فإنّما يُرادُ به الضَّررُ، أما حلّه فيُرادُ به الإصلاحُ وإزالةُ المرضِ عن الإنسانِ.

«**فأمّا ما ينفع فلم يُنْهَ عنه**» أي: أنَّ الشَّارعَ جاءَ بإباحةِ ما ينفَعُ وتحريمُ ما يضرُّ، والنُّشرةُ من القسم الثاني، أي: من الشيءِ النَّافعِ.

وَرُوِيَ عَنِ الحَسَنِ؛ أَنَّهُ قَالَ: (لَا يَحِلُّ السِّحرَ إِلَّا سَاحِرٌ).

قَالَ ابنُ القَيِّمِ: (النُّشرَةُ: حَلُّ السَّحرِ عَنِ المَسحُورِ، وَهِيَ نَوعَانِ:

حَلٌّ بِسِحرٍ مِثلِهِ، وَهُوَ الَّذِي مِن عَمَلِ الشَّيطَانِ. وَعَلَيهِ يُحمَلُ قَولُ الحَسَنِ. فَيَتَقَرَّبُ النَّاشِرُ وَالمُنتَشِرُ إِلَى الشَّيطَانِ بِمَا يُحِبُّ؛ فَيَبطِلُ عَمَلَهُ عَنِ المَسحُورِ[(١)]).

قوله: «**ورويَ عن الحسن**» الحسن هو: ابنُ أبي الحسنِ البصريِّ، أحدُ أعلامِ التّابعينَ بالفقهِ والعلمِ والوَرعِ والعبادةِ - رحمه الله.

وقوله: «**لا يحلّ السِّحر إلّا ساحر**» هذا يتّفقُ معَ الحديثِ ومع قولِ ابنِ مسعودٍ، ويختلفُ مع قولِ ابنِ المُسيّب.

قوله: «**قال ابن القيم: (النُّشرة حلّ السِّحر عن المسحور، وهي نوعان:)**».

جمَعَ ابنُ القيِّم -رحمه الله- بينَ هذا الحديثِ وهذهِ الآثارِ في كتابِهِ: «**زاد المعاد**» فقال: «**وهي نوعان: أحدهما: حلٌّ بسحر مثله وهو الذي من عمل الشيطان، وعليه يُحمل قول الحسن**» يعني: في قولِهِ السابق: «**لا يحلّ السِّحر إلّا ساحر**» وقصده: حَلُّ السحرِ بسِحْرٍ مثلِهِ، وهذه هي النشرةُ التي سُئل عنها رسولُ اللهِ ﷺ.

قوله: «**فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب**» النّاشر هو: الذي يعملُ النّشرةَ. والمنتشرُ هو: الذي تُعْمَلُ له النُّشرةُ، كلٌّ منهما -المريض والسّاحر- يتقرَّبُ إلى الشيطانِ بما يُحبُّه، فيخضعانِ له، فيطيعانِهِ فيما يريدُهُ منهما من الشّركِ والكفرِ باللهِ عز وجل، وفعلِ المُحرَّماتِ، فيُبطِلُ الشيطانُ عملَه عن المَسْحورِ، لأنَّ السِّحرَ من عملِ الشيطانِ، وذلكَ في مقابلِ إفسادِ دينِهم

---

(١) «إعلام الموقعين» (٤/ ٣٩٦).

وعقيدتِهم. فهذا هو الممنوعُ.

فلا يجوزُ لمن أصابَهُ السحرُ أن يذهبَ إلى السحرةِ، لأنّه إذا ذهبَ إلى السَّحَرةِ فإنّه حينئذٍ يتقرَّبُ إلى الشيطانِ بما يُحبُّ، وحينئذٍ يُزيلُ الشيطانُ عملَه عن المَسْحورِ، لكِنْ بعدَما يفسِدُ عقيدتَهُ ودينَهُ، فيخسَرُ الدُّنيا والآخرةَ.

قال الإمامُ ابنُ القيِّمِ: «**والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة؛ فهذا جائز**» أي: النّوع الثّاني من النَّشرةِ: حلُّ السحرِ بغيرِ السِّحرِ ممّا أباحَهُ اللهُ عز وجل، فاللهُ ما أنزلَ داءً إلَّا أنزلَ له دواءً، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ وجَهِله من جهلِهِ، والسحرُ داءٌ ولابدَّ أنَّ اللهَ أنزلَ له شفاءً والرقيةُ المباحةُ أنواعٌ:

النوع الأول: حلُّ السحرِ «**بالرقية**» بأن يُقرأَ على المسحورِ من كتابِ اللهِ عز وجل، فتُقرأُ عليهِ الفاتحةُ التي هي أعظمُ الرُّقى، ويُقرأُ عليهِ الآياتُ التي تتعلّقُ بذكرِ السحرِ وإبطالِه، مثلَ قولِهِ تعالى في سورةِ الأعرافِ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف: ١١٧-١٢٢]، وفي سورةِ يونس: ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [يونس: ٨١-٨٢]، وفي سورةِ طه: ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ [طه: ٦٩].

هذه الآياتُ من سورةِ الأعرافِ ومن سورةِ يونس ومن سورةِ طه، يقرأُها الرّاقي على المسحورِ بقلبٍ حاضرٍ وتوكُّلٍ على اللهِ سبحانه وتعالى، وحسنِ ظنٍّ

وَالثَّانِي: النُّشْرَةُ بِالرُّقيَةِ وَالتَّعَوُّذَاتِ وَالأدوِيَةِ وَالدَّعَواتِ المُبَاحَةِ. فَهَذَا جَائِزٌ).

باللهِ، واعتقادِ أنَّ اللهَ يُشْفي هذا المريضَ.

ثمَّ على المقروءِ عليهِ أَنْ يعتقِدَ هذهِ العقيدةَ؛ فيرجو الشفاءَ من اللهِ، ويثِقُ باللهِ عز وجل، ويتوكَّلُ عليه، ويعتقدُ أنَّ كلامَ اللهِ جلَّ وعلا فيه الشِّفاءُ.

فإذا حَصَلَ هذا التوجُّهَ إلى اللهِ والتوكُّلُ عليهِ من الرَّاقي والمَرْقي حصلَتِ النّتيجةُ بلا شكٍّ ولا رَيْبٍ.

وإنَّما تتخلَّفُ النتيجةُ إذا تخلَّفَ اعتقادُ الإنسانِ، أو غَفَلَ عن ذلكَ.

النوع الثاني: حلُّ السِّحرِ «بالتعوذات»، وهي الأدعيةُ التي وردَتْ عن النبيِّ ﷺ، فإننا نذكرُ بعضاً منها: **«أُعِيذُكَ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ»**[(١)]، **«أُعِيذُكَ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ»**[(٢)]، **«أُعِيذُكَ بِكَلِمَاتِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ، مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَذَرَأَ وَبَرَأَ، وَمِنْ شَرِّ طَوَارِقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحْمَنُ»**[(٣)]، **«بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ مِنْ كُلِّ دَاءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ وَعَيْنِ حَاسِدٍ، اللهُ يُشْفِيكَ»**[(٤)]، **«بِاسْمِ اللهِ، أَذْهِبِ البَاسْ رَبَّ النَّاسْ، وَاشْفِهِ أَنْتَ الشَّافِي لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا»**[(٥)]، **«رَبَّنَا اللهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ، تَقَدَّسَ اسْمُكَ، أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ كَمَا رَحْمَتُكَ فِي السَّمَاءِ، اجْعَلْ رَحْمَتَكَ فِي الأَرْضِ، اغْفِرْ لَنَا حُوبَنَا وَخَطَايَانَا،**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٧١).

(٣) أخرجه مالك في «الموطأ» (١٧٧٣).

(٤) أخرجه مسلم (٢١٨٦).

(٥) أخرجه البخاري (٥٦٧٥) ومسلم (٢١٩١).

أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ، أَنْـزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَى هَذَا المَرَضِ. فَيَبْرَأَ بِإِذْنِ اللهِ»(١). هذه هي التعوّذاتُ.

النوع الثالث: الرقية بـ «الأدوية المباحة» فهناكَ أدويةٌ مباحةٌ يُذهِبُ اللهُ بها السِّحرَ، يعرِفُها الحُذّاقُ وأهلُ التجربةِ وأهلُ العقيدةِ السليمةِ تنفعُ بإذنِ اللهِ في إزالةِ السحرِ، معَ ذكرِ اللهِ، ومع التَّعوّذِ، ومع الرّقيةِ، ومع قراءةِ القرآنِ، فإذا اجتمعَتْ هذهِ الأمورُ المباحةُ نفَعَ اللهُ بها، لكِنْ بشرطِ حسنِ الظنِّ باللهِ عز وجل واعتقادِ أنَّ الشّفاءَ من اللهِ سبحانه وتعالى.

فالحاصل؛ أنَّ النشرةَ كما ذكرَ ابنُ القيِّم: منها شيءٌ محرَّمٌ، وهي النّشرةُ التي كانت تُعملُ في الجاهليّةِ، وهي ما يَعملُهُ السحرةُ.

ومنها شيءٌ مباحٌ وهي النشرةُ الشرعيةُ، لكن يشترطُ لها أَنْ يتولَّاها مَنْ يوثَقُ بعلمِهِ ودينِهِ، لا أَنْ يتولاها أصحابُ المطامعِ الدنيويةِ، أو المشعوذون الذينَ يُفسدونَ عقائدَ الناسِ، ويُرهبونَهم بالكذبِ والتدجيلِ.

* * *

انتهى الجزءُ الأوّلُ

ويليه بإذنِ اللهِ تعالى الجزء الثاني، وأوله:

«باب ما جاء في التطيّر»

* * *

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٩٢).

فهرس الموضوعات